الْجَامِعُ الْمُخْتَصَرُ فِي

تَارِيخُ الْبَشَرِ

مُنْذُ بِدَايَةِ الخَلْقِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة

بداية ونهاية

جَمْعُ وتَلْخيصُ

أبو عُمَر صالِح بن إِبراهيم الشّاميّ القَحْطانيّ

طَبعَة تَجرِيبيّة

١٤٤٧هـ - جُمادَى الآخِرَةِ ٥

نسخة أولية - غير معتمدة للطباعة النهائية

مقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

الحمدُ للهِ الذي خلق السمواتِ والأرضَ بالحق، وقدَّر فيها أقواتها، ورفع بعضَ الخلقِ فوق بعضٍ درجات، والصلاةُ والسلامُ على الأنبياء والمرسلين، الذين كانوا نُورًا للناس في ظلمات الجهل، ودليلًا لهم في طريق الهدى.

أما بعد:

فقد شرعتُ في جمع ونقل هذا المختصر المتواضع في خلق الله ﷻ للسماوات والأرض، وما تتابع بعد ذلك من أحداث عظيمة، تستحق أن تُروى بوضوحٍ يليق بها، دون إغراقٍ يشتّت القارئ أو تعقيدٍ يُنفّره. جمعتُ فيه ما صحَّ من النصوص، وما ثبت من الروايات، وما استقام من أحداث التاريخ، مع مراعاةٍ للاختصار، ليكون هذا العمل مدخلًا مُيسّرًا لمن أراد أن يفهم بدايات الخلق ومسار الأمم. وقد حرصتُ في هذا المختصر أن أعرض المعلومة بأسلوبٍ مباشرٍ لا يطيل ولا يبتعد عن لبّ الموضوع، وأن أرتّب الأحداث ترتيبًا زمنيًا واضحًا، يبدأ من خلق السموات والأرض، وخلق الملائكة والجن، ثم خلق آدم عليه السلام، ثم قصص الأنبياء وما تتابع من وقائع، حتى الوصول إلى تاريخ الدول الإسلامية المتعاقبة، وما مرّت به من قوةٍ وضعفٍ، وفتنٍ وازدهار، ثم علامات الساعة الصغرى والكبرى، وما أخبر به الشرع من مشاهد النهاية. وإني لا أدّعي في هذا العمل الكمال؛ فالكمال لله وحده. وإنما هو جهد مُقِلّ، قصدتُ به جمع أصول المسائل وتلخيص أهم الأحداث، ليكون كتابًا مختصرًا لمن يريد الأساس قبل التفصيل، والجوهر قبل التشعب. وقد بذلت وسعي في توثيق ما استطعت، ومراجعة ما نقلت، فإن وفقتُ فذلك من فضل الله، وإن قصّرتُ فمن نفسي.وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعل هذا العمل نافعًا لمن قرأه، ومفتاحًا لطلب علم، أو مدخلًا لفهم تاريخ كتبه الله لحكمة، وأن يغفر زللي، ويتجاوز عن خطئي، ويكتب لنا ولكل قارئٍ الأجر والقبول. والله المستعان، وعليه نتوكل،

فهرس المحتويات

القسم الأول - بداية الخلق أبتداء ما قبل الخلق إلى وفاة آدم ص1______26

القسم الثاني - الأنبياء واقوامهم أبتداء بـ نوح عليه السلام إلى الخلافة الراشدة ص27______229

القسم الثالث - الدول الإسلامية وأخبارها ذكر خلفاء بني امية ص230_______244

ذكر خلفاء بني العباس والدول الإسلامية في عهدهم ص244_______458

ذكر خلفاء بني عثمان ص458_______602

القسم الرابع - ما بعد سقوط الخلافة إلى أشراط الساعة

أتاتورك و إلغاء الخلافة ص602_______603

مخطط سايكس بيكو ص604_______

وعد بلفور و إحتلال القدس ص605_______606

فصل - اشراط الساعة الصغرى ص606_______622

فصل - اشراط الساعة الكبرى ص622_______630

تمهيد

إنَّ التأمُّل في تاريخ البشريَّة ليس نظرًا إلى حوادثٍ مرَّت وانتهت، بل هو قراءةٌ في أصل الوجود، وفي حركة القدَر، وفي السنن التي تجري على الخلق منذ أن أوجدهم الله إلى أن يرث الأرضَ ومن عليها. ولذلك كان لزامًا – قبل الدخول في فصول هذا الكتاب – أن يُستحضَر أن التاريخ ليس زمانًا يمضي، بل معنىً يبقى، تتكشَّف به الحكمة، وتظهر به العبرة، ويُفهَم من خلاله صراط الله الممتد من أوَّل البشر إلى آخرهم. وهذا العمل الذي بين يديك يقوم على جمع الروايات الثابتة، وموازنة الأقوال المشهورة، وتفسير الوقائع بالأصول الشرعية، ليقدّم للقارئ صورةً واضحة لمسيرة الإنسان: كيف بدأ؟ كيف نزل إلى الأرض؟ كيف تعاقبت الأمم؟ كيف قامت الدول وزالت؟ وكيف تمضي البشرية نحو المشهد الأخير المكتوب لها؟ ولأن تاريخ الخلق يرتبط بالعالَمَيْن: الغيب والشهادة، فهو يتطلَّب قلبًا متجردًا، وعقلاً متأملاً، وفقهاً يجمع بين ما تُخبر به النصوص، وما يُستفاد من آثار العلماء، وما تشير إليه السنن التي لا تتخلف.فلا هو سرد خرافات، ولا هو تحليلٌ ماديٌّ جاف، بل هو قراءة ممتدة في تدبير الله الذي يسوق الأحداث بحكمة، ويربط ماضي البشرية بحاضرها ومستقبلها. لقد جُعل هذا التمهيد ليكون بوابة عبور إلى الكتاب، يهيّئ القارئ لِما سيَرِد بعده من مباحث واسعة، تبدأ من لحظة الخلق الأولى، وتمتد عبر العصور والرسالات والدول، ثم تصل إلى أحداث آخر الزمان وما بعدها.

والمقصود من هذا كله تقريب الصورة الكلية للتاريخ، تلك الصورة التي لا تُدرَك بتجزيء الحوادث، بل بربط أطرافها، والنظر إلى خيط القدَر الممتد بينها. فليدخل القارئُ إلى الصفحات التالية بقلبٍ واعٍ، ونفسٍ باحثة، ورغبةٍ صادقة في الفهم... فإن هذا العلم بابٌ لا ينفع فيه التصفح العابر، بل يستحقّ التأمل والنظر. وبالله وحده نستعين، وعليه نتوكل، ومنه نرجو السداد والقبول.

بسم الله الرحمن الرحيم

القِسمُ الأوَّلُ

بدايةُ الخَلقِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبِه أجمعين. أمَّا بعد: يُعَدُّ باب بدايةِ الخلق من أعظم الأبواب في العلم، وقد جمع اللهُ فيه من الآيات البيِّنات، والأحاديث الصحيحة، ما يوضِّح للعبد أوّل المراحل التي بدأ منها هذا الوجود العظيم، من خلق العرش والماء، وتسوية السماوات والأرض، وكتابة المقادير، إلى خلق الملائكة والجن، ثم خلق أبينا آدم عليه السلام. قبل خلق العرش: قبل خلق العرش ، وقبل خلق السموات والأرض ، وقبل خلق الجهات ، كان الله تعالى ولا شيء قبله ، ولا شيء غيره ، ولا شيء معه ؛ كما روى البخاري.(7418) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ : اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ ، قَالُوا بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا ، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ : اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ ، قَالُوا : قَبِلْنَا ، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ ؟ قَالَ : (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ) . وعَنْ أَبِي رَزِينٍ قَالَ : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ ؟ قَالَ : (كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ) [1] وقد بَيَّن أهل العلم هذه الحقيقة بأوضح بيان، وشرحوا معنى أن الله كان ولا شيء معه، ومن أحسن ما قيل في ذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

---

[1] رواه الترمذي (3109) وابن ماجه (182) وأحمد (15755) والحديث صححه الطبري ، وحسَّنه الترمذي والذهبي وابن تيمية ، وضعفه الألباني في " ضعيف الترمذي " .وقال الترمذي : قال أحمد بن منيع : قال يزيد بن هارون : العماء : أي : ليس معه شيء . وقيل : معنى " عماء " : السحاب الأبيض . فالحاصل : أن الله ﷻ ، تفرد بالأولية ، فلم يكن معه مخلوق في الأزل ، بل كان الله ولم يكن شيء قبله ؛ ثم خلق الخلق فاستوى على عرشه ، كما أخبر في كتابه ، على ما شاء سبحانه ، لا منازع له في ملكه ، ولا شريك له في سلطانه،

كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ثُمَّ خَلَقَ الْعَالَمَ ، فَلَا يَخْلُو : مَّا أَنْ يَكُونَ خَلقهُ فِي نَفْسِهِ ، وَانْفَصَلَ عَنْهُ ، وَهَذَا مُحَالٌ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ مُمَاسَّةِ الْأَقْذَارِ وَغَيْرِهَا. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَلقهُ خَارِجًا عَنْهُ ثُمَّ دَخَلَ فِيهِ ، وَهَذَا مُحَالٌ أَيْضًا تَعَالَى أَنْ يَحِلَّ فِي خَلْقِهِ .وَهَاتَانِ لَا نِزَاعَ فِيهِمَا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . وإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَلقهُ خَارِجًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَلَمْ يَحِلَّ فِيهِ ، فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ ، وَلَا يَلِيقُ بِاَللَّهِ إلَّا هُوَ" " والله جلَّ وعلا له صفات الكمال من كل الوجوه، ومُنَزَّهٌ عن صفات النقص والعيب من كل الوجوه ، كما قال :قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص]، وقال : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11]. انتهى من "مجموع الفتاوى" (5 /152) . خلق العرش: إن أول صفة نذكرها لعرش البارئ سبحانه وتعالى كونه مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى، ذلك لأن كل ما على الوجود هو مخلوق خلقه الله تعالى وأوجده، قال الله تعالى {ذَلِكُمُ الله رَبُّكم لا إلهَ إلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيء} [الأنعام ١٠٢]، فكل شيء في هذا الكون مخلوق والعرش من ضمن هذا الكون فهو مخلوق أيضاً ، وسلف الأمة وأئمتها يقولون: إن القرآن والسنة قد دلا على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله تعالى خلقه وأوجده، قال تعالى {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة ١٢٩] فالعرش موصوف بأنه مربوب وكل مربوب مخلوق، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله. وقد دلت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء[هود ٧] فالآية تدل على أن العرش كان موجوداً على الماء قبل خلق السموات والأرض ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث عمران بن حصين رضي الله عنه الذي جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم العرش مخلوق ، لم يكن ثم كان ، وهو أعظم المخلوقات . قال ابن حزم رحمه الله ، فيما حكاه من " مراتب الإجماع : " اتفقوا أن الله وحده لا شريك له ، خالق كل شيء غيره ، وأنه تعالى لم يزل وحده ، ولا شيء غيرُه معه ، ثم خلق الأشياء كلَّها كما شاء، وأن النفس مخلوقة، والعرش مخلوق، والعالم كله مخلوق قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في تعليقه عليه : " أما اتفاق السلف وأهل السنة والجماعة على أن الله وحده خالق كل شيءٍ فهذا حق.."[2]

---

[2] انتهى من "مجموع الفتاوى" (18/ 214) انتهى من " نقد مراتب الإجماع" (303) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أيضا : " الْعَرْشَ مَخْلُوقٌ ، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ: الْعَرْشُ وَغَيْرُهُ ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ: الْعَرْشُ وَغَيْرُهُ. جمهور أهل العلم على أن العرش أول المخلوقات ، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: " أول ما خلق الله من الأشياء المعلومة لنا هو العرش ، واستوى عليه بعد خلق السماوات، كما قال - تعالى -: (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) بعد بيان تقدّم خلق العرش على خلق السماوات والأرض، نذكر أقوال العلماء في ترتيب أول المخلوقات؟. وقد اختلف العلماء في مسألة ماهو أول شيء خلقه الله ﷻ إلى عدة أقوال : القول الأول: أن القلم أول المخلوقات اختاره ابن جرير الطبري، وابن الجوزي، ومن كتب في "الأوائل" كابن أبي عروبة والطبراني. ودليلهم حديث عبادة بن الصامت: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب...». قال ابن جرير: هذا الحديث يعمّ جميع المخلوقات، ولم يستثنِ عرشًا ولا ماءً. " القول الثاني: أن الماء أول المخلوقات ذكره ابن جرير، ونقله عنه ابن كثير، وذكره ابن حجر. واستدلوا بما روي عن أبي رزين: «إن الماء خلق قبل العرش». وما رواه السدي: «أن الله لم يخلق شيئًا قبل الماء». لكن لا يصح منها ما يدل على الأولية المطلقة. " القول الثالث: أن أول المخلوقات النور والظلمة عزاه ابن جرير لابن إسحاق. لكن لم يسنده إلى أحد، وهو من الأمور التي لا تعرف إلا بخبر صحيح عن الله أو رسوله. " القول الرابع: أن العرش هو أول المخلوقات اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وشارح الطحاوية، ونُسب إلى جمهور العلماء، ومال إليه ابن حجر. واستدلوا بحديث عبدالله بن عمرو: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». فهو يدل على أن التقدير حصل بعد خلق العرش. وحديث عبادة بن الصامت يدل على أن التقدير حين خُلق القلم. فدلّ على أن العرش سابق للقلم. ويؤيده أيضًا حديث عمران بن حصين: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض». [3]

[3] انتهى من "مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (1/ 62)

وهيئة العرش

فقد دلت الأحاديث على أنه مقبب الشكل، وأنه على هذا العالم المكون من السماوات والأرض وما فيهما كهيئة القبة، وهذا ما يدل عليه حديث الأعرابي الذي جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا" ٢، وأشار بأصابعه مثل القبة، ويؤيد وصف هيئة العرش بهذه الصفة ما جاء في الحديث الآخر: "إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلاها، وفوقه عرش الرحمن" فالحديث يبين أن الفردوس أوسط الجنة، وأعلاها، والجنة كما جاء في الحديث الآخر مائة درجة، وما بين كل درجة ودرجة كما بين السموات والأرض، فكون العرش سقفا للفردوس- الذي هو أوسط الجنة وأعلاها- يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير. والعرش له قوائم كما جاء في الحديث الصحيح: "لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش" الحديث.

[4] خلق الماء والقلم وكتابة المقادير: تلحَظُ أَنَّ حديث عبد الله بن عمرو فيه قال «قدر الله مقادير الخلائق» ولما قَدَّرْ -يعني كتب- كان عرشه على الماء. وفي حديث عبادة قال «إن الله أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب» فيقتضي حديث عبادة أَنَّ الأمر بالكتابة كان مُرَتَّباً على ابتداء خلق القلم. وتقدير القَدَرْ كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة والعرش على الماء. فدل حديث عبد الله بن عمرو على وجود تقدير وعلى وجود العرش -خلق العرش- وعلى خلق الماء. ودلَّ حديث عبادة على أَنَّ خَلْقَ القلم تَبِعَهُ قول الله - عز وجل - للقلم أكتب فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة. وهذا الترتيب جاء في حرف الفاء الذي يدل في مثل هذا السياق على أَنَّ هذا بعد هذا دون تراخٍ زمني. ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة في الجمع بين هذين الحديثين هل القلم هو أول المخلوقات أم العرش خُلِقَ قبله على قولين للسلف فمن بعدهم: ١- القول الأول: إنَّ العرش قبل القلم وكذلك الماء قبل القلم كما شرحنا بالبحث السابق والقول الأول هو قول جمهور السلف.

[4] وخلاصة الأمر أن القول بأولية الماء أو النور والظلمة لا يثبت. القول بأن القلم أول المخلوقات محمول على أولية الكتابة أو أولية عالم المخلوقات اللاحق. والراجح: أن العرش أول المخلوقات، وهو الذي دلّت عليه النصوص، وعليه جمهور أهل السنة.

يتبيّن من الأحاديث أن العرش والماء كانا موجودين قبل كتابة المقادير، فقد أخبر النبي ﷺ أن عرش الرحمن كان على الماء، وهذا يدل على تقدّمهما على خلق العالم.

وأما حديث: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب» فليس المقصود به أوّل المخلوقات مطلقًا، بل إن أول ما خُلق مما يتعلّق بكتابة المقادير هو القلم، لأنه خُلق ثم أُمر بالكتابة فورًا، فكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة. وعند جمع النصوص يتضح أن الكتابة كانت بعد وجود العرش والماء، وأنّ القلم إنما تعلّق بهذ العالم المخلوق – عالم السموات والأرض وما يجري فيه – فكتب ما قدّره الله له. وأما العرش والماء فهما ليسا من هذا العالم السفلي، بل كانا قبل خلقه، ولهذا فُهم أن أوّلية القلم هي أولية خاصة بما كُتب لهذا العالم، لا أولية مطلقة لجميع الخلق. وقد لخّص ابن القيم رحمه الله هذه المسألة، وبيّن أن العرش كان موجودًا عند كتابة المقادير، وأنه ذو أركان، مما يدل على تقدّم خلقه على القلم، وأن هذا هو الموافق للنصوص ولما عليه جمهور أهل العلم، وأن الله سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وخلق عوالم قبل هذا العالم، وله الأمر كله. فالحاصل العرش أول المخلوقات، والماء تحته، ثم خُلق القلم فأُمر فكتب ما سيكون إلى قيام الساعة، وهذا هو الذي تجتمع عليه الأدلة ولا يتعارض معه شيء والله سبحانه له الأمر كله يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه وتعالى في غير ما آية من القرآن. وقد اختلف المفسرون في مقدار هذه الستة الأيام إلى قولين: فالجمهور: على أنها كأيامنا هذه. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وكعب الأحبار: إن كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواهن ابن جرير، وابن أبي حاتم. واختار هذا القول الإمام أحمد ابن حنبل في كتابه الذي رد فيه على الجهمية، وابن جرير وطائفة من المتأخرين، والله أعلم، وسيأتي ما يدل على هذا القول. وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم، وغيره أن أسماء الأيام الستة (أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت). وحكى ابن جرير: في أول الأيام ثلاثة أقوال، فروى عن محمد بن إسحاق أنه قال: يقول أهل التوراة: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد. ويقول أهل الإنجيل: ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين. ونقول نحن المسلمون فيما انتهى إلينا عن رسول الله ﷺ: ابتدأ الله الخلق يوم السبت. وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية، وغيرهم. وسيأتي فيه حديث أبي هريرة « خلق الله التربة يوم السبت » والقول بأنه الأحد رواه ابن جرير، عن السدي، عن أبي مالك. وأبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن جماعة من الصحابة. ورواه أيضًا عن عبد الله بن سلام، واختاره ابن جرير وهو نص التوراة.

ومال إليه طائفة آخرون من الفقهاء. وهو أشبه بلفظ الأحد ولهذا، كمل الخلق في ستة أيام فكان آخرهن الجمعة فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع، وهو اليوم الذي أضل الله عنه أهل الكتاب قبلنا كما سيأتي بيانه إن شاء الله. وقال تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . وقال تعالى { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } . وكما ذكر ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية عن الآية قال: فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء، كما قال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[5] وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتَانِي جِبْرِيلُ - عليه السلام - وَفِي كَفِّهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ، فِيهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟، قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ، يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ - عز وجل - لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا، وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، تَكُونُ أَنْتَ الْأَوَّلَ، وَيَكُونُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ، قُلْتُ: مَا لَنَا فِيهَا؟، قَالَ: لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، لَكُمْ فِيهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا رَبَّهُ - عز وجل - فِيهَا بِخَيْرٍ هُوَ لَهُ قَسْمٌ، أَعْطَاهُ اللهُ - عز وجل - أَوْ لَيْسَ لَهُ بِقَسْمٍ، إِلَّا ذُخِرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، أَوْ تَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ شَرٍّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ، إِلَّا أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الْآخِرَةِ: يَوْمَ الْمَزِيدِ .. ". وقال عليه الصلاة والسلام: "أَضَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنَا فَهَدَانَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ لَنَا تَبَعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ". وَكَانَ الْيَهُودُ إِنَّمَا اخْتَارُوا السَّبْتَ، لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ، ثم زادوا لكفرهم أَنَّ اللهَ اسْتَرَاحَ فِيهِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ،

[5] [البقرة: 29] - [فصلت: 9 - 12] - [غافر: 64]

لِأَنّ بَدْءَ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ الْأَحَدُ، وَآخِرَ الستة الأيام الّتِي خَلَقَ اللهُ فِيهَا الْخَلْقَ الْجُمُعَةُ، وَهُوَ أَيْضًا مَذْهَبُ النّصَارَى، فَاخْتَارُوا الْأَحَدَ، لِأَنّهُ أَوّلُ الْأَيّامِ فِي زَعْمِهِمْ، وَقَدْ شَهِدَ الرّسُولُ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِلْفَرِيقَيْنِ بِإِضْلَالِ الْيَوْمِ، وَقَالَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: "إنّ اللهَ خَلَقَ التّرْبَةَ يَوْمَ السّبْتِ"، فَبَيّنَ أَنّ أَوّلَ الْأَيّامِ الّتِي خَلَقَ اللهُ فِيهَا الْخَلْقَ السّبْتَ، وَآخِرَ الْأَيّامِ السّتّةِ إذًا الْخَمِيسُ. والأسبوع عرف بإخبار الأنبياء أن الله خلق هذا العالم في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع. وهو ما يقوم به المعاش ويصلح به التدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض. وعند مسلم: (وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ). ولا ينافيه لأن كلّاً منهما خُلق فيه. وبعضهم فسر المكروه بالشر، وبعضه مثّل للمكروه بالظلام و الأمراض والسموم وكل ما يؤلم. وفي رواية (النون) بدل النور، ومعناه: الحوت، ويحتمل أن يكون كلاهما خُلقا يوم الأربعاء، والله سبحانه أعلم." "حديث خلق التربة يوم السبت. رواه مسلم في صحيحه، والنسائي في "السنن الكبرى" في كتاب التفسير، وأحمد في المسند، ورواه غيرهم، وصححه الشوكاني والألباني. وقد تكلّم البخاري وغيره من أئمة الحفاظ في هذا الحديث، وبيّنوا أنه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ، كما أُعلَّ متنه عند بعضهم؛ لما ظهر لهم من مخالفته لظاهر القرآن في أن خلق السماوات والأرض وما بينهما كان في ستة أيام، بينما ظاهر الحديث يقتضي أن مدة تخليق الأرض وحدها سبعة أيام، ولم يذكر فيه خلق السماء. ويزول هذا الإشكال ببيان أن الحديث إنما يتحدث عن تفصيل ما جرى في الأرض بعد خلقها، لا عن أصل خلق السماوات والأرض، وبذلك يجتمع الحديث مع نصوص القرآن، إذ لا تعارض بين إجمال القرآن وتفصيل السنّة. فالحديث يذكر أعمالًا أُجريت على الأرض في سبعة أيام، بينما القرآن يذكر مدة الخلق الكلية وهي ستة أيام. كما أن ذكر النور في اليوم الخامس، والدواب في اليوم السادس، يفيد الإشارة إلى وجود السماء وما فيها من الأجرام المضيئة، إذ لا تستقيم حياة الدواب بلا حرارة ونور. وخلق الأرض في أربعة أيام – كما في القرآن – لا ينافي أن يجري الله فيها بعد ذلك من التكوين والتقدير ما شاء، إذ لا يشغله شأن عن شأن[6]

[6] وللاستزادة يُنظر: السلسلة الصحيحة للألباني (2/ 726) رقم (1833)، وإزالة الشبهة عن حد التربة لعبدالقادر السندي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (49)، ص 29.

خلق الملائكة: قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)} وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» أخرجه مسلم (١). الله تبارك وتعالى خالق كل شيء: خلق السموات والأرض، وخلق الليل والنهار، وخلق ما نراه وما لا نراه من الأجسام والأرواح. خلق الدنيا والآخرة، وخلق الإنس والجن، وخلق الملائكة والروح، وخلق الأبدان والعقول. والملائكة خلق عظيم من خلق الله، خلقهم الله من نور، وجبلهم على الطاعات. والملائكة خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله وحده، وهم كغيرهم متفاوتون في الخلق والصفات والأعمال. وعالم الشهادة يسيره الله بالأسباب الظاهرة، وعالم الغيب يسيره الله بالملائكة. والملائكة من حيث الرتبة عباد مكرمون، عابدون لله، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء. وهم من حيث العمل، يعبدون الله ويسبحونه: {وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)}. وهم من حيث الطاعة، منحهم الله عزَّ وجلَّ الانقياد التام لأمره، وأعطاهم وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}. [خلقت الملائكة من نور] ٥- وعن عائشة - رضي اللَّه عنها- قالت: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «خلقت الملائكة من نّور، وخلق الجانّ من مارِج من نار، وخلق آدم ممّا وصف لكم» . رواه مسلم. الجان: الجن.

والمارج: اللَّهب المختلط بسواد النَّار. قال العلّامة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز رحمه اللَّه: الإيمان بالملائكة يتضمّن الإيمان بهم إجمالا وتفصيلا؛ فيؤمن المسلم بأن لله ملائكة خلقهم لطاعته ووصفهم بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. . . وهم أصناف كثيرة؛ منهم الموكلون بحمل العرش، ومنهم خزنة الجنَّة والنّار، ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد. ونؤمن على سبيل التفصيل بمن سمّى اللَّه ورسوله منهم كجبريل وميكائيل ومالك خازن النَّار وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور.

٦ - «وثبت في بعض أحاديث المعراج أنه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم رفِع له البيت المعمور الذي هو في السماء السابعة، وقيل: في السادسة بمنزلة الكعبة في الأرض، وهو بِحيالِ الكعبةِ حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم» . ٧ - وعن عائشة - رضي اللَّه عنها- قالت: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم: «ما في السماء موضع قدمٍ إلّا عليه ملكٌ ساجدٌ أو ملك قائم، فذلك قول الملائكة» : {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ - وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}[7] ٨ - روى الطبراني عن جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّمَ: «ما في السّماوات السبع موضع قدمٍ ولا شِبر ولا كفّ إلّا وفيه ملكٌ قائم أو ملك ساجد أو ملك راكِع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك! إلّا أنّا لم نشرك بِك شيئا» . - ٩ - وعن جابرٍ - رضي اللَّه عنه- قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّه عليْهِ وسَلَّمَ: «أذن لي أن أحدِّث عن ملك من ملائكةِ اللَّه من حملة العرشِ، ما بين شحْمة أذنه إلى عاتِقِهِ مسيرة سبعمائةِ عام» . رواه أبو داود والبيهقي في "الأسماءِ والصِّفاتِ" والضِّياء في "المختارة".
فمن سادتِهم جبرائيل عليه السلام، وقد وصفه اللَّه تعالى بالأمانة وحسن الخلق والقوة، فقال تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى - ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى}

---

[6] [7] - رواه البخاري كتاب بدء الخلق (٦ / ٣٠٢) (رقم: ٣٢٠٧) ، ومسلم كتاب الإيمان (١ / ١٤٩) (رقم: ١٦٤) . وورواه مسلم (١ / ١٤٥) (رقم: ٢٥٩) من طريق ثابت البناني عن أنس عن النبي صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم.

[٧]رواه محمد بن نصر وابن أبي حاتم وابن جريرٍ وأبو الشيخ. صحيح- رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب " الصلاة " (١ / ٢٦٠) ، وابن جرير الطبري في "التفسير" (٢٣ / ١١١، ١١٢) ، وأبو الشيخ في " العظمة " (٣ / ٩٨٤) (رقم: ٥٠٨) كلهم من طريق الفضل بن خالد أبو معاذ النحْوي حدثنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك رحمه اللَّه في قوله: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ - وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} قال: كان مسروق بن الأجدع يروي عن عائشة أنها قالت: قال نبي اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسَلَّم. . . الحديث.

وفي إسناده الفضل بن خالد لم يوثقه إلا ابن حبان، وللحديث شواهد من حديث أبي ذر، وقد تقدم برقم (١٥) . وانظر " العظمة " لأبي الشيخ (٣ / ٩٨٢ - ٩٨٦) ، وكتاب " الصلاة " للمروزي و " السلسلة الصحيحة " (رقم: ١٠٥٩) . ٨ رواه الطبراني في "الكبير" (٢ / ٢٠٠) (رقم: ١٧٥١) من طريق عروة بن مروان، والمروزي في "تعظيم قدر الصلاة" (١ / ٢٦٧) ، من طريق زكريا بن عدي كلاهما عن عبيد اللَّه بن عمرو بن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر. قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١ / ٥٢) : وفيه عروة بن مروان. قلت: تابعه زكريا بن عدي عند المروزي.

ويشهد له الحديث السابق وغيره.

ومن شدة قوته أنه رفع مدائِن قوم لوط عليه السلام - وكن سبعا - بمن فيهن من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف، وما معهم من الدوابِّ والحيوانات، وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات، على طرف جناحه، حتّى بلغ بِهِن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح دِيكتِهِم، ثمّ قلبها فجعل عاليها سافلها. فهذا هو شديد القوى.[8] ذكر قبل خلق آدم قال جدع بن سنان الحميرى وهو أحد أبناء أقيال اليمن: أجمع أهل التاريخ أن الله عزّ وجلّ خلق قبل آدم عليه السلام أمما: منهم الحنّ والبنّ والطمّ والرمّ، وأنّهم أفسدوا فى الأرض فأرسل الله تعالى إليهم ملكا فقاتلهم حتى بلغ الدم إلى لبب الخيل، ولم يذكروا صفة خلقهم غير أنّ هذا كلام يدلّ على أنّهم ليسوا بأرواح عرية عن أجسام كالملائكة والجنّ بل أجسام مركّبة فإنّ الدم لا يكون إلاّ فى جسد مركّب. وقد أوردنا فى هذا التأريخ عن عامر بن شراحيل الشعبي رحمه الله فصلا ذكره عند عودته من عند ملك

الروم (٢٠٦) لمّا كان توجّه رسولا من قبل عبد الملك بن مروان وهو: قال الشعبى رحمه الله، وقد تقدّم القول فى اسمه ونسبه: بعثنى عبد الملك بن مروان رسولا إلى ملك الروم فلمّا وصلت إليه وأقمت عنده جعل لا يسألنى عن شئ إلاّ أجبته، وكانت الرسل من قبل لا تطيل الإقامة

عنده، قال: فحبسنى عنده أيّاما كثيرة حتى استحنت خروجى وسألته فى ذلك مرارا وهو لا يكاد ينعم لى بذلك، فلمّا أذن لى بالانصراف قال لى: أمن أهل بيت الملك أنت؟ قلت: لا! ولكنّى من العرب فى الجملة، قال: فهمس بشئ فدفعت إلىّ رقعة مختومة وقال لى: إذا أدّيت الرسائل إلى صاحبك فأوصل إليه

---

[8] وقوله: ذو مِرة، أي: ذو خلقٍ حسنٍ وبهاءٍ وسناءٍ وقوة شديدة. قال معناها ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -. وقال غيره: ذو مرة، أي: ذو قوة. وقال تعالى في صفته: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ - ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ - مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} أي: له قوّة وبأس، شديد وله مكانة ومنْزلة عالية رفيعة عند ذي العرش {مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} أي: مطاع في الملأ الأعلى أمِينٍ ذي أمانة عظيمة، ولهذا كان هو السفير بين اللَّه وبين رسلِه. ٩ - صحيح- رواه أبو داود كتاب السنّة (٤ / ٣٣٢) (رقم: ٤٧٢٧) ، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٨٤٦) من طريق إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللَّه به. ورواه أبو نعيم (٣ / ١٥٨) عن جابر وابن عباس نحوه وفيه زيادة.
قال أبو نعيم: حدثنا عبد اللَّه بن خالد المكي ابن عبدان حدثنا سعيد بن محمد حدثنا جعفر بن عمر حدثنا محمد بن عجلان عن محمد عن جابر وابن عباس. وللحديث شاهد من حديث أنس، رواه الطبراني في "الأوسط" (٢ / ٤٢٥) . وصححه الحافظ في "الفتح" (٨ / ٦٦٥) . أنظر "السلسلة الصحيحة" رقم (١٥٠، ١٥١) .

هذه الرقعة، قال: وجهّزنى بأحسن جهاز وأنعم علىّ بشئ كثير وتوجّهت من عنده مكرّما، فلمّا وصلت إلى عبد الملك بن مروان وأدّيته الرسائل وأنسيت (١) الرقعة فى طىّ عمامتى وخرجت من عنده فلمّا صرت فى بعض الدهليز أريد الخروج تذكّرتها فرجعت إليه وأوصلتها له، فلمّا قرأها قال لى: يا شعبى أقال لك قبل أن يدفعها إليك شيئا؟ قلت: نعم! قال لى: أمن أهل بيت المملكة أنت؟ فقلت: لا! ولكنّى من العرب فى الجملة، ونسبنى فانتسبت إلى قومى حمير، فقال: ملوك قد انقرضوا، ثم دفع لى هذه الرقعة بختمها كما رآها أمير المؤمنين، قال: أتدرى ما فيها؟ قلت: لا وحياة أمير المؤمنين! قال، فدفعها إلىّ فإذا فيها مكتوب: عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره، فقلت: والله لو علمت ما حملتها وإنّما قال ذلك ولم يرك ولا أحد من أهل بيتك! قال: أفتدرى لم كتبها؟ قلت: لا! قال: حسدنى عليك وأغرانى بقتلك، قال، فبلغ ذلك ملك الروم (٢٠٧) فقال: والله ما أردت إلاّ ما قال! قال الشعبى رحمه الله: ثم إنّ عبد الملك سأل منّى بعد ذلك المجلس ما كان سبب احتباسى عند ملك الروم وعمّا كان يتحدّث به معى فى مدّة إقامتى عنده، فقلت: كان يخوض معى فى كلّ بحر غويص من كلّ فنّ ويدقّق علىّ المسائل فأخرج له منها بمعونة الله تعالى وبركة أمير المؤمنين، وسألنى عن قومى، فانتسب إلى حمير، فقال: ملوك من ولد سام بن نوح ونحن معاشر الروم من ولد يافث ابن نوح، ثم قال: هل تعلمون معاشر المسلمين أنّ الله تعالى خلق خلقا قبل آدم أبى البشر؟ فقلت: يورد أنّه عزّ وجلّ خلق خلقا عديدا لا يحصيهم غيره منهم: الحنّ والبنّ والطمّ والرمّ والجنّ، وذكرت له ما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار، قال: فهمس بشئ لا أفهمه فأحضر كتاب عتيق بخطّ لا أفقهه وأحضر شيخا مبجّلا عنده فأمره بقراءته علىّ فأجده تأريخا يتضمّن بدء الأشياء كلّها بكلام غريب لم أسمع بمثله فى الإسلام، وذكر قصّة الحنّ والبنّ والطمّ والرمّ، فقال عبد الملك: فكيف سمعت؟ قال، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين:

قال: إنّ الله عزّ وجلّ خلق قبل آدم عليه السلام أبى البشر وصاحب الذريّة الوارثون الأرض من الأمم المخلوقة بعظمة الخالق: الحنّ فكان شخصا ذكرا بديع الخلق من عنصر ليس كالعناصر الأربع فكان أصغر ما فى خلقه قدمه التى يسعى بها فكان مسيرة أثرها سبعة أيّام للراكب المجدّ ليلا ونهارا، وكان ظلّه فى عين الشمس إذا ساوت سمت رأسه مسيرة شهر كامل للراكب المجدّ فى سيره ليلا ونهارا، (٢٠٨) وكان خلقه جسد شفاف دموى بين البياض والحمرة يصيف بالمشرق ويشتى بالمغرب، وكانت البنّ على خلقه من صفته وعظمه أنثى وركّب فيهما حبّ الشهوة فتزاوجا فكان من

نسلهما عنق وعنقاء وولد عنق بالمشرق وعنقاء بالمغرب وهى عنقاء مغرب المذكورة، ثم كان من نسل عنق وعنقاء عوج ابن عنق، قال: وكثر فسادهم فى الأرض وطالت أزمنتهم ودهورهم ما شاء الله تعالى من ذلك.وكانت الملائكة تنزل إلى الأرض ويرونهم ويكلّمونهم فسطوا بشرّهم على الملائكة فشكوهم إلى الله عزّ وجلّ فخلق الله تعالى الطمّ والرمّ من عنصر ضدّا لذلك العنصر الذى خلق منه الحنّ والبنّ وذلك ما اقتضته الحكمة الإلهيّة ذات الاختراع، فكانا كصفتى طائر بن عظيمين إذا نشرا جناحيهما سدّا المشرق والمغرب، وخلق مخاليبهما من نار السموم، وسلّطهما على الحنّ والبنّ فقتلاهما وذريّتهما ولم يبق فى الأرض منهم غير عنقاء مغرب وولدها عوج، وذلك لمّا عاينا ما نزل بقومهما تابا إلى الله عزّ وجلّ وكفّا عن الفساد، وكانت العنقاء لها عشرة أوجه كوجوه بنى آدم من أحسن الخلق وكان لها أربعين جناحا مكلّلة بأنواع الجواهر واليواقيت، وإذا حلقت فى فلك الهوى (١) يسمع لها دويّا كأعظم ما يكون ومن اللذّ (٢) سماع يكون وكان لها فهما وعقلا تدرك بهما الأشياء، فلمّا سمعت تسبيح الملائكة فى فلك القمر تعلّمته فكانت تسبّح الله تعالى كتسبيح الملائكة بألذّ نغمة وأطيب حسّا وأطرب صوتا، قال: فمكثت فى الأرض إلى عهد سليمان بن داود عليه السلام. (٢٠٩) وأمّا عوج فاستقرّ فى الأرض وكان من نسله الجبّارين، وكان فى عظم جدّه الحنّ بغير أجنحة، ولمّا كان الطوفان عاد يمشى فيه ويخوضه وهو إلى حقويه ويحاذى السفينة ويقول لنوح عليه السلام: يا عمّ أترانى أغرق قصيعتك هذه. قلت: هذا ما ذكره جدع بن سنان فى تأريخه بإسناده إلى الشعبي لما ذكرناه، وهو حديث غريب لم أرى أحد من المؤرّخين ذكره على هذا الوجه، وإنّما المذكور من قصّة عوج أنّه ابن عناق وأجمعوا أنّ عناق ولدتها حواء من آدم عليه السلام فوضعتها مشوّهة الخلق لها رأسان وفى كلّ يد عشرة أصابع وأنّها ولدتها بمفردها بغير توأم معها، وقد روى عن الإمام علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنّه قال: هى أوّل من بغا وعمل بالفجور وجاهر بالمعاصى، واستخدمت الشياطين وصرّفتهم فى وجوه السحر، وقد كان الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام عوده وأسماء تطيعه بها الشياطين والمردة وأمره أن يدفعها لحواء تعلّقها عليها ويكون ذلك حرزا لها، ففعلت ذلك حواء فاعتقلتها عناق وهي نائمة

فأخذتها منها واستجلبت بها الشياطين والعتاة من المردة، وصرّفت ذلك فى أنواع السحر وأضلّت كثيرا من ولد آدم عليه السلام، قال: فدعى عليها آدم عليه السلام فأرسل الله تعالى عليها أسدا عظيما فأهلكها.

وأجمع جماعة من المؤرّخين أنّ عوج ولدها وأنّ الطوفان بلغ بعض جسده وأنّه عمر إلى زمان موسى بن عمران عليه السلام وأنّه قطع صخرة قدر عسكر موسى عليه السلام وكانوا (٢١٠) فى أكثر من مائتى ألف وأراد أن يطرحها عليهم، فأرسل الله تعالى طائرا فنقر تلك الصخرة فنزلت فى عنقه ولم يفارق حتى أتاه موسى عليه السلام فضربه بعصاه فى بزّ كعبه، وقيل: كانت العصاة سبعة أذرع وطول موسى عليه السلام سبعة أذرع وطاح فى الهواء سبعة أذرع حتى لحق بزّ كعبه فضربه فقتله.

قال جدع بن سنان لما أسنده إلى الشعبى رحمه الله فى تتمّة قصّة الحنّ والبنّ والطمّ والرمّ والجنّ وما أضاف إلى ذلك من ذكر الزهرة وإبليس وهاروت وماروت: ولمّا كثر فساد الحنّ والبنّ فى الأرض وأرسل الله عليهما الطمّ والرمّ وأمرهم بقتل الحنّ والبنّ فقتلوهم قتلا ذريعا عامّا حتى إنّ الأرض اسودّت من دمائهم وكانت من قبل أشدّ بياضا من الكافور وأطيب رائحة من المسك إذا كانت بكرا لم يعصى الله تعالى عليها قطّ قبل الحنّ والبنّ ولمّا أهلكهم الله بفسادهم وشرورهم استقرّ فى الطمّ والرمّ وتوالدوا وكثر نسلهم وأقاموا فى الأرض ما شاء الله تعالى من الأزمنة والدهور، فأفسدوا وكثر شرّهم وعصوا وفعلوا كأقبح من فعل الحنّ والبنّ، فشكاهم الملائكة إلى خالقهم نخلق تعالى الجنّ من مارج من نار وأمرهم بهلاك الطمّ والرمّ ففعلوا، واستقرّت الجنّ فى الأرض مع عدّة مخلوقين لا تدرك فأفسدت الجنّ أيضا فى الأرض وبغا بعضهم على بعض وغارت القبائل منهم عليهم وكانت بينهم حروب وقتال وقتل وزاد الأمر فأهبط الله تعالى إليهم إبليس وجعله ملكا فى الأرض وأمره بقتال الجنّ وقتلهم (٢١١) فقاتلهم وقتلهم قتلا ذريعا وأخلى منهم العامر من الأرض وأسكنهم خرابها لما نذكر من ذلك إن شاء الله تعالى. ذكر إبليس والزهرة وهاروت وماروت من تأريخ جدع بن سنان قال جدع بن سنان: إنّ إبليس من خلق الجنّ من مارج من نار، وكان عظيم الخلق حسنه وكان يسكن الأرض، وسبب اتّصاله بمحلّ الملائكة أنّه كان خادما للزهرة، وكانت الزهرة خلقا حسنا فى الأرض من جملة مخلوقات الله عزّ وجلّ، وكانت أنثى ذات جمال فائق ونور ساطع وبهاء وافر، وكانت الحروب يومئذ بين قبائل الجنّ متّصلة، فلمّا قال الله تعالى للملائكة: {إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»} (١)، وقرئت: «خليقة» قالوا:

{أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ»} (٢)، بناء لما فعله الحنّ والبنّ والطمّ والرمّ والجنّ. قلت: هذا ما ذكر فى هذا التأريخ الغريب إذ قصدنا نورد هاهنا ما تضمّنه من القول وإنّما سأذكر من ذلك ما استخرجته من الصحيحين، وما ورد من تفسير هذه الآية من الوجوه الحسنة وذلك فى أوّل الجزء الثانى منه عند ذكرنا لخلق آدم عليه السلام، ومنها ورد هاهنا فهو جمع لما قالوه جماعة من المؤرّخين. قال جدع بن سنان رحمه الله: فقال الله تعالى وهو أعلم بما يكون وبما كان وما هو كائن: فاختاروا أيّتها الملائكة من بينكم من ينزل إلى الأرض فيحكم بين مخلوقاتى ويأخذ القصاص ممّن بغا من بغى عليه فإنّى لا أحبّ الظلم وأنا القوى العزيز! قال: فاختاروا من بينهم الملكين هاروت وماروت، وكانا أشدّاء أهل السموات السبع عبادة

وأكثرهم (٢١٢) تسبيحا وتقديسا. فكانا ينزلان إلى الأرض فيحكمان فيها بين مخلوقات الله عزّ وجلّ على اختلاف أنواعهم وتغاير أجناسهم وتباين خلقهم من عدّة أمم لا تحصى وخلائق لا تدرك فى البرّ والبحر، الجميع يفدون على هاروت وماروت ويحتكمون إليهما من خلق البرّ والبحر حتى إنّ الذرّة لتأتى إليهما وتقول: إن الذرّة مثلى غدت على قوت لى كنت قد ادّخرته لمشتاى فيحكمان بينهما بما ألهمها الله تعالى من فصل الخطاب، حتى إنّ السمكة الصغيرة تستغيث بهما من أذاء الكبيرة فيغيثاها ويمنعاها من أذاءها. ولا يزالا كذلك طول نهارها إلى آخره فإذا جنحت الشمس للغروب نهضا وقالا: سبحانك اللهم وبحمدك، فيكون ذلك منتهى حكمهما ذلك اليوم، ثم يتليان أسماء الصعود فيصعدان إلى محلّ عبادتهما. قال: فركّب الله تعالى فيهما حبّ الشهوة وأتت الزهرة تستغيثهما من حادث حدث عليها فامتحنا بها لمّا عايناها وعادا يردّدانها فى حكومتها ذلك اليوم أجمع وقد اشتغلا بها عن سائر الحكم بين الخلائق ولم يحكمان ذلك اليوم بين أحد من خلق الله عزّ وجلّ حتى نصراها على غريمها ومالا على غريمها وحكما عليه بغير الحقّ. قال جدع بن سنان: فلمّا كان وقت صعودهما قالت لهما الزهرة وقد تحقّقت ميلهما إليها: لو علّمتمانى الأسماء حتى كنت أصعد معكما ولا أفارقكما، قال:

فإنّى قد علمت مراد كما، قال: فعلّماها الأسماء، وكان إبليس قائمًا معها فاسترق الأسماء وسبقها صعودا ثم تبعته، فمسخت كوكبًا فى السماء الثالثة وذلك كان مكان محلّ عبادة هاروت، وصعد إبليس إلى محلّ عبادة ماروت فى السماء الدنيا وتقرّب بالعبادة والتسبيح والتقديس حتى تعجّبت منه ملائكة (٢١٣) السماء الدنيا فاشتاق إليه أهل السماء الثانية فطلع وصعد إليهم وفعل من الاجتهاد فى العبادة فوق ما فعله فى السماء الدنيا، فاشتاق إليه أهل السماء الثالثة فصعد إليهم وفعل كذلك، ولم يزل يتقرّب بالعبادة وكثرة التسبيح والتقديس حتى سمّى طاؤوس الملائكة وعاد قريب القدرة ونديم الحضرة وعلم بإرادة الله عزّ وجلّ وبما سبق له فى غامض علمه الذى لا يعلمه سواه جميع المخلوقات فى السموات السبع والأرضين السبع. قال جدع بن سنان: (١) فلمّا كثر فساد الجنّ فى الأرض لما تقدّم فى ذلك من القول وقد ذكرت الهند والفرس واليونان فى كتبهم-من رواية المسعودى رحمه الله-قال: إنّ الجنّ كانوا أحد وعشرين قبيلة وإنّ بعد خمسة آلاف سنة من خلقهم ملكوا عليهم سبعة ملوك وجعلوا لكلّ يوم وليلة من أيّام الجمعة لملك من السبعة يحكم فيه عليهم بما شاء لحكم الملوك. قال الإمام فخر الدين الرازى المعروف بابن خطيب الرىّ رحمه الله: هؤلاء الملوك السبعة حكّام الأيّام السبعة خدّام الكواكب السبعة وهم من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، فيوم الأحد الحاكم فيه شمهورش، ويوم الاثنين الحاكم فيه برقان الأعظم، ويوم الثلاثاء الحاكم فيه زوبعة، ويوم الأربعاء الحاكم فيه ميمون السحابى، ويوم الخميس الحاكم فيه الأبيض، ويوم الجمعة الحاكم فيه الأحمر، ويوم السبت الحاكم فيه المذهب. وقيل غير ذلك فى تنقّل الأيّام بين هؤلاء الملوك السبعة، والمتفّق عليه أنّ أسماءهم هذه، ومنهم من قال إنّهم جميعهم من أولاد إبليس ومنهم من قال إنّهم ملوك الجنّ من قبل هبوط إبليس إليهم وإنّ إبليس قاتلهم وأجلاهم (٢١٤) عن العامر من الأرض وأسكنهم خرابها. وأمّا الزهرة فمسخت كوكبًا حسبما ذكرنا، وأمّا هاروت وماروت فإنّهما لمّا علّما الزهرة وإبليس الأسماء سلباها وعلما أنّهما قد عصيا فسألا الله عزّ وجلّ عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة فهما يعذّبان بأرض بابل، ويعلّمان الناس السحر كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز:
{وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ»{

قال المسعودي رحمه الله: (١) ثم كانت بين الجنّ اختلاف وغارات بين القبائل وعادت بينهم حروب ووقائع وفساد كثير، قال: وكان إبليس من خلقهم وكانت له عدّة أسماء على اختلاف لغاتهم، واسمه بالعربيّة الحارث وكنيته أبو مرّة، ومرّة هذه هى أوّل مولود ولد له فى الأرض على ما ذكره المسعودي، وسنذكر ما قاله غيره بعد ذلك، وقال: وكان اسمه فى السماء عزازير، ولم يكن فى الجانّ أعظم من خلقه ولا أشدّ بطشا ولا أعظم طاقة، وكان يصعد إلى السماء ويقف فى صفوف الملائكة ويجتهد فى العبادة فلمّا بغا بعض الجنّ على بعض وكانت بينهم تلك الحروب أهبط إلى الأرض بإذن الله تعالى فى جند من الملائكة فقتل من الجنّ قتلا ذريعا وهزمهم إلى خراب الأرض وجعل ملكا من قبل الله عزّ وجلّ على الأرض يحكم بين خلقه من الجنّ بأمر الله وخافوه سائر قبائل الجنّ، وأقام فى الأرض ملكا ما شاء الله عزّ وجلّ من الدهور. وكان يصعد لمحلّ عبادته ليعبد الله تعالى ويهبط إلى الأرض لمحلّ ملكه، ولم يزل كذلك حتى بلى بمحنة آدم عليه السلام لمّا تجبّر وطغا وتمرّد، وكان من امتناعه من السجود لآدم صلوات الله عليه ما أخبرنا الله تعالى عنه فى كتابه العزيز على لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه وسلم لما نذكر من ذلك فى موضعه. قال المسعودى: فأهبط إلى الأرض بعد قصّته مع آدم عليه السلام فى أقبح صورة وأشدّ تشويها فأنكره جميع قبائل الجنّ واستوحشوه واستبشعوه وامتنعوا عليه من الطاعة له فلمّا رأى ذلك سكن البحر المحيط وجعل له عرشا على الماء وألقى عليه (٢١٧) حبّ الشهوة وعاد لقاحه كلقاح الطير وله بيض يحضنه كما يحضن الطير، ورزق من الأولاد خلق كثير وهم الذين فى طاعته لوسوسة بنى آدم.رقلت: هذا ما رواه المسعودى رحمه الله، ولنذكر الآن ما رواه فى هذا الفصل الشيخ جمال الدين ابن الجوزى رحمه الله فإنّه فصل حسن.

(١) قال ابن الجوزى رحمه الله: اختلفوا فى اشتقاقه، قال علماء التفسير: اشتقاق إبليس من الإبلاس وهو الإياس وإبليس يأس من رحمة الله، وقال الجوهرى: (٢) يقال: أبلس فلان إذا سكت غمّا. واختلفوا فى كنيته على قولين أحدهما: أبو مرّة، والثانى: أبو العمر، واختلفوا فى اسمه أيضا، فقال الجوهرى: كان اسمه عزازيل وهو قول ابن عبّاس، وقيل الحرث. واختلفوا هل كان من الملائكة، رواه سعيد بن جبير، والثانى أنّه من الشياطين، قاله الحسن البصرى، قال: ولم يكن من الملائكة قطّ، واحتجّ بقوله تعالى: {إِلاّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»} (٣)، الآية، والثالث: إنّه لا من الجنّ ولا من الملائكة بل هو خلق مفرد خلقه الله من النار كما خلق آدم من الطين، قاله مقاتل، وقد رجّح علماء التفسير قول ابن عبّاس إنّه كان من الملائكة، واحتجّوا بقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ»} (٤)، وهذا استثناء متّصل فدلّ على أنّه منهم، وأمّا قول الحسن إنّه كان من الجنّ وما احتجّ به من الآية فقد فسّره ابن عبّاس قال: أشراف الملائكة والكبراء منهم يقال لهم الجنّ لأنّهم استتروا عن أعين الملائكة لشرفهم وكان إبليس منهم. قال: وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض وكان يسمّى طاؤوس الملائكة وليس فى (٢١٨) السماء الدنيا مكان إلاّ وقد سجد عليه، ولما عصت الجنّ فى الأرض بعثه الله فى طائفة من الملائكة فطردوهم إلى الجزائر وأطراف الجبال، فاغترّ فى نفسه وقال: من مثلى؟ ولم يسجد لآدم فمسخه الله شيطانا. قلت: (١) وظاهر الآيات تقتضى التعارض فينبغى التوقّف، قال ابن الجوزى: وقد قال: خلقتنى من نار وخلقته من طين، وإذا كان مخلوقا فى الأصل من النار فكيف يخلق من النور لأنّ الملائكة خلقوا من نور لما ذكرنا من قبل. وذكر أبو جعفر الطبرى رحمه الله فى تأريخه الكبير (٢) الذى اعتماد أهل عصرنا عليه لثقته وفضله وتأييده فى هذا الفصل إنّ إبليس بعث حاكما فى الأرض يقضى بين الجنّ ألف سنة ثم عرج إلى السماء فأقام يتعبّد الله عزّ وجلّ حتى خلق الله آدم عليه السلام. وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجنّ الذين يعملون فى الأرض بالفساد، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، قلت: وهذا الوجه ضعيف جدّا لم أجد أحد من علماء السير وافقه عليه. وقال قتادة فى تفسير قوله تعالى: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»}،

أي: خرج عن طاعته، والفسق الخروج من قولهم: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها.وقال عبد الله بن أحمد بإسناده إلى ثابت البنانى قال: بلغنا أنّ إبليس ظهر ليحيي عليه السلام فرأى عليه معاليق من كلّ شئ، فقال له: ويحك ما هذه المعاليق؟ فقال: الشهوات التي أصيب بها بنى آدم! قال: فهل لي فيها شئ؟ قال: ربّما شبعت فتنقّلت فى الصلاة وتغلب على الذكر، فقال يحيي: فلله علىّ لا أملأ بطنى من طعام أبدا، فقال إبليس: ولله علىّ أن لا أفصح مسلما قطّ، وفي رواية: بشرا قطّ. وبه قال عبد الله بن أحمد بإسناده عن ابن عبّاس، قال: كان إبليس يأتى (٢١٩) يحيي بن زكريا طمعا أن يفتنه وعرف ذلك يحيي منه، وكان يأتيه فصور شتّى فقال له: أحبّ أن تأتينى فى صورتك التى أنت عليها، فأتاه فيها فإذا هو مشوّه الخلق كريه المنظر جسده جسد خنزير ووجهه وجه قرد وعيناه مشقوقتان طولا وأسنانه كلّها عظم واحد وليس له لحية ويداه فى منكبيه وله يدان آخرتان فى جانبيه وأصابعه حلقة واحدة وله ضفيران كالليف، وعليه لباس المجوس واليهود والنصارى، وفى وسطه منطقة من جلود السباع فيها كيران معلّقة وعليه حلاحل، وفى يده جرس عظيم، وعلى رأسه بيضة من حديد معوّجة كالخطّاف، فقال له يحيي عليه السلام: ويحك ما الذى شوّه خلقك؟ فقال: كنت طاؤوس الملائكة فعصيت الله فسخنى فى أنجس صورة وهى ما ترى، قال: فما هذه الكيران؟ قال: شهوات بنى آدم، قال: فما هذا الجرس؟ قال: صوت المعازف والنوح، قال: فما هذه الخطاطيف؟ قال: أخطف بها عقولهم، قال: فأين تسكن؟ قال: فى صدورهم وأجرى فى عروقهم، قال: فما الذى يعصهم منك؟ قال: بغض الدنيا وحبّ الآخرة! وقال الخطيب بإسناده عن ابن المنادى، قال: يجئ الشيطان الذى يقال له القرقيّة فى صورة طائر، وفى رواية: يجئ الشيطان فى صورة طائر يقال له القرقيّة فيخفق بجناحه على عين الرجال الذي يقر أهله على الفاحشة فلا ينكرها بعد ذلك. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله (١) بإسناده عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يضع إبليس عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجئ أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، ويجيء أحدهم (٢٢٠) فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله فيدنيه منه

ويلتزمه ويقول: نعم أنت أنت، انفود بإخراجه مسلم. وذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن ابن مسعود أنّ الشيطان إذا طاف بأهل مجلس ذكر ليفتنهم فلم يقدر على التفرقة بينهم فأغرى بين أهل المجلس الآخر فاقتتلوا فقام أهل الذكر على التفرقة بينهم فحجزوا بينهم حتى تفرّقوا. وذكر عبد الله أيضا عن قتادة، قال: لإبليس شيطانا يقال له قبقب يحمّه أربعين سنة فإذا دخل الغلام فى هذا الطريق قال له: دونك وإيّاه فإنّما أحممتك لمثل هذا أجلب عليه وأفتنه. وقد ورد فى الشيطان حديث أنّه جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال ابن الجوزى: حدثنا جدّى حدّثنا محمّد بن عبد الملك بن جيرون بإسناده إلى عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل أقبح الناس وجها وثيابا وأنتنهم ريحا حافيا يتخطّى رقاب الناس فجلس بين يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: من خلقك؟ قال: الله، قال: فمن خلق السماء والأرض؟ قال: الله، قال: فمن خلق الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا إبليس جاء ليشكّككم فى دينكم! قال ابن الجوزى: قال جدّى: هذا حديث لا أصل له وعبد الله بن دينار ضعيف تهم فى الأحاديث، وهذا إنّما هو حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا من خلق الله، وتمّ الحديث، وقد خلّطه ابن المدائنى، وحديث أبى هريرة صحيح، ولمسلم عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: إذا أذّن المؤذّن هرب الشيطان حتى يكون بالروحاء من المدينة ثلاثون ميلا.[9] ذكر خلق آدم وهبوطه إلى الأرض (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) يعني: إذا سويّتُ خلقه، وعدلت صورته، ونفخت فيه من روحي، فاسجدوا له. وإن الله تعالى خلق آدم - عليه السلام - فِي خَيْرِ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ وهو يَوْمُ الْجُمُعَةِ (١)، بَعْدَ الْعَصْرِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ، فَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، فَلِلَّهِ مَا أَمسى ذَلِكَ الْيَوْمُ حَتَّى عَصَاهُ فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا. وخلق اللهُ - عز وجل - آدمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاث مِائَةِ مَفْصِلٍ، طوله سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ، فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ عَرْضًا (٢)، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ.

وخلق اللهُ آدمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا أَحْمرِهَا وَأَسْوَدِهَا وَطَيِّبِهَا وَخَبِيثِهَا، فَسُمِّيَ: آدَمَ. فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ؛ فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ

[9] المعجم المفهرس ٦/ ١٩٦؛ مسند أحمد بن حنبل ٦/ ٦؛١٥٣/ ١٦٨ قارن كتاب التبصرة ٢/ ١٨٩، -٣ المعجم المفهرس ٦/ ١٩٦؛ مسند أحمد بن حنبل ٦/ ٦؛١٥٣/ ١٦٨

ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ (٣). وخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ فَجَعَلَهُ طِيناً ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمَأً مَسْنُونًا (٤) خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، ولما صوّر الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ (٥) كَانَ إِبْلِيسُ يَمُرُّ بِهِ فَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ. فجعل إبليس يُطيف به (٦)، وينظر ما هو، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ قَالَ: ظَفِرْتُ بِهِ، خَلْقٌ لَا يَتَمَالَكُ (٧).

فلما نفخ الله فيه الروحَ (٨) كَانَ أَوَّلُ مَا جَرَى فِيهِ الرُّوحُ بَصَرُهُ وَخَيَاشِيمُهُ، فَعَطَسَ، فقال: الحمد لله. فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم،

---

(١) خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ أُهْبِطَ وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يومِ الْجُمُعَةِ، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُصِيخَةً (مُصْغِيَةً مُسْتَمِعةً) حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى فِيهَا شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِيذُ مِنْ شَرٍّ، إِلَّا أَعَاذَهُ اللهُ مِنْهُ. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنَ سَلَامٍ - رضي الله عنه -: هِيَ بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ، آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، وفي الحديث:"لَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ". (٢) فكُلُّ مَنْ يَدخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، "يُبعثُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فِي مِيلَادِ ثلاثٍ وَثَلَاثِينَ، جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ، ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِمْ إِلَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَيُكْسَوْنَ مِنْهَا، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ، وما مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا - وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَانَ عَلَى مِسْحَةِ آدَمَ، وصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، عُظِّمُوا وَفُخِّمُوا كَالْجِبَالِ". (٣) قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ. وفي رواية: (مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخرء بِأَنْفِهِ). (٤) الحمأ: الطين الأسود. المسنون: المتغيّر لونه وريحه من طول مكثه. وجاء وصف الطين الذي خلق منه آدم أيضاً بأنه (لازب) أي: جيداً لزجاً، يلتصق بعضه ببعض. (٥) صلصالاً: يابساً لم تصبه نار، ويسمع له صوت عند النقر عليه كصوت الصلصلة. فهو يشبه الفخار وليس فخاراً، لأن الفخار هو الطين الذي يطبخ في النار.ر(٦) يستدير حواليه. (٧) فعرف إبليس بما آتاه الله من العلم أنَّ آدمَ خُلق خلقاً لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَيَحْبِسُهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، ولا يملك دفع الوسواس عنها {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}.ر(٨) الإنسان مكون من جسد وروح، ولا يعلم حال هذه الروح إلا الله، (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر - وهم نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يجيبونك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال له: إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم. وَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ، ثُمَّ بَسَطَهَا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ (١)، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذُرِّيَّتُكَ. فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً (٢) من نور، فرأى فيهم رجلاً من أضوئهم، فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: يا رب من هذا؟، فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود. فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: قد كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره. قال: ذاك الذي كتبت له. قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك، إذًا يُكْتَبُ وَيُخْتَمُ وَلَا يبدَّلُ. ثُمَّ أُسْكِنَ آدَمُ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ. وأخبر الله ملائكته أنه سيجعل في الأرض بشرًا يخلُف بعضهم بعضًا، للقيام بعمارتها على طاعة الله، فسأل الملائكةُ ربَّهم -سؤال استرشاد واستفهام- عن الحكمة من جعل بني آدم خلفاء في الأرض، وهم سيفسدون فيها، ويريقون الدماء ظلمًا (١)، قائلين: ونحن أهل طاعتك، نُنَزِّهُك حامدين لك، ومعظِّمين جلالك وكمالك، لا نفترُ عن ذلك. وَقَدْ كَانَ فِي الأرض -قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدم بِأَلْفَي عَامٍ-الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ، فَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءِ، فبَعَثَ الله عَلَيْهِمْ جُنُودًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَضَرَبُوهُمْ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ بِجَزَائِرِ الْبُحُورِ، ولذلك سأل الْمَلَائِكَةُ ربهم: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا"؟ أي: كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ؟، فأجابهم الله عن سؤالهم: "إني أعلم ما لا تعلمون" (٢) أي: من الحِكَم الباهرة في خلقهم، والمقاصد العظيمة من استخلافهم. ولبيان منزلة آدم عليه السلام علَّمه الله تعالى أسماء الأشياء كلها من الحيوان والجماد، ألفاظها ومعانيها، ثم عرض تلك المسمَّيات على الملائكة قائلًا: أخبروني بأسمائها إن كنتم صادقين فيما تظنون أنكم أكرم من هذا المخلوق وأفضل منه. فقالوا -مُعْترِفين بنقصهم مُرْجِعين الفضل إلى الله-: نُنَزِّهُك ونعظِّمك يا ربَّنا عن الاعتراض عليك في حُكمك وشرعك، فنحن لا نعلم شيئًا إلا ما رزقتنا علمه، إنك أنت العليم الَّذي لا يخفى عليك شيء، الحكيم الَّذي تضع الأمور في مواضعها من قدرك وشرعك. وعندئذ أمر الله تعالى آدمَ أن يخبرهم بأسماء تلك المسمَّيات، فلما أخبرهم كما علَّمه ربه، قال الله للملائكة: ألم أقل لكم: إني أعلم ما خفي في السماوات وفي الأرض؟ وأعلم ما تُظْهرون من أحوالكم وما تحدِّثون به أنفسكم.

وأُمِر الملائكةُ بالسجود لآدم سجود تقدير واحترام، فسجدوا مسارعين لامتثال أمر الله، إلا إبليس الَّذي كان من الجن، فامتنع اعتراضًا على أمر الله له بالسجود وتكَبُّرًا على آدم، فصار بذلك من الكافرين بالله تعالى. والله -وهو عالِم بكل شيء- قال توبيخًا لإبليس: أي شيء منعك من امتثال أمري لك بالسجود لآدم؟، أمنعك من السجود التكبر؟، فقال إبليس مجيباً ربه: منعني أني أفضل منه، فقد خلقتني من نار، وخلقته هو من طين، والنار أشرف من الطين. فأخرج اللهُ إبليسَ من الجنة مذمومًا مطرودًا من رحمة الله، لأن الجنة دار الطيِّبين الطاهرين، وليست للمستكبرين. فقال إبليس: يا رب، أمهلني إلى يوم البعث حتى أغوي من أستطيع إغواءه من الناس. قال له الله: إنك -يا إبليس- من المُمْهَلين الذين كتبت عليهم الموت يوم النفخة الأولى في الصور حين يموت الخلق كلهم، ويبقى خالقهم وحده. فقال إبليس: بسبب إضلالك إياي حتى تركتُ امتثال أمرك بالسجود لآدم لأَُقْعُدَنَّ لبني آدم لأصرفهم وأضلهم عن صراطك المستقيم كما ضَلَلْتُ أنا عن السجود لأبيهم آدم، ثم لآتِيَنَّهم من جميع الجهات بالتزهيد في الآخرة، والترغيب في الدنيا، وإلقاء الشبهات، وتحسين الشهوات، ولا تجد -يا رب- أكثرهم شاكرين لك؛ لما أمليه عليهم من الكفر. قال الله له: إنَّ عِبَادِي الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهِدَايَةَ، فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ، وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ، ولأملأن جهنم يوم القيامة منك ومن كل من اتبعك في كفرك وأطاعك وعصى أمر ربه. - (١) قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ (وَفِي رِوَايَةٍ: يَا وَيْلِي) أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ وخلق الله حواء من ضلع آدم ليأنس إليها، ويطمئن بها، وجعل بينهما مودة ورحمة، وأسكنها الله الجنة مع زوجها آدم. وقال الله لآدم: يا آدم، اسكن أنت وزوجتك حواء الجنة، فكُلا مما فيها من الطيبات ما شئتما، ونهاهما أن يأكلا من شجرة عَيَّنها الله لهما، وأنهما إن أكلا منها بعد نهيه لهما كانا من المتجاوزين لحدود الله. (١)[10]

[10] (١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:" {إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها} قال: " قيل لآدم أتأخذها بما فيها، فإن أطعتَ غفرتُ، وإن عصيتَ حذرتك؟ قال: قبلت. قال: فما كان إلا كما بين صلاة العصر إلى أن غربت الشمس حتى أصاب الذنب ".
و {الْأَمَانَةَ} التكاليف الشرعية كالصَّلَوَات وَغَيْرهَا من الْفَرَائِضُ الَّتِي ائْتَمَنَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ مِمَّا فِي فِعْلِهَا مِنْ الثَّوَاب وَتَرْكهَا مِنْ الْعِقَاب وما يحفظ من أموال وأسرار. {وَأَشْفَقْنَ} خِفْنَ {مِنْهَا}. وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا لنفسه، جهولًا بعاقبة حملها.

واستمر حسد إبليس لآدم وزوجته، فوسوس لهما (١) لِيُظْهِر لهما ما سُتِر عنهما من عوراتهما، وقال لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا مَلَكَين، وإلا كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة، وحلف لهما بالله: إني لكما -يا آدم وحواء- لمن الناصحين فيما أشرت عليكما به. وبدأ إبليس بحواء فأغواها وزين لها، حتى جعلها تأكل من الشجرة التي نهيت هي وآدم عن قربها، فقبلت بغواية إبليس فأغوت زوجها ودعته إِلَى الْأكل من تِلْكَ الشَّجَرَة، فلما أكلا من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ ليسترا عوراتهما، وحَطَّهما إبليس من المنزلة التي كانا فيها بخداع منه وغرور. وناداهما ربهما قائلًا: ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة، وأقل لكما محذرًا لكما: إن الشيطان عدو لكما بيِّنُ العداوة؟! (١) بلغتهما وسوسة إبليس مع أنه مطرود من الجنة. والله عز وجل يُسمِـع أهل الجنة إن شاء كلام وأخبار من هم خارج الجنة، كما يُسمعهم نداء أهل النار لهم وطلبهم منهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله، وكذلك فإنه لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا. توبة آدم وحواء {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}. وألهم الله آدم التوبة والندم ودعا هو وزوجه بكلمات هي: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فقبل الله توبتهما، وغفر لهما، فهو سبحانه غفور رحيم. وقَالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟، قَالَ: بَلَى. وقال الله لآدم وزوجه وللشيطان: انزلوا إلى الأرض، بعضكم أعداء بعض، ولكم في تلك الأرض حياة واستقرار وبقاء وتَمَتُّعٌ بما فيها من خيرات إلى أن تنتهي آجالكم فتموتون، حتى تقوم الساعة يوم القيامة فتخرجون من الأرض وتبعثون. وأُهبط آدم وزوجه حواء وأُهبط إبليس كذلك إلى الأرض، ومَا سَكَنَ آدَمُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ زَوَّدَهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ، فَثِمَارُكُمْ هَذِهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَغَيَّرُ وَتِلْكَ لَا تَغَيَّرُ. وقال الله جل وعلا: (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِـعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). وجعل الله آدم نبياً مرسلاً يدل بنيه على الهدى الذي علمه الله. وأَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ

ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا فَقَالَ: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟، قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}. (١) [11] ولو أراد اللهُ أَنْ لَا يُعْصَى، مَا خَلَقَ إِبْلِيسَ، ولَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ. نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ (١)، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ. وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ (٢)، وكُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ. وآدمُ لما عصى ندم وتاب وطلب المغفرة والرحمة، وإبليس لما عصى طلب أن يُمَدَّ في عمره إلى يوم القيامة، فأعطى الله كلاً منهما ما طلب. وإِنَّ مُوسَى - عليه السلام - قَالَ: يَا رَبِّ، أَرِنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُ اللهُ آدَمَ، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ؟، أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ؟، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ؟، أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ، بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ خَيَّبْتَنَا، وَأَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنْ الْجَنَّةِ؟، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ أَنْتَ؟، قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَعْطَاكَ اللهُ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ؟، وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟، قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟} قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟؟،

---

[11] (١) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ - رضي الله عنه - أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟، قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} قَالَ: "جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ، فَاسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟، قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُمْ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا، اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي، وَلَا رَبَّ غَيْرِي، فَلَا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، وَإِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي، فَقَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ". قال ابن الأنباري: "مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده وهم في صُوَرِ الذَّر، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم، وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن رَكَّبَ فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب، وكما فعل ذلك للبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دُعِيَت"، وقال إسحاق بن راهويه: " وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم ". وقد روى الحسن البصري -رحمه الله- عن الأسود بن سريع مرفوعاً: "أَلَا إنها ليست نسمة تولد إلَّا ولدت على الفطرة ... " الحديث. ثم قال الحسن عَقِبَهُ: ولقد قال الله ذلك في كتابه: (وإذ أخذ ربك ...) الْآية.

فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى. (٣) وأكرم الله بني آدم بأن خلق أباهم آدمَ بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وأسكنه في جنته، وكلمه وعلمه واجتباه وتاب عليه وهداه، وقدّر له ذرية تخلفه في الأرض، وأسبغ على البشر نعمه ظاهرة وباطنة (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا). والله يري ملائكته من علمه وحكمته وتدبيره لأمور البشر وغيرهم كثيراً مما لا يعلمون، وهم يعظمونه ويسبحونه (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم). وحذّر الله البشر من شر الشياطين فقال جل وعلا: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ). وإن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني. ولما كان الشيطان يعلم حدود عقول المخلوقين وأنها لا تحيط بالله علماً، فإنه لا يزال يوسوس للناس ويقول: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟. فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَلْيَنْتَهِ، ولْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ (١). إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أمة محمد مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ. (٢) ويضع إبليس عرشه على البحر وإذا أصبح بث جنوده وسراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة؛ أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً. ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته. فيدنيه منه ويلتزمه ويقول: نعم أنت، فيقول: من أضل اليوم مسلماً ألبسته التاج، فيجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى عق والده، فقال: يوشك أن يبره، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته فيقول: يوشك أن يتزوج، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت. ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى قتل (٣)، فيقول: أنت أنت، ويلبسه التاج.[12]

---

[12] قال عليه الصلاة والسلام: "لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا , إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا , لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ"، وقال: "وَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ". قال ابن حجر: "ذَكَرَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مَشَايِخِهِ بِأَسَانِيدِهِ أَنَّ سَبَبَ قَتْلِ قَابِيلَ لِأَخِيهِ هَابِيلَ أَنَّ آدَمَ كَانَ يُزَوِّجُ ذَكَرَ كُلِّ بَطْنٍ مِنْ وَلَدِهِ بِأُنْثَى الْآخَرِ وَأَنَّ أُخْتَ قَابِيلَ كَانَتْ أَحْسَنَ مِنْ أُخْتِ هَابِيلَ فَأَرَادَ قَابِيلَ أَن يستأثر بِأُخْتِهِ فَمَنَعَهُ آدَمُ فَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ أَمَرَهُمَا أَنْ يُقَرِّبَا قُرْبَانًا فَقَرَّبَ قَابِيلُ حُزْمَةً مِنْ زَرْعٍ وَكَانَ صَاحِبَ زَرْعٍ وَقَرَّبَ هَابِيلُ جَذَعَةً سَمِينَةً وَكَانَ صَاحِبَ مَوَاشٍ فَنَزَلَتْ نَارٌ فَأَكَلَتْ قُرْبَانَ هَابِيلَ دُونَ قَابِيلَ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الشَّرِّ بَيْنَهُمَا وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ". ثم رُزِقَ آدم بـ (شيث) عليهما السلام.

وقد كتب الله على آدم قبل أن يخلقه أنه سيسكن الجنة ثم يخرج منها ويهبط إلى الأرض التي منها خلق ويمكث فيها ما شاء الله من الأجل حتى يموت ويبعث بعد موته، فتكون الجنة مأواه هو ومن تاب وأصلح من ذريته. وليس أول الخلق (١) بأهون على الله من إعادته (٢).

ولما أُهْبِطَ آدم من الجنة إلى الأرض جعل يَعُدُّ لنفسه أجله وعمره، فلما قُضِي عُمْرُ آدمَ جاءه ملَكُ الموت، فقال له آدم: قد عجلتَ!! قد كُتب لي ألف سنة!! أولم يبق من عمري ستين سنة؟!، قال: بلى، ولـكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، قال: ما فعلتُ. فَجَحَدَ آدمُ، فجحدتْ ذريتُه، فمن يومئذ أمر بالكِتَاب والشهود (٣)، ونسي آدمُ فنسيت ذريتُه وسُمّي (الإنسان)، وخَطِئ آدمُ، فخطئت ذريتُه.

ولَمَّا نَزَلَ بِآدَمَ الْمَوْتُ قَالَ: أي بَنِي، إني أَشْتَهِي مِنْ ثَمَرَةِ الْجَنَّةِ. انطلقوا فاجنوا لي من ثمار الجنة. فَانْطَلَقَ بَنُوهُ يلتمسون، فاستقبلتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فَقَالُوا: يَشْتَهِي أَبُونَا مِنْ ثَمَرِ الجنة. فقالوا: ارجعوا قد كفيتم، فَقَدْ أُمِرَ بِقَبْضِ أَبِيكُمْ. فرجعوا معهم فَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى آدَمَ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ وذعرت منهم وجعلت تدنو إلى آدم فَلَصَقَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكِ عَنِّي فَمِنْ قِبَلِكِ أُتِيتُ (٤)، دَعِينِي وَمَلَائِكَةَ رَبِّي. فَقَبَضُوهُ وَهُمْ ينظرون، وغَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَاءِ وِتْرًا وهم ينظرون، وكفنوه وهم ينظرون وحنطوه وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَصَلَّوْا عَلَيْهِ، ثم حفروا له وَأَلْحَدُوا لَهُ ثم دفنوه، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ، هَذِهِ سُنَّةُ آدَمَ فِي وَلَدِهِ، وَهَذَا سَبِيلُكُمْ فكذاكم فافعلوا.
13

[13] (١) أي: ابتداء الخلق من العدم.

(٢) أي: الكل على حد سواء، يكون بكلمة (كن)، هذا بالنظر إليه تعالى، وأما بالنظر إلى عقول الناس وعادتهم، فآخر الخلق أسهل، كما قال تعالى: {وهو أهون عليه}.

(٣) يعني: بِكِتَابَةِ الْحُجَّةِ وَإشهاد الشُّهُودِ للتَّوثُّق على الحقوق ومع البيّنة عليها، ولم ينزل الإيجاب فيها.

(٤) في ذلك ما يشير إلى أن الشيطان ابتدأ بإغواء حواء قبل آدم، وأنها تسببت في إغواء زوجها في الأكل من الشجرة والخروج من الجنة. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِآدَمَ: "يَا آدَمُ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا"؟، فَاعْتَلَّ آدَمُ، فَقَالَ: "يَا رَبِّ زَيَّنَتْهُ لِي حَوَّاءُ". ومع ذلك فقد تاب الله عليهما، وأمر الرجال بحسن معاشرة النساء ورعايتهن ووعظهن والصبر عليهن وإكرامهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام:" خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي".

القِسْمُ الثَّانِي

الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَأَقْوَامُهُمْ

نبدأ الفصل الثاني بعد اختتام الفصل الأول { بداية الخلق } و ننتقل لفصل الانبياء واقوامهم ونبدأ من بداية نوح عليه السلام وننتهي بعون الله في خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

بسم الله والحمدلله.

باب ذكر نوح عليه السلام : وكَانَ نُوحٌ إِذَا طَعِمَ طَعَامًا أَوْ لَبِسَ ثَوْبًا حَمِدَ اللَّهَ، فَسُمِّيَ عَبْدًا شَكُورًا. وكان نُوحٌ أَوَّلُ نَبِيّ أُرْسِلَ إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وكانوا هم أهل الأرض، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فأعرضوا عنه واستنكروا أن يرسل إليهم بشر وليس ملَك من الملائكة، وأن الذين اتبعوا نوحاً ليسوا من ذوي المكانة والمال وهم قليل، وطلبوا منه أن يطرد أولئك المؤمنين، وطالت به السنين والقرون وهو يحذّرهم من عقاب الله فكذبوه وأصروا على كفرهم واستكبارهم، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا فاحْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شِرْكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَة. وطلبوا العذاب، وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا على قومه الكافرين، وصنع السفينة بأمر الله، وأُمِرَ إذا فار التنور- أي: خرج الماء وارتفع من التنور وهو مكان طبخ الخبز- أن يحمل في السفينة مَن آمن معه، ومِن كل الدواب زوجين ذكرًا وأنثى. ثم أمطرت السماء وجاء الطوفان فأغرق أهل الأرض إلا من كان مع نوح في السفينة، وهلكت امرأته وكَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ إِنَّه مَجْنُونٌ، وهلك ابن له مع الكافرين ولم يركب معه في السفينة. ثم أذهب الله الطوفان، فتوقف المطر وابتلعت الأرض ماءها، ووقفت السفينة على جبل الجودي بالعراق، وجعلها الله آية للناس. ونصر الله نوحاً وباركه ومن معه وجعل نسله هو الباقي، فكل أهل الأرض اليوم من نسله، و وَلَدُ نُوحٍ ثَلَاثَةٌ: سَامُ وَحَامُ وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ. وكل الأنبياء الذين أتوا بعد نوح هم من ذريته.

وإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ.

باب ذكر هود عليه السلام إرسال هود عليه السلام إلى عاد ثم بعث الله هوداً -عليه السلام- إلى عاد وهي قبيلة إِرَم بالأحقاف جنوب الجزيرة العربية، يدعوهم إلى التوحيد، وكانوا أشد الناس قوة، فذكرهم بالله ونعمه عليهم وأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وخصَّهم بعظم الأجسام والقوة وشدة البطش وما أعطاهم الله من أنعام وأولاد وبساتين وعيونٍ جارية. ودعاهم إلى توحيد الله وشكره والإخلاص له. وأنكر عليهم أنهم كانوا يبنون بكل مكان مشرف مرتفع بنيانًا عَلَمًا عبثًا دون فائدة تعود عليهم. وأنهم يتخذون حصونًا وقصورًا كأنهم سيخلدون في الدنيا، وأنهم يسطون على غيرهم بالقتل أو الضرب سطوة جبارين من غير رأفة ولا رحمة. فكذبوه واتهموه بالجنون، فحذرهم من سخط الله وعقابه، وتحداهم جميعاً بآية معجزة وهي أن يكيدوه أو يلحقوا به الضر مع كل قوتهم لأن الله سيحفظه وهو أشد منهم قوة. فلما أصروا على تكذيبهم نجّى الله هوداً والذين آمنوا معه، وحل العذاب بقومه المكذبين فرأوا سحابًا معترضًا في جهة من السماء متجهًا لأوديتهم فظنوه سحاباً ممطرهم، وإنما كان العذاب الذي استعجلوه، ريحاً شديدة البرد قاسية ذات صوت مزعج، بلغت الغاية في القسوة عليهم. أرسلها الله عليهم مدة سبع ليالٍ وثمانية أيام تفنيهم عن بكرة أبيهم وتدمر كل شيء مرت عليه مما أمرها الله بإهلاكه، فأصبحوا هلكى مصروعين في الأرض كأنهم أصول نخل ساقطة بالية. لا يُرَى إلا بيوتهم التي كانوا يسكنونها. ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمته (١). جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: " نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وأُهْلِكَت عادٌ بالدَّبُور". و (الصَّبَا) هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها صلى الله عليه وسلم كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. و (الدَّبُور) هي الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

باب ذكر صالح عليه السلام إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود ثم بعث الله إلى ثمود نبيه صالحاً فدعاهم إلى التوحيد وطاعة الله وذكرهم بنعم الله عليهم من الخيرات والنعم والأمن وعدم الخوف، ومن الرخاء والعيش في بساتين وعيون جارية وزروع ونخل ثمرها لين نضيج. وأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد، ومكنهم أن ينحتوا الجبال فيصنعوا منها بيوتًا، وأن يبنوا في سهول الأرض قصوراً. فكذبوه واتهموه أنه مسحور، واستهزؤوا به وبالمؤمنين المستضعفين معه. وطلبوا منه آيةً معجزةً تدل على صدق نبوته، فأخرج لهم بإذن الله من الصخرة ناقةً لتكون لهم آية على صدق نبوته واختباراً لهم، وأخبرهم صالحُ بأمر الله لهم أن يكون ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة؛ يوم لها ويوم لهم، وأن يتركوها ترعى في أرض الله، ولا يتعرضوا لها بأي أذى؛ وإلا فسينالهم عذاب قريب من وقت عَقْرِهم لها. فاتفقوا وحرضوا أشقاهم على قتل الناقة؛ فقتلها (١). وقالوا مستهزئين مُسْتبعِدين لما توعدهم به نبيهم: يا صالح، جئنا بما توعدتنا به من العذاب الأليم إن كنت من رسل الله. فقال لهم: استمتعوا بالحياة في أرضكم مدة ثلاثة أيام من عَقْرِكم الناقة، ثم يأتيكم عذاب الله. وكان في مدينة الحِجْر تسعة رجال يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي، ولا يصلحون فيها بالإيمان والعمل الصالح. قال بعضهم لبعض: ليحلف كل واحد منكم بالله لنأتين صالحاً وأهله في بيته ليلًا، فلنقتلنهم، ثم لنقولن لولي دمه: ما حضرنا قتل صالح وأهله، وإنا لصادقون فيما قلنا. ودبَّروا مكيدة خفية لإهلاك صالح وأهله. لكن الله أبطل مكرهم وحفظ صالحاً ومن معه. فلما انقضت الأيام الثلاثة، أخذتهم الزلزلة الشديدة، وأرسلت عليهم صيحة واحدة -وهي صوت شديد مهلك- فماتوا من شِدَّتِه، وأصبحوا ساقطين على وجوههم، قد لصقت وجوههم بالتراب فأهلكتهم، فكانوا كالشجر اليابس الذي يتخذ منه المُحْتَظِر حظيرة لغنمه. ونجّى الله صالحاً ومن آمن معه برحمته وفضله. (١) عن عَبْدِاللَّهِ بْنُ زَمْعَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ ".

باب ذكر إبراهيم عليه السلام بعثة إبراهيم عليه السلام في العراق و وُلِدَ إبراهيم عليه السلام بِبَابِلَ في العراق، ثم بعثه الله إلى الملك نمرود بن كنعان وقومه بالعراق، وكانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فدعاهم وجادلهم بالبينات.

وابتدأ إبراهيم بدعوة أبيه آزر إلى توحيد الله متلطفاً معه حريصاً عليه، لكن أباه رفض تركه دينه الباطل (١)، وأراد إبراهيم أن يثبت لقومه أن الكواكب والأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تصلح للعبادة، فاتخذ طريقة الاستدراج والتنزّل في مناظرتهم، فحِين أظلَمَ عليه اللَّيل رأى كوكبًا، فقال لقومه على وجه التنزُّلِ معهم لاستدراجهم: سأختار أن يكون هذا الكوكب ربِّي. فلمَّا غاب ذلك الكوكَبُ قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: لا أحِبُّ المعبودَ المُتَغيِّرَ المُسَخَّر، الذي يغيبُ وينصرِفُ عمَّن عَبَده، لأنَّه لا يُمكِن أنْ يكونَ مَن هذا حالُه هو القائِمَ بمصالح عبادِه، المدبِّرَ لشؤون العالَم، الذي بيده النَّفْعُ والضُّرُّ، وعليه فلا يَصْلُح أن يكون هذا الكوكب الذي اخترته إلهًا يستحِقُّ أن يُعبَدَ.

فلمَّا رأى القَمَر في أوَّلِ طلوعه قال تنزُّلًا معهم لاستدراجهم: هذا ربِّي، فلمَّا غاب القمر قال إبراهيمُ: إن القمر أيضاً يغيب ولا يصلح للعبادة، ولئِنْ لم يُوفِّقْني ربِّي لِلحَقِّ لأكونَنَّ من القومِ الضَّالِّينَ.

فلمَّا رأى الشَّمْس في أوَّلِ طُلُوعها قال تنزُّلًا مع قومه: هذا الطَّالِعُ ربِّي، وهو أكبرُ من الكوكَبِ ومن القمرِ، فلمَّا غابت الشَّمْس قال إبراهيم: يا قومِ إنِّي أبرَأُ من كلِّ ما تعبدونَه مع اللهِ، إنِّي أخلَصْتُ العبادةَ لله الذي أبدَعَ خلق السَّمواتِ والأرضَ وما فيها من شمس وقمر وكواكب على غيرِ مثالٍ سابقٍ، مائلًا عن الشِّرْك، مستقيمًا على التَّوحيدِ، وما أنا مِن المشْركينَ مع الله تعالى غيرَه.

وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً إِلَى ظَاهِرِ الْبَلَدِ، فلما حان يوم عيدهم أرادوه أن يخرج معهم، فقال لهم: إني مريض. وأراد في نفسه أن يختلي بالأصنام حين يخرجون ليحطمها.

(١) عَنِ ابن عباس قال: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات؛ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فتبرأ منه.

ثم قام بتحطيم الأصنام في يوم عيد قومه وترك كبير الأصنام، فلما رجعوا ووجدوا أصنامهم محطمة أخذوا يبحثون عن الفاعل، فذكر بعضهم أن إبراهيم هو الذي كان يعيب الأصنام ولم يخرج معهم إلى العيد. فلما أحضروه وسألوه عما يتهم به من تحطيم الأصنام؛ جادلهم مُتَهَكِّمًا أن كبير الأصنام هو الذي حطم بقية الأصنام، وطلب منهم سؤال الأصنام عن ذلك. فأدركوا ضعف أصنامهم وأنها لا تنطق، ولكنهم لما غلبتهم الحُجَّة؛ استكبروا وقالوا إنك تعلم أنها لا تنطق. فعاب عليهم عبادة ما لا ينطق ولا ينفع ولا يضر ولا يستطيع الدفاع حتى عن نفسه، وأنه لا يخاف من أصنامهم شيئاً ولا يخشى إلا الله. فأرادوا الانتقام لأصنامهم وتحريقه بالنار وشَرَعُوا يَجْمَعُونَ حَطَبًا مِنْ جَمِيعِ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْأَمَاكِنِ، فَمَكَثُوا مُدَّةً يَجْمَعُونَ لَهُ حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْهُمْ كَانَتْ إِذَا مَرِضَتْ تَنْذِرُ لَئِنْ عُوفِيَتْ لَتَحْمِلَنَّ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى جَوْبَةٍ (١) عَظِيمَةٍ فَوَضَعُوا فِيهَا ذَلِكَ الْحَطَبَ، وَأَطْلَقُوا

فِيهِ النَّارَ فَاضْطَرَمَتْ وَتَأَجَّجَتْ وَالْتَهَبَتْ، وَعَلَاهَا شَرَرٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ قَطُّ، ثُمَّ وَضَعُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةِ مَنْجَنِيقٍ صَنَعَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْأَكْرَادِ يُقَالُ لَهُ هِيزَنُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَعَ الْمَجَانِيقَ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ أَخَذُوا يُقَيِّدُونَهُ وَيُكَتِّفُونَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ. ووُضِعَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ مُقَيَّدًا مَكْتُوفًا، ثُمَّ أَلْقَوْهُ مِنْهُ إِلَى النَّارِ، وكَانَ الْوَزَغُ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ النَّارَ. وكَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: {حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} فجعلها الله برداً وسلاماً عليه، وَصَارَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِثْلِ الْجُونَةِ (٢) حَوْلَهُ النَّارُ، وَهُوَ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ. وكانت آية من آيات الله، فخرج منها سالماً. ثم حصلت الْمُنَاظَرَةُ التي كَانَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ النُّمْرُودِ -وهُوَ مَلِكُ بَابِلَ- يَوْمَ خَرَجَ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنِ اجْتَمَعَ بِهِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. وناظَرَ إبراهيم في وجود الله وربوبيَّته وأُلوهيَّته، وما حمَله على ذلك وجرَّأه عليه إلَّا المُلْكُ الذي أعطاه اللهُ له، فاستكبَرَ وطغى، وأنكَر وجودَ الله جلَّ وعلا، [14]فأخبره إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنَّ الله يُحيي ويُميت، مُستدِلًّا بذلك على وجود الربِّ تعالى وربوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة، فردَّ عليه المَلِك- عنادًا- أنَّه أيضًا يَملِك أن يَفعَل هذا الفِعلَ؛ فالإحياء باستبقاء مَن أراد قتْله، أو الإماتة بقتْل مَن أراد إماتته. فردَّ إبراهيم عليه السَّلام عليه أنَّ الله يأتي بالشَّمس كلَّ يوم من جِهة المشرِق، فإنْ كان إلهًا حقًّا، يُحيي ويُميت، فليَجْعلها تَطلُع من جِهة المغرِب، فحينها عَلِمَ ذلك المُحاجُّ أنه عجَز وانقَطَع عن الإدلاء بحُجَّة، فتحيَّر واندهَش. وأُرْسِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسَدَانِ مُجَوَّعَانِ، فَلَحَسَاهُ وَسَجَدَا لَهُ. وآمن لإبراهيم من قومه لوط وهو ابن أخيه، ثم هاجر إبراهيم بزوجته سارة ابنة عمه هاران، وهاجر معهم لوط إلى أرض الشام. وحل العذاب بقوم إبراهيم (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) فهلك ملكهم النمرود وسُلبوا النعم التي كانوا فيها (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ). وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَانُوا كُفَّارًا سِوَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَامْرَأَتِهِ، وَابْنِ أَخِيهِ لُوطٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ولَمَّا هَجَرَ قَوْمَهُ فِي اللَّهِ، وَهَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، -وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا لَا يُولَدُ لَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ أَحَدٌ، بَلْ مَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ

[14] (١) وهي الفجوة بين البيوت، وهي أيضاً: المكان الفارغ المتسع.

(٢) الجونة: سليلة (سلة صغيرة) مستديرة مغشّاة بالجلد، يحفظ العطار فيها الطيب.

آزر-، وَهَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْلَادَ الصَّالِحِينَ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ بَعْدَهُ فَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكُلُّ كِتَابٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ فَعَلَى أَحَدِ نَسْلِهِ وَعَقِبِهِ خِلْعَةً مِنَ اللَّهِ وَكَرَامَةً لَهُ حِينَ تَرَكَ بِلَادَهُ وَأَهْلَهُ وَأَقْرِبَاءَهُ، وَهَاجَرَ إِلَى بَلَدٍ يَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَالْأَرْضُ الَّتِي قَصَدَهَا بِالْهِجْرَةِ أَرْضُ الشَّامِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}. وَلَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ - عليه السلام - قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ (١) فِي ذَاتِ اللهِ (٢) - عز وجل - وهي قَوْلُهُ: {إِنِّي سَقِيمٌ} (٣) وَقَوْلُهُ: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}، وَقَوْلُهُ فِي الْكَوْكَبِ: {هَذَا رَبِّي} (٤)، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ. فَإِنَّهُ هَاجَرَ بِسَارَةَ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَدَخَلَ بِهَا قَرْيَةً (٥) فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ، رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟، فَقَالَ: أُخْتِي، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ (٦)، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَإِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي، يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ، فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ (٧)، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، وَلَا أَضُرُّكِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي، فَلَكِ اللهَ أَنْ لَا أَضُرَّكِ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ، فَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا هَاجَرَ (٨)، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، انْصَرَفَ، فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخْدَمَ خَادِمًا (٩).[15]

[15] (١) قال بعض العلماء: أنها من الْمَعَارِيضِ التي تُبَاحُ عِنْدَ الْحَاجَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ: أَنْ يَعْنِيَ بِكَلَامِهِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْهُ الْمُخَاطَبُ. وَلَمْ يُرَخِّصْ فِيمَا يَقُولُ النَّاسُ: إِنَّهُ كَذِبٌ، إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَفِي الْحَرْبِ، وَفِي الرَّجُلِ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ.

(٢) أي: في الدفع عن ذات الله ما لا يليق بجلاله.

(٣) قال متعللاً عن الخروج مع قومه إلى عيدهم: إني مريض.

(٤) لما سأله قومه هل هو الذي كسّر أصنامهم؟، قال - متهكّما بهم ومظهرا عجز أصنامهم على مرأى من الناس-: بل الذي كسّر الأصنام هو كبير الأصنام.

(٥) القرية هي: مصر.

وذَكَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنِّي جَاعِلٌ هَذِهِ الْأَرْضَ لِخَلَفِكَ مِنْ بَعْدِكَ فَابْتَنَى إِبْرَاهِيمُ مَذْبَحًا لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَضَرَبَ قُبَّتَهُ شَرْقِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ انْطَلَقَ مُرْتَحِلًا إِلَى الْيَمَنِ، وَأَنَّهُ كَانَ جُوعٌ أَيْ قَحْطٌ وَشِدَّةٌ، وَغَلَاءٌ فَارْتَحَلُوا إِلَى مِصْرَ، وَذَكَرُوا قِصَّةَ سَارَةَ مَعَ مَلِكِهَا، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ لَهَا قُولِي: أَنَا أُخْتُهُ. وَذَكَرُوا إِخْدَامَ الْمَلِكِ إِيَّاهَا هَاجَرَ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا فَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِ التَّيَمُّنِ يَعْنِي أَرْضَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمَا وَالَاهَا وَمَعَهُ دَوَابُّ وَعَبِيدٌ وَأَمْوَالٌ.

(٦) يعني: زوجان مؤمنان، لأنه آمن معه لوط من قومه، وهاجر معه إلى الشام.

(٧) ذكر المنذري في "حاشية السنن"، عن بعض أهل الكتاب أنه كان من رأي الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقربها حتى يقتل زوجها، فلذلك قال إبراهيم: "هي أختي"، لأنه إن كان عادلاً خطبها منه ثم يرجو مدافعته عنها، وإن كان ظالماً تخلص إبراهيم من القتل.(٨) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ. يقصد هاجر أم إسماعيل، والعرب لصفاء نسبهم.

(٩) قال ابن كثير في قصة سارة مع جبار مصر: وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَشَفَ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَيْنَهَا فَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مُنْذُ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى أَنْ رَجَعَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَ مُشَاهِدًا لَهَا وَهِيَ عِنْدَ الْمَلِكِ، وَكَيْفَ عَصَمَهَا اللَّهُ مِنْهُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَطْيَبَ لِقَلْبِهِ وَأَقَرَّ لِعَيْنِهِ وَأَشَدَّ لِطُمَأْنِينَتِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا لِدِينِهَا، وَقَرَابَتِهَا مِنْهُ وَحُسْنِهَا الْبَاهِرِ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ تَكُنِ امْرَأَةٌ بَعْدَ حَوَّاءَ إِلَى زَمَانِهَا أَحْسَنَ مِنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ إِنَّ الْخَلِيلَ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجَعَ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ التَّيَمُّنِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا، وَمَعَهُ أَنْعَامٌ وَعَبِيدٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَصَحِبَتْهُم هَاجَرُ الْقِبْطِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ. ثُمَّ إِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَحَ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ بِأَمْرِ الْخَلِيلِ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَرْضِ الْغَوْرِ، الْمَعْرُوفِ بِغَوْرِ زُغَرَ، فَنَزَلَ بِمَدِينَةِ سَدُومَ، وَهِيَ أُمُّ تِلْكَ الْبِلَادِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ أَهْلُهَا أَشْرَارًا كُفَّارًا فُجَّارًا.

ولادة إسماعيل عليه السلام - لمّا وهب جبار القرية (ملك مصر) هاجرَ إلى سَارَّةَ بِنْتِ عَمِّ الْخَلِيلِ وكانت سارّة يَئِسَتْ مِنَ الْوَلَدِ، وهبت سارةُ هاجرَ الْقِبْطِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ لِإِبْرَاهِيمَ، فَوَلَدَتْ له هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ، فَغَارَتْ سَارَّةُ مِنْهَا و اشْتَدَّتْ غَيْرَةُ سَارَةَ مِنْ هاجر، وَطَلَبَتْ مِنَ الْخَلِيلِ أَنْ يُغَيِّبَ وَجْهَهَا عَنْهَا. وإِنَّ أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ (١)، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا فِي وِهَادِ جِبَالِ فَارَانَ، وَهِيَ الْجِبَالُ الَّتِي حَوْلَ مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ (٢) فَوْقَ زَمْزَمَ، فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ (٣) وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا بِهَؤُلَاءِ

الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} (٤)، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ، هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا،

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَه - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ (١). فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتُ اللهِ، يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ. فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ، فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَوَّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشَرَةَ سَنَةً، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ، زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.[16]

إرسال لوط عليه السلام: ولوط هو ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، فَالْخَلِيلِ فَإِبْرَاهِيمُ وَهَارَانُ وَنَاحُورُ إِخْوَةٌ. ولوطُ هو ابْنُ هَارَانَ بْنِ (تَارَحَ -وَهُوَ آزَرَ-). وَكَانَ لُوطٌ قَدْ نَزَحَ عَنْ مَحَلَّةِ عَمِّهِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِأَمْرِهِ لَهُ وَإِذْنِهِ، فَنَزَلَ بِمَدِينَةِ سَدُومَ مِنْ أَرْضِ غَوْرِ زُغَرَ، وَكَانَتْ أُمَّ تِلْكَ الْمَحَلَّةِ وَلَهَا أَرْضٌ وَمُعْمَلَاتٌ وَقُرًى مُضَافَةٌ إِلَيْهَا، وَلَهَا أَهْلٌ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ. فبعث في تلك القرى بالأردن، فدعاهم إلى توحيد الله وطاعته والإخلاص له وشكر نعمه. وأنكر عليهم فعل الفاحشة بالذكور لقضاء الشهوة بهم دون النساء اللائي خُلِقن لقضائها، وأنها فعلة شنيعة لم يسبقهم إلى ارتكابها أحد! وأنهم متجاوزون لحدود الله بخروجهم عن الفطرة الكريمة. فأصروا على كفرهم وعصيانهم وفاحشتهم، وقالوا معرضين عن الحق: أخرجوا لوطًا وأهله من قريتكم، إنهم أناس يتنزّهون عن عملنا هذا، فلا يليق بنا أن يبقوا بين

---

[16] (١) جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا تَجْرِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مَاءُ زَمْزَمَ، فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطُّعْمِ، وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْمِ، وَشَرُّ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مَاءٌ بِوَادِي بَرَهُوتٍ، بِقُبَّةِ حَضْرَمَوْتَ، كَرِجْلِ الْجَرَادِ مِنَ الْهَوَامِّ، تُصْبِحُ تَدَفَّقُ، وَتُمْسِي لَا بَلَالَ بِهَا. (أَيْ: لَا ماء بها).

ظهرانينا. وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عتبَةَ (١) بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟، وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ - عز وجل - فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟، قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟، قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ (٢)، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ (١) وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ (٢) تَحْتَ دَوْحَةٍ، قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟، قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا - قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ -وَكَانَتْ قَوَاعِدُ الْبَيْتِ قَبْلَ ذَلِكَ (٣) - فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِحَجَرٍ وهو {مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} (٤) فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. ثم إِنَّ رِجْلَهُ الْكَرِيمَةَ غَاصَتْ فِي الصَّخْرَةِ فَصَارَتْ عَلَى قَدْرِ قَدَمِهِ حَافِيَةً لَا مُنْتَعِلَةً. (٥) وإِنَّ إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى، فَسَابَقَهُ، فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ (١)، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، وكان معه ابنه إسماعيل، فقال إبراهيم لابنه: يا بُنَيَّ إني رأيت في النوم أني أذبحك -ورؤيا

الأبياء حق من الوحي- فانظر ما ترى في ذلك، فأجابه إسماعيل: يا أبي، افعل ما أمرك الله به من ذبحي، ستجدني من الصابرين الراضين بحكم الله. وَهُنَاكَ تَلَّهُ لِلجَبِينِ (٢)، وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيصٌ أَبْيَضُ، فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي ثَوْبٌ تُكَفِّنُنِي فِيهِ غَيْرُهُ، فَاخْلَعْهُ حَتَّى تُكَفِّنَنِي فِيهِ، فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ، فَنُودِيَ مِنْ خَلْفِهِ: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ، فَإِذَا هو بِكَبْشٍ أَبْيَضَ، أَقْرَنَ (٣)، أَعْيَنَ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى الْجَمْرَةِ الْقُصْوَى، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى مِنًى، قَالَ: هَذَا مِنًى، هَذَا مُنَاخُ النَّاسِ، ثُمَّ أَتَى بِهِ جَمْعًا (٤)، فَقَالَ: هَذَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ إِلَى عَرَفَةَ، وسُمِّيَتْ عَرَفَةَ لِأَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: هَلْ عَرَفْتَ؟، قَالَ: نَعَمْ. وإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُمِرَ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، خَفَضَتْ لَهُ الْجِبَالُ رؤوسها، وَرُفِعَتْ لَهُ الْقُرَى، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ. (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (٥). فكان الحج لإقامة ذكر الله وتوحيده والذبح له خالصاً والتقرب إليه بطاعته وفعل أمره. وَلَمْ يُوجَدْ مِنْ سُلَالَةِ إسماعيل (١) عليه السلام مِنَ الْأَنْبِيَاءِ سِوَى خَاتَمِهِمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَسَيِّدِهِمْ، وَفَخْرِ بَنِي آدَمَ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ الْقُرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ الْمَكِّيِّ ثُمَّ الْمَدَنِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وبقيت شعائر الحج وملة الحنيفية والتوحيد في العرب إلى أن غيرها عَمْرِو بْنِ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ بْنِ خِنْدِفٍ بعبادة الأصنام مع الله، فهو يَجُرُّ قُصْبَهُ (٢) فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ (٣)، وَكَانَ قَدْ أَتَى الشَّامَ وَرَآهُمْ بِالْبَلْقَاءِ لَهُمْ أَصْنَامٌ يَسْتَجْلِبُونَ بِهَا الْمَنَافِعَ وَيَدْفَعُونَ بِهَا الْمَضَارَّ، فَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ لَمَّا كَانَتْ خُزَاعَةُ وُلَاةَ الْبَيْتِ قَبْلَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ هُوَ سَيِّدَ خُزَاعَةَ (٤). وَجاءتِ الْبِشَارَةُ بِإِسحاق مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ وَسَارَةَ لَمَّا مَرُّوا بِهِمْ مُجْتَازِينَ ذَاهِبِينَ إِلَى مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ لِيُدَمِّرُوا عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وكان الملائكة جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، ولَمَّا وَرَدُوا عَلَى الْخَلِيلِ حَسِبَهُمْ أَوَّلًا أَضْيَافًا فعامَلَهُم مُعَامَلَةَ الضُّيُوفِ، شَوَى لَهُمْ عِجْلًا سَمِينًا مِنْ خِيَارِ بَقَرِهِ، فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَرَ لَهُمْ هِمَّةً إِلَى الْأَكْلِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسَ فِيهِمْ قُوَّةُ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ، فَنَكِرَهُمْ إِبْرَاهِيمُ {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}، قَالُوا: {لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} أَيْ لِنُدَمِّرَ عَلَيْهِمْ. فَاسْتَبْشَرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَارَةُ غَضَبًا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ. وَكَانَتْ قَائِمَةً عَلَى رُءُوسِ

الْأَضْيَافِ، كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النَّاسِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَمَّا ضَحِكَتِ اسْتِبْشَارًا بِذَلِكَ، بشرتها الملائكة {بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}، فَأَقْبَلَتِ {فِي صَرَّةٍ} أَيْ: فِي صَرْخَةٍ، {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} كَمَا يَفْعَلُ النِّسَاءُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، وَقَالَتْ: {يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا}؟، فَأَكَّدُوا لها الْخَبَرَ بِهَذِهِ الْبِشَارَةِ، وَبَشَّرُوهُمَا {بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} وَهُوَ إِسْحَاقُ، وَقد وُصِفَ أَخُوهُ إِسْمَاعِيلُ بأنه غُلَامٌ (حَلِيمٌ) لِمَقَامِهِ وَصَبْرِهِ. وجاءت الملائكة لوطًا في هيئة رجال فساءه مجيؤهم، وضاق صدره بسبب الخوف عليهم من قومه الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وقال لوط: هذا يوم شديد؛ لظنه أن قومه سيغالبونه على ضيوفه. وجاء قوم لوط مسرعين قاصدين فعل الفاحشة بضيوفه. وقال لهم لوط مدافعًا قومه ومعذرًا لنفسه أمام ضيوفه: هؤلاء بناتي من جملة نسائكم فتزوجوهن؛ فهن أطهر لكم من فعل الفاحشة، فخافوا من الله، ولا تجلبوا لي العار في ضيوفي، أليس منكم رجل ذو عقل سديد ينهاكم عن هذا الفعل القبيح؟!، فقالوا له: لقد علمت -يا لوط- أنَّه ليس لنا حاجة في بناتك ولا نساء قومك، ولا شهوة، وإنك لتعلم ما نريده، فلا نريد إلا الرجال. قال لوط: ليت لي قوة أدفعكم بها، أو عشيرة تمنعني (١)، فأحول بينكم وبين ضيوفي. وقالت الملائكة للوط عليه السلام: يا لوط، إنا رسلٌ أرسلنا الله، لن يصل إليك قومك بسوء، فاخرج بأهلك من هذه القرية في ساعة مظلمة من السَّحَر آخر الليل، وكن خلفهم ولا ينظر أحدكم إلى ما وراءه، وامضوا حيث تؤمرون. فسلمه الله وأهله (وهم ابنتاه) بالخروج ليلًا من القرية التي سيقع عليها العذاب، إلا امرأته كانت من الغابرين الباقين مع قومها (٢)، وكَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الضَّيْفِ، وهي التي دلتهم على ضيف لوط. فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، وكان موعد إهلاكهم الصبح. وجاء أمر الله بإهلاك قوم لوط فأخذهم صوت شديد مهلك عند دخولهم في وقت شروق الشمس، ورفعت قراهم ثم قلبت فصار عالي قراهم سافلها، وأمطر الله عليهم مطراً عظيمًا بحجارة من طين متصلب معلمة عند الله بعلامة خاصة مصفوف بعضها فوق بعض بتتابع، ونجى الله لوطاً ومن آمن معه برحمته، وبقي خسف مكان قوم لوط في قرى سدوم (منطقة البحر الميت) آية للعظة على طريق المسافرين، حيث إن قرى سدوم على طريق سفر متصل بمدين -وهي قرية أصحاب الأيكة- ذات الشجر الملتف، كما قال جل وعلا: (وإنهما لبإمام مبين) أي: على طريق واضح.

إرسال شعيب عليه السلام إلى مدين: وبعث الله إلى مدين (١) نبيه شعيباً عليه السلام، وكانوا قريبي عهد بلوط وقومه زماناً ومكاناً، فمدين وسدوم كلاهما على طريق واحدة ظاهرة للمسافرين. فذكرهم

شعيب بنعم الله عليهم وكيف أن الله منّ عليهم بأن كان عددهم قليلًا فكثّرهم، ودعاهم إلى توحيد الله وأن يتمُّوا المكيال والميزان بالعدل، ولا ينقصوا الناس من حقوقهم شيئًا بالتطفيف والغش والخداع أو بعيب سلعهم، والتزهيد فيها، أو المخادعة لأصحابها وألا يفسدوا في الأرض بالمعاصي وألا يقعدوا بكل طريق يهددون من سلكه من الناس ليسلبوا أموالهم، ويصدوا عن دين الله من أراد الاهتداء به. وأن ما يبقيه الله لهم من الحلال بعد إيفاء حقوق الناس بالعدل؛ أكثر نفعًا وبركة من الزيادة الحاصلة بالتطفيف والإفساد في الأرض، وقال لهم: ما أريد أن أنهاكم عن شيء وأخالفكم في فعله، لا أريد إلا إصلاحكم بدعوتكم إلى توحيد ربكم وطاعته قدر استطاعتي، وما توفيقي إلى الحصول على ذلك إلا بالله سبحانه. فرفضوا ترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤهم وأصروا على التصرف بأموالهم كيف يشاؤون بالباطل. وهددوا بقتله لولا عشيرته. وهددوا بإخراجه ومن آمن معه من قريتهم. وزعموا أن الذين اتبعوا شعيباً سيخسرون. فحذرهم أن ينالهم بكفرهم وتكذيبهم من العذاب مثلُ ما نال قوم نوح أو قوم هود أو قومِ صالح، وأن إهلاك قوم لوط ليس منهم ببعيد، لا زماناً ولا مكانًا، وأنهم يعلمون ما أصابهم. فاستكبروا وأصروا وطلبوا منه مستهزئين أن يسقط العذاب عليهم قطعًا من السماء إن كان صادقًا، فأخذهم عذاب يوم الظلة -وهي السحابة العظيمة- حيث أظلتهم بعد يوم شديد الحر، فرجفت بهم الأرض وتزلزلت زلزلة شديدة وأمطرت السحابة عليهم نارًا فأحرقتهم. ونجى الله شعيباً ومن آمن معه برحمته.

إسحاق عليه السلام. وقد ذكرنا أنه لما بلغ إبراهيم عليه السلام الكِبَرَ -هو وزوجته سارة- بشّره الله أنه سيولد له إسحاق (١) من زوجته سارة، وسيكون نبياً، ويولدُ من ذرية إسحاق نبيٌ أيضاً وهو يعقوب عليهم السلام. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ نبيَّه إسحاق بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَوُلِدَ لَه يَعْقُوبُ وَهوَ إِسْرَائِيلُ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ سَائِرُ أَسْبَاطِهِمْ فَكَانَتْ فِيهِمُ النُّبُوَّةُ، وَكَثُرُوا جِدًّا بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا الَّذِي بَعَثَهُمْ، وَاخْتَصَّهُمْ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ حَتَّى خُتِمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قصة ذو القرنين وكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ (١) مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ وكَانَ مُوَحّدًا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ، وآتاه الله من كُلَّ شيء سَبَباً يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى نَيْلِ مَقْصُودِهِ فِي الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهَا؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْمَطَاعِمِ وَالزَّادِ مَا يَكْفِيهِ وَيُعِينُهُ عَلَى أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْآخَرِ. وقد مُكّن له في الأرض فقهر الجبابرة وأذلهم وكان يغزو عُبَّاد الأصنام، وسار بالعدل فيما آتاه الله. وقد وَصَلَ إِلَى آخر العمارة من

الأرض من جهة المغرب فرأى الشمس عند الغروب في رأي العين تغرب في البحر المحيط كأنها تغرب في عين حمئة أي: سوداء، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع. ثم وَصَلَ ذُو الْقَرْنَيْنِ إِلَى آخر العمارة من الأرض من جهة المشرق، ووجد الشّمْسِ (تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لّمْ نَجْعَل لّهُمْ مّن دُونِهَا سِتْراً)، لأنهم أول من تطلع عليهم، وليس أنها تماسهم وتلاصقهم. ثم ذهب متوجها من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، ووجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم وفقّههم، وراجعهم، وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج -وهما أمتان عظيمتان من بني آدم- فقالوا: {إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ} بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا} أي أجرة {عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}، وذلك لعدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وظنهم باقتدار ذي القرنين عليه، فبذلوا له أجرة، ليفعل ذلك، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، وكان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا} أي: مانعاً من عبورهم عليكم.[17] {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك فوضعها. {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد {قَالَ انْفُخُوا} النار أي: أوقدوها إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها المنافيخ لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} أي: نحاساً مذاباً، فأفرغه على الردم الذي بناه من قطع الحديد، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج. {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على

[17] (١) يذكر أنه عاش في عهد إبراهيم عليه السلام أو قريباً منه، وقيل: أنه أسلم على يدي إبراهيم عليه السلام، وأنه حج البيت ماشياً، وأنه كان مِنَ الْعَرَبِ. ولا يُعلم هل كان نبياً أم لا؟ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "وما أدري ذا القرنين نبياً كان أم لا". قَالَ مُجَاهِدٌ: "مَلَكَ الْأَرْضَ مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ. وَالْكَافِرَانِ: بختنصر ونمرود. وَسَيَمْلِكُهَا خَامِسٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ".

الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته. فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي} أي: من فضله وإحسانه عليَّ وعلى خلقه، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله. ثم قال: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي} بقيام الساعة أو بأن شارف قيامُها {جَعَلَهُ} أي: ذلك السد المحكم المتقن {دَكَّاءَ} أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}.

وَقَد آتَى اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ فِي صِغَرِهِ، وَابْتَعَثَهُ رَسُولًا، وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا فِي كِبَرِهِ. ولم يشاركه في الخلة إلا محمد صلى الله عليهما وسلم. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى عِلْمًا يَقِينًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُشَاهِدَ ذَلِكَ عِيَانًا، وَيَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ فسأَلَ اللهَ ذلك. فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَأَعْطَاهُ غَايَةَ مَأْمُولِهِ. فَأَمَرَهُ أن يحضر أربعة من الطير وأَنْ يُمَزِّقَ لُحُومَهُنَّ وَرِيشَهُنَّ، وَيَخْلِطَ ذَلِكَ بَعْضَهُ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ يُقَسِّمَهُ قِسَمًا، وَيَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا فَفَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ، ثُمَّ أُمِرَ أَنْ يَدْعُوهُنَّ بِإِذْنِ رَبِّهِنَّ، فَلَمَّا دَعَاهُنَّ جَعَلَ كُلُّ عُضْوٍ يَطِيرُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَكُلُّ رِيشَةٍ تَأْتِي إِلَى أُخْتِهَا حَتَّى اجْتَمَعَ بَدَنُ كُلِّ طَائِرٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ. فَأَتَيْنَ إِلَيْهِ سَعْيًا لِيَكُونَ أَبْيَنَ لَهُ وَأَوْضَحَ لِمُشَاهَدَتِهِ مِنْ أَنْ يَأْتِينَ طَيَرَانًا.

وأجرى الله على يديه بناء الكعبة وهي بيت الله الحرام الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمناً وعهد الله إليه ولابنه تبعاً له تطهير البيت للطائفين، والعاكفين، والركع، والسجود. وأمر اللهُ سبحانه المؤمنين بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى في المسجد الحرام والعبادة في مواقف الحج كلها، وهو عليه السلام أول من يكسى يوم القيامة، ولم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من ذريته. وأَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ (١) فِي جَبَلٍ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ - عليه السلام - وَسَارَةُ، حَتَّى يَرُدُّونَهُمْ إِلَى آبَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وإبراهيم عليه السَّلام يَعترِفُ بفَضْلِه جميعُ الطَّوائفِ والمِلَلِ؛ فالمشرِكونَ العرب كانوا معترفينَ بفَضْلِه، مُقرِّين بأنَّهم مِن أولادِه، واليهودُ والنَّصارى والمسلمونَ كُلُّهم مُعَظِّمونَ له، مُعترفونَ بجلالةِ قَدْرِه. فَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَشِيعَتِهِ (١). فَنَزَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلِيلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَبَيَّنَ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}. يَعْنِي الَّذِينَ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ فِي زَمَانِهِ وَمَنْ تَمَسَّكَ بِدِينِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ {وَهَذَا النَّبِيُّ} يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لَهُ الدِّينَ الْحَنِيفَ الَّذِي شَرَعَهُ لِلْخَلِيلِ وَكَمَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وأخبر أنّ

إبراهيم (كَانَ أُمَّةً) أَيْ قُدْوَةً إِمَامًا مُهْتَدِيًا دَاعِيًا إِلَى الْخَيْرِ يُقْتَدَى بِهِ فِيهِ (٢). وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} أي: وَفَّى جَمِيعَ مَا أُمِرَ بِهِ (٣)، وَقَامَ بِجَمِيعِ خِصَالِ الْإِيمَانِ وَشُعَبِهِ. وكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَيَّفَ الضَّيْفَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اخْتَتَنَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَتَنَ بِالْقَدُومِ. وَبَنَى أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي أَشْرَفِ الْبِقَاعِ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، وَدَعَا لِأَهْلِهَا بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْ يُرْزَقُوا مِنَ الثَّمَرَاتِ مَعَ قِلَّةِ الْمِيَاهِ، وَعَدَمِ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ (٤)، وَأَنْ يَجْعَلَهُ حَرَمًا مُحَرَّمًا وَأَمْنًا مُحَتَّمًا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ - وَلَهُ الْحَمْدُ - لَهُ مَسْأَلَتَهُ، وَلَبَّى دَعْوَتَهُ وَأَتَاهُ طِلْبَتَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} وَقَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا}. وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَيْ مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى لُغَتِهِمُ الْفَصِيحَةِ الْبَلِيغَةِ النَّصِيحَةِ لِتَتِمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَتَانِ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالدِّينِيَّةُ، بِسَعَادَةِ الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا، وَأَيَّ رَسُولٍ، خَتَمَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَأَكْمَلَ لَهُ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا قَبْلَهُ، وَعَمَّ بِدَعْوَتِهِ أَهْلَ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ وَالْأَعْصَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،[18]

[18] (١) قال ابن كثير: فَفِي السِّفْرِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّوْرَاةِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا مَضْمُونُهُ وَتَعْرِيبُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ مَا سَلَّمَهُ مِنْ نَارِ النَّمْرُودِ أَنْ قُمْ فَاسْلُكِ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا لِوَلَدِكَ. أَمَّا وَلَدُكَ إِسْحَاقُ فَإِنَّهُ يُرْزَقُ ذُرِّيَّةً عَظِيمَةً، وَأَمَّا وَلَدُكَ إِسْمَاعِيلُ فَإِنِّي بَارَكْتُهُ وَعَظَّمْتُهُ، وَكَثَّرْتُ ذُرِّيَّتَهُ، وَجَعَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَاذَ مَاذَ - يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

(٢) عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: "لَمَّا أُرِيَ إِبْرَاهِيمُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَأَى عَبْدًا عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، فَقَالَ اللَّهُ: أَنْزِلُوا عَبْدِي، لَا يُهْلِكُ عِبَادِي".

(٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} قَالَ: " ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالطَّهَارَةِ، خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ، فِي الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَالْمَضْمَضَةُ، وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسِّوَاكُ، وَفَرْقُ الرَّأْسِ، وَفِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَغَسْلُ مَكَانِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ.
وَقَالَ: " مَا ابْتُلِيَ أَحَدٌ بِهَذَا الدِّينِ فَقَامَ بِهِ كُلِّهِ غَيْرُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابْتُلِيَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، فَكَتَبَ اللَّهُ لَهُ الْبَرَاءَةَ، فَقَالَ: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}.

(٤) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ احْتَجَرَهَا دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَنْ كَفَرَ} أَيْضاً فَأَنَا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ. أَخْلُقُ خَلْقاً لَا أَرْزُقُهُمْ؟! {فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ}. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}.

وَلِهَذَا اسْتَحَقَّ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ كَانَ بَانِيَ كَعْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ مَنْصِبُهُ وَمَحَلُّهُ وَمَوْضِعُهُ فِي مَنَازِلِ السَّمَاوَاتِ، وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ (١). وَلَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلَ الرُّسُلِ وَأُولِي الْعَزْمِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، أُمِرَ الْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ فِي تَشَهُّدِهِ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». وَقَبْرُهُ وَقَبْرُ وَلَدِهِ إِسْحَاقَ وَقَبْرُ وَلَدِ وَلَدِهِ يَعْقُوبَ فِي الْمَرْبَعَةِ الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَلَدِ حَبْرُونَ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْمَعْرُوفُ بِالْخَلِيلِ الْيَوْمَ. وَهَذَا مُتَلَقًّى بِالتَّوَاتُرِ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ مِنْ زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِلَى زَمَانِنَا هَذَا أَنَّ قَبْرَهُ بِالْمَرْبَعَةِ تَحْقِيقًا. فَأَمَّا تَعْيِينُهُ مِنْهَا فَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ عَنْ مَعْصُومٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُرَاعَى تِلْكَ الْمَحَلَّةُ، وَأَنْ تُحْتَرَمَ احْتِرَامَ مِثْلِهَا.

[**ذكر يعقوب (إسرائيل) عليه السلام**] واصطفى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بالنبوة، ومما جاء في سيرة يعقوب عليه السلام أنه رحل من بيت المقدس إلى خاله لابان بأرض حران، وَزَوَّجَه ابنتيه: ليا و راحيل. وكان ذلك سائغاً في ملتهم، ثم نسخ في شريعة التوراة وولدت له ليا أولاداً وولدت له راحيل يوسف وبنيامين. ورجع إلى فلسطين عند أبيه إسحاق عليهما السلام. ثم توفي إسحاق واستقر يعقوب هو وأبناؤه الأسباط الاثنا عشر في فلسطين، ومن ذرية الأسباط يتكون نسب بني إسرائيل (١).[19]

[19] (١) أبناء يعقوب (إسرائيل) عليه السلام هم: يُوسُفَ و رُوبِيلُ وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ وَشَمْعُونُ وَلَاوِي وَيَهُوذَا وَدَانِي وَنَفْتَالِي وَكَادُ وَأُشِيرُ وَأَيْسَاجِرُ وَرَايلُونُ وَبِنْيَامِينُ. وَهُمُ الْأَسْبَاطُ، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِيهِمْ فَقِيلَ كَانُوا أَنْبِيَاءَ وَيُقَالُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ نَبِيٌّ. وَقد يطلق لفظ الْأَسْبَاطِ على أَنْبِياء قَبَائِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَدَدٌ كَثِيرٌ

ذكر أيوب عليه السلام: وإنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ - عليه السلام - لَبِثَ بِهِ بَلاؤُهُ ومرضُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فرفضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيرُوحَانَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: تَعْلَمُ وَاللهِ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟، قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ، لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ، فَيَذْكُرَانِ اللهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ. ودعا أيوب ربه أن يكشف ما به من ضر، وَكَانَ أَيُّوبُ يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ، أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ أَنْ: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} (١) فَاسْتَبْطَأَتْهُ، فبلغَتْهُ تَنْظُرُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ واستجاب الله له، فَهو أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيْ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللهِ عَلَى ذَلِكَ، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هو، وَكَانَ لَهُ أَنْدرانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ، وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ (٢)، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ، أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتِ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقَ (٣) حَتَّى فَاضَ، وبيْنَمَا أَيُّوبُ - عليه السلام - يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ - عز وجل -: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَعْطَيْنَاكَ؟، قَالَ: بَلَى يَارَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَاتِكَ، عَنْ فَضْلِكَ. وكان أقسم ليضربنَّ زوجته مائة جلدة إذا شفاه الله، لمَّا غضب عليها من أمر أثناء مرضه، وكانت امرأة صالحة، فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده حُزمة شماريخ (٤)، ويضرب بها زوجته ضربة واحدة إبرارًا بيمينه، فلا يحنث. فخفف الله عنهما، وجمعه بأهله جميعاً، وزاده عليهم مثلهم من البنين والحفدة رحمة به، وجزاءً له على صبره.[20]

---

[20] (١) يعني: اضرب برجلك الأرض. فضرب برجله الأرض، فنبع له منها ماء يشرب منه ويغتسل، فيذهب ما به من الضر والأذى.

(٢) هو المكان الذى يوضع فيه القمح والشعير.

(٣) وهو: الفضة.

(٤) يعني: شماريخ النخل، وهي حزمة من العيدان التى كان عليها البسر. والتي تكون فيها العذوق.

ذكر يوسف عليه السلام وكان يوسف وشقيقه الأصغر بنيامين هما أصغر أبناء يعقوب، وأُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسْنِ (١). ولما كان يوسف في سن الطفولة أخبر والده يعقوب عليهما السلام أنه رأى في المنامِ أحدَ عشَرَ كوكبًا والشَّمسَ والقمرَ يسجدون له، ففهم يعقوب تفضيل يوسف على إخوته بالنبوة والعلم، لكنه خشي على يوسُفَ من حسد إخوته وكيدهم له ومن مكر الشيطان، فأمره ألا يقص هذه الرؤيا على إخوته. وتشاكى إخوةُ يوسُفَ مِن أبيه فيما بينهم من محبة أبيهم ليُوسُفَ وأخاه الشَّقيقَ الأصغر بنيامين، وذكر بعضهم أن أباهم يعقوب يُفَضِّلُهما عليهم مع أنهم جماعةٌ أكثر عدداً وأكبر سناً وأنفع في خدمة أبيهم من يوسف وأخيه. فقال بعضهم: اقتُلوا يوسُفَ، أو ألقُوه في أرضٍ مجهولةٍ، بعيدةٍ عن العُمرانِ، حتى يَخلُصَ لكم حُبُّ أبيكم، ولا يلتفِتْ عنكم إلى غيرِكم، ثم تتوبوا من ذنبكم بعد قَتْلِ يُوسُفَ أو إبعادِه (٢). لكن أحدهم نصحهم ألا يقتُلوا يوسُفَ، وأن يكتفوا بإلقائه في جَوفِ البِئرِ حتى يلتَقِطْه بعضُ المارَّةِ مِن المُسافرينَ فيبعد عنهم ويستريحوا منه. وبعدَ اتِّفاقِهم على إبعادِه طلبِ إخوةِ يوسُفَ من أبيهم أن يأذَنَ في خروجِ يوسفَ معهم، وقالوا لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تأمَنَّا على يوسُفَ مع أنَّه أخونا، ونحن نُريدُ له الخيرَ، ونُشفِقُ عليه ونرعاه، ونخُصُّه بخالِصِ النُّصحِ؟ أرسِلْه معنا غدًا يأكُلْ وينَشَطْ ويَفرحْ، ويلعَبْ بالاستِباقِ ونحوِه، وإنَّا لحافِظونَ له من كلِّ ما تخافُ عليه.[21]

[21] (١) أي نصف كمال الجمال البشري، وقيل: نصف جمال آدم عليه السلام. وأن المقصود بـ (أمه): سارة زوجة إبراهيم عليه السلام، وهي أم جده إسحاق عليهم السلام.
قال ابن قتيبة: وَالَّذِي عِنْدِي فِي ذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ تبَارَكَ وتعالى، جعَلَ لِلْحُسْنِ غايَةً وحدًا، وجعله لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، إِمَّا لِلْمَلَائِكَةِ، أَوْ لِلْحُورِ الْعينِ؛ فجعل ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ نِصْفَ ذَلِكَ الْحُسْنِ، وَنِصْفَ ذَلِكَ الْكَمَالِ.
وقَدْ يجوزُ أَنْ يكُونَ جعلَ لِغَيْرِهِ ثُلُثَهُ، ولِآخر رُبُعَهُ، ولِآخر عُشْرَهُ، ويجُوزُ أَنْ لَا يَجْعَلَ لِآخرَ مِنْهُ شَيْئًا.
وكَذَلِكَ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ أُعْطِيَ نِصْفَ الشَّجاعَةِ، لَمْ يجُزْ أَنَّ يكُونَ أُعْطِيَ نِصْفَهَا، وجُعِلَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمُ النِّصْفَ الْآخَرَ. ولَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى؛ لوَجَبَ أَنْ يكُونَ الَّذِي أُعْطِيَ نِصْفَ الشَّجَاعَةِ، يُقَاوِمُ الْعِبَادَ جَمِيعًا وَحْدَهُ.
ولَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنْ لِلشَّجَاعَةِ حدًّا يعْلَمُهُ اللَّهُ تعالى، ويَجْعَلُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، ويُعْطِي غَيْرَهُ النِّصْفَ مِنْ ذَلِكَ، ويُعْطِي لِآخَرَ الثُّلُثَ، أَوِ الرُّبُعَ، أَوِ الْعُشْرَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.
(٢) فبيّتوا نيّة التوبة قبل فعل الذنب.

فقال أبوهم يعقوبُ: إنّي لَيؤلِمُ نفسي ذهابُكم به، ومُفارقتُه لي، وأخشى أن يأكُلَه الذّئبُ وأنتم عنه غافِلونَ، فقال إخوةُ يوسُفَ لوالِدِهم: لئنْ أكَلَه الذّئبُ ونحن جماعةٌ قويّةٌ، إنَّا إذًا لخاسِرونَ، لا خيرَ فينا، ولا نَفعَ يُرْجَى منَّا. فلمَّا أقنعوا أباهم وطمأنوه، ذهبَ إخوةُ يوسُفَ به وأجمَعوا على إلقائه في جَوفِ البِئرِ، وفعَلوا به ما فعلوا من الأذى، وأخذوا منه قميصه، وذبحوا سَخلة (شاة وليدة) فأخذوا دمها فلطخوا به القميص، وأوحَى اللهُ إلى يوسُفَ أنه سيخبر إخوته مُستقبَلًا بفِعلِهم هذا الذي فعَلوه به، وهم لا يَعلَمونَ أنَّه أخوهم يوسُفُ. ثم رجع إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم في وقتِ العِشاءِ يَتباكونَ، وأتوا في وقت الظلمة حتى لا يرى أعينهم ويدرك تحايلهم، وهم يُظهِرونَ الأسفَ والجزَعَ، وقالوا: يا أبانا إنَّا ذَهَبْنا نتسابَقُ، وترَكْنا يوسُفَ عند زادِنا وثيابِنا فأكَلَه الذّئبُ، ونعلم أنك لن تصدقنا. ثم جاؤوا بقميصِه مُلطَّخًا بدَماء ليست بدَمِ يوسُفَ؛ لكي يبرهنوا صِدقِهم، وقيل أنهم: نسوا أن يمزقوا القميص، فكان دليلًا على كَذِبِهم، فكيف يأكل الذئب طفلاً دون تمزيق قميصه؟! فقال لهم أبوهم يعقوبُ عليه السَّلامُ: ليس الأمرُ كما تقولونَ، بل زيَّنَت لكم أنفُسُكم الأمَّارةُ بالسُّوءِ أمرًا قبيحًا في يوسُفَ، فرأيتُموه حسَنًا وفعَلتُموه، فصبري صبرٌ جميلٌ لا شكوى معه لأحدٍ مِن الخَلقِ، وأستعينُ باللهِ على احتمالِ ما تَصِفونَ مِن الكَذِب، لا على حَولي وقوَّتي. ثم جاءت جماعةٌ مِن المُسافرينَ فأرسَلوا مَن يطلُبُ لهم الماءَ، فلمَّا أنزل دَلْوَه في البئرِ ليحضر الماء؛ تعلَّقَ بها يوسُف، فقال ذلك الوارِدُ: يا بُشرايَ هذا غلامٌ. وأخفَى أولئك المسافرون أمرَ يوسُفَ، وجعَلوه بضاعةً وعزَموا على بيعِه، وأخذوه معهم من فلسطين وباعوه في مصر بثَمَنٍ قليلٍ مِن الدَّراهِمِ (١)، وكانوا زاهدينَ فيه، راغبينَ في التخَلُّصِ منه، واشتَراه منهم عزيزُها- وهو الوزيرُ- وقال لامرأتِه: أحسِني مُعامَلتَه، واجعلي مَقامَه عندنا كريمًا؛ لعلَّنا نستفيدُ مِن خِدمتِه أو نتبناه. وبذلك أنجى اللهُ يوسُفَ مِن الجُبِّ (البئر)، وجَعَل وزيرَ «مصر» يَعطِفُ عليه، وعَلَّمه الله تفسيرَ الرُّؤى، ومعاني كتُبِ الله وسُنَنَ الأنبياءِ. ولَمَّا بلغ يوسُفُ مُنتهى قوَّتِه في شبابِه أعطاه اللهُ النُّبوَّةَ والعِلمَ، جزاءً على إحسانِه وصبره. ولما كان يوسف بالغ الحسن والجمال تعلقت امرأة الوزير بحبه وخططت لإيقاعه في معاشرتها، فتهيأت وتزينت ودعته إلى نَفسِها، وغلَّقَت الأبوابَ عليها وعلى يوسُفَ، وقالت: هلمَّ إليَّ، فقال: معاذَ اللهِ! أعتَصِمُ به وأستجيرُ مِن الذي تدعِينَني إليه مِن خيانةِ سَيِّدي الذي أحسنَ مَنزِلتي وأكرَمَني، فلا أخونُه في أهلِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ مَن ظَلمَ فَفَعل ما ليس له فِعلُه.

ولما استنفدت خططها وحيلها ولم تحصل على ما تريد منه؛ غضبت من امتناعه وتحفظه، وهمّت أن تضربه على تمنّعه وعصيانه أوامرها وهي امرأة سيده، وهمّ يوسف أن يدفعها أو يضربها لغضبه من شناعة ما بدر منها وإصرارها على السوء وإيقاعه فيه، مع أنه وعظها ونبهها إلى شناعة ما تدعوه إليه، لكنه -بما علَّمه الله من حسن التدبير- أدرك أن بذل قوته في دفعها عن نفسه قد يُتَّخَذُ عليه حُجَّةً أنه أراد بقوته إجبار المرأة الأضعف على مراد سيء، ورأى أن ترك ضربها وترك دفعها عن نفسه والإعراض عنها والسعي في الخروج من المكان -حتى تكون هي التي تعتدي عليه-؛ فإنه يكون برهاناً -من توفيق ربه- يشهد بنزاهته، فرأى بعد الوعظ أن يكتفي بالإعراض عنها والانصراف عنها أسرع ما يمكن؛ فإن خرج من المكان؛ كان أسلم له، وإن اعتدت عليه كان برهاناً على براءته، وهذا من فضل الله وتعليمه لنبيه، فهو سبحانه يصرف عن نبيه السُّوءَ والفاحِشةَ في جميع أمورِه؛ فيوسف من الأنبياء المُطَهَّرينَ المُصطَفَينَ للرِّسالةِ، الذين أخلَصَهم الله من الشِّركِ والسُّوءِ والفَحشاءِ. وأسرعَ يوسُفُ إلى البابِ يريدُ الخُروجَ، وأسرَعَت غاضبة تُحاوِلُ الإمساكَ به، وجذَبَت قميصَه مِن خَلْفِه؛ لتَحُولَ بينه وبين الخروجِ فشَقَّته، ووجدا زوجَها عند البابِ، فبادرت المرأةُ محاوِلةً إبراء نفسها واتهمت يوسف، وقالت لزوجها: ما جزاءُ مَن أراد بامرأتك سوءاً إلّا أن يُسجَنَ أو يُعذَّبَ العذابَ المُوجِعَ. وقال يوسُفُ -مدافعاً عن نفسه-: هي التي طلَبَتْ وحاولتْ، وأنا امتنعتُ منها. فأرسل الوزير إلى محقق أمين من أهل امرأته ليحقق في هذا الأمر، فحقق في الأمر ولم يجد أثراً للاعتداء على المرأة، مع أن قميص يوسف مشقوق، وبعد التحقيق والنظر قال المحقق في حكمه للوزير: إن كان قميصُ يوسف شُقَّ من الأمامِ فصَدَقت في اتّهامِها له؛ حيث يكون أرادها وهي امتنعت وشقت قميصه من الأمام عند الدفاع عن نفسها، وإن كان قميصُ يوسف شُقَّ من الخلَفِ؛ فكَذَبت في قَولِها، فتكون هي التي أرادته وهو معرض عنها، وهو من الصَّادقينَ. فلمَّا رأى الوزير قميصَ يوسُفَ شُقَّ مِن خَلفِه عَلِمَ براءةَ يوسُفَ، وقال لزَوجتِه: إنَّ هذا الكَذِبَ الذي اتَّهَمتِ به هذا الشَّابَّ هو مِن جملةِ مَكرِكُنَّ- أيَّتُها النِّساءُ- إنَّ مَكرَكُنَّ عظيمٌ، وقال ليوسُفَ: يوسُفُ، اترُكْ ذِكرَ ما كان منها، فلا تَذكُرْه لأحدٍ، وقال لامرأته: اطلُبي- أيَّتُها المرأةُ- المغفرةَ لذَنبِك؛ إنَّك كنتِ من الآثمِينَ في مُراودةِ يوسُفَ عن نفسِه، وفي افترائِكِ عليه. ومع هذا التكتم فقد تسرَّبَ وشاعَ خبرُ امرأةِ العزيزِ، وتحدث به نِسوةٌ في المدينةِ واغتبن امرأةَ العزيز وقُلنَ مُنكِراتٍ عليها: امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ غُلامَها عن نفسِه، وتدعوه إلى نَفسِها، وقد بلَغ حبُّها له مبلغًا عظيمًا، إنَّا لنَرَاها في هذا الفِعلِ في ضلالٍ واضِحٍ. وقد مكر النسوة بهذا

القول لرغبتهن أن يصل هذا الكلام إلى امرأة العزيز فتريهم يوسف وجماله. فلمَّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ بغيبتِهنَّ إيَّاها، واحتيالِهنَّ في ذمِّها، أرسَلَت إليهنَّ تَدعوهنَّ لزيارتِها، وهيَّأَت لهنَّ ما يتَّكِئنَ عليه مِن الوسائِدِ، وما يأكُلنَه مِن الطَّعامِ، وأعطَتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّينًا؛ ليُقَطِّعنَ الطَّعامَ، ثمَّ قالت ليوسُفَ: اخرُجْ عليهنَّ، فلمَّا رأينَه أعظَمْنَه وأجلَلْنَه، وأخَذَهنَّ حُسنُه وجَمالُه، فجَرَحنَ أيديَهنَّ وهُنَّ يُقَطِّعنَ الطَّعامَ؛ مِن فَرْطِ النظرِ إليه والدَّهشةِ والذُّهولِ، وقُلنَ مُتعَجِّباتٍ: مَعاذَ اللهِ، ما هذا مِن جِنسِ البشَرِ؛ لأنَّ جمالَه غيرُ مَعهودٍ في البشَرِ، ما هو إلَّا مَلَكٌ كريمٌ مِن الملائكة. عندها أبدت امرأةُ العزيزِ عذرها في مراودة يوسف من شدة جماله، وقالت للنِّسوةِ اللَّاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ: فهذا- الذي أصابكُنَّ لمجرد رؤيَتِكنَّ إيَّاه - هو الفتى الذي لُمتُنَّني في الافتتانِ به، ولقد راودتُه عن نفسِه، فامتنَعَ وأبى، ولئنْ لم يفعَلْ ما آمُرُه به لَيُعاقَبَنَّ بدخولِ السِّجنِ، ولَيكونَنَّ مِن الأذِلَّاءِ. وكانت تُسمِعُ يوسفَ هذا الكلام مهددة له أمامهن، فكأنهن أشرن على يوسف أن يجيبها لما تريد وألا يعرض نفسه للسجن والأذى. فقال يوسُفُ مُستعيذًا مِن شَرِّهِنَّ ومَكرِهِنَّ: ربِّ، السِّجنُ أحَبُّ إليَّ ممَّا يدعونَني إليه مِن عمَلِ الفاحِشةِ، وإنْ لم تدفَعْ عنِّي مَكرَهنَّ أَمِلْ إليهنَّ، وأكُنْ مِن الجاهلينَ، فاستجاب اللهُ ليوسُفَ دعاءَه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأةُ العزيزِ وصَواحِباتُها مِن معصيةِ الله، فهو سبحانه سميع عليم. ثمَّ ظهر للعزيزِ وأصحابِه - من بعدِ ما رأَوا الأدلَّةَ على براءةِ يوسُفَ وعِفَّتِه- أن يسجُنوا يوسف إلى مُدَّةٍ مِن الزَّمَنِ؛ لينقطِعَ بذلك الخبرُ، ويتناساه النَّاسُ. ودخَل مع يوسفَ عليه السلامُ السجنَ فَتَيانِ، قال له أحدهما: إنِّي رأيتُ في المنامِ أنِّي أعصِرُ عِنبًا ليصيرَ خَمرًا، وقال الآخَرُ: إنِّي رأيتُ أنِّي أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزًا تأكُلُ الطَّيرُ منه، أخبِرْنا- يا يوسُفُ- بتفسيرِ ما رأينا، إنَّا نراك من المحسنين. قال لهما يوسفُ: لا تريانِ في مَنامِكما طَعامٌ تُرزَقانِه إلَّا أخبَرتُكما بتفسيره في اليقَظةِ قبل أن يأتيَكما، ذلك التَّعبيرُ الذي سأعبِّرُه لكما ممَّا علَّمَني ربِّي؛ إنِّي آمنتُ به، وأخلصتُ له العبادةَ، وابتعدتُ عن دينِ قَومٍ لا يُؤمِنونَ باللهِ، وهم بالبَعثِ والحِسابِ جاحِدونَ، واتَّبَعتُ دينَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فعبدتُ اللهَ وَحدَه، ما كان لنا أن نجعلَ لله شريكًا في عبادتِه، ذلك التَّوحيدُ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، ممَّا تفضَّلَ اللهُ به علينا وعلى النَّاسِ الذين جعَلَنا دُعاةً لهم إلى توحيدِه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يشكُرونَ. وأخذ يوسف يدعوهما إلى توحيد الله ويبيّن لهما الدين الحق، وقال لهما: يا ساكِنَي السِّجنِ، أعبادةُ آلهةٍ مخلوقةٍ شَتَّى خيرٌ أم عبادةُ اللهِ الواحدِ القَهارِ؟ ما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ إلَّا أسماءً لا معانيَ وراءَها، جعلتُموها أنتم وآباؤكم أربابًا، جهلًا منكم وضلالًا، ما أنزل اللهُ مِن حُجَّةٍ أو برهانٍ على صِحَّتِها،

وما الحُكمُ إلَّا لله تعالى وَحدَه لا شريكَ له، هو سبحانه أَمَرَ أَلَّا تعبُدوا أحدًا غيرَه، وهذا هو الدِّينُ القيِّمُ الذي لا عِوَجَ فيه، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ يجهَلون ذلك، فلا يعلمونَ حقيقتَه.

ثم فسر لهما رؤياهما بقوله: أمَّا أحدُكما فإنَّه يخرجُ مِن السِّجنِ، ويكونُ ساقِيَ الخَمرِ للمَلِك، وأمَّا الآخَرُ فإنَّه يُصلَبُ ويُترَكُ، فتأكُلُ الطَّيرُ مِن رأسِه، فُرِغَ من تأويل رؤياكما وهو واقع بقضاء الله، وقال يوسُفُ للذي عَلِمَ أنَّه ناجٍ من صاحِبَيه: اذكُرني عند سيِّدِك المَلِك، وأخبِرْه بأنِّي مظلومٌ، قد سُجِنْتُ بلا ذَنبٍ، فأنسَى الشَّيطانُ ذلك الرَّجُلَ أن يَذكُرَ للمَلِك حالَ يوسُفَ، فمكثَ يوسُفُ بعد ذلك في السِّجنِ عِدَّةَ سَنواتٍ. وبعد تلك السنين جمع ملك مصر أهل الشورى والعلم وقال لهم: إنِّي رأيتُ في منامي سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ، يأكُلُهنَّ سَبعُ بقَراتٍ نَحيلاتٍ مِن الهُزالِ، ورأيتُ سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ، وسَبعَ سُنبُلاتٍ يابساتٍ يلتففن على السنبلات الخضر ويسقطنهن، يا أيُّها الأشرافُ والكُبَراءُ أخبِروني عن هذه الرُّؤيا، إن كنتُم على عِلمٍ بتفسيرِ الرُّؤى. فقالوا له: رؤياك هذه أخلاطٌ من الأحلامِ لا تأويلَ لها، وما نحن بتفسيرِ الأحلامِ المختلطةِ بعالِمينَ، وهنا تذكر ساقي الملك -وهو الذي نجا من الفَتيَينِ اللَّذينِ كانا في السِّجنِ معَ يُوسفَ- أن يوسف عليه السلام يتقن تأويل الرؤى، فقال للملك ومن معه: أنا أُخبِرُكم بتأويلِ هذه الرُّؤيا، فابعَثوني إلى يوسُفَ المسجونِ؛ لآتيَكم بتفسيرِها. وعندما وصل الرَّجُلُ إلى يوسُفَ قال له: يا يوسُفُ يا أيُّها الصِّدِّيقُ فسِّرْ لنا رؤيا مَن رأى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلهنَّ سَبعُ بقَراتٍ هَزيلاتٍ، ورأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ وأُخَرَ يابساتٍ؛ لعلِّي أرجِعُ إلى المَلِك وأصحابِه فأُخبِرُهم؛ ليعلموا تأويلَ ما سألتُك عنه، وليعلَموا مكانتَك وعلمك وفَضلَك.فقال يوسُفُ لسائلِه عن رُؤيا المَلِك: تفسيرُ هذه الرُّؤيا هو أنَّكم تزرعونَ سبعَ سِنينَ مُتتابِعةً جادِّينَ ليكثُرَ العَطاءُ، فما حصدتُم منه في كلِّ مرَّةٍ فادَّخِروه واترُكوه في سُنبُلِه؛ لئلَّا يَفْسُدَ، إلَّا قليلًا ممَّا تأكُلونَه من الحبُوبِ. ثمَّ يأتي بعد هذه السِّنينَ الخِصْبةِ سبعُ سنينَ شديدةُ الجَدْبِ، يؤكَلُ فيهنَّ كلُّ ما ادَّخَرتُم لهنَّ مِن قَبلُ، إلَّا قليلًا ممَّا تَحفَظونَه وتدَّخِرونَه. ثمَّ يأتي مِن بعدِ هذه السِّنينَ المُجدِبةِ عامٌ يُمطَرُ فيه النَّاسُ مطراً يغيثهم ويروي أراضيهم، فيرفَعُ اللهُ تعالى عنهم الشِّدَّةَ، ويَعصِرونَ فيه الثِّمارَ؛ مِن كثرةِ الخِصْبِ والنَّماءِ.

و لَمَّا عَلِمَ المَلِكُ بتأويلِ رُؤياه قال لأعوانِه: أخرِجوا هذا الرجُلَ المعبِّرَ للرُّؤيا من السِّجنِ، وأحضِروه لي، فلمَّا جاءه رسولُ المَلِك يدعوه، قال يوسُفُ للرَّسولِ: ارجِعْ إلى سَيِّدِك المَلِك، واطلُبْ منه أن يسألَ النِّسوةَ اللَّاتي جَرَحْنَ أيديَهنَّ عن حقيقةِ أمْرِهنَّ وشأنِهنَّ معي؛ لتظهَرَ الحقيقةُ للجميعِ، وتتَّضِحَ براءتي، إنَّ رَبِّي عليمٌ بصَنيعِهِنَّ وأفعالِهِنَّ، لا يخفى عليه- سُبحانه- شَيءٌ مِن ذلك. فدعا المَلِكُ النِّسوةَ

اللَّاتي جرَحْنَ أيديَهنَّ، وقال لهنَّ: ما شأنُكنَّ حين راودتُنَّ يوسُفَ عن نفسِه يومَ الضِّيافةِ؟ فهل رأيتُنَّ منه ما يَريبُ؟ قُلنَ: معاذَ اللهِ ما علِمْنا عليه أدنى شيءٍ يَشِينُه، عند ذلك قالت امرأةُ العزيزِ: الآنَ ظهرَ الحَقُّ بعدَ خفائِه، فأنا التي حاوَلْتُ فِتنتَه بإغرائِه فامتنعَ، وإنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ في كُلِّ ما قاله، ذلك القَولُ الذي قُلتُه في تنزيهِه والإقرارِ على نفسي؛ ليعلمَ يوسُفُ أنِّي لم أَخُنْه بالكَذِبِ عليه حالَ غَيبتِه عنِّي، وأنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ أهلَ الخيانةِ، ولا يُرشِدُهم في خيانتِهم، وما أُزَكِّي نفسي ولا أُبَرِّئُها؛ إنَّ النَّفسَ لَكثيرةُ الأمرِ لصاحِبِها بعمَلِ المعاصي؛ طلباً لمَلَذَّاتِها، إلَّا مَن عصَمَه الله، إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ مَن تاب مِن عبادِه، رحيمٌ بهم. و حين عَلِمَ مَلِكُ مصرَ بَراءةَ يوسُفَ قال: جيئُوني به أجعَلْه مِن خُلَصائي وأهلِ مَشورتي، فلَمَّا جاء يوسُفُ، وكلَّمه المَلِكُ، وعرَفَ براءتَه، وعظيمَ أمانتِه، وحُسنَ خُلُقِه وجليل علمه؛ قال له: إنَّك اليومَ عندنا عظيمُ المكانةِ، ومُؤتَمَنٌ على كلِّ شَيءٍ، وأراد يوسُفُ أن ينفعَ العبادَ، ويُقيمَ العدلَ بينهم، فقال للمَلِكِ: اجعَلْني والياً على خزائنِ مِصرَ؛ فإنِّي خازِنٌ أمينٌ، ذو عِلمٍ وبصيرةٍ بما أتولَّاه. وكذلك أنعَمَ اللَّهُ على يوسُفَ بالخَلاصِ مِن السِّجنِ، ومكَّنَ له في أرضِ مصرَ ينزِلُ منها أيَّ مَنزِلٍ شاءَه، وجعله عزيز مصر والوالي على خزائنها. ثم قدِمَ إخوةُ يوسُفَ إلى مِصرَ بعد أنْ حلَّ بهم الجَدبُ في أرضِهم؛ ليَجلبوا منها الطَّعامَ، فدَخَلوا على يوسفَ، فعَرَفَهم لأنه رآهم كباراً ولم يتغيروا كثيراً ولم يَعرِفوه هم لطولِ المدَّةِ حيث فارقهم طفلاً صغيراً وقد شبَّ وتغيَّرت هيئته. فأمَرَ يوسُفُ بإكرامِهم وحُسنِ ضيافتِهم، ثمَّ أعطاهم مِن الطَّعامِ ما طلَبوا، وسألهم عن أهلهم وأحوالهم وعددهم، فأخبَروه أنَّ لهم أخًا مِن أبيهم لم يُحضِروه معهم- يُعنونَ شَقيقَه- فقال: في المرة القادمة ائتُوني بأخيكم مِن أبيكم، ألم تَروا أنِّي أوفيتُ لكم الكَيلَ، وأكرَمتُكم في الضِّيافةِ، وأنا خيرُ المُضْيفينَ لِمَن نزَلَ بي؟ فإنْ لم تأتوني به فليس لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم، ولا تأْتوا إليَّ. فقالوا: سنبذُلُ جُهدَنا لإقناعِ أبيه أنْ يُرسِلَه معنا، ولن نُقصِّرَ في ذلك. وقال يوسُفُ لغِلمانِه: أعيدوا لهم الثَّمَنَ الذي دفعوه واجعلوه في أمتعتِهم سِرًّا مع ما أعطيناهم من البضائع؛ رجاءَ أن يَعرِفوا إذا انصرفوا إلى أهلِهم وفتحوا أمتعتهم هناك، أنا أكرمناهم وضيفناهم وأوفينا لهم أفضل الكيل والبضاعة وأعدنا لهم الثمن فلم نأخذ منهم شيئاً مقابل كل ذلك، ليكون ذلك أدعى لهم في الرجوع إلينا مرَّةً أُخرى. فلَمَّا رجَعوا إلى أبيهم قصُّوا عليه ما كان مِن إكرامِ الوزير لهم، وقالوا: إنَّه لن يُعطِيَنا مُستقبَلًا إلَّا إذا كان معنا أخونا -بنيامين- حيثُ أخبَرناه به، فأرسِلْه معنا نُحضِرِ الطَّعامَ وافيًا، ونتعهَّدُ لك بحِفظِه. فقال لهم أبوهم: كيف آمَنُكم على بنيامين وقد أمِنتُكم على أخيه يوسُفَ مِن قَبلُ، والتَزمتُم بحِفظِه فلم تَفُوا

بذلك؟! فلا أثقُ بالتزامِكم وحِفظِكم، ولكِنّي أثقُ بحِفظِ اللهِ، خيرِ الحافظينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ. ولَمَّا فَتَحوا أوعيَتَهم وجَدوا ثَمنَ بضاعتِهم الَّذي دَفَعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: يا أبانا ماذا نطلُبُ أكثَرَ من هذا؟! هذا ثَمَنُ بضاعتِنا رَدَّه العزيزُ إلينا، فكُنْ مُطمَئِنًّا على أخينا، وأرسِلْه معنا، لنجلِبَ طَعامًا وفيرًا لأهلِنا، ونحفَظَ أخانا، ونزداد حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يَكيلُ لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ، فرجع إخوةُ يوسُفَ إليه، وقام يوسُفُ بنَفسِه يُفتِّشُ أمتِعتَهم، فبدَأَ بأمتِعتِهم قبل مَتاعِ شَقيقِه، إحكامًا لِما دبَّرَه لاستبقاءِ أخيه معه، ثمَّ انتهى بوعاءِ أخيه، فاستخرجَ الإناءَ (الصواع) منه، كذلك يسَّرَ اللهُ ليوسُفَ هذا التَّدبيرَ الَّذي توصَّلَ به لأخْذِ أخيه بإقرارِ إخوته وحسب شريعتهم، وما كان له أن يأخُذَ أخاه في حُكمِ مَلِكِ مصرَ- لأنَّه ليس مِن دينِه أن يتملَّكَ السَّارِقَ-، لكن الأمر تم ليوسف بمَشيئةَ اللَّهِ، فقد كادَ اللهُ وقدَّر لِمصلحة يوسُفَ، حتَّى يتمكَّنَ مِن أخْذِ شقيقِه مِن إخوتِه، بناءً على شريعتِهم، وإقرارِهم بأنفُسِهم. فاللهُ سبحانه يرفع مَنازِلَ من يشاء في الدُّنيا على غيرِه بالعلم والتدبير، كما رفَعَ منزلةَ يوسُفَ، وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ مَن هو أعلَمُ منه، حتَّى ينتهيَ العِلمُ إلى اللَّهِ تعالى عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ.

ولَمَّا استُخرِجَ الصُّواعُ مِن رَحلِ أخيهم قال إخوةُ يوسُفَ: إنْ سرَقَ هذا فقد سرَقَ أخٌ شقيقٌ له مِن قَبلُ- يقصِدونَ يوسُفَ عليه السَّلامُ- فأخفَى يوسُفُ في نفسِه كلمةً حدَّثَ نفسَه بها قائلًا: أنتم أسوأُ مَنزلةً ممَّن ذكَرْتُم؛ حيثُ دبَّرتُم لي ما كان منكم، واللَّهُ أعلَمُ بما تَصِفونَ مِن الكَذِبِ والافتراءِ.

ثم تذكر إخوة يوسف ميثاقهم مع أبيهم أن يعيدوا بنيامين إليه، فقالوا ليوسف مُستعطفينَ: يا أيُّها العَزيزُ، إنَّ له والدًا كبيرًا في السِّنِّ يحبُّه، ولا يُطيقُ بُعدَه، فخُذْ أحَدَنا بدلًا منه؛ إنَّا نراك مِن المُحسنينَ. فقال يوسُفُ: نَستعيذُ باللَّهِ أن نأخُذَ أحدًا غيرَ الَّذي وجَدْنا الصُّواعَ عندَه، فإنَّنا نكونُ في عِدادِ الظَّالمينَ إن فعَلْنا ما تطلُبونَ. فلمَّا يَئِسوا مِن إجابتِه إيَّاهم لِمَا طَلَبوه، انفَرَدوا عن النَّاسِ، وأخذوا يتشاوَرونَ فيما بينهم. فقال كبيرُهم: ألم تَعلَموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم العهدَ المُؤكَّدَ؛ لَترُدُّنَّ أخاكم إلَّا أن تُغلَبوا، ومِن قبلِ هذا كان تقصيرُكم في يوسُفَ وتضييعُكم له؛ لذلك لن أُفارِقَ أرضَ مِصرَ حتَّى يأذنَ لي أبي في مُفارَقتِها، أو يقضيَ لي ربِّي بالخُروجِ منها، واللهُ خيرُ مَن حكَمَ، وأعدَلُ مَن فَصَلَ بين النَّاسِ. ثم قال لهم: ارجِعُوا إلى أبيكم، وأخبِروه بما جرَى، وقُولوا له: إنَّ ابنَكَ قد سرَقَ، وما شَهِدْنا بذلك إلَّا بعدَ أنْ تيَقَّنَّا؛ فقد رأيْنا المِكيالَ في رَحْلِه، وما كان عِندَنا عِلمُ الغَيبِ أنَّه سيَسرِقُ حين عاهَدْناكَ على رَدِّه، واسألْ- يا أبانا- أهلَ مِصرَ، ومَن كان معَنا في القافِلةِ الَّتي كنَّا فيها، وإنَّنا لصادِقونَ فيما أخبَرْناكَ به.

ولَمَّا رجَعوا وأخبَروا أباهم، قال لهم: بل زَيَّنَتْ لكُم أنفُسكم مَكيدةً دبَّرتُموها، كما فعَلتُم مِن قَبلُ مع يُوسُفَ، فصَبري صبرٌ جَميلٌ، لا جزَعَ فيه ولا شَكوَى معه، عسى اللّهُ أنْ يرُدَّ إليَّ أبنائي جميعًا- يوسُفُ، وشقيقُه، وأخوهمُ الكبيرُ الَّذي تخلَّفَ مِن أجْلِ أخيه-، إنَّه هو العليمُ بحالي، الحكيمُ في تدبيرِه. وأعرَضَ يَعقوبُ عنهم، وقد ضاق صَدرُه بما قالوه، وقال: يا حَسرَتِي على يوسُفَ، وابيضَّتْ عيناه، مِن شِدَّةِ الحزنِ، فهو مُمتلِئُ القَلبِ حُزنًا، ولكِنَّه شَديدُ الكِتمانِ له. فقال بَنُوه: تاللّهِ، ما تزالُ تتذَكَّرُ يوسُفَ، ويَشتَدُّ حُزنُك عليه، حتَّى تُشْرِفَ على الهَلاكِ أو تَهلَكَ فِعلًا، نخَفِّفْ عن نفْسِك. فقال يعقوبُ مُجيبًا لهم: لا أُظهِرُ همِّي وحُزني إلَّا إلى اللّهِ وَحْدَه، فهو كاشِفُ الضُّرِّ والبَلاءِ، وأعلَمُ مِن رَحمةِ اللّهِ وفَرَجِه ما لا تَعلَمونَه. وكأنّ يعقوب قد تفكر في حال ذلك الرجل الكريم عزيز مصر الذي أكرم أولاده وضيّفهم في زمن القحط، وأوفى لهم الكيل، ورد لهم الثمن، وطلب منهم إحضار أخيهم ليكرمه، فكأنّه رأى فيه كرم النبوة وكرم جده إبراهيم عليه السلام حيث أنه أول من ضَيَّفَ الضيْفَ، كما أنّ ذاك العزيز حكم بشريعة يعقوب في استرقاق السارق، فاجتمعت فيه خصالٌ من أخلاق الإيمان والنبوة، وكذلك كان مايرجوه يعقوب ليوسف من النبوة حين أخبره عن رؤياه وهو صغير. فقال يعقوب لأبنائِه: عُودُوا إلى مِصرَ، فاستَقْصُوا أخبارَ يوسُفَ وأخيه، ولا تَقنَطوا مِن رَحمةِ اللّهِ، إنَّه لا يَقنَطُ مِن رَحمةِ اللّهِ إلَّا الجاحِدونَ لقُدرتِه، الكافِرونَ به. ثم إنَّ إخوةَ يوسُفَ لما رجَعوا إلى مِصْرَ، ودخَلوا على يوسُفَ، أرادوا استرقاق قلبه بضعفهم وشدة حاجتهم، فإن رأوا منه ليناً وشفقة، حاولوا معه أن يطلق لهم أخاهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أيُّها العزيزُ، أصابَنا وأهْلَنا القَحْطُ والجَدْبُ، وجِئْناكَ بثَمنٍ رَديءٍ قليلٍ، فأعْطِنا به ما كُنتَ تُعطِينا وتُكرِمنا مِن قَبلُ بالثَّمَنِ الجيِّدِ، وتصدَّقْ علَيْنا بقَبضِ هذه الدَّراهِمِ المُزجاةِ وتَجَوَّزْ فيها؛ إنَّ اللّهَ تعالى يُثيبُ المتفَضِّلينَ بأموالِهم على المحتاجينَ. فلمَّا سمِعَ مَقالتَهم رَقَّ لهم، وعرَّفَهم بنَفْسِه، وقال: هلْ تذكُرونَ الَّذي فعَلْتُموه بيوسُفَ وأخيه مِنَ الأذَى في حالِ جَهْلِكم بعاقبةِ ما تَفعلونَ؟ قالوا: أإنَّكَ لَأنتَ يوسُفُ؟! قال: نعَمْ، أنا يوسُفُ، وهذا شَقيقي، قد تفضَّل اللّهُ علينا، فجَمَعَ بيْننا بعدَ الفُرقةِ؛ إنَّه مَن يتَّقِ اللّهَ، ويَصبِرْ على المِحَنِ، فإنَّ اللّهَ لا يُذهِبُ ثوابَ إحسانِه، وإنَّما يَجْزِيه أحسَنَ الجَزاءِ. قالوا: واللّهِ، لقد فَضَّلَكَ اللّهُ علينا، وأعزَّك بالعِلْمِ والحِلمِ، والفَضلِ والكرم والملكِ والجمال، وقد كُنَّا خاطِئينَ فِيما فعَلْناه بكَ. فقال لهم يوسُفُ: لا تَأنيبَ عليكمُ اليومَ، يَغفِرُ اللّهُ لكم، وهو أرحَمُ الرَّاحمينَ لِمَن تاب مِن ذَنبِه، وأناب إلى طاعتِه.

ولَمَّا سألَهم عن أبيه أخبَروه بذَهابِ بَصَرِه مِنَ البُكاءِ عليه، فقال لهم: عُودُوا إلى أبيكم ومعَكم قَميصي هذا، فاطْرَحوه على وجهِ أبي، يَعُدْ إليه بَصَرُه، ثم أَحْضِروا إليَّ جميعَ أهلِكم. ولَمَّا خرجَتْ قافلةُ بَني يَعقوبَ من مِصْرَ مُتَّجِهةً إلى الشَّام، سارعت الريح بحمل رائحة يوسف إلى يعقوب، وقال يعقوبُ لِمَنْ حَضَرَ عندَه في فلسطين: إنِّي لَأَشَمُّ رائحةَ يوسُفَ، لولا أن تُكَذِّبوني وتَنسُبوني إلى الهَرَمِ والخَرَفِ، فقال له الحاضِرونَ: واللَّهِ، إنَّك لفي خَطئِك الَّذي كنتَ عليه قديمًا. فلَمَّا أنْ جاء يعقوبَ ولدُه المبَشِّرُ بِرِسالةِ يوسُفَ، ألْقَى قَميصَ يوسُفَ على وجْهِ أبيه، فعاد مُبْصِرًا بعَينَيه كما كان. وقال يعقوبُ لأولادِه: أَلَمْ أَقُلْ لكم: إنِّي أعلمُ مِنَ اللَّهِ تعالى ما لا تَعلمونَه؟ فقالوا له: يا أبانا، ادعُ اللَّهَ أنْ يَغفِرَ لنا ذُنوبَنا، إنَّا نَعترِفُ بأنَّنا كُنَّا خاطِئينَ، فقال لهم أبوهم: سوف أستغفر لكم ربِّي، إنَّه هو الغَفورُ الرَّحيمُ. فلَمَّا دخَلَ يعقوبُ وأهلُه على يوسُفَ ضَمَّ إليه أبويْه، وقال لجميعِ أهلِه: ادخُلوا مصرَ آمنينَ إنْ شاءَ اللَّهُ، وأجلَسَ أباه وأُمَّه على العَرشِ الَّذي يجلِسُ عليه، وخرَّ الجميعُ له سُجودًا، تحيةً وتعظيمًا ليوسُفَ، وقال لأبيه: يا أبتِ هذا السُّجودُ منكم لي هو تَفسيرُ رُؤْيايَ الَّتي رأيتُها في صِغَري، قد حقَّقَها ربِّي، وقد أحسَنَ بي جلَّ وعلا حين أخرَجني مِن السِّجنِ، وجاء بكم مِن الباديةِ مِن بَعدِ أنْ أفسَدَ الشَّيطانُ بَيني وبين إخوتي، إنَّ ربِّي لطيفٌ لِمَا يُريدُه، إنَّه هو العليمُ الحكيمُ. وقال يوسُفُ داعيًا ربَّه: ربِّي قد آتيتَني مِن مُلْكِ مصرَ، وعلَّمتَني مِن تَعبيرِ الرُّؤى، ومِن عُلومِ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ، وسُنَنِ الأنبياءِ، يا خالقَ السَّمواتِ والأرضِ، أنت ناصِري ومُتولِّي أُموري في الدُّنيا والآخِرَةِ، تَوفَّني وأنا على الإسلامِ، وألْحِقْني في الثَّوابِ والدَّرجاتِ بالصَّالحين (١). [22]وكان بنو إسرائيل قد استقروا في مصر بعد ما حصل التمكين ليوسف فيها، وكان يوسف قد دعا والده وإخوته إلى مصر، فنزحوا من فلسطين، ومات يعقوب ودفن عند آبائه في فلسطين، ففدفنوه هناك. ثم رجعوا إلى مصر، وعزى

[22] (١) قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: أَكْرَمُ النَّاسِ أَتْقَاهُمْ، والْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ السَّلَام، نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ. وقال عليه الصلاة والسلام: عَجِبْتُ لِصَبْرِ أَخِي يوسُفَ وكَرَمِه، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ لِيُسْتَفْتَى فِي الرُّؤْيَا، وَلَو كُنْتُ أَنَا، لَمْ أَفْعَلْ حَتَّى أَخْرُجَ، وعَجِبْتُ لِصَبْرِهِ وكَرَمِه، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، أُتِيَ لِيُخْرَجَ، فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِعُذْرِهِ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَبَادَرْتُ الْبَابَ، لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لَأَجَبْتُهُ. ثُمَّ قَرَأَ: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ، قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: لَوْ كُنْتُ أَنَا، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ، وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ.

إخوة يوسف يوسف، وترققوا له؛ فأكرمهم، وأحسن منقلبهم؛ فأقاموا بمصر، ثم حضرت يوسف الوفاة؛ فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر؛ فيدفن عند آبائه، فحنطوه، ووضعوه في تابوت.

وبعد ذلك تناسل الأسباط -وهم ذرية يعقوب (إسرائيل) من أبنائه الإثني عشر- وكثروا. (١)

(١) قيل أن بني إسرائيل أبوا أن يندمجوا مع المصريين؛ فعزلوا أنفسهم عنهم، وتواصوا فيما بينهم أن يكون لكل سبط نسله المعروف المميز عن بقية الأسباط، وذلك ليضمنوا الاحتفاظ بنسبهم؛ اعتزازاً به، باعتبار أنهم من ذرية الأنبياء. وبعد ثلاثة قرون أو تزيد اضطهدهم الفراعنة حكام مصر واستعبدوهم، حتى بعث الله نبيه موسى عليه السلام وكَانَ فِرْعَوْنُ الْمَلِكَ، وَهَامَانُ الْوَزِيرَ، وكان فرعون قد قَسَّمَ رَعِيَّتَهُ إِلَى أَقْسَامٍ وَفِرَقٍ وَأَنْوَاعٍ {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ} وَهُمْ شَعْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. وكَانُوا إِذْ ذَاكَ خِيَارَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكَ الظَّالِمَ الْغَاشِمَ الْكَافِرَ الْفَاجِرَ، يَسْتَعْبِدُهُمْ وَيَسْتَخْدِمُهُمْ فِي أَخَسِّ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ، وَأَرْدَئِهَا، وَأَدْنَاهَا، وَمَعَ هَذَا {يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} وَكَانَ الْحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْقَبِيحِ، أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَتَدَارَسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَأْثُرُونَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ غُلَامٌ يَكُونُ هَلَاكُ مَلِكِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ، وَذَلِكَ-وَاللَّهُ أَعْلَمُ- حِينَ جَرَى عَلَى سَارَّةَ امْرَأَةِ الْخَلِيلِ مِنْ مَلِكِ مِصْرَ، مِنْ إِرَادَتِهِ إِيَّاهَا عَلَى السُّوءِ، وَعِصْمَةِ اللَّهِ لَهَا.

وتَذَاكَرَ فِرْعَوْنُ وَجُلَسَاؤُهُ مَا يتحدث به بنو إسرائيل أَنّ اللهَ - عز وجل - وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءً وَمُلُوكًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ، مَا يَشُكُّونَ فِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمَّا هَلَكَ، قَالُوا: لَيْسَ هَكَذَا كَانَ وَعْدُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ فِرْعَوْنُ: فَكَيْفَ تَرَوْنَ؟، فَأْتَمَرُوا وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رِجَالًا بِالشِّفَارِ يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَمَّا أَنْ رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِآجَالِهِمْ، وَالصِّغَارَ يُذْبَحُونَ، قَالُوا: تُوشِكُونَ أَنْ تُفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَصِيرُونَ إِلَى أَنْ تُبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُونَكُمْ، فَاقْتُلُوا عَامًا كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ، فَيَقِلَّ نَبَاتُهُمْ، وَدَعُوا عَامًا، فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فَيَنْشَأُ الصِّغَارُ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الْكِبَارِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُوا مِنْهُمْ، فَتَخَافُوا مُكَاثَرَتَهُمْ إِيَّاكُمْ، وَلَنْ يَفْنَوْا بِمَنْ تَقْتُلُونَ، فَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وروي أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ نَارًا قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ نَحْوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَحْرَقَتْ دُورَ مِصْرَ وَجَمِيعَ الْقِبْطِ، وَلَمْ تَضُرَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ هَالَهُ ذَلِكَ فَجَمَعَ الْكَهَنَةَ وَالْحُزَاةَ وَالسَّحَرَةَ وَسَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْكَهَنَةُ: هَذَا غُلَامٌ يُولَدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ.

ذكر موسى وهارون عليهما السلام: وكان موسى بن عمران من نسل يعقوب ومن ذرية إبراهيم عليهم السلام، فَهُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهِثَ بْنِ عَازِرَ بْنِ لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَحَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهَارُونَ - عليه السلام - فِي الْعَامِ الَّذِي لَا يُذْبَحُ فِيهِ الْغِلْمَانُ، فَوَلَدَتْهُ عَلَانِيَةً آمِنَةً، فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ حَمَلَتْ بِمُوسَى - عليه السلام - فَوَقَعَ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مِمَّا يُرَادُ بِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا: {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} وَأَمَرَهَا إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ، ثُمَّ تُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا وَلَدَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ بِهِ، فَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنُهَا، أَتَاهَا الشَّيْطَانُ، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: مَا فَعَلْتُ بِابْنِي؟، لَوْ ذُبِحَ لَبِثَ عِنْدِي، فَوَارَيْتُهُ وَكَفَّنْتُهُ، كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُلْقِيَهُ بِيَدِي إِلَى دَوَابِّ الْبَحْرِ وَحِيتَانِهِ. وَانْتَهَى الْمَاءُ بِهِ حَتَّى أَرْفَأَ بِهِ عِنْدَ فُرْضَةِ (١) مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذْنَهُ، فَهَمَمْنَ أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوتَ، فَقَالَتْ بَعْضُهُنَّ: إِنَّ فِي هَذَا مَالًا، وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ لَمْ تُصَدِّقْنَا امْرَأَةُ الْمَلِكِ بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ، فَحَمَلْنَهُ بِهَيْئَةٍ لَمْ يُحَرِّكْنَ مِنْهُ شَيْئًا، حَتَّى دَفَعْنَهُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ فِيهِ غُلَامًا، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْهَا مَحَبَّةٌ لَمْ تُلْقَ مِثْلُهَا عَلَى الْبَشَرِ قَطُّ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى - عليه السلام - فَلَمَّا سَمِعَ الذَّابِحُونَ بِأَمْرِهِ، أَقْبَلُوا بِشِفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ لِيَذْبَحُوهُ، فَقَالَتْ لِلذَّبَّاحِينَ: اتْرُكُوهُ، فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَتَّى آتِيَ فِرْعَوْنَ فَأَسْتَوْهِبَهُ مِنْهُ، فَإِنْ وَهَبَهُ لِي، كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ، لَمْ أَلُمْكُمْ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: {قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ} قَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكِ فَأَمَّا لِي، فَلَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ (٢). فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ تَخْتَارُ لَهَا ظِئْرًا (٣)، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ فَتُرْضِعُهُ، لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَهَا، حَتَّى أَشْفَقَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ، وَتَجَمَّعَ النَّاسُ، تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا يَأْخُذُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ، وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالِهَةً، فَقَالَتْ لِأُخْتِهِ: قُصِّيهِ - يَعْنِي أَثَرَهُ، وَاطْلُبِيهِ - هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا؟، أَحَيٌّ ابْنِي؟، أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ؟، وَنَسِيَتْ مَا كَانَ اللَّهُ - عز وجل - وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَالْجُنُبُ: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ

إِلَى الشَّيْءِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ لا يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُمُ الطَّلَبُ: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِيكِ مَا نُصْحُهُمْ لَهُ؟ هَلْ يَعْرِفُونَهُ؟ - حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ: نَصِيحَتُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَةً فِي صِهْرِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَانْطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا، نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا فَمَصَّهُ، حَتَّى امْتَلأَ جَنْبَاهُ رِيًّا، وَانْطَلَقَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، يُبَشِّرُهَا أَنْ قَدْ وَجَدْنَا لابْنِكِ ظِئْرًا، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ بِهَا، قَالَتْ لَهَا: امْكُثِي عِنْدِي، تُرْضِعِينَ ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أُحِبَّ حُبَّهُ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَتْ أُمُّ مُوسَى: لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَيَضِيعُ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكِ أَنْ تُعْطِينِيهِ، فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِي، فَيَكُونَ مَعِي، لا آلُوهُ خَيْرًا، وَإِلَّا، فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي - وَذَكَرَتْ أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللهُ - عز وجل - وَعَدَهَا، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ - فَرَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا بِابْنِهَا، فَأَصْبَحَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ مُجْتَمِعِينَ، يَمْتَنِعُونَ مِنَ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لأُمِّ مُوسَى: أُرِيدُ أَنْ تُرِينِي ابْنِي، فَوَعَدَتْهَا يَوْمًا تُرِيهَا إِيَّاهُ، فَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِخُزَّانِهَا وَقَهَارِمَتِهَا وَظُئُورَتِهَا: لا يَبْقَيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلا اسْتَقْبَلَ ابْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ، لأَرَى ذَلِكَ فِيهِ، وَأَنَا بَاعِثَةٌ أَمِينًا يُحْصِي كُلَّ مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلِ الْهَدَايَا وَالْكَرَامَةُ وَالنِّحَلُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ أُدْخِلَ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا بَجَّلَتْهُ وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ وَأَعْجَبَهَا، وَبَجَّلَتْ أُمَّهُ بِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لآتِيَنَّ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَلَيُبَجِّلَنَّهُ وَلَيُكْرِمَنَّهُ، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلَتْهُ فِي حِجْرِهِ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى لِحْيَةَ فِرْعَوْنَ فَمَدَّهَا إِلَى الأَرْضِ، فَقَالَ الْغُوَاةُ أَعْدَاءُ اللهِ لِفِرْعَوْنَ: أَلا تَرَى إِلَى مَا وَعَدَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهُ أَنَّهُ يَرِثُكَ وَيَعْلُوكَ وَيَصْرَعُكَ؟، فَأَرْسَلَ إِلَى الذَّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تَسْعَى إِلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: مَا بَدَا لَكَ فِي هَذَا الْغُلامِ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي؟، قَالَ: تَرَيْنَهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي، قَالَتِ: اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا تَعْرِفُ الْحَقَّ فِيهِ: ائْتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلُؤْلُؤَتَيْنِ، فَقَرِّبْهُنَّ إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّؤْلُؤَتَيْنِ، وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ، عَرَفْتَ أَنَّهُ يَعْقِلُ، وَإِنْ تَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ، وَلَمْ يُرِدِ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، عَلِمْتَ أَنَّ أَحَدًا لا يُؤْثِرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ، فَقَرَّبَ ذَلِكَ، فَتَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ، فَانْتَزَعُوهُمَا مِنْ يَدِهِ مَخَافَةَ أَنْ تُحْرِقَاهُ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَلا تَرَى؟، فَصَرَفَهُ اللهُ عَنْهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ اللهُ - عز وجل - بَالِغًا فِيهِ أَمْرَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِظُلْمٍ وَلا سُخْرَةٍ، حَتَّى امْتَنَعُوا كُلَّ الامْتِنَاعِ، فَبَيْنَمَا مُوسَى فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، إِذَا هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ،

أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِيٌّ، وَالآخَرُ إِسْرَائِيلِيٌّ، فَاسْتَغَاثَهُ الإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَغَضِبَ مُوسَى غَضَبًا شَدِيدًا، لأَنَّهُ تَنَاوَلَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَةَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحِفْظَهُ لَهُمْ، لا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الرَّضَاعِ -إِلَّا أُمُّ مُوسَى- إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ أَطْلَعَ مُوسَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فَوَكَزَ مُوسَى الْفِرْعَوْنِيَّ فَقَتَلَهُ - وَلَيْسَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَالإِسْرَائِيلِيُّ - فَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الرَّجُلَ: {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}، ثُمَّ قَالَ: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي} فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ الأَخْبَارَ، فَأُتِيَ فِرْعَوْنُ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا رَجُلا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَخُذْ لَنَا حَقَّنَا وَلا تُرَخِّصْ لَهُمْ، فَقَالَ: ابْغُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوُهُ مَعَ قَوْمِهِ، لا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقِيدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلا ثَبْتٍ، فَاطْلُبُوا لِي عِلْمَ ذَلِكَ، آخُذْ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَطُوفُونَ لا يَجِدُونَ ثَبْتًا، إِذَا مُوسَى قَدْ رَأَى مِنَ الْغَدِ ذَلِكَ الإِسْرَائِيلِيَّ يُقَاتِلُ رَجُلا آخَرَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَاسْتَغَاثَهُ الإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَصَادَفَ مُوسَى قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَكَرِهَ الَّذِي رَأَى لِغَضَبِ الإِسْرَائِيلِيِّ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفِرْعَوْنِيِّ، فَقَالَ لِلإِسْرَائِيلِيِّ -لِمَا فَعَلَ أَمْسِ وَالْيَوْمَ-: {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ} فَنَظَرَ الإِسْرَائِيلِيُّ إِلَى مُوسَى حِينَ قَالَ لَهُ مَا قَالَ، فَإِذَا هُوَ غَضْبَانُ كَغَضَبِهِ بِالأَمْسِ، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ وَمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ، - وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ، إِنَّمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ - فَخَافَ الإِسْرَائِيلِيُّ، فَحَاجَزَ الْفِرْعَوْنِيَّ، وَقَالَ: {يَا مُوسَى، أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ؟} وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى لِيَقْتُلَهُ، وَانْطَلَقَ الْفِرْعَوْنِيُّ إِلَى قَوْمِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الْخَبَرِ حِينَ يَقُولُ: {أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ}، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ لِيَقْتُلُوا مُوسَى، فَأَخَذَ رُسُلُ فِرْعَوْنَ الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ يَمْشُونَ عَلَى هِينَتِهِمْ يَطْلُبُونَ مُوسَى، وَهُمْ لا يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، فَاخْتَصَرَ طَرِيقًا قَرِيبًا حَتَّى يَسْبِقَهُمْ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَدْيَنَ، لَمْ يَلْقَ بَلاءً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ بِالطَّرِيقِ عِلْمٌ إِلا حُسْنَ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ - عز وجل - فَإِنَّهُ قَالَ: {عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}، {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} حَابِسَتَيْنِ غَنَمَهُمَا، فَقَالَ لَهُمَا: مَا خَطْبُكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ؟، قَالَتَا: لَيْسَ لَنَا قُوَّةٌ نُزَاحِمُ الْقَوْمَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ فُضُولَ حِيَاضِهِمْ، فَسَقَى لَهُمَا، فَجَعَلَ يَغْرِفُ فِي الدَّلْوِ مَاءً كَثِيرًا، حَتَّى كَانَ أَوَّلَ الرِّعَاءِ فَرَاغًا، فَانْصَرَفَتَا بِغَنَمِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا، وَانْصَرَفَ مُوسَى فَاسْتَظَلَّ بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (١) فَاسْتَنْكَرَ أَبُوهُمَا (٢) سُرْعَةَ صُدُورِهِمَا

بِغَنَمِهِمَا حُفَّلاً بِطَانًا، فَقَالَ: إِنَّ لَكُمَا الْيَوْمَ لَشَأْنًا، فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَا صَنَعَ مُوسَى، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا تَدْعُوهُ لَهُ، {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} (٣) فَدَعَتْهُ {قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا. فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} لَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلا لِقَوْمِهِ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ، وَلَسْنَا فِي مَمْلَكَتِهِ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ}، فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكِ مَا قُوَّتُهُ وَمَا أَمَانَتُهُ؟، قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ فِي الدَّلْوِ حِينَ سَقَى لَنَا، لَمْ أَرَ رَجُلا أَقْوَى فِي ذَلِكَ السَّقْيِ مِنْهُ، وَأَمَّا أَمَانَتُهُ، فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ حِينَ أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ وَشَخَصْتُ لَهُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي امْرَأَةٌ صَوَّبَ رَأْسَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ حَتَّى بَلَّغْتُهُ رِسَالَتَكَ، ثُمَّ قَالَ: امْشِي خَلْفِي وَانْعَتِي لِيَ الطَّرِيقَ، فَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا الأَمْرَ إِلَّا وَهُوَ أَمِينٌ. فَسُرِّيَ عَنْ أَبِيهَا، فَصَدَّقَهَا وَظَنَّ بِهِ الَّذِي قَالَتْ. فَقَالَ لَهُ: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ (٤)، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} فَفَعَلَ، فَكَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى - عليه السلام - ثَمَانُ سِنِينَ وَاجِبَةً، وَكَانَتْ سَنَتَانِ عِدَةً مِنْهُ، فَقَضَى اللَّهُ عَنْهُ عِدَتَهُ، فَأَتَمَّهَا عَشْرًا، وقضى أوفى الأجلين (٥).[23]

---

[23] (١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَقَدْ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} وَهُوَ أَكْرَمُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ كَانَ افْتَقَرَ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَقَدْ أَصَابَهُ الْجُوعُ حَتَّى لَزِقَ بَطْنُهُ بِظَهْرِهِ.

(٢) عن ابن عباس قال: هو يثرى، صاحب مدين.

(٣) أَيْ: مَشْيَ الْحَرَائِرِ، كأن الحياء صار فراشاً تمشي عليه. وقرأ بعضهم: (عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ) أي أن الحياء كان في قولها أيضاً كما كان في مشيتها. وعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ}، قَالَ: «مُسْتَتِرَةً بِدِرْعِهَا أَوْ بِكُمِّ قَمِيصِهَا». وقَالَ: "جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا، لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ (المرأة الجريئة على الرجال) خَرَّاجَةً وَلَّاجَةً".

(٤) أي: تعمل أجيراً ترعى لنا الغنم ثمان سنوات، ويكون ذلك مهر الزواج.

(٥) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: " لَمَّا دَعَا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبَهُ إِلَى الْأَجَلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: كُلُّ شَاةٍ وَلَدَتْ عَلَى غَيْرِ لَوْنِهَا فَلَكَ وَلَدُهَا، قَالَ: فَعَمَدَ فَوَضَعَ حِبَالًا عَلَى الْمَاءِ، فَلَمَّا رَأَتِ الْحِبَالَ فَزِعَتْ، فَجَالَتْ جَوْلَةً فَوَلَدْنَ كُلُّهُنَّ بُرْقًا إِلَّا شَاةً وَاحِدَةً، فَذَهَبَ بِأَوْلَادِهِنَّ ذَلِكَ الْعَامَ ". وَعَنْ عَبْدَةَ بْنِ حَزْنٍ قَالَ: تَفَاخَرَ أَهْلُ الْإِبِلِ وَأَهْلُ الشَّاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: " بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبَعَثَ دَاوُدَ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثْتُ أَنَا وَأَنَا أَرْعَى غَنَمًا لِأَهْلِي بِأَجْيَادٍ "

وكَانَ مُوسَى قَدِ اشْتَاقَ إِلَى بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ، فَعَزَمَ عَلَى زِيَارَتِهِمْ فِي خُفْيَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ صِهْرُهُ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَجَعَلَ كُلَّمَا أَوْرَى زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ {آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} رَآهَا تُضِيءُ لَهُ عَلَى بُعْدٍ، فأخبر أهله بذلك وقال لهم: {امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا} حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهَا، {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ} يدلنا على الطريق {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} أَيْ: قِطْعَةٍ مِنْهَا، {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي: تَتَدفؤون بِهَا مِنَ الْبَرْدِ. {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ} أَيْ: مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، لأَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ فِي أَصلِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِيَ، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: {مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ} {أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أَيِ: الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ مماثلة المخلوقات فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ!

وأمره بخلع نعليه (١)، وَقَالَ لَهُ: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} فأمره بقوله: {أَلْقِ عَصَاكَ} الَّتِي فِي يَدِكَ وتَعْرِفُهَا جيّداً. {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُكَلِّمُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ. {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ} وتَضْطَرِبُ {كَأَنَّهَا جَانٌّ} فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ مَعَ عِظَمِ خَلْقِ قَوَائِمِهَا وَاتِّسَاعِ فَمِهَا، وَاصْطِكَاكِ أَنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا، فَتَنْحَدِرُ فِي فِيهَا تَتَقَعْقَعُ، كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ.فَعِنْدَ ذَلِكَ {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} وَلَمْ يَلْتَفِتْ، لأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنفِرُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُ: {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ}، رَجَعَ فَوَقَفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ: {اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أَيْ: إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ (ثوبك) ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ، وَلِهَذَا قَالَ: {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أَيْ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ. وَأُمِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ، وَهِيَ يَدُهُ، فيضعها على صدره، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ (١). وقال له ربه: {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ} يَعْنِي: إِلْقَاءَهُ الْعَصَا وَجَعْلَهَا حَيَّةً تَسْعَى، وَإِدْخَالَهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، هما دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ، وَصِحَّةِ رسالته {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} وهم قَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ، {إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، مخالفين لدين الله. فَشَكَا إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتْلِ، وَعَقْدِ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ (٢)، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يعينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ، يَكُونُ لَهُ رِدْءًا وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ، فَآتَاهُ اللهُ سُؤْلَهُ (٣)، وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَارُونَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ، فَانْدَفَعَ مُوسَى بِعَصَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ، فَانْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لا يُؤْذَنُ لَهُمَا، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالا: إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: فَمَا تُرِيدُ؟ - وَذَكَّرَهُ الْقَتِيلَ - فَاعْتَذَرَ بِمَا ذكر في القرآن، وَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَتُرْسِلَ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ: ائْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ فَاغِرَةٌ فَاهَا، مُسْرِعَةٌ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْنُ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ، وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ، فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ، فَرَآهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ - يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ - ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الأَوَّلِ، فَاسْتَشَارَ فِرْعَوْنُ الْمَلأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى، فَقَالُوا لَهُ: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} يَعْنِي مُلْكَهُمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَالْعَيْشَ، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعْ لَنَا السَّحَرَةَ، فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِكَ كَثِيرٌ، حَتَّى يَغْلِبَ سِحْرُهُمْ سِحْرَهُمَا، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدِينَةِ فَحُشِرَ لَهُ كُلُّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ قَالُوا: بِمَ يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟، قَالُوا: يَعْمَلُ بِالْحَيَّاتِ، قَالُوا: فَلا وَاللهِ مَا أَحَدٌ فِي الأَرْضِ يَعْمَلُ السِّحْرَ بِالْحَيَّاتِ وَالْعِصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ، فَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، فَأَنَا صَانِعٌ إِلَيْكُمْ كُلَّ مَا أَحْبَبْتُمْ، فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزِّينَةِ (١)، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ، قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرْ هَذَا الأَمْرَ {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ، اسْتِهْزَاءً بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} {قَالَ بَلْ أَلْقُوا} {فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ، وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}. {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) (٢)، (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} أَيْ: خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَتِنُوا بِسِحْرِهِمْ وَمِحَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَدِهِ، فَإِنَّهُ لا يَضَعُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: {لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} فَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ وَقَالَ: {مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ

اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}، فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً ذَاتَ قَوَائِمَ - فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ - وَعُنُقٍ عَظِيمٍ، وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ، بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ انْحَازُوا مِنْهَا، وَهَرَبُوا سِرَاعًا، وَتَأَخَّرُوا عَنْ مَكَانِهَا وَأَقْبَلَتْ هِيَ عَلَى مَا أَلْقَوْهُ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ، فَجَعَلَتْ تَلْقَفُهُ وَاحِدًا وَاحِدًا، فِي أَسْرَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا. وَأَمَّا السَّحَرَةُ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُمْ وَحَيَّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، وَاطَّلَعُوا عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي خَلَدِهِمْ وَلَا بَالِهِمْ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ صِنَاعَاتِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ، فَجَعَلَتِ الْعِصِيُّ بِدَعْوَةِ مُوسَى تَلَبَّسُ بِالْحِبَالِ، حَتَّى صَارَتْ جُرَزًا (قطعاً) إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصًا وَلَا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَنَتُوبُ إِلَى اللَّهِ - عز وجل - مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ، وَكَسَرَ اللَّهُ ظَهْرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ، وَأَظْهَرَ الْحَقَّ {وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ} وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بَارِزَةٌ مُتَبَذِّلَةٌ تَدْعُو اللَّهَ بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَمَنْ رَآهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، ظَنَّ أَنَّهَا ابْتَذَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى. وَطَالَ مُكْثُ مُوسَى لِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ، كُلَّمَا جَاءَهُ بِآيَةٍ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوَاعِيدَهُ وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا؟، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ {الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ} فابتلاهم بنقص الثمرات بأن تمنع الأرض خيرها، وبالطوفان الذي يتلف المزارع ويهدم المدن والقرى، وبالجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة، وبالقمّل، وهي حشرة تؤذي الناس في أجسادهم، وبالضفادع التي نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها، وبالدم الذي يصيب طعامهم وشرابهم. كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ، وَيُوَافِقُهُ وَيَعِدُهُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كَفَّ ذَلِكَ عَنْهُ، أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، وَنَكَثَ عَهْدَهُ.

وَإِنَّ فِرْعَوْنَ أَوْتَدَ لِامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ، فَقَالَتْ: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} فَكَشَفَ لَهَا عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ. وَتَمَادَى قِبْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ، مُتَابَعَةً لِمَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، قِيلَ: هُمُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، الَّذِي سَتَأْتِي حِكَايَةُ مَوْعِظَتِهِ وَمَشُورَتِهِ وَحُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَالرَّجُلُ النَّاصِحُ الَّذِي جَاءَ يَسْعَى مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، والسحرة.

وأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون -عليهما السلام- أن اختارا واتَّخِذا لقومكما في «مصر» بيوتًا لعبادة الله وحده، تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها، واجعلوا بيوتكم أماكن تصلُّون فيها عند الخوف، وصيّروا بيوتكم متجهة إلى جهة القبلة (بيت المقدس)، وائتوا بالصلاة كاملة في أوقاتها، وأن يبشّرَ موسى- المؤمنين بما يسرهم من نصر الله وتأييدهم، وإهلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض. وكان قارون من قوم موسى عليه السلام - وقيل أنه ابن عمه - وكان غنياً منافقاً متكبراً، وأعطاه الله من كنوز الأموال ما إن مفاتح خزائنه ليثقل حملها على الجماعة القوية، وقال له الناصحون من قومه: لا تفرح فرح البَطَر، إن الله لا يحب الفرحين فرح البَطَر. واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الثواب في الدار الآخرة، بأن تنفقه في وجوه الخير، ولا تنس نصيبك من الأكل والشرب واللباس وغير ذلك من النعم، في غير إسراف ولا مخيلة، وأحسن التعامل مع ربك ومع عباده كما أحسن سبحانه إليك، ولا تطلب الفساد في الأرض بارتكاب المعاصي وترك الطاعات، إن الله لا يحب المفسدين في الأرض بذلك، بل يبغضهم. فقال قارون: إنما أُعْطِيت هذه الأموال لعلم عندي وقدرة، فأنا أستحقها لذلك. فخرج قارون في زينته مظهراً أُبَّهَتَه، قال الذين يطمعون في زينة الحياة الدنيا من أصحاب قارون: يا ليتنا أُعْطِينا من زينة الدنيا مثل ما أُعْطِي قارون، إن قارون لذو نصيب وافٍ كبير. وقال الذين أعطوا العلم حين رأوا قارون في زينته وسمعوا ما تمناه أصحابه: ويلكم! ثواب الله في الآخرة، وما أعده من النعيم لمن آمن به وعمل عملًا صالحًا، خيرٌ مما أُعْطِي قارون من زهرة الدنيا، ولا يوفق لقول هذه الكلمة والعمل بما تقتضيه إلا الصابرون الذين يصبرون على إيثار ما عند الله من ثواب على ما في الدنيا من متاع زائل. ولَمَّا أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ بِالزَّكَاةِ، جَمَعَ قَارُونُ مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ لَهُمْ محرضاً على موسى: «جَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَجَاءَكُمْ بِأَشْيَاءَ فَاحْتَمَلْتُمُوهَا، فَتَحَمَّلُوا أَنْ تُعْطُوهُ أَمْوَالَكُمْ». فَقَالُوا: لَا نَحْتَمِلُ أَنْ نُعْطِيَهُ أَمْوَالَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَرَى أَنْ أُرْسِلَ إِلَى بَغِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنُرْسِلَهَا إِلَيْهِ فَتَرْمِيَهُ بِأَنَّهُ أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا. فَبَلَغَ ذلك مُوسَى فدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تُطِيعَهُ، فَأَتاهم وقَالَ مُوسَى لِلْأَرْضِ: خُذِيهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْقَابِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلْأَرْضِ: «خُذِيهِمْ»، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى رُكَبِهِمْ. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلْأَرْضِ: "خُذِيهِمْ» فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى. فَقَالَ
لِلْأَرْضِ: "خُذِيهِمْ». فَأَخَذَتْهُمْ فَغَيَّبَتْهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: يَا مُوسَى سَأَلَكَ عِبَادِي وَتَضَرَّعُوا إِلَيْكَ فَلَمْ تُجِبْهُمْ، وَعِزَّتِي لَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْنِي لَأَجَبْتُهُمْ.

ولما خسف الله الأرض بقارون وبداره ومن فيها، أصبح الذين تمنوا ما كان فيه قارون من المال والزينة قبل الخسف به يقولون متحسرين معتبرين: ألم نعلم أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء منهم؟! لولا أن منّ الله علينا فلم يعاقبنا بما قلنا، لخسف بنا مثل ما خسف بقارون، إنه لا يفلح الكافرون (١). (١) وممن اتبع هواه وخالف موسى عليه السلام: (بلعام بن باعوراء)، قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ، بَعَثَهُ نبي الله موسى عليه السلام إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ السلام. قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). وقال فرعون لجلسائه: اتركوني أقتل موسى عقابًا له، وليدع ربه أن يمنعه مني، إني أخاف أن يغيِّر دينكم الذي أنتم عليه، أو أن يظهر في الأرض الفساد بالقتل والتخريب. وقال موسى عليه السلام لمَّا علم بتهديد فرعون له: إني التجأت واعتصمت بربي وربكم من كل متكبر عن الحق والإيمان به، لا يؤمن بيوم القيامة، وما فيه من حساب وعقاب. وقال رجل مؤمن بالله من آل فرعون يكتم إيمانه عن قومه منكرًا عليهم عزمهم على قتل موسى: أتقتلون رجلًا دون جرم، غير أنه قال: ربي الله، وقد جاءكم بالحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه أنه مرسل من ربه؟! وإن قُدِّر أنه كاذب فضرر كذبه عائد عليه، وإن يكن صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم به من العذاب عاجلًا، إن الله لا يوفق للحق من هو متجاوز لحدوده، مفترٍ عليه وعلى رسله. يا قوم، لكم الملك اليوم غالبين في أرض مصر، فمن ينصرنا من عذاب الله إن جاءنا بسبب قتل موسى؟! قال فرعون: الرأي رأيي والحكم حكمي، وقد رأيت أن أقتل موسى؛ دفعًا للشر والفساد، وما أرشدكم إلا الصواب والسداد. وقال الذي آمن ناصحًا قومه: إني أخاف عليكم -إن قتلتم موسى ظلمًا وعدوانًا- عذابًا مثل عذاب الأحزاب الذين تحزَّبوا على رسلهم من السابقين فأهلكهم الله. مثل قوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم، فقد أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لرسله، وما الله يريد ظلمًا للعباد، وإنما يعذبهم بذنوبهم؛ جزاءً وفاقًا. ويا قوم، إني أخاف عليكم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي ينادي فيه الناس بعضهم بعضًا بسبب قرابة أو جاه ظنًّا منهم أن هذا المسلك ينفعهم في هذا الموقف الرهيب. يوم تولون هاربين خوفًا من النار، ما لكم من مانع يمنعكم من عذاب الله، ومن يخذله الله ولا يوفقه

للإيمان فما له من هادٍ يهديه، لأن هداية التوفيق بيد الله وحده. ولقد جاءكم يوسف من قبل موسى بالبراهين الواضحة على توحيد الله، فما زلتم في شك وتكذيب لما جاءكم به، حتى إذا توفّي ازددتم شكًّا وارتيابًا، وقلتم: لن يبعث الله من بعده رسولًا. مثل ضلالكم هذا عن الحق يُضِل الله كل من هو متجاوز لحدود الله، شاكٌّ في وحدانيته. وقال فرعون لوزيره هامان: يا هامان، ابْنِ لي بناءً عاليًا، رجاء أن أبلغ طرق السماوات الموصلة إليها، فأنظر إلى معبود موسى الذي يزعم أنه المعبود بحق، وإني لأظنُّ أن موسى كاذب فيما يدَّعيه. وقال الرجل الذي آمن من آل فرعون ناصحًا قومه ومرشدًا إياهم إلى طريق الحق: يا قوم، اتبعوني أدلُّكم وأرشدكم إلى طريق الصواب، والهداية إلى الحق. يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا تمتع بملذات منقطعة، فلا تغرنَّكم بما فيها من متاع زائل، وإن الدار الآخرة بما فيها من نعيم دائم لا ينقطع هي دار الاستقرار والإقامة، فاعملوا لها بطاعة الله، واحذروا من الانشغال بحياتكم الدنيا عن العمل للآخرة. فرفضوا نصحه، فقال: ستذكرون ما قدمت لكم من نصح، وتتحسَّرون على عدم قبوله، وأفوِّض أموري كلها إلى الله وحده، إن الله لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء. فحفظه الله من سوء مكرهم حين أرادوا قتله. وكَانَ فرعونُ يَتَحَقَّقُ وَيَعْلَمُ فِي بَاطِنِهِ وَفِي نَفْسِهِ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ يُظْهِرُ خِلَافَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا، وَعُتُوًّا وَكُفْرَانًا.

وقد قال له مُوسَى: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}. أي: هالكاً.

وعزم فرعون على ألا يبقي موسى ومن آمن معه في أرض مصر إما بنفيهم أو قتلهم ليتمكن من استعباد الباقين. فدعا موسى عليه، وقال في دعائه: ربنا إنك أعطيت فرعون والأشراف من قومه من زخرف الدنيا وبهارجها زينة، وأعطيتهم أموالًا في هذه الحياة الدنيا، فلم يشكروك على ما أعطيتهم، بل استعانوا بها على الإضلال عن سبيلك، ربنا امْحُ أموالَهم وامحقها، واجعل قلوبهم قاسية، فلا يؤمنون إلا حين يشاهدون العذاب الموجع حين لا ينفعهم إيمانهم. وأمّن هارون على دعائه.

قال الله: قد أجبْتُ دعاءكما -يا موسى وهارون- على فرعون وأشراف قومه، فاثبتا على دينكما، ولا تنحرفا عنه إلى اتباع سبيل الجهال الذين لا يعلمون طريق الحق.

وأَمَرَ اللهُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ من مصر ليلاً، فلما كانت ليلة يوم عاشوراء، وكان يوم عيد في مصر وهو يوم الزينة، وكان بعض قوم موسى قد استعار من قوم فرعون الأقباط ذهباً للتزين به يوم العيد،

نَخَرَجَ موسى بقومه لَيْلًا دون أن يشعر فرعون وقومه مع انشغالهم بالعيد، وحمل قوم موسى ما استطاعوا حمله من أموالهم ومتاعهم وأسرعوا بالخروج في الظلام. وإِنَّ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يوسُفَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَنْ لَا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ (١) مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَبْرِهِ؟، قَالُوا: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا، فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ، قَالَتْ: حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: مَا حُكْمُكِ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَكَرِهَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ - مَوْضِعِ مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ - فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوهُ، قَالَتِ: احْتَفِرُوا، فَاحْتَفَرُوا، فَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ (٢) يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقَلُّوهَا إِلَى الْأَرْضِ، إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ. فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ وَرَأَى أَنَّهُم قَدْ مَضَوْا، أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَتَّبِعُهُمْ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْبَحْرِ: أَنْ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ، فَانْفَرِقِ اثْنَيْ عَشَرَ فِرْقًا، حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ الْتَقِ عَلَى مَنْ بَقِيَ بَعْدَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} وَتَقَارَبَا، قَالَ قَوْمُ مُوسَى: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}. فَقَالَ موسى: (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) فَضَرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى، فَانْفَرَقَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ، فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى وَأَصْحَابُهُ كُلُّهُمْ، أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ. فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا) وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى. فلما دَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ الْتَقَى الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ كَمَا أَمَرَ اللهُ. وَلَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ فرعون: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} وكان جِبْرِيلُ يَأْخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَيَدُسُّهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ. فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى وقومُه الْبَحْرَ قَال قومُه: إِنَّا نَخَافُ أَنْ لا يَكُونَ فِرْعَوْنُ غَرِقَ، فَلا نُؤْمِنُ بِهلاكِهِ، فَدَعَا رَبَّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ بِبَدَنِهِ، حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِهلاكِهِ. ثُمَّ {أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْعِبَرِ، وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ وَمَضَى مُوسَى فَأَنْزَلَهُم مَنْزِلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَطِيعُوا هَارُونَ، فَإِنِّي قَد اسْتَخْلَفْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي، وَأَجَّلَهُمْ ثَلاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا أَتَى رَبَّهُ، أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلاثِينَ، وَقَدْ صَامَهُنَّ، لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ، كَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَيَخْرُجَ مِنْ فَمِهِ

رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الأَرْضِ فَمَضَغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ أَتَاهُ: أَفَطَرْتَ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ - قَالَ: رَبِّ كَرِهْتُ أَنْ أُكَلِّمَكَ إِلا وَفَمِي طَيِّبُ الرِّيحِ، قَالَ: أَوَمَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدِي مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ؟، ارْجِعْ حَتَّى تَصُومَ عَشْرًا، ثُمَّ ائْتِنِي، فَفَعَلَ مُوسَى مَا أُمِرَ بِهِ. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى فِي الْوَقْتِ الَّذِي أُمِرَ بِالْمَجِيءِ فِيهِ، {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، إِلَّا أَنَّهُ أَسْمَعَهُ الخِطَابَ، فَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ (١)، فَلَمَّا أُعْطِيَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الْعَلِيَّةَ وَالْمَرْتَبَةَ السَّنِيَّةَ، وَسَمِعَ الخِطَابَ، سَأَلَ رَفْعَ الحِجَابِ، فَقَالَ لِلْعَظِيمِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ: {رَبِّي أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}، قَالَ: {لَنْ تَرَانِي}، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى لِمُوسَى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عِنْدَ تَجَلِّيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْجَبَلَ الَّذِي هُوَ أَقْوَى وَأَكْبَرُ ذَاتًا، وَأَشَدُّ ثَبَاتًا مِنَ الْإِنْسَانِ، لَا يَثْبُتُ عِنْدَ التَّجَلِّي مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فَنَظَرَ إِلَى الْجَبَلِ لَا يَتَمَالَكُ، وَأَقْبَلَ الْجَبَلُ فَدُكَّ عَلَى أَوَّلِهِ، وَرَأَى مُوسَى مَا يَصْنَعُ الْجَبَلُ، فَخَرَّ صَعِقًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، {فَلَمَّا أَفَاقَ} قَالَ: سُبْحَانَكَ، تَنْزِيهٌ وَتَعْظِيمٌ وَإِجْلَالٌ لِلَّهِ أَنْ يَرَاهُ بِعَظَمَتِهِ أَحَدٌ، {تُبْتُ إِلَيْكَ} فَلَسْتُ أَسْأَلُ بَعْدَ هَذَا الرُّؤْيَةَ، {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} أَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيٌّ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلَّا تَدَهْدَهَ. ذَاكَ نُورُهُ الَّذِي هُوَ نُورُهُ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتِّ لَيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَمَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا، وَلَا قَرْنًا، وَلَا أُمَّةً، وَلَا أَهْلَ قَرْيَةٍ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِخَتْ قِرَدَةً، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، فبعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم، وإنما جاء في التوراة أمر المؤمنين بجهاد الكفار، كما أَمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة. وجاء في التوراة نصوص كثيرة تبين أن الله واحد أحد، منزه عن الصاحبة والولد، حي لا يموت، قادر يفعل ما يشاء، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، و أن عبادة غير الله حرام، وصرحت التوراة بوجوب قتل من دعا إلى عبادة غير الله ولو كان هذا الداعي نبياً ذا معجزات عظيمة، وكذلك صرحت بوجوب رجم كل من عبد غير الله أو رغّب في عبادة غير الله، وفيها التنزيه لله تعالى وأنه ليس له شبيه، وأن رؤية الله ممتنعة في الدنيا. وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، ومما جاء فيها: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)، وَفِيهَا: (أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)، وفيها: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}، وفيها وَعْدُ اللهِ: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ)، وجاء فيها صفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ، حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا"، وفيها من صفته أيضاً: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)، وفيها صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ). ولَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ لِلْأَجَلِ، سَاءَهُمْ ذَلِكَ. وَكَانَ هَارُونُ قَدْ خَطَبَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ، وَلِقَوْمِ فِرْعَوْنَ عَوَارٍ وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَحْتَسِبُوا مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ، وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ وَدِيعَةً وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا مُمْسِكِيهِ لِأَنْفُسِنَا، فَحَفَرَ حَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْذِفُوهُ فِي ذَلِكَ الْحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ. وَكَانَ السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، جِيرَانٍ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقُضِيَ لَهُ أَنْ رَأَى أَثَرًا، فَأَخَذَ مِنْهُ قَبْضَةً، فَمَرَّ بِهَارُونَ، فَقَالَ لَهُ هَارُونُ: يَا سَامِرِيُّ، أَلَا تُلْقِي مَا فِي يَدِكَ؟ - وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ - قَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمُ الْبَحْرَ، فَلَا أُلْقِيهَا بِشَيْءٍ، إِلَّا أَنْ تَدْعُوَ اللَّهَ إِذَا أَلْقَيْتُهَا أَنْ يَكُونَ مَا أُرِيدُ، فَأَلْقَاهَا، وَدَعَا لَهُ هَارُونُ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُكَوِّنَ عِجْلًا، فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْحُفْرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجْوَفَ، لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، وَلَهُ خُوَارٌ. وَمَا كَانَ لَهُ صَوْتٌ قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ، وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ. فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرَقًا، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ، مَا هَذَا؟، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ؟، قَالَ: هَذَا رَبُّكُمْ، وَلَكِنَّ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نُكَذِّبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبَّنَا، لَمْ نَكُنْ ضَيَّعْنَاهُ وَعَجَزْنَا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَاهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبَّنَا، فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ مُوسَى، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا عَمَلُ الشَّيْطَانِ وَلَيْسَ بِرَبِّنَا وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُصَدِّقُ. وَأُشْرِبَ فِرْقَةٌ فِي قُلُوبِهِمُ التَّصْدِيقَ بِمَا قَالَ السَّامِرِيُّ فِي الْعِجْلِ، فَقَالَ

لَهُمْ هَارُونُ: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ} لَيْسَ هَكَذَا، قَالُوا: فَمَا بَالُ مُوسَى وَعَدَنَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفَنَا؟، هَذِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ مَضَتْ، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: أَخْطَأَ رَبَّهُ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ وَيَتْبَعُهُ. فَلَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ، (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ)، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللهَ خَبَّرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ هَارُونُ لِمُوسَى: (ابْنَ أُمَّ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَانْصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟، قَالَ: قَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ وَفَطِنْتُ لَهَا، وَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ فَقَذَفْتُهَا {وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}، قَالَ لَهُ مُوسَى: {فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ (١)، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}، وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ نَخْلُصْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ، فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَاغْتَبَطَ الَّذِينَ كَانَ رَأْيُهُمْ فِيهِ مِثْلَ رَأْيِ هَارُونَ، وَقَالُوا جَمَاعَتُهُمْ لِمُوسَى: سَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابَ تَوْبَةٍ نَصْنَعُهَا، فَتُكَفِّرَ مَا عَمِلْنَا. فَاخْتَارَ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِذَلِكَ، لِإِتْيَانِ الْجَبَلِ، مِمَّنْ لَمْ يُشْرِكْ فِي الْعِجْلِ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ لِيَسْأَلَ لَهُمُ التَّوْبَةَ، فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَاسْتَحْيَا نَبِيُّ اللهِ مِنْ قَوْمِهِ وَوَفْدِهِ حِينَ فُعِلَ بِهِمْ مَا فُعِلَ، فَقَالَ: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ اللهُ اطَّلَعَ عَلَى مَا أُشْرِبَ مِنْ حُبِّ الْعِجْلِ إِيمَانًا بِهِ، فَلِذَلِكَ رَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَقَالَ: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ} فَقَالَ: رَبِّ سَأَلْتُكَ التَّوْبَةَ لِقَوْمِي، فَقُلْتَ: إِنَّ رَحْمَتَكَ كَتَبْتَهَا لِقَوْمٍ غَيْرِ قَوْمِي، فَلَيْتَكَ أَخَّرْتَنِي حَتَّى تُخْرِجَنِي حَيًّا فِي أُمَّةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَرْحُومَةِ، فَقَالَ اللهُ - عز وجل - لَهُ: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ، فَيَقْتُلَهُ بِالسَّيْفِ، لَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، وَأَتَى أُولَئِكَ الَّذِينَ خَفِيَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ مَا اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَاعْتَرَفُوا بِهَا، وَفَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، فَغَفَرَ اللهُ لِلْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ، ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ، فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أُمِرَ بِهِ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوَظَائِفِ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِهَا، فَنَتَقَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ {كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} وَسَحَابَةٌ وَدَنَا مِنْهُمْ، حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذُوا

الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ، وَهُمْ مُصْغُونَ إِلَى الْجَبَلِ وَالأَرْضِ، وَالْكِتَابُ بِأَيْدِيهِمْ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ (١). وقَامَ مُوسَى - عليه السلام - خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ -وَأَيَّامُ اللهِ نَعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ- فَذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ، وَلَّى، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا. مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنِّي. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنِّي أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ عِنْدَ مَنْ هُوَ، إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ -عَبْدُنَا خَضِرٌ- هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ فَدُلَّنِي عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي آتَيْتَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ تُؤْتِنِي حَتَّى أَتَعَلَّمَ مِنْهُ، قَالَ: يَدُلُّكَ عَلَيْهِ بَعْضُ زَادِكَ. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا مَالِحًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ، فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ. فَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ}، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى، وَأَصَابَ الْحُوتَ ثَرَى الْبَحْرِ وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ (مَبْلُولٍ) فَتَحَرَّكَ فِي الْمِكْتَلِ فَقَلَبَ الْمِكْتَلَ فَخَرَجَ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ وَانْسَرَبَ (١)، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ، فَجَعَلَ لَا يَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، حَتَّى كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، حتى صَارَ مِثْلَ الْكَوَّةِ (٢). فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَى - عليه السلام - نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى قَالَ لِفَتَاهُ: {آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا (٣)، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَرَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاقِ (٤) مَمَرَّ الْحُوتِ، وَأَبْصَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَثَرَ الْحُوتِ، فَأَخَذَا إِثْرَ الْحُوتِ يَمْشِيَانِ عَلَى الْمَاءِ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ، فَقَالَ مُوسَى: هَاهُنَا وُصِفَ لِي، فَأَطَافَ بِهَا، فَإِذَا هُوَ بِالْخَضِرِ (١)، مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْقَفَا مُسَجًّى بِثَوْبٍ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَكَشَفَ الْخَضِرُ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ؟ مَنْ أَنْتَ؟، فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ، لَا تَعْلَمُهُ

أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ؟ {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}، شَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ، إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ، قَالَ: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} قَالَ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَقَالُوا: عَبْدُ اللهِ الصَّالِحُ خَضِرٌ؟، لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ. فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ. فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ. فَخَرَجَ مَنْ كَانَ فِيهَا وَتَخَلَّفَ لِيَخْرِقَهَا، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ، فَخَرَقَهَا، وَوَتَّدَ فِيهَا وَتَدًا، فَقَالَ مُوسَى: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا}؟ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} يعني: مُنْكَرًا. قَالَ: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟}، قَالَ: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}، فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، وَالْوُسْطَى شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا. فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ، مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ. فَذُعِرَ عِنْدَهَا مُوسَى - عليه السلام - ذَعْرَةً مُنْكَرَةً، فَقَالَ: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً} مُسْلِمَةً لَمْ تَعْمَلْ بِالْحِنْثِ {بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}، قَالَ: {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟} (٢).[24] قَالَ نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - عِنْدَ هَذَا الْمَوضع لما حكاه لأصحابه: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى (١)، لَوْلَا أَنَّهُ عَجِلَ، لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ (٢)، {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا}، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى الْعَجَبَ. {فَانْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} لِئَامًا، فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَـ {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ}، مَائِلٌ {فَأَقَامَهُ} أَوْمَأَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا (٣) فَاسْتَقَامَ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا، عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ؟ {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}؟ (٤). قَالَ الخضر: {هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}،

[24] (١) وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرَ، لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ. والفروة: أرضٌ بيضاء ليس فيها نبات، أو الحشيش الأبيض وما يشبهه.
(٢) قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى.

فَأَخَذَ مُوسَى - عليه السلام - بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: حَدِّثْنِي، قال: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا، أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} (٥) فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ وَجَدَهَا مُنْخَرِقَةً فَيَدَعُهَا لِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا، أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا، {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ} وَأَمَّا الْغُلَامُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ {فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} بِأَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ، أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالْأَوَّلِ. فَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَى أُمِّهِ، فَعَلِقَتْ، فَوَلَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، {وَأَمَّا الْجِدَارُ، فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا (٦)، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}. (٧)

[25]وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ، وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى - عليه السلام - رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، مَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ وَيَسْتَتِرُ إِذَا اغْتَسَلَ. فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَسْتَتِرُ مُوسَى هَذَا السِّتْرَ، إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ - عز وجل - أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا، فَذَهَبَ مُوسَى - عليه السلام - يَوْمًا يَغْتَسِلُ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ، أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ فَخَرَجَ فِي إِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي يَا حَجَرُ، ثَوْبِي يَا حَجَرُ. حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَوَسَّطَهُمْ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا، فَإِذَا أَحْسَنُ النَّاسِ خَلْقًا وَأَعْدَلُهُمْ صُورَةً وَأَبْرَأَهُ مِمَّا كَانُوا يَقُولُونَ. فَقَالَ الْمَلَأُ: قَاتَلَ اللَّهُ أَفَّاكِي بَنِي

---

[25] (١) قَالَ أُبَيٌّ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي كَذَا. .

(٢) استحياء لتكرار مخالفته.

(٣) وَأَشَارَ سُفْيَانُ -راوي الحديث- كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئًا إِلَى فَوْقُ.

(٤) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَجْرًا نَأْكُلُهُ.

(٥) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - يَقْرَأُ: {وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا}.

(٦) قال ابن عباس رضي الله عنه: حفظهما بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاحاً.

(٧) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى صَبَرَ، حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا.

إِسْرَائِيلَ، وَاللهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأسٍ. فَقَامَ الْحَجَرُ (١)، وَأَخَذَ نَبِيُّ اللهِ ثَوْبَهُ وَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْباً بِعَصَاهُ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنُدَباً مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلاثاً، أَوْ أَرْبَعاً أَوْ خَمْساً. فَكَانَتْ بَرَاءَتَه الَّتِي بَرَّأَهُ اللهُ - عز وجل - بِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً}. وكَانَتْ مَدِينَتَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِحْدَاهُمَا حَصِينَةٌ وَلَهَا أَبْوَابٌ، وَالْأُخْرَى خَرِبَةٌ. فَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْحَصِينَةِ إِذَا أَمْسَوْا أَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا وَإِذَا أَصْبَحُوا قَامُوا عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ فَنَظَرُوا، هَلْ حَدَثَ فِيمَا حَوْلَهُ حَدَثٌ؟ فَأَصْبَحُوا يَوْمًا فَإِذَا شَيْخٌ قَتِيلٌ مَطْرُوحٌ بِأَصْلِ مَدِينَتِهِمْ، فَأَقْبَلَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْخَرِبَةِ فَقَالُوا: أَقَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا؟ وَابْنُ أَخٍ لَهُ شَابٌّ يَبْكِي عِنْدَهُ، وَيَقُولُ: قَتَلْتُمْ عَمِّي، قَالُوا: وَاللهِ مَا فَتَحْنَا مَدِينَتَنَا مُنْذُ أَغْلَقْنَاهَا، وَمَا نُدِينَا (١) مِنْ دَمِ صَاحِبِكُمْ هَذَا بِشَيْءٍ، فَأَتَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، قَالُوا: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا}، نَحْنُ نَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِ هَذَا الْقَتِيلِ، وَأَنْتَ تَقُولُ هَذَا. قَالَ: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} فلا أَقُولُ عَنْهُ غَيْرَ مَا أَوْحَى إِلَيَّ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَجَابَنِي حِينَ سَأَلْتُهُ عَمَّا سَأَلْتُمُونِي عَنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ فِيهِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَيِّ بَقَرَةٍ فَذَبَحُوهَا لَحَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. قَالُوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}، فَسَأَلُوا عَنْ سِنِّهَا وَعَنْ لَوْنِهَا وَعَنْ صِفَتِهَا، فَأُجِيبُوا بِمَا عَزَّ وُجُودُهُ عَلَيْهِمْ، حيث أُمِرُوا بِذَبْحِ بَقَرَةٍ عَوَانٍ -وَهِيَ الْوَسَطُ بَيْنَ الْفَارِضِ وَهِيَ الْكَبِيرَةُ وَالْبِكْرِ وَهِيَ الصَّغِيرَةُ- ثُمَّ شَدَّدُوا، وَضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَسَأَلُوا عَنْ لَوْنِهَا، فَأُمِرُوا بِصَفْرَاءَ فَاقِعٍ لَوْنُهَا، أَيْ مُشْرَبٍ بِحُمْرَةٍ، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ، وَهَذَا اللَّوْنُ عَزِيزٌ. ثُمَّ شَدَّدُوا أَيْضًا فَقَالُوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} قَالَ: {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا} وَهَذِهِ الصِّفَاتُ أَضْيَقُ مِمَّا تَقَدَّمَ، حَيْثُ أُمِرُوا بِذَبْحِ بَقَرَةٍ، لَيْسَتْ بِالذَّلُولِ، وَهِيَ الْمُذَلَّلَةُ بِالْحِرَاثَةِ وَسَقْيِ الْأَرْضِ بِالسَّانِيَةِ، مُسَلَّمَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ {لَا شِيَةَ فِيهَا} أَيْ: لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ يُخَالِفُ لَوْنَهَا. فَلَمَّا حَدَّدَهَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَحَصَرَهَا بِهَذِهِ النُّعُوتِ وَالْأَوْصَافِ، وجدوها بعد مشقة، ثم قَالُوا: {الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} وهذا من سوء أدبهم. وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ غُلَامٌ شَابٌّ يَبِيعُ فِي حَانُوتٍ لَهُ، وَكَانَ لَهُ أَبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ يَطْلُبُ سِلْعَةً لَهُ عِنْدَهُ، فَأَعْطَاهُ بِهَا ثَمَنًا، فَانْطَلَقَ مَعَهُ لِيَفْتَحَ حَانُوتَهُ فَيُعْطِيَهُ الَّذِي طَلَبَ، وَالْمِفْتَاحُ مَعَ أَبِيهِ، فَإِذَا أَبُوهُ الشَّيْخُ نَائِمٌ فِي ظِلِّ الْحَانُوتِ يَغِطُّ نَوْمًا، فَقَالَ: أَيْقِظْهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ أَبِي لَنَائِمٌ كَمَا تَرَى، وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُرَوِّعَهُ مِنْ نَوْمِهِ. فَانْصَرَفَا، فَأَعْطَاهُ ضِعْفَ مَا أَعْطَاهُ، فَعَطَفَ عَلَى أَبِيهِ،

فَإِذَا هُوَ أَشَدُّ مَا كَانَ نَوْمًا، فَقَالَ: أَيْقِظْهُ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا أُوقِظُهُ أَبَدًا وَلَا أُرَوِّعُهُ مِنْ نَوْمِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ وَذَهَبَ طَالِبُ السِّلْعَةِ اسْتَيْقَظَ الشَّيْخُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتَاهُ وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ هَاهُنَا رَجُلٌ يَطْلُبُ سِلْعَةَ كَذَا وَكَذَا، فَكَرِهْتُ أَنْ أُرَوِّعَكَ مِنْ نَوْمِكَ، فَلَامَهُ الشَّيْخُ، فَعَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْ بِرِّهِ لِوَالِدِهِ أَنْ نَتَجَتْ (١) بَقَرَةٌ مِنْ بَقَرِهِ تِلْكَ الْبَقَرَةَ الَّتِي يَطْلُبُهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: بِعْنَاهَا، فَقَالَ: لَا أُبِيعُكُمُوهَا، قَالُوا: إِذَنْ نَأْخُذُهَا مِنْكَ، قَالَ: إِنْ غَصَبْتُمُونِي سِلْعَتِي فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ، فَأَتَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: اذْهَبُوا فَأَرْضُوهُ مِنْ سِلْعَتِهِ، فَقَالُوا: حُكْمُكَ؟ قَالَ: حُكْمِي أَنْ تَضَعُوا الْبَقَرَةَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَتَضَعُوا ذَهَبًا صَامِتًا فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى، فَإِذَا مَالَ الذَّهَبُ أَخَذْتُهُ، قَالَ: فَفَعَلُوا وَأَقْبَلُوا بِالْبَقَرَةِ حَتَّى أَتَوْا بِهَا إِلَى قَبْرِ الشَّيْخِ وَهُوَ بَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْمَدِينَتَيْنِ {فَذَبَحُوهَا، وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} وَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ فِي أَمْرِهَا. (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وَابْنُ أَخِيهِ عِنْدَ قَبْرِهِ يَبْكِي، فَضَرَبَ بِبَضْعَةٍ مِنْ لَحْمِهَا الْقَبْرَ، فَقَامَ الشَّيْخُ يَنْفُضُ رَأْسَهُ يَقُولُ: "قَتَلَنِي ابْنُ أَخِي، طَالَ عَلَيْهِ عُمْرِي وَأَرَادَ أَخْذَ مَالِي"، وَمَاتَ. فجعل الله لهم هذه البقرة آية من آياته عزَّ وجلَّ، بأن تكونَ البقرة التي تفارق الحياةَ سبباً لحياة هذا القتيل، إذ لا رابطةَ في المعقول بين أن تُذبَح البقرة، ويُضرَب القتيلُ ببعض أجزائها فيحيا، فلو قِيل بضربه بجزءٍ مِن بقرة حيةٍ لربما توهَّم متوهمٌ أنَّه استمدَّ الحياةَ مِن حياتها، ولكن أمرهم بضربه بجزءٍ مِن بقرة ميتة، لتعود له الحياةُ بإذن الله. ثمَّ ذكَّرهم الله سبحانه أنه كما أحيا هذا القتيلَ بقدرته، كذلك يُحيي الموتى بعد مماتهم. ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى أَتَوُا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَوَجَدُوا فِيهَا مَدِينَةً فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارُونَ، فَقَالُوا: {يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَلَا نَدْخُلُهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ، وَهُمَا يُوشَعُ بن نون وَكَالِبُ يوفنا: إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَعِدَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا قُلُوبَ لَهُمْ، وَلَا مَنَعَةَ عِنْدَهُمْ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، فكان ردهم أنهم {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ، فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ}، فَأَغْضَبُوا مُوسَى، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ - وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ - لِمَا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَإِسَاءَتِهِمْ، حَتَّى كَانَ يَوْمَئِذٍ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ مُوسَى: {فَاسِقِينَ}، وَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ.

ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيهِمُ الْغَمَامَ فِي التِّيهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لا تَبْلَى وَلا تَتَّسِخُ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا، وَأَمَرَ مُوسَى فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلاثَةُ أَعْيُنٍ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سِبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا لا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنْقَلَةٍ إِلَّا وُجِدَ ذَلِكَ الْحَجَرُ فِيهِمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالأَمْسِ. وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (١)، وَلَوْلا بَنو إِسْرَائِيل لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ ، وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ (٢).[26] وكَانَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَأْتِي النَّاسَ عِيَانًا، فَأُرْسِلَ إِلَى مُوسَى - عليه السلام - فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، فَلَطَمَهُ مُوسَى (٣) - عليه السلام - فَفَقَأَ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ، فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ تَعالَى، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي، وَلَوْلا كَرَامَتُهُ عَلَيْكَ، لَعَنُفْتُ بِهِ، فَرَدَّ اللهُ -عز وجل- عَلَيهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ، فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ غَطَّتْهَا يَدُكَ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. فَقَالَ مُوسَى: فَمَا

---

[26] (١) الْمَنُّ: الطَّلُّ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الشَّجَرِ كَمثل الصمغ، أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ. وقيل: كان يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ سُقُوطَ الثَّلْجِ. وَالسَّلْوَى: نوع من الطَّيْرِ يُشْبِهُ السُّمَانَى. قال ابن القيم: المَنَّ الذى أُنزل على بنى إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط، بل أشياءُ كثيرة مَنَّ الله عليهم بها من النبات الذى يُوجد عفواً من غير صنعة ولا عِلاجٍ ولاحرث، فان المن مصدر بمعنى المفعول أى "ممنون" به فكل ما رزقه الله العبد عفوا بغير كسب منه ولا علاج، فهو مَنٌّ محضٌ، وإن كانت سائر نعمه مَنّاً منه على عبده، نخصَّ منها ما لا كسب له فيه، ولا صُنعَ باسم "المَنِّ"، فإنه مَنٌّ بلا واسطة العبد، وجعل سبحانه قُوتَهم بالتِّيه "الكمأة"، وهى تقومُ مقام الخبز، وجعل أُدمهم "السَّلْوى"، وهو يقوم مقام اللَّحم، وجعل حَلواهم "الطلَّ" الذى ينزلُ على الأشجار يقوم لهم مقام الحلوى. فكَمُل عيشهُم. وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم: "الكمأة من المَنِّ الذى أنزله الله على بنى إسرائيل " فجعلها من جملته، وفرداً من أفراده، والترنْجبين الذى يسقط على الأشجار نوع من المَنِّ، ثم غلب استعمال المَنِّ عليه عُرْفاً حادثاً. (٢) قال العلماء: معناه أن بنى إسرائيل لما نزل الله عليهم المن والسلوى نهوا عن ادخارهما، فادخروا ففسد وأنتن، واستمر من ذلك الوقت. (٣) قيل: لأنه دخل عليه ولم يستأذن، ولم يعرفه كما لم يعرف إبراهيم ضيوفه من الملائكة، وقيل: لأنه لم يخيِّره والأنبياء تخيَّر. وقال ابن حبان: وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَرِيعَتِنَا أَنَّ مَنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخِلِ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ أَوِ النَّاظِرِ إِلَى بَيْتِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ لا جُنَاحَ عَلَى فَاعِلِهِ، وَلَا حَرَجَ عَلَى مُرْتَكِبِهِ، لِلْأَخْبَارِ الْجَمَّةِ الْوَارِدَةِ فِيهِ الَّتِي أَمْلَيْنَاهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِنَا: كَانَ جَائِزًا اتِّفَاقُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ بِشَرِيعَةِ مُوسَى، بِإِسْقَاطِ الْحَرَجِ عَمَّنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخِلِ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ مُوسَى هَذَا الْفِعْلِ مُبَاحًا لَهُ وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ. وفي شرح السنة للبغوي (٥/ ٢٦٧): وَقَدْ كَانَ فِي طَبْعِ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمِيَّةٌ، وَحِدَّةٌ، عَلَى مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ وَكْزِهِ الْقِبْطِيَّ، وَإِلْقَائِهِ الأَلْوَاحَ، وَأَخْذِهِ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ. (٤) أَيْ: قَدْر رَمْيَة حَجَر، والْحِكْمَة فِي أَنَّهُ لَمْ يَطْلُب دُخُولهَا لِيَعْمِيَ مَوْضِع قَبْره لِئَلَّا تَعْبُدهُ الْجُهَّال مِنْ مِلَّته، أو أَنْ يَكُون سِرّ ذَلِكَ أَنَّ الله لَمَّا مَنَعَ بَنِي إِسْرَائِي مِنْ دُخُول بَيْت الْمَقْدِس وَتَرَكَهُمْ فِي التِّيه أَرْبَعِينَ سَنَة إِلَى أَنْ أَفْنَاهُمْ الْمَوْت فَلَمْ يَدْخُل الْأَرْض الْمُقَدَّسَة مَعَ يُوشَع إِلَّا أَوْلَادهمْ، وَلَمْ يَدْخُلهَا مَعَهُ أَحَد مِمَّنْ اِمْتَنَعَ أَوَّلًا أَنْ يَدْخُلهَا، وَمَاتَ هَارُون ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام قَبْل فَتْح الْأَرْض الْمُقَدَّسَة، فَكَأَنَّ مُوسَى لَمَّا لَمْ يَتَهَيَّأ لَهُ دُخُولهَا لِغَلَبَةِ الْجَبَّارِينَ عَلَيْهَا، وَلَا يُمْكِن نَبْش قَبْره بَعْد ذَلِكَ لِيُنْقَلَ إِلَيْهَا، طَلَبَ الْقُرْب مِنْهَا، لِأَنَّ مَا قَارَبَ الشَّيْء يُعْطَى حُكْمه، والله أعلم.

بَعْدَ ذَلِكَ؟، قَالَ: الْمَوْتُ، قَالَ: فَالْآنَ إِذًا. فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. (٤) فَشَمَّهُ مَلَكُ الْمَوْتِ شَمَّةً، فَقَبَضَ رُوحَهُ. وقَبْرُهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَ مَلَكُ الموتِ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي النَّاسَ فِي خِفْيَةٍ.

ذكر يوشع بن نون عليه السلام: ثم صارت النبوة في يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليه السلام، فغزَا وهو نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا. وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سَقْفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ (١) وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا. فغزَا، فَغَزَا، فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَاتَّفَقَ ذَلِكَ فِي آخِرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَكَانُوا لَا يُقَاتِلُونَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَخَشِيَ إِنْ دَخَلَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ أَنْ يَسْبِتُوا. فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، و (إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ لِبَشَرٍ، إِلَّا لِيُوشَعَ، لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ)، حتى فُتح لهم، فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا -وكَانَتْ تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ على الغنائم فتَأْكُلُهَا- فَجَاءَتْ النَّارُ لتأْكُلَها، فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَبَايَعَتْهُ فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثلاثة، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ، قَالَ: فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ فَأَقْبَلَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ (٢).

كالب بن يوفنا؟ وكان الْقَيِّمُ بِأُمُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ يُوشَعَ، كَالِبُ بْنُ يُوفَنَّا -أَحَدَ أَصْحَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهِ مَرْيَمَ، وَهُوَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ مِمَّنْ يَخَافُونَ اللهَ، وَهُمَا يُوشَعُ وَكَالِبُ، وَهُمَا الْقَائِلَانِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

حزقيل بن بوزى؟ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ كَالِبَ كَانَ الْقَائِمُ بِأُمُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِزْقِيلَ بْنَ بُوذَى. وَهُوَ الَّذِي دَعَا اللَّهَ فَأَحْيَا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، وكانوا قد فَرُّوا مِنَ الْوَبَاءِ، فَنَزَلُوا بِصَعِيدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: مُوتُوا. فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَحَظَرُوا عَلَيْهِمْ حَظِيرَةً دُونَ السِّبَاعِ، فَمَضَتْ عَلَيْهِمْ دُهُورٌ طَوِيلَةٌ، فَمَرَّ بِهِمْ حِزْقِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوقف عَلَيْهِمْ مُتَفَكِّرًا، فَقِيلَ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ وَأَنْتَ تَنْظُرُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فأحياهم الله جميعاً وهو ينظر إليهم.

ذكر إلياس عليه السلام: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَرَادُوا قَتْلَه، فَيُقَالُ: إِنَّهُ هَرَبَ مِنْهُمْ، وَاخْتَفَى عَنْهُمْ.

ذكر اليسع عليه السلام: وكَانَ الْيَسَعُ بَعْدَ إِلْيَاسَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ مُسْتَمْسِكًا بِمِنْهَاجِ إِلْيَاسَ وَشَرِيعَتِهِ، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، إِلَيْهِ، ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الْخُلُوفُ، وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَالْخَطَايَا، وَكَثُرَتِ الْجَبَابِرَةُ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَكَانَ فِيهِمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ عَنِيدٌ طَاغٍ.

ذكر أنبياء وأقوام لم نذكرها : وقد ذكر بعض الأنبياء ولم تذكر أحداث وتفاصيل قصصهم، ومنهم شِيثُ (١) بن آدم عليهما السلام، ومن بعده أَخْنُوخُ وَهُوَ إِدْرِيسُ عليه السلام. ومنهم ذو الْكِفْلِ، زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ ابْنُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. والظَّاهِرُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَقْرُونًا مَعَ السَّادَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ نَبِيٌّ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَقَدْ زَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا عَادِلًا. وأَصْحَابُ الرَّسِّ، والرَّسُّ بِئْرٌ رَسُّوا فِيهَا نَبِيَّهُمْ. أَيْ: دَفَنُوهُ فِيهَا. وكان عهدهم قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَاةِ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى}. وأَصْحَابُ الْقَرْيَةِ -وهم الذين جاءت قصتهم في سورة يس- واشْتَهَرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ أَنْطَاكِيَةُ، وقد أرسل اللّٰهُ إليهم أولًا رسولين ليدعواهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوهما، فقواهما الله بإرسال رسول ثالث معهم، وجاء من أقصى القرية رجل مسرع خوفًا على قومه من تكذيب الرسل وتهديدهم بالقتل والإيذاء، ونصح قومه باتباع الرسل، فما كان من قومه إلا أن قتلوه، فأدخله الله الجنة. وقال متمنيًا: يا ليت قومي الذين كذبوني وقتلوني يعلمون بما حصل لي من مغفرة الذنوب، وبما أكرمني به ربي؛ ليؤمنوا مثلما آمنت.

ذكر قصة أصحاب الكهف: وكانَ فتيةٌ منْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَادَتِهِمْ، خَرَجُوا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَعْيَادِ قَوْمِهِمْ، حيثُ كَانَ لَهُمْ مُجْتمعٌ فِي السَّنَةِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ، وَكَانَ قومهم يَعْبدُونَ الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاغِيتَ، وَيَذْبحُونَ لَهَا، وكَانَ لَهُم مَلكٌ جبَّارٌ عَنيدٌ يُقَالُ لَهُ: "دَقْيَانُوس"، وَكَانَ يَأْمُرُ النَّاس بِذَلِكَ وَيحُثُّهُمْ عَلَيْهِ وَيدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ لِمُجْتَمَعِهِمْ ذَلِكَ، وَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ مَعَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، وَنَظَرُوا إِلَى مَا يَصْنَعُ قَوْمُهُم بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِمْ، عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا، لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَخَلَّصُ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ وَيَتَبَرَّزُ عَنْهُمْ نَاحِيَةً. فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ مِنْهُمْ وَحْدَهُ أَحَدُهُمْ، جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ عِنْدَهُ، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَلَا يَعْرِفُ وَاحِدٌ مِنْهُمُ الْآخَرَ، وَإِنَّمَا جَمَعَهُمْ هُنَاكَ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ.

وَجَعَلَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يَكْتُمُ مَا هُوَ فِيهِ عَنْ أَصْحَابِهِ، خَوْفًا مِنْهُمْ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُمْ مِثْلُهُ، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ: تَعْلَمُونَ -وَاللَّهِ يَا قَوْمِ- إِنَّهُ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَأَفْرَدَكُمْ عَنْهُمْ، إِلَّا شَيْءٌ فَلْيُظْهِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِأَمْرِهِ. فَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي وَاللَّهِ رَأَيْتُ مَا قَوْمِي عَلَيْهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ: السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا. وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ وَقَعَ لِي كَذَلِكَ. وَقَالَ الْآخَرُ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوَافَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً وَإِخْوَانَ صِدْقٍ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فِيهِ، فَعَرَفَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ، فَوَشَوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ، وَدَعَوْهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا} أَيْ: لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا، لِأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكَانَ بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا. فَيُقَالُ: إِنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَعَوْهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَبَى عَلَيْهِمْ، وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِنَزْعِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُمُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ، وَأَجَّلَهُمْ لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يُرَاجِعُونَ دِينَهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ. وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظْرَةِ (١) تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ. وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ. وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ وَدَخَلَ الْفِتْيَةُ الْكَهْفَ سَائِلِينَ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ، فَصَبَّرَهُمُ اللَّهُ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ

مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنِّعمَةِ، وَضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ فَنَامُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ مَنْ يُقَلِّبُهُمْ وَحَوَّلَ الشَّمْسَ عَنْهُمْ فَلَوْ طَلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَأَحْرَقَتْهُمْ وَلَوْلَا أَنَّهُمْ يُقَلَّبُونَ لَأَكَلَتْهُمُ الْأَرْضُ، وَرَبَضَ كَلْبُهُمْ عَلَى الْبَابِ كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ كَلْبَ صَيْدٍ لِأَحَدِهِمْ. وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ. وَشَمَلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكَتُهُمْ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. وَهَذَا فَائِدَةُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ. وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ؛ لِمَا أُلْبِسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ، لِئَلَّا يَدْنُوَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَمَسَّهُمْ يَدُ لَامِسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَتَنْقَضِيَ رَقْدَتُهُمُ الَّتِي شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ. فَجَاءَ أَهَالِيهِمْ يَطْلُبُونَهُمْ فَفَقَدُوهُمْ فَأَخْبَرُوا الْمَلِكَ، وَتَطَلَّبَهُمُ الْمَلِكُ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وَعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ. فَأَمَرَ بِكِتَابَةِ أَسْمَائِهِمْ فِي لَوْحٍ مِنْ رَصَاصٍ -وَهُوَ الرَّقِيمُ- وَجَعَلَهُ فِي خِزَانَتِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَجَاءَ آخَرُ فَكَسَّرَ الْأَوْثَانَ وَعَبَدَ اللَّهَ وَعَدَلَ، فَبَعَثَ اللَّهُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ صَحِيحَةً أَبْدَانُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ، لَمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ شَيْئًا، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ؛ وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ: {كَمْ لَبِثْتُمْ}؟ أَيْ: كَمْ رَقَدْتُمْ؟، وَكَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ، وَاسْتِيقَاظُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ، فَقَالُوا: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}، ثُمَّ قَالُوا: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}، وَحَصَلَ احْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَأَرْسَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَأْتِيهِمْ بِمَا يَأْكُلُونَ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ مُسْتَخْفِيًا فَرَأَى هَيْئَةً وَنَاسًا أَنْكَرَهُمْ لِطُولِ الْمُدَّةِ فَدَفَعَ دِرْهَمًا إِلَى خَبَّازٍ فَاسْتَنْكَرَ ضَرْبَهُ وَهَمَّ بِأَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: أَتُخَوِّفُنِي بِالْمَلِكِ وَأَبِي دِهْقَانُهُ (٢). فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟! قَالَ: فُلَانٌ. فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَرَفَعُوهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِاللَّوْحِ، وَكَانَ قَدْ سَمِعَ بِهِ، فَسَمَّى أَصْحَابَهُ فَعَرَفَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ وَانْطَلَقُوا إِلَى الْكَهْفِ، وَسَبَقَ الْفَتَى لِئَلَّا يَخَافُوا مِنَ الْجَيْشِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمْ؛ عَمَّى اللَّهُ عَلَى الْمَلِكِ وَمَنْ مَعَهُ الْمَكَانَ، فَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ ذَهَبَ الْفَتَى، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَبْنُوا عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا، فَجَعَلُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ لَهُمْ.

ذكر قصة أصحاب السبت: وَكَانَ أَهْلُ أَيْلَةَ -بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطُّورِ- مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ التَّوْرَاةِ فِي تَحْرِيمِ السَّبْتِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ قَدْ أَلِفَتْ مِنْهُمُ السَّكِينَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ ; وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الِاصْطِيَادُ فِيهِ وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الصَّنَائِعِ وَالتِّجَارَاتِ وَالْمَكَاسِبِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ فِي مِثْلِ يَوْمِ

السَّبْتِ يَكْثُرُ غَشَيَانُهَا لِمَحَلَّتِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ ; فَتَأْتِي مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ظَاهِرَةً آمِنَةً مُسْتَرْسِلَةً فَلَا يُهَيِّجُونَهَا وَلَا يَذْعَرُونَهَا، {وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ}، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَصْطَادُونَهَا فِيمَا عَدَا السَّبْتِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ} أَيْ: نَخْتَبِرُهُمْ بِكَثْرَةِ الْحِيتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} أَيْ: بِسَبَبِ فِسْقِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ احْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِهَا فِي يَوْمِ السَّبْتِ، بِأَنْ نَصَبُوا الْحِبَالَ وَالشِّبَاكَ وَالشُّصُوصَ، وَحَفَرُوا الْحُفَرَ الَّتِي يَجْرِي مَعَهَا الْمَاءُ إِلَى مَصَانِعَ قَدْ أَعَدُّوهَا، إِذَا دَخَلَهَا السَّمَكُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَإِذَا جَاءَتِ الْحِيتَانُ مُسْتَرْسِلَةً يَوْمَ السَّبْتِ، عَلِقَتْ بِهَذِهِ الْمَصَايِدِ، فَإِذَا خَرَجَ سَبْتُهُمْ أَخَذُوهَا، فَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ; لَمَّا احْتَالُوا عَلَى خِلَافِ أَمْرِهِ، وَانْتَهَكُوا مَحَارِمَهُ بِالْحِيَلِ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ لِلنَّاظِرِ، وَهِيَ فِي الْبَاطِنِ مُخَالَفَةٌ مَحْضَةٌ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ افْتَرَقَ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا فِرْقَتَيْنِ ; فِرْقَةٌ أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ صَنِيعَهُمْ هَذَا وَاحْتِيَالَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَفِرْقَةٌ أُخْرَى لَمْ يَنْصَحُوا وَلَمْ يَنْهَوْا، واكتفوا بإنكار قلوبهم ذلك الفعل، وَقَالُوا للناصحين: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} مَا الْفَائِدَةُ فِي نَهْيِكُمْ هَؤُلَاءِ وَقَدِ اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ لَا مَحَالَةَ؟، فَأَجَابَتْهُمُ الطَّائِفَةُ الناصحة بِأَنْ قَالُوا: {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} أَيْ: فِيمَا أُمِرْنَا بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَنَقُومُ بِهِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ. {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أَيْ: وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ يَتْرُكُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ، فَيَقِيهِمُ اللَّهُ عَذَابَهُ وَيَعْفُو عَنْهُمْ إِذَا هُمْ رَجَعُوا وَاسْتَمَعُوا.{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَنْ نَهَاهُمْ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ الْفَظِيعِ أنجى اللهُ {الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} وَهُمُ الْفِرْقَةُ الْآمِرَةُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَةُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخَذَ {الَّذِينَ ظَلَمُوا} وَهُمُ الْمُرْتَكِبُونَ المعصية الْفَاحِشَةَ {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} وَهُوَ الشَّدِيدُ الْمُؤْلِمُ الْمُوجِعُ {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} وقال لَهُمْ: {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}. فَأَهْلَكَ اللهُ الظَّالِمِينَ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْكِرِينَ (١). [27]

---

[27] (١) واخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في مصير السَّاكِتِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنَ النَّاجِينَ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنَ الْهَالِكِينَ. وَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُمْ مِنَ النَّاجِينَ. وَهُوَ الَّذِي رَجَعَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُنَاظَرَةِ مَوْلَاهُ عِكْرِمَةَ، فَكَسَاهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حُلَّةً سَنِيَّةً، تَكْرِمَةً. وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرُوا مَعَ النَّاجِينَ، لِأَنَّهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا بِبَوَاطِنِهِمْ وأنكروا بقلوبهم تِلْكَ الْفَاحِشَةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا ظَوَاهِرَهُمْ بِالْعَمَلِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنَ الْإِنْكَارِ الْقَوْلِيِّ، الَّذِي هُوَ أَوْسَطُ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ، الَّتِي أَعْلَاهَا الْإِنْكَارُ بِالْيَدِ ذَاتِ الْبَنَانِ، وَبَعْدَهَا الْإِنْكَارُ الْقَوْلِيُّ بِاللِّسَانِ، وَثَالِثُهَا الْإِنْكَارُ بِالْجَنَانِ. فَلَمَّا لَمْ يُذَكِّرُوا، لَمْ يُذْكَرُوا مَعَ النَّاجِينَ، والله أعلم.

ذكر قصة طالوت وجالوت: ثم إن بني إسرائيل لَمَّا أَنْهَكَتْهُمُ الْحُرُوبُ، وَقَهَرَهُمُ الْأَعْدَاءُ، سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ (١) وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُنَصِّبَ لَهُمْ مَلِكًا يَكُونُونَ تَحْتَ طَاعَتِهِ؛ لِيُقَاتِلُوا مِنْ وَرَائِهِ وَمَعَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْأَعْدَاءَ. فخشي عليهم ألا يَفُوا بما وعَدوا من القيام بالجهاد، فأصروا وأجابوا بأنَّه لا شيء يحولُ بينهم وبين الجهاد في سبيل الله، وخاصة أنهم أُخرجوا من ديارهم، وسُبي أبناؤهم. فلمَّا فرَض الله عليهم القتالَ؛ لم يفوا بالوعد! بل أدْبروا ناكلينَ عن الجهاد إلَّا عددًا قليلًا منهم، والله تعالى يعلم مَن ظلم منهم، وأخلف وعده، وسيجازيه على ظلمه. ثمَّ أعلمهم نبيُّهم أنَّ الله قد أجابهم إلى ما طلَبوا، وعيَّن لهم طالوتَ ملِكًا عليهم، وكان طالوت رجلًا من عامَّتهم، لا ينتمي إلى سِبط ملوكِ بني إسرائيل، فلم يُسلِّموا لما اختاره الله لهم! بل اعترضوا على ذلك فقالوا: كيف يكون ملِكًا علينا وهو دُوننا في الشَّرف، وهو مع ذلك ليس من أصحاب الأموال، كما هو حال الملوك؟! فأخبرهم نبيُّهم عليه السلام عند ذلك أنَّ الله هو الذي اختاره لهم، واختصَّه مِن بينهم، وأعطاه زيادةً في العِلم، وطولَ قامة، وقوَّةً في الجسد، ثم إنَّ المُلك لله وحْده يؤتيه مَن يشاء، وهو سبحانه واسعُ الفضل والكرم، لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، عليمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يَصْلُح للمُلك من غيره. وقال لهم نبيُّهم أيضًا: إنَّ العلامةَ الدالَّة على صحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليهم هي أن يُردَّ إليهم التابوتُ -الذي سُلِب منهم- حاويًا ما يُهدِّئ نفوسهم فتطمئنَّ به قلوبهم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من ترِكة موسى وهارون عليهما السلام، يحمل هذا التابوتَ إليهم الملائكةُ عليهم السَّلام، وإنَّ في هذا الأمر لعلامةً واضحة لكم على اختيار الله لطالوت؛ ليكونَ ملِكًا عليكم، إنْ كنتم مؤمنين بالله، ومصدِّقين لما أخبرتكم به. فلمَّا أذعنوا أخيرًا لمُلك طالوت عليهم بعد أنْ جاءهم التابوت؛ انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم.

28

---

28 (١) قيل أنه: شَمْوِيلُ عليه السلام.

فلمَّا جاوَزوا موطنهم في طريقهم إلى ملاقاة العدوّ، أعلمهم طالوت أنَّ الله مختبرُهم بنَهرٍ، ليُظهِر الكاذب من الصادق، ويتميَّز الصابر من الجازع، وأَعلن طالوتُ براءتَه مِن كلِّ مَن يَشربُ منه، وأنَّه لن يَصحبَه مع الجيش إلى القِتال، وأنَّ مَن لم يَطْعَمه- إلَّا أن يَغترِفَ بكفِّه غرفةً واحدة- فإنَّه منه، فشَرِب معظمُهم، ولم يُطعِ الأمرَ إلا قليلٌ منهم ممَّن وفقهم الله تعالى وثبَّتهم.

فلمَّا تعدَّى طالوت النهر ومَن آمن معه، ممَّن أطاعوه فلم يشربوا من النهر أو شربوا غرفة واحدة- قال بعضُهم لمَّا رأَوا من كثرة أعدائهم مقارنة بعددهم القليل: لا قُدرةَ لنا هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عددِهم وعَتادهم، فحينها قال لهم الموقنون برُجوعهم إلى الله تعالى: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلةُ الجماعةَ الكثيرةَ! وذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛ فلا تفيد الكثرةُ مَن خذَله الله، ولا تضرُّ القِلَّةُ مَن وفَّقه الله، والله سبحانه مع الصَّابرين. ولـمَّا ظهَر المؤمنون- طالوتُ وجُنوده- لجالوتَ وجُنودِه، دعا أهلُ الإيمان ربَّهم أن يُلهِمَهم الصَّبر، ويثبِّت أقدامَهم، وأنْ ينصرَهم على أهل الكفر، فاستجاب الله دُعاءَهم، وغلَب المؤمنون عدوَّهم، وكان داودُ عليه السلام من جنود طالوت، فسلَّطه اللهُ على جالوت فقتله، وأعطا الله داودَ الـمُلكَ والنبوَّة وآتاه من العِلم ما يشاء سبحانه.

ذكر داود عليه السلام: وكَانَ دَاوُدُ - عليه السلام - أَعْبَدَ الْبَشَرِ، وأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ، صِيَامُ دَاوُدَ - عليه السلام - كَانَ يَصُومُ يومًا، وَيفْطِرُ يوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ.

وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ على داود لِثَمَانِ عَشْرَةَ ليلة خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وخفف على داود قراءته، فكان ما بين أن يسرج دابته على أن يركبها يقرأ قرآنه وهو الزبور. وآتى اللهُ داوودَ نبوة وملكًا، وقوى ملكه بما وهبه من الهيبة والنصر، وجعله ذا قوة على مقارعة أعدائه والصبر على طاعة الله، وأعطاه الحكمة والفصل في الكلام والحُكْم. وجعل الجبال والطير ترجّع معه التسبيح، وصيّر له الحديد ليّناً ليصنع منه ما يشاء من أدوات، وعلمه الله أن يصنع دروعًا واسعة تقي مقاتليه بأس عدوّهم، ويُصيّر المسامير مناسبة للحِلَق فلا تكون دقيقة بحيث لا تستقرّ فيها، ولا غليظة بحيث لا تدخل فيها. وإِنَّ لُقْمَانَ كَانَ عِنْدَ دَاوُدَ وَهو يَسْرُدُ الدِّرْعَ فَجَعَل يَفْتِلُه بِيَدِهِ ولُقْمَانُ يَتَعجَّبُ ويُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ وتَمْنَعهُ حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَبَّهَا عَلَى نَفْسِه، فَقَالَ: نِعْمَ دِرْعُ الْحَرْبِ هَذِهِ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ، كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ فَسَكَتُّ حَتَّى كَفَيْتَنِي.

ذكر سليمان عليه السلام: ووُهِبَ لداود ابنُه سليمان إنعامًا من الله عليه وتفضلًا لتقر عينه به، وكان سليمانُ كثير التوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه، ورُفِعَت لداود وابنه سليمان عليهما السلام قضية بشأن خصمين، لأحدهما غنم انتشرت ليلًا في حَرْث (زرع) الآخر فأفسدته، وكَانَ حَرْثُهُمْ عِنَبًا نَفَشَتْ فِيهِ الْغَنَمُ، أَيْ: رَعَتْ لَيْلًا، فَقَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لَهُمْ، فَمَرُّوا عَلَى سُلَيْمَانَ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَا، وَلَكِنْ أَقْضِي بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْغَنَمَ فَيَكُونَ لَهُمْ لَبَنُهَا وَصُوفُهَا وَمَنْفَعَتُهَا، وَيَقُومُ هَؤُلَاءِ عَلَى حَرْثِهِمْ حَتَّى إِذَا عَادَ كَمَا كَانَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ غَنَمَهُمْ. وخَرَجَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا صَبِيَّانِ لَهُمَا، فَعَدَا الذِّئْبُ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ وَلَدَهَا. فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ، وَقَالَتْ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ - عليه السلام - فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عليه السلام - فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَقْطَعُهُ بَيْنَكُمَا نِصْفَيْنِ، لِهَذِهِ نِصْفٌ، وَلِهَذِهِ نِصْفٌ، فَقَالَتْ الْكُبْرَى: نَعَمْ، اقْطَعُوهُ، وَقَالَتْ الصُّغْرَى: لَا تَقْطَعْهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا. فَقَالَ: هُوَ ابْنُكِ. فَقَضَى بِهِ لِلَّتِي أَبَتْ أَنْ يَقْطَعَهُ. وورِثَ سليمانُ أباهُ داودَ في النبوة والعلم والملك، وقال متحدثاً بنعمة الله عليه وعلى أبيه: يا أيها الناس، عَلَّمنا الله فهم أصوات الطير، وأعطانا من كل شيء أعطاه الأنبياء والملوك، إن هذا لهو الفضل المبين. وكَانَ لِنَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عليه السلام - مِائَةُ امْرَأَةٍ. فَقَالَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي، فَلَتَحْمِلَنَّ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ وَلَتَلِدَنَّ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِنِصْفِ إِنْسَانٍ (١). وعرضت عليه عصرًا الخيول الأصيلة السريعة، تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، فلم تزل تُعْرض عليه تلك الخيول الأصيلة حتى غربت الشمس. فقال سليمان: إني آثرت حب المال -ومنه هذه الخيل- على ذكر ربي حتى غابت الشمس وتأخرتُ عن صلاة العصر، ردوا علي هذه الخيل. فردوها عليه، فبدأ يضرب بالسيف سوقها وأعناقها (٢).

ولما فرغ سليمان بن داود عليه السلام من بناء بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمه، فأعطاه الله إياه. وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه. وألا يأتي هذا المسجد (٣) أحد لا يريد إلا الصلاة فيه، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه. قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة. وطوّع الله لسليمان الريح شديدة الهبوب تجري بأمره إذا أمرها إلى أرض الشام. تسير في الصباح مسافة شهر، وتسير في المساء مسافة شهر، وتنقاد بأمره لينة لا زعزعة فيها مع قوتها وسرعة جريها، تحمله حيث أراد. وسيّل اللهُ له

عين النحاس ليصنع من النحاس ما يشاء، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه بأمر ربه، وذلل له الشياطين يأتمرون بأمره، فمنهم البناؤون يعملون له ما أراد من مساجد للصلاة ومن قصور، وما يشاء من صور، وما يشاء من قصاع مثل حياض الماء الكبيرة، وقدور الطبخ الثابتات فلا يُحرَّكْنَ لعِظَمِهِن. ومنهم الغواصون الذين يغوصون في البحار، فيستخرجون الدرر منها. والذي يميل من الجن عمَّا أُمِر به من العمل يناله عذاب أليم. ومن الشياطين أيضاً مردة سُخِّروا له، فهم بأمره موثقون في الأغلال لا يستطيعون التحرك. وقيل له: يا سليمان، هذا عطاؤنا الذي أعطيناكه استجابة لما طلبت منا، فأعط من شئت، وامنع من شئت، فلن تحاسب في إعطاء أو منع. وقيل: اعملوا - يا آل داود - شكراً لله على ما أنعم به عليكم، وقليل من عباد الله هم الشكورون على ما أنعم الله عليهم. وجُمِع لسليمان جنوده من البشر والجن والطير، فهم يُسَاقون بنظام، حتَّى إذا جاؤوا إلى وادي النمل (موضع بالشام) قالت نملة من النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، حتَّى لا يهلككم سليمان وجنوده وهم لا يعلمون بكم، إذ لو علموا بكم لما داسوكم. فلما سمع سليمان كلامها تبسّم ضاحكًا من قولها هذا، وقال داعياً ربه سبحانه: ربِّ وفقني وألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والديَّ، ووفقني أن أعمل عملًا صالحاً ترتضيه، وأدخلني برحمتك في جملة عبادك الصالحين. وتَعَهَّد سليمان الطيرَ وتفقّدهم فلم ير الهدهد، فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أمنعني من رؤيته مانع؟ أم كان من الغائبين؟، فلما تبين له غيابه قال: لأعذبنّه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنّه عقابًا له على غيابه، أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره في الغياب. فمكث الهدهد في غيابه زمنًا غير بعيد، فلما جاء قال لسليمان عليه السلام: اطلعت على ما لم تطلع عليه، وجئتك من أهل سبأ بخبر صادق لا شك فيه. إني وجدت امرأة تحكمهم، وأُعطِيت هذه المرأة من كل شيء من أسباب القوة والملك، ولها سرير عظيم تدير مِن عليه شؤون قومها. وقد وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله سبحانه وتعالى، وحسَّن لهم الشيطان ما هم عليه من أعمال الشرك والمعاصي، فصرفهم عن طريق الحق، فهم لا يهتدون إليه. وأضلهم لئلا يسجدوا لله الَّذي يُخْرِج ما ستره في السماء من المطر، وفي الأرض من النبات، ويعلم ما يخفيه الناس من الأعمال وما يظهرونه، لا يخفى عليه من ذلك شيء. الله الذي لا معبود بحق غيره، هو رب العرش العظيم. فقال سليمان عليه السلام للهدهد: سننظر أصدقت فيما تدعيه عن مملكة سبأ، أم كنت من الكاذبين. ثم كتب سليمان كتابًا، وسلمه للهدهد، وقال له: اذهب بكتابي هذا فارمه إلى أهل سبأ وسلّمهم إياه، وتنحّ عنهم جانبًا بحيث تسمع ما يرددون

بشأنه.واستلمت الملكة الكتاب، وقالت: يا أيها الأشراف إني ألقي إلي كتاب كريم جليل. مضمون هذا الكتاب المرسل من سليمان المفتتح بـ "بسم الله الرحمن الرحيم": ألا تتكبروا، وأتوني منقادين مستسلمين لما أدعوكم إليه من توحيد الله وترك ما أنتم عليه من الشرك به، حيث عبدتم الشمس. ثم قالت الملكة: يا أيها الأشراف والسادة، بيّنوا لي وجه الصواب في أمري، ما كنت قاضية أمرًا حتّى تحضروني، وتظهروا رأيكم فيه. فقال لها الأشراف من قومها: نحن أصحاب قوة عظيمة، وأصحاب بأس قوي في الحرب، والرأي ما ترينه فانظري ماذا تأمرينا به فنحن قادرون على تنفيذه. قالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا قرية من القرى أفسدوها بما يقومون به من القتل والسَّلْب والنَّهْب، وصيَّروا سادتها وأشرافها أذلاء بعد ما كانوا فيه من العزة والمنعة، وكذلك يفعل الملوك دائمًا إذا تغلبوا على أهل قرية؛ ليزرعوا الهيبة والرعب في النفوس. وإني مرسلة إلى صاحب الكتاب وقومه هدية، وأنظر ماذا تأتي به الرسل بعد إرسال هذه الهدية. فلما جاء رسولها ومن معه يحملون الهدية إلى سليمان أنكر عليهم سليمان إرسال الهدية قائلًا: أتمدونني بالأموال لتثنوني عنكم، فما أعطاني الله من النبوة والملك والمال خير مما أعطاكم، بل أنتم الذين تفرحون بما يُهْدَى إليكم من حطام الدنيا. ثم قال سليمان عليه السلام لرسولها: ارجع إليهم بما جئت من هدية، فلنأتينها وقومها بجنود لا طاقة لهم بمواجهتهم، ولنخرجنهم من سبأ وهم أذلة مهانون بعد ما كانوا فيه من العزة إن لم يأتوني منقادين.وقال سليمان عليه السلام مخاطبًا أعيان أهل ملكه: يا أيها الملأ، أيكم يأتيني بسرير ملكها قبل أن يأتوني منقادين؟، فأجابه مارد من الجن قائلًا: أنا آتيك بسريرها قبل أن تقوم من مجلسك هذا الَّذي أنت فيه، وإني لقوي على حمله أمين على ما فيه، فلن أنقص منه شيئًا. وقال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك بسريرها قبل أن ترمش عينك؛ فلما رأى سليمان سريرها مستقرًّا عنده قال: هذا من فضل ربي سبحانه؛ ليختبرني أأشكر نعمه أم أكفرها؟ ومن شكر الله فإنما نَفْع شكره عائد إليه، فالله غني لا يزيده شكر العباد، ومن جحد نعم الله فلم يشكره له فإن ربي غني كريم. ثم قال سليمان عليه السلام: غيِّروا لها سرير ملكها عن هيئته التي كان عليها ننظر: هل تهتدي إلى معرفة أنَّه سريرها، أم تكون من الذين لا يهتدون إلى معرفة أشيائهم؟ فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان قيل لها اختبارًا لها: أهذا مثل عرشك؟ فأجابت طبق السؤال: كأنه هو، فقال سليمان: وأعطانا الله العلم من قبلها لقدرته على مثل هذه الأمور، وكنا منقادين لأمر الله مطيعين له، وصرفها عن توحيد الله ما كانت تعبد من دون الله اتباعًا لقومها، وتقليدًا لهم، إنها كانت من قوم كافرين بالله، فكانت كافرة

مثلهم. ثم قيل لها: ادخلي الصرح وهو كهيئة السطح، فلما رأته ظنته ماءً فكشفت عن ساقيها لتخوضه، قال سليمان عليه السلام: إنه صرح مُمَلَّس من زجاج، ودعاها إلى الإسلام، فأجابته إلى ما دعاها إليه قائلة: رب إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك معك، وانقدت مع سليمان لله رب المخلوقات جميعها. ولما مات سليمان عليه السلام مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ -وَهِيَ مِنْسَأَتُه- مُدَّةً طَوِيلَةً لم تحدد (١)، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دابةُ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرَضَةُ (٢)، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ،وَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، فتبيَّنَتِ الْجِنُّ -وَالْإِنْسُ أَيْضًا- أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاسَ ذلك؛ إذ لو كانوا يعلمونه لما مكثوا في العذاب المذلّ لهم، وهو ما كانوا عليه من الأعمال الشاقة التي يعملونها لسليمان عليه السلام ظنًّا منهم أنه حيٌّ يراقبهم أو أنه في غفوة أو في سِنَةٍ من النوم. وإنَّ اليهودَ لما نبذوا كتاب الله تعالى، وانحرفوا عن عبادة الله وحده، ابتلوا بعبادة الشياطين والتقرب إليهم بالكفر وتعلم السحر منهم، واتبعوا ما تدعيه الشياطين التي كفرت وعَلَّمت الناسَ السحرَ وادّعت أن سليمان كان ساحراً وأن ملكه قام على السحر، والحقيقة أن سليمان -عليه السلام- لم يكن ساحراً ولم يكفر، بل كان نبياً صالحاً آتاه الله ملكاً عظيماً، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بتعلّم وتعليم الناس السحر (١). كما ادعى اليهود كذلك أن سليمان بنى هيكلاً مزعوماً، وإنما الذي بناه سليمان هو مسجد بيت المقدس -كما تقدم-.[29]

[29] (١) قال الله تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ). وقيل عن (هاروت وماروت): إنهما ملكان أنزلهما الله، تشكلا للناس؛ ليتعلموا منهما السحر حتى تكشف أسرار السحر التي كان يعملها السحرة، فأراد الله تكذيبهم بواسطتهما، وحتى يعلم الناس أن معجزات الأنبياء هي آيات من الله لا يستطيع الناس الإتيان بمثلها، أما السحر فهو تخييل وعلم يتعلم بعد أن يكفر صاحبه ويتعلمه من الشياطين. وقيل: إنّ هاروت وماروت رجلان تظاهرا بالصلاح ببابل، كانا يعلمان الناس السحر، وظن الناس أنهما ملكان نزلا من السماء؛ لما رأوه فيهما من التقوى، وبلغ مكر هذين الرجلين حين رأيا حسن اعتقاد الناس بهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما: "إنما نحن فتنة فلا تكفر"، يقولان ذلك لإيهام الناس أن علمهما إلهي، وأنهما لا يقصدان إلا الخير، كما يفعل ذلك كثير من الدجالين في سائر الأزمان، وسميا ملَكين (بفتح اللام) لتلقيب الناس لهما بذلك، وفي أول الآية بيان أن الذين يعلّمون الناس السحر إنما هم شياطين، والله أعلم.

ذكر يونس عليه السلام: وبَعَثَ اللَّهُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)، إِلَى أَهْلِ نِينَوَى، مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ وزيادة، فَكَذَّبُوهُ وَتَمَرَّدُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهرِهِمْ، وَوَعدَهُمْ حلُول الْعَذَابِ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ. فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانَيْهِمْ وَتَحَقَّقُوا نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَى نَبِيِّهِمْ، فَلَبِسُوا الْمُسُوحَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِهَا، ثُمَّ عَجُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصَرَخُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَتَمَسْكَنُوا لَدَيْهِ، وَبَكَى الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْبَنُونَ وَالْبَنَاتُ، وَالْأُمَّهَاتُ، وَجَأَرَتِ الْأَنْعَامُ وَالدَّوَابُّ وَالْمَوَاشِي، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَحُمْلَانُهَا، وَكَانَتْ سَاعَةً عَظِيمَةً هَائِلَةً، فَكَشَفَ اللَّهُ الْعَظِيمُ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي كَانَ قَدِ اتَّصَلَ بِهِمْ بِسَبَبِهِ. وَلَمَّا ذَهَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُغَاضِبًا بِسَبَبِ قَوْمِهِ {فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} أَيْ؛ نُضَيِّقَ (٢). رَكِبَ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّتْ بِهِمْ وَاضْطَرَبَتْ، وَمَاجَتْ بِهِمْ وَثَقُلَتْ بِمَا فِيهَا، وَكَادُوا يَغْرَقُونَ، فَاشْتَوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَرِعُوا، فَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ أَلْقَوْهُ مِنَ السَّفِينَةِ، لِيَتَخَفَّفُوا مِنْهُ، فَلَمَّا اقْتَرَعُوا وَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ، فَلَمْ يَسْمَحُوا بِهِ، فَأَعَادُوهَا ثَانِيَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَشَمَّرَ لِيَخْلَعَ ثِيَابَهُ وَيُلْقِيَ بِنَفْسِهِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَعَادُوا الْقُرْعَةَ ثَالِثَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، أُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ، وَبَعَثَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، حُوتًا عَظِيمًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ فَالْتَقَمَهُ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ -ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ-: {لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت من الظَّالِمِين}. فَلَوْلَا أَنَّهُ سَبَّحَ اللَّهَ هُنَالِكَ، وَقَالَ مَا قَالَ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ، وَالِاعْتِرَافِ لِلَّهِ بِالْخُضُوعِ، وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، لَلَبِثَ هُنَالِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَبُعِثَ مِنْ جَوْفِ ذَلِكَ الْحُوتِ. وَكَانَ مِنْ قَبْلِ أَخْذِ الْحُوتِ لَهُ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ أَيِ؛ الْمُطِيعِينَ الْمُصَلِّينَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا.[30] فألقاه الحوت بِالْعَرَاءِ وَهُوَ الْمَكَانُ الْقَفْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، بَلْ هو عَارٍ مِنْهَا {وَهُوَ سَقِيمٌ} ضَعِيفُ الْبَدَنِ. كَهَيْئَةِ الصَّبِيِّ حِينَ يُولَدُ، وَهُوَ الْمَنْفُوسُ، لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ {وَأَنْبَتْنَا عليه شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ} وهي شَجَرَةُ الْقَرْعِ (الدُّبَّاءِ). وفي إِنْبَاتِ الْقَرْعِ عَلَيْهِ حِكَمٌ جَمَّةٌ؛ مِنْهَا أَنَّ وَرَقَهُ فِي غَايَةِ النُّعُومَةِ، وَكَثِيرٌ وَظَلِيلٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ ذُبَابٌ، وَيُؤْكَلُ ثَمَرُهُ

[30] (١) هو يُونُس بْن مَتَى، ومتى أبوه، ويقال أنه من نسل بنيامين بْن يعقوب.
(٢) وَقِيلَ: مَعْنَاهُ نُقَدِّرُ، مِنَ التَّقْدِيرِ

مِنْ أَوَّلِ طُلُوعِهِ إِلَى آخِرِهِ، نِيئًا وَمَطْبُوخًا، وَبِقِشْرِهِ وَبِبِزْرِهِ أَيْضًا، وَفِيهِ نَفْعٌ كَثِيرٌ، وَتَقْوِيَةٌ لِلدِّمَاغِ. ولمّا طُرِحَ يُونُسُ بِالْعَرَاءِ، هيَّأَ اللَّهُ تعَالَى لَهُ أَرْوِيَةً (١) وَحْشِيَّةً تَأْكُلُ مِنْ حَشِيشِ الأَرْضِ، فَتَجِيءُ، فَتَفْشِجُ لَهُ (٢)، وَتَرْوِيهِ مِنْ لَبَنِهَا كُلَّ عَشِيَّةٍ وبُكْرَةٍ، حَتَّى نَبَتَ (٣). وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ} أَيِ، الْكَرْبِ وَالضِّيقِ الَّذِي كَانَ فِيهِ {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}. وَمَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى، أَصَابَ ذَنْبًا، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ. و نِعْمَ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ {لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا اسْتَجَابَ لَهُ.

ذِكْرُ شِعْيَا بْنِ أَمْصِيَا : وكان شِعْيَا بْنُ أَمْصِيَا من أنبياء بني إسرائيل قَبْلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَهُوَ مِمَّنْ بَشَّرَ بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ مَلِكٌ اسْمُهُ (صَدِيقَةُ) (١) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ سَامِعًا مُطِيعًا لِشِعْيَا فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَكَانَتِ الأَحْدَاثُ قَدْ عَظُمَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَرِضَ الْمَلِكُ وَخَرَجَتْ فِي رِجْلِهِ قُرْحَةٌ وَقَصَدَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَلِكُ بَابِلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ سَنْحَارِيبُ، بِجَيْشٍ عَظِيمٍ. وَفَزِعَ النَّاسُ فَزَعًا عَظِيمًا شَدِيدًا، وَقَالَ الْمَلِكُ لِلنَّبِيِّ شِعْيَا: مَاذَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ فِي أَمْرِ سَنْحَارِيبَ وَجُنُودِهِ؟ فَقَالَ: لَمْ يُوحِ إِلَيَّ فِيهِمْ شَيْئًا بَعْدُ. ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِالأَمْرِ لِلْمَلِكِ صَدِيقَةَ بِأَنْ يُوصِيَ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى مُلْكِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَإِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ أَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى وَسَبَّحَ وَدَعَا وَبَكَى، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَرَحِمَهُ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى شِعْيَا أَنْ يُبَشِّرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَحِمَ بُكَاءَهُ، وَقَدْ أَخَّرَ فِي أَجَلِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَنْجَاهُ مِنْ عَدُوِّهِ سَنْحَارِيبَ. فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ ذَهَبَ مِنْهُ الْوَجَعُ وَانْقَطَعَ عَنْهُ الشَّرُّ وَالْحُزْنُ، وَخَرَّ سَاجِدًا. فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى شِعْيَا أَنْ يَأْمُرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَاءَ التِّينِ فَيَجْعَلَهُ عَلَى قُرْحَتِهِ، فَيَشْفَى وَيُصْبِحَ قَدْ بَرِئَ. فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَشُفِيَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى جَيْشِ سَنْحَارِيبَ الْمَوْتَ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ سِوَى سَنْحَارِيبَ وَخَمْسَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، مِنْهُمْ بُخْتُ نَصَّرَ فَأَرْسَلَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَاءَ بِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ فِي الأَغْلَالِ وَطَافَ بِهِمْ فِي الْبِلَادِ عَلَى وَجْهِ التَّنْكِيلِ بِهِمْ وَالإِهَانَةِ لَهُمْ سَبْعِينَ يَوْمًا، وَيُطْعِمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَوْدَعَهُمُ السِّجْنَ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شِعْيَا أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكَ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ مَا قَدْ حَلَّ بِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعُوا جَمَعَ سَنْحَارِيبُ قَوْمَهُ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَقَالَ لَهُ السَّحَرَةُ وَالْكَهَنَةُ: إِنَّا أَخْبَرْنَاكَ عَنْ شَأْنِ رَبِّهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ فَلَمْ تُطِعْنَا،

وَهِيَ أُمَّةٌ لَا يَسْتَطِيعُهَا أَحَدٌ مِنْ رَبِّهِمْ. فَكَانَ أَمْرُ سَنْحَارِيبَ مِمَّا خَوَّفَهُمُ اللَّهُ بِهِ. ثُمَّ مَاتَ سَنْحَارِيبُ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ. ثُمَّ لَمَّا مَاتَ صَدِيقَةُ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَرَجَ أَمْرُهُمْ وَاخْتَلَطَتْ أَحْدَاثُهُمْ، وَكَثُرَ شَرُّهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شَعْيَا، فَقَامَ فِيهِمْ فَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنِ اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَنْذَرَهُمْ بَأْسَهُ وَعِقَابَهُ إِنْ خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ عَدَوْا عَلَيْهِ وَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ، فَمَرَّ بِشَجَرَةٍ فَانْفَلَقَتْ لَهُ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَدْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ بِهُدْبَةِ ثَوْبِهِ فَأَبْرَزَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ جَاءُوا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعُوهُ عَلَى الشَّجَرَةِ، فَنَشَرُوهَا وَنَشَرُوهُ مَعَهَا. [31]

ذكر الخراب الأول لبيت المقدس: وقد كَانَ الْيَهُودُ مَعَ مُوسَى عِزَّةً وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ يَدٌ، وَاسْتَمَرُّوا مَعَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، طَالِبِينَ إِلَى بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهِيَ بِلَادُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ فِيهَا قَوْمٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ، فَنَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْعَمَالِقَةِ فَشَرَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التِّيهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ فِيهِ هَارُونُ، ثُمَّ مُوسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثُمَّ خَرَجُوا بَعْدَهُمَا مَعَ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَاسْتَقَرَّتْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهَا بَعْدَهُ إِلَى زَمَنِ دَاوُدَ، وَمَلَكَ سُلَيْمَانُ الَّذِي لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ مِثْلَ مُلْكِهِ، ثم تمردوا على شريعتهم وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ مَرَّاتٍ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ. وكان فِيهِمْ مِنَ التَّنَقُّصِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سَبِّهِمْ، وَذِكْرِ عُيُوبٍ نَزَّهَهُمُ اللَّهُ عَنْهَا، مَا هُوَ مَعْرُوفٌ. حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا، وَأَنَّ دَاوُدَ كَانَ مُنَجِّمًا لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ. وَالْأَنْبِيَاءُ أَخْبَرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِحْدَاثِ، وَمَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيُخَرِّبُونَ بِلَادَهُمْ وَيَسْبُونَهُمْ. وَقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا

---

[31] (١) في رواية الطبري: حزقيا بن أحاز، وعن ابن إسحاق أنه كان يدعى: صَدِيقَةُ، وفي بعض الكتب: صِدْقِيَةُ أو صِدقيا.

دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}. فحصل الْخَرَابُ الْأَوَّلُ لبيت المقدس لَمَّا جَاءَ بُخْتُنَصَّرُ في عهد إرميا النبي، ودانيال، وحنانيا، وعزاريا، وميشائيل، بعد أن قتل بنو إسرائيل نبيهم شَعْيَا فِي الشَّجَرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا مات ملكهم (صِدْقِيَةُ) مرج أمرهم وَتَنَافَسُوا عَلَى الْمُلْكِ وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بعضًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ مِنْ نَبِيِّهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قُمْ فِي قَوْمِكَ أُوحِ عَلَى لِسَانِكَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ عَدَوْا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَهَرَبَ فَانْفَلَقَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَدْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهِ فَأَرَاهُمْ إِيَّاهَا، فَوَضَعُوا الْمِنْشَارَ فِي وَسَطِهَا فَنَشَرُوهَا حَتَّى قَطَعُوهَا وَقَطَعُوهُ فِي وَسَطِهَا. وكذبوا إرميا وَجَرَحُوهُ وَحَبَسُوهُ.

فغزاهم بُخْتُنَصَّرُ وَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَمَرَ بِهِ أَنْ تُطْرَحَ فِيهِ الْجِيَفُ، وَأَتْبَعَهُمْ إِلَى مِصْرَ. وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَسَبَاهُمْ إِلَى بَابِلَ، وَكَانَ مِنْ أُولَئِكَ دَانْيَالُ النَّبِيُّ، وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلُ، وَبَقِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرَابًا سَبْعِينَ سَنَةً.

ذكر قصة بختنصر مع دانيال عليه السلام: ثُمَّ إِنَّ بُخْتُنَصَّرَ عَادَ إِلَى بَابِلَ وَأَقَامَ فِي سُلْطَانِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُقِيمَ. ثُمَّ رَأَى رُؤْيَا، فَبَيْنَمَا هُوَ قَدْ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى إِذْ رَأَى شَيْئًا أَنْسَاهُ مَا رَأَى، فَدَعَا دَانْيَالَ، وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلَ، وَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا فَأُنْسِيتُهَا. وَلَئِنْ لَمْ تُخْبِرُونِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا لَأَنْزِعَنَّ أَكْتَافَكُمْ! فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَدَعَوُا اللَّهَ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ إِيَّاهَا، فَأَعْلَمَهُمُ الَّذِي سَأَلَهُمْ عَنْهُ، فَجَاءُوا إِلَى بُخْتُنَصَّرَ فَقَالُوا رَأَيْتَ تِمْثَالًا. قَالَ: صَدَقْتُمْ. فَمَا تَأْوِيلُهَا؟، قَالَ دَانْيَالُ: " أَنْتَ الرَّأْسُ الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ، وَيَقُومُ بَعْدَكَ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ رَأَيْتَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَهُمَا دُونَكَ، وَيَقُومُ بَعْدَهُمَا مَمْلَكَةٌ أُخْرَى هِيَ دُونَهُمَا، وَهِيَ شِبْهُ النُّحَاسِ، وَالْمَمْلَكَةُ الرَّابِعَةُ تَكُونُ قَوِيَّةً مِثْلَ الْحَدِيدِ الَّذِي يَدُقُّ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَمَّا الرِّجْلَانِ الَّتِي رَأَيْتَ مِنْ خَزَفٍ فَمَمْلَكَةٌ ضَعِيفَةٌ وَكَلِمَتُهَا مُشَتَّتَةٌ، وَأَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي رَأَيْتَ قَدْ صَكَّ ذَلِكَ الصَّنَمَ الْعَظِيمَ فَفَتَّتَهُ فَهُوَ نَبِيٌّ يُقِيمُهُ اللَّهُ إِلَهُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ قَبِيلَةٍ بِشَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ، فَيَدُقُّ جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمِهَا، حَتَّى تَمْتَلِئَ مِنْهُ الْأَرْضُ وَمِنْ أُمَّتِهِ، وَيَدُومُ سُلْطَانُ ذَلِكَ النَّبِيِّ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا (١)، فَهَذَا تَعْبِيرُ عَنْ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ". فَقَالَ بُخْتُ نَصَّرَ: صَدَقَ.

فَلَمَّا عبَر دَانْيَالُ وَمَنْ معَهُ رُؤْيَا بُخْتنصر قرَّبهم وأَدْنَاهُم وَاسْتَشَارَهُم فِي أَمْرِهِ، فَحَسَدَهُمْ أَصْحَابُهُ، وَسَعَوْا بِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَالُوا عَنْهُم مَا أَوْحَشَهُ مِنْهُم فَأَمَرَ، فَحُفِرَ لَهُم أُخْدُودٌ، وَأَلْقَاهُمْ فِيهِ، وَهُمْ سِتَّةُ رِجَالٍ، وَأَلْقَى مَعهُم سَبعًا ضَارِيًا لِيأْكُلهُم، فَلَمْ يَخْدِشْ مِنْهُم أَحَدًا. وَقِيلَ فِي سَبَبِ موت بختنصر إِنَّ اللَّهَ أَرسَلَ عليْهِ بَعُوضَةً فَدخَلَتْ فِي مِنْخَرِهِ وَصَعِدَتْ إِلَى رَأْسِهِ، فَكَانَ لَا يَقَرُّ وَلَا يَسْكُنُ حَتَّى يُدَقَّ رَأْسُهُ، إلى أن مات. وَأَمَّا دَانْيَالُ فَإِنَّهُ أَقَامَ بِأَرْضِ بَابِلَ، وَانْتَقَلَ عَنْهَا، وَمَاتَ وَدُفِنَ بِالسُّوسِ مِنْ أَعْمَالِ خُوزِسْتَانَ (١).رثُمَّ فِي عَهْدِ «كيرش بن أخشويرش» مَلِك بابل عَادَ بنو إسرائيل إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وكانت عِمَارَتُهُ آنذاك. ثُمَّ مِنْ بَعْدِ عِمَارَتِهِ إِلَى ظُهُورِ الإسكندر على بيت الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَةٌ وَثَمَانِينَ سَنَةً، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ مَمْلَكَةِ الْإِسْكَنْدَرِ إِلَى مَوْلِدِ يَحْيَى بن زكريا ثَلاثَمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً.[32]

[32] (١) وروي عن دَانْيَالُ النَّبِيُّ -عليه السلام- أنه قال: "سَأَلْتُ اللَّهَ وَتَضَرَّعْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِي مَا يَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَلْ يَتُوبُ عَلَيْهِم وَيرُدُّ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُم وَيَبْعَثُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَوْ يَجْعَلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ" قَالَ: دَانْيَالُ: "فَظَهَرَ لِي الْمَلَكُ فِي صُورَةِ شَابٍّ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا دَانْيَالُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَغْضَبُونِي وَتَمَرَّدُوا عَلَيَّ وَعَبَدُوا مِنْ دُونِي آلِهَةً أُخْرَى، وَصَارُوا مِنْ بَعْدِ الْعِلْمِ إِلَى الْجَهْلِ، وَمِنْ بَعْدِ الصِّدْقِ إِلَى الْكَذِبِ، فَسَلَّطْتُ عَلَيْهِم بُخْتُ نصرَ فَقَتَلَ رِجَالَهُم وَسَبَى ذَرَارِيهِمْ، وَهَدَمَ بَيْتَ مَقْدِسِهِم، وَحَرَقَ كُتُبَهُم، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَنْ بَعْدَهُ بِهِم، وَأَنَا غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُم وَلَا مُقِيلُهُم عَثَرَاتِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ مِنْ سَخَطِي حَتَّى أَبْعَثَ مَسِيحِي ابْنَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ فَأَخْتِمُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ بِاللَّعْنِ وَالسُّخْطِ، فَلَا يَزَالُونَ مَلْعُونِينَ، عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ حَتَّى أَبْعَثَ نَبِيَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ هَاجَرَ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهَا مَلَاكِي فَبَشَّرَهَا، فَأُوحِي إِلَى ذَلِكَ النَّبِيِّ، وَأُعَلِّمُهُ الْأَسْمَاءَ، وَأُزَيِّنُهُ بِالتَّقْوَى، وَأَجْعَلُ الْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالصِّدْقَ قَوْلَهُ، وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْقَصْدَ سِيرَتَهُ، وَالرُّشْدَ سُنَّتَهُ، أَخُصُّهُ بِكِتَابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَنَاسِخٍ لِبَعْضِ مَا فِيهَا، أُسْرِي بِهِ إِلَيَّ وَأُرْقِيهِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَعْلُوَ، فَأُدْنِيهِ وَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَأُوحِي إِلَيْهِ، ثُمَّ أَرُدُّهُ إِلَى عِبَادِي بِالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ، حَافِظًا لِمَا اسْتُودِعَ، صَادِعًا بِمَا أُمِرَ، يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِي بِاللِّينِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْمَوْعِظَةِ، لَا فَظٌّ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا صَخَّابٌ فِي الْأَسْوَاقِ، رَءُوفٌ بِمَنْ وَالَاهُ، رَحِيمٌ بِمَنْ آمَنَ بِهِ، خَشِنٌ عَلَى مَنْ عَادَاهُ، فَيَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِي وَعِبَادَتِي، وَيُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَى مِنْ آيَاتِي، فَيُكَذِّبُونَهُ وَيُؤْذُونَهُ. قَالَ النَّاقِلُ لِهَذِهِ الْبِشَارَةِ: قَالُوا: ثُمَّ سَرَدَ دَانْيَالُ قِصَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرْفًا حَرْفًا مِمَّا أَمْلَاهُ عَلَيْهِ الْمَلَكُ، حَتَّى وَصَلَ آخِرَ أَيَّامِ أُمَّتِهِ بِالنَّفْخَةِ وَانْقِضَاءِ الدُّنْيَا، وَنُبُوَّتُهُ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ الْآنَ فِي أَيْدِي النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَقْرَءُونَهَا. فَهَذِهِ نُبُوَّةُ دَانْيَالَ فِيهَا الْبِشَارَةُ بِالْمَسِيحِ، وَالْبِشَارَةُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهَا مِنْ وَصْفِ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ بِالتَّفْصِيلِ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ، وَقَدْ قَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ لَمَّا فَتَحُوا الْعِرَاقَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، مِنْهُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ: ذَكَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا فَتَحُوا (تُسْتَرَ) وَجَدُوا دَانْيَالَ مَيِّتًا، وَوَجَدُوا عِنْدَهُ مُصْحَفًا. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَنَا قَرَأْتُ ذَلِكَ الْمُصْحَفَ، وَفِيهِ صِفَتُكُمْ وَلُحُونُ كَلَامِكُمْ، وَكَانَ أَهْلُ النَّاحِيَةِ إِذَا أَجْدَبُوا كَشَفُوا عَنْ قَبْرِهِ فَيُسْقَوْنَ، فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: " أَنِ احْفُرْ بِالنَّهَارِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبْرًا، وَادْفِنْهُ بِاللَّيْلِ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا؛ لِئَلَّا يَفْتَتِنَ النَّاسُ بِهِ". وَعَنْ خَالِدِ بْنِ عرفطة قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِذْ أُتِيَ بِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ مَسْكَنُهُ بِالسُّوسِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ العبدي؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنْتَ النَّازِلُ بِالسُّوسِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِقَنَاةٍ مَعَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا ذَنْبِي؟ قَالَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ {الر} {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَضَرَبَهُ ثَلَاثَ ضَرَبَاتٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ الَّذِي انتسخت كِتَابَ دَانْيَالَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: اذْهَبْ فَامْحُهُ بِالْحَمِيمِ وَالصُّوفِ الْأَبْيَضِ وَلَا تَقْرَأْهُ وَلَا تُقْرِئْهُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ عُمَرُ هَذِهِ الْآيَةَ لِيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ فَلَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَصَصَ عَامٌّ لَا يَخْتَصُّ بِسُورَةِ يُوسُفَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ مِنْ كِتَابِ دَانْيَالَ وَنَحْوِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ.

ذكر عزير عليه السلام: وإِنَّ عُزَيْرًا كَانَ عَبْدًا صَالِحًا حَكِيمًا خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ يَتَعَاهَدُهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ انْتَهَى إِلَى خَرِبَةٍ (١) حِينَ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَأَصَابَهُ الْحَرُّ، وَدَخَلَ الْخَرِبَةَ وَهُوَ عَلَى حِمَارِهِ، فَنَزَلَ عَنْ حِمَارِهِ وَمَعَهُ سَلَّةٌ فِيهَا تِينٌ، وَسَلَّةٌ فِيهَا عِنَبٌ، فَنَزَلَ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْخَرِبَةِ وَأَخْرَجَ قَصْعَةً مَعَهُ، فَاعْتَصَرَ مِنَ الْعِنَبِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ، ثُمَّ أَخْرَجَ خُبْزًا يَابِسًا مَعَهُ، فَأَلْقَاهُ فِي تِلْكَ الْقَصْعَةِ فِي الْعَصِيرِ، لِيَبْتَلَّ لِيَأْكُلَهُ، ثُمَّ اسْتَلْقَى عَلَى قَفَاهُ وَأَسْنَدَ رِجْلَيْهِ إِلَى الْحَائِطِ فَنَظَرَ سَقْفَ تِلْكَ الْبُيُوتِ وَرَأَى مَا فِيهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَقَدْ بَادَ أَهْلُهَا، وَرَأَى عِظَامًا بَالِيَةً فَقَالَ: {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِيهَا وَلَكِنْ قَالَهَا تَعَجُّبًا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ الْمَوْتِ، فَقَبَضَ رُوحَهُ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ، فَلَمَّا أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةُ عَامٍ، وَكَانَتْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمُورٌ وَأَحْدَاثٌ. قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَى عُزَيْرٍ مَلَكًا فَخَلَقَ قَلْبَهُ لِيَعْقِلَ بِهِ، وَعَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا، فَيَعْقِلَ كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، ثُمَّ رَكَّبَ خَلْقَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، ثُمَّ كَسَى عِظَامَهُ اللَّحْمَ، وَالشَّعْرَ، وَالْجِلْدَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، كُلُّ ذَلِكَ وَهُوَ يَرَى وَيَعْقِلُ، فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: {كَمْ لَبِثْتَ}، قَالَ: {لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ نَامَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ، وَبُعِثَ فِي آخِرِ النَّهَارِ وَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ، فَقَالَ: أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَلَمْ يَتِمَّ لِي يَوْمٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: {بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ} يَعْنِي الطَّعَامَ، الْخُبْزَ الْيَابِسَ، وَشَرَابَهُ، الْعَصِيرَ الَّذِي كَانَ اعْتَصَرَ فِي الْقَصْعَةِ، فَإِذَا هُمَا عَلَى حَالِهِمَا لَمْ يَتَغَيَّرِ الْعَصِيرُ وَالْخُبْزُ يَابِسٌ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {لَمْ يَتَسَنَّهْ} يَعْنِي لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَكَذَلِكَ التِّينُ وَالْعِنَبُ غَضٌّ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَالِهِمَا، فَكَأَنَّهُ أَنْكَرَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: أَنْكَرْتَ مَا قُلْتُ لَكَ؟ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ. فَنَظَرَ فَإِذَا حِمَارُهُ قَدْ بَلِيَتْ عِظَامُهُ وَصَارَتْ نَخِرَةً، فَنَادَى الْمَلَكُ عِظَامَ الْحِمَارِ، فَأَجَابَتْ وَأَقْبَلَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ حَتَّى رَكَّبَهُ الْمَلَكُ، وَعُزَيْرٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَلْبَسَهَا الْعُرُوقَ وَالْعَصَبَ، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّحْمَ، ثُمَّ أَنْبَتَ عَلَيْهَا الْجِلْدَ وَالشَّعْرَ،[33] ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الْمَلَكُ، فَقَامَ الْحِمَارُ رَافِعًا رَأْسَهُ وَأُذُنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، نَاهِقًا يَظُنُّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}، يَعْنِي انْظُرْ إِلَى عِظَامِ حِمَارِكَ كَيْفَ نُرَكِّبُ بَعْضَهَا بَعْضًا فِي أَوْصَالِهَا، حَتَّى إِذَا صَارَتْ عِظَامًا مُصَوَّرًا حِمَارًا بِلَا لَحْمٍ، ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ نَكْسُوهَا لَحْمًا، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَغَيْرِهِ. فَرَكِبَ حِمَارَهُ حَتَّى أَتَى مَحَلَّتَهُ فَأَنْكَرَهُ النَّاسُ، وَأَنْكَرَ النَّاسَ، وَأَنْكَرَ مَنَازِلَهُمْ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَهْمٍ مِنْهُ، حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَمْيَاءَ مُقْعَدَةٍ قَدْ أَتَى عَلَيْهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، كَانَتْ أَمَةً لَهُمْ، فَخَرَجَ عَنْهُمْ

[33] (١) قيل أنها بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر. وقيل إنَّ صاحب هذه القصة أرميا النبي عليه السلام.

عُزَيْرٌ وَهِيَ بِنْتُ عِشْرِينَ سَنَةً، كَانَتْ عَرَفَتْهُ وَعَقَلَتْهُ، فَلَمَّا أَصَابَهَا الْكِبَرُ أَصَابَهَا الزَّمَانَةُ فَقَالَ لَهَا عُزَيْرٌ: يَا هَذِهِ أَهَذَا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هَذَا مَنْزِلُ عُزَيْرٍ. فَبَكَتْ وَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ كَذَا وَكَذَا سَنَةٍ يَذْكُرُ عُزَيْرًا وَقَدْ نَسِيَهُ النَّاسُ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عُزَيْرٌ، كَانَ اللَّهُ أَمَاتَنِي مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَنِي. قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَإِنَّ عُزَيْرًا قَدْ فَقَدْنَاهُ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ، فَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ بِذِكْرٍ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عُزَيْرٌ. قَالَتْ: فَإِنَّ عُزَيْرًا رَجُلٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، يَدْعُو لِلْمَرِيضِ وَلِصَاحِبِ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ وَالشِّفَاءِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصَرِي حَتَّى أَرَاكَ، فَإِنْ كُنْتَ عُزَيْرًا عَرَفْتُكَ. قَالَ: فَدَعَا رَبَّهُ وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى عَيْنَيْهَا فَصَحَّتَا وَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ: قُومِي بِإِذْنِ اللَّهِ. فَأَطْلَقَ اللَّهُ رِجْلَيْهَا، فَقَامَتْ صَحِيحَةً كَأَنَّمَا نَشِطَتْ مِنْ عِقَالٍ، فَنَظَرَتْ فَقَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ عُزَيْرٌ وَانْطَلَقَتْ إِلَى مَحَلَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمْ فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ، وَابْنٌ لِعُزَيْرٍ شَيْخٌ ابْنُ مِائَةِ سَنَةٍ وَثَمَانِي عَشْرَ سَنَةً وَبَنُو بَنِيهِ شُيُوخٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَنَادَتْهُمْ فَقَالَتْ: هَذَا عُزَيْرٌ قَدْ جَاءَكُمْ. فَكَذَّبُوهَا، فَقَالَتْ: أَنَا فُلَانَةُ مَوْلَاتُكُمْ دَعَا لِي رَبَّهُ، فَرَدَّ عَلَيَّ بَصَرِي وَأَطْلَقَ رِجْلَيَّ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَاتَهُ مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَهُ. فَنَهَضَ النَّاسُ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَقَالَ ابْنُهُ: كَانَ لِأَبِي شَامَةٌ سَوْدَاءُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَكَشَفَ عَنْ كَتِفَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عُزَيْرٌ، فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِينَا أَحَدٌ حَفِظَ التَّوْرَاةَ فِيمَا حُدِّثْنَا غَيْرُ عُزَيْرٍ، وَقَدْ حَرَّقَ بُخْتُ نَصَّرَ التَّوْرَاةَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مَا حَفِظَتِ الرِّجَالُ، فَاكْتُبْهَا لَنَا. وَكَانَ أَبُوهُ سَرُوخَا قَدْ دَفَنَ التَّوْرَاةَ أَيَّامَ بُخْتُ نَصَّرَ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ غَيْرُ عُزَيْرٍ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَحَفَرَهُ فَاسْتَخْرَجَ التَّوْرَاةَ، وَكَانَ قَدْ عَفِنَ الْوَرَقُ، وَدَرَسَ الْكِتَابُ. فَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ حَوْلَهُ، فَجَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَاةَ، وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ شِهَابَانِ، حَتَّى دَخَلَا جَوْفَهُ، فَتَذَكَّرَ التَّوْرَاةَ، فَجَدَّدَهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. فَمِنْ ثَمَّ قَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ - جَلَّ اللَّهُ وَعَزَّ - لِلَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ الشِّهَابَيْنِ وَتَجْدِيدِهِ التَّوْرَاةَ وَقِيَامِهِ بِأَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: لَمْ يَسْتَطِعْ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَنَا بِالتَّوْرَاةِ إِلَّا فِي كِتَابٍ، وَإِنَّ عُزَيْرًا قَدْ جَاءَنَا بِهَا مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ. فَرَمَاهُ طَوَائِفُ مِنْهُمْ، وَقَالُوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ. وَكَانَ جَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَاةَ بِأَرْضِ السَّوَادِ بِدَيْرِ حِزْقِيلَ. وَالْقَرْيَةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا يُقَالُ لَهَا: سَايْرَابَاذَ. فَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ} يَعْنِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ مَعَ بَنِيهِ وَهُمْ شُيُوخٌ وَهُوَ شَابٌّ؛ لِأَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَبَعَثَهُ اللَّهُ شَابًّا، كَهَيْئَةِ يَوْمَ مَاتَ (١).[34] وَالْمَشْهُورُ أَنَّ عُزَيْرًا نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ كَانَ فِيمَا بَيْنَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَبَيْنَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى.

---

[34] (١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُعِثَ بَعْدَ بُخْتُ نَصَّرَ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ.

ذكر اختلاف في بني إسرائيل: ثم إنَّ بني إسرائيل اخْتَلَفُوا وتفرقوا فِي اتباع الْحَقِّ بَعْدَ أن هَدَاهُمْ اللهُ وَبيَّنَ لَهُمْ الْحَقَّ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، وفضلهم على أهل زمانهم من الأمم المعاصرة لهم وبَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وأخذ عليهم الميثاق، ولَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمْ لِعَدَمِ الْعِلْمِ؛ بَلْ عَلِمُوا الْحَقَّ وَلَكِنْ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا يَبْغِي الْحَاسِدُ عَلَى الْمَحْسُودِ. وكان اختلافهم لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وتَدَابُرِهِمْ، إذ كل فرقة تريد الرئاسة والسلطة الدينية والدنيوية لها دون غيرها، وحَمَلَهم البغيُ والعنادُ لغيرهم عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا، فَيَتَّبِعُ بعضهم هَوَاهُ وَيُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَهو يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَزِيغُ عَنْهُ.

ذكر تحريف اليهود للتوراة وكَانَ كُفْرُ الْيَهُودِ بِتَبْدِيلِهِمْ أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ قَبْلَ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ، وَتَصَرَّفُوا فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهَا بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ كَمَا تَصَرَّفُوا فِي مَعَانِيهَا (١). وكما فِي قِصَّةِ الذَّبِيحِ: (اذْبَحْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ)؛ أضافوا فِي نُسْخَةٍ: (بِكْرَكَ إِسْحَاقَ)، ولَفْظَةُ "إِسْحَاقَ" محرفة بلا شك؛ لِأَنَّ الْوَحِيدَ وَهُوَ الْبِكْرُ إِسْمَاعِيلُ لأنه ولد قبل إسحاق بأربع عشر سَنَةً فَكَيْفَ يَكُونُ الْوَحِيدُ الْبِكْرَ إِسْحَاقُ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَسَدُ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أبوهم إسماعيل هو الذَّبِيحَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَذْهَبُوا بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ لَهُمْ فَزَادُوا ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ افْتِرَاءً عَلَى الله وعلى رسوله عليه السلام. واليهود بأيديهم نسخة من التوراة تغاير نسخة السامرة -وهم فرقة من اليهود-، والسامرة يخالفونهم في ألفاظ كثيرة ومعان أيضاً، وَهَكَذَا فِي تَوْرَاةِ السَّامِرَةِ فِي الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ زِيَادَةُ الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الطُّورِ فِي الصَّلَاةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ نُسَخِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وليس في توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى أيضا بأيديهم توراة يسمونها العتيقة، وهي مخالفة لنسختي اليهود والسامرة، وَأَمَّا التَّوْرَاةُ الْمُعَرَّبَةُ فَلَا يَشُكُّ عَاقِلٌ فِي تَبْدِيلِهَا وَتَحْرِيفِ كَثِيرٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا وَتَغْيِيرِ الْقَصَصِ وَالْأَلْفَاظِ وَالزِّيَادَاتِ وَالنَّقْصِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ وَفِيهَا مِنَ الْكَذِبِ الْبَيِّنِ وَالْخَطَأِ الْفَاحِشِ شَيْءٌ كَثِيرٌ جِدًّا (٢). [35] وإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا مَاتَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، يُقِيمُ أَمْرَهُمْ وَيُزِيلُ مَا غَيَّرُوا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ.

---

[35] (١) وفي بيت المدراس بالمدينة وهُوَ الْبَيْت الَّذِي يقرأ فِيهِ اليهود التوراة ويتدارسونها؛ اعترف اليهود للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بتبديلهم حكم الرجم، وكتمانهم آية الرجم في التوراة. وكان ذلك بحضور أعلمهم واسمه ابن صوريا، وعبدالله بن سلام رضي الله عنه وكان قد أسلم وهو من أحبارهم. (٢) ومن الآصار التي لا يزال عليها المتدينون اليهود حتى اليوم أنهم لا يؤاكلون الحائض ولا يشاربونها ولا يساكنونها، ويوم السبت لا يعملون فيه شيئا حتى ركوب السيارة أو الطائرة، وفي السنة السابعة لا يزرعون فيها ويسمونها سنة التبوير، وإحدى فرق اليهود المعروفة اليوم ضمن طائفة (الحسيديم أو السيديم) تحرق الزانية ولا تفرق بين أن تكون بكراً أو محصنة.

ذكر زكريا ويحيى وآل عمران: وكَانَ عِمْرَانُ بْنُ مَاثَانَ مِنْ وَلَدِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وكَانَ آلُ مَاثَانَ رُءُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارَهُمْ، وكَانَ مُتَزَوِّجًا بِحَنَّةَ بِنْتِ فَاقُودَ، وكَانَ زَكَرِيَّاءُ بْنُ بَرْخِيَّا -عليه السلام-نجّاراً (١)، مُتَزَوِّجًا من إِيشَاعَ بِنْتِ عِمْرَانَ (٢) أخت مريم، وكَانَتْ حَنَّةُ -امرأة عمران- قَدْ كَبِرَتْ واشْتَهَتِ الْوَلَدَ، فَدعَتِ اللهَ أَنْ يَهبَ لَهَا وَلَدًا وَنَذَرتْ إِنْ يَرْزُقْهَا وَلَدًا أَنْ تَجْعَله مِنْ سَدَنَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَخدَمِه، فَحَرَّرَتْ مَا فِي بَطْنِهَا، وَلَمْ تَعْلَمْ مَا هُوَ، وكَانَ النَّذْرُ الْمُحَرَّرُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُجْعَل لِلْكَنِيسَةِ يَقُومُ بِخِدْمَتِهَا وَلَا يَبْرَحُ مِنْهَا حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، فَإِذَا بَلَغَ خُيِّرَ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُقِيمَ فِيهَا أَقَامَ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْغِلْمَانُ، لِأَنَّ الْإِنَاثَ لَا يَصْلُحْنَ لِذَلِكَ لِمَا يُصِيبُهُنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالْأَذَى. ثُمَّ مَاتَ عِمْرَانُ وَحَنَّةُ حَامِلٌ بِمَرْيَمَ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا إِذَا هِيَ أُنْثَى، فَقَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} فِي خِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ وَالْعِبَادِ الَّذِينَ فِيهَا، {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}، وَهِيَ بِلُغَتِهِمُ الْعَابِدَةُ. ثُمَّ لَفَّتْهَا فِي خِرْقَةٍ وَحَمَلَتْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الْأَحْبَارِ أَبْنَاءِ هَارُونَ، وَهُمْ يَلُونَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا يَلِي بنو شَيْبَةَ مِنَ الْكَعْبَةِ. فَقَالَتْ: دُونَكُمْ هَذِهِ الْمَنْذُورَةَ، فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْتُ إِمَامِهِمْ وَصَاحِبِ قُرْبَانِهِمْ. فَقَالَ زَكَرِيَّاءُ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، فَقَالُوا: لَكِنَّا نَقْتَرِعُ عَلَيْهَا. فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ فِي نَهْرٍ جَارٍ، قِيلَ هُوَ نَهْرُ الْأُرْدُنِّ، فَأَلْقَوْا فِيهِ أَقْلَامَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَاةَ، فَارْتَفَعَ قَلَمُ زَكَرِيَّاءَ فَوْقَ الْمَاءِ وَرَسَبَتْ أَقْلَامُهُمْ، فَأَخَذَهَا وَكَفَلَهَا وَضَمَّهَا إِلَى أختها (إيشاع) أُمِّ يَحْيَى وَاسْتَرْضَعَ لَهَا حَتَّى كَبِرَتْ، فَبَنَى لَهَا غُرْفَةً فِي الْمَسْجِدِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا إِلَّا بِسُلَّمٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، وَكَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَيَقُولُ: أَنَّى لَكِ هَذَا؟ فَتَقُولُ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّاءُ ذَلِكَ مِنْهَا، دَعَا اللَّهَ تَعَالَى وَرَجَا الْوَلَدَ حَيْثُ رَأَى فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِمَرْيَمَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُصْلِحَ زَوْجَتِي حَتَّى تَلِدَ. فَـ {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي فِي الْمَذْبَحِ الَّذِي لَهُمْ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ شَابٍّ، وَهُوَ جِبْرَائِيلُ، فَفَزِعَ زَكَرِيَّاءُ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ}. (١) وَسَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى (يَحْيَى) وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مَنْ تَسَمَّى هَذَا الِاسْمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}. وَقَالَ تَعَالَى: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} (٢)، وَكَانَ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، وَلَا يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ.

قَالَ زكريا: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ}؟ فَقِيلَ لَهُ: {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}. وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ اسْتِخْبَارًا هَلْ يُرْزَقُ الْوَلَدَ مِنِ امْرَأَتِهِ الْعَاقِرِ أَمْ غَيْرِهَا، لَا إِنْكَارًا لِقُدْرَةِ اللَّهِ

تَعَالَى. {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا} (٣). فأَمْسَكَ اللَّهُ لِسَانَهُ عن الكلام مع الناس. فَلَمَّا وُلِدَ رَآهُ أَبُوهُ حَسَنَ الصُّورَةِ، قَلِيلَ الشَّعَرِ، قَصِيرَ الْأَصَابِـعِ، مَقْرُونَ الْحَاجِبَيْنِ، دَقِيقَ الصَّوْتِ، قَوِيًّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُذْ كَانَ صَبِيًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} (٤). قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا الصِّبْيَانُ أَمْثَالُهُ: يَا يَحْيَى اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبْ. فَقَالَ لَهُمْ: مَا لِلَّعِبِ خُلِقْتُ. ومَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا.[36]

ذكر عيسى عليه السلام: ووُلِد المسيح عيسى ابن مريم الصدِّيقة بمعجزة إلهية؛ فقد خُلق بكلمة من الله، من غير أب، حيث تنحّت مريم عليها السلام عن أهلها (٥)، وانفردت بمكان على جهة الشرق منهم. (٦) فاتخذت لنفسها من دون قومها ساترًا يسترها حتى لا يروها حال عبادتها لربها، فبعث الله إليها جبريل عليه السلام، فتمثل لها في صورة إنسان سَوِيّ الخِلقة، فخافت أنه يريدها بسوء. فلما رأته في صورة إنسان سَوِيّ الخَلْق يتّجه إليها قالت: إني أستجير بالرحمن منك أن ينالني منك سوء -يا هذا- إن كنت تقيًّا تخاف الله. فقال لها: أنا لست بشرًا، إنما أنا رسول من ربك أرسلني إليك لأهب لك ولدًا طيّبًا طاهرًا. قالت مريم متعجبة: كيف يكون لي ولد ولم يقربني زوج ولا غيره، ولست زانية حتى يكون لي ولد؟! فقال لها جبريل: الأمر كما ذكرت من أنك لم يمسسك زوج ولا غيره ولم تكوني زانية، لكن ربك سبحانه قال أن الخلق من غير أب هيّن عليه، وليكون الولد الموهوب لك علامة للناس على قدرة الله، ورحمة منه لك ولمن آمن به، وكان خَلْق ولدك هذا قضاء من الله مقدّرًا، مكتوبًا في اللوح المحفوظ. فَأَخَذَ بِكُمِّهَا فَنَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا وَكَانَ مَشْقُوقًا مِنْ قُدَّامِهَا فَدَخَلَتِ النَّفْخَةُ صَدْرَهَا فَحَمَلَتْ به بعد نفخ الملَك.

---

[36] (١) يَعْنِي أن يحيى يكون ممن يؤمن بعيسى ابْنَ مَرْيَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَيَحْيَى أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِعِيسَى وَصَدَّقَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ حَامِلًا بِهِ فَاسْتَقْبَلَتْ مَرْيَمَ وَهِيَ حَامِلٌ بِعِيسَى فَقَالَتْ لَهَا: يَا مَرْيَمُ أَحَامِلٌ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: لِمَاذَا تَسْأَلِينِي؟ فَقَالَتْ إِنِّي أَرَى مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِمَا فِي بَطْنِكِ، فَذَلِكَ تَصْدِيقُهُ.
وَقِيلَ: صَدَّقَ الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ.
(٢) قِيلَ: أَوْحَشُ مَا يَكُونُ ابْنُ آدَمَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ، فَسَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَحْشَتِهَا.
(٣) الرَّمْزُ: الْإِشَارَةُ.
(٤) واخْتُلِفَ فِي تفسيره، فَقِيلَ: نُبِّئَ وَهُوَ ابن تِسْعِ سِنِينَ. وَقِيلَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ. وَالْمُرَادُ بالحكم: الْفَهم فِي الدِّين.

فَأَتَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةُ زَكَرِيَّا (٧) لَيْلَةً تَزُورُهَا فَلَمَّا فَتَحَتْ لَهَا الْبَابَ الْتَزَمَتْهَا فَقَالَتِ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا: يَا مَرْيَمُ أَشَعَرْتِ أَنِّي حُبْلَى؟ فَقَالَتْ مَرْيَمُ أَيْضًا: أَشَعَرتِ أَنِّي حُبْلَى؟، فَقَالَتِ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا: فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِلَّذِي فِي بَطْنِكِ (٨). فَوَلَدَتِ امْرَأَةُ زَكَرِيَّا يَحْيَى (٩)، وَلَمَّا بَلَغَ أَنْ تَضَعَ مَرْيَمُ خَرَجَتْ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ فتنحت بحملها إلى مكان بعيد عن الناس. فألجأها المخاض إلى ساق نخلة، فقالت -اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ-: يا ليتني متّ قبل هذا اليوم، وكنت شيئًا لا يُذْكَر حتى لا يُظَن بي السوء.

فناداها جبريل من تحتها في أسفل الوادي: لا تحزني، قد جعل ربك تحتك جدول ماءٍ تشربين منه.[37] وأمسكي بجذع النخلة وهزيه تساقط عليك رطباً طريًّا يُجنى من ساعته. فكلي من الرطب، واشربي من الماء، وطيبي نفسًا بمولودك (١) ولا تحزني، فإن رأيت من الناس أحدًا فسألك عن خبر المولود فقولي له: إني أوجبت على نفسي لربي صمتاً عن الكلام، فلن أكلم اليوم أحدًا من الناس.

فجاءت مريم بابنها إلى قومها تحمله، فقال لها قومها مستنكرين: يا مريم، لقد جئت أمرًا عظيمًا مفترى، حيث جئت بولد من غير أب. يا شبيهة هارون في العبادة (٢) ما كان أبوك زانيًا، ولا كانت أمك زانية، فأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح، فكيف تأتين بولد من غير أب؟! فأشارت إلى ابنها عيسى عليه السلام وهو في المهد، فقال لها قومها متعجبين: كيف نكلّم صبيًّا وهو في المهد؟! فقال عيسى عليه السلام: إني عبد الله، قد قضى أن ينزل عليّ كتابه الإنجيل، وجعلني نبيًّا من أنبيائه.

---

[37] (٥) روي أنها خَرَجَتْ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ بِحَيْضٍ أَصَابَهَا فَلَمَّا طَهُرَتْ إِذْ هِيَ بِرَجُلٍ مَعَهَا {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: "أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَ اتَّخَذَتِ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ قِبْلَةً، قَوْلُ اللَّهِ: انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، وَاتَّخَذُوا مِيلَادَ عِيسَى قِبْلَةً". ولا يعارض هذا ما ذكره غيره: أن الملك قسطنطين أمر النصارى بجعل القبلة لمشرق الشمس لما أفسد على النصارى دينهم.

(٧) قال ابن كثير: جاء فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: «فَمَرَرْتُ بِابْنَيِ الْخَالَةِ: يَحْيَى وَعِيسَى» وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ ; فَإِنَّ أُمَّ يَحْيَى أَشْيَاعُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ.

وأيضاً جاء التصريح أنها (أختها) فيما راوه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: (فَأَتَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةُ زَكَرِيَّا) وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وقال الذهبي: على شرط مسلم.

خلافاً لقول بعض المؤرخين أن أشياع هي خالة مريم وليست خالة عيسى.

(٨) قَالَ مَالِكٌ: أُرَاهُ لِفَضْلِ عِيسَى عَلَى يَحْيَى.

(٩) قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وُلِدَ يَحْيَى قَبْلَ عِيسَى بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.

(١٠) وقيل أن الذي ناداها ابنها عيسى من تحت قدميها، وعلمت بذلك أنه يتكلم، وكان ذلك سبباً لإشارتها إليه حين سألها قومها عن سبب حملها.

وجعلني مباركاً كثير النفع للعباد أينما كنت، وأمرني بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة طيلة حياتي. وجعلني بارًّا بأمي، ولم يجعلني متكبرًا عن طاعة ربي، ولا عاصيًا له. والسلام عليّ والأمان من الشيطان وأعوانه يوم ميلادي ويوم موتي ويوم أُبعَثُ حيًّا يوم القيامة، فلا يتخبّطني الشيطان ولا يضرني.

وقد بعثه الله نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، يدعو إلى توحيد الله، ويبشر بمقدم خاتم النبيين، وأيّده بالمعجزات العظيمة، فكان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيوراً بإذن الله وقدرته، ويمسح الأكمه -وهو من وُلد أعمى- فيبرأ بإذن الله، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى، واستجاب الله له بإنزال المائدة من السماء عندما طلب الحواريون (٣) من عيسى إنزالها، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم وآخرهم، وكان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم من طعام. ورَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عليه السلام - رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟، قَالَ: كَلَّا، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَا سَرَقْتُ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ وَكَذَّبْتُ بَصَرِي.[38] وقد أُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لِثَلَاثَ عَشْرَةَ ليلة مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، مصدقاً ومتمماً لما في التوراة وناسخاً لبعض شرائعها، وجاء فيه البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وجاء فيه صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

ذكر ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته : ومَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَلَا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرُكُوا مُتَابَعَتَهُ بَلْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ فَلَا يُغْنِيكُمْ مَا

---

[38] (١) وروي أنه لَمَّا وُلِدَ عِيسَى لَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ صَنَمٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا وَقَعَ سَاجِدًا لِوَجْهِهِ.

(٢) وهو رجل صالح، وكانوا يسمّون بأسماء أنبيائهم.

(٣) الحواري: الناصر أو الوزير، وهو بمعناه، وهو اسم لكل من نصر نبيًّا، وبه سمي أصحاب عيسى بذلك فإنه لما قَالَ لقومه: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ}.

آتَيْتُكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ (١).[39]. ثُمَّ أن اليهود كذّبوا الْمَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ وَلَدُ غَيَّةٍ (١)، وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً، وحرّضوا عليه وسعوا في قتله، و (كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) وقالوا: إن النصارى ليسوا على شيء من الدين الصحيح. (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا)، وزعموا مع ذلك أنهم (أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) وأنَّ عزيراً ابنُ الله، وأن يد الله مغلولة، وأن الله فقير وهم أغنياء، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ذكر قتل يحيى عليه السلام: وإِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا - عليه السلام - بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى - عليه السلام -: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَامْتَلأَ الْمَسْجِدُ، وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ ، فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟، وَإِنَّ اللهَ - عز وجل - خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ (٣) مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟، فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ، وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ

[39] (١) كانوا ينتظرون بعثته ويعرفون اسمه وأوصافه تماماً كما يعرفون أبناءهم. فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة المتممة لجميع الرسالات قبله وجاء أهلَ الكتابِ العلمُ ببعثته؛ نقض كثير منهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ عليهم باتباعه؛ بغياً وحسداً للعرب أولاد إسماعيل -عليه السلام- أن تكون النبوة فيهم.

سِرَاعًا (٤) فَأَتَى حِصْنًا حَصِيناً (٥) فَتَحَصَّنَ فِيهِ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ (٦)، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ". وبعث عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ. وَكَانَ فِيمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ نِكَاحُ ابْنَةِ الْأَخِ. وَكَانَتْ لِمَلِكِهِمُ ابْنَةُ أَخٍ تُعْجِبُهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَكَانَتْ لَهَا كُلَّ يَوْمٍ حَاجَةٌ يَقْضِيهَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أُمَّهَا، قَالَتْ لَهَا: إِذَا دَخَلْتِ عَلَى الْمَلِكِ فَسَأَلَكِ حَاجَتَكِ، فَقُولِي حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ لِي يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا. فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَأَلَهَا حَاجَتَهَا فَقَالَتْ: حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَقَالَ: سَلِينِي غَيْرَ هَذَا، فَقَالَتْ: مَا أَسْأَلُكَ إِلَّا هَذَا. فَلَمَّا أَبَتْ عَلَيْهِ، دَعَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، وَدَعِي بِطَشْتٍ فَذَبَحَهُ (١).[40] واستمر المسيح عليه السلام في دعوته مراغماً لليهود الذين أرادوا قتله، جرياً على عادتهم في قتل الأنبياء. واسْتَعَانَتِ الْيَهُودُ -قَبَّحَهُمُ اللَّهُ -عَلَى مُعَادَاةِ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمُلُوكِ الْيُونَانِ، وَوَشَوْا عِنْدَهُمْ، وَأَوْحَوْا إِلَيْهِمْ أَنَّ هَذَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمُ الرَّعَايَا فَبَعَثُوا مَنْ يَقْبِضُ عَلَيْهِ. ولَمَّا أراد اليهود قتل المسيح عِيسَى بن مريم - عليه السلام - وأَرَادَ اللهُ أَنْ يرفعه إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ المسيح إِلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا - مِنْ عين (١) فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ سَيُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي، وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ ذَاكَ. فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى - عليه السلام - مِنْ رَوْزَنَةٍ (٢) كَانَتْ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. وسيعود عليه السلام وينزل من السماء قبيل قيام الساعة حاكماً بالإسلام (٣). وبعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء جَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخَذُوا الشَّبِيهَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ، ثم زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى

---

[40] (١) جمع شُرفة.

(٢) الورِق: الفضة.

(٣) العصابة: الجماعة من الرجال.

(٤) مسرعين.

(٥) الحصن: كل مكان محمي منيع لا يوصل إلى جوفه. والحصين من الأماكن: المنيع، يقال: درع حصين: أي: محكمة، وحصن حصين: للمبالغة.

(٦) أي: حفظها منهم.

٧ وكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُرفَعَ عِيسَى -عليه السلام-. وكان يحيى بن زكريا من ذرية سليمان بن داود - عَلَيْهِم السَّلَامْ. وقيل أن زكريا قُتل أيضاً بعد ابنه يحيى- عليهما السلام-. وقيل: أن زكريا مات موتاً ولم يقتل. وأن الذي نشر بالمنشار هو شعيا عليه السلام.

وصلبوه وقالوا: {إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}، وحقيقة الأمر أنهم {مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}.

ذكر الخراب الثاني لبيت المقدس: ثم كانَ الْخَرَابُ الثَّانِي بَعْدَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَالْمَسِيحِ بِنَحْوِ سَبْعِينَ سَنَةً، لَمَّا رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وقَتَلُوا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِيَّ. بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ بَابِلَ يُقَالُ لَهُ: خَرْدُوسُ (١)، فَسَارَ إِلَيْهِمْ بِأَهْلِ بَابِلَ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ بِالشَّأْمِ، وَقَدْ قِيلَ: هَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}. وبَعْدَ الْخَرَابِ الثَّانِي تَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ حِينَئِذٍ زَالَ مُلْكُهُمْ وَقَطَّعَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، وَكَانُوا تَحْتَ حُكْمِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مُلْكٌ. وَالْمَسِيحُ جَاءَ بِالْحَقِّ فكان نَسْخُ شَرْعِ التَّوْرَاةِ، وَمَنِ اتَّبَعَ الْمَسِيحَ كَانَ عَلَى الْحَقِّ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُنَازِعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمَسِيحُ فَإِنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَلَكِنْ مَنْ جَاءَ بِشَرْعٍ لَمْ يَأْتِ بِهِ الْمَسِيحُ أَوْ أَرَادَ اتِّبَاعَ شَرْعِهِ بَعْدَ النَّسْخِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ نَسَخَ اللَّهُ مَا نَسَخَهُ مِنْ شَرْعِهِمْ وَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ (٢).[41]

ذكر شاؤول اليهودي (بولس) يحرف دين النصارى. ثم جاء بولس (شاؤول اليهودي) وهو أول من حرف الديانة النصرانية، ولم يكن من تلاميذ المسيح، ولم تثبت له رؤية المسيح عليه السلام في حياته، وكان بولس عارفاً بالفلسفة الإغريقية ومدرسة الإسكندرية متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية

---

[41] (١) وفي بعض الكتب اسمه: (جُودَرْسُ). وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَذْكُورِينَ بِالْعِلْمِ يَظُنُّ أَنَّ (بُخْتَ نَصَّرَ) هُوَ الَّذِي قَدِمَ الشَّامَ لَمَّا قُتِلَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا، وَهَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعِنْدَ مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بَاطِلٌ، وَالْمُتَوَاتِرُ أَنَّ (بُخْتَ نَصَّرَ) هُوَ الَّذِي قَدِمَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى بعد مقتل شعيا عليه السلام. ويحتمل أن الملك الذي دمر بيت المقدس بعد زمن يحيى عليه السلام كان يلقب بـ "بختنصر"، لمشابهته لبختنصر الأول في القسوة والشدة والتخريب.

(٢) وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِالنَّصَارَى لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولم يتبعوه، فَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ عَنْ وَسَطِ الْأَرْضِ وَخِيَارِهَا.

والرواقية التي تنبذ المادة والجسم وتعتبرهما شرّاً وخبثاً، وبالطقوس الوثنية في التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس، حسب عقيدة بلاد اليونان التي تؤمن بالآلهة التي ماتت لتفتدي بموتها بني الإنسان. وكان بولس من أشدّ الناس اضطهاداً وتعذيباً لأتباع المسيح عليه السلام، ثم تظاهر بالنصرانية وادعى أنه التقى مع المسيح وأن المسيح ظهر له فجأة في الطريق، وتحول بولس من عدو لأتباع المسيح إلى مغيّر لرسالة المسيح، واختلق عقيدة التثليث للنصارى، ودعا إلى تأليه المسيح وأنه ابن الله، وزعم أن المسيح صلب تكفيراً عن خطيئة آدم وفداء عن البشرية وإثمها الذي تحملته بعد ذلك، لكي يجد مبرراً لصلب المسيح حسب ما توهمه، وكتب كتاباً يحوي أربع عشرة رسالة ادعى أتباعه أنه كتبها بالإلهام، وهي التي تشكلت منها الديانة النصرانية المحرفة، وأضيفت إلى ما يسمونه بـ (العهد الجديد) في الكتاب المقدس، وكذلك نَسَخَ الختان، واستبدل السبت بالأحد، وغير ذلك من تحريفاته، كما زعم بولس أن المسيح سيحاسب الناس يوم القيامة. وعقيدة التثليث التي ابتدعها بولس لم يأت بها نبي من الأنبياء، ولا نزلت في كتاب من الكتب السماوية، ولم ترد في التوراة، وعلماء اليهود من عهد موسى عليه السلام إلى هذا الزمان لا يعترفون بعقيدة التثليث، ولا يرضون بنسبتها إلى كتبهم. ذكر إنجيل برنابا ونقضه لتحريف بولس: وأدت انحرافات بولس إلى افتراق برنابا (١) الحواري عنه في رحلاته وكتابته لإنجيل برنابا والذي صرح فيه بتوحيد الله تعالى وبالبشارة بالنبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال ببشرية عيسى -عليه السلام- وأنكر صلبه، وذكر أنه ألقي الشبه على يهوذا الإسخريوطي؛ كما ذكر أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق (٢).[42]

---

[42] (١) برنابا هو أحد الحواريين تلامذة عيسى عليه السلام.

(٢) وأقدم خبر عن (إنجيل برنابا) كان قريباً من عام (٤٩٢) م، حين أصدر البابا (جلاسيوس) الأول أمراً يحرم فيه مطالعة عدد من الكتب، كان منها كتاب يسمّى (إنجيل برنابا) وهذا كان قبل مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم لم يظهر له خبر بعد ذلك إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث عثر الراهب اللاتيني (فرامرينو) على رسائل (لإريانوس) يندد فيها ببولس، وأسند (إريانوس) تنديده هذا إلى إنجيل برنابا، فحرص هذا الراهب على الاطِّلاع على هذا الإنجيل وبحث عنه إلى أن وجده في مكتبة البابا (سكتس) الخامس، وطالعه بشغف شديد ثم أسلم.

كما عثر (كريمر) أحد مستشاري ملك بروسيا على نسخة لإنجيل برنابا باللغة الايطالية عند أحد وجهاء مدينة أمستردام، وأهداها (كريمر) إلى الأمير (إيوجين سافوي) ثم انتقلت إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا، حيث هي موجودة الآن، وقد ترجمت إلى الإنجليزية وغيرها. وقد كان في الأصل الأول للإنجيل التعبير في البشارات عن اسم النبي بكلمة «البارقليط» واللفظ الأصلي «بيركلي طوس»، ولكنه لما ترجم إلى العربية فسرها بعضهم (بالمخلص)، وفسرها اخرون (بالمعزي)، وأصل معنى البارقليط في اليونانية القديمة: الذي له حمد كثير، قال الألوسي: إنه لفظ يؤذن بالحمد.

ذكر بنو إسرائيل كتبوا كتاباً فاتبعوه وتركوا التوراة: ثم إنّ بني إسرائيل كتبوا كتاباً، فاتبعوه، وتركوا التوراة التي أنزلت على موسى، والكتاب المقدس عند اليهود والنصارى (البايبل) يتكون من قسمين: القسم الأول: العهد القديم، وهو التوراة التي لم تَسلم من التحريف والتبديل والتي يؤمن بها اليهود والنصارى وتتكون من الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى، وأضيف معها الأسفار التاريخية المنسوبة لعدد من الأنبياء، وأسفار الشعر والحكمة وتنسب في غالبها إلى داود وسليمان، ومن المزامير ما ينسب إلى آخرين مجهولين، والأسفار النبوية وتتكون من سبع عشرة سفراً، وأسفار الأبوكريفا السبعة وبعض الكنائس المسيحية تزيد أسفاراً أخرى. والقسم الثاني: العهد الجديد، هو مجموعة الأناجيل الأربعة والرسائل الملحقة بها، وينسب إلى ثمانية من المحررين ينتمون إلى الجيل الأول والثاني من النصرانية، وهم متى ومرقس ولوقا ويوحنا أصحاب الأناجيل، ثم بولس صاحب الأربع عشرة رسالة، ثم بطرس ويعقوب ويهوذا، تلاميذ المسيح الذين تنسب إليهم القليل من الرسائل (١).

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا هُوَ من عِنْد الله وَيَقُولُونَ على الله الْكَذِب وهم يعلمُونَ)، (يكْتبُونَ الْكِتَاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قليلاً)، (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)، وَيلبسُونَ الْحق بِالْبَاطِلِ ويكتمون الْحق وهم يعلمُونَ. ودل على تحريف كتبهم التي بين أيديهم: انقطاع سندها، والتناقض الواضح بين نصوصها، واختلاف نُسخها وعدد أسفارها، وشهادة بعض علماء اليهود والنصارى على وقوع التحريف في كتبهم؛ وخاصة من رجع منهم إلى الحق واتبع شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم إنّ النَّصَارَى -بعد فتنة بولس وتحريفه لدين المسيح عليه السلام- تفرقوا واختلفوا (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، فتَفَرَّقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَت فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا اللهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ أَصْحَابِ يَعْقُوبَ الْبَرَادِعِيِّ (الأرثدوكس)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةِ أَصْحَابُ نَسْطُورَسَ (الكاثوليك)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ هم الْمُسْلِمُونَ المتبعون للمسيح عليه السلام، ومنهم الْأَرْيُوسِيَّةُ أَصْحَاب عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرْيُوسَ. فأما النسطورية والعقوبية وما تفرع عنهم من فرق كافرة، فكلُّ فِرْقَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ تُكَفِّرُ الْأُخْرَى وَتعْتَقِدُ تَخْلِيدَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَا ترى مُجَامَعَتَهُمْ فِي الْمَعَابِدِ وَالْكَنَائِسِ، وَكُلُّهُمْ يَقُولُ بالتثليث، وَلَكِنْ بَيْنَهُمُ اخْتِلَافٌ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ فِيمَا بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ هَلْ تَدَرَّعَهُ؟ أَوْ حَلَّ فِيهِ؟ أَوِ

اتَّحَدَ بِهِ؟ ، وَاخْتِلَافُهُمْ فِي ذَلِكَ شَدِيدٌ وَكُفْرُهُمْ بِسَبَبِهِ غَلِيظٌ.وبَعْدَ رفع الْمَسِيح عليه السلام بِثَلَاثِمَائَةِ سَنَةٍ اختلف البتاركة الْأَرْبَعَةُ وَجَمِيعُ الْأَسَاقِفَةِ وَالْقَسَاوِسَةُ وَالشَّمَامِسَةُ وَالرَّهَابِينُ فِي الْمَسِيحِ عَلَى أَقْوَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ لَا تَنْحَصِرُ وَلَا تَنْضَبِطُ وَاجْتَمَعُوا وَتَحَاكَمُوا إِلَى الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينَ -بَانِي القسطنطينية- فلجؤوا للتصويت وقرروا عقيدة التثليث في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وصَارَ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِ أَكْثَرِ فِرْقَةٍ اتَّفَقَتْ عَلَى قَوْلٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَالَاتِ، فَسُمُّوا: الْمَلَائِكَةَ، وسموا أيضاً: الْمَلَكِيَّةِ نسبة إلى الملك، فنصرهم وبنى لهم آلاف الكنائس ذات التصاوير والتماثيل وَدَحَضَ مَنْ عَدَاهُمْ. وخَالَفَ أغلبُ النصارى أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي أشياء كثيرة شَرَعُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ، فَمِنْ ذَلِكَ صَلَاتُهُمْ إِلَى الشَّرْقِ وَلَيْسَتْ مَنْصُوصًا عَلَيْهَا وَلَا مَأْمُورًا بِهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَنَاجِيلِ الْأَرْبَعَةِ، وعَمَدُوا في بناء كنائسهم إِلَى مَا كَانَ مِنْ بِنَاءِ الْيُونَانِ وَحَوَّلُوا مَحَارِيبَهَا إِلَى الشَّرْقِ لِأَنَّهَا مَطْلِعُ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ وَقَدْ كَانَتْ تلك الأبنية إِلَى الشَّمَالِ إِلَى الْجَدْيِ، وَصَلَّوْا إِلَى الشَّرْقِ وَلَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ صَلَّى إِلَّا إِلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهكَذَا تَصْوِيرُهُمُ الصور والأصنام في كَنَائِسِهِمْ وَلَمْ تَكُنْ مُصَوَّرَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَتَرْكُهُمُ الْخِتَانَ، وَنَقْلُهُمْ صِيَامَهُمْ إِلَى زمن الربيع، وزيادته إِلَى خَمْسِينَ يَوْمًا، وَأَحَلُّوا أَشْيَاءَ هِيَ حَرَامٌ بِنَصِّ التَّوْرَاةِ وَمِنْ ذَلِكَ أَكل الْخِنْزِيرِ، وَوَضْعُهُمْ عقيدة التثليث المتناقضة الَّتِي يحفظها أطفالهم ونساؤهم وَرِجَالُهُم الَّتِي يُسَمُّونَهَا بِـ (الْأَمَانَةِ) وَيَخْتَلِفُونَ فِي تَفْسِيرِهَا وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَكْبَرُ الْكُفْرِ وَالْخِيَانَةِ، وابتدعوا (الرَّهْبَانِيَّةَ) وَهِيَ تَرْكُ التَّزْوِيجِ لِمَنْ أَرَادَ التَّعَبُّدَ وَتَحْرِيمُهُ عَلَيْهِ، وَكَتبوا الْقَوَانِينَ الَّتِي وَضَعَتْهَا لَهُمُ الْأَسَاقِفَةُ الثَّلَاثُمِائَةِ وَالثَّمَانِيَةَ عَشَرَ، فَكُلُّ هذِهِ الْأَشْيَاءِ ابْتَدَعُوهَا وَوَضَعُوهَا فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينَ بْنِ قسطن بَانِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ باتفاق معه، (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) يُحَرِّمُونَ لهم مَا أَحَلَّ اللهُ، وَيُحِلُّونَ لهم مَا حَرَّمَ اللهُ فيتبعونهم (١). ثُمَّ تَظَاهَرَت الفرقُ الْكَافِرَة (الْمَلَكِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ وَالْيَعْقُوبِيَّةِ) عَلَى الْمُسْلِمَةِ (الْأَرْيُوسِيَّةِ)، فَقَاتَلُوهَا وحرضوا عليها الملك. وكَانَ فِي الْأَرْيُوسِيِّينَ النصارى مُؤْمِنُونَ موحدون يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ، فَقِيلَ للملك قسطنطين: مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمِ هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} وَهؤُلَاءِ الْآيَاتِ يَعِيبُونَ بِهَا أَعْمَالَنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ؟، دَعُونَا. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَنَهِيمُ، وَنَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ

فَاقْتلُونَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مِنْهُمْ ابْنوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي وَنَحْتَفِرُ الْآبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فَلَا نَرِدُ عَلَيْكُمْ وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، -وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ- فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وتفرق أصحابها فَسَكَنُوا الْبَرَارِيَ وَالْبَوَادِيَ وبنوا الصَّوَامِعَ وَالدِّيَارَاتِ وَالْقَلَّايَاتِ وَقَنِعُوا بِالْعَيْشِ الزَّهِيدِ، وقد قال الله فيهم: {ورَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} وَالْآخَرُونَ (١) قَالُوا: نَتَعَبَّدُ كَمَا تعبَّدَ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ. فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ محمد - صلى الله عليه وسلم - وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، انْحَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَائِحٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} يَعْنِي: الطَّائِفَةَ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى {وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} يَعْنِي: الطَّائِفَةَ الَّتِي كَفَرَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا} وهم الموحدّون من النصارى {عَلَى عَدُوِّهِمْ} بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- بدين التوحيد عَلَى دِينِ الْمُشْرِكِينَ من أهل الكتاب وغيرهم {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} (١).[43]

---

[43] (١) النَّصَارَى كانوا مَقْهورِينَ مَغْلُوبِينَ مُبَدَّدِينَ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى ظَهَرَ قُسْطَنْطِينُ -وهو أَحَدُ مُلُوكِ الْيُونَانِ- بَعْدَ رفع المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سَنَةٍ، وَكَانَ فَيْلَسُوفًا قَبْلَ ذَلِكَ. فَدَخَلَ فِي دِينِ النَّصَارَى قِيلَ: تَقِيَّةً، وَقِيلَ: حِيلَةً لِيُفْسِدَهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ الْأَسَاقِفَةُ مِنْهُمْ قَوَانِينَ وَشَرِيعَةً وَبِدَعًا أَحْدَثُوهَا، فَبَنَى لَهُمُ الْكَنَائِسَ والبيع الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ، وَالصَّوَامِعَ وَالْهَيَاكِلَ، وَالْمَعَابِدَ، وَالْقَلَّايَاتِ. وَأَقَامَ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ بِالسَّيْفِ، وَقَتَلَ مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ. لَكِنْ أَظْهَرَ دِينًا مُبَدَّلًا مُغَيَّرًا لَيْسَ هُوَ دِينَ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَانْتَشَرَ دِينُ النَّصْرَانِيَّةِ المحرّف فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَاشْتَهَرَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ تَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ وَتَحْرِيفٍ، وَوَضْعٍ وَكَذِبٍ، وَمُخَالَفَةٍ لِدِينِ الْمَسِيحِ. وَلَمْ يَبْقَ عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الرُّهْبَانِ، فَاتَّخَذُوا لَهُمُ الصَّوَامِعَ فِي الْبَرَارِي وَالْمَهَامَّةِ وَالْقِفَارِ، وَاسْتَحْوَذَتْ يَدُ النَّصَارَى عَلَى مَمْلَكَةِ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَبِلَادِ الرُّومِ، وَبَنَى هَذَا الْمَلِكُ الْمَذْكُورُ مَدِينَةَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، والقُمَامَةَ، وَبَيْتَ لَحْمٍ، وَكَنَائِسَ بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمُدُنَ حَوْرَانَ كَبُصْرَى وَغَيْرِهَا مِنَ الْبُلْدَانِ بِنَاءَاتٍ هَائِلَةً مُحْكَمَةً، وَعَبَدُوا الصَّلِيبَ مِنْ حِينَئِذٍ، وَصَلَّوْا إِلَى الشَّرْقِ، وَصَوَّرُوا الْكَنَائِسَ، وَأَحَلُّوا لَحْمَ الْخِنْزِيرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَحْدَثُوهُ مِنَ الْفُرُوعِ فِي دِينِهِمْ وَالْأُصُولِ، وَوَضَعُوا لَهُ الْأَمَانَةَ الْحَقِيرَةَ، الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْكَبِيرَةَ، وَصَنَّفُوا لَهُ الْقَوَانِينَ، وَعَظُمَ دِينُ النَّصْرَانِيَّةِ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ جِدًّا بِسَبَبِ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينَ وَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِمْ فَسَادًا لَا صَلَاحَ لَهُ وَلَا نَجَاحَ مَعَهُ وَلَا فَلَاحَ عِنْدَهُ. وَمَعَ هَذَا فَكَانَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ وَفَارِسَ كُفَّارًا مَجُوسًا وَمُشْرِكِينَ. وَكَانُوا فِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ يَقْهَرُونَ النَّصَارَى عَلَى بِلَادِهِمْ، وَأَمَّا أَرْضُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَفِيهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمُشْرِكِينَ أُمَمٌ، وَكَانَ الشِّرْكُ وَالْكُفْرُ ظَاهِرًا فِي أَرْضِ الْيَمَنِ وَالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ. فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانُوا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَمْ يَكُونُوا قَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا شَرَائِعِ دِينِهِ، وَلَا كَانُوا قَاهِرِينَ لِأَكْثَرِ الْكُفَّارِ، وَلَا كَانُوا مَنْصُورِينَ عَلَيْهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}. حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا، الَّذِي دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ حَيْثُ قَالَا: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَظْهَرَ بِهِ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَعِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ظُهُورًا لَمْ يُعْرَفْ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَمْ يَحْصُلْ مِثْلُهُ لِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَظْهَرَ بِهِ مِنْ تَصْدِيقِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَمُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا لَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ. وَصَارَ يَدُ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ سُلْطَانٌ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِهِمْ، وَقَهَرُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَهَرُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ. فَظَهَرَ بِذَلِكَ تَحْقِيقُ قَوْلِهِ فِي التَّوْرَاةِ " وَتَكُونُ يَدُهُ فَوْقَ الْجَمِيعِ وَيَدُ الْكُلِّ بِهِ ". وَقَوْلُ: دَانْيَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ، فَقَالَ: " سَتَنْزِعُ فِي قَسِيِّكَ إِغْرَاقًا، وَتَرْتَوِي السِّهَامُ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتِوَاءً ". وَقَدْ قَالَ: دَانْيَالُ النَّبِيُّ - أَيْضًا - حِينَ سَأَلَهُ بُخْتُ نَصَّرُ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَآهَا، ثُمَّ نَسِيَهَا: " رَأَيْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ صَنَمًا عَظِيمًا، قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْكَ، رَأْسُهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَسَاعِدَاهُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبَطْنُهُ وَفَخِذَاهُ مِنَ النُّحَاسِ، وَسَاقَاهُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَرِجْلَاهُ مِنَ الْخَزَفِ، وَرَأَيْتَ حَجَرًا لَمْ تَقْطَعْهُ يَدُ إِنْسَانٍ، قَدْ جَاءَ وَصَكَّ ذَلِكَ الصَّنَمَ فَتَفَتَّتَ وَتَلَاشَى وَعَادَ رُفَاتًا، ثُمَّ نَسَفَتْهُ الرِّيَاحُ، فَذَهَبَ وَتَحَوَّلَ ذَلِكَ الْحَجَرُ فَصَارَ جَبَلًا عَظِيمًا حَتَّى مَلَأَ الْأَرْضَ كُلَّهَا، فَهَذَا مَا رَأَيْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ؟ ". فَقَالَ بُخْتُ نَصَّرُ: صَدَقَ، فَمَا تَأْوِيلُهَا؟ قَالَ دَانْيَالُ: " أَنْتَ الرَّأْسُ الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ، وَيَقُومُ بَعْدَكَ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ رَأَيْتَ مِنَ الْفِضَّةِ، وَهُمَا دُونَكَ، وَيَقُومُ بَعْدَهُمَا مَمْلَكَةٌ أُخْرَى هِيَ دُونَهُمَا، وَهِيَ شِبْهُ النُّحَاسِ، وَالْمَمْلَكَةُ الرَّابِعَةُ تَكُونُ قَوِيَّةً مِثْلَ الْحَدِيدِ الَّذِي يَدُقُّ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَمَّا الرِّجْلَانِ الَّتِي رَأَيْتَ مِنْ خَزَفٍ فَمَمْلَكَةٌ ضَعِيفَةٌ وَكَلِمَتُهَا مُشَتَّتَةٌ، وَأَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي رَأَيْتَ قَدْ صَكَّ ذَلِكَ الصَّنَمَ الْعَظِيمَ فَفَتَّتَهُ فَهُوَ نَبِيٌّ يُقِيمُهُ اللَّهُ إِلَهُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ قَبِيلَةٍ بِشَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ، فَيَدُقُّ جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمَهَا، حَتَّى تَمْتَلِئَ مِنْهُ الْأَرْضُ وَمِنْ أُمَّتِهِ، وَيَدُومُ سُلْطَانُ ذَلِكَ النَّبِيِّ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا، فَهَذَا تَعْبِيرٌ عَنْ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ". فَهَذَا نَعْتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي بُعِثَ بِشَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ، وَدَقَّ جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمَهَا، حَتَّى امْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْهُ وَمِنْ أُمَّتِهِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَسُلْطَانُهُ دَائِمٌ، لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُزِيلَهُ كَمَا زَالَ مُلْكُ الْيَهُودِ وَزَالَ مُلْكُ النَّصَارَى وَدَوْلَتُهُمْ عَنْ خِيَارِ الْأَرْضِ وَأَوْسَطِهَا وَحَيْثُ بُعِثَتِ الْأَنْبِيَاءُ كَأَرْضِ الشَّامِ وَمِصْرَ، فَانْتَزَعَهَا مِنْهُمُ الصَّحَابَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَكَانَ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى يَدَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ذكر قصة سبأ وسد مأرب: وكَانَت مملكة سبأ -في اليمن- فِي غِبْطَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَرْزَاقٍ دَارَّةٍ وَثِمَارٍ وَزُرُوعٍ كثِيرَةٍ، وكَانُوا مَعَ ذَلِكَ عَلَى الاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ وَطَرِيقِ الرَّشَادِ فَلَمَّا بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ لَمَّا عَدَلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، وأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ.

وذلك أَنَّ سَدَّ مَأْرِبَ كَانَ صَنْعَتَهُ، أَنَّ الْمِيَاهَ تَجْرِي مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ فَعَمَدُوا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ فَسَدُّوا مَا بَيْنَهُمَا بِبِنَاءٍ مُحْكَمٍ جِدًّا حَتَّى ارْتَفَعَ الْمَاءُ فَحَكَمَ عَلَى أَعَالِي الْجَبَلَيْنِ، وَغَرَسُوا فِيهِمَا الْبَسَاتِينَ وَالْأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ الْأَنِيقَةَ، وَزَرَعُوا الزُّرُوعَ الْكَثِيرَةَ. وكَانُوا فِي غِبْطَةٍ عَظِيمَةٍ وَعَيْشٍ رَغِيدٍ وَأَيَّامٍ طَيِّبَةٍ حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَمُرُّ بِالْمِكْتَلِ عَلَى رَأْسِهَا فَيَمْتَلِئُ مِنَ الثِّمَارِ مَا يَتَسَاقَطُ فِيهِ مِنْ نُضْجِهِ وَكَثْرَتِهِ، وأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْبَرَاغِيثِ وَلَا الدَّوَابِّ الْمُؤْذِيَةِ لِصِحَّةِ هَوَائِهِمْ وَطِيبِ فِنَائِهِمْ.

فَلَمَّا عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وبَطِرُوا نِعْمَتَهُ، وَسَأَلُوا -بَعْدَ تَقَارُبِ مَا بَيْنَ قُرَاهُمْ، وَطِيبِ مَا بَيْنَهَا مِنَ الْبَسَاتِينِ، وَأَمْنِ الطُّرُقَاتِ- سَأَلُوا أَنْ يُبَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ سَفَرُهُمْ فِي مَشَاقٍّ وَتَعَبٍ، وَطَلَبُوا أَنْ يُبَدَّلُوا بِالْخَيْرِ شَرًّا، كَمَا سَأَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَدَلَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى الْبُقُولَ وَالْقِثَّاءَ وَالْفُومَ وَالْعَدَسَ وَالْبَصَلَ؛ فَسُلِبُوا تِلْكَ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْحَسَنَةَ الْعَمِيمَةَ بِتَخْرِيبِ الْبِلَادِ وَالشَّتَاتِ عَلَى وُجُوهِ الْعِبَادِ، وأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى أَصْلِ السَّدِّ الْفَأْرَ وَهُوَ الْجُرَذُ، وَيُقَالُ: الْخُلْدُ. فَلَمَّا فَطِنُوا لِذَلِكَ أَرْصَدُوا عِنْدَهَا السَّنَانِيرَ (القطط) فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا إِذْ قَدْ حُمَّ الْقَدَرُ، وَلَمْ يَنْفَعِ الْحَذَرُ كَلَّا لَا وَزَرَ، فَلَمَّا تَحَكَّمَ فِي أَصْلِهِ الْفَسَادُ سَقَطَ وَانْهَارَ، فَسَلَكَ الْمَاءُ الْقَرَارَ، فَقُطِعَتْ تِلْكَ الْجَدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ، وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الثِّمَارُ، وَبَادَتْ تِلْكَ الزُّرُوعُ وَالْأَشْجَارُ، وَتَبَدَّلُوا بَعْدَهَا بِرَدِيءِ الْأَشْجَارِ وَالْأَثْمَارِ. وَلَمَّا هَلَكَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَخَرِبَتْ بِلَادُهُمُ احْتَاجُوا أَنْ يَرْتَحِلُوا مِنْهَا، وَيَنْتَقِلُوا عَنْهَا، فَتَفَرَّقُوا فِي غَوْرِ الْبِلَادِ وَنَجْدِهَا أَيْدِيَ سَبَأٍ شَذَرَ مَذَرَ، فَنَزَلَتْ طَوَائِفُ مِنْهُمُ الْحِجَازَ، وَهُمْ خُزَاعَةُ نَزَلُوا ظَاهِرَ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ من نزل الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وهم الأوس والخزرج فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ سَكَنَهَا، ثُمَّ نَزَلَتْ عِنْدَهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مِنَ الْيَهُودِ؛ بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، فَحَالَفُوا الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ وَأَقَامُوا عِنْدَهُمْ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهُمُ الشَّامَ، وَهُمُ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا فِيمَا بَعْدُ، وَهُمْ غَسَّانُ وَعَامِلَةُ وَبَهْرَاءُ وَلَخْمٌ وَجُذَامٌ وَتَنُوخُ وَتَغْلِبُ وَغَيْرُهُمْ. وَلَيْسَ جَمِيعُ سَبَأٍ خَرَجُوا مِنَ الْيَمَنِ لَمَّا أُصِيبُوا بِسَيْلِ الْعَرِمِ؛ بَلْ أَقَامَ أَكْثَرُهُمْ بِهَا، وَذَهَبَ أَهْلُ مَأْرِبَ الَّذِينَ كَانَ لَهُمُ السَّدُّ فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ، وَبَقِيَ بِالْيَمَنِ مَذْحِجٌ وَكِنْدَةُ وَأَنْمَارٌ وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ هُوَ أَبُو خَثْعَمٍ وَبَجِيلَةَ وَحِمْيَرُ. فَهَؤُلَاءِ سِتُّ قَبَائِلَ مِنْ سَبَأٍ أَقَامُوا بِالْيَمَنِ، وَاسْتَمَرَّ فِيهِمُ الْمُلْكُ وَالتَّبَابِعَةُ.

ذكر تبع أبي كرب: ثم كانت قِصَّةُ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ، وهو تُبَّانِ أَسْعَدَ، مَلِكِ الْيَمَنِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ مَعَ الشِّحْرِ وَحَضْرَمَوْتَ تُبَّعًا، كَمَا يُسَمُّونَ مَنْ مَلَكَ الشَّامَ مَعَ الْجَزِيرَةِ قَيْصَرَ، وَمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ كِسْرَى، وَمَنْ مَلَكَ مِصْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ النَّجَاشِيَّ، وَمَنْ مَلَكَ الْهِنْدَ بَطْلَيْمُوسَ، وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ مُلُوكِ حِمْيَرَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ بِلْقِيسُ، وَقَدْ قَدَّمْنَا قِصَّتَهَا مَعَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ومر تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ بجيشه على المدينة وقاتل أهلها، فَبَيْنَما هوعَلَى ذَلِكَ مِنْ قِتَالِهِمْ إِذْ جَاءَهُ حَبْرَانِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ عَالِمَانِ رَاسِخَانِ حِينَ سَمِعَا بِمَا يُرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا مَا تُرِيدُ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ عَلَيْكَ عَاجِلَ الْعُقُوبَةِ فَقَالَ لَهُمَا: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَا: هِيَ مُهَاجَرُ نَبِيٍّ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُونُ دَارَهُ وَقَرَارَهُ فَتَنَاهَى وَرَأَى أَنَّ لَهُمَا عِلْمًا، وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمَا فَانْصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا. وقد كَانَ تُبَّعٌ وَقَوْمُهُ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا فَتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ، وَهِيَ طَرِيقُهُ إِلَى الْيَمَنِ حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَأَمَجٍ، أَتَاهُ نَفَرٌ مِنْ هُذَيْلِ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَلَا نَدُلُّكَ عَلَى بَيْتِ مَالٍ دَاثِرٍ أَغْفَلَتْهُ الْمُلُوكُ قَبْلَكَ فِيهِ اللُّؤْلُؤُ وَالزَّبَرْجَدُ وَالْيَاقُوتُ وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ؟ قَالَ: بَلَى قَالُوا بَيْتٌ بِمَكَّةَ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهُ وَيُصَلُّونَ عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْهُذَلِيُّونَ هَلَاكَهُ بِذَلِكَ لَمَّا عَرَفُوا مِنْ هَلَاكِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَبَغَا عِنْدَهُ فَلَمَّا أَجْمَعَ لِمَا قَالُوا أَرْسَلَ إِلَى الْحَبْرَيْنِ فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَا لَهُ مَا أَرَادَ الْقَوْمُ إِلَّا هَلَاكَكَ، وَهَلَاكَ جُنْدِكَ مَا نَعْلَمُ بَيْتًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَهُ فِي الْأَرْضِ لِنَفْسِهِ غَيْرَهُ، وَلَئِنْ فَعَلْتَ مَا دَعَوْكَ إِلَيْهِ لَتَهْلِكَنَّ، وَلَيَهْلِكَنَّ مَنْ مَعَكَ جَمِيعًا فَمَاذَا تَأْمُرَانِنِي أَنْ أَصْنَعَ إِذَا أَنَا قَدِمْتُ عَلَيْهِ؟ قَالَا: تَصْنَعُ عِنْدَهُ مَا يَصْنَعُ أَهْلُهُ تَطُوفُ بِهِ وَتُعَظِّمُهُ وَتُكْرِمُهُ، وَتَحْلِقُ رَأْسَكَ عِنْدَهُ، وَتَذِلُّ لَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ: فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْتُمَا مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَا: أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَبَيْتُ أَبِينَا ابراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّهُ لَكَمَا أَخْبَرْنَاكَ، وَلَكِنَّ أَهْلَهُ حَالُوا بَيْنَنَا، وَبَيْنَهُ بِالْأَوْثَانِ الَّتِي نَصَبُوهَا حَوْلَهُ، وَبِالدِّمَاءِ الَّتِي يُهْرِيقُونَ عِنْدَهُ، وَهُمْ نَجَسٌ أَهْلُ شِرْكٍ أَوْ كَمَا قَالَا لَهُ فَعَرَفَ نُصْحَهُمَا وَصِدْقَ حَدِيثِهِمَا، وَقَرَّبَ النَّفَرَ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَنَحَرَ عِنْدَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَقَامَ بِمَكَّةَ سِتَّةَ أَيَّامٍ فِيمَا يَذْكُرُونَ يَنْحَرُ بِهَا لِلنَّاسِ، وَيُطْعِمُ أَهْلَهَا، وَيَسْقِيهِمُ الْعَسَلَ. وَكَانَ تُبَّعٌ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَوَّلَ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ، وَأَوْصَى بِهِ وُلَاتَهُ مِنْ جُرْهُمٍ وَأَمَرَهُمْ بِتَطْهِيرِهِ، وَأَنْ لَا يُقَرِّبُوهُ دَمًا وَلَا مَيْتَةً وَلَا مِثْلَاةً وَهِيَ الْمَحَايِضُ، وَجَعَلَ لَهُ بَابًا، وَمِفْتَاحًا، ثُمَّ خَرَجَ تُبَّعٌ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْيَمَنِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ، وَبِالْحَبْرَيْنِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الْيَمَنَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى

الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ. وَقَدْ قَالَ تُبَّعٌ حِينَ أَخْبَرَهُ الْحَبْرَانِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعْرًا: شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ ** رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمْ فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ ** لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمْ وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ ** وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمْ وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشِّعْرُ تَتَوَارَثُهُ الْأَنْصَارُ وَيَحْفَظُونَهُ بَيْنَهُمْ وَكَانَ عِنْدَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

ذكر قصة أصحاب الأخدود: ثم كان المُلك لذي نواس ابن تبّع المذكور ولم يكن مؤمناً (١)، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ، قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا فَلْأُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ وَكَانَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ السَّاحِرِ رَاهِبٌ فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. قَالَ: فَبَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ السَّاحِرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرَ الرَّاهِبِ قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ بِإِذْنِ اللهِ حين يدعو الله لهم. وَكَانَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: اشْفِنِي وَلَكَ مَا هَاهُنَا أَجْمَعُ. فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ، وَدَعَوْتُ اللَّهَ، شَفَاكَ. فَآمَنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي قَالَ: أَنَا قَالَ: لَا. رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَأُتِيَ بِهِ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءَ، قَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ قَالَ: فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأُتِيَ بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوُا الْجَبَلَ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَدُهْدِهُوا أَجْمَعُونَ. وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرْقُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَّجْتُمُ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَأَغْرِقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّجُوا بِهِ الْبَحْرَ فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ قُلْ: "بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ"، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ رَمَاهُ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ!. فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّ فِيهَا الْأَخَادِيدُ، وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ، وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا. فَكَانُوا يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، وَيَتَدَافَعُونَ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: اصْبِرِي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ. (١)

ذكر تسلط الأحباش النصارى على اليمن: ولما قَتَلَ ذو نُوَاس أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلَّا دوس ذُو ثُعْلُبَانَ، فَذَهَبَ فَاسْتَغَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ -وَكَانَ نَصْرَانِيًّا- فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرِيَاطَ وَأَبرهَةَ بْنَ الصَّبَاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا الْمُلْكَ مِنْ حِمْيَرَ، وذهب ذو نواس هاربًا فَلَجَّجَ فِي الْبَحْرِ، فَغَرِقَ. وَاسْتَقَلَّ الْحَبَشَةُ بِمُلْكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرِيَاطُ وَأَبْرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَّا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اصْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنِ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزُ إِلَيْكَ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ، اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا، وَخَلْفَ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَتَاهُ، فَحَمَلَ أَرِيَاطُ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتْوَدَةُ مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبْرَهَةُ جَرِيحًا، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرَأَ، وَاسْتَقَلَّ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ الْحَبَشَةِ بِالْيَمَنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَى مَا

كَانَ منْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلفُ لَيَطَأَنَّ بِلَادَهُ وَيَجُزَّنَّ نَاصِيَتَهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَبِجِرَابٍ فِيهَا مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ، وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبَرَّ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ. فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَقَرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ. وَأَرْسَلَ أَبْرَهَةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلُهَا. فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةِ الْبِنَاءِ، عَالِيَةِ الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةِ الْأَرْجَاءِ. سَمَّتْهَا الْعَرَبُ الْقُلَّيْسَ؛ لِارْتِفَاعِهَا، لِأَنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلُنْسُوَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنَ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحَجُّ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا. فَأَحْدَثَ فِيهَا وَكَرَّ رَاجِعًا. فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةُ ذَلِكَ الْحَدَثَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجَرًا.

ذكر أصحاب الفيل: وَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لهدم الكعبة وَصَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمْرَمٍ؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ. -وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا أَفْيَالٌ أخرى - لِيَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعَ فِي عُنُقِ الْفِيلِ، ثُمَّ يُزْجَرَ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً. فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةَ دُونَ الْبَيْتِ، وَرَدَّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ "ذُو نَفْرٍ" فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأُسِرَ "ذُو نَفْرٍ" فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَى لِوَجْهِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمٍ، عَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيُّ فِي قَوْمِهِ: شَهْرَانَ وَنَاهِسٍ، فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وَأُسِرَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَى بَيْتِهِمْ، الَّذِي عِنْدَهُمْ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ. فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ "أَبَا رِغَالٍ" دَلِيلًا. فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهَةُ إِلَى الْمُغَمِّسِ -وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ- نَزَلَ بِهِ وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرْحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا، فَأَخَذُوهُ. وَكَانَ فِي السَّرْحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَى السَّرْحِ بِأَمْرِ أَبْرَهَةَ أَمِيرَ

الْمُقَدِّمَةِ، وكَانَ يُقَالُ لَهُ: "الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ" فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ، وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيَّ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ، وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ. فَجَاءَ حُنَاطَةُ فَدُلَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَاذْهَبْ مَعِي إِلَيْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَمِيلًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى الْبِسَاطِ، وَقَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِلتُّرْجُمَانِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي. فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنِّي! قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. وَرَدَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، فَلَمَّا قَبَضَهَا قَلَّدَهَا النِّعَالَ وَأَشْعَرَهَا وَجَعَلَهَا هَدْيًا، وَبَثَّهَا فِي الْحَرَمِ كَيْ يُصَابَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَغْضَبَ رَبُّ الْحَرَمِ، وَرَجَعَ عَبْدُالْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ، وَهَيَّأَ فِيلَهُ -وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا- وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: ابْرُكْ مَحْمُودُ وَارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ. وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أُصْعِدَ فِي الْجَبَلِ. وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى. فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ جَمَاعَاتٍ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحِمَّصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ. هَذَا وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ يَقُولُ: أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبْ *** وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبْ

وليس كُلُّهمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ يَتَسَاقَطُ عُضْوًا عُضْوًا، حَتَّى مَاتَ وأصابت قريشٌ مَالًا جَزِيلًا مِنْ أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، وأَعْظَمَتِ العَرَبُ قُرَيْشًا، وقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، قَاتَلَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكَفَاهُمُ العَدُوَّ، وازْدادُوا تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الحَرَامِ، وإِيمَانًا بِمَكَانِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وأَرَّخُوا بِهِ، وقَالُوا: وَقَعَ هَذَا فِي عَامِ الفِيلِ، ووُلِدَ فُلَانٌ فِي عَامِ الفِيلِ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِيمَا يُعَدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نعمته عَلَيْهِمْ وفَضْلِهِ، مَا رَدَّ عَنْهُم مِنْ أَمْرِ الْحَبَشَةِ، لِبَقَاءِ أَمْرِهِمْ وَمُدَّتِهِمْ، فَقَالَ تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} أَيْ: لِئَلَّا يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ حَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ. (١) وفَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ: فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللهَ عَشْرَ سِنِينَ، لَا يَعْبُدُهُ إِلَّا قُرَشِيٌّ، وفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَصَرَهُمْ يَوْمَ الْفِيلِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ، لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ - لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ - وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ النُّبُوَّةَ، وَالخِلافَةَ، وَالحِجَابَةَ، وَالسِّقَايَةَ (٢).[44]

[44] (١) ومَلَكَ بعد أبرهة في اليمن ابنه يَكْسُومُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَخُوهُ مَسْرُوقُ بْنُ أَبْرَهَةَ، حتى خَرَجَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ الْحِمْيَرِيُّ إِلَى كِسْرَى فَاسْتَغَاثَهُ عَلَى الْحَبَشَةِ، فَأَنْفَذَ مَعَهُ مِنْ جيوشِهِ فَقَاتَلُوا مَعَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ، وَمَا كَانَ فِي آبَائِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ، وَجَاءَتْهُ وُفُودُ الْعَرَبِ لِلتَّهْنِئَةِ بعودة مُلْكِ اليمن إلى حِمْيَر. وكان سيف بن ذي يزن قد اصطفى جماعة من الأحباش، وجعلهم من خاصته، فاغتالوه وقتلوه، فأرسل كسرى حاكماً له على اليمن، واستمر حكّام كسرى على اليمن إلى أن كان آخرهم باذان الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسلم، ثم صارت اليمن للإسلام. (٢) الحجابة: أي سدانة الكعبة وتولى حفظها ومفتاحها. والسِّقَايَةُ: هي جَمْعُ المَاءِ مِنْ آبَارِ مكَّةَ المُخْتَلِفَةِ، ووضْعها قُرْبَ الكَعْبَةِ، وقَدْ تُحَلَّى بشَيْءٍ من التَّمْرِ أو الزَّبِيبِ فيَشْرَبُ الحَجِيجُ منها. وكَانَتْ إِلَى قُصَيٍّ سقَايَةُ الْحَجِيجِ فَلَا يَشْرَبُونَ إِلَّا مِنْ مَاءِ حِيَاضِهِ، ثم كَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَاف -واسْمُهُ عَمْرُو- رَجُلًا مُوسِرًا ذَا شَرَفٍ كَبِيرٍ، وقَدْ تَوَلَّى هَاشِمٌ السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ، ثُمَّ أَوْصَى هَاشِمٌ عِنْدَ وَفَاتِهِ إِلَى أخِيهِ المُطَّلِبِ فَصَارَتِ السِّقَايَةُ والرِّفَادَةُ إِلَيْه. والرِّفَادَةُ: هو طعامٌ يُوضَعُ لِلْحُجَّاجِ على سَبِيلِ الضِّيَافَةِ. ولَمَّا صَارَ شَيْبَةُ بْنُ هَاشِمٍ غلاماً رَحَلَ المُطَّلِبُ فِي طَلَبِهِ، فَاحْتَمَلَهُ فَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ مُرْدِفَهُ عَلَى بَعِيرِهِ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: هَذَا المُطَّلِبُ اشْتَرَى عَبْدًا فَسُمِّيَ شَيْبَةُ عَبْدَ المُطَّلِبِ. فَقَالَ المُطَّلِبُ: وَيْحَكُمْ! إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ المَدِينَةِ. وكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ جَسِيمًا أَبْيَضَ، وَسِيمًا طِوَالًا فَصِيحًا، مَا رَآهُ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَحَبَّهُ، وَشَرُفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ، وأَحَبَّهُ قَوْمُهُ، حَتَّى عُرِفَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ: "بِشَيْبَةَ الحَمْدِ" لِكَثْرَةِ حَمْدِ النَّاسِ إِيَّاهُ. ثُمَّ وَلِيَ عَبْدُالمُطَّلِبِ السِّقَايَةَ والرِّفَادَةَ بعد عمه المطلب فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ. وَكَانَتْ زَمْزَمُ إِذْ ذَاكَ مَطْمُوسَةً مِنْ زَمَنِ جُرْهُمٍ قَدْ تَنَاسَوْا أَمْرَهَا مِنْ تَقَادُمِ عَهْدِهَا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَوْضِعِهَا. حيث إنّ جرهم عفّت أثر بئر زمزم وطمّتها لما أخرجت من مكة، فلم تزل دارسة إلى أيام عبدالمطلب. ثم إنّ عبدالمطلب أري في المنام مكان زمزم فجدّد حفرها، فنازعته قريش فيها، فنذر عبدالمطلب لئن رزق بعشر من البنين يمنعونه من الناس ليذبحن أحدهم قرباناً، فخرج القدح على عبدالله، ففداه عبدالمطلب بمائة من الإبل. وزَوَّجَهُ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ، بنِ زُهْرَةَ، بنِ كِلَابٍ، بنِ مُرَّةَ، وهِيَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا، وأَبُوهَا سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وشَرَفًا.

ذكر ولادة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: وُلد محمد -صلى الله عليه وسلم- في عام الفيل، وهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبٍ، بْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبٍ، بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكٍ، بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ، بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إلْيَاسَ، بْنِ مُضَرَ، بْنِ نِزَارٍ، بْنِ مَعَدِّ، بْنِ عَدْنَانَ. وهو مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ والْمَاحِي، الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَالْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِهِ، وَالْمُقَفِّي والْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلَاحِمِ والنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وخاتم النبيين. وقد ولد عليه الصلاة والسلام في مكة يوم الإثنين من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة (٥٣ ق هـ - ٥٧١ م تقريباً) وحَبَسَ اللهُ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ عام مولده صلى الله عليه وسلم، ومات أبوه عبدالله وهو حمل (١)، وخُتِنَ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَى يَدِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ، وعَقَّ عَنْهُ بِكَبْشٍ، وجَعَلَ لَهُ مَأْدُبَةً، وسَمَّاهُ مُحَمَّدًا (٢). وأرضعته أُمُّهُ آمِنَةُ، ثُمَّ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ مَوْلَاةُ أَبِي لَهَبٍ (٣)، ثم حليمة السعدية ورأت بركته عليها وعلى أهلها، حتَّى بَلَغَ -صلى اللَّه عليه وسلم- سَنَتَيْنِ، فَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لا يَشِبُّهُ الغِلْمَانُ، وَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعَ سِنِينَ كَانَ يَغْدُو مَعَ أَخِيهِ وأُخْتِهِ فِي الْبَهْمِ، ولَمَّا بَلَغَ -صلى اللَّه عليه وسلم- ستَّ سِنِينَ تُوُفِّيَتْ وَالِدَتُه آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ بِالْأَبْوَاءِ، وهِيَ رَاجِعَةٌ بِهِ إلَى مَكَّةَ بَعْدَ زِيَارَةٍ قَامَتْ بِهَا مَعَهُ -صلى اللَّه عليه وسلم- إلَى أَخْوَالِ جَدِّهِ عَبْدِالمُطَّلِبِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. فكفله جده عبدالمطلب حتى كان عُمُرُ النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم- ثَمَانِ سِنِينَ، ثم مات عبدالمطلب وأَوْصَى عند موته وَلَدَهُ أَبَا طَالِبٍ (٤) بِكَفَالَةِ النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم-، وَحِفْظِهِ، وحِيَاطَتِهِ؛[45] وذَلِكَ لِأَنَّ عَبْدَ اللَّهَ وَالِدَ الرَّسُولِ -صلى اللَّه عليه وسلم- وأَبَا طَالِبٍ أَخَوَانِ لِأَبٍ وَأُمٍّ، أُمُّهُمَا فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بنِ عَائِذٍ، فكفله عمه أبو طالب (١).

---

[45] (١) خَرَجَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَبْدِالْمُطَّلِبِ إِلَى الشَّامِ فِي عِيرٍ فَفَرَغُوا مِنْ تِجَارَاتِهِمْ ثُمَّ انْصَرَفُوا، فَمَرُّوا بِالْمَدِينَةِ وَعَبْدُاللَّهِ يَوْمَئِذٍ مَرِيضٌ، فَكَثَ عِنْدَ أَخْوَالِ أَبِيهِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، فَأَقَامَ عِنْدَهُمْ مَرِيضًا شَهْرًا ثم تُوُفِّيَ عَنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- حَمْلًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ابنَ شَهْرَيْنِ. وَجَمِيعُ مَا خَلَّفَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَمْسَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَقِطْعَةَ غَنَمٍ، وَجَارِيَةً حَبَشِيَّةً اسْمُهَا: "بَرَكَةُ" وَهِيَ أُمُّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) وأَلْهَمَهُمُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أن سمُّوه محمداً؛ لِمَا فيه من الصِّفات الحَمِيدة؛ لِيَلْتَقِي الاسم والفعل، ويتطابَقَ الاسم والمُسَمَّى في الصُّورة والمعنى، كما قال حسَّان بن ثابت -رضي اللَّه عنه-:

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمه لِيُجِلَّهُ ... فذُو العرشِ مَحْمُودٌ وهذا مُحَمَّدُ

(٣) فَكَانَ الرَّسُولُ -صلى اللَّه عليه وسلم-، وعَمُّهُ حَمْزَةُ، وأَبُو سَلَمَةَ إِخْوَةً مِنَ الرَّضَاعَةِ.

(٤) واسمُهُ عَبْدُمَنَافٍ.

وَقَدِ اشْتَغَلَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فِي صِبَاهُ بِرَعْيِ الغَنَمِ، وَرَعَاهَا لِبَعْضِ أَهْلِ مَكَّةَ (١).[46] يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام: إِنِّي عَبْدُ اللهِ، وَمَكْتُوبٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ: (خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) -وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ (١) فِي طِينَتِهِ-، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي فَلَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ. إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ،

وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ (٢)، وَاسْتُرْضِعْتُ فَكَانَتْ حَاضِنَتِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ (٣)، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنٌ لَهَا فِي بَهْمٍ لَنَا (٤)، وَلَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَادًا (٥)، فَقُلْتُ: يَا أَخِي، اذْهَبْ فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمِّنَا، فَانْطَلَقَ أَخِي وَمَكَثْتُ عِنْدَ الْبَهْمِ، فَأَتَانِي رَجُلَانِ -عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ- بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلْجًا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟، فَقَالَ الْآخَرُ: نَعَمْ، فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا، فَشَقَّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ، فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءِ ثَلْجٍ، فَغَسَلَ بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءِ بَرَدٍ، فَغَسَلَ بِهِ قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّهَا فِي قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: حُصْهُ، فَحَاصَهُ (٦)، وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ (٧)، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَى

---

[46] (١) في جزيرة العرب -وهي أكبر جزيرة في العالم- ولد صلى الله عليه وسلم وبعث فيها وهاجر فيها وغزا فيها ومات فيها، لتكون إسلامية صرفة لا يجتمع فيها دينان ولا قبلتان ولا يجوز بناء الكنائس فيها ولا بيوتاً للنار، وفيها مركز الدنيا الذي هو مكة المكرمة وقبلة المسلمين، وفيها الحرمان اللذان لا يجوز تنفير الطير منها، ولا يعضد شوكهما، ولا يختلى خلاهما، وهما أسبق بيئة في العالم لحماية الحياة الفطرية، وسكانها هم أفصح الناس لساناً ومنطقاً، والقرآن الكريم نزل فيها وبلغة ساكنيها، وحدد الخليفة الراشد العادل عمر بن الخطاب مدة بقاء المشركين فيها بثلاثة أيام فقط لكي يشتري منهم المسلمون حاجتهم، وهي موطن الأمم القوية مثل عاد وثمود وسبأ، وهي مهد اللغة العربية القديمة (السامية)، وهي موطن قريش أشرف قبائل الدنيا والتي هي الأولى بالخلافة مَا بَقِيَ مِنَ النَّاسِ اثْنَانِ، فَالْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ، وأهل الشورى من المسلمين يختارون الإمام العادل العالم المجتهد والخبير المستنبط للأمور ويبايعونه من طريق الشورى وتعقد البيعة ببيان ماله وما عليه، وأهل الشورى هم أهل الشوكة ورؤساء الجند وشيوخ القبائل وأشراف الناس، وإن تولى على المسلمين حاكم فله السمع والطاعة في المعروف، ولو لم يكن من قريش، ولو كان عبداً. وكان عند العرب في الجاهلية من الأخلاق ما هو أنبل من أخلاق أهل الحضارة الغربية اليوم، فكان عندهم الكرم والنصرة والشجاعة، ولم يكن عند مشركي العرب نكاح المحارم الذي يفعله المجوس ولا نظام الطبقات كما عند الهنود، ولا ادعاء أن المسيح ابن مريم خلق السموات والأرض كما يقول النصارى، ولم يكن عندهم زنا المرأة الحرة. واختار الله لأمة الإسلام أفضل الرسل وأفضل الكتب، وأفضل اللغات والمواقع الجغرافية، وأفضل الكنوز والثروات والألوان وأفضل المقاييس والمعايير

الْأَلْفِ فَوْقِي أُشْفِقُ أَنْ يَخِرَّ عَلَيَّ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ. ثُمَّ انْطَلَقَا وَتَرَكَانِي، إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ.

ولما وقع حلف الفضول في ذِي الْقَعْدَةِ -وهو من الأشهر الحرُم- عام (٣٣ ق هـ) تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبدالعزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبدالله بن جُدْعان التيمي؛ لسنّه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته،وقد شهدَ هذا الحلفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: "لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت" (١).[47]

ذكر زواجه من خديجة بنت خويلد: وفِي الخَامِسَةِ والعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ خَرَجَ النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- تاجِرًا إِلَي الشَّامِ في مَالِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وسمعت خديجة رضي الله عنها بالنبي صلى الله عليه وسلم وبأمانته وأخلاقه الكريمة، وإن أخت خديجة قد استكرت (استأجرت) إبلاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشريكه، فلما قضوا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتيهم ويتقاضاهم، ويقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: انطلق. فيقول: اذهب أنت، فإني أستحيي. فقالت مرة - وقد أتاهم شريكه -: أين محمد لا يجيء معك؟ قال: قد قلت له، فزعم أنه يستحيي، فذكرت ذلك لأختها خديجة، فقالت: ما رأيت رجلاً قط أشد حياء ولا أعف من محمد، فوقع في نفس أختها خديجة، فبعثت إليه (١)، فقالت: ائت أبي فاخطب إليه، فقال: أبوك (٢) رجل كثير المال وهو لا يفعل، قالت: انطلق فالقه وكلمه، ثم أنا أكفيك. وقد تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي ثيب في سنة ٢٨ ق هـ. وكَانَ عُمُرُ النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم- حِينَ تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَمْسًا وعِشْرِينَ سَنَةً، وذَلِكَ بَعْدَ رُجُوعِهِ منَ الشَّامِ بِشَهْرَيْنِ، وكَانَ عُمُرُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَوْمَئِذٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَتْ لَهُ القَاسِمَ ثُمَّ زَيْنَبُ، ثُمَّ رُقَيَّةُ، ثمَّ أُمُّ كُلْثُومٍ، ثمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ وُلِدَ له فِي الإِسْلَامِ عَبْدُ اللَّهِ،

[47] (١) وروي أنه لَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ -صلى اللَّه عليه وسلم- عِشْرِينَ سَنَةً، هَاجَتْ حَرْبُ الفِجَارِ وَشَهِدَ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بعض أَيَّامِهِمْ، أَخْرَجَهُ أَعْمَامُهُ مَعَهُمْ، وَأنه قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُنْتُ أَنْبُلُ عَلَى أعمامي"، أي: أردّ عنهم، نَبْلَ عَدُوِّهِمْ، إِذَا رَمَوْهُمْ بِهَا. وكان حلف الفضول بعد الفجار، وذلك أن حرب الفجار كانت في شعبان، وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُلَقَّبُ بالطَّيِّبِ والطَّاهِرِ، لأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبوةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجْمَعِينَ. وقَدْ مَاتَ بَنُوهُ -صلى اللَّه عليه وسلم- من خديجة وهُمْ صِغَارٌ، فَمَاتَ القَاسِمُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ سِنًّا تُمَكِّنُهُ مِنَ المَشْيِ، وقِيلَ سِنًّا تُمَكِّنُهُ مِنْ رُكُوبِ الدَّابَّةِ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ، وهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ. وأَمَّا بَنَاتُ الرَّسُولِ -صلى اللَّه عليه وسلم- فَكُلُّهُنَّ من خديجة وقد أَدْرَكْنَ الإِسْلَامَ، وأَسْلَمْنَ، وعِشْنَ حَتَّى تَزَوَّجْنَ، وَكُلُّهُنَّ مِتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم-، مَا عَدَا فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَدْ تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بِستَّةِ أَشْهُرٍ.[48]

وضع الحجر الأسود في مكانه: وفي عام (١٨ ق هـ) أعادت قريش بناء الكعبة في الجاهلية بعد أن تهدم جزء منها من سَيْلٍ عَرِمٍ انْحَدَرَ إِلَى البَيْتِ الحَرَامِ، فَأَوْشَكَتِ الكَعْبَةُ مِنْهُ عَلَى الانْهِيَارِ، وكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنْ قَبْلُ حَرِيقٌ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ كَانَتْ تُجَمِّرُهَا، فَهَدَمَتْهَا قُرَيْشٌ وقَد اتَّفقوا عَلَى أَنْ لَا يُدْخِلُوا فِي بِنَاءِ الكَعْبَةِ مِنْ كَسْبِهِمْ إِلَّا طَيِّبًا، فَلَا يُدْخِلُوا فِيهَا مَهْرَ بَغِيٍّ ولا بيع رِبًا، وَلَا مَظْلَمَةَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَجَعَلُوا يَبْنُونَهَا بِحِجَارَةِ الْوَادِي وقدْ شَارَكَ رسُولُ اللَّهِ -صلى اللَّه عليه وسلم- مَعَ أَعْمَامِهِ فِي البِنَاءِ، ونَقْلِ الحِجَارَةِ، وكَانَ عُمُرُهُ -صلى اللَّه عليه وسلم- إِذْ ذَاكَ خَمْسًا وثَلَاثِينَ سَنَةً، وبلغوا موضع الحجر الأسود وما يرى الحجر أحد، فإذا هو وسط حجارتهم مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل، فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال آخرون: نحن نضعه. فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا: أول رجل يطلع من الفج (١)، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم. فقالوا: أتاكم الأمين. وكانوا يسمونه الأمين، ولم يجربوا عليه كذبة قط. فقالوا له، فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم (٢) فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو صلى الله عليه وسلم بيديه. لكنهم لما قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَالْخَشَبُ، اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ فلم يصلوا بركنين إلى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، وأنشؤوا الحِجْرَ (٣) مكان تتمة البنيان، وجعلوا بَابَ الكعبة مُرْتَفِعًا لَا يُصْعَدُ إِلَيْهِ إِلَّا بِسُلَّمٍ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، تَعَزُّزًا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدَعُونَهُ

---

[48] (١) قيل أنها بعثت صَدِيقَتَهَا نَفِيسَةَ بِنْتِ مُنَيَّةَ، فَذَهَبَتْ إِلَى النَّبِيِّ -صلى اللَّه عليه وسلم- وعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ خَدِيجَةَ فَرَضِيَ -صلى اللَّه عليه وسلم- بِذَلِكَ.

(٢) قول الجمهور: أن ولي خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في زواجها من رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- هو: عمُّها عمرو بن أسد. وذكر بعضهم: أن أباها خُوَيْلد كان قد هَلك قبْلَ حَرْبِ الفِجَار. وقد تطلق العرب على العم أباً، فيكون المراد بالأب في الروايتين عم خديجة، إذا ثبت أن أباها كان متوفى وقتذاك، والله أعلم.

يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ (٤).[49] وكانَ العربُ عَلَى أمور باقية من الحنيفية ملة إبراهيم ودين إسماعيل عليهما السلام. وكانوا على أمور من الفِطْرَةِ كنصرة المظلوم والشجاعة والكرم والضيافة، وكانوا أفصح الناس، واعْتَادُوا القَوْلَ السَّدِيدَ دون فَلْسَفَاتٍ فِكْرِيَّةٍ، وبِمَعْزِلٍ عَنْ أدْوَاءِ المَدَنِيَّةِ والتَّرَفِ. إلا أنه دخل فيهم الشرك بالله وعبادة الأصنام التي أحضرها عمرو بن لحي الخزاعي من الشام، وتبع ذلك عبادات شركية قولية وفعلية كالذبح للأصنام وغيرها، وظهرت فيهم العصبية القبلية، وشُرْبُ الخَمْرِ والقِمَارُ وتَعَاطِي الرِّبَا وأكل أموال الناس بالباطل وزِنَى البغايا والإماء، وقَتْلُ الأَوْلَادِ خَشْيَةَ الفَقْرِ، ووَأْدُ البَنَاتِ خشية العارِ، والطواف بالبيت عراة، وغير ذلك من الأمور

---

[49] (١) وفي رواية: أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ. ويسمى اليوم: باب السلام. والفج: الطريق الواسع.

(٢) البطن: الجماعة من الأقارب، والبطن دون القبيلة، والفخذ دون البطن.

(٣) وسُمِّيَ بذلك لأَنَّهُ حُجِرَ، أي اقْتُطِعَ مِنَ الكَعْبَةِ. و لا يَصِحُّ الطَّوَافُ إلا مِنْ ورائِهِ.

(٤) قالت عائشة - رضي الله عنها -: كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فقلت للنبي - صلى الله عليه وسلم -: ألا أدخل البيت؟، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيدي فأدخلني الحجر، فقال: إذا أردت دخول البيت، فصلي هاهنا، فإنما هو قطعة من البيت، فقلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن قومك لما بنوا الكعبة، قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَالْخَشَبُ، فاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، فأخرجوه من البيت. فقلت: فما شأن بابه مرتفعاً، لا يصعد إليه إلا بسلم؟، قال: " فعل ذلك قومك لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، فكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدَعُونَهُ يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ. فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟، فقال: " لولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية بِالشِّرْكِ بِالكُفْرِ لَفَعَلْتُ، فأخاف أن تنكر (تَنْفِرَ) قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي البَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّي عَلَى بِنَائِهِ، لأمرت بالبيت فهدم، ثم لبنيته على أساس إبراهيم - عليه السلام - وَأَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ (وفي رواية خَمْسَ أَذْرُعٍ) مِنَ الْحِجْرِ فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ. وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَبَابٌ خَلْفًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، ولأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ"، فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ. وقال لها: إِذَا أَرَدْتِ دُخُولَ الْبَيْتِ فَصَلِّي هَا هُنَا، صَلِّي فِي الحِجْرِ، فَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ البَيْتِ. قَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، مَا أُرَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَرَكَ اسْتِلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحِجْرَ، إِلاّ أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ. وَابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ الْحِجْرُ مِنَ الْبَيْتِ جَمِيعَ الْحِجْرِ وَإِنَّمَا أَرَادَ بَعْضَهُ عَلَى مَا خَبَّرَتْ عَائِشَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِجْرِ مِنَ الْبَيْتِ لَا جَمِيعَهُ. قَالَ يَزِيدُ: وَشَهِدْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حِينَ هَدَمَهُ، وَبَنَاهُ، وَأَدْخَلَ فِيهِ مِنَ الحِجْرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ حِجَارَةً، كَأَسْنِمَةِ الإِبِلِ مُتَلَاحِكَةً.

المنكرة. وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (١).[50] وقد كان نفر من قريش على مخالفة للمشركين في عبادة الأصنام، ففي تلك الفترة خَرَجَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ القرشي من مكة إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنْ الدِّينِ وَيَتَّبِعُهُ. فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ، فَقَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، فَقَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟، قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ. (١) فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ؟، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ، قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ - عليه السلام - خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ

---

[50] (١) يعني بقايا الموحّدين منهم، المستمسكين بالدين الحق. وكان في تلك الفترة أقليات يهودية مشتتة في الشام والعراق والحجاز وقد تحرفت تعاليم موسى عليه السلام، ودخل فيها آراء كتبها الأحبار ونسبوها إلى الدين، فجعلوا الله-سبحانه- إلهاً قومياً خاصاً باليهود وافتروا على أنبيائهم ما يشوه سمعتهم، وأحلوا التعامل مع غيرهم من الأميين بالربا والغش وحرموه بينهم، وأبوا دعوة الناس إلى دينهم لئلا يحظوا- في زعمهم- بشرف الانتماء إلى شعب الله المختار.

وفي بلاد الروم وحُكْم النصارى كان الربا والاحتكار هما أساسا النظام، وفرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستاءين من الحكم الروماني لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتمائم. وكان الامبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي، في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة. ويقرب من مستواهم المعيشي: الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات، وهذه الطبقات من الفقراء كانوا يحسون بسوء حالهم وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد. وكانت البوذية تنتشر في الصين، فكانت التماثيل الخزفية المزججة التي تمثل الخدم والذل والجمال تدفن مع الأموات في القبور، ثم تحولت هذه العادة إلى ذبح العبيد والخيول الحيَّة ودفنها مع الملوك والرؤساء لخدمتهم في عالم ما بعد الموت. وكانت تماثيل بوذا (٥٦٣ - (٤٨٣) ق. م) تنتشر في الهند أيضاً، وتعتقد بخلود الحياة المستمرة في دورة لانهائية من تناسخ الأرواح. وفي الهند سادت البرهمية بعد أن زاحمت الديانة البوذية، والبرهمية تقوم على نظام الطبقات، وزعامة البراهمة، وتقديس البقرة، وتناسخ الأرواح، وعبادات وحشية مثل التضحية بأفراد من الإنسان، وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها. وكان اليابانيون قبل البوذية يعبدون إلهاً يدعونه كامي، ويتمثل في عبادة ظواهر من الطبيعة كالشمس أو الأجداد الأسطوريين الذين هم ظواهر من الطبيعة حسب معتقدهم وتعرف ديانتهم باسم (الشنتو) أي الطريق إلى الآلهة، وعند ظهور الإسلام كانت البوذية قد انتصرت على الشنتو.

يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ. وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَ مَئُونَتَهَا، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا، وقد لَقِيَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ (٢) قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفْرَةٌ (٣)، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وقدمها إلى زيد، فَأَبَى زَيْدٌ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زيد (٤) لقريش: "إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ".

وَكَانَ زَيْدٌ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: "الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ؟! " إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ. وإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ، وله في الجنة درجتان.[51] وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لا يقدس الأصنام ويبغض ذلك، وكان يَقُولُ لِخَدِيجَةَ: "أَيْ خَدِيجَةُ، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ، وَاللَّهِ لَا أَعْبُدُ العزى أَبَدًا". قَالَ: فتَقُولُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: خَلِّ اللَّاتَ، خَلِّ العُزَّى. ولَمْ يَشْرَبْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- خَمْرًا، وَلَا قَرُبَ مِنْ فَاحِشَةٍ. وَلَمْ يَكُنْ يطُوفُ عُرْيَانًا، وكانَ يَقِفُ مَعَ النَّاسِ بعَرفَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، ولا يَصْنَعُ ما تَصْنَعُ قُرَيْشٌ مِنْ عَدَمِ وُقُوفِهَا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ، ووُقُوفُهَا بِالمُزْدَلِفَةِ. وكَانَ يَسْمَعُ صَوْتَ هَاتِفٍ به مِنَ المَلائِكَةِ، ويرى ضَوْءاً من نُورِ المَلائِكَةِ. وَيَسْمعُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيْه قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ. ثُمَّ صارَ يَهْجرُ مَكَّةَ كُلَّ عَامٍ لِيَقْضِيَ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي غَارِ حِرَاءٍ -وهو مطل على الكعبة-، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَنَّثُ بِهِ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَظَلَّ النَّبِيُّ -صلى اللَّه عليه وسلم- عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ إِلَى أَنْ جَاءَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي إِحْدَى خَلَوَاتِه تِلْكَ. قال عليه الصلاة والسلام:" إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، واصْطفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، واصْطفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصْطفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ".

---

[51] ١) وذكر أهل السير أنّ أَحْبَارُ اليَهُودِ كانُوا يَذْكُرُونَ صِفَةَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا طَلَعَ الْكَوْكَبُ الْأَحْمَرُ أَخْبَرُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَاسْمُهُ أَحْمَدُ، يُخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ، وَمُهَاجِرُهُ إِلَى يَثْرِبَ. وقَالَ أَحَدُهُمْ لِزَيْدِ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ لَمَّا رحل إلى الشام يبحث عن الدين الحق: قَدْ خَرَجَ فِي بَلَدِكَ نَبِيٌّ أَوْ هُوَ خَارِجٌ، قَدْ خَرَجَ نَجْمُهُ، فَارْجِعْ فَصَدِّقْهُ، وَاتَّبِعْهُ.

(٢) واد في طريق التنعيم إلى مكة.

(٣) (سفرة) طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يحمل في جلد مستدير ولذلك أصبح يطلق لفظ سفرة على ما يوضع فيه الطعام أو عليه.

(٤) وجه كلامه لقريش الذين قدموا السفرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ذكر بعثته عليه الصلاة والسلام: وكَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - مِنْ الْوَحْيِ (١)، الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُو فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ (٢)، فَيَتَحَنَّثُ (٣) فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ (٤) فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ (٥) وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، وعُمُرُه آنَذاك أَرْبعين سَنَةً، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ (٦) فَقَالَ: إقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي (٧) حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: إقْرَأْ، قُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي

فَقَالَ: إقْرَأْ، قُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي

فَقَالَ: {إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - يَرْجُفُ فُؤَادُه، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ - رضي الله عنها - فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي (٨) "، فَزَمَّلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. (٩) قَالَ لِخَدِيجَةَ: "أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي؟، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"، فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ (١٠) وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ (١١) وَتَقْرِي (١٢) الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (١٣)، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ [52] فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ

---

[52] (١) ثم بعد البعثة تنوعت صور الوحي إما بالرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، أو بمَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، أو يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلاً، فيُخَاطِبُهُ حتَّى يَعِي عَنْهُ ما يَقُولُ لهُ، أو يأْتِيهِ الوحي في مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وكَانَ أَشَدُّهُ عَلَيْهِ، فيتلبَّسُ بِهِ المَلَكُ حتَّى إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا في اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، وحتَّى إِنَّ نَاقَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَى الأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، ولَقَدْ جَاءَهُ -صلى الله عليه وسلم- الوَحْيُ كَذَلِكَ، وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ -رضي الله عنه- فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَرُضُّهَا. وكَانَ رسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَخَافُ مِنْ نِسْيَانِ الوَحْيِ، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ. . فأَنْزَلَ اللهُ تعالَى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} أي: جَمْعَهُ في صَدْرِكَ وتَقْرَأَهُ. . {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}. .، أي: فَاسْتَمِعْ لَهُ وأَنْصِتْ، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}، بأَنْ تَقْرَأَهُ.

(٢) وفيه كان يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ الكعبةِ، فيجتَمِعُ لِمَنْ يَخْلُو فيه ثلاثُ عِبَادَاتٍ: الخلْوة، والتَّعبُّدُ، والنَّظَرُ إلى البيتِ.

أَخِي مَاذَا تَرَى؟، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ (١) الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى (٢) يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: " أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ "، فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ. وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً، ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوف إلى العود، فلما حصل له ذلك، وأخذ يرتقب مجيء الوحي؛ أكرمه الله بالوحي مرة ثانية.[53] وأمر الله

---

(٣) أَي يفعل فعلا يطْرَح عَنهُ الْحِنْث أَي الْإِثْم. فإذا قضى شهره ذاك (رمضان) انصرف إلى الكعبة فطاف بها سبعاً ثم عاد إلى بيته.

(٤) في بعض مروايات السير أن خديجة رضي الله عنها خرجت معه إلى الغار في السنة التي بعث فيها: (حَتَّى إِذَا كَانَ الشَّهْرُ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِيهِ مَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَتِهِ، مِنْ السَّنَةِ الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا، وَذَلِكَ الشَّهْرُ شَهْرُ رَمَضَانَ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى حِرَاءٍ، كَمَا كَانَ يَخْرُجُ لِجِوَارِهِ وَمَعَهُ أَهْلُهُ).

(٥) أَيْ: الْأَمْرِ الْحَقّ، وَسُمِّيَ حَقًّا لِأَنَّهُ وَحْي مِنْ الله تَعَالَى. وكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ رَمَضَانَ، لقَوْله تَعَالَى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} ولأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ؟ فَقَالَ: "فِيهِ وُلِدْتُ، وَفِيهِ أُنْزِلَ عَلَيَّ".

(٦) جاءت رواية مرسلة أن ذلك كان في منامه: "جَاءَنِي جِبْرِيلُ، وَأَنَا نَائِمٌ، بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ: اقْرَأْ .. ". (٧) أَيْ: ضَمَّنِي وَعَصَرَنِي، وَالْغَطُّ: حَبْسُ النَّفَسِ.

(٨) غَطُّونِي بِالثِّيَابِ وَلَفُّونِي بِهَا.

(٩) الخوف.

(١٠) الكَلُّ: الثقيل من كل شيء في المؤونة والجسم. واليتيم، ومن لَا يقدر على الْعَمَل، وَمَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: {أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ}.

(١١) تُكسب الفقير مالاً.

(١٢) تكرم.

(١٣) تعين الناس في حاجاتهم ومصائبهم.

[53] (١) النَّامُوسُ فِي اللُّغَةِ: صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ، وأَرَادَ بِهِ جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ، لأَنَّ اللَّه تَعَالَى خصَّهُ بالوَحْيِ والغَيْبِ اللَّذَيْنِ لا يَطَّلِعُ عليهمَا غيرُه. (٢) قال ابن حجر: وَقَوْلُهُ عَلَى مُوسَى وَلَمْ يَقُلْ عَلَى عِيسَى مَعَ كَوْنِهِ نَصْرَانِيًّا لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ .. أَوْ لِأَنَّ مُوسَى بُعِثَ بِالنِّقْمَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ .. أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا لِلرِّسَالَةِ لِأَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَى مُوسَى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِخِلَافِ عِيسَى فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ ... نَعَمْ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ خَدِيجَةَ أَوَّلًا أَتَتِ ابْنَ عَمِّهَا وَرَقَةَ فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: "لَئِنْ كُنْتِ صَدَقْتِنِي إِنَّهُ لَيَأْتِيهِ نَامُوسُ عِيسَى الَّذِي لَا يُعَلِّمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءَهُمْ". فَعَلَى هَذَا فَكَانَ وَرَقَةُ يَقُولُ تَارَةً نَامُوسُ عِيسَى وَتَارَةً نَامُوسُ مُوسَى، فَعِنْدَ إِخْبَارِ خَدِيجَةَ لَهُ بِالْقِصَّةِ قَالَ لَهَا نَامُوسُ عِيسَى بِحَسَبِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَعِنْدَ إِخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ قَالَ لَهُ نَامُوسُ مُوسَى لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا، وَكُلٌّ صَحِيحٌ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

نبيه أن يدعو الناس كافة -ومنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى- إلى الهدى فقال جل وعلا: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا). وأخبر الله نبيه أنّ من النصارى قوم هم أقرب مودة للذين آمنوا لأن منهم علماء وعباداً متواضعون غير متكبرين كالنجاشي وأصحابه- قلوبهم لَيِّنَة، يبكون خشوعًا عند سماع ما أُنْزِلَ من القرآن لَمَّا عرفوا أنه من الحق؛ لمعرفتهم بما جاء به عيسى -عليه السلام-، يقولون: يا ربنا آمنا بما أنزلت على رسلك محمد وعيسى -عليهما السلام-، فاكتبنا يا ربنا مع أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- التي تكون حجة على الناس يوم القيامة.

وأنّ مِنْ أَحْبَارِ أهل الكتاب كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلام وأَسَد بْنِ عُبَيْد وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْية وأَسِيد بْنِ سعْية وَغَيْرِهِمْ -رضي الله عنهم- (لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ).

وبيّن الله جل وعلا في كتابه أنّ كثيراً من الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى هم من المستكبرين على التحريف والكفر والكذب على الله وعلى الرسل وعلى الناس، وأكل أموال الناس

بالباطل (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ). وقال عليه الصلاة والسلام: مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ (١)؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).[54]

[54] (١) يعني: (القرآن)، وهو المعجزة الباقية، لإثباته عجز البشر عن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه، في ألفاظه ومعانيه.

وهذه الخصوصيّة جعلت القرآن أعظم الأدلّة على صدق النّبيّ صلى الله عليه وسلم في رسالته، والحجّة الباقية على النّاس إلى أن تقوم السّاعة. وقد قال الله عز وجلّ: (وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

فقد كان الله عزّ وجلّ يجري على أيدي رسله وأنبيائه ويسوق لهم من البراهين ما يدلّ على صدقهم أنّهم مبعوثون من عند الله، ممّا لا يقع مثله في العادة لغيرهم من البشر، وهو معجزاتهم، كعصا موسى، وإحياء عيسى للموتى، والإسراء والمعراج لنبيّنا صلى الله عليه وسلم، لكنّ تلك المعجزات كانت أدلّة لمن شهدها، ونصيب من لم يشهدها إنّما هو الخبر الواجب التّصديق، بخلاف القرآن، فإنّه المعجزة الباقية، الّتي لم تزل حيّة بين النّاس، لم يتبدّل ولم يتغيّر، ولن يكون ذلك في يوم من الدّهر.

وتحدّى الله عز وجلّ أرباب الفصاحة والبيان، بل جميع بني الإنسان، بل حتّى لو ظاهرهم عليه الجانّ، ولم يزل يتحدّى: أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل بعضه، فما فعلوا، ولن يفعلوا.

كما قال جلّ وعلا: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)، وقال سبحانه: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ).

تحدّاهم بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله، على مثاله في النّظم والتّأليف والإحكام، وفي المعاني والدّلالات والأحكام، فعجزوا عن معارضته في كلّ ذلك، عن مماثلته بعباراتهم، أو مجاراته ببيانهم، أو مسابقته بقوانينهم وشرائعهم.

ذلك، لأنّه كلام ربّ العالمين تبارك وتعالى، وكلامه سبحانه من صفاته، وهو الّذي لا مثل له في ذاته ولا في صفاته، كما قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)، فكما لا مثل له سبحانه في سمعه، ولا مثل له في بصره، ولا مثل له في سائر صفاته، فكذلك لا مثل له في كلامه.

فهذه- والله- هي العلّة الّتي فارق بها كلامه سائر الكلام، وعجز لأجله الخلق عن معارضته، فليس كشعرهم ولا كنثرهم، ولا كقوانينهم وشرائعهم، مع أن حروفه من حروف كلامهم، ومفرداته من مفردات قاموسهم، فلم يجدوا له في ألسنتهم مع الفصاحة، ولا في عقولهم مع الرّجاحة، ما يمكنهم به أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فقد أبت قوانين الشّعر وأساليب النّثر ولوائح الأنظمة أن يقايس بها ويجري عليها.

(وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ).

ويعسر أن تحدّ وجوه الإعجاز في القرآن العظيم، فكلّ شيء منه لا نظير له، فهو باهر في ألفاظه وأسلوبه، في تأليفه ونظمه، في بيانه وبلاغته، في تشريعه وحكمه الّتي حيّرت الألباب، في أنبائه وأخباره، في تاريخه وحفظه، في علومه الّتي لا تنقطع ولا تقف عند غاية. وقد أجمل وصفه وأحسنه من قال: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذّكر الحكيم، وهو الصّراط المستقيم، هو الّذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، فإنّه تتلوه ألسنة لم تفتق بالعربيّة، بل ربّما تعسّر عليها قراءة سواه من الكلام العربيّ، أمّا هو فتنطلق به الألسنة مع عجمتها، فهو مُيَسَّر لِلذِّكْرِ، ولا يشبع منه العلماء، ولا تذهب لذّته بكثرة التكرار، بل هو في كل مرّة جديد، مهما تكرّرت تلاوته، ولا تنقضي عجائبه، هو الّذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتّى قالوا: "إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ"، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

ومن الإعجاز القرآني:

الإعجاز اللّغويّ: وهو أبرز ما تحدّى به القرآن العرب في حياة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو التّحدّي في أبرز خصائصهم، فمع أنّه بلسانهم، وأتى بما لا يخرج عن وجوه فصاحتهم وأساليب بيانهم، وهم يومئذ في الذّروة في ذلك نثراً ونظماً.

ومنه الإعجاز الإخباريّ: فيما تضمّنه القرآن من الأنباء، ومنها:

١ - الإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله عزّ وجلّ وأسمائه وصفاته، والملائكة، وصفة الجنّة وصفة النّار.

٢ - الإخبار عن الأمور السّابقة، كالخبر عن بدء الخلق، وعن الأمم السّالفة.

٣ - الإخبار عمّا يكون في مستقبل الزّمان، كالإخبار عن الشّيء قبل وقوعه في عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم، أو عمّا سيكون بعد ذلك.

٤ - الإخبار عمّا تكنّه النّفوس وتخفيه الضّمائر، ممّا لا يمكن أن يعلمه إلّا الله، ولا يصل إلى علم النّبيّ صلى الله عليه وسلم إلّا بوحي الله.

ومنه الإعجاز التّشريعيّ: فيما أودع الله في كتابه من القوانين الّتي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها لكلّ زمان أنّها من عند الله، وأن لا طاقة للخلق أن يوجدوا لها نظيراً، مهما بلغت العقول. ذلك أنّ التّشريع مبنيّ على تحقيق مصالح العباد في الدّارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله؛ لقصور العلم، والنّقص بالطّبع، لكنّ الله سبحانه هو الخالق، فهو أعلم بخلقه وحاجتهم وما يكون به صلاحهم وفسادهم، أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

ومنه الإعجاز العلميّ: وذلك فيما بيّن الله في هذا الكتاب ودلّ عليه من الآيات في السّماوات والأرض والأنفس، ممّا لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ثمّ يبقى النّاس يكتشفون أسراره في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصريحاً وتلويحاً، كان يتلوه على النّاس نبيّ أمّيّ، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنّة، لينبئ العالم أنّه رسول ربّ العالمين، وأنّ هذا القرآن من علم الله الّذي أحاط بكلّ شيء. وهو أكثر ما يُدخل الناس في الإسلام.

وسمّى الله تعالى القرآن العظيم بأسماء، ونعته بنعوت، منها: الكتاب، وكلام الله، والفرقان، والذّكر.

أما تسمية القرآن بالمصحف، فهي تسمية ظهرت بعد أن جُمع القرآن مكتوباً بين الدّفّتين. وجاءت من الصّحف الّتي جمع بعضها إلى بعض فأصبحت على هيئة الكتاب.

وأمّا ما ذكر الله عز وجلّ من نعوت وأوصاف كلامه المنزل على محمّد صلى الله عليه وسلم فكثير، فهو: هدى، وشفاء، ورحمة، وموعظة، وذكرى، وبشرى، ونذير، وبيان، وروح، ونور، ومبين، ومفصّل، ومبارك، وبصائر، وكريم، وعليّ، وحكيم، وعزيز، ومجيد، وقيّم، وأحسن الحديث، وغير ذلك من الصّفات الدّالّة على عظمته ومنزلته ورفيع قدره.

والصحابة الذين كان يتنزل الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعلمهم ومشاهدتهم، كان لهم الأسوة الحسنة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالإسراع إلى حفظ القرآن واستظهار آياته، وقد ساعدهم نزول القرآن منجّما على الحفظ. وعلموا ما كان من وقوع النسخ في القرآن، قال تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها} وقال: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعلمون} وقال: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}. وهو ثلاثة أنواع: أحدها: ما نسخ حكمه وتلاوته، كعشر رضعات. والثاني: ما نسخت تلاوته دون حكمه، كخمس رضعات، والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما. والثالث: ما نسخ حكمه، وبقيت تلاوته، وهذا هو الأكثر، ومنه قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم. . الآية} والله أعلم.

وعلم قراء الصحابة أوجه القراءات التي نزل بها القرآن وقال فيها عليه الصلاة والسلام: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، على أي حرف قرأتم فقد أصبتم".

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات (لهجات) العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات (لهجات) العرب في التعبير عن معنًى من المعاني يأتي القرآن مُنَزَّلًا بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر. نحو: أَقْبِل وتعال، وهلم، وعجِّل، وأسرع، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد، وإليه ذهب أكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبي بكرة: "أن جبريل قال: يا محمد، اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال: على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة، أو آية رحمة بآية عذاب، كقولك: هلم وتعالَ وأَقْبِل واذهب وأسرع وعجِّل. وقد لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل فقال: يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط، قال: فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف.

ومن حِكَم نزول القرآن على سبعة أحرف:

١ - تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان.

٢ - إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري، وأنه لا يمكن مضاهاته بأي لسان.

٣ - إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه -فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائمًا لكل عصر- ولذا احتج الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة.

وقد قتل يوم اليمامة سبعون من القرّاء، وقتل في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ببئر معونة مثل هذا العدد من القرّاء الذين عرضوه على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، واتّصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير.

والاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأمة، يقول ابن الجوزي شيخ القرّاء في عصره: إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف- الكتب- أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة. وقد ورد في صفة هذه الأمة: أناجيلهم صدورهم، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتاب، ولا يقرءونه كلّه إلا نظراً لا عن ظهر قلب.

وقد أرسل أبو بكر - رضي الله عنه - إلى زيد بن ثابت - رضي الله عنه - بعد مقتل أهل اليمامة وعنده عمر - رضي الله عنه - فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟، فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر - قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، فقلت لهما: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟، فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب (وهو جريد من النخل) وصدور الرجال، ففقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بها، وهي قوله: {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه} فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري - رضي الله عنه - " الذي جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شهادته شهادة رجلين. وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما.

ثم كان في عهد عثمان رضي الله عنه تدوين المصحف واعتماد النسخة المدونة وإحراق ما سواها من النسخ.

فقد قدم حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق - فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتّاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

واستشار عثمان واستفتى الصحابة، وقال: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً؟

قلنا: فما ترى؟

قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف.

قلنا: فنعم ما رأيت.

قال- يعني علي رضي الله عنه-: فقيل: أي الناس أفصح؟ وأي الناس أقرأ؟

قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت. فقال: ليكتب أحدهما، ويملي الآخر. ففعلا، وجمع الناس على مصحف قال علي: والله لو وُلِّيتُ لفعلتُ مثل الذي فعل.

وقد عهد عثمان اعتماد النسخة الموحدة من المصحف إلى أربعة من الصحابة هم: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال لهم: "اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أُنزل بلسانهم". ففعلوا، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. منعاً لاختلاف القراءات والزيادة والنقص في كتّاب الله تعالى.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملأ منا جميعاً. أما عن ترتيب الآيات والسور فإنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ في صلاته في الليل بسورة النساء قبل آل عمران، وفيه حجة لمن يقول إن ترتيب السور اجتهاد وليس بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو قول جمهور العلماء، واختاره القاضي الباقلاني قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس. قال ابن بطال: لا نعلم أحداً قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة، والحج قبل الكهف مثلاً، وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوساً، فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها، وتذليلاً للسانه في سردها، فمنع السلف ذلك في القرآن، فهو حرام فيه. أما عن سبب نزول بعض الآيات والسور قبل بعض، فقد أشارت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - إلى شيء من الحكمة الإلهية في أسبقية التنزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك، أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: " ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندعها " وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف. أما عن ترتيب الآيات في كل سورة، فلا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها - صلى الله عليه وسلم. وكان حفظ القرآن وتدوينه في مصحف واحد بالرسم العثماني مما اتفق عليه كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام: أُعطِيتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْنِي الصَّلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَبِيَعِهِمْ (١)، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ، وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ، قِيلَ لِي: سَلْ، فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ، فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي (٢) وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ لَقِيَ اللهَ - عز وجل - لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ، أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ". وكان جميل الوجه حتى وصفوه بالبدر، وعرقه من أطيب الطيب، تنام عيناه ولا ينام قلبه، ويأخذ الهدية ولا يأكل الصدقة، ويرى المؤمومين في الصلاة خلفه، ويواصل الصيام يبيت يطعمه ربه ويسقيه، عرفه أهل الكتاب في كتبهم باسمه ووصفه ومخرجه ومبعثه، وحاجّهم مراراً ونُكسوا عن مباهلته، وصارع ركانة فصرعه، وأمر جبل أحد أن يثبت لما اهتز، وخنق إبليس حتى أحس ببرد لعابه بين إصبعيه، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به. وشهد الله له أنه على خلق عظيم، وكان خلقه القرآن، وَمَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا لَعَنَ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ لَعْنَةٍ تُذْكَرُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ - عز وجل - فَيَنْتَقِمَ لِلهِ، وَمَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَسَابَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَقْدَامِ،[55] وَخَصَفَ نَعْلَهُ بِيَدِهِ وَرَقَّعَ ثَوْبَهُ بِيَدِهِ، وَرَقَّعَ دَلْوَهُ وَحَلَبَ شَاتَهُ وَفَلَّى ثَوْبَهُ وَخَدَمَ أَهْلَهُ وَنَفْسَهُ، وَحَمَلَ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، وَرَبَطَ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ تَارَةً وَشَبِعَ تَارَةً، وَأَضَافَ وَأُضِيفَ، وَاحْتَجَمَ فِي وَسَطِ رَأْسِهِ وَعَلَى ظَهْرِ قَدَمِهِ، وَاحْتَجَمَ فِي الْأَخْدَعَيْنِ (١) وَالْكَاهِلِ، وَتَدَاوَى وَكَوَى وَلَمْ يَكْتَوِ، وَرَقَى وَلَمْ يَسْتَرْقِ، وَحَمَى الْمَرِيضَ مِمَّا يُؤْذِيهِ.

---

[55] (١) (البِيعَة): مَعْبَد النَّصَارَى.

(٢) وفي الحديث: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ.

وجعل الله بعثته رحمة للعالمين، ومَا خَاطَبَهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا بِالْكِنَايَةِ الَّتِي هِيَ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ الَّتِي لَا أَجَلَّ مِنْهَا نَخْرًا، ونهى الناس أَنْ يُخَاطِبُوه بِاسْمِهِ، وندبهم إلى تكنيته، ودافع الله عنه فبرأه في كتابه من كل ما رماه به الكفار من السحر والكهانة والجنون، وزكاه بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمر الناس بالتأسي به، وفرض طاعته، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجعل أزواجه أمهات للمؤمنين لا ينكحهن أحد بعده، وقرن الله اسمه باسمه تعالى عند ذكر طاعته وأحكامه، وأقسم الله بحياته، وأفرده بسيادة ولد آدم في القيامة، وحفظه من التدين بدين الجاهلية، ومن تعريهم، ومن لهوهم، وحرست السماء من استراق السمع لثبوت بعثته وعلو دعوته (٢)، وأسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، ورأى من آيات ربه الكبرى، وما زاغ بصره وما طغى، وعاد متواضعاً حريصاً على أمته مشفقاً عليها بالمؤمنين رؤوف رحيم. وانشق الْقَمَرُ بِدُعَائِه فِلْقَتَيْنِ، وصبر على أذى المشركين وعنادهم بعدما رأوا الآيات والمعجزات، واستمع له نفر من الجن فآمنوا به، وعرض نفسه على القبائل ليبلغ دين الله، وأخبر بالمعجزات الغيبية وانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، ولما تآمر الكفار على قتله حجبه الله عنهم فلم يروه وأنجاه الله، وهاجر إلى المدينة، فبوركت غنم مر بها في طريقه، ونصره الله في الغار وحماه من المشركين وأنزل عليه سكينته وأيده بجنود من عنده، وصد عنه لحاق سراقة بن مالك، وصبر على مشقة الدعوة وجاهد المشركين، وشكت إليه بعض البهائم فنصرها وأوصى بها أصحابها، وتسابقت إليه الإبل يوم النحر أيها ينحر أولاً بيده الشريفة، وسلم عليه الحجر والشجر قبيل بعثته، وحن إليه الجذع الذي كان يستند إليه في مسجده قبل أن يصنعوا له المنبر، وتبارك الطعام والماء بدعائه و بيده أو نفثه أو مجِّه، وأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً (مشوية) سَمَّتْهَا فأخبرته الشاة أنها مسمومة، وتكلم الذئب شاهداً بنبوته، وسبح الحصى في يده، وقَدِمَ الشَّجَرُ إِلَيْهِ إذ دعاه، ونبع الماء من بين أصابعه، وشفى الله على يده جراحاً وأعيناً ومرضى، وأخبر بأشراط الساعة وما يكون إلى قيامها. وما ترك خيراً إلا دل أمته عليه، ولا شرّاً إلا حذرها منه، وجعلها الله خير الأمم، معصومة لا تجتمع على ضلالة، ولن تضل ما تمسكت بسنته وهديه، وشريعتها ناسخة لما قبلها، أمة شاهدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ الرسل، وصفوفها كصفوف الملائكة، ونبيها هو أول شافع ومشفَّع، وصاحب الشفاعة العظمى، وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها، وأكثر الأنبياء أتباعاً، أوتي جوامع الكلم، وأُنزل عليه القرآن معجزة خالدة إلى

قيام الساعة محفوظاً من التحريف والتبديل، تحدى الناس أن يأتوا بسورة من مثله، وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود.وبَدَأ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يدْعُو إِلَى الإِسْلَامِ سِرًّا لِئَلَّا يُفَاجِئَ أَهْلَ مَكَّةَ بِما يُهَيِّجُهُمْ عليْه، فَجَعَلَ يَعْرِض الإِسْلامَ عَلَى أَلْصَقِ الناسِ بِهِ مِنْ أَهْلِ بيْتِهِ، وأَصْدِقَائِه. وكان أَوَّلُ مَنْ آمنَ به عَلَى الإِطْلَاقِ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثُمَّ أَسْلَمَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ -رضي الله عنه- ابْنُ عَمِّ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-، ولَمْ يَبْلُغ الحُلُمَ حِينَ أَسْلَمَ، وكَانَ ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ، ثمَّ أَسلَمَ مَوْلاهُ زيدُ بنُ حَارِثَةَ الكَلْبِيّ -رضي الله عنه-، وهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ المَوَالِي وسَارَعَ إِلَى الإِسْلَامِ بَنَاتُ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ خَارِجِ بيْتِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ. وكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مُؤَلَّفاً لِقَوْمِهِ، مُحَبَّبًا سَهْلًا، وكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا وَبِمَا، كَانَ فِيهَا مِنْ خيرٍ وشرٍّ، وكَانَ رَجُلًا تَاجِرًا، ذَا خُلُقٍ ومَعْرُوفٍ، وكَانَ رِجَالُ قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ، ويَأْلَفونَهُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الأَمْرِ، لِعِلْمِهِ، وتِجَارَتِه، وحُسْنِ مُجَالَسَتِه، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى اللهِ تعَالَى، وَإِلَى الإِسْلَامِ مَنْ وثِقَ به مِنْ قَوْمِهِ، مِمَّنْ يَغْشَاهُ، ويَجْلِسُ إِلَيْه. فأَسْلَمَ بِدُعَائِهِ -رضي الله عنه- عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، وسَعْدُ بنُ أَبِي وقَّاصٍ، وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ. فكَانَ هؤُلَاءِ النَّفَرُ الذينَ سَبَقُوا النَّاسَ هُمُ الرَّعِيلُ الأَوَّلُ، وطَلِيعَةُ الإِسْلَامِ. ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِرِسَالَةِ الإِسْلَامِ، وسَارَعَ الفُقَرَاءُ إِلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ. وكَانَتْ الصَّلَاةُ المَفْرُوضَةُ قَبْلَ الإِسْرَاءِ ثِنْتَيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الفَجْرِ، وقَبْلَ الغُرُوبِ فِي وَقْتِ العَصْرِ، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}، وقِيامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وعَلَى أُمَّتِهِ حَوْلًا، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الأُمَّةِ وُجُوبُه، ثمَّ بعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ. فكانُوا إِذَا أَرادُوا الصَّلاةَ خَرَجُوا إِلَى الشِّعَابِ، فَاسْتَخْفَوا فِيهَا بِصَلاتِهِمْ عَنْ أَنْظَارِ قُرَيْشٍ.وبيْنَمَا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ -رضي الله عنه- فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكَّةَ، إِذَا بِجَمَاعَةٍ مِنَ المُشْرِكِينَ يَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ، وهُمْ يُصَلُّونَ، فاسْتَنْكَرُوا عَمَلَهُمْ، وعَابُوا عَلَيْهِمْ ما يَصْنَعُونَ، فَلَمْ يَتْرُكْهُمُ المُشْرِكُونَ حتَّى قَاتَلُوهُمْ، واضطر المُسْلِمُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَضَرَبَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ -رضي الله عنه- أَحَدَ المُشْرِكِينَ بِلَحْيِ بَعِيرٍ فَشَجَّهُ، فكَانَ هَذَا أَوَّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ فِي الإِسْلَامِ. ودَخَلَ رسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وأَصْحَابُهُ دَارَ الأَرْقَمِ بنِ أَبِي الأَرْقَمِ المَخْزُومِيّ عَلَى الصَّفَا، وكَانَتْ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَعْيُنِ المُشْرِكِينَ ومَجَالِسِهِمْ، فاتَّخَذَهَا مَرْكَزًا لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تعَالَى. واستمرَّتْ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ، والدَّعْوَةُ لَمْ تَزَلْ سِرِّيَّةً فَرْدِيَّةً، وخِلَالَ هَذِهِ الفَتْرَةِ تَكَوَّنَتْ

جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَقُومُ عَلَى الأُخُوَّةِ والتَّعَاوُنِ. ثم أُمِرَ بالجَهْرِ بالدَّعْوَةِ لما نزل قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}. وقولُهُ تَعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}. فَصَعِدَ -صلى الله عليه وسلم- جَبَلَ الصَّفَا فَقَالَ: "يَا صَبَاحَاهُ"، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟، قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ "، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: "فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟، فَنَزَلَتْ {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}. ودَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قُرَيْشًا، فَعَمَّ وخَصَّ، فَقَالَ: " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا". وَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ، وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ، والجُوعِ، والعَطَشِ، وبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ. وكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِمَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- فآذوه وضربوه. وأَنْفَقَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رضي الله عنه- جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ مَالِهِ فِي شِرَاءِ العَبِيدِ، وعِتْقِهِمْ لِلَّهِ. وحَمَى اللَّهُ رَسُولَهُ -صلى الله عليه وسلم- بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا مُعَظَّمًا فِي قُرَيْشٍ، مُطَاعًا فِي أَهْلِهِ، وأَهْلُ مَكَّةَ لَا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الأَذَى. وشَكَى المستضعفون من الصحابة إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقَالوا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟. فَقَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فيجعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فيوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فيشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، ومَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، ويُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، ومَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى

حَضْرَمَوتٍ لا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ" (١). وكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ إِذَا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- هَمَزَهُ ولَمَزَهُ، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ سُورَةَ الهُمَزَةِ. أَمَّا أَخُوهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ فَجَاءَ يَوْمًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بِعَظْمٍ بَالٍ، فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ! أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرِمَ، ثُمَّ فَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَهُ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَعْدَمَا تَكُونَانِ هَكَذَا، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ. (١) فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ..) الآيات. وكَانَ الوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ يَقُولُ: أَيُنْزَلُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وأُتْرَكُ وأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وسَيِّدُهَا؟ ويُتْرَكُ أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، فَنَحْنُ عَظِيمَا القَرْيَتَيْنِ، فنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ). وقَالَ العَاصُ بنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ: دَعُوه، فإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ أَبْتَرُ لا عَقِبَ لَه، لَوْ قَدْ مَاتَ لانْقَطَعَ ذِكْرُه واسْتَرَحْتُمْ مِنْهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}. وقَالَ أَبُو جَهْلٍ -لَعَنَهُ اللَّهُ- يَوْمًا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، يَزْعُمُ أَنَّهَا شَجَرَةٌ فِي النَّارِ يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، والنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، إِنَّمَا الزَّقُّومُ التَّمْرُ والزُّبْدُ، هَاتُوا تَمْرًا وزُبْدًا وتَزَقَّمُوا، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}.وقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-: قَدْ نَعْلَمُ يا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، ولا نُكَذِّبُكَ، ولَكِنْ نُكَذِّبُ الذي جِئْتَ بِهِ، فأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}. وجَاءَ رُكَانَةُ بْنُ عَبْدِ يَزِيدَ يُصَارِعُ الرَّسُولَ -صلى الله عليه وسلم-، فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ مَرَّةٍ عَلَى مِائَةٍ مِنَ الغَنَمِ، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ، قَالَ: يا مُحَمَّدُ ما وَضَعَ ظَهْرِي عَلَى الأَرْضِ أَحَدٌ قَبْلَكَ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْكَ، وأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَامَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، ورَدَّ عَلَيْهِ غَنَمَهُ. وكَانَ أَبُو لَهَبٍ يَتْبَعُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي الأَسْوَاقِ، والمَجَامِعِ، ومَوَاسِمِ الحَجِّ، ويُكَذِّبُهُ. وكان بعضهم ينعتونه بـ (مُذَمَّم)، فكان عليه الصلاة والسلام يقول: "أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ ولَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا، ويَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأَنَا مُحَمَّدٌ". وكَانَ عُتْبَةُ بن رَبِيعَةَ سَيِّدًا مُطَاعًا فِي قَوْمِهِ، وكَانَ قَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِه، فَقَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ

يَقْبَلُ بَعْضَهَا، فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ، ويَكُفَّ عَنَّا؟ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ فِي العَشِيرَةِ، والمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ ودِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا، قَالَ: قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ"، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الذي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ، لا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ، وبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَوْلِهِ ورَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ رَسُول اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟

"، قال: نَعَمْ، قَالَ: "فَاسْتَمِعْ مِنِّي"، قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَال رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} .. الآيات، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انتهى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ، ثُمَّ قَالَ -صلى الله عليه وسلم: "قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ! ". فَرَجَعَ عُتْبَةُ عَلَى قُرَيْشٍ وقال لهم: خَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ، فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الذي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ. وَكَانَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ يَسْتَشْعِرُونَ حَلَاوَةَ القُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ، ولَكِنَّهُمْ يُكَابِرُونَ. قَالَ الوَلِيدُ بنِ المُغِيرَةِ: ومَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ ما فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، ولا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ، وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، ولا بِأَشْعَارِ الجِنِّ، واللَّهِ مَا يُشْبِهُ الذي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، ووَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الذي يَقُولُ حَلَاوَةً، وإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وإِنَّهُ لَيَعْلُو ومَا يُعْلَى، وإِنَّهُ لَيَحْطِمُ ما تَحْتَهُ، فَقَالَ له أبو جهل: لا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فيه. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ. وقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا شَيْئًا مِمَّا عَرَضْنَاهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ

لَيسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَضيَقَ بَلَدًا، ولَا أَقَلَّ مَاءً، وَلَا أَشَدَّ عَيْشًا مِنَّا، فَسَلْ لَنَا رَبَّكَ الذي بَعَثَكَ بِمَا بعثَكَ بِهِ، فَلْيُسَيِّرْ عَنَّا هَذِهِ الجِبَالَ التِي قَدْ ضَيَّقَتْ علَيْنَا، ولْيَبسُطْ لَنَا بِلَادَنَا، ولْيُفَجِّرْ لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا كَأَنْهَارِ الشَّامِ والعِرَاقِ، ولْيَبعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، ولْيَكُنْ فِيمَنْ يَبْعَثُ لَنَا مِنْهُم: قُصَيَّ بنَ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخَ صِدْقٍ، فَنَسْأَلُهُمْ عَمَّا تَقُولُ: أَحَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، فَإِنْ صَدَّقَكَ وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَّقْنَاكَ، وعَرَفْنَا بِهِ مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ، وأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ، فَقَالَ لَهُمْ -صلى الله عليه وسلم-: "مَا بِهَذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ"، قَالُوا: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا، فَخُذْ لِنَفْسِكَ، سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ، ويُرَاجِعُنَا عَنْكَ، وسَلْهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جِنَانًا وقُصورًا وكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، يُغْنِيكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ، وتَلْتَمِسُ المَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُ، حتَّى نَعْرِفَ فَضْلَكَ ومَنْزِلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: "مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، ومَا أَنَا بِالذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، ولَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا ونَذِيرًا، فَإِنْ تَقْبَلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ". قَالُوا: فَأَسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسَفًا كَمَا زَعَمْتَ أَنَّ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّا لا نُؤْمِنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: "ذَلِكَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلَ". قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَفَمَا عَلِمَ رَبُّكَ أَنَّا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، ونَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، ونَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ، فَيَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَيُعْلِمَكَ مَا تُرَاجِعُنَا بِهِ، ويُخْبِرَكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا، إِذَا لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ؟، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُكَ هَذَا رَجُلٌ بِاليَمَامَةِ، يُقَالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، وَإِنَّا وَاللهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَدًا، فَقَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ!. وَإِنَّا وَاللهِ لَا نَتْرُكُكَ، ومَا بَلَغْتَ مِنَّا حَتَّى نُهْلِكَكَ أَوْ تُهْلِكَنَا، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ نَعْبُدُ المَلَائِكَةَ، وهِيَ بَنَاتُ اللهِ، وَقَالَ آخَرُ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِاللهِ وَالمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-، قَامَ عَنْهُمْ، وقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيُّ -وهُوَ ابنُ عَمَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عَاتِكَةَ بِنْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ- فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لِأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَضْلَكَ عَلَيْهِمْ، ومَنْزِلَتَكَ مِنَ اللهِ، فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا تُخَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ العَذَابِ، فَلَمْ تَفْعَلْ،

فَوَاللَّهِ لَا أُؤْمِنُ بِكَ أَبَدًا حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلَّمًا، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ حَتَّى تَأْتِيَهَا، وَتَأْتِيَ مَعَكَ بِنُسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ، ثُمَّ تَأْتِيَ مَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنِّي أُصَدِّقُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ. وسَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ، فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ -أَيِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِيَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نُؤْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} (١). وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ إِذَا سَمِعَ بِالرَّجُلِ قَدْ أَسْلَمَ، لَهُ شَرَفٌ وَمَنَعَةٌ، أَنَّبَهُ وَأَخْزَاهُ، وَقَالَ: تَرَكْتَ دِينَ أَبِيكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، وَلَنُفَيِّلَنَّ رَأْيَكَ، وَلَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ. وَإِنْ كَانَ تَاجِرًا قَالَ: وَاللَّهِ لَنُكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرَبَهُ وَأَغْرَى بِهِ. هجرة الحبشة وفي رجب في السنة الخامسة من البعثة النبوية (٨ ق هـ) خرج بعض الصحابة إلى الحبشة حيث أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا وَأَرْبَعُ نِسْوَةٍ مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَرَجَ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ رُقَيَّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ أَمِيرًا عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْحَبَشَةِ بِخَيْرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ بَقِيَّةَ رَجَبٍ، وَشَعْبَانَ إِلَى رَمَضَانَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَكَّةَ. وذلك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم - خَرَجَ إِلَى الْحَرَمِ، وَكَانَ هُنَاكَ جَمْعٌ كَبِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانَ فِيهِ سَادَاتُهَا وَكُبَرَاؤُهَا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَتْلُو سُورَةَ النَّجْمِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْقَوْمُ جَمِيعًا، الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ، إِلَّا رَجُلَانِ، هُمَا: أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ. فَبَلَغَ أَهْلَ الْحَبَشَةِ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَسْلَمُوا، وَقَدْ سَجَدُوا مَعَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: عَشَائِرُنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا، فَخَرَجُوا مِنَ الْحَبَشَةِ رَاجِعِينَ إِلَى مَكَّةَ، وَهَذَا فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْبِعْثَةِ، حَتَّى إِذَا كَانُوا دُونَ مَكَّةَ بِسَاعَةٍ تَبَيَّنَتْ لَهُمُ الْحَقِيقَةُ، وَعَرَفُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ خُصُومًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، فَهَمُّوا بِالرُّجُوعِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَقَالُوا: قَدْ بَلَغْنَا مَكَّةَ، فَدَخَلُوا مَكَّةَ، وَلَمْ يَدْخُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مُسْتَخْفِيًا، أَوْ فِي جِوَارِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَعَادَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْحَبَشَةِ. ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ ثَانِيًا إِلَى الْحَبَشَةِ فَهَاجَرَ اثْنَانِ وَثَمَانُونَ رَجُلًا وَ ثَمَانِي عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَكَانَ أَمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ الْهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رضي الله عنه-. قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -: لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ

رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - وَفُتِنُوا، ورَأَوْا مَا يُصِيبهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ"، فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا، فَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ، وَإِلَى خَيْرِ جَارٍ - النَّجَاشِيِّ - فَآمَنَنَا عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا وَعَبَدْنَا اللهَ، لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّا قَدْ أَصَبْنَا دَارًا وَأَمْنًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ فَيُخْرِجَنَا مِنْ بِلَادِهِ، وَيَرُدَّنَا عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ (١) فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ (٢) هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ، مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ فَتَمْنَعَهُمْ بِذَلِكَ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا، فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللهِ لَا أُسْلِمُ قَوْمًا لَجَئُوا إِلَى بِلَادِي، وَاخْتَارُوا جِوَارِي عَلَى جِوَارِ غَيْرِي حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا تَقُولُونَ، أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَلَمْ أُخَلِّ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ

أبغَضَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلاَمَنَا - فَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُ النَّجَاشِيِّ اجْتَمَعوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟، قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا - صلى الله عليه وسلم - كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا جَاءُوهُ دَخَلُوا عَلَيْهِ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ (١) فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ وَكَانَ الَّذِي يُكَلِّمُهُ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - فَسَأَلَهُ النَّجَاشِيُّ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشِّرْكِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ،[56] فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: اقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ {كهيعص}، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْمِشْكَاةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عِيسَى، انْطَلِقَا، فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لَآتِيَنَّهُ غَدًا وَلَأُنَبِّئَنَّهُ بِعَيْبِهِمْ عِنْدَهُ وَلَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهَهُ الَّذِي يَعْبُدُ - عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَبْدٌ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ

---

[56] (١) جمع أَسْقُفّ: وهو رئيس دين في النصارى، فوق القسيس ودون المطران.

قَالَتْ: فقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ - وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، فقَالَ عَمْرٌو: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا يَسْأَلُنَا عَنْهُ - وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ - فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟، فَقَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ، فَقَالَ لَنَا: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ (١)، وَكَلِمَتُهُ (٢) أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ قَالَتْ: فَدَلَّى النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسُّيُومُ: الْآمِنُونَ - مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ - وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ - رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ، فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ (٣). فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ، فَوَاللهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ، إِذْ نَزَلَ بِالنَّجَاشِيِّ مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ.

وَسَارَ النَّجَاشِيُّ، وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النِّيلِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ، ثُمَّ يَأْتِيَنَا بِالْخَبَرِ؟، فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ - رضي الله عنه -: أَنَا - وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا - فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا، حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، فَاسْتَوْثَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ، حَتَّى خَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنَّا رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ، وَأَقَامَ مَنْ أَقَامَ. حصار الشعب فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَدْ نَزَلُوا بَلَدًا، وَأَصَابُوا بِهِ أَمْنًا وَقَرَارًا، وَأَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَنَعَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رضي الله عنه- قَدْ أَسْلَمَ، فَكَانَ هُوَ وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ -رضي الله عنه- مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَأَصْحَابِهِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامُ يَفْشُو فِي الْقَبَائِلِ؛ لجأت قُرَيْشٌ إلى مساومة أبي

طالب بأن يعطوه عُمارَةَ بنِ الوَليدِ بنِ المُغيرَةِ مقابل أن يسلّمهم رسول الله ليقتلوه حتى لا يتفرق شمل قريش في زعمهم. فقال: أتُعْطُونَنِي ابنَكُمْ أكْفُلُه لَكُمْ، وأُعطيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟. فرفض وأصر على حماية ابن أخيه.

وقامَ أَبُو طَالِبٍ فِي بَنِي هاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ، فَدَعَاهُمْ إلى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ منع رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، والقِيامِ دُونَهُ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَقَامُوا مَعَهُ، وأَجَابُوهُ إِلَى ما دَعاهُمْ إِلَيْهِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي لَهَبٍ عَمِّ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم-، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي ذَلِكَ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُمْ، ويُحَرِّضُهُمْ عَلَى مَا وافَقُوهُ عَلَيْهِ مِنَ الحَدْبِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، والنُّصْرَةِ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ مِنْهَا:

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّها، وصَمِيمُهَا
وَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرافُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرافُهَا، وقَدِيمُهَا
وَإِنْ فَخَرَتْ يومًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا ... هُوَ المُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وكَرِيمِهَا
تَداعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وسَمِينُهَا ... عَلَيْنا فَلَمْ تَظْفَرْ، وَطَاشَ حُلُومُهَا

وصَدَحَ أَبُو طَالِبٍ بأَبْيَاتِهُ المَشْهُورَةَ فِي نُصْرَةِ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم-، فَقَالَ:

واللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرابِ دَفِينَا
فامْضِي لِأَمْرِكَ ما عَلَيْكَ غَضَاضَةً ... أَبْشِرْ وَقَرَّ بِذاكَ مِنْكَ عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وكُنْتَ قِدَمَ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

ثم اجْتَمَعَ صناديدُ قريشٍ وَأْتَمَرُوا بيْنَهُمْ أَنْ يَكْتبوا كِتَابًا يَتَعَاقَدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وبَنِي المُطَّلِبِ: عَلَى أَنْ لَا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ، ولَا يَنْكِحُوهُمْ، وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ، وَأَنْ يُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، ولَا يُخَالِطُوهُمْ حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لِلْقَتْلِ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا وتَوَاثَقُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ عَلَّقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. ولَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، وَالمُسْلِمُونَ فِي الشِّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ (٢)، وقَطَعَتْ عَنْهُمْ قُرَيْشٌ المِيرَةَ والمَادَّةَ، وَقَطَعَتْ عَلَيْهِمُ الأَسْوَاقَ، فكَانُوا لَا يَتْرُكُونَ طَعَامًا يَدْنُو مِنْ مَكَّةَ وَلَا بَيْعًا إِلَّا بَادَرُوا إِلَيْهِ فَاشْتَرَوْهُ دُونَهُمْ لِيَقْتُلَهُمُ الجُوعُ، واشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِيهِنَّ البَلَاءُ وَالجَهْدُ فِي شعب أبي

طالب ثلاث سنين. حتى نُقضت الصحيفة وفُك الحصار، وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهًا لها، فاجتمعوا عند الحجُون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله. ثم نَقَض الصحيفة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشّعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته بإخباره عن حال الصحيفة، ولكنهم - كما أخبر الله عنهم: (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ).

عام الحزن: وبدأ مرض الموت بأبي طالب، فلمّا بَلَغَ قُرَيْشًا ثِقَلُهُ، خَشُوا أَنْ تُعَيِّرَهُمُ العَرَبُ إِنْ أَتَوْا بَعْدَ وَفَاتِهِ بِمُنْكَرٍ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ، فَيَقُولُونَ: تَرَكُوهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ عَمُّهُ تَنَاوَلُوهُ. فَمَشَى إِلَيْهِ أَشْرَافُهُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّكَ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَأَنْصِفْنَا مِنِ ابْنِ أَخِيكَ، فَمُرْهُ فَلْيَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا وَنَدَعَهُ وَإِلَهَهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فَدَخَلَ البَيْتَ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْرُ مَجْلِسِ رَجُلٍ، فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٍ إِنْ جَلَسَ الرَّسُولُ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ المَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدِ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ فَجَلَسَ عِنْدَ البَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! هَؤُلَاءِ أَشْرَافُ قَوْمِكَ، قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ، لِيُعْطُوكَ وَلِيَأْخُذُوا مِنْكَ، وَقَدْ سَأَلُوكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِهِمْ، وَيَدَعُوكَ وَإِلَهَكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ فَقَدْ أَنْصَفُوكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذِهِ، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ أَنْتُمْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا العَرَبَ، وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ؟ ". فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي! مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ العَجَمُ الجِزْيَةَ"، قَالَ أَبُو طَالِبٍ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ -صلى الله عليه وسلم: "كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: نَعَمْ وَأَبِيكَ، وَعَشْرَ كَلِمَاتٍ. إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ مُرْبِحَةٌ، لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعَشْرًا مَعَهَا فَمَا هِيَ؟ قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "تَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ".

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ يَا ابْنَ أَخِي مَا رَأَيْتُكَ سَأَلْتَهُمْ شَطَطًا. أَمَّا زُعَمَاءُ الْمُشْرِكِينَ فَصَفَّقُوا بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَجْعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ أَمْرَكَ لَعَجَبٌ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا هَذَا الرَّجُلُ بِمُعْطِيكُمْ شَيْئًا مِمَّا تُرِيدُونَ، فَانْطَلِقُوا وَامْضُوا عَلَى دِينِ آبَائِكُمْ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، ثُمَّ قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ: وَاللهِ لَنَشْتُمَنَّكَ، وَإِلَهَكَ الذي يَأْمُرُكَ بِهَذَا. ثم تفرقوا. وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ. كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ. وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ. وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ. ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ). وبعد أن ألح المرض على أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي كفله صغيراً، وآزره كبيراً، وناصره على دعوته، وحماه من عوادي المشركين، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده

أبوجهل، فقال: "أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله". فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبدالمطلب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنه". فنزلت: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)، ونزلت: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ). وكَانَتْ وَفَاتُه بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الشِّعْبِ فِي آخِرِ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْمَبْعَثِ، وذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ وهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً. وتوفيت بعده بقليل زوج النبي صلى الله عليه وسلم، خديجة التي آمنت به إذ كفر به الناس، وآوته إذ رفضه الناس، وصدقته إذ كذبه الناس، ورزقه الله منها الولد. تُوُفِّيَتْ قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، وَدُفِنَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِالْحَجُونِ فِي مَقَابِرِ أَهْلِ مَكَّةَ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي حُفْرَتِهَا، وَلَمْ تَكُنْ صَلَاةُ الْجَنَازَةِ شُرِعَتْ، وَكَانَتْ مُدَّةُ إِقَامَةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مَعَهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، فَقَدْ تُوُفِّيَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَلَهَا مِنَ الْعُمُرِ خَمْسٌ وسِتُّونَ سَنَةً، وَرَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذْ ذَاكَ فِي الْخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ (١). ودَخَلَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وهِيَ تَبْكِي، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: "يَا بُنَيَّةُ، ايتِينِي بِوَضُوءٍ"، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ.

وبَيْنَا النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْط -لَعَنَهُ اللَّهُ- فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ -رضي الله عنه- حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ ودَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وَقَالَ: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}. وتَسَلَّطَ عَلَيْهِ عُتَيْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ بِالأَذَى، وشَقَّ قَمِيصَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ"، فَخَرَجَ عُتَيْبَةُ فِي قَافِلَةٍ إِلَى الشَّامِ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَجَاءَ الأَسَدُ وهَجَمَ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ. وجَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ، وهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا قَدْ خُضِبَ بِالدِّمَاءِ، ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَالَكَ؟، فَقَالَ لَهُ: "فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ وفَعَلُوا"، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيَةً قَالَ: "نَعَمْ". فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي، حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ، فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "حَسْبِي". وكَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ، وأَبُو جَهْلٍ وأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، وهُوَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ، وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، ورَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ. وكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ. ثُمَّ سَمَّى -صلى الله عليه وسلم-: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، والوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ" (١). وقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَعَنَهُ اللَّهُ: واللَّاتِ وَالعُزَّى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ ويَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا، وأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا". فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ..) وفي شوال سنة (٣ ق هـ) خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارهاً ماشياً على قدميه جيئة وذهاباً، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى رؤسائها

فدعاهم فلم يستجيبوا له، فأقام بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِمَاطَيْن [أي صفين] وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيباً محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً". وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول صلى الله عليه وسلم تتجلى رحمته وحرصه على أمته، وما كان عليه من خلق عظيم. ولما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعًا إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة (١)، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين (٢)، فاستمعوا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من صلاته، ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء الوفد الثاني متشوقاً لرؤية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، والاستماع إلى كلام رب العالمين. ورجع الرَّسُولُ -صلى الله عليه وسلم- وَصَارَ إِلَى حِرَاءٍ، ثُمَّ دَخَلَ مَكَّةَ فِي جِوَارِ الْمُطْعِمِ بِنِ عَدِيٍّ بعدما رفض الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو إجارته.

وكان عليه الصلاة والسلام يعرض نفسه عَلَى القبائل، فلقي في الموسم رهطًا من الخزرج ستة عند العقبة التي بمنى وهي التي تنسب إليها جمرة العقبة. فقال: "ألا تجلسون أكلمكم؟ ". فعرض عليهم الإسلام، وكانت يهود أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأوثان، وكانوا قَدْ غزوهم في بلادهم، فكانوا إِذَا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًّا يبعث الآن قَدْ أطل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولئك النفر قَالَ بعضهم لبعض: تعلموا والله إنه لَلنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبِقنكم إليه. فأجابوه وصدقوه. فلما كان العام المقبل قدم مكة من الأنصار اثنا عشر رجلًا منهم خمسة من الستة السابقين، فبايعوه في ليلة العقبة الأولى عام (٢ ق هـ). وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ اثني عشر رجلاً مِنْ

أَصْحَابِهِ: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ". وفي شوال من نفس العام تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة الصديقة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين. (١) وكانت بيعة العقبة الثانية في الموسم التالي سنة (١ ق هـ). قال البراء بن عازب - رضي الله عنه -: أول من قدم علينا (٢) من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - مصعب بن عمير وابن أم مكتوم - رضي الله عنهما - فجعلا يقرئان الناس القرآن، ثم قدم علينا بلال وسعد وعمار بن ياسر - رضي الله عنهم -، ثم قدم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في عشرين من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -. قال جابر رضي الله عنه: مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة (١) وفي المواسم بمنى يقول: من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة. حتى أن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ثم ائتمروا جميعا فقلنا حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله نبايعك. قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة. قال فقمنا إليه فبايعناه. وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو من أصغرهم- فقال: رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافةً وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله. قالوا: أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً. فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة.

وسأل أهل مكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر بمكة فلقتين، حتى رأوا حراء بينهما، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "اشهدوا، اشهدوا". فقال كفار أهل مكة: سحرنا محمد، هذا سِحْرٌ سحَرَكم به ابن أبي كبشة!، وقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس. انْظُرُوا السُّفَّارَ، (١) فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم، فهو سحر سحركم به. فَقَدِمُوا فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا قَدْ رَأَيْنَا قَدِ انْشَقَّ. فنزلت: {اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر}. (٢) [57] وكانت في هذه الفترة رحلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير}. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فرج سقف بيتي وأنا بمكة ليلة أسري بي من مسجد الكعبة فنزل جبريل - عليه السلام - ففرج صدري، (١) ثم غسله بماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً وعلماً فأفرغها في صدري، ثم أطبقه. ثم أتيت بالبراق مسرجاً، ملجماً، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فاستصعب علي، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ أبمحمد تفعل هذا؟ فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله - عز وجل - منه. فارفض البراق عرقاً، فمررت على موسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر، فلما انتهينا إلى بيت المقدس، قال جبريل بإصبعه، فخرق به الحجر، وشد به البراق، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن

---

[57] أشارت مقالات غربية معاصرة إلى أن الصور الحديثة للقمر أظهرت وجود حزام أخدودي يقطع القمر، افترض علماء الفلك أنه نتيجة لانفلاقه قديماً ثم عودته الى الالتحام ويطلق عليه اسم Lunar Rille، وذكرت مخطوطات قديمة من حضارة المايا في أمريكا الجنوبية وقوع انشقاق للقمر بالفعل -في نفس وقت وجود النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مكة- وأن أغلب الأمم الموجودة حين ذاك قد رأته، بل إن بعض الشعوب قد غيرت تقويمها الفلكي بسببه، وأن ذلك كان في القرن السابع (من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ م) حيث حدث تغيير شامل في التقويم في كل من الصين وبابل وكوبان التي توافق حسابات جانيس (وكوبان هي إحدى أشهر مدن حضارة المايا في العصر الحديث من ٣٠٠ إلى ٩٠٠ م)، وأن الانشقاق وافق العام ٦٢٣ م، وهو يوافق مكوث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة مباشرة. وبعض هذه المقالات تم حذفها لإثارتها ضجة كبيرة بأن ما فيها يوافق كلام المسلمين. ونحن وإن حُذفت هذه المقالات والحقائق أو حرفت أو لم تكن، فلن تنقص من إيماننا شيئاً. فيكفينا يقيننا بكلام الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

فشربته. فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر، غوت أمتك. وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة، فأممتهم فلما فرغت من الصلاة، قال قائل: يا محمد، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه، فالتفت إليه، فبدأني بالسلام، ثم وضعت قدمي حيث توضع أقدام الأنبياء من بيت المقدس، ثم أخذ جبريل بيدي، فعرج بي إلى السماء، فلما جاء إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟، قال: هذا جبريل، قال: معك أحد؟، قال: معي محمد، قال: أرسل إليه؟ - لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم - قال: نعم، فافتح. قال: مرحبا به وأهلا، فنعم المجيء جاء. واستبشر بي أهل السماء، فلما علونا السماء الدنيا، إذا رجل عن يمينه أسودة (١)، وعن يساره أسودة، وإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم. وهذه نسم بنيه (٢)، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح. فإذا أنا في السماء الدنيا بنهرين يطردان، (٣) فقلت: ما هذان النهران يا جبريل؟، قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى بي في السماء، فإذا أنا بنهر آخر، عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد (٤) حَافَّتَاهُ (٥) قباب الدر المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فضربت بيدي، فإذا طينه هو مسك أذفر (٦)، ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟، قال: جبريل، قالوا: ومن معك؟، قال: محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟، قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلا ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ابن مريم، ويحي بن زكرياء، صلوات الله عليهما، فقال جبريل: هذا يحي وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت، فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ودعوا لي بخير، وإذا عيسى رجل مربوع الخلق، وفي رواية: (مبطن الخلق حديد البصر، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس (٧)، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام -، أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي، ثم عرج بي جبريل إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من أنت؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟، قال: قد بعث إليه، قيل: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف - عليه السلام - وإذا هو قد أعطي شطر الحسن. فقال جبريل: هذا يوسف، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا جبريل إلى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من

هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟، قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس - عليه السلام - فرحب ودعا لي بخير، قال الله - عز وجل -: {ورفعناه مكانا علياً}. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟، قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون - عليه السلام - فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل - عليه السلام - قيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟، قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى - عليه السلام -، فقال: مرحبا بالنبي الصالح، والأخ
الصالح، قلت: من هذا؟، قال: هذا موسى، وإذا هو رجل ضربٌ (١) أسحم، آدم، كثير الشعر، رجل الرأس، جعد شديد الخلق كأنه من رجال شنوءة، ثم عرج بي إلى السماء السابعة، فلما جاوزت موسى بكى، فقيل: ما أبكاك؟، قال: يا رب، هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر وأفضل مما يدخل من أمتي؟ رب لم أظن أن يرفع علي أحد، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟، قال: محمد - صلى الله عليه وسلم - قيل: وقد بعث إليه؟، قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم - عليه السلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - قلت: من هذا؟ فقال جبريل: هذا أبوك، فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام وقال: مرحبا بالابن الصالح، والنبي الصالح، قال: ومررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس (٢) ويقعون في أعراضهم ومررت على قوم تقرض شفاههم بمقاريض (٣) من نار، كلما قرضت وفت، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟، من
هؤلاء؟، قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به. الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟. قال: ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ (١) اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. ثم انطلق بي جبريل إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كأنه قلال هجر، يخرج من ساقها أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فسألت جبريل، فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها، تحولت ياقوتاً، أو زمرداً، أو نحو ذلك، وغشيها ألوان لا أدري ما هي،

فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض على أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: يا محمد، ماذا فرض ربك على أمتك؟، قلت: فرض عليهم خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم إن شئت، فَعَلا به إلى الجبار، فقال وهو مكانه: يا رب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، فقلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجسادا، وقلوبا، وأبدانا وأبصارا، وأسماعا، فارجع فليخفف عنك ربك - كل ذلك يلتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل - فرفعه عند الخامسة، فقال: يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم، وقلوبهم وأسماعهم، وأبصارهم، وأبدانهم، فخفف عنا، فقال الجبار: يا محمد، قلت: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضته عليك في أم الكتاب، إني قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشراً، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، ومن هم بحسنة فلم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها، لم تكتب شيئاً، فإن عملها، كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟، قلت: خفف الله عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها، فقال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، فقلت: يا موسى، قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه، قال: فاهبط باسم الله. فاستيقظ وهو في مسجد الحرام. قال - صلى الله عليه وسلم -: لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ فَقَعَدْتُ فِي الْحِجْرِ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَعَمْ" قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ" قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ " قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَلَمْ يُرِ أَنَّه يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ

الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَعَمْ". فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ " قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى سألتني قريش عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط. فَرَفَعَهُ اللهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَنَعَتُّهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ". فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ. ثُمَّ إِنَّ الرَّسُولَ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ لَهُمْ: "آيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كذا وَكَذَا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسُّ الدَّابَّةِ -أَي الْبُرَاقِ- فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَهُمْ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ قَدْ غَطَّوْا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فَكَشَفْتُ غِطَاءَهُ وَشَرِبْتُ مَا فِيهِ، ثُمَّ غَطَّيْتُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ، وَعَلَى عِيرِهِمْ جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيْهِ غَرَارَتَانِ، إِحْدَاهُمَا سَوْدَاءُ، وَالأُخْرَى بَرْقَاءُ". (١) وصدّقه أبو بكر، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لِأَبِي بَكْرٍ: "وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقُ". وجَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ، وَأَوْقَاتَهَا، وفُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ. (٢) واسْتَمَرَّتْ الفَتْرَةُ المَكِّيَّةُ منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عَشْرَةَ سَنَةٍ تَقْرِيبًا. ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تجهزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، أصابتهم الكآبة والحزن، وساورهم القلق والهم. فاجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر. وكان اجتماعهم في شهر صفر بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية؛ ليتدارسوا خطة حاسمة، تكفل القضاء سريعًا على النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، ولما جاءوا إلى دار الندوة حسب الميعاد، اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم. وبعد أن تكامل الاجتماع، ودار النقاش طويلاً. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا، وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي: لا

والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتبعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا. قال أبو البختري: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيرًا والنابغة - ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره. بعد ذلك تقدم كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام باقتراح آثم وافق عليه جميع من حضر، قال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نَسِيبا وَسِيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم. قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره.

واتفقوا على ذلك.ثم أُذِنَ للنبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، قال تعالى: }وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين{. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ (١) مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي (٢) إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ، أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى (٣)، يَقُولُونَ: يَثْرِبَ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ (٤)، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ (٥) خَبَثَ الْحَدِيدِ.

قالت عائشة - رضي الله عنها -: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً قبل الحبشة، حتى إذا بلغ بَرْكِ الْغِمَادِ (٦)، لقيه ابْنُ الدَّغِنَةِ، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟، فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فارجع فاعبد ربك ببلدك، وأنا لك جار، فرجع، وارتحل معه ابْنُ الدَّغِنَةِ، فطاف ابْنُ الدَّغِنَةِ عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله،

ولا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابْنُ الدَّغِنَةِ لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه - وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن - فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابْنُ الدَّغِنَةِ إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله - عز وجل - ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ بمكة - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمسلمين: إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان -، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة.

فاستأذن أبو بكر النبي - صلى الله عليه وسلم - في الخروج حين اشتد عليه الأذى، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:" لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً، فإني أرجو أن يؤذن لي "، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟، قال: " نعم، إني لأرجو ذلك "، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر - وهو الخبط -، قالت: فلما أذن له في الخروج إلى المدينة؛ أتاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم ظهراً متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فلما رآه أبو بكر جاء ظهراً قال: ما جاءنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه الساعة، إلا لأمر حدث، فلما دخل عليه قال لأبي بكر: "أخرج من عندك "، فقال أبو بكر: يا رسول الله ليس عليك عين، إنما هما ابنتاي - يعني عائشة وأسماء -، إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: " فإني قد أذن لي في الخروج إلى المدينة "، فقال أبو بكر: يا رسول الله

الصحبة؟، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " الصحبة "، قالت عائشة: فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح، قال: يا رسول الله، عندي ناقتان قد كنت أعددتهما للخروج نخذ إحداهما. قال: " قد أخذتها بالثمن ". فأعطى النبي - صلى الله عليه وسلم - إحداهما - وهي الجدعاء -. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب - فبذلك سميت ذات النطاقين - ثم لحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر بغار في جبل ثور فتواريا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب، ثقف، لقن، فيرحل من عندهما سحرا، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يُكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسلهما (١) ثم يسرح بها عامر بن فهيرة بغلس، فلا يفطن به أحد من الرعاء، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

قال أبو بكر - رضي الله عنه -: نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار، فقلت يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه، أبصرنا، تحت قدميه، فقال: " يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟ "، قال تعالى: {إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن، إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم}.

واستأجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر رجلاً من بني الديِل هادياً خريتاً (٢) قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث، فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل الدِّيِلُّ، فأخذ بهم أسفل مكة، وهو طريق الساحل.

قال أبو بكر: أخذ علينا بالرصد، فخرجنا ليلاً، فأسرينا ليلتنا ويومنا، حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فعطش رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة، فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت له: اضطجع يا رسول الله، فاضطجع النبي - صلى الله عليه وسلم -،

ثم انطلقت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحداً، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته: لمن أنت يا غلام؟، فقال: لرجل من قريش سماه، فعرفته، فقلت له: هل في غنمك من لبن؟، قال: نعم، قلت له: فهل أنت حالب لنا؟، قال: نعم. فأخذ شاة من غنمه، فقلت له: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى، فحلب في قعب كثبة من لبن، ومعي إداوة من ماء عليها خرقة حملتها للنبي - صلى الله عليه وسلم - يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فصببت على اللبن، حتى برد أسفله، ثم أتيت به النبي - صلى الله عليه وسلم - فكرهت أن أوقظه، فقلت له حين استيقظ: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت. ثم ارتحلنا بعدما مالت الشمس، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: أتينا يا رسول الله. فقال: " لا تحزن، إن الله معنا". فلما دنا، التفت نبي الله - صلى الله عليه وسلم- ودعا عليه فقال: اللهم اصرعه "، فصرعه الفرس، فساخ في الأرض إلى بطنه ثم قامت تحمحم. وحكى سراقة بن جعشم - رضي الله عنه - تلك الواقعة وكان مشركاً قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر دية كل واحد منهما، من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن

جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، قال

سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت فَخَطَطْتُ بِزُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي (١)، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها،ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان (١) ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره. فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟، فخرج الذي أكره أن لا أضرهم فعصيت الأزلام، وركبت فرسي تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات- ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، فناديتهم بالأمان فوقفوا.

ووثب سراقة عن فرسه، وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك علي لأعمين على من ورائي، وهذه كنانتي، فخذ سهماً منها، فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، قال: " لا حاجة لي في إبلك"، ودعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فنجا. قال سراقة: فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني

شيئاً، فقلت: يا نبي الله، مرني بما شئت، قال: " فقف مكانك، لا تتركن أحداً يلحق بنا، أخف عنا "، فسألته أن يكتب لي كتاب موادعة آمن به، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أديم.

فجعل سراقة لا يلقى أحداً إلا قال: قد كفيتكم ما هنا، فلا يلقى أحداً إلا رده، قال أبو بكر: فوفى لنا. فكان أول النهار جاهدا على نبي الله - صلى الله عليه وسلم - وكان آخر النهار مسلحة له. وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وهو مردف أبا بكر - رضي الله عنه - وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، وكان يعرف، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعرف. فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟، فيقول: هذا الرجل يهديني

السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و لقي الزبير في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا بكر ثياب بياض. وقدما المدينة ليلاً. (١) فلما دنوا من المدينة، نزلا الحرة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار.

وكان المسلمون بالمدينة سمعوا مخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة، فكانوا

يغدون (٢) كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أطم (٣) من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه بظهر الحرة، واستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فجاءوا إلى نبي الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر، وحفوا حولهما بالسلاح، فقيل في

المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله - صلى الله عليه وسلم - فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك. السنة الأولى للهجرة فلبث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى (مسجد قباء)، وصلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " أنزل على بني النجار، أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك " ثم أرسل إلى بني النجار، فجاءوا متقلدي السيوف، والنبي - صلى الله عليه وسلم - على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق، ينادون: يا محمد، يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله. حتى بركت عند مسجد الرسول بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا (١) لِلتَّمْرِ، لسهيل وسهل، غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بركت به راحلته: "هذا إن شاء الله المنزل"، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وإنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملإ من بني النجار، فقال: يا بني النجار، ثامنوني (٢) بحائطكم (٣) هذا "، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، فكان فيه قبور المشركين، وفيه خرب، وفيه نخل، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه (١) الحجارة، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبنيه، وهم ينقلون الصخر، وطفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل معهم اللبن في بنيانه ويناولونه ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا أبر ربنا وأطهر، اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة، ألا إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة". فتمثل

بشعر رجل من المسلمين. (٢) وهم يرتجزون (٣) ويقولون: "اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة". ثم بناه مسجداً باللبن (٤) وسقفه مظلل بجريد النخل، وعمده من خشب النخل. وما فرح أهل المدينة بشيء فرحهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى جعل الإماء والصبيان يقولون: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد جاء، ولعبت الحبشة لقدومه بحرابهم فرحاً بذلك، وكانت الحبشة يَزْفِنُونَ (١) بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويرقصون، ويتكلمون بكلام لا يفهمه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "ما يقولون؟ " قالوا: يقولون: محمد عبد صالح. وما عَدُّوا (٢) من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم- ولا من وفاته، ما عَدُّوا إلا من مقدمه المدينة. وكان يهودُ بَني قَيْنقاعَ حُلفاءَ الخزْرَجِ، وَكَانَتْ دِيَارُهُمْ دَاخِلَ المَدِينَةِ، ويهود بَني النَّضِيرِ، وبَني قُرَيْظَةَ كَانُوا حُلفاءَ الأَوْسِ، وَكَانَتْ دِيَارُهُمْ في عَوَالِي المَدِينَةِ. فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهلها، إذ سمع به عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فإن أخبرتني بها آمنت بك، وإن لم تعلمهن عرفت أنك لست بنبي. قال: " سل "، قال: ما أول أشراط الساعة؟ أول شيء يحشر الناس؟ وما أول ما يأكل منه أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ من أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟، قال: " أخبرني بهن جبريل آنفاً. " فقال عبد الله: جبريل؟، قال: " نعم "، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية: {من كان عدواً لجبريل، فإنه نزله على قلبك بإذن الله}. أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تخرج من قبل المشرق، فتحشرهم إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، رأس ثور وكبد حوت. وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة، فسبقها ماؤه، كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها، كان الشبه لها ". قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وأنك جئت بحق. ثم قال: يا رسول الله، قد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فأخبئني عندك وابعث إليهم واسألهم عني: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم، قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم، بهتوني عندك وقالوا فيّ ما ليس فيّ. فأرسل إليهم نبي الله - صلى الله عليه وسلم - فأقبلوا فدخلوا عليه، ودخل عبد الله البيت. فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يا معشر اليهود،

ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا"، فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: ما نعلمه. فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ "، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا، وأفقهنا وابن أفقهنا وسيدنا وابن سيدنا. قال: " أفرأيتم إن أسلم؟ "، قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قال: " أفرأيتم إن أسلم؟ "، قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قال: " أفرأيتم إن أسلم؟ "، قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قال: " يا ابن سلام، اخرج عليهم "، فخرج عبد الله إليهم، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت. فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا. وانتقصوه ووقعوا فيه. فأخرجهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فقال ابن سلام: هذا الذي كنت أتخوف منه يا رسول الله، قد أخبرتك يا رسول الله أن اليهود قوم بهت. ثم قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم -: " أي بيوت أهلنا أقرب؟ "، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: " فانطلق فهيئ لنا مقيلاً "، فقال أبو أيوب: قوما على بركة الله. وأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ بِالصَّبْرِ والعَفْوِ، قَالَ تَعَالَى: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}. المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانوا تسعين رجلا. نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة وعلى أن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام. إلى وقعة بدر. فلما أنزل الله {وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأنفال: ٧٥] (١) رد التوارث إلى الأرحام. وقيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية. «واتخذ عليا أخا لنفسه» . والأثبت الأول

حوادث السنة الأولى وفي السنة الأولى: زيد في صلاة الحضر ركعتان. فصارت أربع ركعات. وفيها: نزل أهل الصفة المسجد. وكانت مكانا في المسجد ينزل فيه فقراء المهاجرين الذي لا أهل لهم ولا مال. وكان رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم - يفرقهم في أصحابه إذا جاء الليل ويتعشى طائفة منهم معه حتى جاء اللَّه بالغنى. وهذه السنة الرابعة عشرة من النبوة هي الأولى من الهجرة كما تقدم. ومنها أرخ التاريخ. وتوفي فيها من الأعيان أسعد بن زرارة قبل أن يفرغ رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم - من بناء المسجد. وتوفي البراء بن معرور في صفر قبل قدوم رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم - المدينة. وهو أول من مات من النقباء. وفيها: توفي ضمرة بن جندب. وكان قد مرض بمكة. فقال

لبنيه اخرجوا بي منها فخرجوا به يريد الهجرة. فلما بلغ أضاة بني عقار - أو التنعيم - مات. فأنزل الله تعالى {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [النساء: ١٠٠]- الآية (١) . وكلثوم بن الهدم الذي نزل عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. وفيها: وادع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من بالمدينة من اليهود. وكتب بينه وبينهم كتابا. حوادث السنة الثانية وفي السنة الثانية رأى عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأذان فأمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يلقيه على بلال. وفيها: فرض صوم رمضان. ونسخ صوم عاشوراء. وبقي صومه مستحبا. وفيها: زوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - عليا فاطمة رضي الله عنهما. وفيها: صرف الله عز وجل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة. [تحويل القبلة] تحويل القبلة وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة استقبل بيت المقدس ستة عشر شهرا، قبلة اليهود. وكان يحب أن يصرفه الله إلى الكعبة. وقال لجبريل ذلك. فقال إنما أنا عبد. فادع ربك واسأله. فجعل يقلب وجهه في السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله عليه {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٤٤]- الآيات (١) .وكان في ذلك حكمة عظيمة ومحنة للناس مسلمهم وكافرهم. فأما المسلمون فقالوا {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧] وهم الذين هدى الله ولم تكن بكبيرة عليهم. وأما المشركون فقالوا كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وأما اليهود فقالوا (١) . {مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} [البقرة: ١٤٢] وأما المنافقون فقالوا إن كانت القبلة الأولى حقا: فقد تركها. وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل. ولما كان ذلك عظيما وطأ الله سبحانه قبله أمر النسخ وقدرته عليه وأنه سبحانه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله. ثم عقب ذلك بالمعاتبة لمن تعنت على رسوله ولم ينقد له. ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء. ثم ذكر شركهم بقولهم اتخذ الله ولدا (٢) . ثم أخبر أن المشرق والمغرب لله. فأينما ولى عباده وجوههم فثم وجهه. وأخبر رسوله أن أهل الكتاب لا يرضون عنه حتى يتبع قبلتهم.رثم ذكر خليله إبراهيم وبناءه البيت بمعاونة ابنه إسماعيل عليهما السلام وأنه جعل إبراهيم إماما للناس وأنه لا يرغب عن ملته إلا من سفه نفسه.
ثم أمر عباده أن يأتموا به وأن يؤمنوا بما أنزل إلى رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم - وما أنزل إليهم وإلى سائر النبيين.

وأخبر أن الله - الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - هو الذي هداهم إلى هذه القبلة التي هي أوسط القبل وهم أوسط الأمم كما اختار لهم أفضل الرسل وأفضل الكتب. وأخبر أنه فعل ذلك لئلا يكون للناس عليهم حجة إلا الظالمين فإنهم يحتجون عليهم بتلك الحجج الباطلة الواهنة. التي لا ينبغي أن تعارض الرسل بأمثالها وليتم نعمته عليه ويهديهم. ثم ذكر نعمته عليهم بإرسال الرسول الخاتم وإنزال الكتاب. وأمرهم بذكره وشكره ورغبهم في ذلك بأنه يذكر من ذكره ويشكر من شكره. وأمرهم بما لا يتم ذلك إلا به وهو الاستعانة بالصبر والصلاة. وأخبرهم أنه مع الصابرين فصل ولما استقر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في المدينة، وأيده الله بنصره وبالمؤمنين. وألف بين قلوبهم بعد العداوة، ومنعته أنصار الله من الأحمر والأسود رمتهم العرب واليهود عن قوس واحد، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة. والله يأمر رسوله والمؤمنين بالكف والعفو والصفح حتى قويت الشوكة. فحينئذ أذن لهم في القتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: ٣٩] (١) وهي أول آية نزلت في القتال. ثم فرض عليهم قتال من قاتلهم فقال تعالى {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [البقرة: ١٩٠] الآية (٢) . ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقال {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة: ٣٦]- الآية (٣) . أول لواء عقده رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وأول لواء عقده رسول الله -صلى الله عليه وسلم - على قول موسى بن عقبة - لواء حمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان في السنة الأولى، بعثه في ثلاثين رجلا من المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش جاءت من الشام، فيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل حتى بلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا واصطفوا للقتال فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني. وكان موادعا للفريقين. فلم يقتتلوا. [سرية عبيدة بن الحارث] سرية عبيدة بن الحارث ثم بعث عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف في شوال من تلك السنة في سرية إلى بطن رابغ في ستين رجلا من المهاجرين خاصة. فلقي أبا سفيان عند رابغ. فكان بينهم الرمي. ولم يسلوا السيوف. وإنما كانت مناوشة. وكان سعد بن أبي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله ثم انصرف الفريقان. وقدم ابن إسحاق سرية حمزة. [سرية سعد بن أبي وقاص] سرية سعد بن أبي وقاص ثم بعث سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة من تلك السنة إلى الخرار من أرض الحجاز، يعترضون عيرا لقريش. وعهد إليه ألا يجاوز الخرار، وكانوا عشرين. فخرجوا على أقدامهم يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار. حتى بلغوا الخرار، فوجدوا العير قد مرت بالأمس. ثم دخلت السنة الثانية.

[غزوة الأبواء] غزوة الأبواء فغزا فيها -صلى الله عليه وسلم - غزوة الأبواء. وكانت أول غزوة غزاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بنفسه. خرج في المهاجرين خاصة يعترض عيرا لقريش فلم يلق كيدا. وفيها وادع بني ضمرة على ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يعينوا عليه أحدا. [غزوة بواط] غزوة بواط ثم غزا بواطا في ربيع الأول. خرج يعترض عيرا لقريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من المشركين. فبلغ بواطا - جبلا من جبال جهينة - فرجع ولم يلق كيدا.

[خروجه لطلب كرز بن جابر] خروجه لطلب كرز بن جابر ثم خرج في طلب كرز بن جابر الفهري. وقد أغار على سرح المدينة، فاستاقه. فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في أثره حتى بلغ سفوان من ناحية بدر وفاته كرز. [غزوة العشيرة] غزوة العشيرة ثم خرج في جمادى الآخرة في مائة وخمسين من المهاجرين يعترضون عيرا لقريش ذاهبة إلى الشام. وخرج في ثلاثين بعيرا يتعاقبونها. فبلغ ذا العشيرة من ناحية ينبع. فوجد العير فاتته بأيام. وهي التي خرجوا لها يوم بدر لما جاءت عائدة من الشام. وفيها: وادع بني مدلج وحلفاءهم. [وقعة بدر الكبرى يوم الفرقان]

وقعة بدر الكبرى يوم الفرقان فلما كان في رمضان بلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - خبر العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان فيها أموال قريش فندب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - للخروج إليها فخرج مسرعا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا. ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود. وكان معهم سبعون بعيرا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير. واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم. فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة واستعمله على المدينة.

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير والراية إلى علي وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ. ولما قرب من الصفراء: بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء يتحسسان أخبار العير. وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري. وبعثه حثيثا إلى مكة مستصرخا قريشا بالنفير إلى عيرهم. فنهضوا مسرعين. ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب. فإنه عوض عنه رجلا بجعل. وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب. ولم يتخلف عنهم من بطون قريش إلا بني عدي فلم يشهدها منهم أحد وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى {بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال: ٤٧] (١) فجمعهم على غير ميعاد كما قال تعالى {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ} [الأنفال: ٤٢] (٢) .

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج قريش استشار أصحابه. فتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم ثانيا. فتكلم المهاجرون. ثم ثالثا. فعلمت الأنصار أن رسول الله إنما يعنيهم، فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، وكان إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم، وكأنك تخشى أن تكون الأنصار ترى عليهم ألا ينصروك إلا في ديارهم. وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم. فامض بنا حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت. وأعطنا ما شئت. وما أخذت منها كان أحب إلينا مما تركت. فوالله لئن سرت بنا حتى تبلغ البَرْك من غُمدان لنسيرن معك ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك.

وقال المقداد بن الأسود: إذن لا نقول كما قال قوم موسى لموسى {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك.

فأشرق وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بما سمع منهم. وقال: «سيروا وأبشروا. فإن الله وعدني إحدى الطائفتين. وإني قد رأيت مصارع القوم» . وكره بعض الصحابة لقاء النفير وقالوا: لم نستعد لهم فهو قوله تعالى {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ - يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [الأنفال: ٥ - ٦]- إلى قوله - {وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: ٨] (١) .

وسار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إلى بدر. وخفض أبو سفيان. فلحق بساحل البحر. وكتب إلى قريش أن ارجعوا فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم. فأتاهم الخبر فهموا بالرجوع. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نقدم بدرا فنقيم بها نطعم من حضرنا ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان. وتسمع بنا العرب. فلا تزال تهابنا أبدا وتخافنا. فأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فلم يفعلوا. فرجع هو وبنو زهرة. فلم يزل الأخنس في بني زهرة مطاعا بعدها. وأراد بنو هاشم الرجوع. فقال أبو جهل لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع فساروا إلا طالب بن أبي طالب. فرجع. وسار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حتى نزل على ماء أدنى مياه بدر. فقال الحباب بن المنذر: إن رأيت أن نسير إلى قُلُب - قد عرفناها - كثيرة الماء عذبة فننزل عليها. ونغور ما سواها من المياه؟ وأنزل الله تلك الليلة مطرا واحدا صلب الرمل. وثبت الأقدام. وربط على قلوبهم. ومشى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في موضع المعركة. وجعل يشير بيده ويقول: «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان إن شاء الله.» فما تعدى أحد منهم موضع إشارته -صلى الله عليه وسلم -.

فلما طلع المشركون قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «اللَّهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها جاءت تحادك وتكذب رسولك. اللَّهم فنصرك الذي وعدتني. اللَّهم أحنهم الغداة» وقام ورفع يديه واستنصر ربه وبالغ في التضرع ورفع يديه حتى سقط رداؤه. وقال «اللَّهم أنجز لي ما وعدتني اللَّهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللَّهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض بعد» (١) . فالتزمه أبو بكر الصديق من ورائه وقال حسبك مناشدتك ربك يا رسول الله. أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك. واستنصر المسلمون الله واستغاثوه. فأوحى الله إلى الملائكة {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢] (٢) وأوحى الله إلى رسوله {أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال:] (٣) بكسر الدال وفتحها. قيل إردافا لكم. وقيل يردف بعضهم بعضا لم يجيئوا دفعة واحدة. فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها. وقلل الله المسلمين في أعينهم حتى قال أبو جهل - لما أشار عتبة بن ربيعة بالرجوع خوفا على قريش من التفرق والقطيعة إذا قتلوا أقاربهم - إن ذلك ليس به. ولكنه - يعني عتبة - عرف أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه. وقلل الله المشركين أيضا في أعين المسلمين ليقضي الله أمرا كان مفعولا. وأمر أبو جهل عامر بن الحضرمي - أخا عمرو بن الحضرمي - أن يطلب دم أخيه. فصاح. وكشف عن استه يصرخ واعمراه واعمراه. فحمي القوم. ونشبت الحرب. وعدل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الصفوف. ثم انصرف وغفا غفوة. وأخذ المسلمين النعاس وأبو بكر الصديق مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يحرسه. وعنده سعد بن معاذ وجماعة من الأنصار على باب العريش. فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يثب في الدرع. ويتلو هذه الآية {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: ٤٥] (١) . ومنح الله المسلمين أكتاف المشركين. فتناولوهم قتلا وأسرا. فقتلوا سبعين وأسروا سبعين. وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة: يطلبون المبارزة. فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فقالوا: أكفاء كرام. ما لنا بكم من حاجة. إنما نريد من بني عمنا. فبرز إليهم حمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن أبي طالب. فقتل علي قرنه الوليد. وقتل حمزة قرنه شيبة. واختلف عبيدة وعتبة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه. فكر حمزة وعلي على قرن عبيدة فقتلاه. واحتملا عبيدة قد قطعت رجله. فقال لو كان أبو طالب حيا لعلم أنا أولى منه بقوله: ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل ومات بالصفراء وفيهم نزلت {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج: ١٩]- الآية (١) فكان علي -رضي الله عنه- يقول «أنا أول

من يجثو للخصومة بين يدي الله عز وجل يوم القيامة» . ولما عزمت قريش على الخروج وذكروا ما بينهم وبين بني كنانة من الحرب، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، فقال {لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} [الأنفال: ٤٨] فلما تعبئوا للقتال ورأى الملائكة فر ونكص على عقبيه فقالوا: إلى أين يا سراقة؟ فقال {إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٤٨] وظن المنافقون ومن في قلبه مرض أن الغلبة بالكثرة فقالوا {غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ} [الأنفال: ٤٩] فأخبر الله سبحانه أن النصر إنما هو بالتوكل على الله وحده، ولما دنا العدو قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فوعظ الناس، وذكرهم بما لهم في الصبر والثبات من النصر وأن الله قد أوجب الجنة لمن يستشهد في سبيله، فأخرج عمير بن الحمام بن الجموح تمرات من قرنه يأكلهن، ثم قال لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة " فرمى بهن وقاتل حتى قتل فكان أول قتيل، وأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ملء كفه ترابا فرمى به في وجوه القوم، فلم تترك رجلا منهم إلا ملأت عينيه، فهو قوله تعالى {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧] (٢) . واستفتح أبو جهل فقال اللَّهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة.

ولما وضع المسلمون أيديهم على العدو - يقتلون ويأسرون - وسعد بن معاذ واقف عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في رجال من الأنصار في العريش - رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في وجه سعد الكراهية، فقال «كأنك تكره ما يصنع الناس؟ قال أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله في المشركين، وكان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال» .

ولما بردت الحرب وانهزم العدو قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟» (١) فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه معوذ وعوف - ابنا عفراء - حتى برد، فأخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل؟ فقال لمن الدائرة اليوم؟ قال لله ورسوله، ثم قال له هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال وهل فوق رجل قتله قومه؟ فاحتز رأسه عبد الله بن مسعود، ثم أتى النبي -صلى الله عليه وسلم -، فقال قتلته فقال " آللّه الذي لا إله إلا هو؟ - ثلاثا - ثم قال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» . انطلق فأرنيه، فانطلقنا فأريته إياه، فلما وقف عليه قال: «هذا فرعون هذه الأمة» . [58]

---

[58] الحديث رواه البخاري

وأسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف وابنه عليا. فأبصره بلال - وكان يعذبه بمكة - فقال رأس الكفر أمية؟ لا نجوت إن نجا. ثم استحمى جماعة من الأنصار. واشتد عبد الرحمن بهما يحجزهما منهم فأدركوهم. فشغلهم عن أمية بابنه علي ففرغوا منه ثم لحقوهما. فقال له عبد الرحمن ابرك. فبرك وألقى عليه عبد الرحمن بنفسه. فضربوه بالسيوف من تحته حتى قتلوه. وأصاب بعض السيوف رجل عبد الرحمن. وكان أمية قد قال له قبل ذاك من المعلم في صدره بريش النعام؟ فقال له ذاك حمزة بن عبد المطلب. قال ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن. فأعطاه النبي -صلى الله عليه وسلم - جذلا من حطب فلما أخذه وهزه عاد في يده سيفا طويلا فلم يزل يقاتل به حتى قتل يوم الردة. ولما انقضت الحرب أقبل النبي -صلى الله عليه وسلم - حتى وقف على القتلى. فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم كذبتموني. وصدقني الناس. وخذلتموني ونصرني الناس. وأخرجتموني. وآواني الناس» . ثم أمر بهم فسحبوا حتى ألقوا في القليب - قليب بدر - ثم وقف عليهم فقال يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا فلان ويا فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا فقال عمر يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال ما أنت بأسمع لما أقول منهم. ثم ارتحل مؤيدا منصورا قرير العين معه الأسرى والمغانم. فلما كان بالصفراء قسم الغنائم وضرب عنق النضر بن الحارث. ثم لما نزل بعرق الظبية ضرب عنق عقبة بن أبي معيط. ثم دخل المدينة مؤيدا منصورا. قد خافه كل عدو له بالمدينة. فأسلم بشر كثير من أهل المدينة ودخل عبد الله بن أبي رأس المنافقين وأصحابه في الإسلام. وجملة من حضر بدرا: ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا. واستشهد منهم أربعة عشر رجلا. قال ابن إسحاق: كان أناس قد أسلموا. فلما هاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حبسهم أهلهم بمكة. وفتنوهم فافتتنوا. ثم ساروا مع قومهم إلى بدر. فأصيبوا فأنزل الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} [النساء: ٩٧]- الآية (١) . [قسم غنائم بدر] قسم غنائم بدر ثم إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أمر بالغنائم فجمعت فاختلفوا. فقال من جمعها: هي لنا. وقال من هزم العدو لولانا ما أصبتموها، وقال الذين يحرسون رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ما أنتم بأحق بها منا. قال عبادة بن الصامت: فنزعها الله من أيدينا. فجعلها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقسمه بين المسلمين وأنزل الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال: ١]- الآيات (٢) . وذكر ابن إسحاق عن نبيه بن وهب. قال " فرق رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الأسرى على أصحابه. وقال

استوصوا بالأسرى خيرا فكان أبو عزيز بن عمير عند رجل من الأنصار، فقال له أخوه مصعب شد يدك به. فإن أخته ذات متاع. فقال أبو عزيز يا أخي، هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك. قال عزيز وكنت مع رهط من الأنصار حين قفلوا، فكانوا إذا قدموا طعاما خصوني بالخبز وأكلوا التمر. لوصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة إلا نفحني بها. قال فأستحي فأردها على أحدهما. فيردها علي ما يمسها.

[أسارى بدر]

أسارى بدر واستشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أصحابه في الأسرى وهم سبعون. وكذلك القتلى سبعون أيضا. فأشار الصديق أن يؤخذ منهم فدية تكون لهم قوة. ويطلقهم لعل الله يهديهم للإسلام. فقال عمر لا والله ما أرى ذلك. ولكني أرى أن تمكننا، فنضرب أعناقهم. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديد الشرك فهوى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ما قال أبو بكر. فقال: «إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين وإن الله عز وجل ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، إذ قال {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ} [المائدة: ١١٨]- الآية وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [يونس: ٨٨]- الآية وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦] ثم قال أنتم اليوم عالة. فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق. فأنزل الله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: ٦٧]- الآيتين» (١) .قال عمر فلما كان من الغد غدوت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فإذا هو قاعد - هو وأبو بكر - يبكيان. فقلت: يا رسول الله أخبرني ما يبكيك؟ وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. فقال أبكي للذي عرض علي أصحابك من الغد من أخذهم الفداء. فقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - وقال لو نزل عذاب ما سلم منه إلا عمر (١) . وقال الأنصار للنبي -صلى الله عليه وسلم - نريد أن نترك لابن أختنا العباس فداءه فقال «لا تدعوا منه درهما» ثم دخلت السنة الثالثة من الهجرة.

[غزوة بني قينقاع]

غزوة بني قينقاع فكانت فيها غزوة بني قينقاع وكانوا من يهود المدينة. فنقضوا العهد. فحاصرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة. فنزلوا على حكمه فشفع فيهم عبد الله بن أبي ابن سلول. وألح على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فيهم. فأطلقهم له وكانوا سبعمائة رجل. وهم رهط عبد الله بن سلام.

[غزوة أحد]

غزوة أحد وفيها كانت وقعة أحد في شوال. وذلك: أن الله تبارك وتعالى لما أوقع بقريش يوم بدر، وترأس فيهم أبو سفيان لذهاب أكابرهم أخذ يؤلب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وعلى المسلمين. ويجمع الجموع. فجمع قريبا من ثلاث آلاف من قريش،والحلفاء والأحابيش. وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا. ثم أقبل بهم نحو المدينة. فنزل قريبا من جبل أحد. فاستشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أصحابه في الخروج إليهم. وكان رأيه ألا يخرجوا. فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه السكك والنساء من فوق البيوت ووافقه عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - على هذا الرأي. فبادر جماعة من فضلاء الصحابة - ممن فاته بدر - وأشاروا على رسول الله بالخروج. وألحوا عليه. فنهض ودخل بيته ولبس لأمته وخرج عليهم فقالوا: استكرهنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - على الخروج. ثم قالوا: إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل فقال ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. فخرج في ألف من أصحابه واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - رأى رؤيا: رأى أن في سيفه ثلمة وأن بقرا تذبح. وأنه يدخل يده في درع حصينة. فتأول الثلمة برجل يصاب من أهل بيته والبقر بنفر من أصحابه يقتلون والدرع بالمدينة فخرج وقال لأصحابه عليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو. وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا. فلما كان بالشوط - بين المدينة وأحد - انخذل عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر وقال عصاني. وسمع من غيري ما ندري: علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ فرجع وتبعهم عبد الله بن عمرو - والد جابر - يحرضهم على الرجوع. ويقول قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع فرجع عنهم وسبهم. وسأل نفر من الأنصار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يستعينوا بحلفائهم من يهود. فأبى، وقال من يخرج بنا على القوم من كثب؟ . فخرج به بعض الأنصار، حتى سلك في حائط لمربع بن قيظي من المنافقين - وكان أعمى - فقام يحثو

التراب في وجوه المسلمين ويقول لا أحل لك أن تدخل في حائطي، إن كنت رسول الله. فابتدروه ليقتلوه. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر.

ونفذ حتى نزل الشعب من أحد، في عدوة الوادي الدنيا. وجعل ظهره إلى أحد ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم. فلما أصبح يوم السبت تعبأ للقتال. وهو في سبعمائة منهم خمسين فارسا. واستعمل على الرماة - وكانوا خمسين - عبد الله بن جبير. وأمرهم ألا يفارقوا مركزهم ولو رأوا الطير تختطف العسكر. وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم. وظاهر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بين درعين. وأعطى اللواء مصعب بن عمير، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى: المنذر بن عمرو. واستعرض الشباب يومئذ. فرد من استصغر عن القتال - كابن عمر وأسامة بن زيد والبراء وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت، وعرابة الأوسي - وأجاز من رآه مطيقا. وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف وفيهم مائتا فارس فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد. وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل. ودفع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - سيفه إلى أبي دجانة. وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر - عبد عمرو بن صيفي - الفاسق. وكان يسمى الراهب. وهو رأس الأوس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر بالعداوة. فذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه. فلما ناداهم وتعرف إليهم قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق. فقال لقد أصاب قومي بعدي شر ثم قاتل المسلمين قتالا شديدا. ثم أرضخهم بالحجارة. وأبلى يومئذ أبو دجانة وطلحة وحمزة وعلي والنضر بن أنس وسعد بن الربيع بلاء حسنا. وكانت الدولة أول النهار للمسلمين. فانهزم أعداء الله وولوا مدبرين. حتى انتهوا إلى نسائهم. فلما رأى ذلك الرماة قالوا: الغنيمة الغنيمة. فذكرهم أميرهم عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فلم يسمعوا. فأخلوا الثغر وكر فرسان المشركين عليه فوجدوه خاليا. فجاءوا منه وأقبل آخرهم حتى أحاطوا بالمسلمين فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة - وهم سبعون - وولى الصحابة. وخلص المشركون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فجرحوه جراحات وكسروا رباعيته. وقتل مصعب بن عمير بين يديه. فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب. وأدركه المشركون يريدون قتله. فحال دونه نحو عشرة حتى قتلوا. ثم جلدهم طلحة بن عبيد الله حتى أجهضهم عنه. وترس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك. وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان. فأتى بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فردها بيده. فكانت أحسن عينيه.

وصرخ الشيطان إن محمدا قد قتل فوقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين فمر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقالوا: قتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقال ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس ولقي سعد بن معاذ، فقال يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد. فقاتل حتى قتل. ووجد به سبعون جراحة. وقتل وحشي الحبشي حمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنه-. رماه بحربة على طريقة الحبشة. وأقبل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - نحو المسلمين. فكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك. فصاح بأعلى صوته يا معشر المسلمين هذا رسول الله فأشار إليه أن اسكت. فاجتمع إليه المسلمون. ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه. فلما أسندوا إلى الجبل أدركه أبي بن خلف على فرس له كان يزعم بمكة أنه يقتل عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فلما اقترب منه طعنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في ترقوته فكر منهزما. فقال له المشركون ما بك من بأس. فقال والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين. فمات بسرف. وحانت الصلاة فصلى بهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - جالسا. وشد حنظلة بن أبي عامر على أبي سفيان. فلما تمكن منه حمل عليه شداد بن الأسود فقتله وكان حنظلة جنبا. فإنه سمع الصيحة وهو على بطن امرأته -: قام من فوره إلى الجهاد فأخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن الملائكة تغسله. وكان الأصيرم - عمرو بن ثابت بن وقش - يأبى الإسلام. وهو من بني عبد الأشهل. فلما كان يوم أحد قذف الله الإسلام في قلبه للحسنى التي سبقت له. فأسلم وأخذ سيفه. فقاتل حتى أثبتته الجراح ولم يعلم أحد بأمره. فلما طاف بنو عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم وجدوا الأصيرم - وبه رمق يسير - فقالوا: والله إن هذا الأصيرم. ثم سألوه ما الذي جاء بك؟ أحدب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال بل رغبة في الإسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمت. ومات من وقته. فذكروه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقال «هو من أهل الجنة ولم يصل لله سجدة قط» . ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. فقال أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك معهم ما يسوءك. ثم قال اعل هبل فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ألا تجيبوه؟ قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: الله أعلى وأجل ثم قال لنا العزى، ولا عزى لكم قال ألا تجيبوه؟ قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم ثم قال يوم بيوم بدر. والحرب سجال فقال عمر: لا سواء قتلانا في

الجنة وقتلاكم في النار وأنزل الله عليهم النعاس في بدر وفي أحد والنعاس في الحرب من الله. وفي الصلاة ومجالس الذكر من الشيطان. وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. ففي الصحيحين عن سعد قال «رأيت رسول الله يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عليهما ثياب بيض. كأشد القتال وما رأيتهما قبل ولا بعد» . ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار - وهو يتشحط في دمه - فقال يا فلان أشعرت أن محمدا قتل؟ فقال الأنصاري إن كان قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم فنزل {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران: ١٤٤]- الآية (١) . وكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله عز وجل به المؤمنين. وأظهر به المنافقين. وأكرم فيه من أراد كرامته بالشهادة. فكان مما نزل من القرآن في يوم أحد إحدى وستون آية من آل عمران أولها {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران: ١٢١]- الآيات (٢) . ولما انصرفت قريش تلاوموا فيما بينهم. وقالوا: لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكتهم ثم تركتموهم وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم. فارجعوا حتى نستأصل بقيتهم. فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فنادى في الناس بالمسير إليهم وقال لا يخرج معنا إلا من شهد القتال فقال له ابن أبي: أركب معك؟ قال لا. فاستجاب له المسلمون - على ما بهم من القرح الشديد - وقالوا: سمعا وطاعة. وقال جابر يا رسول الله إني أحب ألا تشهد مشهدا إلا كنت معك. وإنما خلفني أبي على بناته فأذن لي أسر معك. فأذن له. فسار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد، فبلغ ذلك أبا سفيان ومن معه فرجعوا إلى مكة. وشرط أبو سفيان لبعض المشركين شرطا على أنه إذا مر بالنبي -صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أن يخوفهم ويذكر لهم أن قريشا أجمعوا للكرة عليكم ليستأصلوا بقيتكم. فلما بلغهم ذلك قالوا {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣] ثم دخلت السنة الرابعة. فكانت فيها وقعة خبيب وأصحابه في صفر. [وقعة بئر معونة]

وقعة بئر معونة وفي هذا الشهر بعينه من السنة المذكورة كانت وقعة أهل بئر معونة. وفي شهر ربيع الأول كانت غزوة بني النضير. ونزل فيها سورة الحشر. ثم دخلت السنة الخامسة.

[غزوة المريسيع]

غزوة المريسيع فكانت فيها غزوة المريسيع على بني المصطلق فأغار عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهم غارون. فسبى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - النساء والنعم والشاء. وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث، سيد القوم وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدى عنها رسول

الله -صلى الله عليه وسلم - وتزوجها، فأعتق المسلمون - بسبب هذا التزوج - مائة أهل بيت من بني المصطلق. وقالوا: أصهار رسول الله -صلى الله عليه وسلم -.

[قصة الإفك]

قصة الإفك وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك. وذلك: أن عائشة -رضي الله عنها- خرج بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - معه بقرعة - وتلك كانت عادته مع نسائه - فلما رجعوا: نزل في طريقهم بعض المنازل. فخرجت عائشة لحاجتها، ثم رجعت. ففقدت عقدا عليها. فرجعت تلتمسه. فجاء الذين يرحلون هودجها، فحملوه. وهم يظنونها فيه. لأنها صغيرة السن. فرجعت - وقد أصابت العقد - إلى مكانهم. فإذا ليس به داع ولا مجيب. فقعدت في المنزل وظنت أنهم يفقدونها، ويرجعون إليها. فغلبتها عيناها. فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم -؟ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم. فلما رآها عرفها - وكان يراها قبل الحجاب - فاسترجع. وأناخ راحلته فركبت وما كلمها كلمة واحدة. ولم تسمع منه إلا استرجاعه. ثم سار يقود بها، حتى قدم بها. وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة. فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته. ووجد رأس المنافقين عدو الله عبد الله بن أبي متنفسا. فتنفس من كرب النفاق والحسد. فجعل يستحكي الإفك ويجمعه ويفرقه. وكان أصحابه يتقربون إليه به.

فلما قدموا المدينة: أفاض أهل الإفك في الحديث. ورسول الله -صلى الله عليه وسلم - ساكت لا يتكلم. ثم استشار في فراقها. فأشار عليه علي بفراقها، وأشار عليه أسامة بإمساكها. واقتضى تمام الابتلاء أن حبس الله عن رسوله الوحي شهرا في شأنها، ليزداد المؤمنون إيمانا، وثباتا على العدل والصدق. ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم ولينقطع رجاؤها من المخلوق وتيأس من حصول النصر والفرج إلا من الله. فدخل عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وعندها أبواها. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «يا عائشة إن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري. فإن العبد إذا اعترف بذنبه. ثم تاب تاب الله عليه» . قالت لأبيها: أجب عني رسول الله. قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

فقالت لأمها مثل ذلك وقالت أمها مثل ذلك. قالت فقلت: إن قلت إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني. ولا أجد لي ولكم مثلا. إلا أبا يوسف حيث قال {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨]

قالت فنزل الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فأما أنا: فعلمت أن الله لا يقول إلا الحق. وأما أبواي فوالذي ذهب بأنفاسهما، ما أقلع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - إلا خفت أن أرواحهما ستخرجان. فكان أول كلمة قالها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «أما الله يا عائشة فقد برأك» (١) .

فقال أبواي قومي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. قلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ".

وكان حسان -رضي الله عنه- ممن قيل عنه إنه يتكلم مع أهل الإفك فقال يعتذر إلى عائشة. ويمدحها:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوء وباطل

لئن كان ما قد قيل عني قلته ... فلا رفعت سوطي إلي أناملي

وكيف؟ وودي ما حييت , ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل.

وكانت عائشة لا ترضى أن يذكر حسان بشيء يكرهه وتقول إنه الذي يقول: فإن أبي , ووالدتي , وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء.

فأنزل الله تعالى في هذه القصة أول سورة النور من قوله {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} [النور: ١١] (١) إلى آخر القصة.

[غزوة الأحزاب]

غزوة الأحزاب وفي هذه السنة - وهي سنة خمس - كانت وقعة الخندق في شوال. وسببها: أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين يوم أحد، خرج أشرافهم - كسلام بن أبي الحقيق - وغيره إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ووعدهم من أنفسهم النصر لهم. فأجابتهم قريش. ثم خرجوا إلى غطفان: فاستجابوا لهم ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب. فخرجت قريش - وقائدهم أبو سفيان - في أربعة آلاف. ووافقهم بنو سليم بمر الظهران، وبنو أسد، وفزارة وأشجع وغيرهم. وكان من وافى الخندق من المشركين عشرة آلاف.

فلما سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بمسيرهم إليه استشار أصحابه. فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة. فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فبادر إليه

المسلمون. وعمل فيه بنفسه. وكان في حفره من آيات نبوته ما قد تواتر الخبر به. وخرج -صلى الله عليه وسلم - عليهم وهم يحفرون في غداة باردة. فلما رأى ما بهم من الشدة والجوع. قال: اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا وخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في ثلاثة آلاف من المسلمين. فتحصن بالجبل من خلفه - جبل سلع - وبالخندق أمامه. وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في آطام المدينة. وانطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم فأبى كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له. فلما دخل الحصن قال جئتك بعز الدهر. جئتك بقريش وغطفان وأسد، على قادتها لحرب محمد قال بل جئتني والله بذل الدهر جئتني بجهام قد أراق ماءه. فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء. فلم يزل حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ودخل مع المشركين. وسر بذلك المشركون وشرط كعب على حيي أنهم إن لم يظفروا بمحمد أن يجيء حتى يدخل معهم في حصنهم فيصيبه ما يصيبهم فشرط ذلك ووفى له. وبلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الخبر فبعث إليهم السعدين - سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة - وخوات بن جبير. وعبد الله بن رواحة ليتعرفوا الخبر فلما دنوا معهم وجدوهم على أخبث ما يكون. وجاهروهم بالسب. ونالوا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فانصرفوا ولحنوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - لحنا. فعظم ذلك على المسلمين. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «الله أكبر أبشروا، يا معشر المسلمين» . واشتد البلاء ونجم النفاق. واستأذن بعض بني حارثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - في الذهاب إلى المدينة. وقالوا {إِنَّ بيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: ١٣] (١) . وأقام المشركون محاصرين رسول الله -صلى الله عليه وسلم - شهرا. ولم يكن بينهم قتال لأجل الخندق، إلا أن فوارس من قريش - منهم عمرو بن عبد ود - أقبلوا نحو الخندق. فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها. ثم تيمموا مكانا ضيقا منه وجالت بهم خيلهم في السبخة ودعوا إلى البراز. فانتدب لعمرو: علي بن أبي طالب، فبارزه. فقتله الله على يدي علي. وكان من أبطال المشركين. وانهزم أصحابه. ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف - رئيسي غطفان - على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما. وجرت المفاوضة على ذلك. واستشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم - السعدين. فقالا: إن كان الله أمرك: فسمعا وطاعة. وإن كان شيئا تحب أن تصنعه صنعناه. وإن

كان شيئا تصنعه لنا، فلا. لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف. فصوب رأيهما. وقال «إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة» . ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمرا من عنده خذل به العدو.

فمن ذلك أن رجلا من غطفان - يقال له نعيم بن مسعود - جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فقال قد أسلمت، فمرني بما شئت. فقال «إنما أنت رجل واحد. فخذل عنا ما استطعت. فإن الحرب خدعة» .فذهب إلى بني قريظة - وكان عشيرا لهم - فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه. فقال إنكم قد حاربتم محمدا. وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا انشمروا قالوا: فما العمل؟ قال لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. فقالوا: قد أشرت بالرأي. ثم مضى إلى قريش فقال هل تعلمون ودي لكم ونصحي؟ قالوا: نعم. قال إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم وإنهم قد أرسلوا إلى محمد أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئونه عليكم فإن سألوكم فلا تعطوهم. ثم ذهب إلى غطفان. فقال لهم مثل ذلك. فلما كانت ليلة السبت من شوال بعثوا إلى يهود إنا لسنا معكم بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف. فاغدوا بنا إلى محمد حتى نناجزه فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه. ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن. فلما جاءهم رسلهم قالوا: قد صدقكم والله نعيم. فبعثوا إليهم إنا والله لا نبعث إليكم أحدا. فقالت قريظة قد صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان. وأرسل الله على المشركين جندا من الريح فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها، ولا طنبا إلا قلعته وجندا من الملائكة يزلزلون بهم ويلقون في قلوبهم الرعب كما قال الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب: ٩] (١) . وأرسل رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم. فوجدهم على هذه الحال وقد تهيئوا للرحيل. فرجع إليه فأخبره برحيلهم.

فلما أصبح رسول الله -صلى الله عليه وسلم - انصرف عن الخندق راجعا والمسلمون إلى المدينة. فوضعوا السلاح. فجاءه جبريل وقت الظهر فقال أقد وضعتم السلاح؟ إن الملائكة لم تضع أسلحتها، انهض إلى هؤلاء - يعني بني قريظة - فنادى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» (٢) .

فخرج المسلمون سراعا، حتى إذا دنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من حصونهم قال يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ وحاصرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار. وقذف الله في قلوبهم الرعب. فقال لهم رئيسهم كعب بن أسد: إني عارض عليكم خلالا ثلاثا، خذوا أيها شئتم نصدق هذا الرجل ونتبعه. فإنكم تعلمون أنه النبي الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة. قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا. قال فاقتلوا أبناءكم ونساءكم واخرجوا إليه مصلتي سيوفكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. قالوا: فما خير العيش بعد أبنائنا ونسائنا؟ قال فانزلوا الليلة. فعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوكم فيها لأنها ليلة السبت - لعلنا نصيب منهم غرة. قالوا: لا نفسد سبتنا. وقد علمت ما أصاب من اعتدوا في السبت. قال ما بات رجل منكم - منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما. ثم نزلوا على حكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فحكم فيهم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى النساء والذراري (١) .

وأنزل الله في غزوة الخندق صدر سورة الأحزاب وذكر قصتهم في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [الأحزاب: ٩]- إلى قوله - {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [الأحزاب: ٢٧] (٢) . ثم دخلت السنة السادسة.

[صلح الحديبية]

صلح الحديبية وفيها كانت وقعة الحديبية. وعدة الصحابة إذ ذاك ألف وأربعمائة. وهم أهل الشجرة وأهل بيعة الرضوان خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بهم معتمرا، لا يريد قتالا. فلما كانوا بذي الحليفة قلد رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث عينا من خزاعة يخبره عن قريش. حتى إذا كان قريبا من عسفان أتاه عينه فقالا: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا جموعا، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت. حتى إذا كان ببعض الطريق قال النبي -صلى الله عليه وسلم - إن خالد بن الوليد بكراع الغميم، فخذوا ذات اليمين (١) . فما شعر بهم خالد حتى إذا هو بغبرة الجيش. فانطلق يركض نذيرا. وانطلق رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كان في ثنية المرار، التي يهبط عليهم منها: بركت راحلته فقال الناس حل حل. فقالوا: خلأت القصواء فقال «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال والذي نفس محمد بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»

ثم زجرها فوثبت به. فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء. فلم يلبث الناس أن نزحوه. فشكوا إليه. فانتزع سهما من كنانته. وأمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. وفزعت قريش لنزوله. فأحب أن يبعث إليهم رجلا. فدعا عمر فقال يا رسول الله ليس لي بمكة أحد من بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان. فإن عشيرته بها، وإنه يبلغ ما أردت. فدعاه فأرسله إلى قريش، وقال أخبرهم أنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيبشرهم بالفتح وأن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يتخفى فيها الإيمان. فانطلق عثمان. فمر على قريش. فقالوا: إلى أين؟ فقال بعثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ويخبركم أنه لم يأت لقتال. وإنما جئنا عمارا. قالوا: قد سمعنا ما تقول. فانفذ إلى حاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به. وحمله على الفرس وأردفه أبان حتى جاء مكة. وقال المسلمون قبل أن يرجع خلص عثمان من بيننا إلى البيت. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون قالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال ذلك ظني به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه. واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح. فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر. فكانت معركة. وتراموا بالنبل والحجارة. وصاح الفريقان وارتهن كل منهما من فيهم. وبلغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أن عثمان قد قتل. فدعا إلى البيعة. فتبادروا إليه وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا. فأخذ بيد نفسه وقال هذه عن عثمان. ولما تمت البيعة رجع عثمان فقالوا له اشتفيت من الطواف بالبيت. فقال بئسما ظننتم بي والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة ورسول الله -صلى الله عليه وسلم - وسلم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف. ولقد دعتني قريش إلى الطواف فأبيت. فقال المسلمون رسول الله أعلم بالله وأحسننا ظنا. "وكان عمر أخذ بيد رسول الله -صلى الله عليه وسلم - للبيعة وهو تحت الشجرة فبايعه المسلمون كلهم. لم يتخلف إلا الجد بن قيس. وكان معقل بن يسار آخذا بغصنها يرفعه رسول الله -صلى الله عليه وسلم -. وكان أول من بايعه أبو سنان وهب بن محصن الأسدي وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس ووسطهم وآخرهم.

فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء في نفر خزاعة - وكانوا عيبة نصح لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - من أهل تهامة - فقال إني تركت ابن لؤي وعامر بن لؤي: قد نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل. وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين. وإن قريشا نهكتهم الحرب وأضرت بهم. فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس. فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره. قال بديل سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشا، فقال إني قد جئتكم من عند هذا الرجل وسمعته يقول قولا. فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم هات ما سمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا. فقال عروة بن مسعود إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا: ائته. فأتاه. فجعل يكلمه. فقال له نحوا من قوله لبديل." "فقال عروة أي محمد أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى أوشابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك. فقال أبو بكر: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه؟ . قال عروة من ذا يا محمد؟ قال أبو بكر. قال أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي - لم أجزك بها - لأجبتك. وجعل يكلم النبي -صلى الله عليه وسلم - ويرمق أصحابه. فوالله ما انتخم النبي -صلى الله عليه وسلم - نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم. فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمر ابتدروا أمره. وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم. وما يحدون إليه النظر تعظيما له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم والله لقد وفدت على الملوك - كسرى، وقيصر. والنجاشي - والله إن رأيت ملكا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدا. والله ما انتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده. ثم أخبرهم بجميع ما تقدم ثم قال وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. قال رجل من بني كنانة دعوني آته فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي -صلى الله عليه وسلم - قال هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن. فابعثوها له ففعلوا واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك. قال سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه فأخبرهم." "فبينا هم كذلك إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم - «قد سهل لكم من أمركم» .

فقال هات اكتب بيننا وبينك كتابا. فدعا الكاتب وهو علي بن أبي طالب - فقال «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللّهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال -صلى الله عليه وسلم - «اكتب باسمك اللّهم» ثم قال «اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال «إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله» ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم - «على أن تخلوا بيننا وبين البيت. فنطوف به» فقال سهيل والله لا تحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ولكن ذاك من العام المقبل. فقال سهيل وعلى ألا يأتيك رجل منا، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا فقال المسلمون سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ (١) . فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل وقد خرج من أسفل مكة يرسف في قيوده حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي فقال النبي -صلى الله عليه وسلم - «إنا لم نقض الكتاب بعد» فقال إذا والله لا أصالحك على شيء أبدا. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم - «فأجزه لي» قال ما أنا بمجيزه لك. قال بلى «فافعل قال ما أنا بفاعل» . قال أبو جندل يا معشر المسلمين كيف أرد إلى المشركين" "وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذابا شديدا - قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ. فأتيت النبي -صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله ألست نبي الله؟ قال. بلى. قلت: ألسنا على حق وعدونا على الباطل؟ قال بلى. قلت علام نعطي الدنية في ديننا؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال «إني رسول الله وهو ناصري» . ولست أعصيه. قلت. أو لست تحدثنا: أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال فإنك آتيه ومطوف به. قال فأتيت أبا بكر. فقلت له مثلما قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم -. ورد علي كما رد علي رسول الله -صلى الله عليه وسلم - سواء وزاد فاستمسك بغرزه حتى تموت. فوالله إنه لعلى الحق. فعملت لذلك أعمالا. فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لأصحابه قوموا فانحروا. «ثم احلقوا قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قالها ثلاث مرات» . فلما لم يقم منهم أحد قام ولم يكلم أحدا منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه.

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا. وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما. ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة: ١٠]- حتى بلغ - {بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة: ١٠] (١) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك." "وفي مرجعه -صلى الله عليه وسلم - أنزل الله سورة الفتح {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا - لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ١ - ٢]- الآية فقال عمر أو فتح هو يا رسول الله؟ قال نعم. قال الصحابة هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فأنزل الله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: ٤]- الآيتين إلى قوله - {فَوْزًا عَظِيمًا} [الفتح: ٥] (١) . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلما، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا: العهد الذي بيننا وبينك. فدفعه إلى الرجلين. فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة. فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحدهما: إني أرى سيفك هذا جيدا. فقال أجل. والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أرني أنظر إليه. فأمكنه منه. فضربه حتى برد. وفر الآخر. حتى بلغ المدينة. فدخل المسجد. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «لقد رأى هذا ذعرا» فلما انتهى إليه قال قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير، فقال يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم. فقال -صلى الله عليه وسلم - «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد» . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم. فخرج حتى أتى سيف البحر. وتفلت منهم أبو جندل. فلحق بأبي بصير. فلا يخرج من قريش رجل - قد أسلم - إلا لحق به. حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقاتلوهم" "وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن.

[غزوة خيبر]

غزوة خيبر ولما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من الحديبية، مكث بالمدينة عشرين يوما، أو قريبا منها. ثم خرج إلى خيبر واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة وقدم أبو هريرة حينئذ المدينة مسلما. فوافى سباعا في صلاة الصبح. فسمعه يقرأ {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} [المطففين: ١] فقال - وهو في الصلاة -: ويل أبي فلان له مكيالان إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص.

وقال سلمة بن الأكوع: خرجنا إلى خيبر فقال رجل لعامر بن الأكوع ألا تسمعنا من هنياتك؟ فنزل يحدو ويقول: اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا إنا إذا صيح بنا أتينا ... وبالصياح عولوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا فقال -صلى الله عليه وسلم - من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال رحمه الله فقال رجل من القوم وجبت يا رسول الله لولا متعتنا به؟ . قال فأتينا خيبر، فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة. فلما تصافوا خرج مرحب يخطر بسيفه ويقول - قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب إذا الحروب أقبلت تلهب" "فنزل إليه عامر وهو يقول - قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر فاختلفا ضربتين. فوقع سيف مرحب في ترس عامر فعضه. فذهب عامر يسفل له - وكان سيفه قصيرا - فرجع إليه سيف فأصاب ركبته فمات. قال سلمة فقلت للنبي -صلى الله عليه وسلم - زعموا أن عامرا حبط عمله فقال « كذب من قال ذلك إن له أجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد قل عربي مشى بها مثله» . ولما دنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من خيبر قال قفوا فوقف الجيش. فقال «اللَّهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين. فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها. ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها، وشر ما فيها» . أقدموا باسم الله (١) . فحاصرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قريبا من عشرين ليلة. وكانت أرضا وخمة شديدة الحر. فجهد المسلمون جهدا شديدا. فقام النبي -صلى الله عليه وسلم - فيهم. فوعظهم وحضهم على الجهاد. وكان فيهم عبد أسود فقال يا رسول الله إني رجل أسود اللون قبيح الوجه منتن الريح لا مال لي. فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل أدخل الجنة؟ قال نعم فتقدم. فقاتل حتى قتل فقال النبي -صلى الله عليه وسلم - لما رآه «لقد" "حسن الله وجهك، وطيب ريحك. وكثر مالك وقال لقد رأيت زوجتيه من الحور العين تتنازعان جبة عليه. وتدخلان فيما بين جلده وجبته» . فافتتح رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بعضها، ثم تحول إلى الكتيبة، والوطيح، والسلالم. فإن خيبر كانت جانبين الأول الشق والنطاة، الذي افتتح أولا. والثاني: ما ذكرنا. فحاصرهم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح. ونزل إليه سلام بن أبي الحقيق فصالحهم على حقن الدماء وعلى الذرية ويخرجون من خيبر، ويخلون ما كان لهم من مال وأرض. وعلى الصفراء والبيضاء والحلقة إلا ثوبا على ظهر إنسان. فلما أراد أن يجليهم قالوا: نحن أعلم بهذه الأرض منكم. فدعنا نكون فيها. فأعطاهم إياها، على شطر ما يخرج من ثمرها وزرعها. ثم

قسمها على ستة وثلاثين سهما، كل سهم مائة سهم. فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم. نصفها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - وما ينزل به من أمور المسلمين. والنصف الآخر قسمه بين المسلمين. "فقال إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بعثنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا. فأقمنا حتى قدمنا فتح خيبر. وكان ناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة. فدخلت أسماء بنت عميس على حفصة. فدخل عليها عمر وعندها أسماء. فقال من هذه؟ قالت أسماء. قال الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء نعم قال سبقناكم بالهجرة. نحن أحق برسول الله منكم. فغضبت وقالت كلا والله لقد كنتم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم. وكنا في أرض البعداء البغضاء. وذلك في ذات الله وفي رسوله وأيم الله لا أطعم طعاما، ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم -. فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم - ذكرت له ذلك. فقال ما قلت له؟ قالت قلت له كذا وكذا. قال ليس بأحق بي منكم له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم - يا أهل السفينة - هجرتان. فكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتونها أرسالا، يسألونها عن الحديث ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم -.

[محاصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض اليهود بوادي القرى] محاصرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بعض اليهود بوادي القرى ثم انصرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من خيبر إلى وادي القرى وكان به جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب. فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على غير تعبئة. فقتل مدعم - عبد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم -. كان رفاعة بن زيد الجذامي وهبه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقال الناس هنيئا له الجنة. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - كلا، والذي نفسي بيده. إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها القسمة" "لتشتعل عليه نارا فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - «شراك من نار أو شراكان من نار» . فعبأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أصحابه للقتال وصفهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا. وبرز رجل منهم. فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله. ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله. حتى قتل منهم أحد عشر رجلا. فقاتلهم حتى أمسوا. ثم غدا عليهم. فلم ترتفع الشمس قدر رمح حتى افتتحها عنوة. وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا. فقسمه في أصحابه.

وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها. ولما رجع إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم من النخيل. قالت عائشة -رضي الله عنها- لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر.

[بعث سرية إلى الحرقات] بعث سرية إلى الحرقات ثم بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - سرية إلى الحرقات من جهينة. فلما دنوا منهم بعث الأمير الطلائع. فلما رجعوا بخبرهم أقبل حتى دنا منهم ليلا، وقد هدءوا، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تطيعوني ولا تعصوني، ولا تخالفوا أمري. فإنه لا رأي لمن لا يطاع. ثم رتبهم. فقال يا فلان أنت وفلان ويا فلان أنت وفلان لا يفارق كل منكم صاحبه وزميله وإياكم أن يرجع أحد منكم فأقول. أين صاحبك؟ فيقول لا أدري. فإذا كبرت فكبروا. وجردوا السيوف. ثم كبروا وحملوا حملة واحدة. وأحاطوا بالقوم وأخذتهم سيوف الله." "

[عمرة القضية]

عمرة القضية فلما كان في ذي القعدة من السنة السابعة خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم - معتمرا عمرة القضية. حتى إذا بلغ يأجج (١) وضع الأداة كلها، إلا الجحف والمجان والنبل والرماح. ودخلوا بسلاح الراكب - السيوف - وبعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث يخطبها. فجعلت أمرها إلى العباس. فزوجه إياها. فلما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أمر أصحابه أن يكشفوا عن المناكب ويسعوا في الطواف ليرى المشركون قوتهم - وكان يكايدهم بكل ما استطاع - فوقف أهل مكة - الرجال والنساء والصبيان - ينظرون إليه وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت. وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يرتجز يقول: خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله قد أنزل الرحمن في تنزيله ... في صحف تتلى على رسوله بأن خير القتل في سبيله ... يا رب إني مؤمن بقيله إني رأيت الحق في قبوله ... اليوم نضربكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله ... ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله فأقام بمكة ثلاثا. ثم أتاه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى. فصاح حويطب نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا. فقد مضت" "الثلاث فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أبا رافع فأذن بالرحيل.

[غزوة مؤتة]

ثم دخلت السنة الثامنة فكانت فيها غزوة مؤتة وسببها: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بعث الحارث بن عمير بكتاب إلى ملك الروم - أو بصرى - فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني. فقتله - ولم يقتل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - رسول غيره - فاشتد ذلك عليه فبعث البعوث. واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة فتجهزوا. وهم ثلاثة آلاف. فلما حضر خروجهم. ودع الناس أمراء رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وسلموا عليهم. فبكى عبد الله بن رواحة. فقالوا ما يبكيك؟ فقال أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم. ولكني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم: ٧١] (١) ولست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون صحبكم الله ودفع عنكم. وردكم إلينا صالحين.

فقال ابن رواحة: لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا حتى يقال إذا مروا على جدثي ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا." "ثم مضوا حتى نزلوا معان. فبلغهم أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليه من لخم وجذام وبلي وغيرهم مائة ألف. فأقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم. وقالوا: نكتب إلى رسول الله فنخبره. فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره فشجعهم عبد الله بن رواحة، وقال والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بقوة ولا كثرة وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظفر. وإما شهادة. فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم الجموع. فانحاز المسلمون إلى مؤتة. ثم اقتتلوا عندها والراية في يد زيد. فلم يزل يقاتل بها حتى شاط في رماح القوم. فأخذها جعفر فقاتل بها. حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها. ثم قاتل حتى قطعت يمينه. فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره. فاحتضن الراية حتى قتل. وله ثلاث وثلاثون سنة. -رضي الله عنهم-. ثم أخذها عبد الله بن رواحة. فتقدم بها، وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويقول: أقسم بالله لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه يا طالما قد كنت مطمئنه ... إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالي أراك تكرهين الجنه؟ ويقول أيضا:" "يا نفس إن لم تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت ثم نزل. فأتاه فناداه ابن عم له بعرق من لحم. فقال: شد بهذا صلبك، فإنك لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذها فانتهس منها نهسة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس. فقال: وأنت في الدنيا؟ فألقاها من يده وتقدم. فقاتل حتى قتل. ثم أخذ الراية خالد بن الوليد. فدافع القوم وخاشى بهم (١) ثم انحازوا، وانصرف الناس. وقال ابن عمر: وجدنا ما بين صدر جعفر ومنكبه، وما أقبل منه تسعين جراحة. وقال زيد بن أرقم: كنت يتيما لعبد الله بن رواحة. فخرج بي في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله. فوالله أنه ليسير ذات ليلة، إذ سمعته وهو ينشد شعرا: إذا أديتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحسام فشأنك فانعمي , وخلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلي ورائي وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشام مستنهي (٢) الثواء وردك كل ذي نسب قريب ... إلى الرحمن منقطع الإخاء" "هنالك لا أبالي طلع بعل ... ولا نخل أسافلها ورائي قال: فبكيت. فخفقني بالسوط، وقال: ما عليك يا لكع، أن يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شعبتي الرحل؟ .

[غزوة الفتح الأعظم]

غزوة الفتح الأعظم وكانت سنة ثمان في رمضان. وسببها: أن بكرا عدت على خزاعة في مائهم " الوتير " فبيتوهم، وقتلوا منهم. وكان في صلح الحديبية: " أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش فعل " فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلا بماء، يقال له: الوتير، قريبا من مكة. وأعانت قريش بني بكر بالسلاح. وقاتل معهم بعضهم مستخفيا ليلا، حتى لجأت خزاعة إلى الحرم. فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لنوفل بن معاوية الديلي وكان يومئذ قائدهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة لا إله له اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم. فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم. أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ فخرج عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني أصحابه، فقال: يا رب إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا قد كنتمو ولدا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا" "فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نصرت يا عمرو بن سالم» . ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم،

وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة. بعثته قريش. وقد رهبوا للذي صنعوا» . ثم قدم أبو سفيان. فدخل على ابنته أم حبيبة. فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه. فقال: يا بنية، ما أدري: أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكلمه فلم يرد عليه شيئا ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه في أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر فقال: أنا أشفع لكم؟ والله لو لم أجد إلا الذر، لجاهدتكم به. ثم دخل على علي، وعنده فاطمة - والحسن غلام يدب بين يديها - فقال: يا علي، إنك أمس" "القوم بي رحما، وإني جئت في حاجة، فلا أرجعن خائبا. اشفع لي إلى محمد. فقال: قد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه. فقال لفاطمة: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس. فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: ما يبلغ ابني ذلك. وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: يا أبا الحسن، إني رأيت الأمور قد اشتدت علي، فانصحني. قال: والله ما أعلم شيئا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم وأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. فقال: أوترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا، والله ما أظنه، ولكن ما أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: يا أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره، وانصرف عائدا إلى مكة. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدا فكلمته، فوالله ما رد علي شيئا. ثم جئت ابن أبي قحافة. فلم أجد فيه خيرا. ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو - يعني: أعدى العدو - ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم. وقد أشار علي بكذا وكذا. ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها» ." "فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابا، يخبرهم فيه بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم. ودفعه إلى سارة - مولاة لبني عبد المطلب - فجعلته في رأسها. ثم فتلت عليه قرونها. وأتى الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء. فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير إلى المرأة، فأدركاها بروضة خاخ. فأنكرت. ففتشا رحلها، فلم يجدا فيه شيئا. فهدداها. فأخرجته من قرون رأسها. فأتيا به رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدعا حاطبا. فقال: «ما هذا يا حاطب» ؟ "

فقال: لا تعجل علي يا رسول الله. والله إني لمؤمن بالله ورسوله. وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرءا ملصقا في قريش، لست من أنفسهم. ولي فيهم أهل وعشيرة وولد. وليس لي فيهم قرابة يحمونهم. وكان من معك لهم قرابات يحمونهم. فأحببت أن أتخذ عندهم يدا. قد علمت أن الله مظهر رسوله، ومتم له أمره. فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله. وقد نافق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنه قد شهد بدرا وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم. فقد غفرت لكم» (١) . فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمى الله الأخبار عن قريش، لكنهم على وجل. فكان أبو سفيان يتجسس، هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء. وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلما مهاجرا. فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة. فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران نزل العشاء،" "فأمر الجيش فأوقدوا النيران. فأوقد أكثر من عشرة آلاف نارا. فركب العباس بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحطابة، أو أحدا يخبر قريشا، ليخرجوا يستأمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخلها عنوة. قال: فوالله إني لأسير عليها، إذ سمعت كلام أبي سفيان، وبديل، يتراجعان، يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حمشتها الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها. فقلت: أبا حنظلة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: ما لك، فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ . قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك. فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتيه بك، فأستأمنه لك. فركب خلفي. ورجع صاحباه. فجئت به. فكلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأونا قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته. حتى مررت بنار عمر، فقال: من هذا؟ وقام إلي. فلما رأى أبا سفيان قال: عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وركضت البغلة فسبقته، واقتحمت عنها. فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليه عمر. فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني أضرب عنقه. فقلت: يا رسول الله، إني قد أجرته." "فلما أكثر عمر، قلت: مهلا يا عمر. فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا. قال: مهلا يا عباس. فوالله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم. وما بي إلا

أني عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب به يا عباس إلى رحلك. فإذا أصبحت فائتني به» . ففعلت. ثم غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن أن تعلم: ألا إله إلا الله» ؟ " قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم: أني رسول الله» ؟ " قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. أما هذه ففي النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك. وأسلم قبل أن يضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم. فقال العباس: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا، قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن» . فلما ذهب لينصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها» قال: فخرجت حتى حبسته. ومرت القبائل على راياتها. حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء - لكثرة الحديد وظهوره فيها - فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق. فقال: سبحان الله! يا عباس. من هؤلاء؟ قلت: هذا" "رسول في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء طاقة. وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان، قال: اليوم يوم الملحمة. اليوم تستحل الحرمة. اليوم أذل الله قريشا. فذكره أبو سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال « كذب سعد. ولكن هذا اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله قريشا» ثم نزع اللواء من سعد. ودفعه إلى قيس ابنه. ومضى أبو سفيان. فلما جاء قريشا صرخ بأعلى صوته. هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة من أعلاها، وأمر خالد بن الوليد فدخلها من أسفلها، وقال: «إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدا، حتى توافوني على الصفا» . فما عرض لهم أحد إلا أناموه. وتجمع سفهاء قريش عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، بالخندمة ليقاتلوا. وكان حماس بن قيس يعد سلاحا قبل مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت له امرأته: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال: إن يقبلوا اليوم فمالي علة ... هذا سلاح كامل وإله وذو غرارين سريع

السله" "ثم شهد الخندمة. فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد، ناوشوهم شيئا من قتال، فأصيب من المشركين اثنا عشر، ثم انهزموا. فدخل حماس على امرأته، فقال: اغلقي علي بابي. فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال: إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه وأبو يزيد قائم كالمؤتمه ... واستقبلتنا بالسيوف المسلمه يقطن كل ساعد وجمجمه ... ضربا فلا يسمع إلا غمغمه لهم نهيت خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي باللوم أدنى كلمه وقال أبو هريرة: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخل مكة. فبعث الزبير على إحدى المجنبتين. وبعث خالدا على المجنبة الأخرى. وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الحسر. فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته. وقد وبشت قريش أوباشها، وقالوا: نقدم هؤلاء. فإذا كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطيناه الذي سألنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة "، فقلت: لبيك يا رسول الله. قال: " اهتف لي بالأنصار. ولا يأتيني إلا أنصاري " فهتفت بهم، فجاءوا. فأطافوا برسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: " أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ - ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى - احصدوهم حصدا، حتى توافوني على الصفا» قال أبو هريرة: فانطلقنا. فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء إلا قتل. وركزت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون عند مسجد الفتح. ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد. فأقبل إلى الحجر فاستلمه. ثم طاف بالبيت. وفي يده قوس، وحول البيت وعليه، ثلاثمائة وستون صنما. فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١] (١)" "{جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} [سبأ: ٤٩] (١) والأصنام تتساقط على وجوهها. وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرما يومئذ، فاقتصر على الطواف. فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة. فأمر بها ففتحت. فدخلها. فرأى فيها الصور، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام. فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بها قط» وأمر بالصور فمحيت. ثم أغلق عليه الباب، هو وأسامة وبلال. فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب. حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك. ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله. ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا، ينظرون ماذا يصنع بهم؟ فأخذ بعضاتي الباب وهم تحته. فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. صدق وعده. ونصر عبده. وأعز جنده. وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة، أو مال، أو دم، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج. ألا وقتل الخطأ

شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب " ثم تلا هذه الآية: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] (٢) » ." "ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي - ومفتاح الكعبة في يده - فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية. صلى الله عليك. فقال صلى الله عليه وسلم: «أين عثمان بن طلحة "؟ فدعي له، فقال: " هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء» . وأمر بلالا أن يصعد على الكعبة فيؤذن - وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة - فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء. فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر ذلك لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله. والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا. فنقول: أخبرك. ثم دخل صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ فاغتسل. وصلى ثمان ركعات، صلاة الفتح. وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلدا صلوا هذه الصلاة. ولما استقر الفتح: أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس كلهم، إلا تسعة نفر. فأنه أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة: عبد الله بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل، وسارة مولاة لبني عبد المطلب." "فأما ابن أبي سرح: فجاء فارا إلى عثمان. فاستأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقبل منه، بعد أن أمسك عنه، رجاء أن يقوم إليه بعض أصحابه فيقتله. وأما عكرمة: فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب، وعادت به، فأسلم وحسن إسلامه. وأما ابن خطل، ومقيس، والحارث، وإحدى القينتين: فقتلوا. وأما هبار: ففر ثم جاء فأسلم. وحسن إسلامه. واستؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لسارة، ولإحدى القينتين. فأسلمتا. فلما كان الغد من يوم الفتح: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس خطيبا. فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض. فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر: أن يسفك بها دما، أو

يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا له: إن الله أذن لرسوله. ولم يأذن لك. وإنما أحلت لي ساعة من نهار» . «وهم فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف. فلما دنا منه، قال " أفضالة؟ " قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: " ماذا تحدث به نفسك؟ " قال: لا شيء. كنت أذكر الله، فضحك صلى الله عليه وسلم. ثم قال: " استغفر الله " ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه» . وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي.
فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث. فقال: لا. وانبعث فضالة يقول: "قالت: هلم إلى الحديث. فقلت: لا ... يأبى الإله عليك والإسلام لو قد رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام وفر يومئذ صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل. فاستأمن عمير بن وهب رسول الله لصفوان، فلحقه. وهو يريد أن يركب البحر فرده. واستأمنت أم حكيم بنت الحارث بن هشام لزوجها عكرمة، فلحقت به باليمن فردته. ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم. وبعث صلى الله عليه وسلم سراياه إلى الأوثان التي حول مكة فكسرت كلها، منها اللات والعزى ومناة. ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فلا يدع في بيته صنما إلا كسره.
[هدم عمرو بن العاص صنم سواع] هدم عمرو بن العاص صنم سواع وبعث عمرو بن العاص في شهر رمضان إلى سواع - وهو لهذيل - قال: فأتيته وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أهدمه قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لم؟ قال: تمنع. قلت: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك. وهل يسمع أو يبصر؟ فدنوت منه فكسرته. وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته. فلم نجد فيه شيئا. فقلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

[بعث سعد بن زيد لهدم مناة]

بعث سعد بن زيد لهدم مناة ثم بعث سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل،""الأشهلي الأنصاري، في شهر رمضان إلى مناة. وكانت عند قديد بالمشلل، للأوس والخزرج وغسان وغيرهم.

فخرج في عشرين فارسا، حتى انتهى إليها. وعندها سادنها، فقال: ما تريد؟ قال: هدمها. قال: أنت وذاك. فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء، ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها. فقال لها السادن: مناة، دونك بعض عصاتك. فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه. ولم يجدوا في خزانتها شيئا.

[غزوة حنين]

غزوة حنين قال ابن إسحاق: لما سمعت هوازن بالفتح، جمعها مالك بن عوف النصري مع هوازن ثقيف كلها. فلما أجمع مالك السير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وذراريهم. فلما نزل بأوطاس، اجتمعوا إليه. وفيهم دريد بن الصمة الجشمي، وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه، وكان شجاعا مجربا. فقال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل. لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير. ويعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: أين مالك؟ فدعي له، فقال: إنك أصبحت رئيس قومك. وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام. فلم فعلت هذا؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله، ليقاتل عنهم. قال: راعي ضأن والله، وهل يرد "المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك: لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك: فضحت في أهلك ومالك. ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم يغيبوا. ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب. فمن شهدها؟ قالوا عمرو بن عامر، وعوف بن عامر. قال: ذانك الجذعان من عامر، لا ينفعان ولا يضران. يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة - بيضة هوازن - إلى نحور الخيل شيئا. ارفعهم إلى ممتنع بلادهم، وعلياء قومهم. ثم الق الصبا على متون الجيل. فإن كانت لك: لحق بك من وراءك. وإن كانت عليك: ألفاك ذاك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل إنك قد كبرت وكبر عقلك. والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر، أو رأي. قالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني. يا ليتني فيها جذع ... أخب فيها وأضع أقود وطفاء الزمع (١) ... كأنها شاة صدع ثم قال مالك: إذا رأيتموهم، فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد. ثم بعث عيونا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب" "والهلع.

فقال لهم: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق. والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى. فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد. ولما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي. وأمره أن يداخلهم حتى يعلم علمهم. فانطلق. فداخلهم حتى علم ما هم عليه. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره الخبر. فلما أراد المسير، ذكر له: أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا - وهو يومئذ مشرك - فقال له: «يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا، نلق فيه عدونا غدا» فقال: أغصبا يا محمد؟ قال: «بل عارية مضمونة، حتى نؤديها إليك» فأعطاه مائة درع بما يكفيها السلاح. فخرج صلى الله عليه وسلم. ومعه ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة. فكانوا اثني عشر ألفا. واستعمل عتاب بن أسيد على مكة. فلما استقبلوا وادي حنين، انحدروا في واد من أودية تهامة أجوف في عماية الصبح. قال جابر: وكانوا قد سبقونا إليه، فكمنوا في شعابه ومضايقه. قد تهيئوا. فوالله ما راعنا إلا الكتائب، قد شدوا علينا شدة رجل واحد، فانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، ثم قال: «يا أيها الناس: هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» . وبقي معه نفر من المهاجرين، وأهل بيته، فاجتلد الناس. فوالله ما رجعت الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانوا حين رأوا كثرتهم قالوا: " لن نغلب اليوم عن قلة " فوقع بهم ما" "وقع ابتلاء من الله لقولهم ذلك. قال ابن إسحاق: ولما وقعت الهزيمة: تكلم رجال من جفاة أهل مكة بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان، لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم. فقال له أخوه صفوان بن أمية - وكان بعد مشركا - اسكت، فض الله فاك. فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. وذكر ابن إسحاق عن شيبة بن عثمان الحجبي. قال: لما كان يوم الفتح قلت: أسير مع قريش إلى هوازن، لعلي أصيب من محمد غرة. فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا تبعه، ما اتبعته أبدا. فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بغلته وأصلت السيف، فدنوت أريد ما أريد، ورفعت سيفي حتى كدت أسوره. فرفع لي شواظ من نار كالبرق، كاد أن يمحشني فوضعت يدي على بصري خوفا عليه. فالتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فناداني «يا شيب، ادن " فدنوت، فمسح صدري. ثم قال: " اللهم أعذه من الشيطان» فوالله لهو كان ساعتئذ أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي. ثم قال: «ادن،

فقاتل» فتقدمت أمامه أضرب بسيفي. الله يعلم أني أحب أن أقيه بنفسي. لو لقيت تلك الساعة أبي لأوقعت به السيف. فجعلت ألزمه فيمن لزمه، حتى تراجع الناس، وكروا كرة رجل واحد. وقربت بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فاستوى عليها. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم حتى تفرقوا، في كل وجه. ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معسكره، فدخل خباءه.
فدخلت عليه، ما دخل عليه غيري، حبا لرؤية وجهه، وسرورا به. فقال: «يا شيب، الذي أراد الله لك، خير من الذي أردت لنفسك» ." "قال العباس: إني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكنت امرءا جسيما شديد الصوت - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - حين رأى ما رأى من الناس - «إلي أيها الناس، أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب» فلم أر الناس يلوون على شيء. فقال: «أي عباس، اهتف بأصحاب السمرة» (١) " فناديت: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة. فكان الرجل يريد أن يرد بعيره فلا يقدر. فيأخذ سلاحه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله. ويؤم الصوت، فأتوا من كل ناحية: لبيك، لبيك. حتى إذا اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. فكانت الدعوة أولا: " يا للأنصار، يا للأنصار "، ثم خلصت الدعوة: " يا لبني الحارث بن الخزرج "، وكانوا صبرا عند الحرب. وفي صحيح مسلم: «ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات. فرمى بها وجوه القوم. ثم قال: انهزموا، ورب محمد. فما هو إلا أن رماهم، فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرا» . ولما انهزم المشركون أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف. وعسكر بعضهم بأوطاس. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثر من توجه نحو أوطاس أبا عامر الأشعري، فأدرك بعضهم فناوشوه القتال، فهزمهم الله تعالى. وقتل أبو عامر. فأخذ الراية أبو موسى الأشعري. فلما بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم اغفر لأبي عامر. واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك» . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبي والغنائم أن يجمع.
وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل: أربعة وعشرين ألفا، والغنم أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة." "فاستأنى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقدموا موالين مسلمين، بضعة عشر ليلة. ثم بدأ بالأموال فقسمها: وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان مائة من الإبل.
وأربعين أوقية. وأعطى ابنه يزيد مثل ذلك. وأعطى ابنه معاوية مثل ذلك. وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل. ثم سأله مائة أخرى فأعطاه.

وذكر ابن إسحاق أصحاب المائة وأصحاب الخمسين. ثم أمر زيد ثابت بإحصاء الغنائم والناس، ثم فضها على الناس. قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجدت الأنصار في أنفسهم. حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه. فدخل عليه سعد بن عبادة، فذكر له ذلك. فقال: " فأين أنت من ذلك يا سعد؟ " قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: " فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة " فجاء رجال من المهاجرين. فتركهم فدخلوا. وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا، أتاه سعد فأخبره. فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: " يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟ وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا. فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي» ؟ ". قالوا الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار» ؟ "." "قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله، لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة (١) من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار: أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار. ولو سلك الناس شعبا وواديا، وسلكت الأنصار شعبا وواديا، لسلكت شعب الأنصار وواديها. الأنصار شعار. والناس دثار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار» . قال: فبكى القوم، حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا. وقدمت الشيماء بنت الحارث - أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة - فقالت: يا رسول الله، أنا أختك، فبسط لها رداءه. وأجلسها عليه. وقال: «إن أحببت فعندي مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك» فقالت: بل تمتعني، وتردني إلى قومي. ففعل وأسلمت. فأعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء.

[المن على سبي هوازن] المن على سبي هوازن وقدم وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أربعة عشر رجلا. فسألوه:" "أن يمن عليهم بالسبي والأموال، فقال: «إن معي من ترون، وإن

أحب الحديث إلي أصدقه. فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم، أم أموالكم؟» ، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا. فقال: «إذا صليت الغداة فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين، وبالمؤمنين على رسول الله أن يرد إلينا سبينا» . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغداة قاموا، فقالوا ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب: فهو لكم، وسأسأل لكم الناس» . فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال العباس: وهنتموني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين. وقد استأنيت بسبيهم، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا. فمن كان عنده شيء فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك. ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرده عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا» فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: «إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فردوا عليهم أبناءهم ونساءهم، وكسا النبي صلى الله عليه وسلم السبي قبطية قبطية» ."

"[فتح مكة] فصل لما أتم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فتح مكة: اقتضت حكمة الله أن أمسك قلوب هوازن عن الإسلام، لتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر حزبه على الشوكة التي لم يلق المسلمون مثلها. فلا يقاومهم أحد بعد من العرب. وأذاق المسلمين أولا مرارة الكسرة، مع قوة شوكتهم، ليطامن رؤوسا رفعت بالفتح، ولم تدخل حرمه كما دخله رسوله صلى الله عليه وسلم واضعا رأسه، منحنيا على فرسه، حتى إن ذقنه ليكاد يمس قربوس سرجه تواضعا لربه. وليبين سبحانه - لمن قال: " لن نغلب اليوم عن قلة " - إن النصر إنما هو من عنده سبحانه، وأن من يخذله فلا ناصر له غيره. وأنه سبحانه الذي تولى نصر دينه، لا كثرتكم. فلما انكسرت قلوبهم، أرسل إليها خلع الجبر مع بريد النصر: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة: ٢٦] (١) وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر إنما تفيض على أهل الانكسار: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: ٥] (٢) . [غزوة الطائف] غزوة الطائف ولما أراد المسير إلى الطائف - وكانت في شوال سنة ثمان - بعث الطفيل بن عمرو

إلى ذي الكفين - صنم عمرو بن حممة الدوسي - يهدمه، وأمره أن يستمد قومه يوافيه بالطائف - فخرج سريعا، فهدمه وجعل يحثو النار في وجهه ويقول: -" "يا ذا الكفين , لست من عبادكا ... ميلادنا أكبر من ميلادكا إني حشوت النار في فؤادكا وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا. فوافوا النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف - بعد مقدمه بأربعة أيام - وقدم بدبابة ومنجنيق. قال ابن سعد: لما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم، وتهيئوا للقتال. وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزل قريبا من حصن الطائف. وعسكر هناك. فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا، كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة. وقتل منهم اثنا عشر رجلا. فارتفع صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف اليوم. فحاصرهم ثمانية عشر يوما. ونصب عليهم المنجنيق - وهو أول من رمى به في الإسلام - وأمر بقطع أعناب ثقيف. فوقع الناس فيها يقطعون، فسألوه: أن يدعها لله وللرحم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإني أدعها لله وللرحم» . ونادى مناديه: " أيما عبد نزل من الحصن، وخرج إلينا. فهو حر " فخرج منهم بضعة عشر رجلا، فيهم أبو بكرة بن مسروح، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودفع كل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه. ولم يأذن في فتح الطائف. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأذن بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فاغدوا على القتال» فغدوا، فأصابهم جراحات. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا قافلون إن شاء الله» فسروا بذلك. وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك. فلما ارتحلوا واستقلوا قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا" "حامدون» وقيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفا وائت بهم» . ثم خرج إلى الجعرانة. فدخل منها إلى مكة محرما بعمرة فقضاها. ثم رجع إلى المدينة."" [وفد ثقيف] فصل قال ابن إسحاق: وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من تبوك في رمضان. وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف. وكان من حديثهم: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عنهم " اتبع أثره عروة بن مسعود، حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة. فأسلم، وسأله: أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن فيهم نخوة الامتناع» فقال: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبكارهم. وكان فيهم كذلك محببا مطاعا. فخرج يدعوهم إلى الإسلام، رجاء ألا يخالفوه، لمنزلته فيهم. فلما أشرف لهم على علية - وقد دعاهم إلى الإسلام - رموه بالنبل من كل وجه. فأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة

أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي. فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم. فادفنوني معهم، فدفنوه معهم. فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه» . ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة شهرا. ثم ائتمروا بينهم. ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد أسلموا وبايعوا. فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا، كما أرسلوا عروة. فكلموا عبد ياليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك. فأبى، وخشي أن يصنع به كما صنع بعروة. فقال: لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجالا." "فأجمعوا أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، منهم عثمان بن أبي العاص. فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة، ألفوا بها المغيرة بن شعبة. فاشتد ليبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدومهم. فلقيه أبو بكر، فقال: أقسمت عليك بالله، لا تسبقني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أكون أنا أحدثه، ففعل. ثم خرج المغيرة إلى أصحابه، فروح الظهر معهم. وعلمهم كيف يحيون رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية. فضرب عليهم قبة في ناحية المسجد. وكان فيما سألوه: أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنوات، فأبى. فما برحوا يسألونه سنة، فيأبى. حتى سألوه شهرا واحدا. فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى. وإنما يريدون بذلك - فيما يظهرون - أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم، ويكرهون أن يروعوهم بهدمها، حتى يدخلهم الإسلام. فأبى إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها. فلما أسلموا أمر عليهم عثمان بن أبي العاص - وكان من أحدثهم سنا - وذلك: أنه كان من أحرصهم على التفقه في الدين، وتعلم القرآن. فلما توجهوا راجعين بعث معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة: أن يقدم أبا سفيان، فأبى، وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بماله بذي الهدم. فلما دخل المغيرة علاها يضربها بالمعول. وقام دونه بنو مغيث، خشية أن يرمى، كما فعل بعروة، وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها. فلما هدمها أخذ مالها وحليها وأرسل به إلى أبي سفيان." "[ما في غزوة الطائف من الفقه] ما في غزوة الطائف من الفقه فيها من الفقه: جواز القتال في الأشهر الحرم. ونسخ تحريم ذلك. وفيها: أنه لا يجوز إبقاء مواضع الطواغيت والشرك بعد القدرة عليها يوما واحدا. فإنها شعائر الكفر. وهي أعظم المنكرات. وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا تعبد من دون الله، وكذلك الأحجار والأشجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر لها وكثير منها بمنزلة اللات والعزى، أو أعظم شركا عندها، وبها. ولم يكن أحد من

أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلف وترزق، وتميت وتحيي. وإنما كانوا يفعلون عندها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم. وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، وغلبة التقاليد. وصار المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والسنة بدعة والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير. وطمست الأعلام. واشتدت غربة الإسلام. ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وفيها: صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد من عابديها. فيجب على الإمام أن يصرفها في الجهاد ومصالح المسلمين وكذلك أوقافها تصرف في مصالح المسلمين. "[حوادث سنة تسع]

فصل حوادث سنة تسع ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ودخلت سنة تسع، بعث المصدقين يأخذون الصدقات من الأعراب. وفيها: بعث عليا رضي الله عنه إلى صنم طيئ ليهدمه. فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر. فهدموه. وملئوا أيديهم من السبي والنعم والشاء. وفي السبي سفانة أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام. ووجدوا في خزانته ثلاثة أسياف، وثلاثة أدرع. وقسم علي الغنائم في الطريق، ولم يقسم السبي من آل حاتم حتى قدم بهم المدينة. قال عدي: ما كان رجل من العرب أشد كراهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني، حين سمعت به. وكنت رجلا شريفا نصرانيا. وكنت أسير في قومي بالمرباع. وكنت في نفسي على دين. فقلت لغلام لي راع لإبلي: اعدد لي من إبلي أجمالا ذللا سمانا. فإذا سمعت بجيش محمد قد وطئ هذه البلاد فآذني. فأتاني ذات غداة، فقال: ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنع الآن. فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها؟ فقالوا: هذه جيوش محمد. قلت: قرب لي أجمالي. فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلفت بنتا لحاتم في الحاضرة. فلما قدمت الشام أقمت بها، وتخالفني خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتصيب ابنة حاتم، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبايا من طيئ. وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربي إلى الشام. فمر بها. فقالت: «يا رسول "الله، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمن علي. من الله عليك. فقال: " من وافدك؟ . قالت: عدي بن حاتم، قال: " الذي فر من الله ورسوله؟ " - وكررت عليه القول ثلاثة أيام - قالت: فمن علي، وسألته الحملان، فأمر لها به وكساها وحملها وأعطاها نفقة» .

فأتتني. فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها. ائته راغبا أو راهبا، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه. قال: فأتيته، وهو جالس في المسجد. فقال القوم: هذا عدي بن حاتم - وجئت بغير أمان ولا كتاب - فأخذ بيدي - وكان قبل ذلك قال: " إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي " - فقام إلي، فلقيت امرأة ومعها صبي. فقالا: إن لنا إليك حاجة. فقام معهما حتى قضى حاجتهما. ثم أخذ بيدي حتى أتى داره. فألقت له الوليدة وسادة. فجلس عليها، وجلست بين يديه. فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «ما يفرك؟ أيفرك (١) أن يقال: " لا إله إلا الله؟ " فهل تعلم من إله سوى الله؟ " فقلت: لا. فتكلم ساعة. ثم قال: " أيفرك أن يقال: الله أكبر؟ وهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ " قلت: لا، قال: " فإن اليهود مغضوب عليهم. والنصارى ضالون "، فقلت: فإني حنيف مسلم. فرأيت وجهه ينبسط فرحا» . ثم أمر بي فأنزلت عند رجل من الأنصار. وجعلت آتيه طرفي النهار. فبينا أنا عنده، إذ جاءه قوم في ثياب من صوف من هذه الثمار، فصلى ثم قام. فحث بالصدقة عليهم، وقال: «أيها الناس، ارضخوا من الفضل ولو بصاع، ولو بنصف صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، يقي أحدكم" "وجهه حر جهنم - أو النار - ولو بتمرة، ولو بشق تمرة. فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة. فإن أحدكم لاق الله، فقائل له أقول لكم: ألم أجعل لك مالا وولدا؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فلينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله. فلا يجد شيئا يقي به وجهه حر جهنم، ليق أحدكم وجهه النار، ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فكلمة طيبة. فإني لا أخاف عليكم الفاقة. فإن الله ناصركم ومعطيكم، حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة، ما تخاف على مطيتها السرق» . فجعلت أقول: فأين لصوص طيئ؟ (١) ." "[غزوة تبوك]

فصل في غزوة تبوك قال ابن إسحاق: كانت في زمان عسرة من الناس، وجدب من البلاد، حين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم. وكان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا ورى بغيرها، إلا ما كان منها، فإنه جلاها للناس لبعد الشقة، وشدة الزمان. فقال ذات يوم - وهو في جهازه - للجد بن قيس «هل لك في جلاد بني الأصفر؟ " فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني؛ فقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر، ألا أصبر، فقال: " قد أذنت لك» ففيه نزلت: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي} [التوبة: ٤٩] الآية (١) . وقال قوم من المنافقين، بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، فنزل: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا

فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١] الآية (٢) . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حض أهل الغنى على النفقة. فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا. وأنفق عثمان ثلاثمائة بعير بأحلاسها، وأقتابها وعدتها، وألف دينار عينا. وجاء البكاءون - وهم سبعة - يستحملون رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: «لا "أجد ما أحملكم عليه» تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون. وقام علبة بن يزيد، فصلى من الليل وبكى. ثم قال: «اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها: من مال، أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس. فقال النبي صلى الله عليه وسلم أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال: أين المتصدق؟ فلم يقم. فقام إليه فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم: أبشر، فوالذي نفس محمد بيده، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة» ". وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم، فلم يعذرهم. واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم، تخلف عبد الله بن أبي ومن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم الثلاثة - كعب بن مالك. وهلال بن أمية. ومرارة بن الربيع - وأبو خيثمة السالمي، وأبو ذر. . . ثم لحقاه. وشهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثين ألفا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس. وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة، وهرقل يومئذ بحمص. قال ابن إسحاق: «ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم خلف عليا على أهله. فقال المنافقون: ما خلفه إلا استثقالا له، وتخففا منه، فأخذ سلاحه ولحق به بالجرف، فقال: يا نبي الله: زعم المنافقون: أنك ما خلفتني إلا استثقالا، فقال: " كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أولا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي "بعدي» فرجع. ودخل أبو خيثمة إلى أهله في يوم حار، بعد ما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له ماء، وهيأت له طعاما. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا. فقال: رسول الله في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم. فهيئا لي زادا، ففعلتا. ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل تبوك. وقد كان عمير بن وهب الجمحي أدرك أبا خيثمة، في الطريق فترافقا،

حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة له: إن لي ذنبا. فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعل. حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كن أبا خيثمة " قالوا: يا رسول الله، هو والله، هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له: " أولى لك يا أبا خيثمة " فأخبره الخبر، فقال له خيرا، ودعا له.» وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما مر بالحجر - من ديار ثمود - قال: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم» وقال: «لا تشربوا من مائها شيئا، ولا تتوضئوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا، وأمرهم أن يهرقوا الماء، وأن يستقوا من" "البئر التي كانت تردها الناقة» . وفي صحيح مسلم عن أبي حميد الساعدي قال: «انطلقنا حتى قدمنا تبوك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة. فلا يقم أحد منكم. فمن كان له بعير فليشد عقاله. فهبت ريح شديدة، فقام رجل. فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ» . قال ابن إسحاق: وأصبح الناس ولا ماء معهم. فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا الله. فأرسل الله سحابة. فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء. ثم سار حتى إذا كان ببعض الطريق جعلوا يقولون: تخلف فلان، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ".» . وتلوم على أبي ذر بعيره. فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا. ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض منازله. فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كن أبا ذر " فلما تأملوه. قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر. فقال: " رحم الله أبا ذر. يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» . وفي صحيح ابن حبان عن أم ذر قالت " لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: وما لي لا أبكي، وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفنا، ولا يدان لي في تغيبك؟ فقال: أبشري ولا تبكي، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر - وأنا فيهم -: «ليموتن" "رجل منكم بفلاة من الأرض، يشهده عصابة من المسلمين. وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعة» ، فأنا ذلك الرجل، فوالله ما كذبت ولا كذبت. فأبصري الطريق. فكنت أشتد إلى الكثيب أتبصر، ثم أرجع فأمرضه. فبينا أنا وهو كذلك، إذا أنا

برجال على رحالهم، كأنهم الرخم، تخب بهم رواحلهم، قالت: فأشرت إليهم. فأسرعوا إلي حتى وقفوا علي. فقالوا: يا أمة الله، ما لك؟ قلت: امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه. قالوا: من هو؟ قلت: أبو ذر، قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه. فقال لهم: أبشروا، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذكر الحديث - ثم قال: وإنه لو كان عندي ثوب يسعني كفنا لي ولامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي، أو لها. فإني أنشدكم الله ألا يكفنني رجل منكم كان أميرا أو عريفا، أو بريدا أو نقيبا. وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال إلا فتى من الأنصار، قال: يا عم، أنا أكفنك في ردائي هذا. وفي ثوبين في عيبتي من غزل أمي، قال: فأنت تكفنني، فكفنه الأنصاري، وأقاموا عليه ودفنوه في نفر كلهم يمان ". ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، أتاه صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جربا وأذرح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم كتابا. فهو عندهم. ثم بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة، وقال لخالد: «إنك تجده يصيد البقر» فخرج خالد، حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة - وهو على سطح له - فبانت البقر تحك بقرونها باب القصر. فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك مثل" "هذه؟ قال: لا أحد. ثم نزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته. فلما خرجوا، تلقتهم خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذته وقتلوا أخاه. وقدم به خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحقن له دمه. وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله. فرجع إلى قريته. قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة. ثم انصرف إلى المدينة. قال: وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: أن ابن مسعود كان يحدث، قال: " قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها. فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر. وإذا عبد الله ذو البجادين - والبجاد الكساء الأسود - المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته، وأبو بكر وعمر، يدليانه إليه. وهو يقول: أدليا إلي أخاكما. فأدلياه إليه. فلما هيأه لشقه، قال: اللهم إني قد أمسيت راضيا عنه، فارض عنه " قال: يقول عبد الله بن مسعود: " يا ليتني كنت صاحب الحفرة ".

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك، حتى كان بينه وبين المدينة ساعة. وكان أصحاب مسجد الضرار أتوه - وهو يتجهز إلى تبوك - فقالوا: «يا رسول الله، إنا بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة. وإنا نحب أن تصلي فيه. فقال: " إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ". فلما نزل بذي أوان، جاءه خبر المسجد من السماء فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي. فقال: " انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله،" "فاهدماه، وحرقاه " فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم بن عوف - وهم رهط مالك بن الدخشم - فقال لمعن أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه، وفيه أهله، فحرقاه وهدماه» ، وأنزل الله سبحانه {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٠٧] إلى قوله {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١١٠] (١) . قال ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدا، فقال لهم أبو عامر الفاسق: ابنوا مسجدكم، واستعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح. فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآت بجند من الروم، فأخرج محمدا وأصحابه. فلما فرغوا من بنائه: أتوا النبي صلى الله عليه وسلم. فقالوا: إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا. ونحب أن تصلي فيه، وتدعو بالبركة. فأنزل الله عز وجل: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} [التوبة: ١٠٨] إلى قوله: {لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [التوبة: ١١٠] يعني الشك {إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} [التوبة: ١١٠] يعني بالموت. ولما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة، خرج الناس لتلقيه، والنساء والصبيان والولائد يقلن: طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. وأنزل الله فيها سورة براءة." "وكانت تسمى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده " المبعثرة " لما كشفت من سرائر المنافقين وخبايا قلوبهم. وفي غزوة تبوك: كانت قصة تخلف كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفي. ممن شهدوا بدرا. ولم يكن لهم عذر في التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جاء المعذرون من الأعراب من المنافقين، يحلفون أنهم كانوا معذورين. فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرجأ كعب بن مالك وصاحبيه حتى أنزل الله في شأنهم وفي توبتهم - وكانوا من خيار المؤمنين -: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ - وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} [التوبة: ١١٧ - ١١٨] الآيتين (١) .

خلفهم الله وأخر توبتهم ليمحصهم ويطهرهم من ذنب تأخرهم. لأنهم كانوا من الصادقين. "[حجة أبي بكر بالناس] حجة أبي بكر بالناس ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك - بقية رمضان وشوالا وذا القعدة - ثم بعث أبا بكر رضي الله عنه أميرا على الحج ليقيم للناس حجهم. وأهل الشرك على دينهم ومنازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر في ثلاثمائة من المدينة. وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرين بدنة. قلدها وأشعرها بيده. ثم نزلت سورة براءة في نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه. فأرسل بها علي بن أبي طالب على ناقته العضباء، ليقرأ براءة على الناس. وينبذ إلى كل ذي عهد عهده. فلما لقي أبا بكر قال له: " أمير أو مأمور؟ فقال علي: بل مأمور " فلما كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب. فقال: " يا أيها الناس، لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو إلى مدته " (١) ."[59] "[حجة الوداع]

حجة الوداع فلما دخل ذو القعدة، تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحج، وأمر الناس بالجهاز له. وأمرهم أن يلقوه. فخرج معه من كان حول المدينة وقريبا منها. وخرج المسلمون من القبائل القريبة والبعيدة حتى لقوه في الطريق، وفي مكة، وفي منى وعرفات، وجاء علي من اليمن مع أهل اليمن. وهي حجة الوداع. فخرج لها لخمس بقين من ذي القعدة في آخر سنة عشر. فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساق معه الهدي. فأرى الناس مناسكهم، وعلمهم سنن حجهم. وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم ويكرر عليهم «أيها الناس خذوا عني مناسككم. فلعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا» .

ولما كان بمنى خطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين: " فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أيها الناس: اسمعوا قولي: فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم

---

59 "(١) وإنما أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم حجه. وبعث أبا بكر رضي الله عنه ليحج بالناس: لما كانت عليه العرب من الجاهلية الفاسقة، ولإعلانهم بشركهم في مشاعر الحج، وطوافهم بالبيت عراة، وإنسائهم الذي كان يقع به الحج في غير ميقاته، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع " إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض " ثم إن الهدنة كانت لا تزال قائمة بين رسول الله وبين قريش وغيرهم من المشركين. فكان كل ذلك سببا في تأخير رسول الله صلى الله عليه وسلم حجه. حتى نزلت براءة. فنبذ إليهم عهدهم. وأعلمهم أن البيت قد أصبح في حكم دولة التوحيد. وأصبح الأمر فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأعلن ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان."

وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم. وكل ربا موضوع. وأول ربا أضعه: ربا العباس بن عبد المطلب. فأنه موضوع كله. وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه: دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لم تضلوا - كتاب الله -، وأنتم مسئولون عني. فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء، وينكبها إليهم، ويقول اللهم اشهد - ثلاث مرات» ." "وكانت هذه الحجة تسمى " حجة الوداع " لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها (١) . فلما انقضى حجه، رجع إلى المدينة. فأقام صلى الله عليه وسلم بقية ذي الحجة والمحرم وصفر. ثم ابتدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذي مات فيه في آخر صفر." "[موت رسول الله صلى الله عليه وسلم] موت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزهري: حدثني أنس، قال: «كان يوم الاثنين الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس، وهم يصلون الصبح فرفع الستر وفتح الباب. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقام على باب عائشة. فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم - فرحا به، حين رأوه، وتفرجوا عنه - فأشار إليهم: أن اثبتوا على صلاتكم، قال: وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورا، ولما رأى من هيئتهم في صلاتهم. وما رؤي أحسن منه هيئة تلك الساعة. قال: ثم رجع، وانصرف الناس، وهم يرون أنه قد أفرق من وجعه. وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح. فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى من ذلك اليوم» . قال ابن إسحاق: قال الزهري حدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: «لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر. فقال: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات، ولكنه قد ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات. ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حين، كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات. قال: وأقبل أبو بكر، حتى نزل على باب المسجد. حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس - فلم يلتفت إلى شيء، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة. فأقبل حتى كشف عن وجهه. ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتبها الله عليك: فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا. ثم رد البرد على وجهه. وخرج" "- وعمر يكلم الناس - فقال: على رسلك يا عمر، أنصت. فأبى إلا أن يتكلم. فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس. فلما سمع الناس كلام أبي بكر

أقبلوا عليه، وتركوا عمر. فحمد الله تعالى، وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس، أنه من كان يعبد محمدا. فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله تعالى، فإن الله حي لا يموت. قال: ثم تلا هذه الآية؛ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤] » الآية (١) .

قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم. قال أبو هريرة فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها. فعثرت حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، فاحتملني رجلان، وعرفت أن رسول الله قد مات " [حديث السقيفة]

حديث السقيفة فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم: انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. واعتزل علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة. وانحاز المهاجرون إلى أبي بكر وعمر، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل. فأتى آت إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه. فإن كان لكم بأمر الناس من حاجة،" "فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يفرغ من أمره، قد أغلق دونه الباب أهله. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه. قال ابن إسحاق: وكان من حديث السقيفة: أن عبد الله بن أبي بكر حدثني عن محمد بن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس قال: أخبرني عبد الرحمن بن عوف - وكنت في منزله بمنى أنتظره، وهو عند عمر في آخر حجة حجها عمر - قال: فرجع عبد الرحمن من عند عمر، فوجدني في منزله بمنى أنتظره، وكنت أقرئه القرآن. فقال لي: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين فقال: هل لك في فلان؟ يقول: والله لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا. والله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت. فغضب عمر، وقال: إني - إن شاء الله - لقائم العشية في الناس، فمحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمرهم، قال عبد الرحمن: فقلت لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغائهم، وإنهم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس. وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها أولئك عنك كل مطير، ولا يعوها ولا يضعوها على مواضعها. فأمهل، حتى تقدم المدينة. فإنها دار السنة، وتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت بالمدينة متمكنا، فيعي أهل الفقه مقالتك، ويضعوها على

مواضعها. فقال عمر: أما والله - إن شاء الله - لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة. قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة. فلما كان يوم الجمعة، عجلت الرواح حين زالت الشمس. فأجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسا إلى ركن المنبر، فجلست حذوه، تمس ركبتاه ركبتيه،" "فلم أنشب أن خرج عمر.فقلت لسعيد: ليقولن الساعة على هذا المنبر مقالة لم يقلها منذ استخلف. فأنكر علي سعيد ذلك. وقال: ما عسى أن يقول مما لم يقل قبله؟ فجلس على المنبر. فلما سكت المؤذن، قام، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإني قائل لكم مقالة قد قدر لي أن أقولها. ولا أدري: لعلها بين يدي أجلي؟ فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته. ومن خشي ألا يعيها، فلا أحل لأحد أن يكذب علي. إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه: آية الرجم، فقرأناها ووعيناها. وعقلناها. ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى - إن طال بالناس زمان - أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله. وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف. ثم إنا قد كنا نقرأ فيما نقرأ من الكتاب: " لا ترغبوا عن آبائكم، فأنه كفر بكم - أو كفر لكم - أن ترغبوا عن آبائكم " إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم. فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» ثم أنه قد بلغني أن فلانا قال: لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلانا. فلا يغترن امرؤ يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت - ألا وإنها والله قد كانت كذلك، إلا أن الله وقى شرها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر. فمن بايع رجلا عن غير مشورة المسلمين. فأنه لا بيعة له هو، ولا الذي بايعه، تغرة أن يقتلا. أنه كان من خبرنا - حين توفى الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم -: أن الأنصار خالفونا،""فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة. وتخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما. واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر. فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار. فانطلقنا نؤمهم، حتى لقينا منهم رجلان صالحان (١) . فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم. وقالا لنا: أين تريدون يا معاشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقالا: لا عليكم، ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم. قال: قلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا، حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة. فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة. قلت: ما له؟ قالوا: وجع. فلما جلسنا، تشهد خطيبهم. فأثنى على الله عز وجل بما هو له أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين، رهط منا. وقد دفت دافة من قومكم. قال: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغتصبونا الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم - وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر. وكنت أداري منه بعض الحد. فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أعصيه. فتكلم - وهو كان أعلم مني وأحكم وأحلم وأوقر - فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من" "تزويري إلا قالها في بديهته، أو أفضل. حتى سكت. فقال: أما بعد، فما ذكرتم فيكم من خير: فأنتم له أهل. ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. هم أوسط العرب نسبا ودارا. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين. فبايعوا الآن أيهما شئتم. فأخذ بيدي، وبيد أبي عبيدة عامر بن الجراح - وهو جالس بيننا - فلم أكره شيئا مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. قال: فقال قائل من الأنصار (١) أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش. قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى خشينا الاختلاف. فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر. فبسطها، فبايعته. ثم بايعه المهاجرون. ثم بايعه الأنصار. ونزونا على سعد بن عبادة. فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. قال: فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

[بيعة العامة لأبي بكر] بيعة العامة لأبي بكر ولما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر. فقام عمر قبل أبي بكر فتكلم فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس. إني قد قلت لكم بالأمس مقالة، ما كانت وما وجدتها في كتاب الله. ولا كانت عهدا عهده إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكني قد كنت" "أرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدبر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هدى له رسوله. إن الله قد جمعكم على خيركم - صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثاني اثنين إذ هما في الغار - فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة، بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر رضي الله عنه. فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله. ثم قال: " أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم. ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني. وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف، حتى آخذ الحق منه، إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم ".

[فضيلة أبي بكر الصديق وخلافته الراشدة]

فضيلة أبي بكر الصديق وخلافته الراشدة وعن ربيعة - أحد الصحابة - رضي الله عنهم قال: قلت لأبي بكر رضي الله عنه: " ما حملك على أن تلي أمر الناس، وقد نهيتني أن أتأمر على اثنين؟ قال: لم أجد من ذلك بدا، خشيت على أمة محمد الفرقة وفي رواية: تخوفت أن تكون فتنة، تكون بعدها ردة ". وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: " لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اشرأب النفاق، وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها. فما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بفضلها "." "وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: والذي لا إله إلا هو، لولا أن أبا بكر استخلف، ما عبد الله - ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة - فقيل له: مه، يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام. فلما نزل بذي خشب (١) قبض رسول الله، وارتدت العرب. واجتمع إليه الصحابة. فقالوا: رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم، وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إله إلا هو، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما رددت جيشا وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حللت لواء عقده. فوجه أسامة. فجعل لا يمر بقبائل يريدون الارتداد، إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم. ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم. فلقوا الروم، فهزموهم. ورجعوا سالمين. فثبتوا على الإسلام - ولله الحمد.

[قصة الردة] قصة الردة. أعاذنا الله منها قد تقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إخباره بالفتن الكائنة بعده، وإنذاره عنها، وإخباره خاصة عن الردة. من ذلك: ما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب. فكرهتهما. فنفختهما. فطارا فأولتهما كذابين يخرجان» . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من نجا منهن فقد نجا: من موتي، ومن قتل خليفة مصطبر بالحق معطيه، ومن الدجال» " "وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها» فقال أبو بكر: فإن الزكاة من حقها. والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. قال عمر: والله لرجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعا في قتال أهل الردة ". وذكر يعقوب بن سعيد بن عبيد، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن جماعة قالوا: " كان أبو بكر أمير الشاكرين: الذين ثبتوا على دينهم وأمير الصابرين: الذين صبروا على جهاد عدوهم - وهم أهل الردة - وذلك: أن العرب افترقت في ردتها. فقالت فرقة: لو كان نبيا ما مات وقالت فرقة: انقضت النبوة بموته. فلا نطيع أحدا بعده. وفي ذلك يقول قائلهم: أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله , ما لأبي بكر؟ أيورثها بكرا إذا مات بعده ... فتلك لعمر الله قاصمة الظهر وقالت فرقة: نؤمن بالله. وقال بعضهم: نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله، ولكن لا نعطيكم أموالنا. فجادل الصحابة أبا بكر رضي الله عنهم، وقالوا: احبس جيش أسامة، فيكون أمانا بالمدينة، وارفق بالعرب حتى يتفرج هذا الأمر. فلو أن طائفة "ارتدت، قلنا: قاتل بمن معك من ارتد. وقد أصفقت العرب على الارتداد. وقدم على أبي بكر عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس في رجال من أشراف العرب. فدخلوا على رجال من المهاجرين، فقالوا: أنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام. وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن تجعلوا لنا جعلا كفيناكم. فدخل الصحابة على أبي بكر، فعرضوا عليه ذلك. وقالوا: نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها، ويكفيانك من وراءها، حتى يرجع إلينا أسامة وجيشه، ويشتد أمرك، فإنا اليوم

قليل في كثير. فقال أبو بكر: فهل ترون غير ذلك؟ قالوا: لا. قال: قد علمتم أن من عهد نبيكم إليكم: المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم، ولا نزل به الكتاب عليكم. وأنا رجل منكم، تنظرون فيما أشير به عليكم. وإن الله لن يجمعكم على ضلالة. فتجتمعون على الرشد في ذلك. فأما أنا: فأرى أن ننبذ إلى عدونا. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وألا ترشون على الإسلام، فنجاهد عدوه كما جاهدهم. والله لو منعوني عقالا، لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه. وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم: فهذا أمر لم يغب عنه عيينة، هو راضيه، ثم جاءوا له. ولو رأوا ذباب السيف، لعادوا إلى ما خرجوا منه، أو أفناهم السيف، فإلى النار. قتلناهم على حق منعوه وكفر اتبعوه. فبان للناس أمرهم. فقالوا له: أنت أفضلنا رأيا، ورأينا لرأيك تبع. فأمر أبو بكر رضي الله عنه الناس بالتجهيز، وأجمع على المسير بنفسه." "وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - لما صدر من الحج سنة عشر - وقدم المدينة: أقام حتى رأى هلال المحرم سنة إحدى عشرة. فبعث المصدقين في العرب. "[قتال أهل الردة] قتال أهل الردة ولما كان من العرب ما كان ومنع من منع منهم الصدقة. جد بأبي بكر الجد في قتالهم. وأراه الله رشده فيهم. وعزم على الخروج بنفسه. فخرج في مائة من المهاجرين والأنصار، وخالد يحمل اللواء حتى نزل بقعاء، يريد أن يتلاحق الناس ويكون أسرع لخروجهم. ووكل بالناس محمد بن مسلمة يستحثهم. وأقام ببقعاء أياما ينتظر الناس. ولم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا خرج. فقال عمر: ارجع يا خليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة، فإنك إن تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل الحق. فدعا زيد بن الخطاب ليستخلفه فقال: قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أرزقها. وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه. وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه. فدعا أبا حذيفة بن عتبة فعرض عليه ذلك فقال مثلما قال زيد فدعا سالما مولى أبي حذيفة فأبى عليه. فدعا خالدا فأمره على الناس وكتب معه هذا الكتاب. " بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام إلى ضلالة الجاهلية وأماني" "الشيطان. وأمره أن يبين لهم الذي لهم في الإسلام والذي عليهم، ويحرص على هداهم، فمن أجابه قبل منه، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإيمان بالله. فإذا أجاب إلى الإيمان وصدق إيمانه لم يكن له عليه سبيل. وكان الله حسيبه بعد في عمله. ولا يقبل من أحد شيئا أعطاه إياه إلا الإسلام والدخول فيه والصبر به وعليه. ولا يدخل في أصحابه حشوا من الناس حتى يعرف علام اتبعوه وقاتلوا معه؟ فإني أخشى أن يكون معكم ناس

يتعوذون بكم ليسوا منكم ولا على دينكم. فيكونون عونا عليكم. وارفق بالمسلمين في مسيرهم ومنازلهم وتفقدهم، ولا تعجل بعض الناس عن بعض في المسير ولا في الارتحال. واستوص بمن معك من الأنصار خيرا، فإن فيهم ضيقا ومرارة وزعارة، ولهم حق وفضيلة وسابقة ووصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ". ويروى أن أبا بكر كتب مع هذا كتابا آخر وأمر خالدا أن يقرأه في كل مجمع، وهو: [كتاب أبي بكر لأمرائه] كتاب أبي بكر لأمرائه " بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا، من عامة الناس أو خاصتهم أقام على إسلام أو راجع عنه. سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى. فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الهادي غير المضل، أرسله بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا "ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، لينذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين. فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب بالحق من أدبر عنه حتى صاروا إلى الإسلام طوعا وكرها. ثم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك أجله. وقد كان الله بين له ذلك لأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل عليه فقال: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠] (١) وقال: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: ٣٤] الآية (٢) وقال للمؤمنين: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران: ١٤٤] الآية (٣) فمن كان إنما يعبد محمدا، فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه ومجزيه، وإني أوصيكم أيها الناس بتقوى الله. وأحضكم على حظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم. وأن تهتدوا بهداه. وتعتصموا بدين الله. فإن كل من لم يحفظ الله ضائع وكل من لم يصدقه كاذب وكل من لم يسعده الله شقي وكل من لم يرزقه محروم وكل من لم ينصره الله مخذول. فاهتدوا بهدي الله ربكم. فإنه من يهد الله فهو المهتدي. ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا. وإنه قد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله، وجهالة بأمر الله، طاعة للشيطان. قال الله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦]" "(١) وإني قد بعثت إليكم خالدا في المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحدا حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن دخل في دين الله وعمل صالحا قبل ذلك منه ومن أبى فلا يبقي على أحد، ويحرقهم بالنار، ويسبي الذراري

والنساء ". وعن عروة بن الزبير قال: " جعل أبو بكر يوصي خالدا، ويقول عليك بتقوى الله، والرفق بمن معك. فإن معك أهل السابقة من المهاجرين والأنصار. فشاورهم. ثم لا تخالفهم. وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل. وسر في أصحابك على تعبئة جيدة. فإن أعطاك الله الظفر على أهل اليمامة، فأقل البقيا عليهم إن شاء الله، وإياك أن تلقاني غدا بما يضيق به صدري منك. اسمع عهدي ووصيتي ولا تغيرن على دار سمعت فيها أذانا، حتى تعلم ما هم عليه ". " واعلم أن الله يعلم من سريرتك ما يعلم من علانيتك، واعلم أن رعيتك تعمل بما تراك تعمل ". تعاهد جيشك، وانههم عما لا يصلح لهم. فإنما تقاتلون من تقاتلون بأعمالكم. وبهذا نرجو لكم النصر على أعدائكم. سر على بركة الله تعالى ". [ذكر مسير خالد إلى بزاخة وغيرها] ذكر مسير خالد إلى بزاخة وغيرها لما سار خالد إلى بزاخة (٢) كان عدي بن حاتم معه، وقد انضم إليه" "من طيء ألف، فنزلوا بزاخة وكانت جديلة معرضة عن الإسلام - وهي بطن من طيء - وكان عدي بن حاتم رضي الله عنه من الغوث، وقد همت جديلة أن ترتد فجاءهم مكنف بن زيد الخيل. فقال أتريدون أن تصيروا سبة على قومكم؟ ولم يرجع رجل واحد من طيء وهذا عدي معه ألف رجل من طيء، فكسرهم. فلما نزل خالد بزاخة قال لعدي: ألا نسير إلى جديلة؟ قال: يا أبا سليمان أقاتل معك بيدين أحب إليك، أم بيد واحدة؟ فقال بل بيدين. قال: فإن جديلة إحدى يدي فكف عنهم. فكف عنهم. فجاءهم عدي. فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. فحمد الله. وسار بهم إلى خالد. فلما رآهم صاح في أصحابه السلاح. فلما جاءوا حلوا ناحية، فجاءهم خالد ورحب بهم. فاعتذروا إليه. وقالوا: نحن لك حيث شئت. فجزاهم خيرا. فلم يرتد من طيء رجل واحد. فسار خالد على تعبئته، وطلب إليه عدي أن يجعل قومه مقدمة أصحابه. فقال أخاف أن أقدمهم فإذا ألجمهم القتال انكشفوا، فانكشف من معنا. ولكن دعني أقدم قوما صبرا، لهم سوابق. فقال عدي: الرأي ما رأيت، فقدم المهاجرين والأنصار. ولم يزل يقدم الطلائع منذ خرج من بقعاء حتى قدم اليمامة. وأمر عيونه أن يختبروا كل من مروا بهم عند مواقيت الصلاة بالأذان لها، فيكون ذلك دليلا على إسلامهم. فلما انتهوا إلى طليحة الأسدي وجدوه وقد ضربت له قبة وأصحابه" "حوله. فضرب خالد خيام عسكره على ميل أو نحوه، وخرج يسير على فرس معه نفر من الصحابة. فوقف قريبا من العسكر. ودعا بطليحة فخرج إليه. فقال إن من عهد خليفتنا إلينا: أن ندعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن تعود إلى ما خرجت منه فأبى طليحة.

وكان عيينة بن حصن قد قال له: لا أبا لك، هل أنت مرينا؟ - يعني نبوتك - فقد رأيت ورأينا ما كان يأتي محمدا. قال: نعم فبعث عيونا له لما أقبل خالد إليهم قبل أن يسمع الناس بإقباله. فقال: إن بعثتم فارسين على فرسين أغرين محجلين من بني نصر بن قعين، أتوكم من القوم بعين. فبعثوا كذلك فلقيا عينا لخالد. فأتوا به. فزادهم فتنة. فلما أبى طليحة أن يجيب خالدا، انصرف خالد إلى معسكره. فاستعمل تلك الليلة على حرسه مكنف بن زيد الخيل، وعدي بن حاتم. فلما كان من السحر نهض خالد. فعبأ أصحابه ووضع ألويته مواضعها. ودفع اللواء الأعظم إلى زيد بن الخطاب. فتقدم به. وتقدم ثابت بن قيس بن شماس بلواء الأنصار، وطلبت طيء لواء. فعقد لهم خالد لواء ودفعه إلى عدي. فلما سمع طليحة الحركة عبأ أصحابه. حتى إذا استوت الصفوف زحف بهم خالد حتى دنا من طليحة. فأخرج طليحة أربعين غلاما جلدا، فأقامهم في الميمنة، وقال: اضربوا حتى تأتوا الميسرة. فتضعضع الناس. ولم يقتل أحد حتى أقامهم في الميسرة ففعلوا مثل ذلك وانهزم المسلمون." "فقال خالد: يا معشر المسلمين، الله الله. واقتحم وسط القوم وكر معه أصحابه. فاختلطت الصفوف ونادى يومئذ مناد من طيء عندما حمل أولئك الأربعون: يا خالد عليك - بسلمى وأجا - جبلي طيئ - فقال: بل إلى الله الملتجأ، ثم حمل فما رجع حتى لم يبق من الأربعين رجل واحد. وتراد الناس بعد الهزيمة واشتد القتال. وأسر حبال بن أبي حبال فأرادوا أن يبعثوا به إلى أبي بكر. فقال اضربوا عنقي، ولا تروني محمديكم هذا، فضربوا عنقه. ولما اشتد القتال تزمل طليحة بكساء له، وهم ينتظرون أن ينزل عليه الوحي فلما طال ذلك على أصحابه وهدتهم الحرب جعل عيينة يقاتل ويذمر الناس حتى إذا ألح المسلمون عليهم السيف أتى طليحة وهو في كسائه. فقال: لا أبا لك، هل أتاك جبريل بعد؟ قال: لا والله. قال: تبا لك سائر اليوم. ثم رجع عيينة فقاتل، وجعل يحض أصحابه على القتال وقد ضجوا من وقع السيوف. فلما طال ذلك عليهم. جاء إلى طليحة وهو متلفف بكسائه فجبذه جبذة شديدة جلس منها. وقال: قبح الله هذه من نبوة، ما قيل لك بعد شيء؟ قال: بلى، قد قيل لي: إن لك رحى كرحاه وأمرا لن تنساه. فقال عيينة: أظن أن قد علم الله أنه سيكون لك حديث لن تنساه يا بني فزارة هكذا - وأشار تحت الشمس - انصرفوا. هذا والله كذاب. ما بورك لنا ولا له فيما يطلب. فانصرفت فزارة وذهب عيينة وأخوه في آثارهما. فأدرك عيينة فأسر. وأفلت أخوه. ولما رأى طليحة ما فعل أصحابه خرج منهزما. فجعل أصحابه يقولون:" "ماذا تأمرنا؟ وقد كان أعد فرسه وهيأ امرأته. فوثب على

فرسه وحمل امرأته وراءه. ثم ولى هاربا. وقال: من استطاع منكم أن يفعل هكذا فليفعل ثم هرب حتى قدم الشام. وذكر أنه قال لأصحابه لما رأى انهزامهم: ويلكم ما يهزمكم؟ فقال له رجل: أنا أخبرك، إنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله، وإنا نلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه. ولما ولى طليحة هاربا، تبعه عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم. وكان طليحة قد أعطى الله عهدا: أن لا يسأله أحد النزول إلا فعل. فلما أدبر ناداه عكاشة بن محصن يا طليحة، فعطف عليه فقتل عكاشة ثم أدركه ثابت فقتله أيضا طليحة، ثم لحق المسلمون أصحاب طليحة فقتلوا وأسروا. وصاح خالد لا يطبخن رجل قدرا، ولا يسخنن ماء إلا وأثفيته رأس رجل (١) ."[60] "وتلطف رجل من بني أسد حتى وثب على عجز راحلة خالد، فقال: أنشدك الله أن لا يكون هلاك مضر على يدك، يا خالد حكمك في بني أسد. فنادى خالد: من قام فهو آمن. فقام الناس كلهم. وسمعت بذلك بنو عامر. فأعلنوا الإسلام. وأمر خالد بالحظائر أن تبنى، ثم أوقد فيها النار. ثم أمر بالأسرى فألقيت فيها. وألقي فيها يومئذ حامية بن سبيع الذي استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه. وأخذت أم طليحة فعرض عليها الإسلام، فوثبت. وأخذت لحمة من النار وهي تقول: يا موت عم صباحا، كالحته كفاحا، إذ لم أجد براحا. وذكر الواقدي: أن خالدا جمع الأسرى في الحظائر. ثم أضرمها عليهم فاحترقوا أحياء. ولم يحرق أحدا من فزارة. فقيل لبعض أهل العلم: لم حرق هؤلاء من بين أهل الردة؟ فقال بلغته عنهم مقالة سيئة وثبتوا على ردتهم. وعن ابن عمر قال: شهدت بزاخة مع خالد. فأظفرنا الله على طليحة. وكنا كلما أغرنا على قوم سبينا الذراري واقتسمنا الأموال.

60 "التحريق بالنار مسألة خلافية، قال صاحب الفتح: واختلف السلف في التحريق فكرهه عمر وابن عباس وغيرهما مطلقا سواء كان ذلك بسبب كفر أو في حال مقاتلة أو كان قصاصا، وأجازه علي وخالد وغيرهما مطلقا سواء كان ذلك بسبب كفر أو في حال مقاتلة أو كان قصاصا، وأجازه علي وخالد وغيرهما، وقال: المهلب ليس هذا النهي على التحريم بل على سبيل التواضع، ويدل على جواز التحريق فعل الصحابة، وقد سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين العرنيين بالحديد المحمى، وقد حرق أبو بكر البغاة بالنار في حضرة الصحابة، وحرق خالد بالنار ناسا من أهل الردة، وأكثر علماء المدينة يجيزون تحريق الحصون والمراكب على أهلها، قاله الثوري والأوزاعي، وقال ابن المنير وغيره: لا حجة فيما ذكر للجواز لأن قصة العرنيين كانت قصاصا أو منسوخة لما تقدم، وتجويز الصحابي معارض بمنع صحابي آخر، انتهى فتح الباري ج ٦ ص ١٤٩ - ١٥٠ ط السلفية."

"مسير خالد إلى اليمامة فلما فرغ خالد من بزاخة وبني عامر أظهر أن أبا بكر عهد إليه أن يسير إلى أرض بني تميم، وإلى اليمامة، فقال ثابت بن قيس - وهو على الأنصار، وخالد على جماعة المسلمين - ما عهد إلينا ذلك وليس بنا قوة. وقد كل المسلمون وعجف كراعهم. فقال خالد: لا أستكره أحدا، وسار بمن تبعه. وأقامت الأنصار يوما أو يومين ثم تلاومت فيما بينها. وقالت والله ما صنعنا شيئا. والله لئن أصيب القوم ليقولن خذلتموهم وإنها لمسبة عارها باق إلى آخر الدهر ولئن أصابوا فتحا، إنه لخير منعتموه. فابعثوا إلى خالد يقيم حتى تلحقوه. فبعثوا إليه فأقام حتى لحقوه. فاستقبلهم في كثرة من المسلمين حتى نزلوا. وساروا جميعا حتى انتهوا إلى البطاح، من أرض بني تميم فلم يجدوا بها جمعا. ففرق خالد السرايا في نواحيها. فأتت سرية منهم بني حنظلة - وسيدهم مالك بن نويرة - وكان قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مصدقا على قومه. فجمع صدقاتهم. فلما بلغته وفاة النبي صلى الله عليه وسلم جفل إبل الصدقة - أي ردها إلى أهلها فلذلك سمي الجفول - وجمع قومه فقال: إن هذا الرجل قد هلك فإن قام قائم بعده رضي منكم أن تدخلوا في أمره ولم يطلب ما مضى، ولم تكونوا أعطيتم الناس أموالكم. فتسارع إليه جمهورهم. فقام فيهم قعنب - سيد بني يربوع - فقال يا بني تميم، لا ترجعوا في صدقاتكم فيرجع الله في نعمه عليكم ولا تجردوا للبلاء وقد ألبسكم الله العافية ولا تستشعروا خوف الكفر وأنتم في أمن الإسلام. إنكم" "أعطيتم قليلا من كثير. والله مذهب الكثير بالقليل. ومسلط على أموالكم غدا من يأخذها على غير الرضا، وإن منعتموها قتلتم. فأطيعوا الله واعصوا مالكا. فقام مالك، فقال: يا بني تميم، إنما رددت عليكم أموالكم إكراما لكم. وإنه لا يزال يقوم منكم قائم يخطئني. والله ما أنا بأحرصكم على المال ولا بأجزعكم من الموت ولا بأخفاكم شخصا إن أقمت، ولا بأخفاكم رحلة إن هربت. فترضوه عند ذلك وأسندوا أمرهم إليه وأبى الله إلا أن يتم أمره فيهم. وقال مالك في ذلك: وقال رجال سدد اليوم مالك ... وقال رجال مالك لم يسدد فقلت: دعوني لا أبا لأبيكمو ... فلم أخط رأيا في المعاد ولا البد فدونكموها. إنها صدقاتكم ... مصررة أخلافها لم تجرد سأجعل نفسي دون ما تحذرونه ... فأرهنكم يوما بما قلت يدي فإن قام بالأمر المجرد قائم ... أطعنا وقلنا: الدين دين محمد ولما بلغ ذلك أبا بكر والمسلمين حنقوا عليه. وعاهد الله خالد لئن أخذه ليجعلن هامته أثفية للقدر. فلما وصلتهم السرية - مع طلوع الشمس - فزعوا إلى السلاح. وقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن عباد الله المسلمون قالوا: ونحن عباد الله المسلمون. قالوا: فضعوا السلاح.

ففعلوا. فأخذوهم. وجاءوا بهم إلى خالد." "فقال له أبو قتادة: - وهو مع السرية - أقاتل أنت هؤلاء؟ قال: نعم. قال: إنهم اتقونا بالإسلام أذنا فأذنوا، وصلينا فصلوا. وكان من عهد أبي بكر " أيما دار غشيتموها فسمعتم الأذان فيها بالصلاة فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ماذا نقموا؟ وماذا يبغون؟ وإن لم تسمعوا الأذان فشنوا عليها الغارة فاقتلوا وحرقوا ". فأمر بهم خالد فقتلوا، وأمر برأس مالك فجعل أثفية للقدر ورثاه أخوه متمم بقصائد كثيرة (١) . وروي أن " عمر قال له: " لوددت أن رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك مالكا " فقال متمم: لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته. فقال عمر: " ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته .. "[السنة الثانية عشرة]
[مسير خالد إلى العراق] السنة الثانية عشرة مسير خالد إلى العراق ولما دخلت السنة الثانية من خلافة أبي بكر رضي الله عنه وهي سنة اثني عشر من الهجرة كتب إلى خالد: " إذا فرغت من اليمامة فسر إلى العراق، فقد وليتك حرب فارس ". فسار إليه في بضعة وثلاثين ألفا. فصالح أهل السواد. ثم سار إلى الأبلة. وخرج كسرى في مائة وعشرين ألفا. فالتقى مع خالد فهزم الله المشركين من الفرس. وكتب خالد إلى كسرى: " أما بعد، فأسلموا تسلموا، وإلا فأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة " فصالحوه. وفيها حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس ثم رجع إلى المدينة.

[حوادث السنة الثالثة عشرة] [موت الصديق رضي الله عنه] حوادث السنة الثالثة عشرة ثم دخلت سنة ثلاث عشرة. فبعث أبو بكر رضي الله عنه الجنود إلى الشام. وأمر عليهم يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص. ونزلت الروم بأعلى فلسطين في سبعين ألفا. فكتبوا إلى أبي بكر يخبرونه ويستمدونه. فأمر خالدا - وهو بالحيرة - أن يمد أهل الشام بمن معه من أهل القوة ويستخلف على ضعفة الناس رجلا منهم." "فسار خالد بأهل القوة ورد الضعفة إلى المدينة. واستخلف على من أسلم بالعراق المثنى بن حارثة. وسار حتى وصل إلى الشام، ففتحوا بصرى. وهي أول مدينة فتحت. ثم اجتمع المشركون من الروم، فانحاز المسلمون إلى أجنادين، فكانت الوقعة المشهورة وكان النصر للمسلمين. موت الصديق رضي الله عنه وفي هذه السنة مات الصديق، ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة. وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنتين وعشر ليال. واستخلف على الناس عمر بن الخطاب. وقال: " اللهم إني وليتهم خيرهم ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم، ولم أرد محاباة عمر. فاخلفني فيهم. فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح

لهم واليهم واجعله من خلفائك الراشدين يتبع هدي نبيه صلى الله عليه وسلم. وأصلح له رعيته ". ثم دعاه. فقال: " يا عمر، إن لله حقا في الليل لا يقبله في النهار، وحقا في النهار لا يقبله في الليل. وإنها لا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقله عليهم. وحق لميزان لا يوضع فيه غير الحق غدا أن يكون ثقيلا. فإذا حفظت وصيتي، لم يكن غائب أحب إليك من الموت. وهو نازل بك. وإن ضيعتها، فلا غائب أكره إليك منه ولست تعجزه ". وورث منه أبوه أبو قحافة السدس." "ولما ورد كتاب أبي بكر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد باستخلاف عمر بايعوه. ثم ساروا إلى " فحل " بناحية الأردن. وقد اجتمع بها الروم. فكانت وقعة " فحل " المشهورة ونصر الله المسلمين. وانحاز المشركون إلى دمشق.

[حوادث السنة الرابعة عشرة]

حوادث السنة الرابعة عشرة ثم دخلت السنة الرابعة عشرة: وفيها: ساروا إلى دمشق وعليهم خالد. فأتى كتاب عمر رضي الله عنه بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة بن الجراح. وفيها: أمر عمر بصلاة التراويح جماعة وقدم جرير بن عبد الله في ركب من بجيلة، فأشار عليه عمر بالخروج إلى العراق، فسار بهم جرير إلى العراق. فلما قرب من المثنى بن حارثة كتب إليه: " أقبل فإنما أنت مدد لي ". فقال جرير: أنت أمير وأنا أمير. ثم اجتمعا. فكانت وقعة البويب المشهورة. ثم إن عمر أمر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على العراق، وكتب له وأوصاه فقال: " يا سعد بن وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه. فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن. وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته. فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء. الله ربهم وهم عباده. يتفاضلون بالعافية. ويدركون ما عند الله بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت عليه "رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا. فالزمه. فإنه الأمر " وكتب إلى المثنى وجرير: أن يجتمعا إليه، فسار سعد بمن معه. فنزل بشراف واجتمع إليه الناس. [حوادث السنة الخامسة عشرة] [فتح القادسية] حوادث السنة الخامسة عشرة ثم دخلت السنة الخامسة عشرة. فتح القادسية فلما انحسر الشتاء سار سعد إلى القادسية، وكتب إلى عمر يستمده. فبعث إليه المغيرة بن شعبة، في جيش من أهل المدينة. وكتب إلى أبي عبيدة أن يمده بألف. وسمع بذلك رستم بن الفرخزاد. فخرج بنفسه في مائة وعشرين ألفا، سوى التبع والرقيق حتى نزل القادسية. وبينه وبين

المسلمين جسر القادسية، وقيل: كانوا ثلاثمائة ألف ومعهم ثلاثة وثلاثون فيلا. واجتمع المسلمون حتى صاروا ثلاثين ألفا. فكانت وقعة القادسية المشهورة التي نصر الله فيها المسلمين. وهزم المشركين. فلما هزم الله الفرس، كتب عمر إلى سعد " أن أعد للمسلمين دار هجرة. وإنه لا يصلح للعرب إلا حيث يصلح للبعير والشاه وفي منابت العشب. فانظر فلاة إلى جانب بحر ". فبعث سعد عثمان بن حنيف فارتاد لهم موضع الكوفة اليوم فنزلها سعد بالناس. ثم كتب عمر إلى سعد " أن ابعث إلى أرض الهند - يريد البصرة - جندا فلينزلوها ".

فبعث إليها عتبة بن غزوان في ثلاثمائة رجل حتى نزلوها. وهو الذي بصر البصرة. وفي هذه السنة كانت وقعة اليرموك المشهورة بالشام. وخرج عمر إلى الشام، ونزل الجابية. فصالح نصارى بيت المقدس - وكانوا قد أبوا أن يجيبوا إلى الصلح مع أبي عبيدة، حتى يكون عمر يعقدون الصلح معه - فصالحهم. واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث. واجتمع إليه أمراء الأجناد. فلما رجع إلى المدينة وضع الديوان. فأعطى العطايا على مقدار السابقة. فبدأ بالعباس حرمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم بالأقرب فالأقرب.

[حوادث السنة السادسة عشرة] حوادث السنة السادسة عشرة ثم دخلت السنة السادسة عشرة. فيها كتب عمر التاريخ. واستشار الصحابة في مبدئه. فمنهم من قال نبدأ من بدء النبوة. ومنهم من قال من الوفاة، ومنهم من قال من الهجرة. فجعله من الهجرة. [حوادث السنة السابعة عشرة]

حوادث السنة السابعة عشرة ثم دخلت السنة السابعة عشرة: فكان فيها فتوح كثيرة شرقا وغربا. وفيها فتحت تستر، التي وجد فيها جسد دانيال عليه السلام. وكان المشركون يستسقون به." "وفيها: تزوج عمر أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهم طلبا لصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم. [حوادث السنة الثامنة عشرة] حوادث السنة الثامنة عشرة ثم دخلت السنة الثامنة عشرة: فيها: أصاب الناس مجاعة شديدة. وتسمى عام الرمادة لكثرة ما هلك فيها من الناس والبهائم جوعا. فاستسقى عمر بالناس. وسأل العباس أن يدعو الله ويؤمن عمر والناس على دعائه. فأزال الله القحط. وفيها وقع طاعون عمواس بالشام وقد هلك فيه خمسة وعشرون ألفا. ومات فيه أبو عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم. فلما بلغ عمر موتهم أمر على

الشام معاوية بن أبي سفيان. [حوادث السنة التاسعة عشرة] حوادث السنة التاسعة عشرة ثم دخلت السنة التاسعة عشرة: فتح فيها فتوح كثيرة شرقا وغربا.

[حوادث السنة العشرين] حوادث السنة العشرين ثم دخلت السنة العشرون: وفيها: فتحت مصر والإسكندرية. وفيها: أجلى عمر رضي الله عنه اليهود من الحجاز إلى أذرعات وغيرها."" [حوادث السنة الحادية والعشرين] حوادث السنة الحادية والعشرين ثم دخلت السنة الحادية والعشرون: وفيها كان فتح نهاوند وأميرها النعمان بن مقرن، وقتل يومئذ. وفيها: مات خالد بن الوليد رضي الله عنه بحمص. وفيها: مات عمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد الأسدي - الذي كان تنبأ. ثم أسلم وحسن إسلامه، وأبلى في قتال الفرس بلاء حسنا - قتلا مع النعمان بن مقرن بنهاوند.

[حوادث السنة الثانية والعشرين]

حوادث السنة الثانية والعشرين ثم دخلت السنة الثانية والعشرون: وفيها: دخل الأحنف بن قيس خراسان، وحارب يزدجرد آخر ملوك الفرس. فهزمه الله فيها. وفيها: اعتمر عمر. فتلقاه نافع بن الحارث - وكان عامله على مكة - فقال له عمر من خلفت؟ قال ابن أبزى، قال عمر: ومن ابن أبزى؟ قال مولى لنا. قال ومولى أيضا؟ قال: إنه قارئ للقرآن عالم بالفرائض. فقال عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يرفع بهذا القرآن أقواما ويضع به آخرين» . [حوادث السنة الثالثة والعشرين] حوادث السنة الثالثة والعشرين ثم دخلت السنة الثالثة والعشرون: وفيها: قتل عمر رضي الله عنه. في صلاة الصبح من يوم الأربعاء لأربع" "ليال بقين من ذي الحجة. ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين. ولما رجع من الحج في آخرها قام خطيبا. فقال: " إني رأيت كأن ديكا أحمر نقرني نقرتين أو ثلاثا، ولا أرى في ذلك إلا حضور أجلي ". ثم خرج إلى السوق فلقيه أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة. وكان صانعا يعمل الأرحاء. فقال له: ألا تكلم مولاي يضع عني من خراجي؟ قال: وكم خراجك؟ قال: دينار قال إنك لعامل محسن، فقال: وسع الناس عدلك وضاق بي، وأضمر قتل عمر. فاصطنع له خنجرا ذا حدين وشحذه وسمه. ثم أتى به الهرمزان. فقال كيف ترى هذا؟ قال أرى أنك لا تضرب به أحدا إلا قتله. فلما كبر عمر رضي الله عنه في صلاة الصبح طعنه ثلاث طعنات. وقصة مقتله في الصحيحين. وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال أو خمس، وبموته انفتح باب الفتنة إلى اليوم. وقال عبد الله بن سلام لعمر رضي الله عنهما: إني أرى

في التوراة: أنك باب من أبواب جهنم، قال: فسر لي قال: أنت باب من أبوابها مغلقا، لئلا يقتحمها الناس فإذا مت انفتح. وفتح الله على يديه من بلاد الكفار ألفا وستة وثلاثين مدينة، وخرب أربعة آلاف بيعة وكنيسة، وبنى أربعة آلاف مسجد، ودون الدواوين، ومصر الأمصار ووضع الخراج وأرخ التاريخ. وله الفضائل المشهورة والسوابق المأثورة. رحمه الله ورضي عنه." "[حوادث سنة أربع وعشرين] حوادث سنة أربع وعشرين ثم دخلت السنة الرابعة والعشرون: فاستخلف فيها عثمان بن عفان رضي الله عنه. لغرة هلال المحرم - أو لثلاث من المحرم - بعد دفن عمر بثلاثة أيام. أسلم قديما. وكان من ذوي السابقة ومن ذوي الشرف والعلم. هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الابنتين. ولم ينكح ابنتي نبي من آدم إلى قيام الساعة غيره. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدمه ويستحي منه، ويقول: «ما لي لا أستحي ممن تستحي منه ملائكة السماء» . وفي هذه السنة توفي سراقة بن مالك، وأم الفضل زوجة العباس وأم أيمن بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورضي الله عنهم. [حوادث سنة خمس وعشرين] حوادث سنة خمس وعشرين ثم دخلت السنة الخامسة والعشرون. فتوفي فيها عبد الله بن أم مكتوم المؤذن، وعمير بن وهب بن خلف الجمحي الذي حزر المسلمين يوم بدر. ثم تعاهد هو وصفوان بن خلف الجمحي على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذهب إلى المدينة بدعوى افتداء ابنه وهب الذي كان أسر يوم بدر. فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قص عليه رسول الله ما تعاهد هو وصفوان عليه. فشهد شهادة الحق وأسلم. وفيها توفي عروة بن حزام العاشق." "[حوادث سنة ست وعشرين] حوادث سنة ست وعشرين ثم دخلت السنة السادسة والعشرون: وفيها غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية ومعه العبادلة - عبد الله بن نافع بن قيس، وعبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن الزبير - فلقي جرجس ملك البربر في مائتي ألف. فقتل جرجس قتله عبد الله بن الزبير. وفتح الله على المسلمين. وفيها: مات خارجة بن زيد الأنصاري الذي تكلم بعد الموت. وكان من كلامه: خلت ليلتان. وبقيت أربع، بئر أريس وما بئر أريس؟ . وفيها اعتمر عثمان فكلمه أهل مكة أن يحول الساحل إلى جدة. وقالوا: هي أقرب إلى مكة وأوسع. وكانوا يرسون قبل ذلك في الشعيبة (١) . فخرج عثمان إلى جدة فرآها، وحول الساحل إليها. [حوادث سنة سبع وعشرين] حوادث سنة سبع وعشرين ثم دخلت السنة السابعة والعشرون وفيها - على قول ابن جرير - كان فتح إفريقية والأندلس على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وفيها: عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن

العاص عن مصر، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وفيها: مات عبد الله بن كعب بن عمرو رضي الله عنه. وكان من أهل بدر." "[حوادث سنة ثمان وعشرين] حوادث سنة ثمان وعشرين ثم دخلت السنة الثامنة والعشرون. فيها غزا معاوية بن أبي سفيان البحر ومعه عبادة بن الصامت، وامرأته أم حرام بنت ملحان - أخت أم سليم - فسقطت عن دابة لها فهلكت. وهي التي نام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتها وقت قيلولة. فاستيقظ وهو يضحك فسألته؟ فقال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج البحر ملوكا على الأسرة - أو كالملوك على الأسرة - فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: أنت منهم. ثم نام. ثم استيقظ وهو يضحك فسألته؟ فقال مثل قوله. فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: أنت من الأولين» . وفيها: غزا معاوية قبرس. فصالحه أهلها. [حوادث سنة تسع وعشرين] حوادث سنة تسع وعشرين ثم دخلت السنة التاسعة والعشرون. فيها: شكا الناس إلى عثمان رضي الله عنه ضيق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بتوسعته وبناه بالحجارة المنقوشة والقصة - وهي الجص - وفيها وسع المسجد الحرام كذلك. وفيها: مات سليمان بن ربيعة الباهلي رضي الله عنه. وكان عمر رضي الله عنه ولاه قضاء المدائن، فمكث أربعين يوما لم يختصم إليه اثنان. [حوادث سنة ثلاثين] حوادث سنة ثلاثين ثم دخلت سنة ثلاثين." "وفيها وقع خاتم رسول الله من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه في بئر أريس فنزحت ولم يوجد. فحزن لذلك أشد الحزن. فوقع من الرعية الخلل على عثمان بعدها. وفيها: غزا سعيد بن العاص من الكوفة خراسان، ومعه حذيفة بن اليمان، والحسن، والحسين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم. وفيها: كان ما كان من أمر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وشدة إنكاره على معاوية وأهل الشام في الاستمتاع بما أنعم الله عليهم والتوسع فيما أباح لهم وأفاء عليهم من الأموال. وأنه يرى: أن لا يبيت أحد من المسلمين وعنده درهم ولا دينار وإلا كان من الذين يكنزون الذهب والفضة. فكتب معاوية في شأنه إلى عثمان. فكتب عثمان بإشخاص أبي ذر إلى المدينة، ومحاولة بعض دعاة الفتنة الالتفاف حول أبي ذر. فهرب منهم إلى الربذة بإذن عثمان وفي طاعته. وأقام بها حتى مات رضي الله عنه. وفيها: زاد عثمان النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء حين كثر الناس. فثبت الأمر على ذلك إلى اليوم. والزوراء دار كانت له بالمدينة. وفيها: مات أبي بن كعب: سيد القراء وأحد القراء الأربعة. [حوادث سنة إحدى وثلاثين] حوادث سنة إحدى وثلاثين ثم دخلت السنة الحادية والثلاثون." "وفيها: قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس، وهو

الذي مزق كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي دعاه فيه إلى الإسلام. فدعا عليه أن يمزق الله ملكه. وفيها: فتح حبيب بن مسلمة الفهري أرمينية. وقال الواقدي: كان في هذه السنة غزوة الصواري في البحر. وكان فيها: محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر. فأظهرا عيب عثمان وما غير وما خالف أبا بكر وعمر. ويقولان دمه حلال. [حوادث سنة اثنتين وثلاثين] حوادث سنة اثنتين وثلاثين ثم دخلت السنة الثانية والثلاثون (١) . فيها: غزا معاوية بلاد الروم، حتى بلغ مضيق القسطنطينية. وفيها: مات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود، وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري - جندب بن جنادة - والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب رضي الله عنهم. [حوادث سنة ثلاث وثلاثين] حوادث سنة ثلاث وثلاثين ثم دخلت السنة الثالثة والثلاثون. وفيها: ذكر أهل العراق عثمان بالسوء وتكلموا فيه بكلام خبيث في مجلس سعيد بن عامر فكتب في أمرهم إلى عثمان. فكتب يأمره بإجلائهم إلى الشام. فلما قدموا على معاوية أكرمهم وتألفهم. ونصحهم. فأجابه متكلمهم بكلام فيه شناعة. ثم نصحهم فتمادوا في غيهم "وجهالتهم وشرهم. فنفاهم معاوية عن الشام، وكانوا عشرة: كميل بن زياد، والأشتر النخعي - مالك بن يزيد -، وعلقمة بن قيس النخعي، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وصعصعة بن صوحان، وأخوه زيد بن صوحان، وابن الكواء. فأووا إلى الجزيرة. واستقروا بحمص حتى كانت الفتنة التي قادوها لقتل عثمان. وفيها: مات المقداد بن عمرو رضي الله عنه. [حوادث سنة أربع وثلاثين] حوادث سنة أربع وثلاثين ثم دخلت السنة الرابعة والثلاثون: فيها: تكاتب المنحرفون عن عثمان - وكان جمهورهم من أهل الكوفة - وتواعدوا أن يجتمعوا لمناظرته فيما نقموا عليه. فبعثوا إليه منهم من يناظره فيما فعل من تولية من ولى وعزل من عزل. حتى شق عليه ذلك جدا، فبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده. واستشارهم. فكل أشار برأي ثم انتهى الأمر بأن قرر عماله على ما كانوا عليه. وتألف قلوب هؤلاء، وأمر بهم أن يبعثوا إلى الغزو وإلى الثغور. فلم يمنعهم ذلك من التمادي في غيهم. وفيها: توفي أبو طلحة الأنصاري، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما. [حوادث سنة خمس وثلاثين] حوادث سنة خمس وثلاثين ثم دخلت السنة الخامسة والثلاثون. وفيها: مات من الصحابة عمار بن ربيعة أسلم قديما وشهد بدرا رضي الله عنه" "وفيها: كان خروج جماعة من أهل مصر ومن وافقهم على عثمان. وأصل الفتنة ومنبعها: كان من عبد الله بن سبأ - رجل يهودي من أهل صنعاء، أظهر الإسلام ليخفي به حقده عليه وكفره به

في زمن عثمان - وكان ينتقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة ثم الشام. فلم يقدر على ما يريد. فأخرجوه حتى أتى مصر فغمز على عثمان وقاد الفتنة. وأشعل نارها، محادة لله ولرسوله حتى كانت البلية الكبرى بمحاصرة عثمان رضي الله عنه واغتياله وهو يتلو كتاب الله تعالى، وكان بيد أولئك المجرمين الخوارج في ذي الحجة من هذه السنة. رضي الله عنه. وبقتله وقعت الفتنة العظيمة التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس في بقايا من شرها إلى اليوم. ويروى: أن عثمان رضي الله عنه صلى في الليلة التي حوصر فيها ونام، فأتاه آت في منامه فقال له: قم فاسأل أن يعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالحي عباده. فقام فصلى، ودعاه. فاشتكى. فما خرج إلا جنازته. قال أهل السير: لما كان من أمر عثمان ما كان قعد علي بن أبي طالب في بيته فأتاه الناس وهم يقولون: علي أمير المؤمنين. فقال: ليس ذلك إليكم إنما هو إلى أهل بدر. فأتاه أهل بدر. فلما رأى ذلك علي خرج فبايعه الناس. ولم يدخل في طاعته معاوية وأهل الشام. فهم علي بالشخوص إليهم (١) ."[61] "[حوادث سنة ست وثلاثين]

[موقعة الجمل] حوادث سنة ست وثلاثين وقعة الجمل وبلغ الخبر عائشة - وهي حاجة - ومعها طلحة، والزبير. فخرجوا إلى البصرة يريدون الإصلاح بين الناس واجتماع الكلمة. وأرسل علي عمار بن ياسر وابنه الحسن بن علي إلى الكوفة يستنفرون الناس ليكونوا مع علي فاستنفروهم. فنفروا. وخرج علي من المدينة في سبمائة رجل. فالتقى - هو والحسن - بذي قار ثم التقوا - هم وطلحة والزبير - قرب البصرة وكان في العسكرين ناس من الخوارج. فخافوا من تمالؤ العسكرين عليهم. فتحيلوا حتى أثاروا الحرب بينهما من غير رأي. فكانت وقعة الجمل المشهورة لأن عائشة كانت في هودج. على جمل. وعقر الجمل ذلك اليوم. فأمر علي بحمل الهودج فحمله محمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر. فأدخل محمد يده في الهودج فقالت من ذا الذي يتعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أحرقه الله بالنار. فقال: يا أختاه قولي بنار الدنيا. فقالت: بنار الدنيا، فكان الأمر كذلك.

---

61 "قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في آخر ترجمة عثمان رضي الله عنه وفضائله: " الذين قتلوه، أو ألبوا عليه: قتلوا إلى عفو الله ورحمته، والذين خذلوه: خذلوه وتنغص عيشهم، وكان الملك بعده في نائبة معاوية وبنيه، ثم في وزيره مروان وثمانية من ذريته، استطالوا حياته وملوه، مع فضله وسوابقه، فتملك عليهم من هو بني عمه بضعا وثمانين سنة، فالحكم لله العلي الكبير، هذا لفظ الذهبي بحروفه.

وكانت وقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين. ثم التقى علي وعائشة. فاعتذر كل منهما للآخر. ثم جهزها إلى" "المدينة. وأمر لها بكل شيء ينبغي لها. وأرسل معها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات. وفي هذه السنة: مات حذيفة بن اليمان، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدامة بن مظعون رضي الله عنهم. [حوادث سنة سبع وثلاثين] حوادث سنة سبع وثلاثين ثم دخلت السنة السابعة والثلاثون. فسار علي رضي الله عنه والتقى هو وأهل الشام بصفين لسبع بقين من المحرم - وصفين اسم موضع بين الشام والعراق - فكانت به الوقعة المشهورة. فلما اشتد البلاء على الفريقين وطال أياما، وكثر القتلى بينهم رفع أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح ونادوا " ندعوكم إلى كتاب الله " فسر الناس وأنابوا إلى الحكومة. فحكم أهل الشام عمرو بن العاص. وحكم علي بن أبي طالب أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما. وكتبوا بينهم العهود بالرضى بما يحكم به الحكمان. فلما حل الموعد في رمضان توافوا بأذرح، بدومة الجندل. فلم يتفق الحكمان على شيء.

وانصرف علي رضي الله عنه إلى العراق، ومعاوية رضي الله عنه إلى الشام. فلما وصل علي الكوفة خرجت عليه الخوارج ; وكفروه حيث رضي بالتحكيم. وقالوا: لا حكم إلا لله. واجتمعوا بحروراء - اسم موضع" "بالعراق - فسموا الحرورية، فأرسل علي إليهم عبد الله بن عباس فأتاهم. قال: " فلم أر قوما أشد اجتهادا منهم ولا أكثر عبادة " فقال ما تنقمون؟ قالوا: ثلاث. إحداهن: أنه حكم الرجال في أمر الله وقد قال الله تعالى {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام: ٥٧] (١) . والثانية: أنه قاتل ولم يسب ولم يغنم. فإن كانوا مؤمنين، فما حل لنا قتالهم، وإن كانوا كافرين فقد حلت لنا أموالهم وسبيهم.

والثالثة: أنه محا نفسه من أمير المؤمنين. فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. فقال لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله الحكم، وحدثتكم من سنة نبيكم ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم. فقلت: أما قولكم: إنه حكم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: ٩٥]- إلى قوله - {يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ} [المائدة: ٩٥] (٢) وقال تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء: ٣٥] (٣) أنشدكم الله أفتحكيم الرجال في إصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم وأموالهم أحق، أم في أرنب ثمنها ربع درهم أو بضع امرأة؟ فقالوا: اللهم بلى، في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم. فقلت: أخرجت من هذه؟ فقالوا: اللهم نعم. "وأما قولكم: إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم أفتسبون أمكم وتستحلون منها ما تستحلونه من غيرها؟ فإن قلتم: نعم فقد كفرتم. وإن زعمتم أنها ليست لكم بأم فقد كفرتم؛ لأن الله يقول:

{وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: ٦] (١) فإن كنتم تترددون بين ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم. أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم: إنه محا نفسه من " أمير المؤمنين " فإن النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية - أراد أن يكتب بينه وبين قريش في الصلح. فقال لعلي " اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال امح يا علي. واكتب محمد بن عبد الله. فقال: والله لا أمحوك أبدا. قال: فأرني موضعه فأراه ذلك. فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده " فوالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي. أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم ". فرجع منهم أربعة آلاف، وخرج عليه باقيهم. فقاتلوه فقتل منهم مقتلة عظيمة. وأمر بالتماس المخدج ذي الثدية. فلما وجده سجد لله شكرا. وفي هذه السنة مات خباب بن الأرت، وخزيمة ذو الشهادتين وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنهم.

[حوادث سنة ثمان وثلاثين] حوادث سنة ثمان وثلاثين ثم دخلت السنة الثامنة والثلاثون. فيها: قتل محمد بن أبي بكر وأحرق." "[حوادث سنة أربعين] حوادث سنة أربعين (١) وفيها: كتب معاوية إلى علي: " أما إذا شئت فلك العراق. ولي الشام. ونكف السيف عن هذه الأمة. ولا نهريق دماء المسلمين " ففعل. وتراضيا رضي الله عنهما على ذلك. وفيها: قتل علي رضي الله عنه. قتله ابن ملجم - رجل من الخوارج - لما خرج لصلاة الصبح لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان. فبايع الناس ابنه الحسن. فبقي خليفة نحو سبعة أشهر. ثم سار إلى معاوية. فلما التقى الجمعان علم الحسن أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى. فصالح معاوية. وترك الأمر له وبايعه على أشياء اشترطها. فأعطاه معاوية إياها وأضعافها. وجرى مصداق ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» . وصح عنه أنه قال في الخوارج: " يخرجون على حين فرقة بين الناس تقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق ". وصح عنه صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة أنه نهى عن القتال في الفتنة. وأخبر صلى الله عليه وسلم بوقوعها. وحذر منها. فحصل بمجموع ما ذكرنا: أن الصواب مع سعد بن أبي وقاص، وابن عمر،

وأسامة بن زيد، وأكثر الصحابة الذين قعدوا واعتزلوا الطائفتين." "وأن علي بن أبي طالب وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه. وأن الفريقين كلهم لم يخرجوا من الإيمان.

وأن الذين خرجوا من الإيمان إنما هم أهل النهروان. وأن ما فعل الحسن بن علي رضي الله عنهما: أحب إلى الله مما فعل أبوه علي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمدحه على ترك واجب أو مستحب. وأجمع أهل السنة على السكوت عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم. ولا يقال فيهم إلا الحسنى. فمن تكلم في معاوية أو غيره من الصحابة فقد خرج عن الإجماع. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكان هذا العام يسمى عام الجماعة لاجتماع المسلمين فيه على إمام واحد بعد الفرقة. وهو عام إحدى وأربعين في ربيع الأول. فاجتمعوا على معاوية رضي الله عنه ودعي من يومئذ أمير المؤمنين. ورجع الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى المدينة.

[حوادث سنة سنة اثنتين وأربعين]

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين فيها مات عمرو بن العاص رضي الله عنه بمصر، وهو واليها.

[حوادث سنة ثلاث وأربعين]

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين فيها مات عبد الله بن سلام رضي الله عنه. [حوادث سنة أربع وأربعين] ثم دخلت سنة أربع وأربعين فماتت فيها أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنهما.

[حوادث سنة خمس وأربعين] ثم دخلت سنة خمس وأربعين" "فماتت فيها حفصة بنت عمر أم المؤمنين، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما.

[حوادث سنة ست وأربعين]

ثم دخلت سنة ست وأربعين فمات فيها محمد بن مسلمة، رضي الله عنه.

[حوادث سنة سبع وأربعين] ثم دخلت سنة سبع وأربعين فمات فيها قيس بن عاصم رضي الله عنه.

[حوادث سنة تسع وأربعين]
حوادث سنة تسع وأربعين ثم دخلت سنة تسع وأربعين. وفيها: كانت غزوة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الروم، حتى بلغ قسطنطينية. ومعه ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير. وأبو أيوب الأنصاري. وفيها: مات الحسن بن علي، وجويرية بنت الحارث أم المؤمنين، وصفية بنت حيي أم المؤمنين، وجبير بن مطعم، وحسان بن ثابت، ودحية بن خليفة الكلبي، وكعب بن مالك، وعمرو بن أمية الضمري، وعقيل بن أبي طالب، وعتبان بن مالك، والمغيرة بن شعبة. رضي الله عنهم أجمعين.

[حوادث سنة إحدى وخمسين]
ثم دخلت سنة إحدى وخمسين فمات فيها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وجرير بن عبد الله البجلي. رضي الله عنهم." "[حوادث سنة اثنتين وخمسين]

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين فمات فيها أبو أيوب زيد بن خالد الأنصاري غازيا، ودفن عند سور القسطنطينية. وكان النصارى يستسقون بقبره رضي الله عنه. وبرأه الله من عقائد النصارى. ومات بها أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين رضي الله عنهما.
[حوادث سنة ثلاث وخمسين]
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين فمات فيها صعصعة بن ناجية الصحابي الذي يقال إنه أحيا أربعمائة موءودة في الجاهلية، وزياد بن سمية رضي الله عنهم.
[حوادث سنة أربع وخمسين]
ثم دخلت سنة أربع وخمسين فماتت فيها سودة بنت زمعة أم المؤمنين، وأبو قتادة الأنصاري، وحكيم بن حزام رضي الله عنهم.

[حوادث سنة خمس وخمسين] ثم دخلت سنة خمس وخمسين فمات فيها سعد بن مالك، والأرقم بن أبي الأرقم - الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام مختبئا في داره -، وسحبان وائل البليغ الذي يضرب به المثل في الفصاحة.

[حوادث سنة ست وخمسين]

ثم دخلت سنة ست وخمسين فدعا فيها معاوية الناس إلى بيعة ابنه يزيد.

[حوادث سنة سبعة وخمسين]

ثم دخلت سنة سبع وخمسين فمات فيها عثمان بن حنيف رضي الله عنه."

"[حوادث سنة ثمان وخمسين]

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين فمات فيها سعيد بن العاص - أحد الأجواد السبعة - وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عباس - أحد الأجواد السبعة رضي الله عنهم.

[حوادث سنة ستين]

حوادث سنة ستين ثم دخلت سنة ستين:

فمات فيها معاوية بن أبي سفيان. وصح أن أبا هريرة مات قبلها بسنة وأنه كان يقول: " اللهم إني أعوذ بك من رأس الستين، وإمارة الصبيان ". واستخلف معاوية ابنه يزيد فجرت الفتنة الثانية. ولم تزل الفتنة قائمة سنين، حتى اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان. فأول ما جرى في أيام يزيد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما وأهل بيته في يوم عاشوراء سنة إحدى وستين. ثم بعدها جرت وقعة الحرة العظيمة بالمدينة قتلوا أهلها. وأباحوها ثلاثة أيام. ثم بعد ذلك توجهوا إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. فحاصروها، فلم يزالوا محاصريها حتى بلغهم موت يزيد. فلما مات يزيد افترق الناس افتراقا كثيرا. كما قيل: وتشعبوا شعبا بكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر وثبت مروان بالشام، وخرج المختار بن أبي عبيد الثقفي المبير المفسد بالعراق، ونجدة بن عويمر باليمامة. والمشهور بأمير المؤمنين في هذه السنين عبد الله بن الزبير بمكة. وبايع" "له أكثر الناس.

فلما مات مروان تولى بعده ابنه عبد الملك سنة خمس وستين. ولما تولى تصدى لحرب عبد الله بن الزبير. فجرى بينهما ما يطول ذكره، وآخره أنه وجه لقتال ابن الزبير جيشا عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي، فحصره بمكة ثم قتله رضي الله عنه سنة ثلاث وسبعين.

فاجتمع الناس بعده على عبد الملك بن مروان. فلم يزل واليا كذلك إلى سنة ست وثمانين. فمات واستخلف ولده الوليد. فبقي في الخلافة سبع سنين وأشهرا. وفي أيامه مات أنس بن مالك رضي الله عنه، والحجاج بن يوسف. ثم ولي بعده أخوه سليمان بن عبد الملك. فبقي سنتين وأشهرا. واستخلف عمر بن عبد العزيز. فبايعه الناس سنة تسع وتسعين في صفر. فسار رحمه الله سيرة الخلفاء الراشدين. وأحيا السنن وأمات البدع. وبقي في الخلافة رشيدا مهديا سنتين وأشهرا، ومات في رجب سنة إحدى ومائة. ومات في أيامه ابنه عبد الملك. وكان يشبه أباه رحمهما الله. ثم تولى بعده يزيد بن عبد الملك. فبقي أربع سنين وشهرا واحدا. وتوفي سنة خمس ومائة. ثم تولى بعده أخوه هشام بن عبد الملك. فبقي تسعة عشر سنة وأشهرا.""وفي خلافته ظهر الجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن. وأظهره في دمشق. فطلبه بنو أمية. فهرب منهم إلى الكوفة. فلما أظهر قوله هناك أخذه خالد بن عبد الله القسري. قتله يوم عيد الأضحى من سنة أربع وعشرين ومائة. خطب الناس، فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم. فإني مضح بالجعد بن درهم. إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا. ولم يكلم موسى تكليما. تعالى الله عما قال الجعد علوا كبيرا. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر. وتوفي هشام بن عبد الملك سنة خمس وعشرين ومائة. ثم تولى بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك. فبقي سنة أو أقل أو أكثر. ثم قتل سنة ست وعشرين ومائة. ثم تولى بعده ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك. فبقي خمسة أشهر وتوفي في ذي القعدة - أو في أول ذي الحجة - من سنة ست وعشرين ومائة. وبعده انقضت الخلافة التامة. ولم تجتمع الأمة بعده على إمام واحد إلى اليوم، وهو آخر الخلفاء الاثني عشر الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «لا يزال أمر هذه الأمة عزيزا ينصرون على من ناوأهم إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش» . وفي لفظ لمسلم: «إن هذا الأمر لا ينقص حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» . وعند البزار: «لا يزال أمر أمتي قائما، حتى يمضي اثنا عشرة خليفة» ." "وفي لفظ: «لا يزال الإسلام عزيزا منيعا إلى اثني عشر خليفة» . وعند أبي داود: «قالوا: ثم يكون ماذا؟ قال ثم يكون الهرج» . فلما مات يزيد طلب الأمر أخوه إبراهيم. فبايعه أخوه. ولم ينتظم له أمر فطلب الأمر مروان بن محمد بن مروان - الذي يقال له مروان الحمار - فبايعه بعض الناس في صفر سنة سبع وعشرين ومائة. ولم يزل في حروب وتخبيط إلى آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة - يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة - فقتل في كنيسة أبي صير. وكانت مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام. وهو آخر من ولي الخلافة من بني أمية.

[بدء تأليف الكتب]وبدأ تأليف الكتب في أيام عمر بن عبد العزيز: كتب إلى أبي بكر بن حزم بالمدينة: " انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء ". وفي أيام المنصور شرع العلماء في تصنيف كتب التفسير والحديث. فصنف ابن جريج بمكة ومالك بن أنس بالمدينة وأبو عمرو الأوزاعي بالشام وحماد بن سلمة بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة. ومعمر بن المثنى باليمن. وصنف محمد بن إسحاق المغازي. وصنف أبو حنيفة النعمان بن ثابت الرأي. وقبل هذا: كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ويرون العلم صحفا غير مرتبة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهكذا نكون اختتمنا القسم الثاني وهو الانبياء واقوامهم بفضل الله إلى نهاية الخلافة الراشدة وننتقل بعون الله إلى القسم الثالث وهي دول الإسلام منذ بداية الاموية إلى العثمانية بموضع مختصر وسريع بدون اطالة المواضيع والأحداث -

"والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

القِسمُ الثَّالِث

الدُّوَلُ الإِسْلَامِيَّةُ وَأَخْبَارُهَا

بسم الله الرحمن الرحيم - نبدأ الفصل الثالث من كتابنا،وموضوعه يشمل بعض الدول الإسلامية المهمة في التاريخ الإسلامي ابتداء من دولة بني أمية وننتهي في دولة بني عثمان وبينهما دولة بني العباس ودولة الأندلس ودولة بني سلجوق وغيرهم من الدول المهمة في تاريخ الإسلام العظيم والكبير ونختصر معظم الأحداث المهمة في تاريخ هذه الدول وذكر الخلفاء من بعد الراشدين، ونبدأ بعون الله ، والحمدلله

باب ذكر خلفاء بني أمية:

"قامت بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل علي في رمضان ٤٠ هـ/٦٦١ م. ويعد بدء الدولة الأموية من تنازل الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان في ٢٥ ربيع الأول ٤١ هـ/٦٦١ م. - وانتهت الدولة بهزيمة الخليفة مروان بن محمد في معركة الزاب في جمادى الأولى عام ١٣٢ هـ/٧٤٩ م. فدامت الدولة ٩١ عام، وتوالى عليها أسرتان، وحكمها ١٤ خليفة. وكانت دمشق هي عاصمة الأمويين.

* * * [خلفاء بني أمية]

* * * الأسرة السفيانية:

- معاوية بن أبي سفيان ٤١ - ٦٠ هـ/٦٦١ - ٦٧٩ م.

- يزيد بن معاوية ٦٠ - ٦٤ هـ/٦٧٩ - ٦٨٣ م.

- معاوية بن يزيد ٦٤ هـ/٦٨٣ م (٤٠ يومًا فقط)."

(٦٤ - ٧٣ هـ/٦٨٣ - ٦٩٢ م) فترة تداخل إمارة الأمويين مع خلافة عبد الله بن الزبير.

* * * الأسرة المروانية:-

٤ - مروان بن الحكم ٦٤ - ٦٥ هـ/٦٨٣ - ٦٨٤ م.

٥ - عبد الملك بن مروان بن الحكم ٦٥ - ٨٦ هـ/٦٨٤ - ٧٠٥ م.

٦ - الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦ هـ/٧٠٥ - ٧١٤ م.

٧ - سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ/٧١٤ - ٧١٧ م.

٨ - عمر بن عبد العزيز بن مروان ٩٩ - ١٠١ هـ/٧١٧ - ٧١٩ م.

٩ - يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ/٧١٩ - ٧٢٣ م.

١٠ - هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ/٧٢٣ - ٧٤٢ م.

١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥ - ١٢٦ هـ/٧٤٢ - ٧٤٣ م.

١٢ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ - ١٢٦ هـ/٧٤٣ م.

١٣ - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ - ١٢٧ هـ/٧٤٣ - ٧٤٤ م.

١٤ - مروان بن محمد بن مروان ١٢٧ - ١٣٢ هـ/٧٤٤ - ٧٤٩ م.

"معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ) (٦٦١ - ٦٧٩ م):-

نسبه: هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس.

* * * حياته:- حضر غزوة الخندق مع المشركين، وفرَّ معهم بعد هبوب الريح، أسلم عام الحديبية ٦ هـ/٦٢٧ م، وأخفى إسلامه، وأظهره عام الفتح ٨ هـ/٦٢٩ م عندما أسلمت قريش، شهد مع رسول الله حنين والطائف، وأعطي من غنائمها الكثير، وعُد يوما من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه. وكان أحد كتّاب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - روى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ١٦٣ حديث، قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهديه " رواه الترمذي. تُوفي الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو عنه راضٍ. شهد اليرموك، وفتح دمشق تحت راية أخيه يزيد، وفتح قيسارية وبعض سواحل بلاد الشام. جعله عمر بن الخطاب واليًا

على بلاد الشام كلها، واستأذن عمر في غزو الروم بحراً فرفض، غزا أرض الروم ووصل إلى عمورية (قرب أنقرة)، سمح له عثمان بالغزو بحراً بعد إلحاح منه، فغزا قبرص وفتحها عام ٢٨ هـ/٦٤٨ م، انتصر على الروم في أعظم معركة بحرية خاضها المسلمون وهي معركة ذات الصواري عام ٣١ هـ/"

"عندما بويع علي بن أبي طالب بالخلافة، عزل جميع الولاة، فرفض معاوية العزل، ورفض البيعة، فجرت حروب بينه وبين الخليفة، انتهت بمقتل علي على يد أحد الخوارج، فبويع ابنه الحسن، الذي ما لبث أن تنازل لمعاوية حقناً لدماء المسلمين، وتوحيداً لكلمتهم، فأصبح معاوية هو الخليفة الشرعي بدءًا من عام ٤١ هـ/٦٦١ م (الذي سمي بعام الجماعة). استقرت الأمور، واستتب الأمن الداخلي، وعادت الفتوحات بعد توقفها بسبب الخلافات الداخلية.

* * *الفتوحات الأموية:- شملت الفتوحات في العهد الأموي ثلاث ميادين:-
- ضد الروم في آسيا الصغرى: وقد امتدت فشملت حصار القسطنطينية وبعض جزر البحر المتوسط.
- الشمال الأفريقي: وقد امتدت حتى المحيط ثم عبرت مضيق جبل طارق وامتدت إلى أسبانيا. - الميدان الشرقي: امتد شرق العراق، ثم تفرع شمالا تجاه ما وراء النهر وجنوباً فشمل بلاد السند."
"ويلاحظ أن التوسع الإسلامي توقف بعد بني أمية. فلم تتقدم الدولة العباسية عسكرياً خطوة واحدة للأمام (رغم أن الإسلام واصل انتشاره عن طريق الدعاة والتجار).

وقد استؤنفت بعد ذلك حركة التوسع الحربي في ظل الغزنونيين والعثمانيين (١).
* * * الفتوحات في عهد معاوية:-
كانت الفتوحات في عهده واسعة، وعلى جبهتين رئيسيتين:-
أولًا - الجبهة الغربية:- - بلاد الروم (تركيا): عُمِلت ثغور دائمة هناك، وكانت الحملات مستمرة، وكان الهدف فتح القسطنطينية، حوصرت عام ٥٠ هـ/٦٧٠ م - ثم من ٥٣ - ٦١ هـ/٦٧٢ - ٦٨٠ م ولم تفتح. كون معاوية أسطولًا ضخمًا مجهزاً في البحر المتوسط (١٧٠٠ سفينة)، وحقق به عدة انتصارات، ففتح جزيرة جربا (بصقلية) عام ٤٩ هـ/٦٦٩ م، وجزيرة رودوس عام ٥٣ هـ/٦٧٢ م، وجزيرة كريت عام ٥٥ هـ/٦٢٤ م، وجزر بحر إيجه قرب القسطنطينية عام ٥٧ هـ/٦٨٠ م. -

في أفريقيا: فتحت بنزرت عام ٤١ هـ/٦٦١ م، وفتحت قونية (قرب القيروان) عام ٤٥ هـ/٦٦٥ م، وسوسة في العام نفسه، وفتح عقبة بن نافع سرت" "ومغداس وطرابلس وأعاد فتح ودان، ودخل فزان وقفصة، وبنى مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م. وفتح كورًا من بلاد السودان، وأخيرًا وصلت الفتوحات إلى الغرب الأوسط (الجزائر). فكان عقبة بن نافع الفهري من أعظم القادة في هذا الميدان.

* * * ثانيًا - الجبهة الشرقية:-

الجبهة الشرقية تشمل:- بلاد ما وراء النهر، والسند أما بلاد ما وراء النهر (أو ما بين النهرين) فهي البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون، وأهم ممالكها:- طخارستان (عاصمتها بلخ)، صفانيان (عاصمتها شومان)، الصغد (سمرقند وبخارى)، فرغانة (عاصمتها بخندة)، خوارزم (عاصمتها الجرجانية)، أشروسنه (عاصمتها بنجكث)، الشاش (عاصمتها بنكث) (١). ومعظم سكان تلك الجهات أمم وثنية، غزا المسلمون بلاد ما وراء النهر عام ٤١ هـ/٦٦١ م، ففتحوا سجستان عام ٤٣ هـ/٦٦٣ م، وبعض طخارستان في ٤٥ هـ/٦٦٥ م، ووصلوا إلى قوهستان، وفي عام ٥٥ هـ/٦٢٤ م، وصل عبيد الله بن زياد إلى تلال بخارى، وفي عام ٤٤ هـ/٦٦٤ م غزا المسلمون بلاد السند والهند. وكان سكان تلك البلاد ينكثون مرة بعد أخرى، ولم تستقر الأوضاع نهائيًا إلا في عهد الوليد بن عبد الملك."

"الخوارج:-

هم الذين أجبروا عليًّا على وقف القتال في صفين لتحكيم القرآن، ثم رفضوا التحكيم، فخرجوا على عليٍّ في حروراء، وأفسدوا في الأرض فأبادهم علي في معركة النهروان، وبقي منهم الكثير في جيشه. وقد تمكن أحدهم من قتل علي - رضي الله عنه -. في عهد معاوية قامت لهم عدة ثورات في الكوفة والبصرة، فقُضِيَ عليها، وكان والي البصرة زياد بن أبيه وابنه عبيد الله شديدين جدًا عليهم. والخوارج بدو أجلاف، شديدو الإيمان، شديدو البأس، يرون أن الناس اثنين مؤمن وكافر، فمن رأى رأيهم مؤمن، ومن خالفه كافر، ورموا عثمان وعليًّا ومعاوية بالكفر، فهم حاربوا كل من ليس من جماعتهم، واستباحوا دماء المسلمين، وتسببوا في الكثير من الويلات. ويلاحظ أن أزهي انتصاراتهم

كانت خلال عهد الدولة الأموية. وأهم فرقهم الأزارقة، النجدات، الإباضية، العجاردة، والصفرية (١).

* * * بيعة يزيد أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد في حياته، فكان أول خليفة مسلم يفعل ذلك، وكان أهم من عارضه من الصحابة الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر، وواجهته مصاعب جمة ومشاكل" "ومعارضات شديدة. حتى تمكن من هذا الأمر، وهذا التصرف الذي بدأ به معاوية لا يجوز شرعًا، فالخلافة إمامة للمسلمين جميعًا. يتولاها الكفء منهم، ولا يجوز جعلها وراثية.

* * * وفاته:- سار معاوية في الناس سيرة حسنة، وحرص على جمع الكلمة. ولم يبق معارضًا إلا عدد من الخوارج وتأثيرهم ضعيف. كان عهد معاوية طويلًا ولكنه كان عريضًا أيضًا. فقد كان من أنضر عهود الخلافة الإسلامية، كان الأمن الداخلي مستتب، وكل العناصر المعادية له مغلوبة، وفتوحاته الخارجية مستمرة على كل الجبهات، مجلله بالانتصارات، كما كانت سابقًا. وما أخذه الصحابة وأبنائهم على معاوية أخذه البيعة لابنه يزيد. تُوفي في رجب ٦٠ هـ/٦٧٩ م، فكانت خلافته عشرين عامًا. وهو أول من وضع البريد في الإسلام، وأول من اتخذ ديوان الختم.

* * * يزيد بن معاوية ٦٠ - ٦٤ هـ/٦٧٩ - ٦٨٣ م:- هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. نشأ على شيء من الرفاهية والدلال، وعندما شب انصرف إلى اللهو والصيد، وقد وصلته الخلافة بعهدٍ من أبيه، فبايعته الأمصار في حياة أبيه، ما عدا نفر من المدينة، وقد حاول يزيد إجبارهم، فبايع ابن عمر وابن أبي بكر وابن عباس، أما الحسين وابن الزبير فقد رحلا إلى مكة، ولم يبايعا، وكانا يطمعان في الخلافة." "الفتوحات:-

حدثت فتوحات في أفريقية فقط، وهدأت في باقي الجهات بسبب الأحداث الداخلية والفتن. ففي أفريقيا واصل عقبة بن نافع الفتوحات غربًا ففتح بلاد الغرب كلها ووصل إلى المحيط الأطلسي،

ويروى أن عقبة صعد على ربوة مقابل المحيط وقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهدًا في سبيلك. ولو كنت أعلم بعده أرضًا وناسًا لخضته إليهم.

* * * الأحداث الداخلية:-

ثورات الشيعة:- ثورات الشيعة كانت ثورات متصلة خلال العهد الأموي، بواعثها كراهية الأمويين، وهدفها إسقاطهم، بل وإضعاف المسلمين جميعًا.

* * * فاجعة كربلاء ١٠ محرم ٦١ هـ/٦٨٠ م (١):-

لم يبايع الحسين بن علي يزيدًا، وطلبه أهل العراق ليبايعوه وألحوا عليه، فخرج إليهم، وأخذ معه أهل بيته وخاصة جماعته، وقد نصحه كثيرون من أصحاب الرأي والمعرفة بعدم الخروج فلم ينتصح (ولعله اجتهد في ذلك فأخطأه التوفيق في اجتهاده) لقيته خيل عبيد الله بن قلاد والي البصرة والكوفة، فعدل إلى كربلاء، وهناك خيروه بين الاستسلام أو القتال فاختار القتال، فنشب القتال، فقاتل الحسين وأصحابه قتالًا"[62] "مستميتًا، إلى أن قتل وكل أصحابه ومعظم أهل بيته، وحمل رأسه مع أهل بيته إلى يزيد، فبكى لما حدث، وأكرم نساء الحسين، ورحلهم إلى المدينة.

وكانت هذه فتنة أيسر ما نقول عنها إنها وسعت باب الفرقة والتهمت الآلاف والملايين من المسلمين، ولا يزال بابها مفتوحًا حتى كتابة هذه السطور.

* * * وقعة الحرة واستباحة المدينة (ذو الحجة ٦٣ هـ/٦٨٣ م):- وصل خبر كربلاء إلى المدينة، فأعلن عبد الله ابن الزبير خلع يزيد، وأخذ البيعة لنفسه، فبايعه أهل المدينة، فأرسل يزيد جيشًا دخل المدينة بعد إمهالها، فاستباح حرمتها وقتل المئات من الصحابة وأبنائهم فانهزمت، وواصل الجيش إلى مكة، وكان ابن الزبير قد فر إليها، فحوصرت مكة ورمي البيت بالمنجنيق وأُحْرِق بالنار، ثم مات يزيد أثناء حصار مكة، فرحل الجيش الأموي إلى الشام.

* * * وفاته:- كانت في ربيع أول ٦٤ هـ/٦٨٣ م، دامت خلافته ٤ سنوات.

[62] "(١) البداية والنهاية/الحافظ ابن كثير جـ ٨/ص ١٧٢."

* * * معاوية (الثاني) بن يزيد ٦٤ هـ/٦٨٣ م:-تولى بعد أبيه، ولمدة ٤٠ يومًا فقط، ثم تنازل لمرضه وضعفه، واعتزل في بيته، حتى مات بعد ٣ أشهر. * * * * انقطاع مؤقت للخلافة الأموية." [63]

"الأحداث:- * نشاط مروان بن الحكم:- بعد موت يزيد تولى ابنه معاوية الذي تنازل فاعتزل، فبايع الأمويون مروان بن الحكم عام ٦٤ هـ/٦٨٣ م، فاستطاع أن يخضع الشام كلها لسيطرته، ثم استولى على مصر من ابن الزبير، وتُوفي عام ٦٥ هـ/٦٨٤ م، بعد أن عهد لابنه عبد الملك.
* * * حركة المختار الثقفي ٦٤ - ٦٧ هـ/٦٨٣ - ٦٨٦ م:- كان من أتباع ابن الزبير بمكة، ثم تمرد ورحل للكوفة، ودعا بإمامة المهدي من آل البيت، وكان ضالًا منحرفًا، قاصدًا الجاه والمال، فاستولى على الكوفة والموصل وهاجم مكة، فقاتله عبد الملك فغلبه المختار، وقتل قتلة الحسين ونكَّل بهم إرضاء للشيعة وقتل عبيد الله بن زياد، ثم قضى عليه مصعب بن الزبير، والي البصرة من قبل أخيه عبد الله سنة ٦٧ هـ/٦٨٦ م. * * * استيلاء عبد الملك على العراق والمدينة:- خرج عبد الملك بنفسه لقتال مصعب بن الزبير، فانهزم مصعب وقتل سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م فخضعت العراق لعبد الملك، ثم قدم الجيش إلى المدينة المنورة، فأخضعها. * * * مقتل ابن الزبير وإخضاع مكة:- سير عبد الملك جيشًا كبيرًا إلى مكة بقيادة قائده الشهير الحجاج بن يوسف"

"الثقفي، وكان ابن الزبير متحصناً بها، حاصر الحجاج مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وتخاذل الناس عن ابن الزبير، فقاتل مع خاصته بشجاعة نادرة عند الكعبة، حتى سقطت عليه إحدى شرفات الكعبة فقتلته في عام ٧٣ هـ/٦٩٢ م. فخضعت مكة لعبد الملك، وهكذا خضعت له الأمصار كلها فصار هو الخليفة الشرعي في عام ٧٣ هـ/٦٩٢ م. دامت خلافة عبد الله بن الزبير ٩ سنوات تقريبًا. * * * (عودة الخلافة الأموية) * عبد الملك بن مروان ٧٣ - ٨٦ هـ/٦٩٢ - ٧٠٥ م:- حياته وخلافته:- هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، ولاه معاوية على المدينة وعمره ١٦ عامًا. وكان قبل خلافته عابدًا زاهدًا فقيهًا، ومن علماء المدينة، شارك في فتوحات أفريقيا عام ٤١، ٤٥ هـ. في سنة ٦٥ هـ/٦٨٤ م تولى الأمر بعد وفاة والده مروان بن الحكم، (وكان

[63] "(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٢١٢ - ٢١٥، والعقد الفريد، جـ ٤/ ٣٩٣"

الخليفة ابن الزبير) فانتزع العراق من ابن الزبير، ثم أخضع الحجاز كلها بعد أن قتل ابن الزبير، فبايعته باقي الأمصار، وغدا الخليفة منذ عام ٧٣ هـ/٦٩٢ م، فاستقر له الوضع تمامًا." "ويعتبر المؤسس الثاني للدولة الأموية، فقد تولى والعالم الإسلامي متفكك واستطاع بحكمته وسياسته أن يرد البلاد كلها إلى الطاعة ويقضي على كل تمرد وعصيان.

* * * الفتوحات:- لم تحدث فتوحات واسعة في عهده لانشغاله في قتال الخوارج وقتال ابن الأشعث، وعاد إلى قتال الروم وكانوا يهددون بلاد الشام، أعيد فتح بلاد الغرب، وأشهر القادة في ميدان الشمال الأفريقي موسى بن نصير الذي أعاد الاستقرار للمنطقة بعد موت عقبة وفتح طنجة وسبتة. حورب الترك في الشرق وبلاد ما وراء النهر، وسار محمد الثقفي لفتح السند، ولم تحصل فتوحات واسعة في المشرق، ولكن استقرار عهده مهد لفتوحات عظيمة في عهد ولده الوليد.

* * * الأحداث:-

حركة عبد الرحمن بن الأشعث ٨١ - ٨٥ هـ/٧٠٠ - ٧٠٤ م:- سيره الحجاج (والي العراق) إلى قتال بلاد الترك سنة ٨١ هـ لحقق انتصارات ثم خلع طاعة الحجاج وعبد الملك، قاتل الحجاج وأخضع العراق، ثم دان له المشرق ما عدا خراسان جرت معارك ضخمة بينه وبين الأمويين إلى أن انهزم وفرَّ في عام ٨٢ هـ، وقتل عام ٨٥ هـ/٧٠٤ م، وقتل الحجاج الكثير من العلماء الذين تبعوا ابن الأشعث، ومنهم التابعي سعيد بن جبير." "* الحجاج بن يوسف الثقفي:-

كان من أعظم رجال عبد الملك. وقد عرف بالسياسة والدهاء والفتك والبطش والقسوة الشديدة (بحق أو بدون حق)، وكان من ضمن القادة الذين قاتلوا مصعب بن الزبير وضموا العراق إلى الأمويين ثم سيره عبد الملك لقتال عبد الله بن الزبير وإخضاع الحجاز. فأخضعها وقتل ابن الزبير. وصار واليًا عليها، وعندما تجددت الفتن بالعراق (كالعهد بها دومًا) ولاه عبد الملك عليها. فاستخدم ضدهم كل وسائل البطش والفتك حتى استكانوا تمامًا، وامتد نفوذه حتى شمل الشرق كله، كما نرى، كان له دور كبير في تذليل العقبات التي واجهت الدولة الأموية ويبدو أن قسوته كانت لازمة لضمان الأمن والسلام والاستقرار.

* * * الخوارج:- قوي نشاطهم في العراق والجزيرة، واستطاع القائد الأموي المهلب بن أبي صفره أن يحقق انتصارات عظيمة عليهم، ويقضي على أعداد ضخمة منهم. ومن القادة البارزين للخوارج في هذه الفترة قطري بن الفجاءة وشبيب الشيباني. أعمال هامة له:- إصدار العملة الإسلامية عام ٧٦ هـ/٦٩٥ م - إعادة بناء المسجد الأقصى - تعريب الدواوين ٨١ - ٨٦ هـ/٧٠٠ - ٧٠٥ م."
"وفاته:- تُوفي عام ٨٦ هـ/٧٠٥ م، فكانت خلافته الشرعية ١٣ عامًا.
* * * الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦ هـ/٧٠٥ - ٧١٤ م:- هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، نشأ في الترف، كان ضعيف اللغة، تولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه.

أهم أعماله:- بدأ خلافته ببناء جامع دمشق، وانتهى منه بانتهاء خلافته (١٠ سنوات)، فكان هذا الجامع آية في الإبداع والروعة، بنى صخرة القدس، وسَّع مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وقام بإصلاحات وأعمال عمرانية ضخمة.

الأوضاع في عهده:- كانت هادئة في كل الولايات، فقد ضعف أمر الخوارج، ولم تقم حركة تُذكر في أيامه، وكان عهده عهد سعة ورخاء وأمن واستقرار.

* * * الفتوحات:- حدثت فتوحات واسعة وعظيمة جدًا، واتسمت بامتدادها على مختلف الجبهات، في الشرق والغرب والأندلس وفرنسا."
"الجبهة الغربية:- في بلاد الروم وصل القائد مسلمة بن عبد الملك إلى عمورية (أنقرة) وهرقله ففتحها سنة ٨٩ هـ/٧٠٧ م، ووصل المسلمون إلى خليج القسطنطينية، وغزوا أذربيجان وكان السكان ينقضون مرة بعد مرة، فكثرت الغزوات في تلك الجهات عام ٩٣ هـ/٧١١ م. في البحر المتوسط: فتح المسلمون جزيرة صقلية وميورقة سنة ٨٩ هـ/٧٠٧ م. في أفريقية: وطَّد موسى بن نصير الفتوحات هناك. ثم عمل على نشر الإسلام بين البربر. فتح الأندلس: قرر القائد موسى بن نصير أن يعبر المضيق وينشر الإسلام في بلاد أوروبا ويدخلها في نطاق الدولة الإسلامية، فسير القائد البربري طارق بن زياد إلى الأندلس بحرًا، ويروى أنه أحرق سفنه ليقطع على جنوده أمل العودة أو الهروب، وألقى خطابه الشهير: أيها الناس أين المفر .. البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم

إلا الصدق والصبر. فخاض معارك عظيمة وقتل حاكمها لذريق وفتحها سنة ٩٢ هـ/٧١٠ م، وصل طارق وموسى إلى جبال البرانس، وأخضعا كل تلك المناطق ما عدا جليقية. الجبهة الشرقية (بلاد الترك):- في بلاد ما وراء النهر: اشتهر هناك القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، فتح مدينة بيكند سنة ٨٧ هـ/٧٠٥ م - وغزا بلاد الصغد ونسف وكش عام ٨٩ هـ/٧٠٧ م - فتح بخارى في ٩١ هـ/٧٠٩ م ثم فتح الطالقان والفارياب وبلخ. ثم سمرقند عام" " هـ/٧١١ م - غزا بلاد الشاش وفرغانه حتى بلغ خوقند عام ٩٤ هـ/٧١٢ م - وفتح كابل في ٩٤ هـ/٧١٢ م أيضًا - فتح مدينة كاشغر (في تركستان الشرقية) عام ٩٦ هـ/٧١٤ م، استطاع هذا القائد العظيم أن يمد فتوحاته إلى كل البلاد الواقعة بين النهرين (وهذا يشمل معظم مساحة الاتحاد السوفيتي السابق وبلاد أفغانستان) ثم واصل حتى دخل الصين. وفرض الجزية على ملكها. إلى هنا توقف قتيبة شرقًا. أخضع قتيبة مناطق شاسعة جدًا، تجاوزت مساحتها ٤ ملايين كيلو متر مربع تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب بحر الخزر، ثم تمتد شمالا لتتعمق في آسيا الوسطى، وتصل شرقًا إلى أواسط تركستان الشرقية، ثم تتجه غربًا نحو كابل (أفغانستان، سجستان) (١). في بلاد السند (بلاد السند تكون معظم دولة باكستان حاليًا) أرسل الحجاج جيشًا ضخمًا إلى هذه البلاد بقيادة القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي (ابن أخيه)، تمكن القائد محمد بن القاسم الثقفي من تحقيق انتصارات ضخمة هناك وقتل داهر ملك السند، واحتل بلاد السند في الفترة ٩٠ - ٩٤ هـ/٧٠٨ - ٧١٢ م، فكانت تلك من أعظم [64]

الفتوحات. فبلغت الدولة الإسلامية في هذا العهد أقصى اتساع لها عبر التاريخ. وفاة الوليد:- تُوفي عام ٩٦ هـ/٧١٤ م، ودامت خلافته عشر سنوات." "سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ/٧١٤ - ٧١٧ م:-

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان. كان قبل خلافته واليًا على الرملة، وتولى الخلافة بعهد من أبيه، وكان أبوه قد عهد لولديه الوليد ثم سليمان.

---

[64] "(١) العهد الأموي/محمود شاكر، ص ٢٢٧.

* * * خلافته:- عندما تولى أمر بإقامة الصلاة في وقتها، وكانت تؤخر إلى آخر وقتها، وكانت الفترة الأولى من حكمه مملوءة بالانتقام المر لشخصه. من عظماء ملأ ذكرهم الدنيا، كانوا قد وافقوا أخاه الوليد على عزل سليمان وتولية العهد لابنه وهم محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم. وكذلك آل الحجاج بن يوسف فبطش بهؤلاء جميعًا. ونكل بالقائد العظيم موسى بن نصير. حج سنة ٩٧ هـ/٧١٥ م، عهد من بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز، وهذه أجل وأروع أعماله.

* * * الفتوحات:-

كانت الفتوحات محدودة في أيامه، فعلى الجبهة الغربية غزا القسطنطينية برًا وبحرًا تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك، ورابط بنفسه هناك، وأقسم ألا يعود حتى يفتحها، فتوفي أثناء حصارها عام ٩٩ هـ/٧١٧ م. على الجبهة الشرقية: فتح يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان عام ٩٨ هـ/٧١٦ م.

* * *ووفاته:- تُوفي عام ٩٩ هـ/٧١٧ م، فكانت خلافته ثلاث سنوات."

"* عمر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١ هـ/٧١٧ - ٧١٩ م:-"

"هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، كان قبل خلافته أميرًا على المدينة، وكان غارقًا في مظاهر التكبر والترف الأموي الصارخ.

* * * خلافته وأعماله:- تولى بعهد من ابن عمه سليمان بدون علمه، فلم يكن يسعى لها أو يريدها، [65]وتبدل كليًا منذ خلافته، فهجر كل ألوان النعيم، وصار عابدًا زاهدًا، ضيق على نفسه وأهله فرد كل ما لديه من أموال وقطائع إلى بيت المال، وكذلك أموال ومجوهرات زوجته فاطمة بنت عبد الملك. واسترد من بني أمية كل ما أعطوا من قطائع وهبات، وأعادها لبيت المال، وحرم نفسه أن يأخذ من بيت المال شيئًا، وامتاز عهده بكثير من الإصلاحات، فأصلح الأراضي وحفر الآبار وبنى المساجد، ووزع الصدقات حتى قضى على الفقر، فلم يبق في عهده من يأخذ من أموال الزكاة أو الصدقات، وعزل الولاة الظالمين. فكان لصلاحه وتقواه يعد من الخلفاء الراشدين." "فك حصار

---

[65] "(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، جـ ٢/ص ٧٢."

"(٢) البداية والنهاية/ابن كثير، جـ ٩/ص ١٨٩."

القسطنطينية، وأمر بعودة الجيوش الإسلامية، واستمرت الحملات على الترك في بلاد الروم. غزا المسلمون فرنسا، واخترقوا جبال البرانس، ووصلوا إلى مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، وحاصروا طولوز، ولكن لم يحقق المسلمون نتائج ملموسة في فرنسا، وقلت الحروب في فترته، ونشطت الدعوة للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فدخل الكثيرون في الإسلام.

الأحداث:- كانت مدته قصيرة، ولم تحدث أية أحداث داخلية ذات أهمية، حتى أن الخوارج أوقفوا نشاطهم الثوري، والتقوا مع عمر للتفاهم معه بالحجة، وانصاع له كثيرون منهم.
* * * بدء الدعوة العباسية (١):-
ادَّعت فرقة الكيسانية (الرافضية) أن الإمامة في عقب محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية)، ثم دعوها لابنه أبي هاشم الذي كان ينتقد الأمويين، وقبل موته طلب من ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (المقيم بالحميمة في الأردن) طلب منه تقويض الحكم الأموي والدعوة إلى آل البيت، فبدأ ينفذ من عام ١٠٠ هـ/٧١٨ م." "وفاة عمر:- تُوفي في رجب ١٠١ هـ/٧١٩ م، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر فقط، وكانت خلافته - رضي الله عنه - نعمة وخيرًا على الإسلام والمسلمين.

* * * يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ/٧١٩ - ٧٢٣ م:- هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، نشأ في الرفاهية والدلال، فلم يشعر بقيمة السلطان، إذ أتاه الحكم ولم يتعب عليه، تولى بعد عمر بعهد من أخيه سليمان، شغل عن الحكم بجاريتين أحبهما هما: حبابه وسلامة، ويقال إنه مات كمدًا على موت حبابة، كما يروي الكثير من المؤرخين. ورغم أننا لا نعفي يزيد من الخلاعة والمجون، إلا أننا نستبعد مثل هذه الروايات التي تبدو من نسيج الخيال، وربما وضعها أعداء بني أمية (الذين دُوِّن التاريخ في عهدهم). ويلاحظ أنه عندما تولى الشباب الخلافة في أواخر الدولة الأموية أدى هذا إلى توقف الفتوحات وضعف الدولة وبداية نهايتها. * * * الفتوحات:- أعيد فتح أرمينيا وبلاد اللان، انهزم المسلمون وتراجعوا إلى جنوب فرنسا عام ١٠٢ هـ/٧٢٠ م - غزو صقلية - وغزو بلاد الصغد عام ١٠٤ هـ/٧٢٢ م." "
الأحداث:-

نشط الخوارج بقيادة شوذب فهزموا الأمويين في كثير من المعارك، إلى أن قُضِيَ عليهم وعلى زعيمهم شوذب. ومن أهم الأحداث في عهده ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في العراق (أرض الثورات)، فانتصر يزيد عليهم وقتل ابن المهلب، وقضى على آل المهلب كلهم. وقد كانوا فيما مضى من أشهر قواد الأمويين الذين جلبوا لهم الانتصارات.

* * وفاته:- تُوفي عام ١٠٥ هـ/٧٢٣ م، فكانت مدته أربع سنوات.

* * هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ/٧٢٣ - ٧٤٢ م:- هو هشام بن عبد الملك بن مروان. استخلف بعهد من أخيه يزيد، كان يولي أولاده الجهاد في بلاد الروم وعرف عهده بالإصلاحات الواسعة وعمَّر الأراضي - بنى مدينة الرصافة، ضبط الدواوين تمامًا، وكان عارفًا بالأمور حليمًا ويكره سفك الدماء. وعرف بالبخل.

* * الفتوحات:- كان الجهاد مستمراً بدون فتوحات جديدة، في فرنسا تقدم القائد عبد الرحمن الغافقي بجيوشه إلى أن وصل إلى وسط فرنسا فأصيب الفرنجة برعب شديد. كما أثار ذلك خوف المسيحيين في جميع أنحاء أوروبا، فتجمعوا جميعًا تحت قيادة (شارل "مارتن)، فجرت معركة هائلة في بواتييه هي معركة (بلاط الشهداء)، قتل فيها الغافقي وتراجع الجيش إلى جنوب فرنسا عام ١١٤ هـ/٧٣٢ م، فكانت هذه أعظم الواقع خطراً على فرنسا.

الأحداث:- ثورة زيد بن علي بن الحسين: خرج علي بني أمية بالكوفة عام ١٢١ هـ/٧٣٨ م ثم تخاذل عنه الكوفيون (كعادتهم) فقاتل قتالا عظيمًا حتى قضى عليه في عام ١٢٢ هـ/٧٣٩ م، ثم ثار ابنه يحيى في بلخ بخراسان. فقتله الأمويون عام ١٢٥ هـ/٧٤٢ م. وتنسب إلى زيد وابنه يحيى فرقة الزيدية الشيعية.

* * الدعوة العباسية:-

نشطت الدعوة في هذه الفترة، وكان مركزها في الكوفة، ومجال انتشارها في خراسان، كان الأمويون يتعقبون الدعاة ويقتلونهم. مات صاحب الدعوة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عام ١٢٤ هـ/٧٤١ م، وتولى ابنه إبراهيم. ظهر في هذه الفترة نشاط أبي مسلم الخراساني كأحد أبرز الدعاة.

* * وفاة هشام:- تُوفي عام ١٢٥ هـ/٧٤٢ م، ودامت خلافته عشرون عامًا. في عهده خطت الدولة خطوة نحو الضعف، وذلك بسبب قيام العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب. وبخاصة

في خراسان. وهذا مما ساعد الشيعة على تحقيق انتصارات جديدة في تلك البقاع." "* الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥ - ١٢٦ هـ/٧٤٢ - ٧٤٣ م:-

استخلف بعهد من أبيه يزيد بعد عمه هشام، أسرف في شهواته وخلاعته ومجونه، فنقم عليه الناس، وبايعوا سرًا ابن عمه يزيد بن الوليد الذي كان معروفًا بالصلاح. فنادى يزيد بخلعه وهو غائب، ثم أرسل إليه جماعة فقتلوه في عام ١٢٦ هـ/٧٤٣ م، فكانت مدته سنة و٣ أشهر. سلوكياته:- وقد أشيع عنه انحرافات ومنكرات تبدو كالأساطير، حتى إن البعض تصوره زنديقًا، محتقرًا للقرآن. مهاجمًا تعاليم الإسلام. ولو صح ذلك لكانت فرصة لعمه هشام لعزله، ولكن ذلك لم يحصل كما أن أشياعه الذين دافعوا عنه قبل مقتله كانوا كثيرين. والثورات التي طالبت بالثأر له لم تهدأ حتى انتصر أتباعه بقيادة مروان بن محمد.
* * * يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ هـ/٧٤٣ م:- بويع بعد أن قتل ابن عمه الفاسد الوليد في عام ١٢٦ هـ. كان عهده قصيرًا ومضطربًا، فلم يهنأ بالخلافة يومًا، فقد ظهرت الفتن، واختلفت كلمة بني مروان، ثار أهل حمص ثم أهل فلسطين فأخمد ثورتهم، وبدأت الفتنة تظهر بين القيسية واليمانية خاصة في خراسان. * * * وفاته:- مات بالطاعون بعد ستة أشهر من خلافته في عام ١٢٦ هـ/٧٤٣ م" "* إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٧ هـ/٧٤٤ م:-

تولى بعد أخيه يزيد، فخرج عليه مروان بن محمد بن مروان الذي كان يدعو بالثأر للوليد بن يزيد وإلى بيعة ابني الوليد بن يزيد، فقتلهما إبراهيم في سجنهما، وصل مروان إلى دمشق. فهرب إبراهيم. ودام حكمه ٧٠ يوم فقط. تولى بعدها مروان بن محمد.
* * * مروان بن محمد ١٢٧ - ١٣٢ هـ/٧٤٤ - ٧٤٩ م:- (وزوال الدولة الأموية) حياته:- هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم. يلقب بالحمار لنشاطه وجرأته في الحروب، غزا أرض الروم عام ١٠٥ هـ/٧٢٣ م، وفتح مدينة قونية، وكان أمير أرمينيا وأذربيجان. خلافته:- بويع بالخلافة بعد أن دخل دمشق، وهرب منها إبراهيم عام ١٢٧ هـ/٧٤٤ م.
* * * الأحداث:- كانت فترته فترة اضطرابات وفتن إلى أن زالت الدولة.

* * * الخوارج:- اشتد أمرهم في العراق، واستولوا على المدينة، وخرجوا في خراسان لكن قضي عليهم.

"زوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية:- أصبحت الدعوة العباسية قوية، فأعلنت في عام ١٢٩ هـ/٧٤٦ م، فقبض مروان على زعيمها إبراهيم وقتله، ثم تولى أخوه أبو العباس السفاح، الذي توجه بأهله إلى الكوفة، فبويع هناك بالخلافة عام ١٣٢ هـ/٧٤٩ م، وأخضع العباسيون خراسان والعراق، والتقى مروان بن محمد مع العباسيين على نهر الزاب (بين الموصل وأربيل) فهزم جيشه عام ١٣١ هـ/٧٤٨ م، ففر إلى عدة جهات، إلى أن قتله العباسيون في مصر سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م، وبمقتله زالت دولة بني أمية وقامت الدولة العباسية، وبعد ... ذلك هو العصر الأموي، عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية، ولا نزاع أنه لا ينافسه عصر آخر فيما خلَّد من فتوح، وما جذب للإسلام من جموع، فهو عصر فريد بين عصور التاريخ الإسلامي، وجدير بأن يكون مفخرة للمسلمين في جميع البقاع حتى العهد الحاضر."

ذكر خلفاء بني العباس:

أبو العباس السفاح

وفي هذه السنة بويع أبو العباس السفاح، واسمه عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس بالخلافة، في ربيع الأول، وقيل في ربيع الآخر بالكوفة، بعد مسيره من الحميمة، وكان سبب مسيره من الحميمة، وكان مقامه بها، أن إبراهيم الإمام لما أمسكه مروان، نعى نفسه إلى أهل بيته، وأمرهم بالمسير إلى أهل الكوفة، مع أخيه أبي العباس السفاح، وبالسمع له والطاعة، وأوصى إبراهيم الإمام بالخلافة إلى أخيه السفاح، وسار أبو العباس السفاح بأهل بيته، منهم أخوه أبو جعفر المنصور، وغيره، إلى الكوفة، فقدم إليها في صفر، واستخفى إلى شهر ربيع الأول، فظهر وسلم عليه الناس

بالخلافة، وعزره في أخيه إبراهيم الإمام، ودخل دار الإمارة بالكوفة، صبيحة يوم الجمعة، ثاني عشر ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ثم خرج إلى المسجد، فخطب وصلى بالناس، ثم صعد إلى المنبر ثانياً، وصعد عمه داود بن علي، فقام دونه، وخطبا الناس، وحضاهم على الطاعة ثم نزل السفاح وعمه داود بن علي أمامه، حتى دخل القصر، وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور في المسجد، يأخذ له البيعة على الناس، ثم خرج السفاح فعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة وأرضها، عمه داود بن علي، وحاجب السفاح يومئذ عبد الله ابن بسام. ثم بعث السفاح عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس إلى شهرزور، وأهلها مذعنون بالطاعة لبني العباس، وبها من جهة بني العباس أبو عون، عبد الملك بن يزيد الأزدي. وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، إلى الحسن بن قحطبة، وهو يومئذ يحاصر ابن هبيرة بواسط. وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس، إلى حميد بن قحطبة، أخي الحسن بن قحطبة بالمدائن، وأقام السفاح في العسكر أشهراً، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية، وهي هاشمية الكوفة، بقصر الإمارة. هزيمة مروان بالزاب [وأخباره إلى أن قتل] كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، آخر خلفاء بني أمية، وكان يقال له مروان الجعدي، وحمار الجزيرة أيضاً، بحران، فسار منها طالباً أبا عون، عبد الملك بن يزيد الأزدي، المستولي على شهرزور من جهة بني العباس، "فلما وصل مروان إلى الزاب، نزل به وحفر عليه خندقاً، وكان في مائة ألف وعشرين ألفاً، وسار أبو عون من شهرزور إلى الزاب، بما عنده من الجموع، وأردفه السفاح بعساكر في دفوع، مع عدة مقدمين، منهم سلمة بن محمد ابن عبد الله الطائي، وعم السفاح عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، كما ذكرناه، ولما قدم عبد الله بن علي على أبي عون، تحول أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيه. ثم إن مروان عقد جسراً على الزاب، وعبر إلى جهة عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، فسار عبد الله بن علي إلى مروان، وقد جعل على ميمنته أبا عون، وعلى ميسرته الوليد بن معاوية، وكان عسكر عبد الله عشرين ألفاً، وقيل أقل من ذلك، والتقى الجمعان، واشتد بينهم القتال، وداخل عسكر مروان الفشل، وصار لا يريد أمراً إلا وكان فيه الخلل، حتى تمت الهزيمة على عسكر مروان، فانهزموا وغرق من أصحاب مروان عدة كثيرة، وكان ممن غرق، إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان المخلوع، وهو يومئذ مع مروان الحمار، وكتب عبد الله بن علي إلى السفاح بالفتح، وحوى من عسكر مروان سلاحاً كثيراً. وكانت هزيمة مروان بالزاب، يوم السبت، لإحدى عشرة خلت من جمادى الآخرة، سنة

اثنتين وثلاثين ومائة، ولما انهزم مروان من الزاب، أتى الموصل، فسبّه أهلها وقالوا: يا جعدي، الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبينا، فسار عنها حتى أتى حران، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، حتى دنا منه عسكر السفاح، فحمل مروان أهله وخيله، ومضى منهزماً إلى حمص، وقدم عبد الله بن علي حران، ثم سار مروان من حمص وأتى دمشق، ثم سار عن دمشق إلى فلسطين، وكان السفاح قد كتب إلى عمه عبد الله بن علي باتباع مروان، فسار عبد الله في أثره إلى أن وصل إلى دمشق، فحاصرها ودخلها عنوة، يوم الأربعاء لخمس مضين من رمضان، سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ولما فتح عبد الله بن علي دمشق، أقام بها خمسة عشرة يوماً، ثم سار من دمشق حتى أتى فلسطين، فورد عليه كتاب السفاح يأمره أن يرسل أخاه، صالح بن علي بن عبد الله بن عباس في طلب مروان، فسار صالح في ذي القعدة من هذه السنة، حتى نزل نيل مصر، ومروان منهزم قدامه، حتى أدركه في كنيسة في بوصير من أعمال مصر، وانهزم أصحاب مروان، وطعن إنسان مروان برمح فقتله، وسبق إليه رجل من أهل الكوفة، كان يبيع الرمان، فاحتز رأسه، وكان قتله لثلاث بقين من ذي الحجة، سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ولما أحضر رأسه قدام صالح بن علي بن عبد الله ابن العباس، أمر أن ينفض، فانقطع لسانه، فأخذته هرة، وأرسله صالح إلى السفاح وقال: قد فتحَ اللهُ مصراً عنوةً لكُمُ ... وأهلك الفاجرَ الجعديَ إذ ظلما وذاك مقوله هر يجرره ... وكان ربُكَ من ذي الكفر منتقما ثم رجع صالح المذكور إلى الشام، وخلف أبا عون بمصر، ولما وصل الرأس إلى السفاح وهو "بالكوفة، سجد شكراً لله تعالى، ولما قتل مروان، هرب ابناه عبد الله وعبيد الله إلى أرض الحبشة، فقاتلتهم الحبشة، فقتل عبيد الله، ونجا عبد الله في عدّة ممن معه، وبقي إلى خلافة المهدي، فأخذه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين، فبعث به إلى المهدي، ولما قتل مروان حُملت نساؤه وبناته إلى بين يدي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، فأمر بحملهن إلى حران، فلما دخلنها ورأين منازل مروان، رفعن أصواتهن بالبكاء، وكان عمر مروان لما قتل، اثنتين وستين سنة، وكانت مدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر ونصفاً، وكان يكنى أبا عبد الملك وكانت أمه أم ولد كردية، وكان يلقب بالحمار، وبالجعدي، لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه، في القول بخلق القرآن، والقدر، وكان مروان بن محمد، الحكم المذكور، أبيض أشهل، ضخم الهامة، كث اللحية أبيضها، ربعة، وكان شجاعاً، حازماً، إلا أن مدته انقضت، فلم ينفعه حزمه وهو آخر الخلفاء من بني أمية. "وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثلاثين ومائة، خلع أبو الورد بن الكوثر، وكان من أصحاب مروان بن محمد، طاعة بني العباس، بعد أن كان قد دخل في

طاعتهم، فسار عبد الله بن علي ابن عبد الله بن عباس، إلى أبي الورد، وهو بقنسرين، في جمع عظيم، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر القتل في الفريقين، ثم انهزمت أصحاب أبي الورد، وثبت أبو الورد حتى قتل.

ولما فرغ عبد الله بن علي من أمر أبي الورد، من أهل قنسرين، وجدد البيعة معهم، ثم رجع إلى دمشق، وكان قد خرج من بها عن الطاعة أيضاً، ونهبوا أهل عبد الله بن علي، فلما دنا عبد الله من دمشق، هربوا، ثم أمنهم.

وفيها ولى السفاح أخاه يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الموصل، وكان أهلها قد أخرجوا الوالي الذي بها، فسار يحيى إلى الموصل، ولما استقر بها، قتل من أهلها نحو أحد عشر ألف رجل، ثم أمر بقتل نسائهم وصبيانهم، وكان مع يحيى قائد معه أربعة آلاف زنجي، فاستوقفت امرأة من الموصل يحيى، وقالت: مأنف للعربيات أن ينكحن الزنوج، فعمل كلامها فيه، وجمع الزنوج فقتلهم، عن آخرهم.

وفي هذه السنة أرسل السفاح أخاه أبا جعفر المنصور، والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمنية، وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة، وولى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، الكوفة وسوادها، وكان على الشام عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، وعلى مصر أبو عون بن يزيد، وعلى خراسان والجبال أبو مسلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فيها استولى ملك الروم، وكان اسمه قسطنطين على ملطية، وقاليقلا، وفيها ولى السفاح عمه سليمان بن علي ابن عبد الله بن عباس، البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان، واستعمل عمه إسماعيل ابن علي بن عبد الله بن عباس على الأهواز.

وفيها مات عم السفاح داود بن علي بالمدينة، وولى السفاح مكانه زياد بن عبد الله الحارثي.

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل، لكثرة قتله فيهم، وولى عليها عمه إسماعيل بن علي.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة فيها تحول السفاح من الحيرة، وكان مقامه بها، إلى الأنبار، في ذي الحجة.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة فيها توفي يحيى أخو السفاح بفارس، وكان قد ولاه إياها السفاح بعد عزله عن الموصل.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة فيها استأذن أبو مسلم السفاح في القدوم عليه، وفي الحج، فأذن له فحج أبو مسلم، وحج أبو جعفر المنصور أيضاً، وكان أبو جعفر هو أمير الموسم.
"موت السفاح في هذه السنة مات السفاح بالأنبار، في ذي الحجة بالجدري، وعمره ثلاث وثلاثون سنة فمدة خلافته، من لدن قتل مروان، أربع سنين، وكان قد بويع له بالخلافة قبل قتل مروان بثمانية أشهر، وكان السفاح طويلا أقنى الأنف، أبيض، حسن الوجه واللحيه، وصلى عليه عمه عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، ودفنه بالزنبار العتيقة.

[خلافة المنصور]
وهو ثاني خلفاء بني العباس، كان السفاح قد عهد بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور، ثم من بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فعقد العهد في ثوب، وختم عليه، ودفعه إلى عيسى بن موسى، ولما مات السفاح، كان أبو جعفر في الحج، فأخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى، وأرسل يعلمه بذلك، وبموت السفاح، وكان مع أبي جعفر أبو مسلم في الحج، فبايع أبو مسلم أبا جعفر وبايعه الناس.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة فيها قدم أبو جعفر المنصور من الحج إلى الكوفة، فصلى بأهلها الجمعة، وخطبهم، وسار إلى الأنبار فأقام بها. وفيها بايع عم المنصور عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس لنفسه بالخلافة، وكان أبو مسلم قد قدم من الحج مع أبي جعفر المنصور، فأرسل أبو جعفر أبا مسلم ومعه الجنود، إلى قتال عمه عبد الله بن علي، وكان عبد الله بأرض نصيبين، فاقتتل هو وأبو مسلم عدة دفوع، واجتهد أبو مسلم بأنواع الخدع في قتاله، وداموا كذلك مدّة، وفي آخر الأمر انهزم عبد الله بن علي وأصحابه في جمادى الآخرة، من هذه السنة، إلى جهة العراق، واستولى أبو مسلم على عسكره، وكتب بذلك إلى المنصور. قتل أبي مسلم الخراساني وفيها قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني، بسبب وحشة جرت بينهما، فإن المنصور كتب إلى أبي مسلم بعد أن هزم عبد الله عمه، بالولاية على مصر والشام، وصرفه عن خراسان، فلم يجب أبو مسلم إلى ذلك، أبو مسلم يريد خراسان، وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن، وكتب إلى أبي مسلم يطلبه إليه، فاعتذر عن الحضور إليه، وطالت بينهما المراسلات في ذلك، وآخر الأمر أن أبا مسلم قدم على أبي جعفر المنصور بالمدائن، في

ثلاثة آلاف رجل، وخلف باقي عسكره بحلوان، ولما قدم أبو مسلم، دخل على المنصور، وقبل يده، وانصرف، فلما كان من الغد، ترك المنصور بعض حرسه خلف الرواق، وأمرهم أنه إذا صفق بيديه، يخرجون ويقتلون أبا مسلم، ودعا أبا مسلم، فلما حضر أخذ المنصور يعدد ذنوبه، وأبو مسلم يعتذر عنها، ثم صفق المنصور، فخَرَجَ الحرس وقتلوا أبا مسلم، وكان قتله في شعبان" "من هذه السنة، أعني سنة سبع وثلاثين ومائة، وكان أبو مسلم قد قتل في مدة دولته ستمائة ألف صبراً. ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة في هذه السنة، خرج قسطنطين ملك الروم إلى بلد الإسلام، فأخذ ملطية عنوة، وهدم سورها، وعفا عن من فيها من المقاتلة والذرية، وقد مر في سنة ثلاث وثلاثين ومائة نحو ذلك، وفيها وسع المنصور في المسجد الحرام. ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة." "ابتداء الدولة الأموية بالأندلس في هذه السنة، دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم، إلى الأندلس، وسبب ذلك أنّ بني أمية، لما قتلوا، استخفى من سلم منهم، فهرب عبد الرحمن المذكور، واستولى على الأندلس في هذه السنة. وفيها ظفر المنصور بعمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، وأعدمه وكان عبد الله مستخفياً عند أخيه سليمان بن علي من حين هرب من أبي مسلم على ما ذكرناه. ثم دخلت سنة أربعين ومائة في هذه السنة، أرسل المنصور عبد الوهاب ابن أخيه، إبراهيم الإمام، والحسن بن قحطبة، في سبعين ألف مقاتل، ليعمروا ملطية فعمروها في ستة أشهر، وسار إليهم ملك الروم في مائة ألف مقاتل، حتى نزل على نهر جيحان، فبلغه كثرة المسلمين، فرجع عنهم. وفيها حج المنصور وتوجه "إلى البيت المقدس، ثم إلى الرقة، وعاد إلى هاشمية الكوفة، وفيها أمر المنصور بعمارة مدينة المصيصة، وبنى بها مسجداً جامعاً، وأسكنها ألف جندي، وسماها المعمورة. ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائة في هذه السنة، كان خروج الراوندية على المنصور، وهم قوم من أهل خراسان، على مذهب أبي مسلم الخراساني يقولون بالتناسخ، فيزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم، هو الخليفة أبو جعفر المنصور، فلما ظهروا وأتوا إلى قصر المنصور، قالوا: هذا قصر ربنا، فحبس المنصور رؤساءهم، وهم مائتان، فغضب أصحابهم، وأخذوا نعشاً وحملوه ومشوا به على أنهم ماشون في جنازة، حتى بلغوا باب السجن، فرموا بالنعش، وكسروا باب السجن، وأخرجوا رؤساءهم، ثم قصدوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل، فتنادى الناس، وأغلقت أبواب المدينة وخرج المنصور ماشياً، واجتمع عليه الناس، وكان معن بن زائدة مستخفياً

من المنصور، فحضر وقاتل الراوندية بين يدي المنصور، فعفا عن معن لذلك وقتل في ذلك اليوم الراوندية عن آخرهم.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة فيها مات عم المنصور سليمان بن علي. ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة، ودخلت سنة أربع وأربعين ومائة في هذه السنة، حبس المنصور من بني الحسن بن علي بن أبي طالب أحد عشر رجلا وقيدهم، وفيها مات عبد الله بن شبرمة وعمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد، وعقيل بن خالد صاحب الزهري.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة فيها ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، واستولى على المدينة، وتبعه أهلها، فأرسل المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى إليه، فوصل إلى المدينة، وخندق محمد ابن عبد الله على نفسه، موضع خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم للأحزاب، وجرى بينهما قتال، آخره أن محمد بن عبد الله المذكور، قتل هو وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وانهزم من سلم من أصحابه، وكان محمد المذكور، سميناً أسمر شجاعاً، كثير الصوم والصلاة، وكان يلقب المهدي، والنفس الزكية، ولما قتل محمد، أقام عيسى بن موسى بالمدينة أياماً، ثم سار عنها في أواخر رمضان يريد مكة معتمراً.

بناء بغداد وفي هذه السنة، ابتدأ المنصور في بناء مدينة بغداد، وسبب ذلك: أن المنصور كره سكنى الهاشمية التي ابتناها أخوه بنواحي الكوفة، لما ثارت عليه الراوندية فيها، وكرهها أيضاً لجوار أهل الكوفة، فإنه كان لا يأمنهم على نفسه، فخرج يرتاد له موضعاً يسكنه، فاختار موضع بغداد، وابتدأ في عملها سنة خمس وأربعين ومائة. ظهور إبراهيم العلوي في هذه السنة أيضاً، في رمضان، ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن "أبي طالب، أخو محمد النفس الزكية، وكان مستخفياً هارباً من بلد إلى بلد، والمنصور مجتهد على الظفر به، فقدم البصرة ودعا الناس إلى بيعة أخيه محمد بن عبد الله، وذلك قبل أن يبلغه قتله بالمدينة، فبايعه جماعة، منهم: مرة العبشمي وعبد الواحد بن زياد، وعمرو بن سلمة الهجيمي، وعبد الله بن يحيى الرقاشي، وأجابه جماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم، حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف، وكان أمير البصرة سفيان بن معاوية، فلما رأى اجتماع الناس على إبراهيم المذكور، تحصن في دار الإمارة بجماعة، فقصده إبراهيم وحصره، فطلب سفيان منه الأمان فأمنّه إبراهيم، ودخل إبراهيم القصر، فجاء يجلس على حصير فرشت له هناك، فقلبها الريح، فتطير

الناس بذلك، فقال إبراهيم: إنا لا نتطير وجلس عليها مقلوبة، ووجد إبراهيم في بيت المال ألفي ألف درهم، فاستعان بها، وفرض لأصحابه خمسين خمسين. ومضى إبراهيم بنفسه إلى دار زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، وإليها ينسب الزينبيون من العباسيين، فنادى هناك لأهل البصرة بالأمان، وأن لا يتعرض إليهم أحد. ولمّا استقرت البصرة لإبراهيم، أرسل جماعة فاستولوا على الأهواز، ثم أرسل هارون بن سعد العجلي في سبعة عشر ألفاً إلى واسط فملكها العجلي، ولم يزل إبراهيم بالبصرة يفرق العمال والجيوش، حتى أتاه خبر مقتل أخيه محمد بن عبد اَلله، قبل عيد الفطر بثلاثة أيام. ثم إن إبراهيم أجمع على المسير إلى الكوفة، وسار من البصرة وقد أحصى ديوانه مائة ألف، حتى نزل باخمرا وهي من الكوفة على ستة عشر فرسخاً، وكان المنصور قد استدعى عيسى بن موسى من الحجاز، فحضر، وجعله في جيش قبالة إبراهيم بن عبد الله، وجرى بينهما قتال شديد، انهزم فيه غالب عسكر عيسى بن موسى ثم تراجعوا. ثم وقعت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، وثبت هو في نفر قليل من أصحابه يبلغون ستمائة، فجاء سهم في حلق إبراهيم، فتنحى عن موقفه فقال أردنا أمراً وأراد الله غيره، واجتمع عليه أصحابه وأنزلوه، فحمل عليهم عسكر عيسى ابن موسى وفرقوهم عنه، واحتزوا رأس إبراهيم، وأتوا به إلى عيسى فسجد شكراً لله تعالى، وبعث به إلى المنصور. وكان قتل إبراهيم، لخمس بقين من ذي القعدة، سنة خمس وأربعين ومائة، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة. ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة فيها تحول المنصور من مدينة ابن هبيرة إلى بغداد ليكمل عمارتها، واستشار أصحابه، وفيهم خالد بن برمك؛ في نقض إيوان كسرى والمدائن، ونقل ذلك إلى بغداد، فقال خالد ابن برمك: لا أرى ذلك، لأنه من أعلام المسلمين، فقال المنصور: مِلتَ يا خالد إلى أصحابك العجم، وأمر المنصور بنقض القصر الأبيض، فنقضت ناحية منه، فكان ما يغرمون على نقضه، أكثر من قيمة ذلك المنقوض، فترك نقضه، فقال له خالد: إني لا أرى أن تبطل ذلك لئلا يقال أنك عجزت عن تخريب ما بناه غيرك، فلم يلتفت المنصور إلى ذلك، وترك هدمه، ونقل المنصور أبواب مدينة واسط "فجعلها على بغداد، وجعل المنصور بغداد مدوّرة، لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض، وبني قصره في وسطها، والجامع في جانب القصر.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة: فيها خلع المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، من ولاية العهد، وبايع لابنه المهدي محمد بن المنصور. ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة: فيها ولد الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، وفيها ولىّ المنصور خالد بن برمك

الموصل، وكان مولد الفضل قبل مولد الرشيد بتسعة أيام، فأرضعته الخيزران أم الرشيد. وفيها توفي جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وجعفر الصادق، أحد الأئمة الاثني عشر، على رأي الإمامية، فإنه قد تقدم منهم علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن، ثم الحسين، ثم زين العابدين، ثم الباقر، ثم جعفر الصادق المذكور، وسنذكر الباقين إن شاء الله تعالى، وسمي جعفر بالصادق لصدقه، وله كلام في صنعة الكيمياء، والزجر، والفأل، وولد سنة ثمانين، وتوفي في هذه السنة. أعني سنة ثمان وأربعين ومائة بالمدينة، ودفن بالبقيع، وأمّه بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي. ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة: فيها مات مسلم بن قتيبة بالري، وكان مشهوراً، عظيم القدر، وفيها مات كهمش بن الحسن التميمي البصري. وفيها مات عيسى بن عمر الثقفي، وعنه أخذ الخليل النحو. ثم دخلت سنة خمسين ومائة: فيها بنى عبد الرحمن الأموي سور قرطبة، وفيها مات جعفر بن أبي جعفر المنصور، وفيها مات الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ابن زوطا، مولى تيم الله بن ثعلبة، وكان زوطا من أهل كابل، وقيل من أهل بابل، وقيل من أهل الأنبار، وهو الذكي مسه الرق فأعتق، وولد له ثابت على الإسلام، وقال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة المذكور: ما وقع علينا رِق قط، وروى أن ثابتاً أبا أبي حنيفة وهو صغير، ذهب إلى علي بن أبي طالب فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته. وقيل في نسب أبي حنيفة غير ذلك، فقيل: هو النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان، وأن جده النعمان بن المرزبان، أهدى إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في يوم المهرجان فالوذجا، فقال له علي: مهرجونا في كل يوم، وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة، وهم أنس بن مالك، وعبد الله بن أُبي، أوفى بالكوفة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة، ولم يلق أحداً منهم، ولا أخذ عنهم، وأصحابه يقولون: لقي جماعة من الصحابة وأخذ عنهم، ولم يثبت ذلك عند أهل النقل.

وكان أبو حنيفة عالماً عاملاً زاهداً ورعاً، راوده أبو جعفر المنصور في أن يلي القضاء فامتنع، وكان حسن الوجه، ربعة، وقيل طويلاً، أحسن الناس منطقاً

قال الشافعي: قيل لمالك، هل رأيت أبا حنيفة؟ فقال: نعم، رأيت رجلاً، لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً، لقام بحجته، وكان يصلي غالب الليل، حتى قيل "إنه صلى الصبح بوضوء عشاء الآخرة أربعين سنة، وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه، سبعة آلاف مرة. وكان

يعاب بقلة العربية، وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة، وقيل ولد سنة إحدى وستين، وكانت وفاته ببغداد، في السجن ليلي القضاء، فلم يفعل، وقيل إنه توفي في اليوم الذي ولد فيه الشافعي، وذلك في رجب من هذه السنة، وقيل في جمادى الأولى وقبره ببغداد مشهور. وزوطا، بضم الزاي المعجمة وسكون الواو وفتح الطاء المهملة. وفيها مات محمد بن إسحاق، صاحب المغازي فقيل كانت وفاة محمد بن إسحاق المذكور، سنة إحدى وخمسين ومائة، وكان ثبتاً في الحديث عند أكثر العلماء، وقد ذكره البخاري في تاريخه، ولكن لم يرو عنه، وكذلك مسلم لم يخرج عنه إلا حديثاً واحداً في الرجم، وإنما لم يرو عنه البخاري لأجل طعن الإمام مالك بن أنس فيه، وكانت وفاة ابن إسحاق ببغداد، وفيها مات مقاتل بن سليمان البلخي المفسر. ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة فيها ولى المنصور، هشام بن عمرو الثعلبي على السند، وكان على السند، عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة، فعزله وولاه إفريقية، وكان يلقب عمر المذكور بهزار مرد أي ألف رجل وفيها بنى المنصور الرصافة، للمهدي ابنه وهي من الجانب الشرقي من بغداد، وحول إليها قطعة من جيشه، وفيها قتل معن بن زائدة الشيباني، بسجستان في بست. وكان المنصور قد استعمله على سجستان، قتله جماعة من الخوارج، هجموا عليه في بيته بغتة وهو يحتجم فقتلوه، وقام بالأمر بعده ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني. ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائة فيها غزا حميد بن قحطبة كابل وكان أمير خراسان. ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسنة أربع وخمسين ومائة فيها أعني في سنة أربع وخمسين ومائة، توفي بالكوفة أبو عمرو، واسمه كنيته، ابن العلا بن عمار من ولد الحصين التميمي المازني البصري، وكانت ولادته في سنة سبعين، وقيل ثمان وستين، وهو أحد القراء السبعة، وكان أعلم الناس بالقرآن الكريم، وفيها سار المنصور إلى الشام، وجهز جيشاً إلى المغرب، لقتال الخوارج بها، وفيها مات أشعب الطامع، وفيها مات وهيب بن الورد المكي الزاهد. ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة: فيها عمل المنصور للكوفة والبصرة سوراً وخندقاً، وجعل ما أنفق فيه، من أموال أهلهما، ولما أراد المنصور معرفة عددهم، أمر أن يقسم فيهم خمسة الدراهم خمسة الدراهم، ثم جبى منهم أربعين أربعين فقال بعض شعرائهم:

يا لقوم ما لقينا ... من أمير المؤمنينا قسم الخمسة فينا ... وجبانا أربعينا ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة: في هذه السنة توفي حمزة بن حبيب ابن عمارة الكوفي، المعروف بالزيات، أحد القراء السبعة، وعنه أخذ الكسائي القراءة. وكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان، ويجلب من حلوان الجبن

والجوز إلى الكوفة، فقيل له الزيات لذلك. "ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة: فيها مات الأوزاعي الفقيه، واسمه: عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، وعمره سبعون سنة، وكنيته أبو عمرو، وكان يسكن بيوت، وبها توفي، وكانت ولادته ببعلبك سنة ثمان وثمانين للهجرة، وكان يخضب بالحناء، وكان إمام أهل الشام، قيل إنه أجاب في سبعين ألف مسألة وقبره في قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس، وأهل القرية لا يعرفونه، بل يقولون هاهنا رجل صالح.

والأوزاعي منصوب إلى أوزاع وهي بطن من ذي كلاع، وقيل بطن من همذان، وجده يحمد، بضم الياء المثناة من تحتها، وسكون الحاء المهملة وكسر الميم، وبعدها دال مهملة.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة وفاة المنصور وهو المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وكانت وفاته في هذه السنة، لست خلون من ذي الحجة، ببئر ميمونة وكان قد خرج من بغداد لحج، فسار معه ابنه المهدي، فقال له المنصور: إني ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، وقد هجس في نفسي أني أموت في ذي الحجة من هذه السنة، وهذا هو الذي حداني على الحج، فاتق الله فيما عهد إليك من أمور المسلمين بعدي، ووصاه وصية طويلة، ثم ودعه وبكيا، ثم سار إلى الحج، ومات ببئر ميمونة محرماً، في التاريخ المذكور، وكان مرضه القيام، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة وثلاثة أشهر وكسراً. وكان المنصور أسمر نحيفاً خفيف العارضين، ولد بالحميمة من أرض الشراة، ودفن بمقابر بابه المعلى وبقي أثر الإحرام، فدفن ورأسه مكشوف، ومما يحكى عنه فيما جرى له في حجه، قيل: بينما الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً، إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد، ودعا القائل وسأله عن قوله، فقال له: يا أمير المؤمنين إن أمنتني أنبأتك بالأمور على جليتها وأصولها، فأمنه. فقال: إن الذي دخله الطمع حتى حال، بين الحق وأهله، هو أنت يا أمير المؤمنين فقال المنصور: ويحك وكيف يدخلني الطمع، والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ فقال الرجل: لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجاباً معهم الأسلحة، وأمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف، ولا الجائع والعاري، ولا الضعيف والفقير، وما أحد إلا وله من هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر

الذي استخلصتهم لنفسك، وأثرتهم على رعيتك، تجبي الأموال فلا تعطيها، وتجمعها ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه، وقد سخّر لنا نفسه، فاتفقوا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا أقصوه ونفوه، حتى تسقط منزلته ويصغر قدره،" "وفيها توفي سفيان الثوري، وكان مولده سنة سبع وتسعين.

وفيها توفي إبراهيم بن أدهم بن منصور الزاهد، وكان مولده ببلخ، وانتقل إلى الشام، فأقام به مرابطاً، وهو من بكر بن وائل. قال إبراهيم بن يسار، سألت إبراهيم بن أدهم، كيف كان بدو أمرك حتى صرت إلى الزهد؟ قال: غير هذا أولى بك، فما زال يلح عليه بالسؤال حتى قال: إني من ملوك خراسان، وكان قد حبب إلي الصيد، فبينما أنا راكب فرساً وكلبي معي، إذ تحركت على صيد، فسمعت نداء من ورائي: يا إبراهيم، ليس لهذا خلقت، ولا به أمرت، فوقفت مقشعراً أنظر يمنة ويسرة، فلم أر أحداً، قلت: لعن الله إبليس. ثم حركت فرسي، فسمعت من قربوس سرجي: يا إبراهيم ليس لهذا خلقت ولا به أُمرت فوقفت وقلت هيهات! جاءني النذير من رب العالمين، والله لا عصيت ربي، فتوجهت إلى أهلي وجئت إلى بعض رعاء أبي فأخذت جبته وكساءه، وألقيت إليه ثيابي، ثم سرت حتى صرت إلى العراق، ثم صرت إلى الشام، ثم قدمت إلى طرسرس، فأستأجرني شخص ناطور البستان، قال: فمكثت في البستان أياماً كثيرة، كلما اشتهرت، اختفيت وهربت من الناس، وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من عمل يده، مثل الحصاد وحفظ البساتين، والعمل في الطين، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة فيها تجهز المهدي لغزو الروم، وجمع العساكر من خراسان وغيرها، وعسكر بالبردان وسار عنها، وكان قد استخلف على بغداد، ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد، فلما وصل المهدي إلى حلب، بلغه أن في تلك الناحية زنادقة، فجمعهم وقتلهم وقطع كتبهم. وسار إلى جيحان، وجهز ابنه هارون بالعسكر إلى الغزو، فتغلغل هارون في بلاد الروم، وفتح فتحات كثيرة، ثم عاد سالماً منصوراً. وفيها قتل المقنع الخرساني، واسمه عطا، وكان من حديثه، أنه كان رجلاً ساحراً، خيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسافة شهرين، وإلى هذا القْمر أشار ابن سناء الملك بقوله: إليك فما بدر المقنع طالعاً ... بأسحر من ألحاظ بدري المعمم وادعى المقنع المذكور الربوبية، وأطاعه جماعة كثيرة، وقال: إن الله عزِّ وجل حل في آدم، ثم في نوح، ثم في نبي بعد آخر، حتى حل فيه، وعمر قلعة تسمى سنام، بما وراء النهر من رستاق كيش، وتحصن بها، ثم

اجتمع عليه الناس وحصروه في قلعته، فسقى نساءه سماً فمتن، ثم تناول منه فمات في السنة المذكورة، لعنه الله، فدخل المسلمون قلعته وقتلوا من بها من أشياعه، وكان المقنع المذكور في مبدأ أمره قصاراً، من أهل مرو وكان مشوّه الخلق أعور قصيراً، وكان لا يسفر عن وجهه، بل اتخذ له وجهاً من ذهب فتقنع به، ولذلك قيل له المقنع. ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة فيها مات عم المنصور، عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، وعمره ثمان وسبعون سنة. ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة: فيها أرسل المهدي "ابنه هارون الرشيد إلى الروم في جيش كثير، فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية، وغنم شيئاً كثيراً وقتل في الروم وعاد. ثم دخلت سنة ست وستين ومائة: فيها قبض المهدي وزيره يعقوب بن داود بن طهمان، وكان قبل أن يتولى وزارة المهدي، يكتب لنصر بن سيار، ثم بقي بعده بطالاً، واتصل بالمهدي فاستوزره، وصارت الأمور إليه وتمكن عنده فحسده أصحاب المهدي، وسعوا فيه حتى أمسكه في هذه السنة، وحبسه، ولم يزل محبوساً إلى خلافة الرشيد، فأخرجه وقد عمي، فلحق بمكة، وكان أصحاب المهدي يشربون عنده، وكان يعقوب ينهي المهدي عن ذلك، فضيق على المهدي حتى أمسكه المهدي وحبسه، وفيه يقول بشار بن برد:

بني أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناء والعود

وفي هذه السنة أقام المهدي بريداً بين مكة والمدينة واليمن، بغالاً وإبلاً: وفيها قتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة، وكان أعمى، خلق ممسوح العينين، ولما قتل كان قد نيف على التسعين، وكان بشار المذكور يفضل النار على الأرض ويصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم عليه السلام. ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة: فيها توفي عيسى بن موسى بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس ابن أخي السفاح والمنصور وهو الذي أوصى له السفاح بالخلافة بعد المنصور. ثم خلعه المنصور وولى ابنه المهدي، وكان عمر عيسى بن موسى المذكور، خمساً وستين سنة، وفي هذه السنة زاد المهدي في المسجد الحرام، ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم. ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة وسنة تسع وستين ومائة. موت المهدي فيها توفي المهدي، محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بماسبذان في المحرم، لثمان بقين منه، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً، وعمره ثلاث وأربعون سنة، ودفن تحت جوزة، وصلى عليه ابنه الرشيد، وكان المهدي يجلس للمظالم ويقول: أدخلوا علي القضاة، فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى.

[خلافة الهادي] وهو رابعهم، كان موسى الهادي مقيماً بجرجان، يحارب أهل طبرستان، فبويع له بالخلافة في عسكر المهدي، في اليوم الذي مات فيه المهدي، وهو لثمان بقين من المحرم، من هذه السنة، أعني سنة تسع وستين ومائة، ولما وصل الرشيد وعسكر المهدي إلى بغداد، راجعين من ماسبذان، أُخذت البيعة ببغداد أيضاً للهادي وكتب الرشيد إلى الآفاق بوفاة المهدي، وأخذ البيعة للهادي، ولما وصل إلى الهادي وهو بجرجان الخبر بموت أبيه المهدي، وبيعة الناس له بالخلافة، نادى بالرحيل، وسار على البريد مجدّاً، فدخل بغداد في عشرين يوماً واستوزر الربيع "

ظهور الحسين بن علي

[بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب]

وفي هذه السنة، ظهر الحسين المذكور بمدينة الرسول عليه السلام، وكان معه جماعة من أهل بيته منهم الحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبد الله المذكور هو ابن عاتكة.

واشتد أمر الحسين المذكور، وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة، وهو عمر بن العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، قتال، فانهزم عمر المذكور، وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه، للمرتضى من آل محمد. وأقام الحسين هو وأصحابه بالمدينة يتجهزون، أحد عشر يوماً، ثم خرجوا يوم السبت، لست بقين من ذي القعدة، ووصل الحسين إلى مكة ولحق به جماعة من عبيد مكة. وكان قد حج تلك السنة جماعة من بني العباس وشيعتهم، فنهم سليمان بن أبي جعفر المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي، وانضم إليهم من حج من شيعتهم ومواليهم وقوادهم، واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية، فانهزم أصحاب الحسين وقتل الحسين واحتز رأسه، وأحضر قدام المذكورين من بني العباس، وجمع معه من رؤوس أصحابه ورؤوس أهل المدينة ما يزيد على مائة رأس، وفيها أيضاً رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واختلط المنهزمون بالحاج، وكان مقتلهم بموضع يقال له وج وهو عن مكة إلى جهة الطائفْ، ووج المذكور هو الذي ذكره النميري في شعره فقال:

تضوع مسكاً بطن نعمان أن مشت ... به زينب في نسوة خفرات

مررن بوج ثم قمن عشية ... يلبن للرحمن معتمرات

وفي قتل المذكورين بوج يقول بعضهم:

فلأبكين على الحسي ... ن بعولة وعلى الحسن

وعلى ابن عاتكة الذي ... واروه ليس له كفن

تركوا بوج غدوة ... في غير منزلة الوطن

وأفلت من المنهزمين، إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فأتى مصر، وعلى بريدها واضح، مولى بني العباس وكان شيعياً، فحمل إدريس المذكور على البريد إلى المغرب، حتى انتهى إلى طنجة، ولما بلغ الهادي ذلك، ضرب عنق واضع، وبقي إدريس في تلك البلاد حتى أرسل الرشيد الشماخ النامي، مولى بني الأسد، فاغتاله بالسم فمات، ولما مات إِدريس المذكور كانت له حظية حبلى، فولدت ابناً وسموه إدريس باسم أبيه، وبقي حتى كبر، واستقل بملك تلك البلاد، وحمل رأس الحسين ومعه باقي الرؤوس إلى الهادي، فأنكر الهادي عليهم حمل رأس الحسين، ولم يعطهم جوائزهم غضْباً عليهم، وكان الحسين المذكور، شجاعاً كريماً، قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرقها ببغداد والكوفة، وخرج "من الكوفة ما يملك ما يلبسه إلا فروة لم يكن تحتها قميص.

وفي هذه السنة مات مطيع بن إياس الشاعر. وفيها توفي نافع بن عبد الرحمن ابن أبي نعيم المقرئ. أحد القراء السبعة، وروى عن نافع راويان، وهما ورش وقنبل، وكان نافع إمام أهل المدينة في القراءة، ويرجعون إلى قرائته، وكان محتسباً فيه دعابة، وكان أسود شديد السواد، وقرأ مالك عليه القرآن، وهذا نافع بن عبد الرحمن المقرئ. غير نافع مولى عبد الله بن عمر المحدث، فليُعْلم ذلك. وفيها مات الربيع بن يونس حاجب المنصور ومولاه. ثم دخلت سنة سبعين ومائة وفاة الهادي وفي هذه السنة توفي موسى الهادي بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان عمره ستاً وعشرين سنة، قيل إن أمه الخيزران قتلته، بأن أمرت الجواري فغمين وجهه وهو مريض، فمات ودفن بعيسا باذ الكبرى في بستانه، وكان طويلاً جسيماً أبيض، وكان بشفته العليا تقلص، وكان له سبعة بنين وابنتان.

[خلافة الرشيد بن المهدي]

وهو خامسهم. وفي هذه السنة أعني سنة سبعين ومائة، بويع للرشيد هارون ابن المهدي محمد بالخلافة، في الليلة التي مات فيها الهادي، وكان عمر الرشيد حين ولي اثنتين وعشرين سنة، وأمه وأم الهادي الخيزران أم ولد وكان مولد الرشيد بالري في آخر ذي الحجة، سنة ثمان وأربعين ومائة، ولما مات الهادي بعيسا باذ صلى عليه الرشيد وسار إلى بغداد وفي هذه السنة في شوال، أولد الأمين محمد بن الرشيد من زبيدة، واستوزر الرشيد يحيى بن خالد، وألقى إليه مقاليد الأمور. وفي هذه السنة عزل الرشيد الثغور كلها، من الجزيزة وقنسرين، وجعلها حيزاً واحداً، وسميت العواصم، وأمر بعمارة طرسوس، على يد فرج الخادم التركي، ونزلها الناس. وفي هذه السنة أمر عبد الرحمن الداخل الأموي المستولي على الأندلس ببناء جامع قرطبة، وكان موضعه كنيسة، وأنفق عليه مائة ألف دينار.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة: في هذه السنة توفي عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس بقرطبة، ويعرف بعبد الرحمن الداخل، لدخوله بلاد المغرب، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. في ربيع الآخر، وكان مولده بأرض دمشق سنة ثلاث عشرة ومائة، ومدة ملكه الأندلس ثلاث وثلاثون سنة، لأنه تولى الأندلس في سنة تسع وثلاثين ومائة، ولما مات ملك بعده ابنه هشام بن عبد الرحمن، وكان عبد الرحمن أصهب خفيف العارضين طويلاً نحيفاً أعور. وقصده بنو أمية من المشرق والتجأوا إليه. ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائة: فيها توفي رباح وكنيته أبو زيد اللخمي الزاهد بمدينة القيروان "وكان مجاب الدعوة. ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة: فيها ماتت الخيزران أم الرشيد، وفيها حج الرشيد وأحرم من بغداد. ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة، وسنة خمس وسبعين ومائة: فيها صار يحيي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى الديلم. فتحرك هناك، وفيها ولد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وإدريس بن عبد الله المذكور، هو الذي سلم وانهزم لما قتل أهل بيته يوم التروية بظاهر مكة، حسب ما ذكرناه في سنة تسع وستين ومائة، وكان قد توفي أبوه إدريس الأول وله جارية حبلى، ولم يكن له ولد، فولدت الجارية بعد موته في ربيع الآخر من هذه السنة ولداً ذكراً، فسموه إدريس أيضاً باسم أبيه، فبقي حتى كبر واستقل بالملك. دخلت سنة ست وسبعين ومائة: فيها ظهر أمر يحيى بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب بالديلم، واشتدت شوكته، ثم إن الرشيد جهز إليه الفضل بن يحيى في جيش كثيف، فكاتبه الفضل وبذل له الأمان وما يختاره، فأجاب يحيى بن عبد الله إلى ذلك

وطلب يمين الرشيد، وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكابر، ففعل ذلك، وحضر يحيى بن عبد الله إلى بغداد، فأكرمه الرشيد وأعطاه مالا كثيراً، ثم أمسكه وحبسه حتى مات في الحبس. وفي هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمنية، وكان على دمشق حينئذ عبد الصمد بن علي، فجمع الرؤساء وسعوا في الصلح بينهم، فأتوا بني القين وكلموهم في الصلح فأجابوا، وأتوا اليمانية وكلموهم في الصلح، فقالوا: انصرفوا عنا حتى ننظر، ثم سارت اليمانية إلى بني القين، وقتلوا منهم نحو سمائة، فاستنجدت بنو القين، قضاعة وسليحا، فلم يجدوهم، فاستنجدوا قيساً فأجابوهم وساروا معهم إلى العواليك من أرض البلقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة، وكثر القتال بينهم، ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاها إبراهيم بن صالح بن علي، ودام القتال بين المذكورين نحو سنتين وكان سبب الفتنة بين اليمانيين والمضريين، أن رجلا من القين أتى رحى بالبلقاء ليطحن فيه، فمر بحائط رجل من لخم أو جذام، وفيه بطيخ فتناول منه فشتمه صاحبه وتضاربا، واجتمع قوم من اليمانيين وضربوا الذي من القين، فأعانه جماعة من مضر، فقتل رجل من اليمانيين فكان ذلك سبب الفتنة.

وفيها مات الفرج بن فضالة وصالح بن بشر القاري، وكان ضعيفاً في الحديث. وفيها مات نعيم بن مسيرة النحوي الكوفي. ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة: في هذه السنة أعني سنة سبع وسبعين ومائة، توفي بالكوفة أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي شريك، تولى القضاء أيام المهدي، ثم عزله الهادي، وكان عالماً عادلاً في قضائه كثير الصواب حاضر الجواب، ذكر معاوية بن أبي سفيان عنده، ووصف بالحلم فقال شريك: ليس بحليم من سفّه الحق، وقاتل علي بن أبي طالب، وكان مولده ببخارى سنة خمس وتسعين للهجرة. "ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة، وسنة تسع وسبعين ومائة: فيها توفي مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث من ولد في الأصبح. ولذلك قيل له الأصبحي، وذو الأصبح اسمه الحارث بن عوف من ولد يعرب بن قحطان، وكان مولد الإمام مالك المذكور سنة خمس وتسعين للهجرة، أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم، وسمع الزهري، وأخذ العلم عن ربيعة الراي. قال الشافعي رضي الله عنه: قال لي محمد بن الحسن، أيهما أعلم، صاحبنا أم صاحبكم، يعني أبا حنيفة ومالكاً.

قال: قلت على الإنصاف؟.

قال: نعم.

قال: قلت فأنشدك الله من أعلم بالقرآن، صاحبنا أو صاحبكم؟.

قال: اللهم صاحبكم.

قال: قلت فأنشدك الله من علم بالسنة؟ قال: اللهم صاحبكم.

قال: قلت فأنشدك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله المتقدمين، صاحبنا أم صاحبكم؟.

قال: اللهم صاحبكم. قال الشافعي: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، وسعى بمالك إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، وهو ابن عم أبي جعفر المنصور وقالوا له: إنه لا يرى الإيمان ببيعتكم هذه بشيء، لأن يمين المكره ليست لازمة فغضب جعفر، ودعا بمالك وجرده وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت من كتفه، وارتكب منه أمراً عظيماً، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة. وتوفي مالك المذكور بالمدينة ودفن بالبقيع، وكان شديد البياض إلى الشقرة، طويلاً، وفيها توفي مسلم بن خالد الزنجي الفقيه المكي، وكان الشافعي قد صحبه قبل مالك وأخذ عنه الفقه، وكان أبيض مضرباً بحمرة. ولذلك قيل له الزنجي. وفيها أعني في سنة تسع وسبعين ومائة، توفي السيد الحميري الشاعر، واسمه إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، والسيد لقب غلب عليه أكثر من الشعر، وكان شيعياً كثيراً الوقيعة في الصحابة، وكان كثير المدح لآل البيت، والهجو لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فمن ذلك قوله في مسيرها إلى البصرة لقتال علي من قصيدة طويلة:

كأنها في فعلها حية ... تريد أن تأكل أولادها وكذلك له فيها وفي حفصة أبيات، منها:

إحداهما نمت عليه حديثه ... وبغت عليه بغية إحداهما ثم دخلت سنة ثمانين ومائةَ: فيها مات هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك صاحب الأندلس. وكانت إمارته سبع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام وعمره تسع وثلاثون سنة وأربعة أشهر، واستخلف بعده ابنه الحكم ابن هشام، ولما وليَ الحكم خرج عليه عمّاه، سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن، وكانا في بر العدوة، فتحاربوا مدة والظفر للحكم، وظفر الحكم بعمه سليمان فقتله سنة أربع وثمانين ومائة، نخاف عمه عبد الله، وصالح الحكم سنة ست وثمانين، ولما اشتغل الحكم بقتال عميه، اغتنمت الفرنج الفرصة" فقصدوا بلاد الإسلام، وأخذوا مدينة برشلونة في سنة خمس وثمانين ومائة. وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة سار جعفر بن يحيى بن خالد إلى الشام، فسكّن الفتنة التي كانت بالشام، وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب ما كان يقع من أهلها من العصيان في كل وقت. وفيها أي سنة ثمانين ومائة وقيل سنة سبع وسبعين ومائة، توفي سيبويه النحوي بقرية يقال لها البيضاء من قرى شيراز، واسم سيبويه،

عمرو بن عثمان بن قنبر، وكان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، وجميع كتب الناس في النحو عيلة على كتاب ٧ واشتغل على الخليل بن أحمد، وكان عمره لما مات نيفاً وأربعين سنة، وقيل توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة، وقال أبو الفرج ابن الجوزي؛ توفي سيبويه في سنة أربع وتسعين ومائة، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وإنه توفي بمدينة ساوة، وذكر خطيب بغداد عن ابن دريد، أن سيبويه مات بشيراز وقبره بها، وكان سيبويه كثيراً ما ينشد: إذا بل من داء به ظن أنْه ... نجا وبه الداء الذي هو قاتله وسيبويه لقبه، هو لفظ فارسي معناه بالعربية رائحة التفاح، وقيل إنما لقب سيبويه لأنه كان جميل الصورة، ووجنتاه كأنهما تفاحتان، وجرى له مع الكسائي البحث المشهور في قولك: كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور. قال سيبويه: فإذا هو هي، وقال الكسائي فإذا هو إياها، وانتصر الخليفة للكسائي فحمل سيبويه من ذلك هماً، وترك العراق وسافر إلى جهة شيراز وتوفي هناك.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة فيها غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصفصاف وفيها توفي عبد الله بن المبارك المروزي، في رمضان، وعمره ثلاث وستون سنة. وفيها توفي مروان بن أبي حفصة الشاعر، وكان مولده سنة خمس ومائة، وفيها توفي أبو يوسف القاضي، واسمه يعقوب بن إبراهيم من ولد سعد بن خيثمة، وسعد المذكور صحابي من الأنصار وهو سعد بن بجير واشتهر باسم أمه خيثمة، وأبو يوسف المذكور هو أكبر أصحاب أبي حنيفة. ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة: فيها مات جعفر الطيالسي المحدث. ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة فيها توفي موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد في حبس الرشيد، وحبسه عند السندي بن شاهك، وتولى خدمته في الحبس أخت السندي، وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة، حمد الله ومجده ودعاه إلى أن يزول الليل، ثم يقوم يصلي حتى يطلع الصبح، فيصلي الصلح ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلي حتى يصلي العصر، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة، فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه، وكان يلقب الكاظم: لأنه كان يحسن إلى من "يسيء إليه، وموسى الكاظم المذكور سابع الأئمة الاثني عشر على رأي الإمامية، وقد تقدم ذكر أبيه جعفر الصادق في سنة ثمان وأربعين ومائة، وتقدم ذكر جده محمد الباقر في سنة ست عشرة ومائة وولد موسى المذكور في سنة تسع وعشرين ومائة، وتوفي في هذه

السنة أعني سنة ثلاث وثمانين ومائة لخمس بقين من رجب ببغداد، وقبره مشهور هناك، وعليه مشهد عظيم في الجانب الغربي من بغداد، وسنذكر باقي الأئمة الاثني عشر إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي يونس بن حبيب النحوي المشهور، أخذ العلم عن أبي عمرو بن العلاء وكان عمره قد زاد على مائة سنة، وروى عنه سيبويه، وليونس المذكور قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة فيها ولى الرشيد حماد البربري اليمن ومكة وولّى داود بن يزيد بن مرثد بن حاتم المهلبي السند. وولى يحيى الحرسي الجبل، وولى مهرويه الرازي طبرستان وولى إفريقية إبراهيم بن الأغلب وكان على الموصل وأعمالها يزيد بن مرثد بن زائدة الشيباني. ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة فيها مات عم المنصور، عبد الصمد ابن علي بن عبد الله بن عباس، وكان في القرب إلى عبد المناف بمنزلة يزيد بن معاوية، وبين موتهما ما يزيد على مائة وعشرين سنة. وفيها توفي يزيد بن مرثد بن زائدة الشيباني وهو ابن أخي معن بن زائدة ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة ودخلت سنة سبع وثمانين ومائة. الإيقاع بالبرامكة في هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة، وقتل جعفر بن يحيى وقد اختلف في سبب ذلك اختلافاً كثيراً، والأكثر أن ذلك لإتيانه عباسة أخت الرشيد، فإنه زوجه بها ليحل له النظر إليها، وشرط على جعفر أنه لا يقربها، فوطئها وحبلت منه وجاءت بغلام، وقيل بل الرشيد حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عند جعفر فأطلقه جعفر، وقيل بل إنه لما عظم أمر البرامكة واشتهر كرمهم وأحبهم الناس، والملوك لا تصبر على مثل ذلك، فنكبهم لذلك، وقيل غير ذلك، وكان قتل جعفر بالأنبار، مستهل صفر من هذه السنة، عند عود الرشيد من الحج، وبعد أن قتل جعفر وحمل رأسه، أُرسل أن أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه، وأخذ ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك، وأُرسل إلى سائر البلاد بقبض أموالهم ووكلائهم، وسائر أسبابهم، وأرسل رأس جعفر وجيفته إلى بغْداد، وأمر بنصب رأسه وقطعة من جيفته على الجسر، ونصب الأخرى على الجسر الآخر، ولم يتعرض الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك وولده وأسبابه لبراءته مما دخل فْيه أخوه يحيى بن خالد بن برمك وولده، وكان عمر جعفر لما قتل سبعاً وثلاثين سنة، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة، "وفي هذه السنة خلع الروم ملكتهم وكانت امرأة تدعى رمنى وملكوا تقفور فكتب إلى الرشيد: من تقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أمّا بعد، فإن الملكة التي كان قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها، لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا

قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وإلا السيف بيننا وبينك فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، وكتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه، ثم سار الرشيد من يومه حتى نزل على هرقلة، ففتح وغنم وخرب، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله في كل سنة فأجابه. وفي هذه السنة هاجت الفتنة بالشام بين المضرية واليمانية، فأرسل الرشيد وأصلح بينهم، وفيها ترفي الفضيل بن عياض الزاهد وكان مولده بسمرقند وانتقل إلى مكة ومات بها، وفيها توفي أبو مسلم معاذ الفرءا النحوي وعنه أخذ الكسائي النحو وولد أيام يزيد بن عبد الملك. ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة فيها توفي العباس بن الأحنف الشاعر. ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة فيها وقيل في سنة إحدى وثمانين توفي أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز المعروف بالكسائي، في الري، وهو أحد القراء السبعة، وكان إماماً في النحو واللغة، وقيل له الكسائي لأنه دخل الكوفة وأتى إلى حمزة بن حبيب الزيات ملتفاً بكساء، وقيل بل حج وأحرم بكساء. وفيها سار الرشيد إلى الري وأقام به أربعة أشهر، ثم رجع الرشيد إلى العراق ودخل بغداد في آخر ذي الحجة، وأمر بإحراق جثة جعفرة وكانت مصلوبة على الجسر، ولم ينزل ببغداد، ومضى من فوره إلى الرقة، فقال في ذلك بعض شعراء الرشيد: ما أنخنا حتى ارتحلنا فانف ... رق بين المناخ والارتحال سألونا عن حالنا إذ قدمنا ... فقرأنا وداعهم بالسؤال فقال الرشيد: والله إني أعلم أنه ما في الشرق ولا في الغرب مدينة أيمن ولا أيسر من بغداد، وأنها دار مملكة بني العباس، ولكني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق، "والبغض لأئمة الهدي، والحب لشجرة اللعنة بني أمية، ولولا ذلك ما فارقت بغداد. وفي هذه السنة مات محمد بن الحسن الشيباني الفقيه صاحب أبي حنيفة، وكان والده الحسن من أهل قرية حرستا، من غوطة دمشق، فسار إلى العراق وأقام بواسط، فولد ولده محمد بن الحسن المذكور، ونشأ بالكوفة، ثم صحب أبا حنيفة وتفقه على أبي يوسف، وصنف عدة كتب مثل: الجامع الكبير، والجامع الصغير، في فقه أبي حنيفة وغير ذلك. ثم دخلت سنة تسعين ومائة في هذه السنة سار الرشيد في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة سوى من لا ديوان له من الأتباع والمتطوعة، حتى نزل على هرقلة وحصرها ثلاثين يوماً، ثم فتحها في شوال من هذه السنة، وسبى أهلها، وبث عساكره في بلاد الروم، ففتحوا الصفصاف وملقونية وخربوا ونهبوا وبعث تقفور بالجزية عن رعيته وعن رأسه أيضاً، ورأس ولده، وبطارقته، وفي هذه السنة نقض أهل قبرس العهد. فغزاهم معتوق

بن يحيى، وكان عاملاً على سواحل مصر والشام، فسبى أهل قبرس، وفيها أسلم الفضل بن سهل على يد المأمون، وكان مجوسياً، وفيها توفي أسد بن عمر، وابن عامر الكوفي صاحب أبي حنيفة، وفيها توفي يحيى بن خالد بن برمك محبوساً بالرقة، في المجرم وعمره سبعون سنة. ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة. ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة فيها سار الرشيد من الرقة إلى خراسان فنزل بغداد، ورحل عنها إلى النهروان، لخمس خلون من شعبان، واستخلف على بغداد ابنه الأمين. ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة. فيها مات الفضل بن يحيى بن خالد ابن برمك في الحبس بالرقة، في المحرم، وعمره خمس وأربعون سنة، وكان من محاسن الدنيا؛ لم ير في العالم مثله.

موت الرشيد في هذه السنة أعني سنة ثلاث وتسعين ومائة، مات الرشيد لثلاث خلون من جمادى الآخرة، وكان به مرض من حين ابتدأ بسفره، فاشتدت علته بجرجان، في صفر، فسار إلى طوس فمات بها في التاريخ المذكور، وكان قد سير ابنه المأمون إلى مرو، وحفر الرشيد قبره في موضع الدار التي كان فيها، وأنزل فيه قوماً ختموا فيه القرآن، وهو في محفة على شفير القبر، وكان يقول في تلك الحالة واسوءتاه من رسول الله، ولما دنت منه الوفاة غشي عليه ثم أفاق، فرأى المفضل بن الربيع على رأسه فقال: يا فضل أحين دنا ما كنت أخشى دنوه ... رمتني عيونُ الناس من كل جانب فأصبحتُ مرحوماً وكنت محسداً ... فصبرا على مكروه مر العواقب سأبكي على الوصل الذي كان بيننا ... وأندبُ أيام السرور الذواهب ثم مات، وصلى عليه ابنه صالح، وحضر وفاته الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح وسرور وحسين، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً، وكان عمره "سبعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان جميلاً أبيض قد وخطه الشيب، وكان له من البنين: الأمين من زبيدة، والمأمون من أم ولد اسمها مراجل، والقاسم المؤتمن، والمعتصم محمد، وصالح، وأبو عيسى محمد، وأبو يعقوب، وأبو العباس محمد، وأبو سليمان محمد، وأبو علي محمد، وأبو محمد، وهو اسمه، وأبو أحمد محمد، كلهم لأمهات أولاد، وخمس عشرة بنتاً، وكان الرشيد يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وعهد بالخلافة إلى الأمين، ثم من بعده إلى المأمون، وكتب بينهما عهداً بذلك، وجعله في الكعبة، وكان قد جعل ابنه القاسم ولقبه المؤتمن، ولي العهد بعد المأمون، وجعل أمر استقراره وعزله إلى المأمون إن شاء استمر به وإن شاء عزله." "خلافة الأمين وفي هذه السنة بويع لمحمد الامين بن هارون بالخلافة في عسكر الرشيد، وعبد الله بْن هارون

المأمون يومئذ بمرو، وكان- فيما ذكر- قد كتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد بطوس إلى أبي مسلم سلام، مولاه وخليفته ببغداد على البريد والأخبار، يعلمه وفاة الرشيد فدخل على محمد فعزاه وهنأه بالخلافة، وكان أول الناس فعل ذلك، ثم قدم عليه رجاء الخادم يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، كان صالح بن الرشيد ارسله اليه بالخبر بذلك- وقيل: أتاه الخبر بذلك- ليلة الخميس للنصف من جمادى الآخرة، فأظهره يوم الجمعة، وستر خبره بقية يومه وليلته، وخاض الناس في أمره. ولما قدم كتاب صالح على محمد الأمين مع رجاء الخادم بوفاة الرشيد- وكان نازلا في قصره بالخلد- تحول إلى قصر أبي جعفر بالمدينة، وأمر الناس بالحضور ليوم الجمعة، فحضروا وصلى بهم، فلما قضى صلاته صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ونعى الرشيد إلى الناس، وعزى نفسه والناس، ووعدهم خيرا، وبسط الآمال، وآمن الأسود والأبيض، وبايعه جلة أهل بيته وخاصته ومواليه وقواده، ثم دخل ووكل ببيعته على من بقي منهم عم أبيه سليمان بْن أبي جعفر، فبايعهم، وأمر السندي بمبايعة جميع الناس من القواد وسائر الجند، وأمر للجند ممن بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين شهرا، وبخواص من كانت له خاصة بهذه الشهور.[ذكر الخبر عن بدء الخلاف بين الامين والمأمون] وفي هذه السنة كان بدء اختلاف الحال بين الأمين محمد وأخيه المأمون، وعزم كل واحد "ذكر الخبر عن السبب الذي كان أوجب اختلاف حالهما فيما ذكرت:

قال أبو جعفر: قد ذكرنا قبل أن الرشيد جدد حين شخص إلى خراسان البيعة للمأمون على القواد الذين معه، وأشهد من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون فلما بلغ محمد بْن هارون أن أباه قد اشتدت علته، وأنه لمآبه، بعث من يأتيه بخبره في كل يوم، وارسل بكر بْن المعتمر، وكتب معه كتبا، وجعلها في قوائم صناديق منقوره وألبسها جلود البقر، وقال: لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه، ولا ما معك، ولو قتلت حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا مات فادفع إلى كل رجل منهم كتابه. فلما قدم بكر بْن المعتمر طوس، بلغ هارون قدومه، فدعا به، فسأله: ما أقدمك؟ قَالَ: بعثني محمد لأعلم له علم خبرك وآتيه به، قَالَ: فهل معك كتاب؟ قَالَ: لا، فأمر بما معه ففتش فلم يصيبوا معه شيئا، فهدده بالضرب فلم يقر بشيء، فأمر به فحبس وقيد فلما كان في الليلة التي مات فيها هارون أمر الفضل بْن الربيع أن يصير إلى محبس بكر بْن

المعتمر فيقرره، فإن أقر وإلا ضرب عنقه، فصار إليه، فقرره فلم يقر بشيء، ثم غشي على هارون، فصاح النساء، فأمسك الفضل عن قتله، وصار إلى هارون ليحضره، ثم أفاق هارون وهو ضعيف، قد شغل عن بكر وعن غيره لحس الموت، ثم غشي عليه غشية ظنوا أنها هي، وارتفعت الضجة، فبعث بكر بْن المعتمر برقعة منه إلى الفضل بْن الربيع مع عبد الله بن ابى نعيم، يسأله الا يعجلوا بأمر، ويعلمه أن معه أشياء يحتاجون إلى علمها- وكان بكر محبوسا عند حسين الخادم- فلما توفي هارون في الوقت الذي توفي فيه، دعا الفضل بْن الربيع ببكر من ساعته، فسأله عما عنده، فأنكر أن يكون عنده شيء، وخشي على نفسه من أن يكون هارون حيا، حتى صح عنده موت هارون، وأدخله عليه، فأخبره أن عنده كتبا من أمير المؤمنين محمد، وأنه لا يجوز له إخراجها، وهو على حاله في قيوده وحبسه، فامتنع حسين الخادم من إطلاقه حتى أطلقه الفضل، فأتاهم" منهما بالخلاف على صاحبه فيما كان والدهما هارون أخذ عليهما العمل به، في الكتاب الذى ذكرنا انه كان كتبه عليهما وبينهما" "بالكتب التي عنده، وكانت في قوائم المطابخ المجلدة بجلود البقر، فدفع إلى كل إنسان منهم كتابه وكان في تلك الكتب كتاب من محمد بْن هارون إلى حسين الخادم بخطه، يأمره بتخلية بكر بْن المعتمر وإطلاقه، فدفعه إليه، وكتاب إلى عبد الله المأمون، فاحتبس كتاب المأمون عنده ليبعثه إلى المأمون بمرو، وأرسلوا الى صالح بن الرشيد- وكان مع أبيه بطوس، وذلك أنه كان أكبر من يحضر هارون من ولده- فأتاهم في تلك الساعة، فسألهم عن أبيه هارون، فأعلموه، فجزع جزعا شديدا، ثم دفعوا إليه كتاب أخيه محمد الذي جاء به بكر وكان الذين حضروا وفاة هارون هم الذين ولوا أمره وغسله وتجهيزه، وصلى عليه ابنه صالح.

وكانت نسخة كتاب محمد إلى أخيه عبد الله المأمون: إذا ورد عليك كتاب أخيك- أعاذه الله من فقدك- عند حلول ما لا مرد له ولا مدفع مما قد اخلف وتناسخ في الأمم الخالية والقرون الماضيه فعز نفسك بما عزاك الله به واعلم أن الله جل ثناؤه قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين، وأجزل الحظين فقبضه الله طاهرا زاكيا، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه إن شاء الله فقم في أمرك قيام ذي الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين وإياك أن يغلب عليك الجزع، فإنه يحبط الأجر، ويعقب الوزر وصلوات الله على أمير المؤمنين حيا وميتا، وإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ! وخذ

البيعه عمن قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابْن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وإثباتها، فإنك مقلد من ذاك ما قلدك الله وخليفته وأعلم من قبلك رأيي في صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم، فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته، فابعث إلي برأسه مع خبره وإياك وإقالته، فإن النار أولى به. واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء أجنادك بما طرقك من المصيبة بأمير المؤمنين، وأعلمهم أن الله لم يرض الدنيا له ثوابا حتى قبضه إلى روحه وراحته وجنته، مغبوطا محمودا قائدا لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله ومرهم أن يأخذوا البيعه" "على أجنادهم وخواصهم وعوامهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك وأوعز إليهم في ضبط ثغورهم، والقوة على عدوهم واعلمهم إني متفقد حالاتهم ولام شعثهم، وموسع عليهم، ولا تنى في تقويه اجنادى وانصارى، ولتكن كتبك إليهم كتبا عامة، لتقرأ عليهم، فإن في ذلك ما يسكنهم ويبسط أملهم. واعمل بما تامر به لمن حضرك، أو نأى عنك من أجنادك، على حسب ما ترى وتشاهد، فإن أخاك يعرف حسن اختيارك، وصحة رأيك، وبعد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يشد بك عضده، ويجمع بك أمره، إنه لطيف لما يشاء وكتب بكر بْن المعتمر بين يدي وإملائي في شوال سنه ثنتين وتسعين ومائة.

وإلى أخيه صالح:

بسم الله الرحمن الرحيم. إذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما قد سبق في علم الله ونفذ من قضائه في خلفائه وأوليائه، وجرت به سنته في الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، فقل: «كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ، فاحمدوا الله ما صار إليه أمير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقه انبيائه، صلوات الله عليهم، وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ. وإياه نسأل أن يحسن الخلافة على أمه نبيه محمد ص، وقد كان لهم عصمة وكهفا، وبهم رءوفا رحيما، فشمر في أمرك، وإياك أن تلقي بيديك، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضك له، وهو متفقد مواقع فقدانك، فحقق ظنه ونسأل الله التوفيق وخذ البيعة على من قبلك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله بن أمير المؤمنين، ثم للقاسم بْن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها أمير المؤمنين صلوات الله عليه من فسخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليمن في الأخذ بعهده، والمضي على مناهجه وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم، ورد مظالمهم وتفقد حالاتهم، وأداء أرزاقهم

وأعطياتهم عليهم، فإن شغب شاغب، أو نعر ناعر، فاسط به سطوة تجعله نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خلفها "وموعظه للمتقين واضمم الى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين وخدمه وأهله، ومره بالمسير معهم فيمن معه من جنده ورابطته، وصير إلى عبد الله بْن مالك أمر العسكر وأحداثه، فإنه ثقة على ما يلي، مقبول عند العامة، واضمم إليه جميع جند الشرط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده، ومره بالجد والتيقظ وتقديم الحزم في أمره كله، ليله ونهاره، فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة وأقر حاتم بْن هرثمة على ما هو عليه، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين، فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة، ولا يدين إلا بها بمعاقد من الله مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ومر الخدم باحضار روابطهم ممن يسد بهم وبأجنادهم مواضع الخلل من عسكرك، فإنهم حد من حدودك، وصير مقدمتك إلى أسد بْن يزيد بْن مزيد، وساقتك إلى يحيى بْن معاذ، فيمن معه من الجنود، ومرهما بمناوبتك في كل ليلة، والزم الطريق الأعظم، ولا تعدون المراحل، فإن ذلك أرفق بك ومر أسد بْن يزيد أن يتخير رجلا من أهل بيته أو قواده، فيصير الى مقدمته ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل، أو بعض الطريق، فإن لم يحضرك في عسكرك بعض من سميت، فاختر لمواضعهم من تثق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوام، فإن ذلك لن يعوزك من قوادك وأنصارك إن شاء الله وإياك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمرا إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بْن الربيع، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك، ولا تخرجن أحدا منهم من ضمن ما يلي إلى أن تقدم علي. وقد أوصيت بكر بْن المعتمر بما سيبلغكه، واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى، وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق، فليكن الفضل بْن الربيع المتولي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه، بمحضر من أصحاب الدواوين، فإن الفضل بْن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك لمهمات الأمور وأنفذ إلي عند وصول كتابي هذا إليك إسماعيل بْن صبيح وبكر بْن المعتمر على مركبيهما من البريد، ولا يكون لك عرجة ولا مهلة بموضعك الذي أنت فيه حتى توجه إلي بعسكرك" "بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله أخوك يستدفع الله عنك، ويسأله لك حسن التأييد برحمته.

وكتب بكر بْن المعتمر بين يدي واملائى في شوال سنه ثنتين وتسعين ومائة. وخرج رجاء الخادم بالخاتم والقضيب والبردة، وبنعي هارون حين دفن حتى قدم بغداد ليلة الخميس- وقيل يوم الأربعاء-

فكان من الخبر ما قد ذكرت قبل. وقيل: إن نعي الرشيد لما ورد بغداد صعد إسحاق بْن عيسى بْن عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال: اعظم الناس رزيئه، واحسن الناس بقية رزؤنا، فإنه لم يرزأ أحد كرزئنا، فمن له مثل عوضنا! ثم نعاه إلى الناس، وحض الناس على الطاعة.

وذكر الحسن الحاجب أن الفضل بْن سهل أخبره، قَالَ: استقبل الرشيد وجوه أهل خراسان، وفيهم الحسين بْن مصعب قَالَ: ولقيني فقال لي: الرشيد ميت أحد هذين اليومين، وامر محمد بن الرشيد ضعيف، والأمر أمر صاحبك، مد يدك فمد يده فبايع للمأمون بالخلافة قال: ثم أتاني بعد أيام ومعه الخليل بْن هشام، فقال: هذا ابن أخي، وهو لك ثقة خذ بيعته. وكان المأمون قد رحل من مرو إلى قصر خالد بْن حماد على فرسخ من مرو يريد سمرقند، وأمر العباس بْن المسيب بإخراج الناس واللحوق بالعسكر، فمر به إسحاق الخادم ومعه نعي الرشيد، فغم العباس قدومه، فوصل إلى المأمون فأخبره، فرجع المأمون إلى مرو، ودخل دار الإمارة، دار أبي مسلم، ونعى الرشيد على المنبر، وشق ثوبه ونزل، وأمر للناس بمال، وبايع لمحمد ولنفسه وأعطى الجند رزق اثني عشر شهرا. قَالَ: ولما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطوس من القواد والجند وأولاد هارون، تشاوروا في اللحاق بمحمد، فقال الفضل بْن الربيع: لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل، ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون بمرو،"فجمع من معه من قواد أبيه، فكان معه منهم عبد الله بْن مالك، ويحيى ابن معاذ، وشبيب بْن حميد بْن قحطبة، والعلاء مولى هارون، والعباس بْن المسيب بْن زهير وهو على شرطته، وأيوب بْن أبي سمير وهو على كتابته، وكان معه من أهل بيته عبد الرحمن بْن عبد الملك بْن صالح، وذو الرياستين، وهو عنده من أعظم الناس قدرا وأخصهم به، فشاورهم وأخبرهم الخبر، فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألفي فارس جريدة، فيردهم، وسمى لذلك قوم، فدخل عليه ذو الرياستين، فقال له: إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد، ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتابا، وتوجه إليهم رسولا، فتذكرهم البيعة، وتسألهم الوفاء، وتحذرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين قَالَ: قلت له: إن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فتستبرئ ما عند القوم، وتوجه سهل بْن صاعد- وكان على قهرمته- فإنه يأملك، ويرجو أن ينال أمله، فلن يألوك نصحا، وتوجه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين- وكان عاقلا فكتب كتابا، ووجههما فلحقاهم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل. فذكر الحسن بْن ابى سعيد عن سهل بن صاعد،

انه قال له: فاوصلت إلى الفضل بْن الربيع كتابه، فقال لي: إنما أنا واحد منهم، قَالَ لي سهل: وشد علي عبد الرحمن بْن جبلة بالرمح، فأمره على جنبي، ثم قال لي: قل لصاحبك: والله لو كنت حاضرا لوضعت الرمح في فيك، هذا جوابي. قَالَ: ونال من المأمون، فرجعت بالخبر. قَالَ الفضل بْن سهل: فقلت للمأمون: أعداء قد استرحت منهم، ولكن افهم عني ما أقول لك، إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام أبي جعفر، فخرج عليه المقنع وهو يدعي الربوبية، وقال بعضهم: طلب بدم أبي مسلم، فتضعضع العسكر بخروجه بخراسان، فكفاه الله المؤنة ثم خرج بعده يوسف البرم وهو عند بعض المسلمين كافر، فكفى الله المؤنة، ثم خرج استاذسيس" "يدعو إلى الكفر، فسار المهدي من الري الى نيسابور فكفى المؤنه، ولكن ما أصنع! أكثر عليك! أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع؟ قَالَ: رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا، قلت: وكيف بك وأنت نازل في أخوالك، وبيعتك في أعناقهم! كيف يكون اضطراب أهل بغداد! اصبر وأنا أضمن لك الخلافة- ووضعت يدي على صدري- قَالَ: قد فعلت، وجعلت الأمر إليك فقم به قَالَ: قلت: والله لأصدقنك، أن عبد الله بْن مالك ويحيى بْن معاذ ومن سمينا من أمراء الرؤساء، إن قاموا لك بالأمر كانوا انفع منى لك برياستهم المشهورة، ولما عندهم من القوة على الحرب، فمن قام بالأمر كنت خادما له حتى تصير إلى محبتك، وترى رأيك في فلقيتهم في منازلهم، وذكرتهم البيعة التي في أعناقهم وما يجب عليهم من الوفاء.

قَالَ: فكأني جئتهم بجيفة على طبق، فقال بعضهم: هذا لا يحل، اخرج، وقال بعضهم: من الذي يدخل بين امير المؤمنين وأخيه! فجئت فاخبرته، قَالَ: قم بالأمر، قَالَ: قلت: قد قرأت القرآن، وسمعت الأحاديث، وتفقهت في الدين، فالرأي أن تبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء، فتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة، وتقعد على اللبود، وترد المظالم ففعلنا وبعثنا إلى الفقهاء، وأكرمنا القواد والملوك وأبناء الملوك، فكنا نقول للتميمي: نقيمك مقام موسى بْن كعب، وللربعي: نقيمك مقام أبي داود خالد بْن إبراهيم، ولليماني: نقيمك مقام قحطبة ومالك بْن الهيثم، فكنا ندعو كل قبيله الى نقباء رءوسهم، واستملنا الرءوس، وقلنا لهم مثل ذلك، وحططنا عن خراسان ربع الخراج، فحسن موقع ذلك منهم، وسروا به، وقالوا: ابن أختنا، وابن عم النبي ص. قَالَ علي بْن إسحاق: لما أفضت الخلافة الى محمد، وهدا الناس ببغداد، أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء

ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد:" "بنى أمين الله ميدانا ... وصير الساحة بستانا

وكانت الغزلان فيه بانا ... يهدي إليه فيه غزلانا وفي هذه السنة شخصت أم جعفر من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغير ذلك في شعبان، فتلقاها ابنها محمد الأمين بالأنبار في جميع من كان ببغداد من الوجوه، وأقام المأمون على ما كان يتولى من عمل خراسان ونواحيها إلى الري، وكاتب الأمين، وأهدى إليه هدايا كثيرة، وتواترت كتب المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح. وفي هذه السنة دخل هرثمة حائط سمرقند، ولجأ رافع إلى المدينة الداخلة، وراسل رافع الترك فوافوه، فصار هرثمة بين رافع والترك، ثم انصرف الترك، فضعف رافع. وقتل في هذه السنة نقفور ملك الروم في حرب برجان، وكان ملكه- فيما قيل- سبع سنين، وملك بعده إستبراق بْن نقفور وهو مجروح، فبقي شهرين ومات وملك ميخائيل بْن جورجس ختنه على أخته. وحج بالناس في هذه السنة داود بْن عيسى بْن موسى بْن محمد بْن علي، وكان والي مكة. وأقر محمد بْن هارون أخاه القاسم بْن هارون في هذه السنة على ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الجزيرة، واستعمل عليها خزيمة بْن خازم، وأقر القاسم على قنسرين والعواصم."

"ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

(ذكر الخبر عما كَانَ فِيهَا من الأحداث) فمن ذلك ما كان من مخالفة أهل حمص عاملهم إسحاق بْن سليمان، وكان محمد ولاه إياها، فلما خالفوه انتقل إلى سلمية، فصرفه محمد عنهم، وولى مكانه عبد الله بْن سعيد الحرشي ومعه عافية بْن سليمان، فحبس عدة من وجوههم، وضرب مدينتهم من نواحيها بالنار، وسألوه الأمان فأجابهم، وسكنوا ثم هاجوا، فضرب أيضا أعناق عدة منهم. وفيها عزل محمد أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور، وولى مكانه خزيمة بْن خازم، وأمره بالمقام بمدينة السلام. وفي هذه السنة أمر محمد بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة.

[ذكر تفاقم الخلاف بين الامين والمأمون]

وفيها مكر كل واحد منهما بصاحبه: محمد الأمين وعبد الله المأمون، وظهر بينهما الفساد.

ذكر الخبر عن سبب ذلك: ذكر أن الفضل بن الربيع فكر بعد مقدمه العراق على محمد منصرفا عن طوس، وناكثا للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حي لم يبق عليه، وكان في ظفره به عطبه، فسعى في إغراء محمد به، وحثه على خلعه، وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه، بل كان عزمه- فيما ذكر عنه- الوفاء لأخويه: عبد الله والقاسم، بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط، فلم يزل الفضل به يصغر في عينه شأن المأمون، "ذكر الخبر عن السبب الذي كان أوجب اختلاف حالهما فيما ذكرت: قال أبو جعفر: قد ذكرنا قبل أن الرشيد جدد حين شخص إلى خراسان البيعة للمأمون على القواد الذين معه، وأشهد من معه من القواد وسائر الناس وغيرهم أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون، وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون فلما بلغ محمد بْن هارون أن أباه قد اشتدت علته، وأنه لمآبه، بعث من يأتيه بخبره في كل يوم، وارسل بكر بْن المعتمر، وكتب معه كتبا، وجعلها في قوائم صناديق منقوره وألبسها جلود البقر، وقال: لا يظهرن أمير المؤمنين ولا أحد ممن في عسكره على شيء من أمرك وما توجهت فيه، ولا ما معك، ولو قتلت حتى يموت أمير المؤمنين، فإذا مات فادفع إلى كل رجل منهم كتابه.

فلما قدم بكر بْن المعتمر طوس، بلغ هارون قدومه، فدعا به، فسأله: ما أقدمك؟ قَالَ: بعثني محمد لأعلم له علم خبرك وآتيه به، قَالَ: فهل معك كتاب؟ قَالَ: لا، فأمر بما معه ففتش فلم يصيبوا معه شيئا، فهدده بالضرب فلم يقر بشيء، فأمر به فحبس وقيد فلما كان في الليلة التي مات فيها هارون أمر الفضل بْن الربيع أن يصير إلى محبس بكر بْن المعتمر فيقرره، فإن أقر وإلا ضرب عنقه، فصار إليه، فقرره فلم يقر بشيء، ثم غشي على هارون، فصاح النساء، فأمسك الفضل عن قتله، وصار إلى هارون ليحضره، ثم أفاق هارون وهو ضعيف، قد شغل عن بكر وعن غيره لحس الموت، ثم غشي عليه غشية ظنوا أنها هي، وارتفعت الضجة، فبعث بكر بْن المعتمر برقعة منه إلى الفضل بْن الربيع مع عبد الله بن ابى نعيم، يسأله الا يعجلوا بأمر، ويعلمه أن معه أشياء يحتاجون إلى علمها- وكان بكر محبوسا عند حسين الخادم- فلما توفي هارون في الوقت الذي توفي فيه، دعا الفضل بْن الربيع ببكر من ساعته، فسأله عما عنده، فأنكر أن يكون عنده شيء، وخشي على نفسه من أن يكون هارون حيا، حتى صح عنده موت هارون، وأدخله عليه، فأخبره أن عنده كتبا من أمير المؤمنين محمد، وأنه لا

يجوز له إخراجها، وهو على حاله في قيوده وحبسه، فامتنع حسين الخادم من إطلاقه حتى أطلقه الفضل، فأتاهم "ويزين له خلعه، حتى قَالَ له: ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك! فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما، وإنما أدخلا فيها بعدك واحدا بعد واحد، وأدخل في ذلك من رأيه معه علي بْن عيسى بْن ماهان والسندي وغيرهما ممن بحضرته، فأزال محمدا عن رأيه.

فأول ما بدأ به محمد عن رأي الفضل بْن الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد، فذكر الفضل بْن إسحاق بْن سليمان ان المأمون لما بلغه ما امر به محمد من الدعاء لابنه موسى وعزله القاسم عما كان الرشيد ضم إليه من الأعمال وإقدامه إياه مدينة السلام، علم أنه يدبر عليه في خلعه، فقطع البريد عن محمد، واسقط اسمه من الطرز والضرب. وكان رافع بْن الليث بْن نصر بْن سيار لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله وإحسانه إليهم، بعث في طلب الأمان لنفسه، فسارع إلى ذلك هرثمة وخرج رافع فلحق بالمأمون، وهرثمة بعد مقيم بسمرقند فأكرم المأمون رافعا وكان مع هرثمة في حصار رافع طاهر بن الحسين، فلما دخل رافع في الأمان، استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه، فعبر نهر بلخ بعسكره والنهر جامد، فتلقاه الناس، وولاه المأمون الحرس فأنكر ذلك كله محمد، فبدأ بالتدبير على المأمون، فكان من التدبير أنه كتب إلى العباس بْن عبد الله بْن مالك- وهو عامل المأمون على الري- وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الري- مريدا بذلك امتحانه- فبعث اليه ما امره به، وكتم المأمون وذا الرياستين. فبلغ ذلك من أمره المأمون، فوجه الحسن بن علي المأموني واردفه بالرستمى على البريد، وعزل العباس بْن عبد الله بن مالك، فذكر عن الرستمي أنه لم ينزل عن دابته حتى اجتمع إليه ألف رجل من أهل الري. ووجه محمد إلى المأمون ثلاثة أنفس رسلا: أحدهم العباس بْن موسى بْن عيسى، والآخر صالح صاحب المصلى، والثالث محمد بْن عيسى بْن نهيك،"

"وكتب معهم كتابا إلى صاحب الري، أن استقبلهم بالعدة والسلاح الظاهر. وكتب إلى والي قومس ونيسابور وسرخس بمثل ذلك، ففعلوا ثم وردت الرسل مرو، وقد أعد لهم من السلاح وضروب العدد والعتاد، ثم صاروا إلى المأمون، فأبلغوه رسالة محمد بمسألته تقديم موسى على نفسه، ويذكر له أنه سماه الناطق بالحق، وكان الذي أشار عليه بذلك علي بْن عيسى بْن ماهان، وكان يخبره أن أهل خراسان يطيعونه، فرد المأمون ذلك وأباه قَالَ: فقال لي ذو الرئاستين: قَالَ العباس بْن موسى بْن عيسى بْن موسى: وما عليك أيها الأمير من ذلك، فهذا جدي عيسى بْن موسى قد خلع فما ضره

ذلك، قَالَ: فصحت به: اسكت، فإن جدك كان في أيديهم أسيرا، وهذا بين أخواله وشيعته قَالَ: فانصرفوا، وأنزل كل واحد منهم منزلا قال ذو الرياستين: فأعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بْن موسى، نخلوت به فقلت: ايذهب عليك في فهمك وسنك أن تأخذ بحظك من الإمام- وسمي المأمون في ذلك اليوم بالإمام ولم يسم بالخلافة، وكان سبب ما سمي به الإمام ما جاء من خلع محمد له، وقد كان محمد قَالَ للذين أرسلهم: قد تسمى المأمون بالإمام، فقال لي العباس: قد سميتموه الإمام! قَالَ: قلت له: قد يكون إمام المسجد والقبيلة، فإن وفيتم لم يضركم، وإن غدرتم فهو ذاك. قَالَ: ثم قلت للعباس: لك عندي ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت. قَالَ: فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة، فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار، ويشير علينا بالرأي. قَالَ: فأخبرني علي بْن يحيى السرخسي، قَالَ: مر بي العباس بْن موسى ذاهبا إلى مرو- وقد كنت وصفت له سيرة المأمون وحسن تدبير ذي الرياستين واحتماله الموضع، فلم يقبل ذلك مني- فلما رجع مر بي، فقلت له: كيف رأيت؟ قال: ذو الرياستين أكثر مما وصفت، فقلت: صافحت" "الإمام؟ قَالَ: نعم، قلت: امسح يدك على رأسي قَالَ: ومضى القوم إلى محمد فأخبروه بامتناعه، قَالَ: فألح الفضل بْن الربيع وعلي بْن عيسى على محمد في البيعة لابنه وخلع المأمون، وأعطى الفضل الأموال حتى بايع لابنه موسى، وسماه الناطق بالحق، وأحضنه علي بْن عيسى وولاه العراق قَالَ: وكان أول من أخذ له البيعة بشر بْن السميدع الأزدي، وكان واليا على بلد، ثم أخذها صاحب مكة وصاحب المدينة على خواص من الناس قليل، دون العامة. قَالَ: ونهى الفضل بْن الربيع عن ذكر عبد الله والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر، ودس لذكر عبد الله والوقيعة فيه، ووجه إلى مكة كتابا مع رسول من حجبة البيت يقال له محمد بْن عبد الله بْن عثمان بْن طلحة في أخذ الكتابين اللذين كان هارون كتبهما، وجعلهما في الكعبة لعبد الله على محمد، فقدم بهما عليه، وتكلم في ذلك بقية الحجبة، فلم يحفل بهم، وخافوا على أنفسهم، فلما صار بالكتابين إلى محمد قبضهما منه، واجازه بجائزه عظيمة، ومزقهما وأبطلهما. وكان محمد- فيما ذكر- كتب إلى المأمون قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان- سماها- وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره فلما ورد إلى المأمون الكتاب بذلك، كبر ذلك عليه واشتد، فبعث إلى الفضل بْن سهل وإلى أخيه الحسن، فشاورهما في ذلك، فقال الفضل: الأمر مخطر، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة، ولهم تأنيس بالمشاورة، وفي

قطع الأمر دونهم وحشة، وظهوره قلة ثقة، فرأي الأمير في ذلك وقال الحسن: كان يقال: شاور في طلب الرأي من تثق بنصيحته، وتألف العدو فيما لا اكتتام له بمشاورته، فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعا له: أيها الأمير، "تشاور في مخطر، فاجعل لبديهتنا حظا من الروية، فقال المأمون: ذلك هو الحزم، وأجلهم ثلاثا، فلما اجتمعوا بعد ذلك، قَالَ أحدهم: أيها الأمير، قد حملت على كرهين، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أولهما مخافة مكروه آخرهما وقال آخر: كان يقال أيها الأمير، أسعدك الله، إذا كان الأمر مخطرا، فإعطاؤك من نازعك طرفا من بغيته أمثل من أن تصير بالمنع إلى مكاشفته. وقال آخر: إنه كان يقال: إذا كان علم الأمور مغيبا عنك، فخذ ما امكنك من هدنة يومك، فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعا بفساد غدك وقال آخر: لئن خيفت للبذل عاقبة، إن أشد منها لما يبعث الآباء من الفرقة وقال آخر: لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلعلي أعطى معها العافية فقال الحسن: فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأي على مخالفتكم، فقال له المأمون: فناظرهم، قَالَ: لذلك ما كان الاجتماع. وأقبل الحسن عليهم، فقال: هل تعلمون أن محمدا تجاوز إلى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا: نعم، ويحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه قال: فهل تثقون بكفه بعد إعطائه إياها، فلا يتجاوز بالطلب إلى غيرها؟ قالوا: لا، ولعل سلامة تقع من دون ما يخاف ويتوقع قَالَ: فإن تجاوز بعدها بالمسألة، أفما ترونه قد توهن بما بذل منها في نفسه! قالوا: ندفع ما يعرض له في عاقبة بمدافعه محذور في عاجله! قَالَ: فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا: استصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدنة يومك بإخطار أدخلته على نفسك في غدك قَالَ المأمون للفضل:

ما تقول فيما اختلفوا فيه؟ قَالَ: أيها الأمير، أسعدك الله، هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفضل قوتك ليستظهر بها عليك غدا على مخالفتك! وهل يصير الحازم إلى فضلة من عاجل الدعة بخطر يتعرض له في عاقبة، بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم فقال المأمون: بل بإيثار العاجلة صار من صار إلى فساد العاقبة في امر دنيا او امر آخره. قَالَ القوم: قد قلنا بمبلغ الرأي، والله يؤيد الأمير بالتوفيق فقال: اكتب" "فضل إليه، فكتب:

قد بلغني كتاب امير المؤمنين يسألني التجافي عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد في العقد، وجعل أمره إلي، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذي جعل إلي الطرف الذي أنابه، لا

ظنين في النظر لعامته، ولا جاهل بما أسند إلي من أمره، ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة، وعامة لا تتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الإفضال- لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من لم أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق، ووكد به مأخوذ العهد! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع بمسألة ما كتب بمسألته إلي ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله. وكان المأمون قد وجه حارسة إلى الحد، فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبرا ولا يؤثر أثرا، ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحدا، ولا يبلغ أحدا قولا ولا كتابا فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة، أو أن تودع صدورهم رهبة، أو يحملوا على منزل خلاف أو مفارقة ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه، أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه، ومنع الإشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة، وفتشت الكتب. وكان- فيما ذكر- أول من أقبل من قبل محمد مناظرا في منعه ما كان سأل جماعة، وإنما وجهوا ليعلم أنهم قد عاينوا وسمعوا، ثم يلتمس منهم ان يبذلوا او يحرموا فيكون مما قالوا حجة يحتج بها، أو ذريعه الى ما التمس منها فلما صاروا إلى حد الري، وجدوا تدبيرا مؤيدا، وعقدا مستحصدا متأكدا، وأخذتهم الأحراس من جوانبهم، فحفظوا في حال ظعنهم وإقامتهم من أن يخبروا أو يستخبروا، وكتب بخبرهم من مكانهم، فجاء الإذن في حملهم" "فحملوا محروسين، لا خبر يصل إليهم، ولا خبر يتطلع منهم إلى غيرهم، وقد كانوا معدين لبث الخبر في العامة وإظهار الحجة بالمفارقة والدعاء لأهل القوة إلى المخالفة، يبذلون الأموال، ويضمنون لهم معظم الولايات والقطائع والمنازل، فوجدوا جميع ذلك ممنوعا محسوما، حتى صاروا إلى باب المأمون.

وكان الكتاب النافذ معهم إلى المأمون:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف، وضم ما ضم إليك من كور الجبل، تأييدا لأمرك، وتحصينا لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده، وقد ضم لك إلى

الطرف كورا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها، ومواضع حقها فكتبت إليك أسألك رد تلك الكور الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فضول ردها مصروفة إلى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي إلينا علم ما نعني به من خبر طرفك، فكتبت تلط دون ذلك بما أن تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك، فاثن عن همك أثن عن مطالبتك، إن شاء الله.

فلما قرأ المأمون الكتاب كتب مجيبا له:

أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسال ما يوجبه حق فيلزمني الحجة بترك إجابته، وإنما يتجاوز المتناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها، فمتى تجاوز متجاوز- وهي موجودة الوسع- ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما في تركها، فلا تبعثني يا بن أبي علي مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك، وارض بما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام. ثم أحضر الرسل، فقال: إن أمير المؤمنين كتب في امر كتبت له في جوابه، فأبلغوه الكتاب، وأعلموه أني لا أزال على طاعته، حتى يضطرني "بترك الحق الواجب إلى مخالفته فذهبوا يقولون، فقال: قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم، وأحسنوا تأدية ما سمعتم، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما عسى ان تقولوه لنا فانصرف الرسل ولم يثبتوا لأنفسهم حجة، ولم يحملوا خبرا يؤدونه إلى صاحبهم، ورأوا جدا غير مشوب بهزل، في منع ما لهم من حقهم الواقع- بزعمهم. فلما وصل كتاب المأمون إلى محمد وصل منه ما فظع به، وتخمط غيظا بما تردد منه في سمعه، وأمر عند ذلك بما ذكرناه من الإمساك عن الدعاء له على المنابر، وكتب إليه: أما بعد، فقد بلغني كتابك غامطا لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها، متعرضا لحراق نار لا قبل لك بها، ولحظك عن الطاعة كان أودع لك، وإن كان قد تقدم مني متقدم، فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعا على العامة من رعيتك، وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزله السلامة، ويثبت لك من حال الهدنة، فأعلمني رأيك أعمل عليه إن شاء الله.

"[خلافة المعتصم]

وهو ثامنهم، وبويع للمعتصم أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بالخلافة، بعد موت المأمون، ولما بويع له، ونادوا باسم العباس بن المأمون، فأرسل المعتصم إلى العباس وأحضره، فبايعه العباس، ثم خرج إلى الجند فقال لهم قد بايعت عمي، فسكنوا، وانصرف المعتصم إلى بغداد، ومعه العباس بن المأمون، فقدمها مستهل شهر رمضان.

وفي هذه السنة توفي بشر بن غياث المريسي وكان يقول بخلق القرآن. ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين في هذه السنة أحضر المعتصم أحمد ابن حنبل، وامتحنه بالقرآن، فلم يجب إلى القول بخلقه، فجلده حتى غاب عقله، وتقطع جلده، وقيد وحبس. وفيها توفي أبو نعيم الفضل التيمي وهو من مشايخ البخاري ومسلم. وكان مولده سنة ثلاثين ومائة، وكان شيعياً. ثم دخلت سنة عشرين ومائتين في هذه السنة خرج المعتصم لبناء سامراء فخرج إلى القاطول، واستخلف على بغداد ابنه الواثق، وفيها قبض المعتصم على وزيره الفضل بن مروان، وكان قد استولى على الأمور، بحيث لم يبق للمعتصم معه أمر، وولى المعتصم مكانه محمد بن عبد الملك الزيات. وفي هذه السنة توفي محمد الجواد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو أحد الأئمة الاثني عشر، عند الإمامية، وصلى عليه الواثق، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، ودفن ببغداد عند جده مَوسى بن جعفر، ومحمد الجواد المذكور، هو تاسع الأئمة الاثني عشر، وقد تقدم ذكر أبيه علي الرضا، في سنة ثلاث ومائتين، وسنذكر الباقين إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين فيها توفي قاضي القيروان، أحمد ابن محرز، وكان من العلماء العاملين الزاهدين. وفيها توفي آدم بن أبي إياس العسقلاني، وهو من مشايخ البخاري في صحيحه.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين، ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين. فتح عمورية [وإمساك العباس بن المأمون وحبسه وموته.] في هذه السنة خرج ملك الروم نوفيل في جمع عظيم، فبلغ زبطرة وقتل وسبى ومثل بمن وقع في يده من المسلمين، ولما بلغ المعتصم ذلك، وأن امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم وامعتصماه، استعظمه ونهض من وقته، وجمع العساكر وسار لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين. وبلغه أن عمورية هي عين النصرانية وهي أشرف عندهم من قسطنطينية، وأنه لم يتعرض أحد إليها منذ كان الإسلام،

وتجهز المعتصم جهازاً لم يعهد قبله، مثله من السلاح وخيام الأدم، وغير ذلك، وسار المعتصم حتى نزل على نهر قريب من البحر، بينه وبين طرسوس يوم، وجعل عسكره ثلاث فرق،" "فرقة مع الإفشين خيذر ابن كاؤوس ميمنة، وفرقة مع أشناس ميسرة، وفرقة مع المعتصم في القلب، وبين كل فرقة وفرقة فرسخان، وأمرهم المعتصم بحريق القرى وتخريب بلاد الروم ففعلوا ذلك، حتى وصلوا إلى عمورية، فأول من قدمها أشناس، ثم المعتصم، ثم الإفشين، فأحدقوا بها، وكان نزوله عليها لست خلون من رمضان، من هذه السنة، وأقام عليها المنجنيقات، وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد يطول شرحه، وآخره أن المسلمين خربوا في السور مواضع بالمنجنيق، وهاجموا البلد وقتلوا أهله، ونهبوا الأموال والنساء، وأقبل الناس بالسبي والأسرى إلى المعتصم، من كل جهة، وأمر بعمورية فهدمت، وأحرقت، وكان مقامه على عمورية خمسة وخمسين يوماً، ثم ارتحل راجعاً إلى الثغور، فلما كان في أثناء الطريق، بلغ المعتصم أن العباس بن المأمون قد بايعه جماعة من القواد وهو يريد أن يثب عليه، ويأخذ الخلافة منه، فدعا المعتصم بالعباس بن المأمون، وأمسكه. وسلمه إلى الافشين خيذر، فلما وصل إلى منبج طلب العباس الطعام، فأكل ومُنع الماء حتى مات بمنبج، فصلى عليه بعض أخوته وأتم المعتصم سيره حتى دخل سامراء.

وفيها أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين، توفي ملك إفريقية زيادة الله إبراهيم بن الأغلب، وتولى بعده أخوه أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب. ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين في هذه السنة مات إبراهيم المهدي في رمضان، وصلى عليه المعتصم. وفيها مات أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام اللغوي، وكان عمره سبعاً وستين سنة. ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين في هذه السنة توفي أبو دلف وعلي بن محمد المدايني المشهور. ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين في هذه السنة غضب المعتصم على الإفشين خيذر بن كاؤوس، وحبسه حتى مات في حبسه، وأُخرج فصُلب، أُحرقت جثته، والإفشين هو الذي قاتل بابك المجوسي، الذي استولى على جبال طبرستان مدة عشرين سنة، وعظم أمره، وهزم عدة مرار عساكر المعتصم، حتى انتدب له المعتصم الإفشين المذكور، فجرى له معه قتال شديد، في مدة طويلة، انتصر الإفشين وأخذ مدينة بابك البذ، وأسر بابك، وأحضره إلى المعتصم، فقتله والإفشين خيذر المذكور بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها والذال المعجمة وفي آخرها راء مهملة.

وفي هذه السنة توفي الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله العلاف البصري شيخ المعتزلة وزاد عمره على مائة سنة. وفيها توفي أبو عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، وتولى بعده أخوه أبو العباس محمد بن إبراهيم بن الأغلب، فكانت ولاية الأغلب سنتين وتسعة أشهر. ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين. وفاة المعتصم وفيها توفي أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، لثماني عشرة مضت من ربيع الأول" "بسامراء، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين، وكان مولده سنة سبع وتسعين ومائة، وهو ثامن الخلفاء، والثامن من ولد العباس، ومات عن ثمانية بنين، وثمان بنات، وكان أبيض، أصهب اللحية طويلها، مربوعاً مشرب اللون بحمرة، وهو أول من أضيف إلى لقبه اسم الله تعالى من الخلفاء، وكان المعتصم بالله، طيب الأخلاق، لكنه إذا غضب لا يبالي من قتل، وما فعل، وقد حكي أن المعتصم انفرد عن أصحابه في يوم مطر، فبينما هو يسير إذ رأى شيخاً مع حمار عليه حمل شوك، وقد توحل الحمار ووقع الحمل، وهو ينتظر من يمر عليه ويساعده على ذلك، فنزل المعتصم بالله عن دابته، وخلص الحمار، ورفع معه الحمل عليه، ثم لحقه أصحابه، فأمر لصاحب الحمار بأربعة آلاف درهم، وقال ابن أبي داود: تصدق المعتصم ووهب على يدي مائة ألف ألف درهم.

[خلافة ابنه الواثق]

وهو تاسعهم، وبويع الواثق بالله هارون بن المعتصم في اليوم الذي توفي أبوه، وذلك يوم الخميس لثماني عشرة مضت من ربيع الأول، في هذه السنة أعني سنة تسع وعشرين ومائتين، وأم الواثق أم ولد رومية تسمى قراطيس. وفي هذه السنة هلك نوفيل ملك الروم، وملك بعده امرأته بدورة، وابنها ميخائيل بن نوفيل. الفتنة بدمشق لما مات المعتصم، ثارت القيسية بدمشق، وعاثوا وأفسدوا، وحصروا أميرهم بدمشق. فبعث إليهم الواثق عسكراً مع رجاء بن أيوب فقاتلهم، وكانوا قد اجتمعوا بمرج راهط فقتل من القيسة نحو ألف وخمس مائة، وانهزم الباقي، وصلح أمر دمشق. وفي هذه السنة توفي بشر بن الحارث الزاهد، المعروف بالحافي في ربيع الأول. ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين في هذه السنة فتح المسلمون عدة أماكن من جزيرة صقلية، وكان الأمير على صقلية محمد بن عبد الله بن الأغلب، وكان مقيماً في صقلية، بمدينة بلرم، لم يخرج منها، لكن يجهز الجيوش والسرايا

فيفتح ويغنم، وكانت إمارته على صقلية تسع عشرة سنة، وتوفي في سنة سبع وثلاثين ومائتين في رجب على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. وفي هذه السنة مات أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر، وفيها أعطى الواثق أشناس، تاجاً ووشاحين. ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين في هذه السنة حبس الواثق الكتّاب، وألزمهم أموالاً عظيمة، وفيها توفي خلف بن هشام البزار المقرئ البزار، بالزاي المنقوطة والراء المهملة. ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين في هذه السنة مات عبد الله بن طاهر بنيسابور وهو أمير خراسان وعمره ثمان وأربعون سنة، واستعمل "الواثق موضعه ابنه طاهر بن عبد الله. وفي هذه السنة خرجت المجوس في أقاصي بلاد الأندلس، في البحر، إلى بلاد المسلمين، وجرى بينهم وبين المسلمين بالأندلس عدة وقائع، انهزم فيها المسلمون، وساروا يقتلون المسلمين، حتى دخلوا حاضر إشبيلية، ووافاهم عسكر عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس، ثم اجتمع عليهم المسلمون من كل جهة، فهزموا المجوس، وأخذوا لهم أربعة مراكب، بما فيها، وهربت المجوس في مراكبهم إلى بلادهم. وفي هذه السنة مات أشناس التركي بعد عبد الله بن طاهر بتسعة أيام. ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين، فيها مات مخارق المغني وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي الفقيه، صاحب الشافعي، وكان قد حبس في محنة الناس بالقرآن المجيد، فلم يجب إلى القول بأنه مخلوق، وكان البويطي من الصالحين، وهو منسوب إلى بويط، قرية من قرى مصر. وفيها توفي محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي الكوفي، صاحب اللغة، وكان أبوه زياد عبداً سندياً أخذ الأدب عن المفضل الضبي صاحب المفضليات، ولابن الأعرابي المذكور عدة مصنفات منها: كتاب النوادر وكتاب الأنواء وكتاب تاريخ القبائل وغير ذلك، وولد في الليلة التي توفي فيها أبو حنيفة، سنة خمسين ومائة، والأعرابي منسوب إلى الأعراب، يقال رجل أعرابي إذا كان بدوياً، وإن لم يكن من العرب، ورجل عربي منسوب إلى العرب، وإن لم يكن بدوياً، ويقال رجل أعجم وأعجمي إذا كان في لسانه عجمة، وإن كان من العرب، ورجل عجمي منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً، هكذا ذكر محمد بن عزيز السجستاني، في كتابه الذي فسر فيه غريب القرآن. ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين موت الواثق بالله وتوفي الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله، في هذه السنة، لست بقين من ذي الحجة بالاستسقاء وعولج بالإقعاد في تنور مسخن، ووجد عليه خفة، فعاوده وشدد سخونته، وقعد فيه أكثر من اليوم الأول، فحمي عليه، وأخرج منه في محفة، فمات فيها، ودفن بالهاروني، ولما اشتد مرض الواثق، أحضر المنجمين، فنظروا في مولده، فقدروا له أنه يعيش خمسين

سنة مستأنفة، من ذلك اليوم، فلم يعش بعد قولهم إلا عشرة أيام، وكان أبيض مشرّباً حمرة، في عينه اليسرى نكتة بياض، وكانت خلافته، خمس سنين وتسعة أشهر وكسراً، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وكان الواثق يبالغ في إكرام العلويين والإحسان إليهم، وفرق في الحرمين أموالا عظيمة، حتى أنه لم يبق بالحرمين في أيام الواثق سائل، ولما بلغ أهل المدينة موته، كانت تخرج نساؤهم إلى البقيع كل ليلة، ويندبن الواثق، لفرط إحسانه إليهم، وسلك الواثق مذهب أبيه المعتصم، وعمه المأمون في امتحان الناس بالقرآن المجيد، وألزمهم القول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى في الآخرة بالأبصار.

"[خلافة المتوكل جعفر بن المعتصم]

هو عاشرهم، ولما مات الواثق، عزم كبراء الدولة على البيعة لمحمد بن الواثق، فألبسوه قلنسوة ودرّاعة سوداء وهو غلام أمرد قصير، فلم يروا ذلك مصلحة، فتناظروا فيمن يولونه، وذكروا عدة من بني العباس، ثم أحضروا المتوكل، فقام أحمد بن أبي داود وألبسه الطويلة، وعممه، وقبل بين عينيه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فبويع بالخلافة في يوم مات الواثق فيه، لست بقين من ذي الحجة، سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وكان عمر المتوكل لما بويع ستاً وعشرين سنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. القبض على ابن الزيات في صفر من هذه السنة، قبض المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات، وحبسه وأخذ جميع أمواله، وعذبه بالسهر، ثم حطه في تنور خشب، فيه مسامير حديد، أطرافها إلى داخل التنور، يمتنع من يكون فيه من الحركة، ولا يقدر على الجلوس، فبقي كذلك محمد بن الزيات أياماً، ومات لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول من هذه السنة، وكان ابن الزيات هو الذي عمل هذا التنور، وعذب به ابن أسباط المضري وأخذ أمواله، وكان ابن الزيات صديق إبراهيم الصولي، فلما ولي ابن الزيات الوزارة صادره بألف ألف درهم، فقال الصولي:

وكنت أذم إليك الزمان ... فأصبحت منك أذم الزمانا

وكنت أعدك للنائبات ... فها أنا أطلب منك الأمانا

وفي هذه السنة ولى المتوكل ابنه المنتصر الحرمين واليمن والطائف، وفيها توفي أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام المري البغدادي المشهور، وكان إماماً حافظاً، قيل إنه من قرية نحو الأنبار تسمى نقيا، وهو صاحب الجرح والتعديل، وكان الإمام أحمد بن حنبل شديد الصحبة له،

وكانا مشتركين في الاشتغال بعلوم الحديث، وذكر الدارقطني يحيي بن معين المذكور في جملة من روى عن الإمام الشافعي. وولد يحيي بن معين المذكور في سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي في هذه السنة أعني سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، في ذي القعدة، وقيل ذي الحجة رحمه الله تعالى. ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين فيها توفي محمد بن مبشر، أحد المعتزلة البغداديين، وأبو جيثمة زهر المحدث، وعلي بن عبد الله بن جعفر المعروف بابن المديني الحافظ، وهو إمام ثقة. ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين في هذه السنة، ظهر بسامراء رجل يقال له: محمود بن فرج، وادعى النبوة، وزعم أنه ذو القرنين، وتبعه سبعة وعشرون رجلاً، فأُتي به وبأصحابه إلى المتوكل، فأمر أصحابه فصفعه كل واحد عشر صفعات، وضرب حتى مات من الضرب، وحبس أصحابه. "وفي هذه السنة مات الحسن بن سهل وعمره تسعون سنة، وكان قد شرب دواء فأفرط عليه القيام حتى مات، وفيها مات إسحاق بن إبراهيم الموصلي، صاحب الألحان والغناء. وفيها مات سريج بن يونس بن سريج بالسين المهملة، وفيها وقيل في السنة التي تليها، توفي عبد السلام بن رغبان - بالغين المنقوطة - الشاعر المشهور المعروف بديك الجن، وكان يتشيع، وعاش بضعاً وسبعين سنة، ومن جيد شعره أبياته التي من جملتها:

وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغر ... ولا تسق إلا خمرها وعقارها مشعشة من كف ظبي كأنما ... تناولها من خده وأدارها ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين في هذه السنة أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه، وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب، ولأهل بيته، وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة، ويكشفَ رأسه، وهو أصلع، ويرقص ويقول: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين، يعني علياً، والمتوكل يشرب ويضحك، وفعل كذلك يوماً بحضرة المنتصر، فقال: يا أمير المؤمنين، إن علياً ابن عمك، فكل أنت لحمه إذا شئت، ولا تخلي مثل هذا الكلب وأمثاله يطمع فيه، فقال المتوكل للمغنين غنوا: غارا الفتى لابن عمه ... رأس الفتى في حرامه وكان يجالس من اشتهر ببغض علي، مثل ابن الجهم الشاعر، وأبي السمط من ولد مروان بن أبي حفصة، من موالي بني أمية وغيرهما، فغطى ذمه لعلي على حسناته، وإلا فكان من أحسن الخلفاء سيرة، ومنع الناس عن القول بخلق القرآن. وفي هذه السنة توفي منصور بن المهدي. ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

ومائتين في هذه السنة مات محمد بن عبد الله أمير صقلية، وتولى موضعه على جزيرة صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة، وفتح فيها الفتوحات الجليلة، وفتح قصر يانه، وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، وكان الملك قبلها يسكن مرقوسه، فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة، انتقل الملك إلى قصر يانه. لحصانتها، ففتحها العباس في هذه السنة، يوم الخميس منتصف شوال، وبنى فيها مسجداً في الحال، ونصب فيه منبراً وخطب وصلى فيه الجمعة. وفيها توفي حاتم الأصم الزاهد المشهور البلخي، ولم يكن أصم؛ وإنما سمي به لأن امرأة جاءت تسأله عن مسألة نخرج منها صوت نخجلت، فأوهمها أنّه أصم، وقال: ارفعي صوتك، فسرّت المرأة ظناً منها أنه لم يسمع حبقتها، فغلب عليه هذا الاسم. ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين في هذه السنة توفي عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي، صاحب الأندلس، في ربيع الآخر، وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة، وولايته إحدى وثلاثين "سنة وثلاثة أشهر، وكان أسمر طويلاً عظيم اللحية، يخضب بالحناء، وخلف خمسة وأربعين ابناً، ولما مات ملك بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين فيها توفي محمود بن غيلان المروزي، وهو من مشايخ البخاري ومسلم. ثم دخلت سنة أربعين ومائتين في هذه السنة مات ابن الإمام الشافعي، واسمه محمد، وكنيته أبو عثمان، وكان قاضي الجزيرة، وروى عن أبيه وعن ابن عينية، وكان للشافعي ولد آخر اسمه محمد أيضاً، مات بمصر سنة إحدى وثلاثين ومائتين. وفيها توفي أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي، الفقيه البغدادي، صاحب الإمام الشافعي، وناقل أقواله القديمة عنه، وكان على مذهب أهل الرأي، حتى قدم الشافعي إلى العراق، فاختلف إليه واتبعه، ورفض مذهبه الأول. ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين في هذه السنة توفي الإمام أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس، ينسب إلى معد بن عدنان، وكان وفاته في ربيع الأول وروى عنه مسلم، والبخاري، وأبو داود، وإبراهيم الحرثي، وكان مجتهداً ورعاً زاهداً صدوقاً، قال الشافعي: خرجت من بغداد، وما خلفت بها أحداً أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل. ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين فيها مات أبو العباس محمد بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وولي بعده ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد المذكور. وفيها توفي القاضي يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن من ولد أكثم بن صيفي التيمي، حكم العرب، وكان يحيى المذكور عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام، وهو من أصحاب الشافعي، وكان إماماً في عدة فنون،

وكان ذميم الخلق، وابن أكثم المذكور، هو الذي رد المأمون عن القول بتحليل المتعة. فقال ابن أكثم لبعض الفضلاء الذي كانوا يعاشرون المأمون، ومنهم أبو العيناء: بكروا غداً إليه، فإن وجدتم للقول وجهاً فقولوا، وإلا فاسكتوا، حتى أدخل. قال أبو العيناء: فدخلنا على المأمون وهو يسأل ويقول وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأنا أنهي عنهما، ومن أنت يا جعل حتى تنهي عما فعله رسول الله، فأوجم أولئك، حتى دخل يحيى بن أكثم فقال له المأمون: أراك متغيراً، فقال يحيى: هو غم لما حدث من النداء بتحليل الزنا يا أمير المؤمنين. فقال المأمون: الزنا. فقال: نعم. المتعة زنا. قال: ومن أين قلت هذا. قال: من كتاب الله وحديث رسوله. قال الله تعالى: " قد أفلح المؤمنون إلى قوله والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون " " المؤمنون: ٥ " يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: فهي الزوجة ترث وتورث؟ قال: لا. قال: وهذا الزهري روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب قال " أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة "وتحريمها، بعد أن كان أمر بها " فقال المأمون: أمحفوظ هذا عن الزهري؟ قال: نعم. رواه عنه جماعة، منهم مالك رضي الله عنه، فقال: المأمون: أستغفر الله، فبادروا بتحريم المتعة، والنهي عنها، ولم يكن في يحيى بن أكثم ما يعاب به سوى ما يتهم به من محبة الصبيان، "ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين في هذه السنة سار المتوكل إلى دمشق في ذي القعدة. وفيها مات إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي وفيها توفي الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد، وكان قد هجره أحمد بن حنبل لأجل علم الكلام، فاختفى لتعصب العامة لأحمد، فلم يصل عليه غير أربعة أنفس.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين في هذه السنة وصل المتوكل إلى دمشق ودخلها في صفر، وعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، فقال يزيد ابن محمد المهلبي. أظن الشام يشمت بالعراق ... إذا عزم الإمام على انطلاق فإن تدع العراقَ وساكنيهِ ... فقد تبكي.المليحةُ بالطلاقِ ثم استوبأ المتوكل دمشق، واستثقل ماءها، فرجع إلى سامراء وكان مقامه بدمشق شهرين وأياماً، وفيها غضب المتوكل على بختيشوع الطبيب، وقبض ماله ونفاه إلى البحرين. وفيها قتل المتوكل أبا يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت، صاحب كتاب إصلاح المنطق في اللغة وغيره وكان إماماً اللغة والأدب، قتله المتوكل لأنه قال له أيّما أحب إليك: ابناي المعتز والمؤيد، أم الحسن

والحسين، فغض ابن السكّيت عن ابنيه، وذكر عن الحسن "والحسين ما هما أهله، فأمر مماليكه فداسوا بطَنه، فحمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم. وقيل إن المتوكل لما سأل ابن السكيت عن ولديه، وعن الحسن والحسين، قال له ابن السكيت: والله إن قنبراً خادم علي خير منك ومن ولديك. فقال المتوكل سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا به ذلك، فمات لساعته، في رجب في هذه السنة المذكورة، وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة والسكيت بكسر السين المهملة وتشديد الكاف فعيل، اسم لكثير السكوت والصمت. ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين في هذه السنة توفي ذو النون المصري، في ذي القعدة، وأبو علي الحسين بن علي، المعروف بالكرابيسي، صاحب الشافعي. ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين فيها تحول المتوكل إلى الجعفري، وكان قد ابتدئ في عمارته سنة خمس وأربعين ومائتين، وأنفق عليه أموالاً تجل عن الحصر، وكان يقال لموضعه الماحورة وفيها توفي دعبل بن علي الخزاعي الشاعر، وكان مولده سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان يتشيع. ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين. مقتل المتوكل في هذه السنة قتل المتوكل جماعة بالليل بالسيوف، وقت خلوته، باتفاق من ابنه المنتصر، وبغا الصغير الشرابي، وقتل في مجلس شرابه، وقتل معه وزيره الفتح ابن خاقان، وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال، وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وعمره نحو أربعين سنة، وكان أسمر خفيف العارضين. بيعة المنتصر وهو حادي عشرهم، لما أصبح نهار الأربعاء صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل حضر الناس والقواد والعساكر إلى الجعفري، فخرج أحمد بن الخصيب إلى الناس، وقر عليهم كتاباً من المنتصر، أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتلته به، فبايع الناس المنتصر، صبيحة الليلة، التي قتل فيها المتوكل. وفي هذه السنة توفي العباس أمير صقلية، فولى الناس عليهم ابنه عبد الله ابن عباس، ثم ورد من إفريقية خفاجة بن سفيان أميراً على صقلية، فغزا وفتح في جزيرة صقلية، ثم اغتاله رجل من عسكره، فقتله وهرب القاتل إلى المشركين، ولما قتل خفاجة استعمل الناس ابنه محمد بن خفاجة، ثم أقره على ولايته محمد بن أحمد بن الأغلب صاحب القيروان، وبقي محمد بن خفاجة أميراً على صقلية إلى سنة سبع وخمسين ومائتين، فقتله خدمه الخصيان وهربوا، فأدركهم الناس وقتلوهم، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. وفي هذه السنة توفي أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي الإمام في العربية.

ثم دخلت" "سنة ثمان وأربعين ومائتين. موت المنتصر في هذه السنة توفي المنتصر بالله، محمد بن جعفر المتوكل، يوم الأحد بسامراء لخمس خلون من ربيع الأول، بالذبحة، وكانت مدة علته ثلاثة أيام وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر، وكانت خلافته ستة أشهر ويومين، وكان أعين، أقنى، قصيراً، سهيباً، عظيم اللحية، راجح العقل، كثير الإنصاف، وأمر الناس بزيارة قبر الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأمن العلويين، وكانوا خائفين أيام أبيه.

خلافة المستعين

أحمد بن محمد المعتصم وهو ثاني عشرهم، ولما توفي المنتصر، اتفق كبراء الدولة مثل بغا الكبير، وبغا الصغير، وأتامش الأتراك، ومحمد بن الخصيب، على تولية المستعين وكرهوا أن يقيموا بعض ولد المتوكل، لكونهم قتلوا المتوكل، فبايعوا المستعين ليلة الاثنين، لست خلون من ربيع الآخر، وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ويكنى أبا العباس. وفيها ورد على المستعين الخبر بوفاة طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عبد الله أمير خراسان، في رجب، فعقد المستعين لولده محمد بن طاهر على خراسان. وفيها مات بغا الكبير. فجعل المستعين ابنه موسى بن بغا مكانه. وفي هذه السنة شغب أهل حمص على كيدر عاملهم، فأخرجوه عنهم. وفي هذه السنة تحرك يعقوب ابن الليث الصفار من سجستان، نحو هراة. وفيها توفي محمد ابن العلا الهمداني، وكان من مشايخ البخاري ومسلم. ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائتين في هذه السنة كان بين المسلمين والروم وقعة بمرج الأسقف. قتل فيها مقدم العسكر، وهو عمر بن عبد الله الأقطع، وكان من شجعان المسلمين وانهزمت المسلمون وقتل منهم جماعة، وخرجت الروم، فأغاروا إلى الثغور الجزرية. وفي هذه السنة شغبت الجند، الشاكرية والعامة، ببغداد، على الأتراك، بسبب استيلائهم على أمور المسلمين، يقتلون من شاءوا من الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير ديانة، ولا نظر للمسلمين، ثم وقعت في سامراء فتنة من العام وفتحوا السجون وأطلقوا ما فيها، ثم ركبت الأتراك وقتلوا من العامة جماعة وسكنت الفتنة. وفي هذه السنة ثارت الموالي بأتامش، فقتلته، ونهبوا من داره أموالاً جمة، لأن المستعين كان قد أطلق يد أتامش، ويد والدته، أعني والدة المستعين، ويد شاهك الخادم، في بيوت الأموال، فكانوا يأخذون الأموال من دون غيرهم، فقتل أتامش بسبب استيلائه على الأموال. وفي هذه السنة توفي علي بن الجهم الشاعر. وفي هذه السنة توفي أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية، ولما مات ولي

موضعه أخوه زيادة الله بن محمد، وكنية زيادة الله المذكور أبو محمد. ثم دخلت سنة خمسين ومائتين في هذه السنة ظهر يحيي عمر بن يحيي "بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويكنى أبا الحسين، بالكوفة، وكثر جمعه، واستولى على الكوفة، ثم جهز إليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشاً، فخرج إليهم يحيي بجمعة، فقتل يحيي وانهزم أصحابه، وقتل منهم جماعة وحمل رأسه إلى المستعين، ثم في هذه السنة ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بطبرستان، وكثر جمعه واستقل بملك طبرستان، ويسمى بالداعي إلى الحق، وبقي مستولياً حتى قتل في سنة سبع وثمانين ومائتين، وقام بعده الناصر الحسن بن علي. وفي هذه السنة وثب أهل حمص على عاملهم، وهو الفضل بن قارن أخو مازيار فقتلوه، فأرسل المستعين إليهم موسى بن بغا الكبير، فحاربوه بين حمص والرستن، فهزمهم وافتتح حمص، فقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وأحرقها. وفي هذه السنة توفي زيادة الله بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وكانت ولايته سنة وستة أشهر، وملك بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المذكور وفيها مات الخليع الشاعر، واسمه الحسين بن الضحاك، وأشعاره وأخباره مشهورة، وكان مولده سنة اثنتين وستين ومائة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين في هذه السنة اتفق بغا الصغير ووصيف، وقتلا باغر التركي، فشغبت الترك، وحصروا المستعين وبغا الصغير ووصيفاً في القصر، بسامراء فهرب المستعين وبغا ووصيف في حرّاقه، وانحدروا إلى بغداد، واستقر بها المستعين.

البيعة للمعتز بالله

في هذه السنة بعد مسير المستعين إلى بغداد من سامراء، كما ذكرنا، خافه الأتراك فأخرجوا المعتز بالله بن المتوكل، وكان في الحبس، وبايعوه، واستولى على الأموال التي كانت في سامراء للمستعين، ولأمه، وأنفق في الجند، ثم عقد المعتز لأخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل، وهو الموافق لسبع بقين من المحرم، وجهزه مع خمسين ألفاً من الترك، إلى حرب المستعين، وتحصن المستعين ببغداد، وبقي المعتز بسامراء والمستعين ببغداد، وجرى بين الفريقين قتال كثير، ثم اتفق كبراء الدولة ببغداد، على خلع المستعين، وألزموه بذلك، وفي هذه السنة مات السري السقطي الزاهد. ثم دخلت سنة اثنتين

وخمسين ومائتين. خلع المستعين وولاية المعتز وهو ثالث عشرهم، ولما جرى من أمر المعتز والمستعين ما ذكرناه، خلع المستعين أحمد بن محمد المعتصم نفسه من الخلافة، وبايع المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم، وخطب للمعتز ببغداد يوم الجمعة، رابع المحرم من هذه السنة، وأخذت له البيعة على جميع من ببغداد، ثم نقل المستعين من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل بعياله وأهله، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم، فطلب المستعين أن يكون مقامه بمكة، فمنع من التوجه إلى مكة، فاختار "المقام بالبصرة، فوكل به جماعة، وانحدر إلى واسط، ثم أمر المعتز بقتل المستعين، وكتب إلى أحمد بن طولون بقتل المستعين، فامتنع أحمد بن طولون عن قتله، وسار أحمد بن طولون بالمستعين إلى القاطول وسلمه إلى الحاجب سعيد بن صالح، فضربه سعيد حتى مات، وحمل رأسه إلى المعتز. فأمر بدفنه، وكانت مدة خلافة المستعين إلى أن خلع ثلاث سنين وتسعة أشهر وكسراً، وكان عمره أربعاً وثلاثين سنة. وفي هذه السنة عقد لعيسى بن الشيخ علي الرملة، فأنفذ له نائبا عليها يسمى أبا المعتز، وهذا عيسى شيباني وهو عيسى بن الشيخ بن السليك من ولد جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان، فلما كان من فتنة الأتراك ما كان بالعراق، تغلب ابن الشيخ المذكور على دمشق وأعمالها، وقطع ما كان يحمل من الشام إلى الخليفة، واستبد بالأموال. وفيها توفي محمد بن بشار، ومحمد بن المثنى الزمن البصريان وهما من مشايخ البخاري ومسلم في الصحيح. ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين في هذه السنة شغبت الجند بسبب طلب رزق أربعة أشهر، فلم يجبهم وصيف إلى ذلك، فوثبوا على وصيف وقتلوه، فجعل المعتز كل ما كان إلى وصيف إلى بغا الشرابي. وفي هذه السنة مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين. وفي هذه السنة ملك يعقوب الصفّار هراة وبوشنج، وعظم أمره، وهابه أمير خراسان وغيره. ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائتين. في هذه السنة قتل بغا الشرابي الصغير، تحت الليل، وكان بغا قد خرج من بين أصحابه وجنده، ومعه خادمان له، وقصد الركوب في زورق، فأعلم المتوكلون بالجسر المعتز بخبره، فأمرهم بقتله، فقتلوه وحملوا رأسه إلى المعتز. وفي هذه السنة في جمادى الآخرة، توفي علي الهادي؛ وعلي التقي وهو أحد الأئمة الإثني عشر عند الإمامية، وهو علي الزكي بن محمد الجواد المقدم ذكره في سنة عشرين ومائتين، وكان علي المذكور قد سعى به إلى المتوكل، أن عنده كتباً وسلاحاً، فأرسل المتوكل جماعة من الأتراك، وهجموا عليه ليلاً على غفلة، فوجدوه في بيت مغلق، وعليه مدرعة من شعر، وهو مستقبل القبلة يترنم بآيات من القرآن، في الوعد والوعيد، ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرمل، والحصا، فحمل على هيئته إلى

المتوكل، والمتوكل يستعمل الشراب، وفي يده الكأس، فلما رآه المتوكل أعظمه، وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس، فقال: يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني منه، فأعفاه، وقال: أنشدني شعراً. فقال: إني لقليل الرواية للشعر. فقال المتوكل: لا بد من ذلك. فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلبَ الرّجالُ فما أغنتهُمُ القلَلُ
واستُزلوا بعد عزٍ عَنْ معاقلِهِم ... فأُودَعوا حُفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهُمُ صارخٌ من بعدما قَبروا ... أين الأسرة والتيجانُ والحلل
أين الوجوهُ التي كانت مُنعَّمة ... منْ دونها تُضرب الأستار والكللُ" "فأفصحَ القبرُ عنهمْ حين ساءلهم ... تلكَ الوجوهُ عليها الدود يقتتَلُ قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طولِ الأكل قد أكلوا

فبكى المتوكل، ثم أمر برفع الشراب وقال: يا أبا الحسن، أعليك دين؟ قال: نعم، أربعة آلاف دينار، فدفعها إليه ورده إلى منزله مكرماً، وكانت ولادة علي المذكور، في رجب سنة أربع عشرة ومائتين، وقيل ثلاث عشرة، وتوفي لخمس بقين من جمادى الآخرة، من هذه السنة، أعني سنة أربع وخمسين ومائتين، بسرمن رأى، ويقال لعلي المذكور، العسكري لسكناه بسرمن رأى يقال لها العسكري، لسكنى العسكر بها، وعلي المذكور عاشر الأئمة الاثني عشر، وهو والد الحسن العسكري، والحسن العسكري هو حادي عشر الأئمة الاثني عشر، وهو الحسن بن علي الزكي المذكور بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، المقدم ذكرهم، رضي الله عنهم أجمعين. وكانت ولادة الحسن العسكري المذكور، في سنة ثلاثين ومائتين، وتوفي في سنة ستين ومائتين في ربيع الأول، وقيل في جمادى الأولى، بسرمن رأى، ودفن إلى جانب أبيه علي الزكي المذكور، والحسن العسكري المذكور، هو والد محمد المنتظر، صاحب السرداب، ومحمد المنتظر المذكور هو ثاني عشر الأئمة الاثني عشر، على رأى الإمامية، ويقال له القائم، والمهدي، والحجة. وولد المنتظر المذكور، في سنة خمس وخمسين ومائتين، والشيعة يقولون: دخل السرداب في دار أبيه، بسرمن رأى، وأمه تنظر إليه، فلم يعد يخرج إليها، وكان عمره حينئذ تسع سنين، وذلك في سنة خمس وستين ومائتين، وفيه خلاف. وفيها توفي أحمد بن الرشيد، وهو عم

الواثق. وفي هذه السنة ولي أحمد بن طولون على مصر. ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين في هذه السنة استولى يعقوب بن الليث الصفّار على كرمان، ثم استولى بالسيف على فارس، ودخل يعقوب الصفار إلى شيراز، ونادى بالأمان وكتب إلى الخليفة بطاعته، وأهدى له هدية جليلة، منها عشرة بازات بيض، ومائة مَن من المسك. خلع المعتز وموته وفي هذه السنة، في يوم الأربعاء لثلاث بقين من رجب، خلع المعتز بن جعفر، المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، واختلف في اسم المعتز، فقيل محمد، وقيل الزبير، ويكنى أبا عبد الله، وقيل كنيته غير ذلك، ومولده، بسرمن رأى، في ربيع الآخر، سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وأمه أم ولد، تدعى قبيحة، ولليلتين خلتا من شعبان ظهر موته، وكان سبب ذلك: أن الأتراك طلبوا أرزاقهم، فلم يكن عند المعتز مال يعطيهم، فنزلوا معه إلى خمسين ألف دينار فأرسل المعتز وسأل أمه قبيحة في ذلك، فقالت: ما عندي شيء. فاتفق الأتراك والمغاربة والفراعنة "على خلع المعتز، فصاروا إلى بابه، فقالوا: اخرج إلينا، فقال: قد شربت أمس دواء، وقد أفرط في العمل، فإن كان لا بد من الاجتماع، فليدخل بعضكم إليّ، فدخل إليه جماعة منهم، فجروا المعتز برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر، وبقي بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبي الشوارب القاضي وجماعة، فأشهدوهم على خلعه، ثم سلموا المعتز إلى من يعذبه، ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام، ثم أدخلوه سرداباً، وجصصوه عليه، فمات ودفنوه بسامراء مع المنتصر. وكانت خلافته من لدن بويع بسامراء، إلى أن خلع، أربع سنين وسبعة أشهر إلا سبعة أيام، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة، وثلاثة وعشرين يوماً، وكان أبيض، أسود الشعر.

[خلافة المهتدي]

وهو رابع عشرهم، وفي يوم الأربعاء لثلاث بقين من رجب، من هذه السنة، بويع لمحمد بن الواثق بالخلافة، ولقب المهتدي بالله، وكنيته أبو عبد الله، وأمه روميّة اسمها قرب. وفي هذه السنة في رمضان، ظهرت قبيحة أم المعتز، وكانت قد اختفت لما قتل ابنها، وكان لقبيحة أموال عظيمة ببغداد، وكان لها مطمور تحت الأرض ألف ألف دينار، ووجد لها في سفط قدر مكوك زمرد، وفي سفط آخر مقدار مكوك لؤلؤ، وفي سفط مقدار كيلجة ياقوت أحمر، لا يوجد مثله. ونبش ذلك كله، وحمل جميعه إلى صالح بن وصيف، فقال صالح: قبح الله قبيحة، عرضت ابنها للقتل، لأجل خمسين

ألف دينار، وعندها هذه الأموال كلها، وكان المتوكل قد سماها قبيحة، لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافور. ثم سارت قبيحة إلى مكة، فكانت تدعو بصوت عال على صالح بن وصيف وتقول: هتك ستري، وقتل ولدي، وأخذ مالي، وغربني عن بلدي، وركب الفاحشة مني. ظهور صاحب الزنج في هذه السنة كان أول خروج صاحب الزنج، وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس، فجمع إليه الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ، في جهة البصرة، وادعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ولما صار له جَمْع عبر دجلة ونزل الديناري، وكان صاحب الزنج المذكور قبل ذلك، متصلاً لحاشية المنتصر في سامراء، يمدحهم ويستمنحهم بشعره، ثم إنه شخص من سامراء سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادعى نسبته في العلويين، كما ذكر وأقام في الإحساء، ثم صار إلى البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين. وخرج في هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين ومائتين، واستفحل أمره، وبث أصحابه يميناً وشمالاً للإغارة والنهب. وفي هذه السنة توفي خفاجة "بن سفيان أمير صقلية، وولى بعده ابنه محمد، وفيها توفي محمد بن كرام صاحب المقالة في التشبيه، وكان موته بالشام، وهو من سجستان، وفيها توفي عبد الله بن عبد الرحمن الداراني صاحب المسند، توفي في ذي الحجة، وعمره خمس وسبعون سنة. وفيها توفي أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، صاحب التصانيف المشهورة، وكان كثير الهزل، نادر النادرة، خالط الخلفاء ونادمهم، أخذ العلم عن النظام المتكلم، وكان الجاحظ قد تعلق بأسباب ابن الزيات، فلما قتل ابن الزيات، قيد الجاحظ وسجن، ثم أُطلق. قال الجاحظ: ذُكرت للمتوكل لتعليم ولده، فلما مثلت بين يديه بسامراء، استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني. وصنف الجاحظ كتباً كثيرة منها: كتاب البيان والتبيين، جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وكتاب الحيوان، وكتاب الغلمان، وكتاب في الفرق الإسلامية، وكان جاحظ العينين كاسمه، قال المبرد: دخلت على الجاحظ في مرضه فقلت: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج؟ لو نشر ما أحس به ونصفه الآخر منقرسٌ، لو طار الذباب به آلمه، وقد جاوز التسعين، ثم أنشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشبابِ

لقد كذبتكَ نفسكَ ليسَ ثوبٌ ... دريسٌ كالجديد من الثيابِ

وقد روي أن موته كان بوقوع مجلدات عليه، وكان من عادته أن يصفها قائمة كالحائط، محيطة به، وهو جالس إليها، وكان عليلاً فسقطت عليه فقتلته، في محرم هذه السنة. ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين في هذه السنة، جمع موسى بن بغا أصحابه لقتل صالح بن وصيف، فهرب صالح واختفى، ثم ظفر به موسى فقتله. خلع المهتدي وموته في هذه السنة، في منتصف رجب، خُلع محمد المهتدي بن هارون الواثق بن المعتصم، وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه، وكان سببه أنه قصد قتل موسى بن بغا، وكان موسى المذكور معسكراً قبالة بعض الخوارج، وكتب بذلك إلى بابكيال، - كان من مقدمي الترك - أن يقتل موسى بن بغا، ويصير موضعه، فأطلعَ بابكيال موسى على ذلك، فاتفقا على قتل المهتدي، وسارا إلى سامراء، ودخل بابكيال إلى المهتدي، فحبسه المهتدي وقتله، وركب لقتال موسى، ففارقت الأتراك الذي كانوا مع المهتدي عسكر المهتدي، وصاروا مع أصحابهم الأتراك مع موسى، فضعف المهتدي وهرب، ودخل بعض الدور، فأُمسك وداسوا خصيتيه، ليصفعوه، فمات، ودفن بمقبرة المنتصر. وكانت خلافة المهتدي أحد عشر شهراً ونصفاً، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة، وكان المهتدي أسمر عظيم البطن، قصيراً طويل اللحية، ومولده بالقاطول وكان ورعاً كثير العبادة، قصد أن يكون في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية. "

[خلافة المعتمد على الله]

وهو خامس عشرهم، لما خلع المهتدي وقُتل، أخرج كبراء الدولة، أبا العباس أحمد بن المتوكل من الحبس، وبايعه الناس بالخلافة، ولقب المعتمد على الله، واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

وفي هذه السنة ملك صاحب الزنج الأبله عنوة. وقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأحرقها، وكانت مبنية بالساج، فأسرعت النار فيها، ثم استولى على عبادان بالأمان ثم استولى على الأهواز بالسيف، وفيها عزل عيسى بن الشيخ عن الشام، وكان قد استولى عليه، وقطع الحمل عن بغداد، كما ذكرنا، فعقد لعيسى على أرمينية، وولى أماجور الشام، فسار واستولى عليه، بعد أن جرى بينه وبين أصحاب عيسى قتال شديد، انتصر فيه أماجور واستقر أميراً بالشام.

وفي هذه السنة توفي الإمام محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي صاحب المسند الصحيح، الذي هو الدرجة العالية في الصحة، المتفق على تفضيله والأخذ منه، والعمل به، ورحل في طلب الحديث إلى الأمصار، وكان مولده سنة أربع وتسعين ومائة لثلاث عشرة خلت من شوال. قال البخاري: أُلهِمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب، ابن عشر سنين، فلما بلغت ثماني عشرة سنة صنفت قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنفت كتاب التاريخ، إذ ذاك، عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أخرجت الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث، وما أدخلت فيه إلا ما صح. وورد مرة إلى بغداد، فعمد أهل الحديث إلى مائة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، ووضعوا عشرة أنفس، فأورد واحد بعد آخر الأحاديث المذكورة، والبخاري يقول في كل حديث منها: لا أعرفه. فلما فرغوا قال: أما الحديث الأول فهو كذا، ورده إلى حقيقته، وأما الثاني فهو كذا، حتى ذكرها عن آخرها على حقيقتها.

ووقع بين البخاري وأمير بخارى واسمه خالد وحشة، فدسّ خالد من قال إن البخاري يقول بخلق الأفعال للعباد، وبخلق القرآن فتبرأ البخاري من ذلك وأنكره، وعظم عليه فارتحل، ونزل عند بعض أقاربه، بقرية من قرى سمرقند على فرسخين منها، اسمها خرشك فمات بها ليلة عيد الفطر من هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائتين، فيها أخذ الزنج البصرة، وقتلوا بها كل من وجدوه، وخربوها. وفي هذه السنة ملك يعقوب الصفار بلخ، ثم سار إلى كابل، فاستولى عليها، وأرسل هدية إلى الخليفة، وفيها أصنام من تلك البلاد. وفي هذه السنة قصد الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان جرجان وملكها وفيها قُتل محمد بن خفاجة أمير صقلية، قتله خدَمه كما تقدم ذكره سنة سبع وأربعين ومائتين، واستعمل محمد بن أحمد الأغلبي صاحب إفريقية على صقلية أحمد بن يعقوب. وفيها توفي العباس بن الفرج الرياشي اللغوي. ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائتين في هذه السنة أرسل المعتمد أخاه الموفق، أبا أحمد إلى قتال الزنج "ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائتين في هذه السنة استولى يعقوب الصفار على نيسابور وملكها. وفيها توفي محمد بن موسى بن شاكر، أحد الأخوة الثلاثة الذين ينسب إليهم جيل بني موسى المشهورين، واسم أخويه أحمد والحسين، وكان لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة، وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والموسيقى، ولما بلغ المأمون من كتب الأوائل أن ثور الأرض أربعة وعشرون ألف ميل، أراد تحقيق ذلك، فأمر بني موسى المذكورين بتحرير ذلك،

فسألوا عن الأراضي المتساوية، فأخبروا بصحراء سنجار ووطاة الكوفة، فأرسل معهم المأمون جماعة يثق إلى أقوالهم، فساروا إلى صحراء سنجار، وحققوا ارتفاع القطب الشمالي، وضربوا هناك وتداً، وربطوا فيه حبلاً طويلاً ومشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء، من غير انحراف حسب الإمكان، وبقي كلما فرغ حبل نصبوا في الأرض وتداً آخر، وربطوا فيه حبلاً آخر كفعلهم الأول، حتى انتهوا كذلك إلى موضع قد زاد فيه ارتفاع القطب الشمالي المذكور درجة محققة، ومسحوا ذلك القدر، فكان ستة وستين ميلاً، وثلثي ميل، ثم وقفوا عند موقفهم الأول، وربطوا في الوتد حبلا، ومشوا إلى جهة الجنوب من غير انحراف، وفعلوا ما شرحناه، حتى انتهوا إلى موضع قد انحط فيه ارتفاع القطب الشمالي درجة، ومسحوا ذلك القدر، فكان ستة وستين ميلا وثلثي ميل، ثم عادوا إلى المأمون وأخبروه بذلك، فأراد المأمون تحقيق ذلك في موضع آخر، فصيرهم إلى أرض الكوفة، فساروا إليها وفعلوا كما فعلوا في أرض سنجار، فوافق الحسابان، وعادوا إلى المأمون، فتحقق صحة ذلك، وصحة ما نقل من كتب الأوائل، لمطابقة ما اعتبره، ثم ضربوا الأميال المذكورة في ثلاثمائة وستين، وهي درج الفلك، فكان الحاصل أربعة وعشرين ألف ميل، وهو دور الأرض. أقول: كذا نقله ابن خلكان. ونقل غيره من المؤرخين أن الذي وجد في أيام المأمون لحصّة الدرجة ستة وستون ميلاً وثلثا ميل، وهو غير صحيح، فإن ذلك هو لحصة الدرجة على رأي القدماء وأما في أيام المأمون فإنه وجد حصة الدرجة ستة وخمسين ميلاً، وقد تحقق ذلك في علم الهيئة. ثم دخلت سنة ستين ومائتين فيها قتلت العرب منجور والي حمص، واستعمل عليها بكتمر. وفيها توفي مالك بن طوق الثعلبي بالرحبة، وهو الذي بناها والذي تنسب إليه فيقال رحبة مالك. وفيها توفي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو المعروف بالعسكري، وهو أحد الأئمة الاثني عشر، على مذهب الإمامية. وهو والد محمد المنتظر من سرداب سرمن رأى على زعمهم، وكان مولده سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حسبما تقدم ذكره، في سنة أربع وخمسين ومائتين. وفيها توفي الحسن بن الصباح الزعفراني الفقيه، وهو من أصحاب الشافعي البغداديين. وفيها توفي حنين بن "إسحاق، الطبيب العبادي، وهو الذي نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية، وكان عالماً بها، وهو الذي عرّب كتاب إقليدس، وكتاب بطليموس المجسطي وأصلحهما، ونقحهما، والعبَادي بكسر العين المهملة وفتح الباء الموحدة من تحتها هذه النسبة إلى عباد الحيرة،

وهم عدة بطون من قبائل شتى، نزلوا الحيرة، وكانوا نصارى، ينسب إليهم خلق كثير، منهم عدي بن زيد العبادي. ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين ولاية نصر بن أحمد الساماني

[ما وراء النهر، وابتداء أمر الساماني]

في هذه السنة استُعملَ نصر بن أحمد بن أسد بن سامان أخذه بن جثمان بن طغاث بن نوشرد بن بهرام جوبين، وهو بهرام جوبين الذي ذكر في أخبار كسرى برويز، وكان لأسد بن سامان أربعة أولاد هم نوح، وأحمد، ويحيى، وإلياس، وكانوا في خراسان حين تولى عليها المأمون بن الرشيد، فأكرم المأمون أولاد أسد بن سامان، الأربعة المذكورين، وقدّمهم واستعملهم. ولما رجع المأمون من خراسان إلى العراق، استخلف على خراسان غسان بن عباد، فولى غسان المذكور، أحمد بن أسد فرغانة، في سنة أربع ومائتين، ويحيى بن أسد الشاش مع أسرشة وولى إلياس بن أسد هراة، وولى نوح بن أسد سمرقند، ولما تولى طاهر بن الحسين على خراسان، أقرهم على هذه الأعمال، حسبما كان قد ولاهم غسان بن عباد عليه، ثم مات نوح ابن أسد ثم مات بعده إلياس بهراة، فاستقر على عمله ابنه محمد بن إلياس. وكان لأحمد بن أسد سبعة بنين، وهم نصر ويعقوب ويحيى وأسد وإسماعيل وإسحاق وحميد، ثم مات أحمد بن أسد، فاستخلف ابنه نصراً على أعماله، وكان إسماعيل ابن أحمد يخدم أخاه نصراً، فولاه نصر بخارى. في هذه السنة، أعني سنة إحدى وستين ومائتين.

ثم بعد ذلك، سعت السعاة بين نصر وأخيه إسماعيل، فأفسدوا ما بينهما، حتى اقتتلا سنة خمس وسبعين ومائتين، فظفر إسماعيل بأخيه نصر، فلما حمل إليه، ترجل له إسماعيل وقبل يده، ورده إلى موضعه، واستمر إسماعيل ببخارى، وكان إسماعيل رجلا خيراً يحب أهل العلم ويُكرِمُهم، فلذلك دام ملكه وملك أولاده، وطالت أيامهم على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. وفي هذه السنة عصى أهل برقة على أحمد بن طولون، فجهز إليهم جيشاً، فحاصروا برقة، وفتحوها، وقبضوا على جماعة من رؤسائهم. وفي هذه السنة توفي محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية، في جمادى الأولى. وكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر ونصفاً. وتولى بعده أخوه إبراهيم بن أحمد بن محمد، ثم سار إبراهيم بن أحمد بن محمد إلى صقلية، وفتح الفتوحات العظيمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتوفي إبراهيم بالذرب ليلة السبت، لإحدى عشرة بقيت من ذي القعدة، سنة تسع وثمانين

ومائتين بصقلية، رحمه الله تعالى، وجعل في تابوت، وحمل إلى إفريقية، ودفن بالقيروان، وكانت ولايته خمساً وعشرين "سنة، وكان له فطنة عظيمة، وتصدق بجميع ماله.

وفي هذه السنة توفي الحسن بن عبد الملك بن أبي الشوارب، قاضي القضاة، وهو من ولد عتاب بن أَسيد، الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، أسيد بفتح الهمزة وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها ثم دال مهملة.

وفيها توفي أبو يزيد البسطامي الزاهد، واسمه طيفور بن عيسى بن سروبيان، وكان سروبيان مجوسياً فأسلم وفي هذه السنة توفي أبو الحسين مسلم ابن الحجاج النيسابوري صاحب المسند الصحيح. رحل إلى الأمصار لسماع الحديث. قال مسلم: صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاث مائة ألف حديث مسموعة، ولما قدم البخاري إلى نيسابور لازمه مسلم، ولما وقعت للبخاري مسألة خلق اللفظة انقطع الناس عنه إلا مسلماً. وقال مسلم للبخاري: دعني أُقتل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث.

ثم دخلت سنة اثنين وستين ومائتين في هذه السنة، أرسل الخبيث صاحب الزنج، جيشاً إلى جهة بطايح واسط، فقتلوا وسبوا وأحرقوا. وفيها مات عمر بن شيبة.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائتين في هذه السنة، استولى يعقوب الصفار على الأهواز.
ثم دخلت سنة أربع وستين ومائتين في هذه السنة مات أماجور مقطع دمشق، وسار أحمد بن طولون من مصر إلى دمشق، ثم إلى حمص، ثم إلى حماة، ثم إلى حلب، فلكها جميعها، ثم سار أحمد بن طولون إلى إنطاكية، ودعا سيما الطويل أمير إنطاكية إلى الدخول في طاعته، فأبى، فقاتله أحمد وملك إنطاكية عنوة، وقاتل سيما قتالاً شديداً حتى قتل، ثم رحل أحمد إلى طرسوس، وعزم على المقام بها للجهاد، فغلا بها السعر وقلّ القوت، فرجع إلى الشام.

وفي هذه السنة خرج بالصين خارجي مجهول النسب والاسم وعظيم جمعه، فقصد مدينة خانقو من الصين، وحصرها، وهي حصينة، ولها نهر عظيم، وبها عالم كثير من المسلمين، والنصارى، واليهود، والمجوس، وغيرهم من أهل الصين، ففتحها عنوة، وقتل من أهلها ما لا يحصى، واستولى على شيء كثير من بلاد الصين، ثم عدم الخارجي المذكور في حرب ملك الصين، وانهزمت أصحابه فلم يجتمع بعد ذلك. وفي هذه السنة فرغ إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلبي صاحب إفريقية من بناء مدينة رقادة، وانتقل إليها وسكنها. وكان قد ابتدى في بنائها سنة ثلاث وستين ومائتين. وفي هذه السنة ماتت قبيحة أم المعتز. وفيها مات أبو إبراهيم الزني صاحب الشافعي. وفيها توفي في مصر يونس بن عبد الأعلى بن موسى أحد أصحاب الشافعي، وكان مولده سنة سبعين ومائة، وكان يهوى يونس المذكور للشافعي.

ما حك جلدكَ مثل ظفركْ ... فتول أنتَ جميع أمركْ
وإذا قَصدتَ لحاجةٍ ... فاقْصدْ لمعترفٍ بقدرِكْ
وقال: سمعت الشافعي يقول: رضى الناس غاية لا تدرك، فانظر ما فيه صلاح نفسك. في أمر" "دينك ودنياك، فالزمه.

وعبد الرحمن، مؤلف تاريخ مصر المشهور، هو ولد يونس المذكور، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المذكور. ثم دخلت سنة خمس وستين ومائتين فيها دخل الزنج النعمانية، وسبوا وأحرقوها، ثم صاروا إلى جرجرايا، ودخل أهل السواد بغداد.

موت يعقوب الصفار وفي هذه السنة، مات يعقوب بن الليث الصفار، تاسع عشر شوال، بجنديسابور، من كور الأهواز، وكانت علته القولنج، فوصف له الحكماء الحقنة، فلم يحتقن، وكان المعتمد قد أرسل إليه رسولا، وكتاباً يستمليه، ويعقوب مريض، فأحضر الرسول وجعل عنده سيفاً، ورغيفاً من الخشكار، وبصلا، وقال الرسول: قل للخليفة إن مت، فقد استراح مني واسترحت منه، وإنْ عوفيت، فليس بيني وبينه إلا هذا السيف، وإنْ كسرني وأفقرني، عدت إلى أكل هذا الخبز والبصل.

وكان يعقوب قد افتتح الرخُج، وقتل ملكها، وأسلم أهلها على يده، وكان ملك الرخج يجلس على سرير ذهب، ويدَّعي الإلهية، وكان يعقوب حازماً عاقلاً، وكان يعمل الصفر في مبتدأ أمره، فقيل له الصفار لذلك. وصحب في حداثته رجلاً من أهل سجستان، كان مشهوراً بالتطوع في قتال الخوارج، يقال له صالح بن النضر الكناني، ثم هلك صالح المذكور، فتولى مكانه درهم بن الحسين، فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح، وكان درهم غير ضابط لأمور العسكر، فلما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه، اجتمعوا على يعقوب بن الليث الصفار المذكور، وملكوه أمرهم، فلما تبين ذلك لدرهم لم ينازعه، وسلم الأمر إليه، فاستبد يعقوب بالأمر، وقويت شوكته، واستولى على البلاد، على ما تقدم ذكره، في مواضعه، من السنين. ولما مات يعقوب، قام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث، وكتب إلى الخليفة بطاعته، فولاه الموفق خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان، وسير إليه الخلع مع الولاية. وفي هذه السنة توفي إبراهيم بن هاني بن إسحاق النيسابوري، وكان من الأبدال. ثم دخلت سنة ست وستين ومائتين في هذه السنة قتل أهل حمص عاملهم، عيسى الكرخي. وفي هذه السنة كان الناس في البلاد التي تحت حكم الخليفة في شدة عظيمة، بسبب تغلب القواد والأجناد على الأمر، لقلة خوفهم، وأمنهم من الإنكار على ما يفعلونه، لاشتغال الموفق بقتال صاحب الزنج، ولعجز الخليفة المعتمد واشتغاله بغير تدبير المملكة. ثم دخلت سنة سبع وستين ومائتين في هذه السنة كان بين الموفق أخي الخليفة، وبين الخبيث صاحب الزنج حروب كثيرة يطول شرحها، وكشف الزنج عن الأهواز، واستولى عليها، ثم سار الموفق إلى مدينة صاحب الزنج، وكان قد حصنها إلى غاية ما يكون، وسمّاها المختارة، وحاصرها الموفق، فخرج أكثر أهلها إليه بالأمان، وضعف الباقون عن حفظها، فسلموها بالأمان. وفي هذه السنة ولي صقلية الحسن بن العباس، فبث السرايا إلى كل ناحية.

ثم دخلت "سنة ثمان وستين ومائتين وسنة تسع وستين ومائتين في هذه السنة حالف لؤلؤ غلام أحمد بن طولون على مولاه أحمد بن طولون، وكان في يد لؤلؤ حلب وحمص وقنسرين وديار مضر من الجزيرة، وكاتب الموفق في المسير إليه، ثم سار إليه.

وفي هذه السنة أمر المعتمد بلعن أحمد بن طولون على المنابر، لكونه قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطرز، وإنما أمر المعتمد بذلك مكرهاً، لأن هواه كان مع ابن طولون، ولم يكن للمعتمد من الأمر شيء، بل الأمر لأخيه الموفق، وكان المعتمد قد قصد اللحوق بأحمد بن طولون بمصر، لينجده على أخيه الموفق، وسار عن بغداد لما كان أخوه مشتغلاً في قتال الزنج، فأمسك إسحاق بن كنداج عامل الموصل القواد الذين كانوا صحبة المعتمد، وأرسلهم إلى بغداد، وتقدم إلى المعتمد بالعَود، فلم يمكنه مخالفته بعد إمساك قواده، فرجع إلى سامراء.

ثم دخلت سنة سبعين ومائتين في هذه السنة قتل صاحب الزنج لعنه الله بعد قتل وغَرقِ غالب أصحابه، وقُطع رأسه، وطيف به على رمح، وكثر ضجيج الناس بالتحميد، ورجع الموقف إلى موضعه، والرأس بين يديه، وأتاه من الزنج عالم كثير يطلبون الأمان، فأمنهم، ثم بعث برأس الخبيث إلى بغداد، وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء، لأربع بقين من رمضان، سنة خمس وخمسين ومائتين، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر، سنة سبعين ومائتين، فكانت أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

وفي هذه السنة توفي الحسن بن زيد العلوي، صاحب طبرستان، في رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وكسراً، وولي مكانه أخوه محمد بن زيد. وفاة أحمد بن طولون وفي هذه السنة توفي أحمد بن طولون، صاحب مصر والشام، بعد مسيره إلى طرسوس، ورجوعه منها، ولما وصل إلى إنطاكية، قُدم له لبن جاموس، فأكثر منه، فأصابه منه تخمة، واتصلت به حتى صار منها ذرب، حتى مات، وكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة، وكان حازماً عاقلاً، وهو الذي بنى قلعة يافا، ولم يكن لها قبل ذلك قلعة، وبنى بين مصر والقاهرة الجامع المعروف به، وهو جامع عظيم مشهور هناك، وولى بعده ابنه خمارويه. وفي هذه السنة توفي محمد بن إسحاق بن جعفر الصاغاني، وداود بن علي الأصفهاني، إمام أصحاب الظاهر، وكان مولده سنة اثنتين ومائتين، وكان إماماً مجتهداً ورعاً زاهداً، وسمي هو وأصحابه بأهل الظاهر، لأخذهم بظاهر الآثار والأخبار، وإعراضهم عن التأويل، وكان داود لا يرى القياس في الشريعة، ثم اضطر إليه، فسماه دليلاً، وله أحكام خالف فيها الأئمة الأربدة، منها أنه قال: الشرب خاصة في آنية الذهب والفضة حرام، ويجوز الأكل والترضي، وغيرهما

من الانتفاعات بها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، إنما قال: " الذي يشرب في آنية "الذهب والفضة، إنما يجرجر في بطنه، نار جهنم " وله مثل ذلك كثير.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائتين في هذه السنة جرت وقعة بين ابن الموفق، وهو المعتضد، وبين خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر. آخرها أن المعتضد انهزم هو وأصحابه، وكانت الوقعة بين دمشق والرملة، وانهزم خمارويه إلى حدود مصر، وثبت عسكره، ولم يعلموا بهزيمته، وانهزم المعتضد، ولم يعلم بهزيمة خمارويه.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائتين وسنة ثلاث وسبعين ومائتين في هذه السنة توفي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، سلخ صَفَر. وكان عمره نحو خمس وستين سنة، وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً. لأنه تولى في سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وخلف ثلاثة وثلاثين ذكراً، لما مات وليَ بعده ابنه المنذر بن محمد، وبويع له بعد موت أبيه بثلاث ليال. وفيه هذه السنة مات أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، صاحب كتاب السنن، وفيها توفي خالد بن أحمد السدوسي، وكان أمير خراسان، وقصد الحج، فقبض عليه المعتمد وحبسه، فمات في الحبس في هذه السنة، وهو الذي أخرج البخاري صاحب الصحيح من بخارى، فدعا عليه البخاري، فأدركته الدعوة.

وفيها توفي الحافظ محمد بن يزيد بن ماجة القويني المشهور، مصنف كتاب السنن في الحديث. وكان إماماً في الحديث، عارفاً بعلومه، وجميع ما يتعلق به، ارتحل إلى العراق والشام ومصر والري، لطلب الحديث، وله تفسير العظيم، وتاريخٌ أحسنَ فيه. وكتابه في الحديث أحد الكتب الستة الصحاح، ولادته سنة تسع ومائتين. ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائتين، وسنة خمس وسبعين ومائتين في هذه السنة قبض الموفق على ابنه المعتضد، واستمر في الحبر حتى خرج في مرض الموفق الذي مات فيه.

وفيها توفي المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي بن هشام الأموي صاحب الأندلس، في المحرم، وكانت ولايته سنة وأحد عشر شهراً، وكان عمره نحو ست وأربعين سنة، وكان أسمر بوجهه أثر جدري. ولما مات بويع أخوه عبد الله بن محمد. وفي هذه السنة توفي أبو سعيد الحسين بن الحسن

بن عبد الله البكري النحوي اللغوي المشهور، صاحب التصانيف. ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائتين فيها مات عبد الملك بن محمد الرقاشي. ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائتين فيها مات يعقوب بن سفيان النسائي الإمام، وكان يتشيع. وفيها توفيت عُريب المغنية المأمونية. ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين.

وفاة الموفق بالله فيها توفي أبو أحمد طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل، وكان قد حصل في رجله داء الفيل وطال به، وضجر، فقال يوماً: قد اشتمل ديواني على مائة ألف مرتزق، ما فيهم أسوأ حال "مني، ومات الموفق يوم الأربعاء، لثمان بقين من صفر، من هذه السنة، وكان الموفق قد بويع له بولاية العهد، بعد المفوض بن المعتمد، فلما مات الموفق، اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس المعتضد بن الموفق، بولاية العهد بعد المفوض، واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه يتولاه.

ابتداء أمر القرامطة وفي هذه السنة تحرك بسواد الكوفة، قوم يعرفون بالقرامطة، وكان الشخص الذي دعاهم إلى مذهبه ودينه قد مرض بقرية من سواد الكوفة، فحمله رجل من أهل القرية، يقال له كرميته، لحمرة عينيه، وهو بالنبطية اسم لحمرة العين، فلما تعافى شيخ القرامطة المذكور، سمي باسم ذلك الرجل، ثم خفف فقالوا قرمط، ودعا قوماً من أهل السواد والبادية، ممن ليس لهم عقل ولا دين إلى دينه، فأجابوا إليه، وكان ما دعاهم إليه، أنه جاء بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يقال لها نصرانة إنه داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل، وإن المسيح تصور في جسم إنسان وقال: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الدابة، وإنك يحيى بن زكريا، وإنك روح القدس. وعرفه أنّ الصلاة أربع ركعات، ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول المؤذن: الله أكبر ثلاث مرات، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحاً رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن عيسى رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، والقبلة إلى بيت المقدس، وأن الجمعة يوم الاثنين، لا يعمل فيها شيئاً، ويقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهو المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المنجد لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين، والحساب والشهور والأيام، وباطنها لأوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي، واتقوني يا

أولي الألباب، وأنا الذي لا أُسأل عما أفعل، وأنا العليم الحليم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحبتي واختياري، أدخلته في جنتي وأخلدته في نعيمي، ومن زال عن أمري، وكذب رسلي، أخلدته مهاناً في عذابي، وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعل جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا ذللته، وبئس الذي أصر على أمره، ودام على جهالته، وقال: لن نبرح عليه عاكفين، وبه موقنين، أولئك هم الكافرون، ثم يركع. ومن شرائعه أن يصوم يومين من السنة، وهما المهرجان والنيروز، وأن النبيذ حرام، والخمر حلال، ولا غسل من جنابة، لكن الوضوء كوضوء الصلاة، وأن يؤكل كل ذي ناب وكل ذي مخلب. ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائتين في هذه السنة خلع المعتمد ابنه جعفر المفوض ابن المعتمد من ولاية العهد، وجعل المعتضد ابن أخيه ولي العهد بعده. "وفاة المعتمد

وفي هذه السنة، أعني سنة تسع وسبعين ومائتين، توفي أحمد المعتضد بالله ابن جعفر المتوكل بن المعتصم، لإحدى عشرة بقيت من رجب ببغداد، وكان قد شرب على الشط وتعشى، وأكثر من الشراب والأكل، فمات ليلاً، وأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس، فنظروا إليه، وحمل إلى سرمن رأى فدفن بها، وكان عمر المعتمد خمسين سنة وستة أشهر، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أيام. وكان قد تحكم عليه في خلافته أخوه الموفق، وضيق عليه، حتى إنّه احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها في ذلك الوقت، فقال:

أليس من العجائب أنّ مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه

[خلافة أبي العباس]

[أحمد المعتضد بالله]

وهو سادس عشرهم، وفي صبيحة الليلة التي مات فيها المعتمد، بويع لأبي العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل. وفي هذه السنة توفي نصر بن أحمد الساماني، فقام بما كان إليه من العمل بما وراء النهر، أخوه إسماعيل ابن احمد بن أسد بن سامان. وفي هذه السنة قدم الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من مصر بهدايا عظيمة، من خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب

مصر، بسبب تزويج المعتضد بنت خمارويه. وفيها توفي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سودة الترمذي السلمي، بترمذ، في رجب، وكان إماماً حافظاً له تصانيف حسنة، منها الجامع الكبير في الحديث، وكان ضريراً، وهو عن أئمة الحديث المشهورين، الذين يقتدى بهم في علم الحديث، وهو تلميذ محمد بن إسماعيل البخاري، وشاركه في بعض شيوخه، مثل قتيبة بن سعيد، وعلي بن حجر. ثم دخلت سنة ثمانين ومائتين فيها توفي جعفر بن المعتمد وهو الذي كان لقبه المفوض، وخلعه أبوه وولى المعتضد على ما ذكرنا. ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين: فيها سار المعتضد إلى ماردين، فهرب صاحبها حمدان، وخلى ابنه بها، فقابله المعتضد، فسلمها إليه. وفيها دخل طغج بن جف وكان عاملاً على دمشق، من طرسوس إلى بلاد الروم، من قبل خمارويه، وفتح وسبى. وفيها توفي عبد الله بن محمد بن أبي عبد الله بن أبي الدنيا، صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة. ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائتين. النيروز المعتضدي فيها أمر المعتضد بافتتاح الخراج في النيروز المعتضدي، للرفق بالناس، وهو في حزيران من شهور الروم، عند كون الشمس في أواخر الجوزاء "قتل خمارويه في هذه السنة، قتل خمارويه بن أحمد بن طولون، ذبحه بعض خدمه على فراشه، في ذي الحجة بدمشق، وكان سببه أنه نقل إلى خمارويه، أن جواريه قد أخذت كل واحدة منهن خصياً، وجعلته لها كالزوج، وقصد خمارويه تقرير بعض الجواري على ذلك، فاجتمع جماعة من الخدم، واتفقوا على قتله، ثم قتل من خدمه الذين اتهموا بذلك، نيفاً وعشرين نفساً.

ولما مات خمارويه، بايع قواده جيش بن خمارويه، وكان صبياً، وفيها توفي أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، صاحب كتاب النبات. وفيها توفي الحارث ابن أبي أسامة، وله مسند. وفيها توفي أبو العيناء محمد بن القاسم، وكان روى عن الأصمعي، وكان ضريراً صاحب نوادر وأشعار، وكان من ظرفاء الناس، وفيه من سرعة الجواب والذكاء ما لم يكن في أحد، وولد في سنة إحدى وتسعين ومائتين، وكف بصره وقد بلغ أربعين سنة، ولقب بأبي العيناء، لأنه قال: لأبي زيد الأنصاري كيف تصغر عيناً؟ فقال عييناً يا أبا العيناء فبقي عليه لقباً، وكان قد ذكر للمتوكل للمنادمة، فقال المتوكل: لولا أنه ضرير لصلح لذلك، وبلغ ذلك أبا العيناء فقال: إن أعفاني من رؤية الأهلة، فإني أصلح للمنادمة.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين في هذه السنة، خلع طغج بن جف أمير دمشق، جيش بن خمارويه بدمشق واختلف جند جيش عليه، لصباه وتقريبه الأرذال، وتهديده لقواد أبيه، فثاروا به فقتلوه ونهبوا داره، ونهبوا مصر وأحرقوها، وأقعدوا أخاه هارون بن خمارويه في الولاية، وكانت ولاية جيش بن خمارويه تسعة أشهر. وفي هذه السنة مات البحتري الشاعر، واسمه الوليد بن عبادة، بمنبج أو بحلب، وكان مولده سنة ست ومائتين، وفيها توفي علي بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر، وفيها أمر المعتضد أن يكتب إلى الأقطار، برد الفاضل من سهام المواريث، على ذوي الأرحام، وإبطال ديوان المواريث. من تاريخ القاضي شهاب الدين بن أبي الدم، قال: وفيها أمر بكتبة الطعن، في معاوية وابنه وأبيه، وإباحة لعنهم، وكان من جملة ما كتب في ذلك: بعد الحمد لله والصلاة على نبيه، وأنه لما بعثه الله رسولاً، كان أشد الناس في مخالفته بنو أمية، وأعظمهم في ذلك أبو سفيان ابن حرب، وشيعته من بني أمية، قال الله تعالى في كتابه العزيز " والشجرة الملعونة " " الإسراء: ٦٠ " اتفق المفسرون أنهِ أراد بها بني أمية. ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان مقبلاً ومعاوية يقوده، ويزيد أخو معاوية يسوق به، فقال: " لعن الله القائد والراكب والسائق " وقد روى أن أبا سفيان قال: يا بني عبد مناف، تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنّة ولا نار. وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية ليكتب بين يديه، فتأخر عنه، واعتذر بطعامه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لا أشبع الله بطنه " فبقي لا يشبع، وكان يقول: والله ما أترك الطعام شبعاً وإنما أتركه إعياء. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا رأيتم معاوية "على منبري فاقتلوه "، وأطال في ذلك، وأمر أن يقال ذلك في البلاد، ولعن معاوية على المنابر، فقيل له: إنّ في ذلك استطالة للعلويين، وهم في كل وقت يخرجون على السلطان ويحصل به الفتن بين الناس، فأمسك عن ذلك.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائتين في هذه السنة أخبر المنجمون الناس بغرق أكثر الأقاليم، وأن ذلك يكون بسبب كثرة الأمطار، وزيادة الأنهار، فتحفظ الناس، فقلت الأمطار، وغارت المياه، حتى استسقوا ببغداد مرات. وفيها اختل حال هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون بمصر، واختلف القواد عليه، وانحل نظام مملكته، وكان على دمشق من جهته طغج بن جف. وفيها توفي إسحاق بن موسى الإسفراييني الفقيه الشافعي.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائتين في هذه السنة سار المعتضد إلى آمد، فافتتحها بالأمان، وكان صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن الشيخ، ثم سار المعتضد إلى فنسرين، فتسلمها وتسلم العواصم، من نواب هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر، وكان هارون قد سأل المعتضد في أن يتسلم هذه البلاد منه. وفيها توفي إبراهيم بن إسحاق، وهو من أعيان المحدثين ببغداد.

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائتين في هذه السنة ظهر رجل من القرامطة بالبحرين، يعرف بأبي سعيد الجنابي، وكثر جمعه، وقتل جماعة بالقطيف، وبتلك القرى. وفيها توفي المبرد، وهو أبو العباس محمد بن عبد الله بن زيد، وكان إماماً في النحو واللغة، وله التصانيف المشهورة، منها: كتاب الكامل، والروضة، والمقتضب، وغير ذلك، أخذ العلم عن أبي عثمان المازني وغيره، وأخذ عنه نفطويه وغيره، وولد سنة سبع ومائتين، والمبرد لقب غلب عليه، قيل: إنه كان عند بعض أصحابه، وأن صاحب الشرطة طلبه للمنادمة، فكره المبرد المسير إليه، وألح الرسول في طلبه، وكان هناك مزملة لتبريد الماء فارغة، فدخل المبرد واختفى في غلاف تلك المزملة، ودخل رسول صاحب الشرطة في تلك الدار، وفتش على المبرد فلم يجده، فلما تركه ومضى، جعل صاحب الدار وكان يقال له أبو حاتم
السجستاني، يصفق وينادي على المزملة: المبرد المبرد، وتسامع الناس بذلك، فلهجوا به، وصار لقباً على أبي العباس المذكور. ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائتين في هذه السنة استولى إسماعيل بن أحمد السلماني، صاحب ما وراء النهر على خراسان، بعد قتال، وأسر أمير خراسان، وهو عمرو بن الليث الصفار، ثم أرسله إلى المعتضد ببغداد، فحبس عمرو بها، ولم يزل محبوساً حتى قُتل سنة تسع وثمانين ومائتين في الحبس. وفي هذه السنة سار محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان إلى خراسان، لما بلغه أسر الصفار، ليستولي عليها، فجرى بينه وبين عسكر إسماعيل الساماني قتال شديد، ثم انهزم عسكر العلوي، وجرح جراحات عديدة، ثم مات محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان المذكور من تلك الجراحات، بعد أيام، وأسر ابنه زيد في الوقعة، وحمل إلى إسماعيل الساماني، فأكرمه ووسع عليه، وكانَ محمد بن زيد أديباً فاضلاً شاعراً، حسن السيرة، رحمه "الله تعالى، ثم قام بعده بالأمر الناصر للحق، الحسن بن علي، وكان يعرف بالأطروش، وتوفي الناصر في سنة أربع وثلاثمائة على ما سنذكره إن ساء الله تعالى. وفيها مات علي بن عبد العزيز البغوي بمكة.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين. ودخلت سنة تسع وثمانين ومائتين في هذه السنة كانت حروب بالشام بين طغج بن جف أمير دمشق وبين القرامطة.

وفاة المعتضد في هذه السنة، لثمان بقين من ربيع الآخر، توفي أبو العباس أحمد المعتضد ابن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ودفن ليلا في دار محمد بن طاهر، وكان مولده في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين. وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وخلف من الذكور علياً، وهو المكتفي، وجعفر، أو هو المقتدر، وهارون، وخلف، إحدى عشرة بنتاً، ولما حضرت المعتضد الوفاة، أنشد أبياتاً منها:

ولا تأمنن الدهَر إني أمنته ... فلم يبق لي خلا ولم يرع لي حقا

قتلت صناديدَ الرجالِ ولم أدع ... عدواً ولم أمهل على طغيه خلقا

وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غرباً ومزّقتهم شرقا

فلما بلغت النجمِ عزاً ورفعة ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا

رماني الردى سهما فأخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حفرتي عاجلا ألقى وكان المعتضد شهماً مهيباً عند أصحابه، يتقون سطوته، ويكفون عن المظالم خوفاً منه، وكان فيه الشح، وكان عفيفاً، حكى القاضي ابن إسحاق قال: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداثٌ رومٌ صباح الوجوه، فأطلت النظر إليهم، فلما قمت، أمرني بالقعود، فجلست، فلما تفرق الناس قال: يا قاضي، والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

[خلافة المكتفي بالله]

وهو سابع عشرهم، لما توفي المعتضد، بايع الناس ابنه المكتفي، وكان بالرقة فكتب الوزير إليه بوفاة المعتضد، وأخذ البيعة له، ولما وصله الخبر، أخذ البيعة على من عنده أيضاً، وسار إلى بغداد، فدخلها لثمان خلون من جمادى الأولى. وفي هذه السنة توفي إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن الأغلب، صاحب إفريقية كما تقدم ذكره في سنة إحدى وستين ومائتين، وملك بعده ابنه عبد الله بن إبراهيم، ثم قتل عبد الله آخر شعبان، في سنة تسعين ومائتين، على ما سنذكر إن شاء الله تعالى. وكان سكنى عبد الله وقتله بمدينة تونس، وكان كثير العدل حسن السيرة. ثم دخلت سنة تسعين ومائتين في هذه السنة

اشتدت شوكة القرامطة، حتى حصروا دمشق، بعد أن هزموا جيش أميرها طغج ين جف، ثم اجتمعت عليهم العساكر وقتلوا مقدمهم يحيي المعروف بالشيخ، ولما قتل مقدم القرامطة يحيي المذكور، "قام فيهم أخوه الحسين، وتسمى بأحمد، وأظهر شامة في وجهه، وزعم أنها آيته، وكثر جمعه، فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه، فانصرف عنهم إلى حمص، فغلب عليها، وخطب له على منابرها، وتسمى بالمهدي أمير المؤمنين، وعهد إلى ابن عمه عبد الله، ولقبه المدثر، وزعم أنه المدثر الذي في القرآن، ثم سار إلى حماة والمعرة وغيرهما، فقتل أهلها، حتى قتل الأطفال والنساء، وسار إلى سلمية، فأخذها بالأمان، ثم قتل أهلها حتى صبيان المكتب، ولما اشتد أمر القرمطي صاحب الشامة المذكور، خرج المكتفي من بغداد، ونزل الرقة، وأرسل إليه الجيوش.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين: في هذه السنة واقعت عساكر الخليفة صاحب الشامة القرمطي، وأصحابه، بمكان بينه وبين حماة اثنا عشر ميلا، لست خلون من المحرم، فانهزمت القرامطة، وتبعهم العسكر يقتلونهم، وهرب صاحب الشامة ومعه ابن عمه المدثر، وغلام له رومي، فأمسكوا في البرية، وأحضروا إلى المكتفي، وهو بالرقة، فسار بهم إلى بغداد وقتلهم، وطيف برأس صاحب الشامة. ومن كتّاب الشريف العابد أنّ المكان الذي كان فيه الوقعة المذكورة هو تمنع أقول: وهي قرية من بلاد المعرة، على الطريق الآخذة من حماة إلى حلب، وفيها توفي ببغداد أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد، المعروف بثعلب، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، ثقة حجة، صالحاً، وولد في أول سنة مائتين. ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين. استيلاء المكتفي على الشام ومصر

[وانقراض ملك بني طولون]

في هذه السنة، بعث المكتفي جيشاً مع محمد بن سليمان، فاستولى على دمشق، وسار حتى دنا من مصر، وصاحبها هارون بن خمارويه، ففارقه غالب قواده، ولحقوا بعسكر الخليفة، وخرج هارون فيمن بقي معه، وجرى بينه وبين محمد بن سليمان وقعات، ثم وقع في عسكر هارون خصومة، وأدت إلى قتال، فركب هارون لِيُسكن الفتنة، فزرقه بعض المغاربة بمزراق فقتله، ولما قتل هارون قام عمه شيبان بالأمر، ثم طلب الأمان من محمد بن سليمان فأمنه، ثم هرب شيبان تحت الليل، فلم يوجد،

واستولى محمد بن سليمان على مصر، وأمسك بني طولون، وكانوا بضعة عشر رجلاً، واستصفى ما لهم وقيدهم وحملهم إلى بغداد، وكتب إلى المكتفي بالفتح، وكان ذلك في صفر من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

أخبار القرامطة في هذه السنة بعد استيلاء عسكر الخليفة على مصر، وتوجه محمد بن سليمان عنها، خرج ببلاد مصر خارجي يدعى الخلنجي، وقويت شوكته، فسار إليه عامل دمشق، أحمد بن كيغلغ، وطمعت القرامطة في دمشق، بحكم غيبة عاملها، وقصدوها، فهبوا وقتلوا ونهبوا طبرية، ثم ساروا إلى جهة الكوفة، فسير المكتفي إليهم عسكراً مع قواده المختصين به، مثل رصيف "بن صوار تكين التركي، والفضل ابن موسى بن بغا، وبشر الخادم الأفشيني، ورايق الجزري، فاقتتلوا، وتمت الهزيمة على عسكر الخليفة، فقتل منهم خلق كثير، وغنمت القرامطة منهم شيئاً كثيراً فتقووا به.

وفي هذه السنة توفي عبد الله بن محمد الناشئ الشاعر ونصر بن أحمد الحافظ. وفيها توفي أحمد الزنديق بن يحيى بن إسحاق، المعروف بابن الراوندي المتكلم، صنف عدة كتب في الكفر والإلحاد، ومناقضة الشريعة، منها قضيب الذهب، وكتاب اللامع، وكتاب الفرند، وكتاب الزمردة، وغير ذلك وقد أجاب العلماء عن كل ما قاله من معارضة القرآن العظيم، وغيره من كفرياته، وبينوا وجه فساد ذلك بالحجج البالغة، فمن قوله لعنه الله، في كتاب الزمردة: إنّا نجد في كلام أكثم بن صيفي، ما هو أحسن من قوله: " إنا أعطيناك الكوثر " وقال: إن الأنبياء وقعوا طلسمات، جذبوا بها دواعي الخلق، كما يجذب المغناطيس الحديد، ووضع كتاباً لليهود وللنصارى، يتضمن مناقضة دين الإسلام، وقال لليهود: قولا عن موسى ابن عمران أنه قال لا نبي بعدي، وقال في كتاب الفرند: إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن، الذي تحدى به النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تقدر العرب على معارضته، فيقال لهم: أخبرونا لو ادعى مُدع لمن تقدم من الفلاسفة، مثل دعواكم في القرآن فقال: الدليل على صدق بطليموس وإقليدس، أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه، كانت نبوته تثبت. وقال: قوله تعالى " إن كيد الشيطان كان ضعيفاً " أي ضعف به، وقد أخرج آدم من الجنة، وله من هذا شيء كثير، أضربنا عن ذكره. وكان موته، لعنه الله، برحبة مالك بن طوق، وذكر أن عمره كان ستاً وثلاثين سنة، هكذا وجدت أخباره وتاريخ وفاته، في تاريخ القاضي شهاب الدين بن

أبي الدم الحموي، وقد وجدته في تاريخ القاضي شمس الدين بن خلكان، أن وفاته كانت في سنة خمس وأربعين ومائتين، وقيل في سنة خمسين ومائتين، والله أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائتين في هذه السنة أخذت القرامطة الحجاج من طريق العراق، وقتلوهم عن آخرهم، وكانت عدة القتلى عشرين ألفاً، وأخذوا منهم أموالاً عظيمة، وكان كبير القرامطة ذكرويه، فجهز المكتفي إليهم عسكراً، واقتتلوا، فانهزمت القرامطة، وقتل منهم خلق كثير، وأسر ذكرويه الملعون مجروحاً، فبقي ستة أيام ومات، وقدم العسكر برأسه إلى بغداد وطيف به. وفي هذه السنة توفي محمد بن نصر المروزي بسمرقند، وله تصانيف كثيرة. ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين في هذه السنة في صفر توفي إسماعيل بن أحمد بن أسد السماني، صاحب ما وراء النهر وخراسان، وولي بعده ابنه أبو نصر أحمد بن إسماعيل وأرسل له المكتفي التقليد. وفاة المكتفي في هذه السنة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، توفي المكتفي بالله أبو محمد علي بن "المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بالله أبي أحمد طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن هارون الرشيد، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وكان ربعة جميلا، رقيق السمرة، حسن الوجه، والشعر، وافر اللحية، وأمه أم ولد تركية تدعى جحك، وطالت مرضته عدة شهور، ودفن في دار محمد بن طاهر.

خلافة المقتدر بالله. أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله

وأمه أم ولد يقال لها شعب، وهو ثامن عشرهم، بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه المكتفي، وكان عمر المقتدر يوم بويع ثلاث عشرة سنة. موت الترمذي وفيها في المحرم توفي أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الترمذي، الفقيه الشافعي المحدث، روى عن يحيى بن بدير المصري، ويوسف بن عدي، وكثيرين يحيى وغيرهم، وروى عنه أحمد بن كامل الشافعي وغيره، وكان مولد الترمذي المذكور، سنة مائتين، وقيل ست عشرة ومائتين.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين. خلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز في هذه السنة خلع القواد والقضاة المقتدر، وبايعوا عبد الله بن المعتز، ولقبوه الراضي بالله، وجرت بين غلمان الدار المريدين للمقتدر، وبين المريدين لابن المعتز، حروب، وآخر ذلك أن عبد الله بن المعتز انهزم واختفى وتفرق

أصحابه، ثم أمسك عبد الله بن المعتز، وحبس ليلتين، وقتل خنقاً، وأظهروا أنه مات حتف أنفه، وأخرجوه إلى أهله، وكان مولد عبد الله بن المعتز لسبع بقين من شعبان، سنة سبع وأربعين ومائتين، وكان فاضلا شاعراً، وتشبيهاته وأشعاره مشهورة، وأخذ العلم عن المبرد، وثعلب، وتولى الخلافة يوماً واحداً، وقال حين تولى: قد آن للحق أن يتضح، وللباطل أن يفتضح، له الكلام البديع فمن ذلك قوله: أنفاس الحمى خطاه إلى أجله، ربما أورد الطمع ولم يصدر، يشفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك. وكان عبد الله بن المعتز آمناً في سربه، منعكفاً على طلب العلم والشعر، قد اشتهر عند الخلفاء أنه لم يؤهل نفسه للخلافة، فكان مستريحاً، إلى أن حمله على تولي الخلافة القوم الذين خذلوه بعد بيعته، وقد رثاه علي بن محمد بن بسام فقال:

لله درك من ملك بمضيعة ... ناهيك في العلم والآداب والحسب ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه ... وإنما أدركته حرفة الأدب وقد روى عنه أنه كان يقول: إنْ ولاني الله لأفنين جميع بني أبي طالب، فبلغ ذلك ولد علي فكانوا يدعون عليه. * * * "ابتداء الدولة العلوية الفاطمية وفي هذه السنة، أعني سنة ست وتسعين ومائتين، كان ابتداء ملك الخلفاء العلويين إفريقية، وانقرضت دولتهم بمصر، سنة سبع وستين وخمس مائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وأول من ولِي منهم، أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وقيل: هو عبيد "الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد اختلف العلماء في صحة نسبه. فقال القائلون بإمامته: إن نسبه صحيح، ولم يرتابوا فيه، وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب، إلى موافقتهم أيضاً، ويشهد بصحته ما قاله الشريف الرضي.

ما مُقامي على الهوان وعندي ... مقولٌ صارمٌ وأنفٌ حمي

ألبِسَ الذل في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي

مَنْ أبوه أبي ومولى مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي

لف عرقي بعرقه سيد النا ... سِ جميعاً محمد وعلي

وذهب آخرون إلى أن نسبهم مدخول، ليس بصحيح، وبالغ طائفة منهم إلى أن جعلوا نسبهم في اليهود، فقالوا: لم يكن اسم المهدي عبيد الله بل كان اسمه سعيد ابن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان، وقيل عبيد الله بن محمد، وقيل فيه سعيد بن الحسين، وأن الحسين المذكور قدم إلى سلمية، فجرى بحضرته حديث النساء، فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد بسلمية، مات عنها زوجها فتزوجها الحسين بن محمد المذكور لابن أحمد بن عبد الله القداح المذكور. وكان للمرأة ولد من اليهودي، فأحبه الحسين وأدبه، ومات الحسين ولم يكن له ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد وهو المهدي عبيد الله وعرفه أسرار الدعوة وأعطاه الأموال والعلامات، فدعا له الدعاة، وقد اختلف كلام المؤرخين، وكثر في قصة عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان المذكور، ونحن نشير إلى ذلك مختصراً. قالوا: ابن ديصان المذكور، هو صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة، وكان يظهر التشيع لآل النبي صلى الله عليه وسلم، ونشأ لميمون بن ديصان ولد يقال له عبد الله القداح، لأنه كان يعالج العيون ويقدحها، وتعلم من ميمون أبيه الحيل، وأطلعه أبوه على أسرار الدعاة لآل النبي صلى الله عليه سلم، ثم سار عبد الله القداح، من نواحي كرج وأصفهان، إلى الأهواز والبصرة وسلمية، من أرض حمص، يدعو الناس إلى آل البيت، ثم توفي عبد الله القداح وقام ابنه أحمد، وقيل محمد، مقامه، وصحبه إنسان يقال له رستم بن الحسين بن حوشب بن زادان النجار، من أهل الكوفة، فأرسله أحمد إلى الشيعة باليمن، وأن يدعو الناس إلى المهدي من آل محمد صلى الله عليه وسلم، فسار رستم بن حوشب إلى اليمن، ودعا الشيعة إلى المهدي، فأجابوه، وكان أبو عبد الله الشيعي من أهل صنعاء وقيل من أهل الكوفة، وسمع بقدوم ابن حوشب إلى اليمن، وأنه يدعو الناس إلى المهدي، فسار أبو عبد الله الشيعي من صنعاء إلى ابن حوشب، وكان بعَدن، فصحبه وصار من كبار أصحابه، وكان لأبي عبد الله الشيعي علم ودهاء، وكاَن قد أرسل ابن حوشب قبل ذلك، الدعاة إلى المغرب، وقد أجابه أهل كتامة، ولما رأى ابن حوشب، علْمَ أبي عبد الله الشيعي "ودهاه، أرسله إلى المغرب، إلى أهل كتامة، وأرسل معه جَملة من المال، فسار أبو عبد الله الشيعي إلى مكة، وهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، ولما قدم الحجاج مكة، اجتمع بالمغاربة من أهل كتامة، فرآهم مجيبين إلى ما يختار، فسار معهم إلى أرض كتامة من المغرب، فقدمها منتصف ربيع الأول، سنة ثمانين ومائتين، وأتاه البربر من كل مكان، وعظم أمره، وكان اسمه عندهم: أبا عبد الله المشرقي. وبلغ

أمره إلى إبراهيم بن أحمد الأغلبي أمير إفريقية إذ ذاك، فاستصغر أمر أبي عبد الله، واستحقره، ثم مضى أبو عبد الله إلى مدينة تاهرت، فعظم شأنه، وأتته القبائل من كل مكان، وبقي كذلك حتى تولى أبو نصر زيادة الله، آخر من ملك من بني الأغلب، وكان عم زيادة الله، ويعرف بالأحول، قبالة أبي عبد الله الشيعي، يقاتله، فلما تولى زيادة الله، أحضر عمه الأحول وقتله، فصفت البلاد لأبي عبد الله الشيعي.

اتصال المهدي عُبيد الله بأبي عبد الله الشيعي

كانت الدعاة بالمغرب يدعون إلى محمد، والد المهدي، وكان بسلمية، فلما توفي أوصى إلى ابنه عبيد الله المهدي، وأطلعه على حال الدعاة وشاع ذلك أيام المكتفي، فطلب، فهرب عبيد الله، وابنه أبو القاسم محمد، الذي ولي بعد المهدي، وتلقب بالقائم، وتوجها نحو المغرب، ووصل عبيد الله المهدي إلى مصر في زي التجار، وكان عامل مصر حينئذ عيسى النّوشري، وقد كتب إليه الخليفة، بتطلب عبيد الله المهدي، والتوقع عليه، فَجَدَّ المهدي في الهرب، وقدم طرابلس الغرب، وزيادة الله بن الأغلب متوقع عليه، وقد كتب إلى عماله بإمساكه متى ظفروا به، فهرب من طرابلس، ولحق بسجلماسة فأقام بها. وكان صاحب سجلماسة يسمى اليسع بن مدرار، فهاداه المهدي، على أنه رجل تاجر، قد قدم إلى تلك البلاد، فوصل كتاب زيادة الله إلى اليسع، يعلمه أن هذا الرجل، هو الذي يدعو له عبد الله الشيعي إليه، فقبض اليسع على عبيد الله المهدي، وحبسه بسجلماسة، ولما كان من قتل زيادة الله عمه الأحول، وهرب زيادة الله، واستيلاء أبي عبد الله الشيعي على إفريقية ما قدمنا ذكره، سار أبو عبد الله الشيعي من رقادة في رمضان من هذه السنة، أعني سنة ست وتسعين ومائتين، إلى سجلماسة، واستخلف أبو عبد الله الشيعي أخاه أبا العباس، وأبا زاكي على إفريقية. فلما قرب من سجلماسة، خرج صاحبها اليسع وقاتله، فرأى ضعفه عنه، فهرب اليسع تحت الليل، ودخل أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة، وأخرج المهدي وولده من السجن، وأركبهما ومشى هو ورؤوس القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يشير إلى المهدي ويقول للناس: هذا مولاكم، وهو يبكي من شدة الفرح، حتى وصل إلى فسطاط، قد نصب له، ولما استقر المهدي فيه، أمر بطلب اليسع صاحب سجلماسة، فأدرك وأحضر بين يديه، فقتله، وأقام المهدي بسجلماسة أربعين يوماً، وسار إلى إفريقية،

ووصل إلى رقادة، في ربيع الآخر، سنة سبع "وتسعين ومائتين، فدون الدواوين، وجبى الأموال، وبعث العمال إلى سائر بلاد المغرب، واستعمل على جزيرة صقلية الحسن ابن أحمد بن أبي حفتزير، وزال بملك المهدي ملك بني الأغلب، وملك بني مدرار أصحاب مملكة سجلماسة، وكان آخر بني مدرار اليسع، وكان مدة ملك بني مدرار مائة سنة وثلاثين سنة، وزال ملك بني رستم من تاهرت، وكانت مدة ملكهم مائة سنة وستين سنة.

قتل أبي عبد الله الشيعي أخيه أبي العباس لما استقرت قدم المهدي في المملكة، باشر الأمور بنفسه، ولم يبق لأبي عبد الله، ولأخيه أبي العباس مع المهدي حكم، والفطام صعب، فشرع أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي يندّم أخاه ويقول له: أخرجت الأمر عنك، وسلمته لغيرك. وأخوه ينهاه عن قول مثل ذلك، إلى أن أحنقه، وذلك يبلغ المهدي، حتى شرع يقول لرؤوس القبائل: ليس هذا المهدي الذي دعوناكم إليه. فطلبهما المهدي وقتلهما، كذا أورد ابن الأثير في الكامل، مقتل أبي عبد الله الشيعي المذكور في سنة ست وتسعين ومائتين، ورأيت مقتل أبي عبد الله في الجمع والبيان في تاريخ القيروان أنه كان في نصف جمادى الأولى، سنة ثمان وتسعين ومائتين، وهو الأصح عندي. وكذلك ذكر في تاريخ مقتله ابن خلكان، أنّه كان في سنة ثمان وتسعين ومائتين.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين، وسنة ثمان وتسعين ومائتين فيها توفي أبو القاسم جنيد بن محمد الصوفي، وكان إمام وقته، وأخذ الفقه عن أبي ثور صاحب الشافعي، وأخذ التصوف عن سري السقطي. ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين في هذه السنة قبض المقتدر على وزيره أبي الحسين بن الفرات، ونهب داره، وهتك حرمه، وولى الوزارة أبا علي محمد ابن يحيى بن عبيد الله ابن خاقان، وكان الخاقان المذكور ضجوراً، وتحكمت عليه أولاده، فكل منهم يسعى لمن يرتشي منه، فكان يولي العمل الواحد عدة من العمال في الأيام القليلة، حتى أنه ولى ماء الكوفة، في عشرين يوماً، سبعة من العمال، فقيل فيه:

وزير قد تكامل في الرقاعه ... يولي ثم يعزل بعد ساعه

إذا أهل الرشا اجتمعوا عليه ... فخير القوم أوفرهم بضاعه

والخليفة مع ذلك، يتصرف على مقتضى إشارة النساء والخدام، ويرجع إلى قولهم وآرائهم، فخرجت الممالك، وطمع العمال في الأطراف. وفي هذه السنة توفي أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي، وكان عالماً بنحو البصريين والكوفيين. وفيها توفي إسحاق بن حنين الطبيب. ثم دخلت سنة ثلاثمائة فيها عزل المقتدر الخاقاني عن الوزارة، وولاها علي بن عيسى. وفاة عبد الله صاحب الأندلس في هذه السنة، توفي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن "الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، طريد رسول الله صلى الله عيه وسلم، في ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكان أبيض، أصهب، أزرق، ربعة، يخضب بالسراد، وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وكسراً، لأنه تولى في سنة خمس وسبعين ومائتين، ورزق إحدى عشر ولداً ذكراً، أحدهم محمد المقتول، قتله أبوه المذكور، في حد من الحدود، وهو والد عبد الرحمن الناصر. ولما توفي عبد الله، ولى ابن ابنه واسمه عبد الرحمن بن محمد المقتول بن عبد الله المذكور، وتولى عبد الرحمن بحضرة أعمامه، وأعمام أبيه، ولم يختلفوا عليه، وهذا عبد الرحمن، هو الذي يسمى الناصر فيما بعد. ثم دخلت سنة إحدى وثلاثمائة. مقتل أحمد الساماني في هذه السنة قتل الأمير أحمد بن إسماعيل الساماني، صاحب خراسان وما وراء النهر، ذبحه بالليل جماعة من غلمانه على سريره، وهربوا ليلة الخميس، لسبع بقين من جمادى الآخرة، وكان قد خرج إلى البر متصيداً، فحمل إلى بخارى ودفن بها، وظفروا ببعض أولئك الغلمان فقتلوهم، وولي الأمر بعده، ولده أبو الحسن نصر ابن أحمد، وهو ابن ثمان سنين. قتل كبير القرامطة وفي هذه السنة قتل أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، كبير القرامطة، قتله خادم له صقلبي، في الحمام، ولما قتله، استدعى رجلا آخر من أكابر رؤسائهم، وقال له: إن الرئيس يستدعيك، فلما دخل قتله، وفعل كذلك بغيره، حتى قتل أربعة أنفس من كبرائهم، ثم علموا به فاجتمعوا عليه وقتلوه، وكان أبو سعيد الجنابي، قد جعل ولده سعيداً الأكبر ولي عهده، فتولى بعده، وعجز عن القيام بالأمر، فغلبه أخوه الأصغر، أبو طاهر سليمان، وكان شهماً شجاعاً، واستولى على الأمر، ولما قتل أبو سعيد، كان مسستولياً على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة، سير المهدي العلوي جيشاً مع ولده أبي القاسم محمد، إلى ديار مصر، فاستولى على الإسكندرية، والفيوم، فسيّر إليهم المقتدر، مع مؤنس الخادم جيشاً، فأجلاهم عن ديار مصر، وعادوا إلى المغرب، وفيها توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد المقري الثقفي. وفيها توفي محمد بن يحيى بن مندة الحافظ المشهور،

صاحب تاريخ أصفهان، كان أحد الحفاظ الثقاة، وهو من أهل بيت كبير، خرج منه جماعة من العلماء. ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثمائة في هذه السنة، قبض المقتدر على الحسين بن عبد الله، المعروف بابن الجصاص الجوهري، وأخذ منه من صنوف الأموال ما قيمته أربعة آلاف ألف دينار، وأكثر من ذلك، "وفي هذه السنة أرسل المهدي العلوي، جيشاً مع مقدم يقال له جاشه في البحر، فاستولى على الإسكندرية، وأرسل المقتدر جيشاً مع مؤنس الخادم، فاقتتلوا بين مصر والإسكندرية أربع دفعات، انهزمت فيها المغاربة، وعادوا إلى بلادهم، وقتل من الفريقين خلق كثير. وفي هذه السنة انتهى تاريخ أبي جعفر الطبري. وفيها، وقيل في السنة التي قبلها، توفي علي بن أحمد بن منصور، الشاعر المعروف بالبسامي، وكان من أعيان الشعراء، كثير الهجاء، هجا أباه وأخوته وأهل بيته، وعمل في القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد.

قل لأبي القاسم المرزي ... قاتلك الدهر بالعجائبِ

مات لك ابن وكان زينا ... وعاش ذو الشين والمعايبِ

حياة هذا كموتِ هذا ... فلستَ تخلو منَ المصائب

وله في المتوكل لما هدم قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما، ومنع الناس من زيارته.

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتيل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما

أسِفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة. بناء المهدية في هذه السنة، اختار المهدي موضع المهدية على ساحل البحر، وهو جزيرة متصلة بالبر، كهيئة كفّ متصلة بزند، فبناها وجعلها دار ملكه، وجعل لها سوراً محكماً، وأبواباً عظيمة، وزن كل مصراع مائة قنطار، وكان ابتداء بنائها يوم السبت في هذه السنة، لخمس خلون من ذي القعدة، ولما تم بناؤها قال المهدي: الآن أمنت على الفاطمية بحصانتها وفي هذه السنة أغارت الروم على الثغور الجزرية، فغنموا وسبوا. وفي هذه السنة توفي أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي صاحب كتاب السنن بمكة، ودفن بين الصفا والمروة، وكان إماماً حافظاً محدثاً، رحل إلى نيسابور، ثم إلى العراق، ثم إلى الشام ومصر، ثم عاد إلى دمشق، فامتحن في معاوية، وطُلب منه أن يروى شيئاً من فضائله، فامتنع وقال: ما يرضى معاوية أن يكون رأساً برأس،

حتى يفضل. فقيل إنه وقع في حقه مكروه، وحمل إلى مكة فتوفي بها. وفيها توفي أبو علي محمد بن عبد الوهاب المعتزلي. ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة فيها توفي الناصر العلوي صاحب طبرستان وعمره تسع وسبعون سنة، وكان يقال له الأطروش. واسمه الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكان قد ملك طبرستان في سنة إحدى وثلاثمائة، واستولى على مملكتها، ثم قام بعد الناصر المذكور، الحسن بن القاسم العلوي، ويلقب بالداعي، وقتل في سنة ست عشرة وثلاثمائة، وانقرض بموته ملك العلويين من طبرستان. وفيها توفي "يوسف ابن الحسين بن علي الرازي، صاحب ذي النون المصري وهو صاحب قصة الغار معه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثمائة في هذه السنة مات أبو جعفر محمد بن عثمان العسكري، المعروف بالسمان، ويعرف أيضاً بالعمري، رئيس الإمامية. وكان يدعي أنه الباب إلى الإمام المنتظر. وفيها قدم رسول ملك الروم إلى بغداد، فلما استحضروا عبئ لهم العسكر وصفت الدار بالأسلحة، وأنواع الزينة، وكان جملة العسكر المصفوف حينئذ مائة ألف وستين ألفاً، ما بين راكب وواقف ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة، ووقف الخدام الخصيان كذلك كانوا سبعة آلاف، أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف أسود، ووقف الحجاب كذلك، وهم حينئذ سبع مائة حاجب، وألقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة، وزينت دار الخلافة، فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها ديباج مذهبة اثنا عشر ألفاً وخمس مائة، وكانت البسط اثنين وعشرين ألفاً، وكان هناك مائة سبع، مع مائة سباع، وكان في جملة الزينة، شجرة من ذهب وفضة، تشتمل على ثمانية عشر غصناً، وعلى الأغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة، وكذلك أوراق الشجرة من الذهب والفضة، والأغصان تمايل بحركات موضوعة، والطيور تصفر بحركات مرتبة، وشاهد الرسول من العظمة ما يطول شرحه، وأحضر بين يدي المقتدر، وصار الوزير يبلغ كلامه إلى الخليفة، ويرد الجواب عن الخليفة. ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة في هذه السنة جعل على شرطة بغداد نجح الطولوني فجعل في الأرباع فقهاء، يكون عمل أصحاب الشرطة بفتواهم، فضعفت هيبة السلطنة بسبب ذلك، فطمع اللصوص والعيارون، وأخذت ثياب الناس في الطرق المنقطعة، وكثرت الفتن. إرسال المهدي العلوي ابنه القائم بعساكر إفريقية إلى مصر وفي هذه السنة جهز المهدي جيشاً كثيفاً مع ابنه القائم إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية، واستولى عليها، ثم سار حتى

دخل الجيزة، وملك أشمونين، وكثيراً من الصعيد، وبعث المقتدر مؤنساً الخادم، فوصل إلى مصر، وجرى بينه وبين القائم عدة وقعات، ووصل إلى الإسكندرية من إفريقية ثمانون مركباً نجدة للقائم، وأرسل المقتدر مراكب من طرسوس، إلى قتال مراكب القائم، وكانت خمسة وعشرين مركباً، فالتقت المراكب المراكب على رشيد، واقتتلوا، واقتتلت العساكر في البر، وكانت الهزيمة على عسكر المهدي ومراكبه، فعادوا إلى إفريقية بعد أن قتل منهم وأُسر. وفي هذه السنة توفي القاضي محمد بن خلف بن حيان الضبي المعروف بوكيع، وكان عالماً بأخبار الناس، وله تصانيف حسنة. وفيها في جمادى الأولى توفي الإمام أبو العباس أحمد بن سريج الفقيه الشافعي، وكان من عظماء الشافعية، وأئمة المسلمين، وكان يقال له الباز الأشهب، وولي القضاء بشيراز، وبلغت مصنفاته أربع مائة " مصنف، ومنه انتشر مذهب الشافعي في الآفاق، وكان يقال في عصره، إن الله أظهر عمر بن عبد العزيز على رأس المائة من الهجرة، وأحيى كل سنة، وأمات كل بدعة، ثم منّ الله على الناس بالشافعي على رأس المائتين. فأظهر السنة، وأخفى البدعة، ومن الله على رأس الثلاثمائة بابن سريج، فقوّى كل سنْة، وضعف كل بدعة، وكان جده سريج رجلا مشهوراً بالصلاح.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثمائة. انقراض دولة الأدارسة العلويين من كتاب المغرب في أخبار أهل المغرب أن دولتهم انقرضت غي هذه السنة، أقول: كنا سقنا أخبارهم إلى محمد بن إدريس بن إدريس في سنة أربع عشرة ومائتين، وأن محمداً المذكور لما تولى، فرّق غالب بلاده على أخوته، حسبما قدمنا ذكره في السنة المذكورة، وأنه أعطى أخاه عمر صنهاجة وغمارة، وبقي محمد هو الإمام حتى توفي، ولم يقع لنا تاريخ وفاته، فلما مات محمد ملك بعده ابن أخيه علي بن عمر المذكور ابن إدريس بن إدريس، وكانت إمامة علي المذكور مضطربة، لم يتم له فيها أمر، نخلع عن قرب، وولي بعده ابن أخيه يحيى بن إدريس عمران إدريس ابن إدريس، وهذا يحيى هو آخر أمتهم بفاس، وانقرضت دولتهم في هذه السنة، أعني سنة سبع وثلاثمائة، وتغلب عليهم فضالة بن جبوس، ثم ظهر من الأدارسة حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، ورام رد الدولة، وقد أخذت في الاختلال، ودولة المهدي عبيد الله في الإقبال، فملك عامين، ولم يتم له مطلب، وانقرضت دولتهم من جميع المغرب الأقصى، وحمِل غالب الأدارسة إلى المهدي المذكور، وولده، الأمن اختفى منهم في الجبال إلى أن ثار بعد الأربعين والثلاثمائة إدريس من ولد محمد بن القاسم بن إدريس، فأعاد الإمامة لهذا البيت، ثم تغلب على بر العدوة، عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، وخطب في تلك

البلاد لبني أمية، ثم رجع عبد الملك إلى الأندلس، فاضطربت ببر العدوة دولته، فتغلب على قاس بنو أبي العافية، الزناتيون، حتى ظهر يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين، واستولى على تلك البلاد.

ثم دخلت سنة ثمان وسنة تسع وثلاثمائة. مقتل الحُسين بن منصور الحلاج كان الحسين بن منصور الحلاج الصوفي، يظهر الزهد والتصوف، ويظهر الكرامات، ويخرج للناس فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ويمد يده إلى الهواء، ويعيدها مملوءة دراهم، عليها مكتوب قل هو الله أحد، ويسميها دراهم القدرة، ويخبر الناس بما أكلوه، وما صنعوه في بيوتهم، ويتكلم بما في ضمائرهم، فافتتن به خلق كثير، واعتقدوا فيه الحلول، واختلف الناس فيه، كاختلافهم في المسيح، فمن قائل إنه قد حلّ فيه جزء إلهي، ومن قائل إنه ولي "وما يظهر منه كراماته، ومن قائل إنه مشعبذ ومتكهن وساحر كذاب. وقدم من خراسان إلى العراق، وسار إلى مكة، وأقام بها سنة في الحجر، لا يستظل تحت سقف، وكان يصوم الدهر، وكان يفطر على ماء، ويأكل ثلاث عضات من قرص خَشْب، ولا يتناول شيئاً آخر، ثم عاد الحسين إلى بغداد، فالتمس حامد الوزير، من المقتدر، أن يسلم إليه الحلاج، فأمر بتسليمه إليه، وكان حامد يخرج الحلاج إلى مجلسه، ويستنطقه، فلا يظهر منه ما تكرهه الشريعة، وحامد الوزير مجد في أمره ليقتله، وجرى له معه ما يطول شرحه، وفي الآخر إن الوزير رأى له كتاباً، حكى فيه أن الإنسان إذا أراد الحج، ولم يمكنه، فرد من داره بيتاً نظيفاً من النجاسات، ولا يدخله أحد، وإذا حضرت أيام الحج، طاف حوله، وفعل ما يفعله الحجاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيماً، ويعمل أجود طعام يمكنه، ويطعمهم في ذلك البيت، ويكسوهم، ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم، فإذا فعل ذلك كان كمن حج، فأمر الوزير بقراءة ذلك قدام القاضي أبي عمرو، فقال القاضي للحلاج: من أين لك هذا؟ فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري فقال له القاضي: كذبت. يا حلال الدم، قد سمعناه بمكة، وليس فيه هذا، فطالب الوزير القاضي أبا عمرو أن يكتب خطه بما قاله، أنه حلاّل الدم، فدافعه القاضي، ثم ألزمه الوزير، فكتب بإباحة دم الحلاج، وكتب بعده من حضر المجلس، فلما سمع الحلاج ذلك قال: ما يحل لكم دمي وديني الإسلام، ومذهبي السنة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي، وكتب الوزير إلى الخليفة يستأذنه في قتله، وأرسل الفتاوي بذلك، فأذن المقتدر في قتله، فضرب ألف سوط، ثم قطعت يده، ثم رجله، ثم قتل وأحرق بالنار، ونصب رأسه ببغداد. وفي هذه السنة توفي أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل

بن عطا الصوفي، من كبار مشايخهم وعلمائهم، وإبراهيم بن هارون الحراني الطبيب. ثم دخلت سنة عشر وثلاثمائة في هذه السنة توفي أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين بأم طبرستان، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، وكان من المجتهدين، لم يقلد أحداً، وكان فقيهاً عالماً عارفاً بأقاويل الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وله التاريخ المشهور، ابتدأ فيه من أول الزمان، إلى آخر سنة اثنتين وثلاثمائة، وكتاب في التفسير لم يفسر مثله، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، ولما مات تعصبت عليه العامة، ورموه بالرفض، وما كان سببه إلا أنه صنف كتاباً فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن أحمد بن حنبل فقيهاً، وإنما كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشنعوا عليه بما أرادوه. وفيها توفي في ذي الحجة أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي، المعروف بابن السراج، كان أحد الأئمة المشاهير، أخذ العلم عن أبي العباس المبرد، وأخذ عنه النحو جماعة، منهم أبو سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرماني، وغيرهما، ونقل عنه الجوهري "في الصحاح، في مواضع عديدة، وله عدة مصنفات مشهورة. وكان مع كمال فضائله يلثغ في الراء، يجعلها غيناً، فأملى كلاماً يوماً بالراء، فكتبوه بالغين، فقال: لا بالغين بل بالغاء، وجعل يكررها على هذه الصورة، والسراج نسبة إلى عمل السروج، وقيل كانت وفاته في سنة خمس عشرة وثلاثمائة. ثم دخلت سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وفي هذه السنة كبست القرامطة، وكبيرهم أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجاني، البصرة ليلاً، وعلوا على أسوارها، وقتلوا عاملها، وأقاموا بها سبعة عشر يوماً، يقتلون ويحملون منها الأموال. وفي هذه السنة توفي أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجُريري، بضم الجيم، وهو من مشاهير مشايخ الصوفية، وإبراهيم بن السري الزجاج النحوي، صاحب كتاب معاني القرآن. وفيها توفي محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور، وكان في شبيبته يضرب بالعود، فلما التحى قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستحسن، فتركه وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة، وقد جاوز الأربعين سنة، وطال عمره، وبلغ في معرفة العلوم التي اشتغل فيها الغاية، وصار إمام وقته في علم الطب، والمشار إليه، وصنف في الطب كتباً نافعة، فمنها الحاوي في مقدار ثلاثين مجلداً، وكتاب المنصوري وهو كتاب مختصر نافع، صنفه لبعض الملوك السامانية، ملوك ما وراء النهر. ثم دخلت سنة اثني عشرة وثلاثمائة في هذه السنة أخذ أبو طاهر القرمطي، الحجاج، وأخذ منهم أموالا عظيمة، وهلك أكثرهم بالجوع والعطش. وفي هذه السنة قبض المقتدر على وزيره أبي الحسن بن

الفرات، ثم سعوا في قتله، فأمر بقتله فذبح هو وولده المحسن، وكان عمر ابن الفرات إحدى وسبعين سنة، وكان عمر ولده المحسن ثلاثاً وثلاثين سنة، واستوزر المقتدر بعده أبا القاسم الخاقاني. غير ذلك وفيها سار أبو طاهر القرمطي إلى الكوفة، ودخلها بالسيف، وقتل فيها، وحمل منها شيئاً كثيراً، وأقام ستة أيام يدخل الكوفة نهاراً، ويخرج منها إلى عسكره، ليلاً، وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب. ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة في هذه السنة توفي عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، وكان عمره مائة سنة وسنتين، وفيها توفي علي بن محمد بن بشار الزاهد. ثم دخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة في هذه السنة قلد المقتدر، يوسف ابن أبي الساج نواحي المشرق، وأمره بالمسير إلى واسط، لمحاربة القرامطة، وكان يوسف المذكور بأذربيجان، فسار إلى واسط لمحاربة القرامطة. وفي هذه السنة استولى نصر بن أحمد الساماني على الري، ومرض بها ثم سار عنها. ثم دخلت سنة خمس عشرة وثلاثمائة. أخبار القرامطة ومقتل ابن أبي السّاج في هذه السنة وصلت القرامطة إلى الكوفة، فسار إليهم يوسف بن أبي الساج من واسط،"بعسكر ضخم، تقدير أربعين ألفاً، وكانت القرامطة ألفاً وخمس مائة رجل، منهم سبع مائة فارس، وثمان مائة راجل، فلما رآهم أبو الساج احتقرهم، وقال: صدروا الكتب إلى الخليفة بالفتح، فهؤلاء في يدي، واقتتلوا، فحملت القرامطة، فانهزم عسكر الخليفة، وأخذ يوسف بن أبي الساج مقدم العسكر أسيراً، ثم قتله أبو طاهر القرمطي، واستولى على الكوفة، وأخذ منها شيئاً كثيراً ثم جهز المقتدر إلى القرامطة مؤنساً الخادم في عساكر كثيرة، فانهزم أكثر العسكر منهم قبل الملتقى، ثم التقوا، فانهزمت عساكر الخليفة، ووقع الجفل في بغداد خوفاً من القرامطة، ونهب القرامطة غالب البلاد الفراتية، ثم عادوا إلى هجر بالغنائم.

غير ذلك من الحوادث في هذه السنة، ظفر عبد الرحمن الناصر بن محمد الأموي صاحب الأندلس، بأهل طليطلة، بعد حصارها مدة، لخلافهم عليه، وأخرب كثيراً من عمارتها.

ثم دخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة في هذه السنة دخلت القرامطة إلى الرحبة، فنهبوا وسبوا ثم ساروا إلى الرقة، فنهبوا ربضها، ثم ساروا إلى سنجار فنازلوها، وطلب أهلها الأمان فأمنوهم، ثم نهبوا الجبال وغيرها من البلاد، وعادوا إلى هجر. وفي هذه السنة عزل المقتدر علي بن عيسى الوزير، وقبض عليه، وولى الوزارة أبا علي بن مقلة.

ابتداء أمر مرداويج وكان قد استولى على جرجان، أسفار بن شيرويه، سنة خمس عشرة وثلاثمائة وكان في أصحاب أسفار، قائد من أكبر قواده، يقال له مرداويج بن زيار، من الديلم. فخرج مرداويج على أسفار، بعد أن بايع غالب العسكر في الباطن، فهرب أسفار، فطلبه مرداويج فأدركه وقتله، وابتدأ مرداويج في ملك البلاد من هذه السنة، فملك قزوين، ثم ملك الري، وهمدان، وكنكور، والدينور، وبروجرد، وقم، وقاشان، وأصفهان، وجرباذقان، وعمل له سريراً من ذهب، يجلس عليه، ويقف عسكره صفوفاً بالبعد عنه، ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب، الذين قد رتبهم لذلك، ثم استولى مرداويج على طبرستان. غير ذلك في هذه السنة، وصل الدمستق في جيش كبير من الروم، وحصر أخلاط، فطلبوا الصلح، فأجابهم على أن يقلع منبر الجامع، ويعمل موضعه صليباً، فأجابوا إلى ذلك، وأخرجوا المنبر وجعلوا مكانه الصليب، ورحل إلى بدليس، ففعل بهم كذلك، والدمستق اسم للنائب على البلاد التي في شرقي خليج قسطنطينية. وفيها مات يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الإسفراييني، وله مسند مخرج على صحيح مسلم. وكنيته أبو عوانة الحافظ، طاف البلاد في طلب الحديث، سمع مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، وغيره من أئمة الحديث.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة."""؟ خلع المقتدر في هذه السنة خلع المقتدر بالله من الخلافة، بسبب ما أنكره الجند والقواد عليه، من استيلاء النساء والخدام على الأمور، وكثرة ما أخذوا من الأموال والضياع، وانضم إلى ذلك وحشة مؤنس الخادم. من المقتدر، فاجتمعت العساكر إلى مؤنس، وقصدوا دار الخلافة، وأخرجوا المقتدر، ووالدته، وخالته، وخواص جواريه، وأولاده، من دار الخلافة، وحملوا إلى دار مؤنس واعتقلوا بها، وأحضروا أخاه محمد بن المعتضد وبايعوه ولقبوه القاهر بالله، بعد أن ألزموا المقتدر بأن يشهد عليه بالخلع، فأشهد عليه القاضي أبا عمرو، بأنه خلع نفسه، ونهبت دار الخلافة، واستخرجوا من قبر في تربة بنتها أم المقتدر، ستمائة ألف دينار.

عودة المقتدر إلى الخلافة فلما كان يوم الاثنين، سابع عشر المحرم، ثالث يوم خلع المقتدر، بكر الناس إلى دار الخلافة، حتى امتلأت الرحاب، لأنه يوم موكب، ولم يحضر مؤنس المظفر ذلك اليوم، وحضرت الرجال المصافية بالسلاح، يطالبون بحق البيعة، وارتفعت زعقاتهم، فخرج من عند القاهر ياروك، ليطيب خواطرهم، فرأى في أيديهم السيوف المسلولة، فخافهم فرجع، وتبعوه فقتلوه في دار الخلافة، وصرخوا: يا مقتدر يا منصور، وهجموا على القاهر، فهرب واختفى، وتفرق عنه الناس، ولم

يبق بدار الخلافة أحد، ثم قصد الرجالة دار مؤنس الخادم، وطلبوا المقتدر منه، فأخرجه وسلمه إليهم، فحمله الرجالة على رقابهم حتى أدخلوه إلى دار الخلافة، ثم أرسل المقتدر خلف أخيه القاهر بالأمان وأحضره، وقال: قد علمت أنه لا ذنب لك، وقيل بين عينه وأمنه، فشكر إحسانه. ثم حبس القاهر عند والدة المقتدر، فأحسنت إليه ووسعت عليه، واستقر المقتدر في الخلافة، وسكنت الفتنة، وكان أشار مؤنس إعادة المقتدر إلى الخلافة، وإنما خلعه موافقة للعسكر. ما فعله القرامطة بمكة وأخذهِم الحجر الأسود وفي هذه السنة، وافى أبو طاهر القرمطي مكة، يوم التروية، وكان الحجاج قد وصلوا إلى مكة سالمين، فنهب أبو طاهر أموال الحجاج وقتلهم، حتى في المسجد الحرام وداخل الكعبة، وقلع الحجر الأسود من الركن، ونقله إلى هجر، وقتل أمير مكة ابن محلب وأصحابه، وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الباقين في المسجد الحرام، حيث قتلوا، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه. * * * "[خلافة القاهر بالله] وهو تاسع عشرهم، كان مؤنس الخادم قد أشار بإقامة ولد المقتدر، أبي العباس، فاعترض عليه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي بأن هذا صبي، ولا يولى إلا من يدبر نفسه ويدبرنا، وكان في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه، فإن القاهر قتل النوبختي المذكور فيما بعد، فأحضروا" "القاهر بالله، وهو محمد بن المعتضد، وبايعوه لليلتين بقيتا من شوال هذه السنة، ثم أحضر القاهر أم المقتدر وسألها عن الأموال، فاعترفت بما عندها من المصاغ والثياب فقط، فضربها أشد ما يكون من الضرب، وكانت مريضة، قد بدأ بها الاستسقاء، ثم علقها برجلها، فحلفت أنها ما تملك غير ما أطلعته عليه، واستوزر القاهر أبا علي بن مقلة، وعزل وولى وقبض على جماعة من العمال.

غير ذلك وفي هذه السنة. توفي القاضي أبو عمرو محمد بن يوسف، وكان فاضلاً. وأبو الحسين ابن صالح الفقيه الشافعي، وكان عابداً. وأبو نعيم عبد الملك الفقيه الشافعي الجرجاني المعروف بالأشتر الأسترابادي.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة فيها في جمادى الآخرة، ماتت شعب، والدة المقتدر، ودفنت في تربتها بالرصافة. وفي هذه السنة حصلت الوحشة بين مؤنس وبين القاهر، وكان مؤنس قد أقام بليق حاجباً، وجعل أمر دار الخلافة إليه، فضيق على القاهر، ومنع دخول امرأة إلى دار

الخلافة، حتى يعرف من هي، فإن القاهر، قد استمال جماعة في الباطن، للقبض على بليق، الحاجب ومؤنس، واتفق مع القاهر على ذلك، طريف السبكري وهو من أكبر القواد.

القبض على مؤنس الخادم وبليق في هذه السنة، في أول شعبان، قبض القاهر بالله على بليق الحاجب وابنه ومؤنس، لأنهم اتفقوا على خلع القاهر، وإقامة أبي أحمد بن المكتفي، واتفق معهم الوزير ابن مقلة على ذلك، فاستمال القاهر طريف السبكري، واتفق معه ومع الساجية، على قبض ابن بليق، وأمكنهم في الدهاليز والممرات، وحضر ابن بليق بجماعة، وقصد الاجتماع بالخليفة، وأظهر أنه يريد الاجتماع به بسبب القرامطة، وكان قصده القبض على الخليفة، ولم يعلم ابن بليق بما أعد له القاهر، فلما دخل دار الخلافة، قبض عليه، وبلغ أباه بليق ذلك، وكان منقطعاً في داره بسبب مرض حصل له، فركب وحضر إلى دار الخلافة بسبب ذلك، فقبض عليه أيضاً، ثم أرسل القاهر يستدعي مؤنساً فامتنع عن الحضور، فحلف له أنه آمن، ويريد أن يعرفه ما بلغه من اتفاق بليق وابنه على خلعه، فإن كان كذباً أفرج عنهما، وما زال يحلف لمؤنس حتى حضر، فقبض عليه أيضاً، وعزل أبا علي بن مقلة، واستوزر أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله، ثم جد في طلب أبي أحمد ابن المكتفي، فظفر به فبنى عليه حائطاً فمات.

قتل مؤنس وبليق وابنه لما أمسك القاهر المذكورين، شغب الجند أصحاب مؤنس، وكانوا غالب العسكر، وثاروا بسبب حبس مؤنس، فطلبوا إطلاقه، فعمد القاهر إلى ابن بليق، وذبحه ووضع رأسه في طست، وكان""قد حبسهم متفرقين، ثم أحضر الرأس في الطست إلى أبيه بليق، فأخذ أبوه يبكي ويترشف الرأس، ثم قتله القاهر، وجعل رأس بليق مع رأس ولده في الطست، وأحضرهما إلى مؤنس فلما رأى مؤنس الرأسين، تشاهد ولعن قاتلهما، فقتله أيضاً، وأطلع ثلاثة رؤوسهم، فطيف بها في بغداد، ونودي هذا جزاء من يخون الإمام، ثم نظفت وجعلت الرؤوس في خزانة الرؤوس، على جاري عادتهم، ثم عزل القاهر أبا جعفر الوزير وولي الخصيبي الوزارة، ثم قبض على طريف السبكري، وكان من أكبر القواد، وهو الذي اتفق مع القاهر على قبض مؤنس وغيره، ولولاه لم يقدر القاهر على فعل ما فعله.

ابتداء دولة بني بويه كان بويه رجلاً متوسط الحال من الديلم، وكنيته أبو شجاع، ولما عظمت مملكة بني بويه، اشتهر نسبهم، فقالوا بويه بن فنا خسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزير الأصغر بن شيركنده بن شيرزير الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن بستان شاه بن شيرفيروز بن شيروزيك بن سبسذا بن بهرام جور الملك ابن يزد جرد الملك، وباقي النسب إلى أزدشير بن بابك، قد تقدم في أخبار ملوك الفرس الأكاسرة.

وكان لبويه المذكور ثلاثة أولاد، وهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد، أولاد بويه أبي شجاع المذكور، وكانوا في خدمة ماكان بن كاكي الديلمي، ولما ملك من الديلم أسفار بن شيرويه، ومرداويج على ما أشرنا إليه، ملك ماكان بن كاكي الديلمي طبرستان، وكان أولاد بويه الثلاثة المذكورون من جملة عسكره، متقدمين عنده، فلما استولى مرداويج على ماكان بيد ماكان بن كاكي من طبرستان، سار ماكان عن طبرستان، واستولى على الدامغان، ثم انهزم ما كان بن كاكي وعاد إلى نيسابور مهزوماً، وأولاد بويه المذكورون معه لا يفارقونه، فلما رأوا ضعفه وعجزه عن مقاتلة مرداويج قالوا: نحن معنا جماعة، وأنت مضيق، والأصلح أن نفارقك لنخف المؤنة عنك، فإذا صلح أمرك، عدنا إليك، فأذن لهم ففارقوه ولحقوا بمرداويج، وتبعهم في ذلك جماعة من قواد ماكان، فأحسن إليهم مرداويج، وقلد عماد الدولة علي بن بويه كرج، ولما استقر عماد الدولة في كرج، قوي وكثر جمعه، ثم أطلق مرداويج لجماعة من قواده مالاً على كرج، فلما وصلوا لقبض المال، أحسن إليهم علي بن بويه المذكور، واستمالهم فمالوا إليه، حتى أوجبوا طاعته. وبلغ ذلك مرداويج، فاستوحش من ابن بويه، ثم قصد ابن بويه المذكور أصفهان وبها ابن ياقوت، فاقتتلوا فانهزم ابن ياقوت واستولى ابن بويه على أصفهان وكان صحاب ابن بويه تسع مائة رجل، وعسكر ابن ياقوت عشرة آلاف، فلما هزم عماد الدولة بتسع مائة، عشرة آلاف، عظم في عيون الناس وقويت هيبته، وبقي مرداويج يراسل ابن بويه، ويستدعيه بالملاطفة، وابن بويه يعتذر ولا يحضر إليه، وأقام ابن بويه بأصفهان "شهرين، وجبى أموالها وارتحل إلى أرجان، وكان قد هرب إليها ابن ياقوت، واسمه أبو بكر، فانهزم من بين يدي ابن بويه بغير قتال، فاستولى ابن بويه على أرجان في ذي الحجة، سنة عشرين وثلاثمائة، ثم سار ابن بويه إلى النوبندجان، واستولى عليها في ربيع الآخر من هذه السنة أعني

سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ثم أرسل عماد الدولة، أخاه ركن الدولة، إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس، فاستخرج أموالها، ثم كان منهم ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

"[خلافة الراضي بالله]

وهو العشرون من خلفاء بني العباس. لما قبض على القاهر، كان أبو العباس أحمد بن المقتدر ووالدته محبوسين، فأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر، وسلموا عليه بالخلافة ولقبوه الراضي بالله، وبويع بالخلافة يوم الأربعاء، لست خلون من جمادى الأولى. في هذه السنة، أعني سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وأشار سيما القائد بوزارة ابن مقلة، فاستوزره الراضي بالله، وراودوا القاهر أن يشهد عليه بالخلع، فامتنع وهو في الحبس أعمى.

وفاة المهدي العلوي صاحب إفريقية

[وولاية ولده القائم]

في هذه السنة، في ربيع الأول، توفي المهدي عبيد الله العلوي الفاطمي بالمهدية، وأخفى ولده القائم أبو القاسم محمد موته سنة، لتدبير ما كان له، وكان عمر المهدي ثلاثاً وستين سنة، وكانت ولايته أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، ولما أظهر ابنه القائم وفاته بايعه الناس واستقرت ولايته. قتل ابن الشلمغاني

[وحكاية شيء من منصبه الخبيث]

في هذه السنة، قتل محمد بن علي الشلمغاني، وشلمغان المنسوب إليها، قرية بنواحي واسط وأحدث مذهباً مداره على حلول الإلهية، والتناسخ، والتشبيع، وقيل إنه اتبعه على ذلك الحسين بن القاسم بن عبيد الله، الذي وزر للمقتدر، واتبعه أيضاً أبو جعفر، وأبو علي ابنا بسطام، وإبراهيم بن أبي عون، وأحمد بن محمد بن عبدوس، وكان محمد الشلمغاني وأصحابه مستترين. فظهر في شوال من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فأمسكه ابن مقلة الوزير، فأنكر الشلمغاني مذهبه، وكان أصحابه يعتقدون فيه الإلهية، فأمسك وأُحضر إلى عند الراضي، وأمسك معه ابن أبي عون، وابن عبدوس، فأمروهما بصفع الشلمغاني فامتنعا، فلما أُكرِها، "مد ابن عبدوس يده وصفعه، وأما ابن أبي عون فإنه مد يده ليصفعه فارتعدت يده، فقبل لحية الشلمغاني ورأسه، وقال: إلهي وسيدي ورازقي. فقالوا

للشلمغاني: أما قلت إنك لم تدع الإلهية؟ فقال: إني ما ادعيتها قط وما عليّ من قول ابن أبي عون عني مثل هذا: ثم اصرفا وأحضر الشلمغاني عدة مرات بحضور الفقهاء، وآخر الأمر إن الفقهاء أفتوا بإباحة دمه، فصلب ابن الشلمغاني وابن أبي عون، في ذي القعدة من هذه السنة، وأحرقا بالنار، فمن مذهبه، لعنه الله، أنّ الله يحل في كل شيء على قدر ما يحتمله ذلك الشيء، وأن الله خلق الضد ليدل به على المضدود، فحلّ الله في آدم، وفي إبليس أيضاً، وكلاهما ضد لصاحبه، ومن مذهبه: أنّ الدليل على الحق، أفضل من الحق، وأن الضد أقرب إلى الشيء من شبهه، وأن الله إذا حلّ في جسد ناسوتي، أظهر فيه من القدرة ولمعجزة ما يدل على أنه هو، وأنّ الإلهية اجتمعت في نوح وإبليسه، ثم افترقت بعده، ثم اجتمعت في صالح وإبليسه، عاقر الناقة، ثم افترقت بعده، ثم اجتمعت في إبراهيم وإبليسه نمرود، ثم افترقت بعدهما، وكذلك القول في هارون وفرعون، ثم في سليمان وإبليسه، ثم في عيسى وإبليسه، ثم افترقت في الحواريين، ثم اجتمعت في علي بن أبي طالب وإبليسه. ومن مذهبه: أنه من احتاج الناس إليه، فهو إله، ومن مذهبه ومذهب أصحابه: أنهم يسمون موسى ومحمداً صلوات الله عليهما وسلامه، الخائنين، لأن هارون وعلياً، أرسلا موسى ومحمداً نخاناهما، وأن علياً أمهل محمداً صلى الله عليه وسلم عدة سني أصحاب الكهف، وهي ثلاثمائة وخمسون سنة، فإذا انقضت، انتقلت الشريعة. ومن مذهبه ترك الصلاة والصوم، وغيرهما من العبادات، ويبيحون الفروج، وأن يجامع الإنسان من شاء من ذوي رحمه، وأنه لا بد للفاضل منهم أن ينكح المفضول، ليولج النور فيه، وأنه من امتنع من ذلك، قلب في الدور الثاني امرأة، إذ كان مذهبهم التناسخ، ولعل هذه المقالة هي المقالة النصرية. غير ذلك من الحوادث وفي هذه السنة قتل إسحاق بن إسماعيل النوبختي، قتله القاهر قبل أن يخلع، وكان النوبختي المذكور، هو الذي أشار باستخلافه وفي هذه السنة سار الدمستق إلى بلاد الإسلام، ففتح ملطية بالأمان، بعد حصار طويل، وأخرج هلها، وأوصلهم إلى مأمنهم، وذلك في مستهل جمادى الآخرة، وفعل الروم الأفعال القبيحة بالمسلمين، وصارت أكثر البلاد في أيديهم. وفي هذه السنة توفي أبو نعيم الفقيه الجرجاني الأستراباذي، وأبو علي محمد الروزباري الصوفي. وفيها توفي حسين ابن عبد الله النساج الصوفي، من أهل سامراء، وكان من الأبدال، ومحمد بن علي بن جعفر الكتاني الصوفي المشهور، وهو من أصحاب الجنيد.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة." "في هذه السنة قتل مرداويج الديلمي، صاحب بلاد الجبل وغيرها وسبب ذلك: أنه لما كان ليلة الميلاد، من هذه السنة، أمر بأن تجمع الأحطاب وتلبس الجبال

والتلال، وخرج إلى ظاهر أصفهان لذلك، وجمع ما يزيد عن ألفي طائر من الغربان، ليعمل في أرجلها النفط، ليشعل ذلك كله ليلة الميلاد، وأمر بعمل سماط عظيم، فيه ألف فرس، وألفا رأس بقر، ومن الغنم والحلوى شيء كثير، فلما استوى ذلك ورآه، استحقره وغضب على أهل دولته، وكان كثير الإساءة إلى الأتراك الذين في خدمته، فلما انقضى السماط، وإيقاد النيران، وأصبح ليدخل إلى أصفهان، اجتمعت الجند المخدمة، وكثرت الخيل حول خيمته، فصار للخيل صهيل وغلبة حتى سمعها فاغتاظ، وقال: لمن هذه الخيل القريبة؟ فقالوا للأتراك. فأمر أن توضع سروجها على ظهور الأتراك، وأن يدخلوا البلد. كذلك، ففعل بهم ذلك فكان له منظر قبيح استقبحه الديلم والترك، فازداد حنق الأتراك عليه، ورحل مرداويج إلى أصفهان وهو غضبان، فأمر صاحب حرسه أن لا يتبعه في ذلك اليوم، ولم يأمر أحداً غيره ليجمع الحرس، ودخل الحمام، فانتهزت الأتراك الفرصة، وقتلوه في الحمام، وكان مرداويج قد تجبر وعتا، وعمل لأصحابه كراسي فضة يجلسون عليها، وعمل لنفسه تاجاً مرصعاً على صفه تاج كسرى، ولما قُتل قام بالأمر بعده أخوه وشمكير بن زيار. فتنة الحنابلة ببغداد وفيها عظم أمر الحنابلة على الناس، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة فإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، وفي مشي الرجال مع الصبيان، ونحو ذلك، فنهاهم صاحب الشرطة عن ذلك، وأمر أن لا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فلم يفد فيهم، فكتب الراضي توقيعاً ينهاهم فيه، ويوبخهم باعتقاد التشبيه، فمنه: إنكم تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيئتكم على هيئته، وتذكرون له الشعر القطط، والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا، وعدد فيه قبائح مذهبهم، وفي آخره أن أمير المؤمنين يقسم قسماً عظيماً، لئن لم تنتهوا، ليستعملن السيوف في رقابكم، والنار في منازلكم ومحالكم. ولاية الأخشيدية مصر وفي هذه السنة، تولى الأخشيدية وهو محمد بن طفج بن جف، مصر، من جهة الراضي. وكان الأخشيد المذكور قبل ذلك، قد تولى مدينة الرملة سنة ست عشرة وثلاثمائة من جهة المقتدر، وأقام بها إلى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة فوردت إليه كتب المقتدر بولايته دمشق، "فسار إليها وتولاها، وكان حينئذ المتولي على مصر أحمد بن كيغلغ، فما تولى الراضي، عزل أحمد بن كيغلغ، وولى الأخشيد المذكور مصر، وضم إليها البلاد الشامية، فسار الأخشيد من الشام إلى مصر، واستقر بها يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة. قتل أبي العلاء بن حمدان كان ناصر الحسن بن عبد الله

بن حمدان، هو أمير الموصل وديار ربيعة، وكان أول من تولى الموصل منهم، أبو ناصر الدولة المذكور، وهو عبد الله، وكنيته أبو الهيجاء، ولاه عليها المكتفي، وقيل أبو الهيجاء المذكور ببغداد، في المدافعة عن القاهر، لما قبض عليه، وكان ابنه ناصر الدولة المذكور نائباً عنه بالموصل، واستمر بها إلى هذه السنة، فضمن عمه أبو العلاء بن حمدان مابيد ابن أخيه، من ديوان الخليفة، بمال يحمله، وسار أبو العلاء إلى الموصل، فقتله ابن أخيه ناصر الدولة، فلما بلغ الخليفة ذلك، أرسل عسكراً إلى ناصر الدولة مع ابن مقلة الوزير، فلما وصل إلى الموصل، هرب ناصر الدولة، ولم يدركه، فأقام ابن مقلة بالموصل مدة، ثم عاد إلى بغداد، فعاد ناصر الدولة إلى الموصل، وكتب إلى الخليفة يسأله الصفح، وضمن الموصل بمال يحمله، فأجيب إلى ذلك. فتح جنوة وغيرها وفي هذه السنة سير القائم العلوي صاحب المغرب جيشاً من إفريقية في البحر، ففتحوا مدينة جنوة، وأوقعوا بأهل سردانية، وعادوا سالمين "ثم دخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة في هذه السنة، قبض الحجرية والمظفر بن ياقوت على الوزير ابن مقلة، لما حضر إلى دار الخلافة على العادة، وأرسلوا أعلموا الخليفة، فاستحسن ذلك، ثم اتفقوا" "على وزارة علي بن عيسى، فامتنع، فولوا الوزارة أخاه عبد الرحمن بن عيسى، ثم قبض عليه، وولوا الوزارة أبا جعفر محمد بن قاسم الكرخي. وفي هذه السنة قطع ابن رائق حمل واسط والبصرة، وقطع البديدي حمل الأهواز وأعمالها، فضاقت أموال بغداد، وعجز أبو جعفر الوزير فعزلوه، وكانت ولايته ثلاثة أشهر ونصف، واستوزر سليمان بن الحسن، ودام الحال على توقفه، فراسل الخليفة محمد بن رائق وهو بواسط يستقدمه ليقوم بالأمور وقلده إمارة الجيش، وأمر أن يخطب له على المنابر، وقدم ابن رائق بغداد في أواخر ذي الحجة من هذه السنة، وكان ابن رائق قد أمسك ساجية قبل دخوله إلى بغداد، فاستوحشت الحجرية منه، ومن حين دخل ابن رائق بطلت الوزارة من بغداد، وبقي ابن رائق هو الناظر في الأمور جميعها، وتغلب عمال الأطراف عليها، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق، وليس للخليفة فيها حكم، وأما باقي الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق المذكور. وخورستان في يد البريدي. وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه. وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس. والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة ابن بويه ويد وشمكير ابن زيار أخي مرداويج، يتنازعان عليها. والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان. ومصر والشام في يد الأخشيد محمد بن طغج والمغرب وإفريقية في يد القائم العلوي ابن المهدي. والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الأموي الملقب بالناصر. وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد بن سامان الساماني.

وطبرستان وجرجان في يد الديلم. والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي. "وأمسك ابن رائق بعض الأجناد الحجرية، وأجاب ابن البريدي إلى ما طلب منه، ثم عاد الراضي وابن رائق إلى بغداد، ثم نكث أبو عبد الله بن البريدي عما أجاب إليه، فأرسل ابن رائق عسكراً مع بجكم، واقتتل مع أبي عبد الله بن اليريدي، فانهزم ابن البريدي إلى عماد الدولة بن بويه، وطمّعه في العراق وهون عليه أمر الخليفة"

"ثم دخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة في هذه السنة سار معز الدولة بأمر أخيه عماد الدولة ابن بويه إلى الأهواز، وتلك البلاد، فاستولى عليها، وكان سبب ذلك مسير ابن البريدي إلى عماد الدولة كما أشرنا إليه. قطع يد أبي علي ابن مقلة وكان سببه: أنه سعى في القبض على ابن رائق، وإقامة بجكم موضعه وعلم ابن رائق بذلك، فحبسه الراضي لأجل ابن رائق وترددت الرسل بين الراضي وبين ابن رائق في معنى ابن مقلة مرات عدة، وآخرها أنهم أخرجوا ابن مقلة فقطعوا يده في منتصف شوال، وعولج فبرأ، وعاد يسعى في الوزارة، وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب، ثم بلغ ابن رائق سعيه، وأنه يدعو عليه وعلى الراضي، فأمر بقطع لسانه، فقطع، وضيق عليه في الحبس، ثم لحق ابن مقلة مع ما هو فيه الذرب، ولم يكن عنده في الحبس من يخدمه، فقاسى شدة إلى أن مات في الحبس، في شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، ودفن بدار الخليفة، ثم إن أهله سألوا فيه فنبش وسلم إليهم، فدفنوه في داره، ثم نبش ونقل إلى دار أخرى، ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث دفعات، ووزر لثلاثة خلفاء: المقتدر، والقاهر، والراضي. وسافر ثلاث سفرات، اثنتين إلى شيراز، وواحدة في وزارته إلى الموصل، ودفن بعد موته ثلاث مرات. استيلاء بجكم على بغداد وفي هذه السنة، سار بجكم من واسط إلى بغداد، غرة ذي القعدة، وجهز ابن رائق إليه عسكراً، فهزمهم بجكم، ولما قرب من بغداد هرب ابن رائق إلى عكبراَ، واستتر، ودخل "بجكم بغداد ثالث عشر ذي القعدة، فخلع عليه الراضي وجعله أمير الأمراء، وكانت مدة إمارة ابن رائق سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوماً، وهذا بجكم كان مملوكاً لوزير ماكان بن كاكي الديلمي. ثم أخذه ما كان منه، ثم إنه فارق ماكان مع من فارقه، ولحق بمرداويج، ثم كان في جملة من قتل مرداويج، ثم سار إلى العراق واتصل بخدمة ابن رائق، وانتسب إليه حتى كتب على رايته الرائقي وسيره ابن رائق إلى الأهواز فاستولى عليها، وطرد ابن البريدي، ثم لما استولى ابن بويه على الأهواز، سار بجكم إلى واسط. ثم سار إلى بغداد، فطرد ابن رائق واستولى على بغداد وعلى حضرة الخليفة. غير ذلك من الحوادث في هذه

السنة فسد حال القرامطة، ووقع بينهم الفتن والقتل، فاستقروا في هجر. ثم دخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فيها سار بجكم والراضي إلى الموصل، فهرب ناصر الدولة بن حمدان عنها، ثم حمل مالاً واستقر الصلح معه، ثم عاد الخليفة وبجكم إلى بغداد، وظهر ابن رائق مع جماعة انضموا إليه ببغداد، قبل وصول الخليفة إليها، نخافه الخليفة وبجكم، ثم استقر الحال على أن يولي على حرّان والرها وقنسرين والعواصم، فسار ابن رائق واستولى عليها."

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

استيلاء ابن رائق على الشام وفي هذه السنة، استولى ابن رائق على الشام، فاستولى على دمشق وحمص، وطرد بدراً نائب الأخشيد، وسار حتى بلغ العريش يريد الديار المصرية، نخرج إليه الأخشيد وجري بينهم قتال شديد، آخره أن ابن رائق انهزم إلى دمشق ثم جهز الأخشيد إليه جيشاً مع "أخيه، واقتتلوا، فانهزم عسكر الأخشيد، وقتل أخوه فأرسل ابن رائق يعزي الأخشيد في أخيه ويقول له: إنه لم يقتل بأمري. وأرسل ولده مزاحم وقال: إن أحببت فاقتل ولدي به، نخلع الأخشيد على مزاحم وأعاده إلى أبيه، واستقرت مصر للأخشيد، والشام لمحمد بن رائق."

"موت الراضي بالله وفي هذه السنة، في منتصف ربيع الأول مات الراضي بالله، أبو العباس أحمد ابن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق طلحة. وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة وكان مرضه علة الاستسقاء وكان أديباً شاعراً

فمن شعره:

يصفر وجهي إذا تأمله ... طرفي فيحمر وجهه نجلاً

حتى كأن الذي بوجنته ... من دم وجهي إليه قد نقلا

ومن شعره أيضاً من أبيات:

كل صفو إلى كدر ... كل أمن إلى حذرْ

أيها الآمن الذي ... تاه في لجة الغرر

أينَ مَنْ كان قبلنا ... درسَ العينُ والأثرْ

درَّ درُ المشيب من ... واعظٍ يُنذر البشرْ

وكان الراضي سخياً، يحب الأدباء والفضلاء وكان سنان بن ثابت الصابي الطبيب من جملة ندماء الراضي وجلسائه، وكان الراضي أسمر خفيف العارضين، وأمه أم ولد، اسمها ظلوم، وهو آخر خليفة له شعْر يدون، وآخر خليفة خطب كثيراً على منبر، وإن كان غيره قد خطب، فإنه كان نادراً، لا اعتبار به، وكان آخر خليفة جالس الجلساء، وآخر خليفة كانت نفقته، وجراياته وخزائنه، ومطابخه، وأموره، على ترتيب الخلفاء المتقدمين.

"[خلافة المتقي لله]

وهو حادي عشرينهم، لما مات الراضي، بقي الأمر موقوفاً، انتظاراً لقدوم أبي عبد الله الكوفي، كاتب بجكم، من واسط، وكان بجكم بها أيضاً، واحتيط على دار الخلافة، فورد كتاب بجكم مع أبي عبد الله الكوفي، كاتب بجكم، يأمر فيه أن يجتمع مع أبي القاسم، سليمان بن الحسن، وزير الراضي، كل من تقلد الوزارة، وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد، ويشاورهم الكوفي فيمن ينصب للخلافة، فاجتمعوا واتفقوا على إبراهيم بن المقتدر بالله، أبي الفضل جعفر، وبويع له بالخلافة في العشرين من ربيع الأول، وعرضت عليه الألقاب فاختار المتقي لله، ولما بويع له سير الخلع واللواء إلى بجكم، وهو بواسط، وكان بجكم قبل استخلاف المتقي، قد أرسل إلى دار الخلافة، وأخذ منها فرشاً وآلات كان يستحسنها، وجعل سلامة الطولوني حاجب المتقي، وأقر سليمان بن الحسن وزير الراضي على وزارته، وليس له من الوزارة إلا اسمها، وإنما التدبير كله إلى الكوفي كاتب بجكم. قتل ماكان بن كاكي كان ماكان بن كاكي قد استولى على جرجان، فقصده أحد قواد السامانية بعسكر خراسان، وهو أبو علي بن محمد بن مظفر بن المحتاج، فهزم ماكان عن جرجان، فقصد ماكان طبرستان وأقام بها. ثم سار أبو علي بن المحتاج المذكور عن جرجان إلى الري، ليستولي عليها، وبها وشمكير بن زيار أخو مرداويج فأرسل وشمكير يستنجد ماكان بن كاكي من طبرستان، فقدم ماكان بن كاكيَ من طبرستان، وبقي مع وشمكير، وقاتلهما أبو علي بن المحتاج، فجاء سهم غرب فوقع فَي رأس ماكان، ونفذ من الخوذة إلى جبينه، حتى طلع من قفاه، فوقع ماكان بن كاكي ميتاً، وهرب وشمكير إلى طبرستان، واستولى أبو علي ابن المحتاج على الري. قتل بجكم وفي هذه السنة قتل بجكم، وكان بجكم قد أرسل جيشاً إلى قتال أبي عبد الله البريدي. ثم سار من واسط في أثرهم، فأتاه الخبر بنصرة عسكره، وهرب البريدي. فقصد الرجوع إلى واسط، وبقي يتصيد في

طريقه حتى بلغ نهر جور، فسمع أن هناك أكراداً لهم مال وثروة، فشرهت عينه، وقصدهم في جماعة قليلة، وأوقع بهم، فهربوا من بين يدي بجكم، وجاء صبي من الأكراد من خلف بجكم، وطعنه برمح فِي خاصرته ولا يعرفه، فمات بجكم من تلك الطعنة. ولما بلغ قتله المتقي، استولى على دار بجكم وأخذ منها أموالاً عظيمة، وأكثرها كانت مدفونة، وأتى البريدي الفرج بقتل بجكم من حيث لا يحتسب. وكانت مدة إمارة بجكم "سنتين وثمانية أشهر وأياماً. ولما قتل بجكم سار البريدي إلى بغداد واستولى على الأمر أياماً، ثم أخرجه العامة عنها لسوء سيرته، ثم استولى على الأمر كورتكين مدة قليلة، فسار ابن رائق من الشام إلى بغداد، واستخلف على الشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل ولما وصل ابن رائق إلى بغداد جرى بينه وبين كورتكين قتال، آخره أن ابن رائق انتصر على كورتكين وهزمه، ثم ظفر بعد ذلك ابن رائق بكورتكين وحبسه، وقلد المتقي لابن رائق إمرة الأمراء ببغداد" "ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة.

استيلاء ابن البريدي علي بغداد وقتل ابن رائق في هذه السنة، عاد البريدي فاستولى على بغداد، وهرب ابن رائق والخليفة المتقي إلى جهة الموصل، ونهب البريدي بغداد، وحصل منه من الجور والظلم والعسف ما لا زيادة عليه، ولما وصل المتقي وابن رائق إلى تكريت، كاتبا ناصر الدولة ابن حمدان يستمدانه، وقدما إلى الموصل، فخرج عنها ناصر الدولة إلى الجانب الآخر، فأرسل المتقي إليه ابنه أبا منصور، وابن رائق، فأكرمهما ناصر الدولة، ونثر على ابن الخليفة دنانير، ولما قاما لينصرفا، أمر ناصر الدولة أصحابه بقتل ابن رائق فقتلوه. ثم سار ابن حمدان إلى المتقي، فخلع المتقي عليه وجعله أمير الأمراء، ولك في مستهل شعبان من هذه السنة، وخلع على أخيه أبي الحسن علي، ولقبه سيف الدولة، وكان قتل ابن رائق يوم الاثنين، لسبع بقين من رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاثين وثلاثمائة، ولما بلغ الأخشيد صاحب مصر قتل ابن رائق، سار إلى دمشق، فاستولى عليها. ثم سار المتقي وناصر الدولة إلى بغداد، فهرب عنها ابن البريدي، ونهب الناس بعضهم بعضاً ببغداد، وكان مقام ابن البريدي ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ودخل المتقي إلى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة في شوال من هذه السنة. ولما استقر ناصر الدولة ببغداد، أمر بإِصلاح الدنانير، وكان الدينار بعشرة دراهم، فبيع الدينار بثلاثة عشر درهماً .***

"ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فيها سار المتقي عن بغداد خوفاً من تورون وابن شيرزاد، إلى جهة ناصر الدولة بالموصل، وانحدر سيف الدولة إلى ملتقى المتقي بتكريت، ثم انحدر ناصر الدولة إلى

تكريت، وأصعد الخليفة إلى الموصل، ثم سار الخليفة وبنو حمدان إلى الرقة، فأقاموا بها، وظهر للمتقي تضجر بني حمدان منه، وإيثارهم مفارقته، فكتب إلى تورون يطلب الصلح منه، ليقدم إلى بغداد، وخرجت السنة على ذلك"

"ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

مسير المتقي إلى بغداد وخلعه كان قد كتب المتقي إلى الإخشيد صاحب مصر، يشكو إليه حاله، وما هو فيه، فسار الإخشيد من مصر إلى حلب، ثم إلى الرقة، واجتمع بالمتقي، وحمل إليه هدايا عظيمة، واجتهد بالمتقي أن يسير معه إلى مصر أو الشام ليكون بين يديه، فلم يفعل، ثم أشار عليه بالمقام في الرقة، وخوفه من تورون، فلم يفعل، وكان قد أرسل المتقي إلى تورون في الصلح كما ذكرناه، فحلف تورون للمتقي على ما أراد، فانحدر المتقي لأربع بقين من المحرم إلى بغداد وعاد الإخشيد إلى مصر، ولما وصل المتقي إلى هيت، أقام بها، وأرسل فجدد اليمين على تورون وسار تورون عن بغداد لملتقى الخليفة. فالتقاه بالسندية، ووكّل عليه حتى أنزله في مضربه، ثم قبض تورون على المتقي وسمله، وأعمى عينيه فصاح المتقي وصاح من عنده من الحرم والخدم، فأمر تورون "بضرب الدبادب لئلا تظهر أصواتهن، وانحدر تورون بالمتقط إلى بغداد وهو أعمى، وكانت خلافة المتقي لله، وهو إبراهيم بن جعفر المقتدر بن المعتضد ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرين يوماً، وأمه أم ولد اسمها خلوب.

[خلافة المستكفي بالله]

وهو ثاني عشرينهم، ولما قبض تورون على المتقي، بايع المستكفي بالله أبا قاسم عبد الله بن المكتفي بالله علي بن المعتضد أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون، وأحضره إلى السندية، وبايعه عامة الناس، وكانت بيعة المستكفي بالله يوم خلع المتقي في صفر من هذه السنة.

خروج أبي يزيد الخارجي بالقيروان وفي هذه السنة اشتدت شوكة أبي يزيد الخارجي وهزم الجيوش، وهو رجل من زناتة، واسم والده كنداد، من مدينة توزر من بلاد قسطيلية.

فولد له أبو يزيد بتوزر من جارية سوداء، وانتشأ أبو يزيد في توزر وتعلم القرآن وسار إلى تاهرت، وصار على مذهب النكارية وهو تكفير أهل الملة، واستباحة أموالهم ودمائهم، ودعا أهل تلك البلاد

فأطاعوه، وكثر جمعه لحصر قسطيلية في هذه السنة، وكان أبو يزيد قصيراً قبيح الصورة، يلبس جبة صوف، ثم فتح تبسة، ثم سبيبة وصلب عاملها، ثم فتح الأريس، فأخرج القائم جيوشاً لحفظ رقادة والقيروان فهزمهم أبو يزيد، واستولى على تونس، ثم على القيروان، ورقادة، ثم سار أبو يزيد إلى القائم فجهز إليه القائم جيشاً، فجرى بينهم قتال كثير، وآخره أن جيوش القائم انهزمت، وسار أبو يزيد وحصر القائم بالمهدية، في جمادى الأولى من هذه السنة، وضايقها وغلا بها السعر، وعدم القوت، ودام محاصرها حتى خرجت هذه السنة، ثم رحل عن المهدية في صفر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وسار إلى القيروان، وتوفي القائم وملك ابنه إسماعيل المنصور على ما نذكره فجهز المنصور العساكر وسار بنفسه إلى القيروان، واستعادها من أبي يزيد وذلك في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ودام حالهم على القتال إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، فهزم المنصور عساكر أبي يزيد، وسار المنصور في أثره في ربيع الأول سنة خمس وثلاثين فأدرك أبا يزيد على مدنية كاغلية، فهرب أبو يزيد من موضع إلى آخر، حتى وصل طبسة، ثم هرب حتى وصل إلى جبل للبربر، واسم ذلك الجبل برزال، والمنصور في إثره، واشتد على عسكر المنصور الحال حتى بلغت عليقة الشعير ديناراً ونصفاً، وبلغت قربة الماء ديناراً، فرجع المنصور إلى بلاد صنهاجة، وبلغ إلى موضع يسمى قرية عمرة، واتصل هناك بالمنصور، العلوي الأمير زيري الصنهاجي، وهو جد ملوك بني باديس على ما سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى. فأكرمه المنصور غاية الإكرام ومرض المنصور هناك مرضاً "شديداً، ثم تعافى ورحل إلى المسيلة، ثاني رجب سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد اجتمع إلى أبي يزيد جمع من البربر، وسبق المنصور إلى مسيلة، فلما قدم المنصور إلى مسيلة هرب عنها أبو يزيد إلى جهة بلاد السودان، ثم صعد أبو يزيد إلى جبال كتامة، ورجع عن قصد بلاد السودان، فسار المنصور عاشر شعبان إليه، واقتتلوا في شعبان، فقتل غالب جماعة أبي يزيد وانهزم، فسار المنصور في إثره أول شهر رمضان واقتتلوا أيضاً، وانهزم أبو يزيد وأخذت أثقاله والتجأ أبو يزيد إلى قلعة كتامة، وهي منيعة، فحاصرها المنصور وداوم الزحف عليها، ثم ملكها المنصور عنوة، وهرب أبو يزيد من القلعة من مكان وعر، فسقط منه، فأخذ أبو يزيد وحمل إلى المنصور، فسجد المنصور شكراً لله تعالى، وكثر تكبير الناس وتهليلهم، وبقي أبو يزيد في الأسر مجروحاً فمات، وذلك في سلخ المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، فسلخ جلد أبي يزيد، وحشي تبناً، وكتب المنصور إلى سائر البلاد بالفتح، وبقتل أبي يزيد لعنه الله، وعاد المنصور إلى المهدية، فدخلها في شهر رمضان من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة.

غير ذلك من الحوادث في هذه السنة أعني سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة نقل المستكفي، القاهر، من دار الخلافة إلى دار أبي طاهر، وكان قد بلغ بالقاهر الضر والفقر إلى أن كان ملتفاً بجبة قطن وفي رجله قبقاب خشب. ملك سيف الدولة مدينة حلب وحمص وفي هذه السنة، لما سار المتقي عن الرقة إلى بغداد، وسار عنها الإخشيد إلى مصر كما ذكرنا، سار سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان إلى حلب، وبها يأنس المؤنسي، فأخذها منه سيف الدولة، واستولى عليها، ثم سار من حلب إلى حمص، فاستولى عليها ثم سار إلى دمشق فحصرها، ثم رحل عنها، وكان الإخشيد قد خرج من مصر إلى الشام، بسبب قصد سيف الدولة دمشق، وسار إليه فالتقيا بقنسرين، ولم يظفر أحد العسكرين بالآخر، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، فلما رجع الإخشيد إلى دمشق، عاد سيف الدولة إلى حلب، فملكها، فلما ملكها سارت الروم حتى قاربت حلب، فخرج إليهم سيف الدولة وهزمهم وظفر بهم. ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. موت تورون في هذه السنة في المحرم، مات تورون ببغداد، وكانت إمارته سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً، ولما مات، عقد الأجناد لابن شيرزاد الإمرة عليهم، وكان بهيت، فحضر إلى بغداد مستهل صفر، وأرسل إلى المستكفي فاستحلفه فحلف له بحضرة القضاة وولاة أمرة الأمراء." "استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد كان معز الدولة في الأهواز، فلما بلغه موت تورون، سار إلى بغداد، فلما قرب منها اختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد، فكانت إمارته ثلاثة أشهر وأياماً وقدم الحسن بن محمد المهلبي، صاحب معز الدولة، إلى بغداد، وسارت الأتراك عنها إلى جهة الموصل، فظهر المستكفي واجتمع بالمهلبي، وأظهر المستكفي السرور بقدوم معز الدولة، وأعلمه أنه استتر خوفاً من الأتراك، فلما ساروا عن بغداد ظهر، ثم وصل معز الدولة إلى بغداد ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة. واجتمع بالمستكفي وبايعه، وحلف له المستكفي وخلع عليه، ولقبه في ذلك اليوم بمعز الدولة، وأمر أن تضرب ألقاب بني بويه على الدنانير والدراهم، ونزل معز الدولة بدار مؤنس، وأنزل أصحابه في دور الناس، فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة، ورتب معز الدولة للمستكفي، كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات المستكفي.

[خلع المستكفي وخلافة المطيع]

وفي هذه السنة خلع المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي علي بن المعتضد بن الموفق لثمان بقين من جمادى الآخرة، وصورة خلعه، أن معز الدولة وعسكره والناس، حضروا إلى دار الخليفة، بسبب وصول رسول صاحب خراسان، فأجلس الخليفة معز الدولة على كرسي، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم، وتناولا يد المستكفي بالله، فظن أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه عن سريره، وجعلا عمامته في عنقه، ونهض معز الدولة، فاضطرب الناس، وساقا المستكفي ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتُقل بها، ونُهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء، وكانت مدة خلافة المستكفي سنة وأربعة أشهر، ولما بويع المطيع، سلم إليه المستكفي، فسمله وأعماه، وبقي محبوساً إلى أن مات، وأمه أم ولد اسمها غصن. ولما قُبض المستكفي بويع المطيع لله وهو ثالث عشرينهم، واسمه المفضل بن المقتدر، في يوم الخميس ثاني عشرين من جمادى الآخر، من هذه السنة، أعني سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق لهم من الأمر شيء، وتسلم نواب معز الدولة العراق، بأسره، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه معز الدولة للخليفة، مما يقوم ببعض حاجته. الحرب بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه في هذه السنة سار ناصر الدولة إلى بغداد، وأرسل معز الدولة عسكراً لقتاله، فلم يقدروا على دفعه، وسار ناصر الدولة من سامراء، عاشر رمضان، إلى بغداد، وأخذ معز الدولة المطيع معه، وسارا إلى تكريت فنهبها، لأنها كانت لناصر الدولة، وعاد معز الدولة بالخليفة إلى بغداد ونزل بالجانب الغربي، ونزل ناصر الدولة بالجانب الشرقي، ولم يخطب تلك الأيام للمطيع"

"ببغداد، وجرى بينهم ببغداد قتال كثير، آخره أن ناصر الدولة وعسكره انهزموا، واستولى معز الدولة على الجانب الشرقي، وأعيد الخليفة إلى مكانه في المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، واستقر معز الدولة ببغداد، وناصر الدولة بعكبرا، ثم سار ناصر الدولة إلى الموصل، واستقر الصلح بين معز الدولة وناصر الدولة، في المحرم من سنة خمس وثلاثين.

وفاة القائم العلوي وولاية المنصور في هذه السنة توفي القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن المهدي عبيد الله صاحب المغرب لثلاث عشرة مضت من شوال، وقام بالأمر بعده ابنه إسماعيل بن محمد، وتلقب بالمنصور بالله، وكتم موت القائم خوفاً من أبي يزيد الخارجي، واستمر كتمان ذلك حتى فرغ المنصور من أمر أبي يزيد الخارجي على ما ذكرناه، ثم اتسم بالخلافة، وضبط الملك والبلاد.

موت الإخشيد وملك سيف الدولة دمَشْق في هذه السنة مات الإخشيد بدمشق، وكان قد سار إليها من مصر، وهو محمد بن طغج صاحب مصر ودمشق، وكان مولده سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد، وكان الإخشيد قبل مسيره عن مصر، قد وجد بداره رقعة مكتوب عليها قدّرتم فأسأتم، وملكتم فبخلتم، ووسع عليكم فضيقتم، وأدرت لكم الأرزاق فقنطتم أرزاق العباد، واغتررتم بصفو أيامكم، ولم تتفكروا في عواقبكم، واشتغلتم بالشهوات، واغتنام اللذات وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها، وأكباد أجعتموها، وأجساد أعريتموها، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم، أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل، ما وصل إليها الجاهل، ولو دامت لمن مضى، ما نالها من بقي، فكفى بصحبة ملك يكون ملكه في زوال ملكه فرح للعالم، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم، حتى لا يبقى منهم أحد، ويبقى المنتظر به، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا بالله مستجيرون، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم، فإنا بالله واثقون، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فبقي الإخشيد بعد سماع هذه الرقعة في فكر، وسافر إلى دمشق ومات وولي الأمر بعده ابنه أبو القسم أنوجور، وتفسيره محمود، واستولى على الأمر كافور الخادم الأسود، وهو من خدم الإخشيد، وكان أنوجور صغيراً، وسار كافور بعد موت الإخشيد إلى مصر فسار سيف الدولة إلى دمشق، وملكها، وأقام بها، واتفق أن سيف الدولة ركب يوماً والشريف العقيقي معه، فقال سيف الدولة: ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد. فقال له العقيقي: هي لأقوام كثيرة: فقال سيف الدولة: لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرؤا منها، فأعلم العقيقي أهل دمشق بذلك، فكاتبوا كافوراً يستدعونه، فجاءهم، فأخرجوا سيف الدولة عنهم. ثم استقر سيف الدولة بحلب، ورجع كافور إلى مصر وولى على دمشق بدراً الإخشيدي فأقام سنة ثم وليها أبو المظفر بن طغج "ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فيها توفي أبو بكر الصولي وكان عالماً بفنون الأدب والأخبار، روى عن أبي العباس ثعلب وغيره، وروى عنه الدارقطني وغيره وللصولي التصانيف المشهورة. ثم دخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فيها عقد المنصور العلوي ولاية جزيرة صقلية للحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، من تاريخ جزيرة صقلية تأليف صاحب تاريخ القيروان، واستمر الحسن بن علي يغزو ويفتح في جزيرة صقلية حتى مات المنصور، وتولى المعز، فاستخلف الحسن على صقلية ولده أبا الحسين أحمد ابن الحسن، فكانت ولاية الحسن بن علي على صقلية خمس سنين ونحو شهرين، وسار الحسن عن صقلية إلى

إفريقية في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، ولما وصل الحسن إلى إفريقية، كتب المعز بولاية ابنه أحمد بن الحسن على صقلية فاستقر أحمد والياً عليها. وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة قدم أحمد بن الحسن من صقلية، ومعه ثلاثون رجلاً من وجوه الجزيرة، على المعز بإفريقية فبايعوا المعز وخلع عليهم المعز، ثم أعاده إلى مقره بصقلية، وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ورد كتاب المعز على الأمير أحمد بصقلية، يأمره فيه بإحصاء أطفال الجزيرة، وأن يختنهم ويكسوهم في اليوم الذي يطهر فيه المعز ولده، فكتب الأمير أحمد خمسة عشر ألف طفل وابتدأ أحمد فختن أخوته في مستهل ربيع الأول من هذه السنة، ثم ختن الخاص والعام، وخلع عليهم، ووصل من المعز مائة ألف درهم وخمسون حملا من الصلات، ففرقت في المختونين، وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة أرسل الأمير أحمد بسبي طبرمين بعد فتحها إلى المعز، وجملته ألف وسبع مائة ونيف، وسبعون رأساً، وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة جهز المعز أسطولاً عظيماً، وقدم عليهم الحسن بن علي بن الحسين والد الأمير أحمد، فوصل إلى صقلية، واجتمعت الروم بها، وجرى بينهم قتال شديد، نصر الله فيه المسلمين، وقتل من الكفار فوق عشرة آلاف نفس، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، فكان في جملة ذلك عليه منقوش: " هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً، طالما ضرب به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث به الحسن بن علي"إلى المعز، وكذلك بعدة من الأسرى والسلاح، وسار الحسن بعد هذا النصر وأقام بقصره بصقلية، ولحقه المرض حتى توفي في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وفي أواخر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة استقدم المعز الأمير أحمد من صقلية وسار منها بأهله وماله وولده، فكانت إمارته بها ست عشرة سنة وتسعة أشهر، ولما سار أحمد عنها استخلف على الجزيرة يعيش مولى أبيه الحسن بن علي، فلما وصل أحمد إلى إفريقية أرسل المعز أبا القاسم علي بن الحسن بن علي أخا الأمير أحمد المذكور، وولاه الجزيرة نيابة عن أخيه أحمد، فوصل أبو القاسم إلى صقلية في منتصف شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة. وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة قدم المعز الأمير أحمد على الأسطول وأرسله إلى مصر، فلما وصل إلى طرابلس، اعتل أحمد بن الحسن المذكور ومات بها، وفي سنة ستين وثلاثمائة أرسل المعز إلى أبي القاسم سجلاً باستقلاله بولاية صقلية، وتعزيته في أخيه أحمد وفي سنة ست وستين وثلاثمائة غزا الأمير أبو القاسم علي وعاد إلى الأرض الكبيرةْ، ونزل بموضع يعرف بالأبرجة، فرأى عسكره قد أكثروا من جمع البقر والغنم، فأنكر ذلك وقال: لقد أثقلتم وهذا يعيقنا عن الغزو، فأمر بذبحها وتفريقها، فسميت تلك المرحلة مناخ البقر

إلى الآن، وشنت غاراته في الأرض الكبيرة، وأخرب فيها مدناً، ثم عاد إلى صقلية مؤيداً منصوراً، واستمر أبو القاسم يغزو إلى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، فجرى بينه وبين الفرنج قتال استشهد فيه أبو القاسم ولذلك يعرف بالشهيد، وكان مقتله في المحرم من السنة المذكور ومدة ولايته على صقلية اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وأياماً. ولما استشهد أبو القاسم، تولى الأمر بعده ابنه جابر بن أبي القاسم بغير ولاية من الخليفة، وكان جابر المذكور سيء التدبير، وفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وصل إلى صقلية جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن أبي الحسين أميراً عليها من قبل العزيز خليفة مصر، فاغتم جابر لذلك غماً عظيماً، وكان جعفر المذكور مواظباً للعزيز خليفة مصر، قريباً إليه جداً، وكان للعزيز وزير يقال له ابن كلس، فغار من جعفر، فلما استشهد أبو القاسم أشار ابن كلس بتولية جعفر فأرسله العزيز إليها، فسار جعفر إلى صقلية، وهو كاره لذلك، وبقي جعفر والياً على صقلية حتى مات في سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، فولى أخوه عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين، وبقي عبد الله حتى توفي في سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وتولى بعده ولده أبو الفتوح" "يوسف بن عبد الله، وأحسن يوسف المذكور السيرة، وبقي على ولايته، ومات العزيز خليفة مصر، وتولى الحاكم واستوزر ابن عم يوسف المذكور، وهو حسن بن عمار بن علي بن أبي الحسين، وبقي حسن وزيراً بمصر، وابن عمه يوسف أميراً بصقلية، وفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة أصاب أبا الفتوح يوسف بن عبد الله فالج، فعطب جانبه الأيسر، فتولى في حياته ابنه جعفر ابن يوسف وأتاه سجل من الحاكم بالولاية ولقبه تاج الدولة، فبقي مدة، ثم أحدث على أهل صقلية مظالم، فخرجوا عن طاعته، وحصروا جعفر المذكور في القصر، فخرج إليهم والده يوسف وهو مفلوج في محفة، ورد الناس، وشرط لهم عزل جعفر، فعزله وولى موضعه أخاه تأييد الدولة أحمد الأكحل بن يوسف، وانعزل جعفر وتولى الأكحل في المحرم سنة عشر وأربع مائة، وبقي الأكحل حتى خرج عليه أهل صقلية وقتلوه في سنة سبع وعشرين وأربع مائة، ولما قتلوا الأكحل، ولوا أخاه الحسن صمصام الدولة، فجرى في أيامه اختلاف بين أهل الجزيرة وتغلبت الخوارج عليه، حتى صارت للفرنج على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وفي هذه السنة ملك معز الدولة الموصل، وسار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين، ثم جاءت الأخبار بحركة عسكر خراسان على بلاد معز الدولة، فرحل عن الموصل وعاد إليها ناصر الدولة.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

موت عماد الدولة بن بويه وفي هذه السنة، مات عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بشيراز، في جمادى الآخرة وكانت علته قرحة في كلاه، طالت به وتوالت به الأسقام، ولم يكن لعماد الدولة ولد ذكر، فلما أحس بالموت، أرسل إلى أخيه ركن الدولة، يطلب منه ابنه عضد الدولة فناخسرو، ليجعله عماد الدولة ولي عهده، وارث مملكته بفارس، وكان ذلك قبل موته بسنة، ووصل عضد الدولة إلى عمه عماد الدولة، فولاه عماد الدولة مملكته في حياته، وأمر الناس بالانقياد إلى عضد الدولة، ولما مات عماد الدولة، بقي ابن أخيه عضد الدولة بفارس. واختلف عليه عسكره، فسار أبوه ركن الدولة من الري إليه، وقرر قواعد عضد الدولة، ولما وصل ركن الدولة شيراز، ابتدأ بزيارة قبر أخيه عماد الدولة باصطخر، فمشى إليه حافياً حاسراً، ومعه العساكر على تلك الحال، ولزم القبر ثلاثة أيام إلى أن سأله القواد والأكابر الرجوع إلى المدينة، فرجع إليها وكان عماد الدولة في حياته هو أمير الأمراء، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أمير الأمراء، وكان معز الدولة هو المستولي على العراق وهو كالنائب عنهما.

وفي هذه السنة مات المستكفي المخلوع، وهو في الحبس أعمى. ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة في هذه السنة مات وزير معز الدولة محمد الصيمري، واستوزر معز الدولة أبا محمد الحسن المهلبي. وفي هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم، فأوغل فيها، وغنم وقتل، فلما عاد أخذت الروم عليه المضائق فهلك غالب عسكره وما معه، ونجا سيف الدولة بنفسه في عدد يسير. وفي هذه السنة أعادت القرامطة الحجر الأسود إلى مكة، وكان قد أخذوه سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فكان لبثه عندهم اثنين وعشرين سنة. "ثم دخلت سنة أربعين وثلاثمائة في هذه السنة توفي عبد الله بن الحسين الكرخي، الفقيه المشهور، الحنفي المعتزلي، وكان عابداً، ومولده سنة ستين ومائتين، وأبو جعفر الفقيه، توفي ببخارى. وفيها توفي أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي الفقيه الشافعي بمصر، وانتهت إليه الرئاسة بالعراق بعد ابن سريج، وصنف كتباً كثيرة، وشرح مختصر المزني. ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة في هذه السنة سار يوسف بن وجيه، صاحب عمان في البحر والبر إلى البصرة، وحصرها، وساعده القرامطة على ذلك، وأمدوه بجمع منهم وأقاموا هناك أياماً، فأدركهم المهلبي وزير معز الدولة بالعساكر فرحلوا عنها. وفاة المنصور العلوي وفي هذه السنة، توفي المنصور بالله العلوي أبو

طاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي سلخ شوال، وكانت خلافته سبع سنين وستة عشر يوماً. وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة، وكان خطيباً بليغاً، يخترع الخطبة لوقته، وظهر من شجاعته في قتال أبي يزيد الخارجي ما تقدم ذكره، وعهد إلى ابنه أبي تميم معد بن المنصور إسماعيل" "بولاية العهد وهو معد المعز لدين الله، فبايعه الناس في يوم مات أبوه في سلخ شوال من هذه السنة، وأقام في تدبير الأمور إلى سابع ذي الحجة فأذن للناس فدخلوا إليه، وسلموا عليه بالخلافة، وكان عمر المعز إذا ذاك أربعاً وعشرين سنة.

غير ذلك من الحوادث وفي هذه السنة ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم، وخربوا المساجد. وفيها توفي أبو علي إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفار النحوي المحدث، وهو من أصحاب المبرد، وكان مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، وكان ثقة.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، ودخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.
موت الأمير نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل وولاية ابنه عبد الملك في هذه السنة مات الأمير نوح بن نصر الساماني، في ربيع الآخر، وكانت ولايته في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، وكان يلقب بالأمير الحميد، وكان حسن السيرة كريم الأخلاق، ولما توفي ملك بعده ابنه عبد الملك بن نوح. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة في ربيع الأول، غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم، فغنم وقتل، ووقع بينه وبين الروم وقعة عظيمة، قتل فيها من الفريقين عالم كثير، وانتصر فيها سيف الدولة. وفيها أرسل معز الدولة سبكتكين في جيش إلى شهرزور، فعاد ولم يفتحها. وفيها مات محمد بن العباس، المعروف بابن النحوي الفقيه، ومحمد بن القاسم الكرخي. ثم دخلت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة فيها مات أبو علي بن المحتاج، صاحب جيوش خراسان بعد أن عزله الأمير نوح عن خراسان، فخرج لذلك عن طاعته نوح ولحق بركن الدولة بن بويه، ومات في خدمته. [ما جرى في هذه السنة بين المعز العلوي وعبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس]
وفي هذه السنة أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي مركباً كبيراً، لم يعمل مثله، وسير فيه بضائع لتباع في بلاد الشرق، ويعتاض عنها، فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقليه إلى المعز العلوي، ومعه مكاتبات إليه، فقطع عليهم المركب الأندلسي وأخذهم بما معهم، وبلغ المعز فجهز أسطولا إلى

الأندلس، واستعمل عليه الحسن بن علي عامله على صقلية، فوصلوا" "إلى المرية وأحرقوا جميع ما في ميناها من المراكب، وأخذوا ذلك المركب الكبير المذكور، بعد عوده من الإسكندرية، وفيه جوار مغنيات وأمتعة لعبد الرحمن، وصعد أسطول المعز إلى البر فقتلوا ونهبوا ورجعوا سالمين إلى المهدية، ولما جرى ذلك، جهز عبد الرحمن أسطولاً إلى بلاد إفريقية، فوصلوا إليها، فقصدهم عساكر المعز فرجعوا إلى الأندلس بعد قتال جرى بينهم.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

فيها سار سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم، فغنم وسبي وفتح عدة حصون، ورجع إلى أذنة فأقام بها، ثم ارتحل إلى حلب. وفيها توفي أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد غلام ثعلب المعروف بالمطرز، أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين، صحب أبا العباس ثعلباً زماناً فعرف به، وللمطرز المذكور عدة مصنفات، وكانت ولادته سنة إحدى وستين ومائتين، وكان اشتغاله بالعلوم، قد منعه عن اكتساب الرزق، فلم يزل مضيقاً عليه، وكان لسعة روايته وكثرة حفظه يكذبه أدباء زمانه في أكثر نقل اللغة، ويقولون: لو طار طائر يقول أبو عمر المذكور: حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ويذكر في معنى ذلك شيئاً، وكان يلقي تصانيفه من حفظه، حتى أنه أملى في اللغة ثلاثين ألف ورقة، فلهذا الإكثار نسب إلى الكذب. ثم دخلت سنة ست وأربعين وثلاثمائة في هذه السنة مات السلار المرزبان صاحب أذربيجان، وملك بعده ابنه حسان، وكان لمرزبان أخ يسمى وهشوذان. فشرع في الإفساد بين أولاد أخيه، حتى وقع ما بينهم وتقاتلوا، وبلغ عمهم وهشوذان ما أراد، وقد ذكر ابن الأثير في حوادث هذه السنة أن البحر نقص ثمانين باعاً، فظهرت فيه جزائر وجبال لم تعرف قبل ذلك. وفيها توفي أبو العباس محمد بن يعقوب الأموي النيسابوري، المعروف بالأصم وكان عالي الإسناد في الحديث، وصحب الربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه البخاري الأمين. ثم دخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة. مسير جيوش المعز العلوي إلى أقاصي المغرب فيها عظم أمر أبي الحسن، جوهر عبد المعز، فصار في رتبة الوزارة، وسيره المعز في صفر هذه السنة، في جيش كثيف إلى أقاصي المغرب، فسار إلى تاهرت، ثم سار منها إلى فاس في جمادى الآخرة، وبها صاحبها أحمد بن بكر، فأغلق أبوابها، فنازلها جوهر وقاتل أهلها، فلم يقدر عليها، ومضى جوهر حتى انتهى إلى البحر المحيط، وسلك تلك البلاد جميعها، ثم عاد إلى فاس ففتحها عنوة وكان

مع جوهر زيري بن مناذ الصنهاجي، وكان شريكه في الإمرة، وكان فتح فاس في رمضان سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة. وفيها توفي أبو الحسن علي بن البوشجي الصوفي بنيسابور، وهو أحد المشهورين منهم. وفيها توفي أبو الحسن محمد من ولد أبي الشوارب، قاضي بغداد، وكان مولده سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وأبو علي الحسين "بن علي النيسابوري. وأبو محمد عبد الله الفارسي النحوي، أخذ النحو عن المبرد. ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة فيها توفي أبو بكر بن سليمان الفقيه الحنبلي، المعروف بالنجاد، وعمره خمس وتسعون سنة، وجعفر بن محمد الخلدي الصوفي، وهو من أصحاب الجنيد، وفيها انقطعت الأمطار وغلت الأسعار في كثير من البلاد. ثم دخلت سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فيها وقع الخلف بين أولاد المرزبان، فاضطروا إلى مساعدة عمهم وهشوذان، فكاتبوه وصالحوه، وقدموا عليه فغدر بهم، وأمسك حسان وناصراً ابني أخيه وأمهما وقتلهم. في هذه السنة غزا سيف الدولة ابن حمدان بلاد الروم في جمع كثير، ففتح وأحرق وقتل وغنم وبلغ إلى خرشنه وفي عوده أخذت الروم عليه الضائق واستردوا ما أخذه، وأخذوا أثقاله وأكثروا القتل في أصحابه، وتخلص سيف الدولة في ثلاثمائة نفس. وكان قد أشار عليه أرباب المعرفة بأن لا يعود على الطريق، فلم يقبل، وكان سيف الدولة معجباً بنفسه، يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً، لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره. وفي هذه السنة أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاة. وفيها انصرف حجاج مصر من الحج فنزلوا وادياً وباتوا فيه، فأتاهم السيل ليلاً وأخذهم جميعهم مع أثقالهم وجمالهم، فألقاهم في البحر. وفي هذه السنة أو قريب من هذه السنة، توفي أبو الحسن التيناتي، نسبة إلى التينات، وكان عمره مائة وعشرين سنة، وله كرامات مشهورة. وفيها مات أنوجور بن الإخشيد صاحب مصر، وأقيم أخوه علي بن الإخشيد مكانه. ثم دخلت سنة خمسين وثلاثمائة.

موت صاحب خراسان وفي هذه السنة يوم الخميس حادي عشر شوال، تقنطر بالأمير عبد الملك بن نوح الساماني فرسه، فوقع عبد الملك إلى الأرض فمات من ذلك، فثارت الفتنة بخراسان بعده، وولي مكانه أخوه منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان.

وفاة صاحب الأندلس وفي هذه السنة توفي عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، في رمضان، وكانت مدة إمارته خمسين سنة ونصفاً، وعمره ثلاث وسبعون سنة، وكان أبيض أشهل حسن الوجه، وهو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الأندلس بألقاب الخلفاء، وتسمى بأمير المؤمنين، وكان من قبله يخاطبون، ويخطب

لهم بالأمير وأبناء الخلائف، وبقي عبد الرحمن كذلك إلى أن مضى من إمارته سبع وعشرون سنة، فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق، وظهور الخلفاء العلويين بإفريقية ومخاطبتهم بأمير المؤمنين أمر حينئذ أن يلقب بالناصر لدين الله، ويخطب له بأمير المؤمنين، وأمه أم ولد اسمها مدنة ولما مات ولي الأمر بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن وتلقب بالمستنصر" "وخلف عبد الرحمن أحد عشر ولداً ذكراً.

وفي هذه السنة تولى قضاء القضاة ببغداد أبو العباس عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب، والتزم كل سنة أن يؤدي مائتي ألف درهم، وهو أول من ضمن القضاء. وكان ذلك في أيام معز الدولة بن بويه، ولم يسمع بذلك قبلها، ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد. وفيها توفي أبو شجاع فاتك وكان رومياً، وأخذه الإخشيد صاحب مصر من سيده بالرملة، وارتفعت مكانته عنده، وكان رفيق كافور، فلما مات الإخشيد وصار كافور أتابك ولده، أنف فاتك من ذلك، وكانت الفيوم إقطاعة، فانتقل وقام بها، وكثرت أمراضه لوخم الفيوم، فعاد إلى مصر كرهاً المرض، وكان كافور يخافه ويخدمه، وكان المتنبي إذ ذلك بمصر عند كافور، فاستأذنه، ومدح فاتك المذكور بقصيدته التي أولها:

لا خيل عندك تُهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم يسعد الحال
كفاتك ودخول الكاف منقصة ... كالشمس قلت وما للشمس أمثال
ولما توفي فاتك رثاه المتنبي بقصيدته التي أولها:
الحزن يقلق والتجملُ يردعُ ... والدمع بينهما عصيٌ طيع

ومنها:
إني لأجبن من فراق أحبتي ... وتحس نفسي بالحمام فأشجع
تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عما مضى منها وما يتوقع
ومن يغالط في الحقيقة نفسه ... ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمان من بنيانه ... ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها ... حينا ويدركها الفناء فتتبع

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وفي هذه السنة سارت الروم مع الدمستق وملكوا عين زربى بالأمان فقتلوا بعض أهلها وأطلقوا أكثرهم. استيلاء الروم على حلب وعودهم عنها بغير سبب وفي هذه السنة استولت الروم على مدينة حلب، دون قلعتها، وكان قد سار إليها الدمستق، ولم يعلم به سيف الدولة إلا عند وصوله، فلم يلحق سيف الدولة أن يجمع، وخرج فيمن معه وقاتل الدمستق، فقُتل غالب أصحابه وانهزم سيف الدولة في نفر قليل، وظفر الدمستق بداره، وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين، فوجد الدمستق فيها ثلاثمائة بدرة من الدراهم، وأخذ لسيف الدولة ألف وأربعمائة بغل، ومن السلاح ما لا يحصى، وملكت الروم الحواضر وحصروا المدينة وثلموا السور، وقاتلهم أهل حلب أشد قتال، فتأخر الروم إلى جبل جوشن. ثم وقع بين أهل حلب ورجالة الشرطة فتنة، بسبب نهب كان وقع بالبلد، فاجتمع بسبب ذلك الناس، ولم يبق على الأسوار أحد، فوجد الروم السور خالياً، فهجموا البلد وفتحوا أبوابه وأطلقوا السيف في أهل حلب، وسبوا بضعة عشر ألف صبي" "وصبية، وغنموا ما لا يوصف كثرة، فلما لم يبق معهم ظهر يحمل الغنائم، أمر الدمستق فأحرقوا ما بقي بعد ذلك، وأقام الدمستق تسعة أيام ثم ارتحل عائداً إلى بلاده ولم ينهب قرايا حلب، وأمرهم بالزراعة ليعود من قابل إلى حلب في زعمه.

غير ذلك من الحوادث وفي هذه السنة استولى ركن الدولة بن بويه على طبرستان وجرجان. وفيها كتب عامة الشيعة بأمر معز الدولة على المساجد، ما هذه صورته لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة فدكا، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده، ومن نفى أبا ذر الغفاري، ومن أخرج أبا العباس عن الشورى. فلما كان من الليل حكه بعض الناس، فأشار الوزير المهلبي على معز الدولة أن يكتب موضع المحي لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحد في اللعن إلا معاوية، ففعل ذلك. وفي هذه السنة في ذي القعدة سارت جيوش المسلمين إلى صقلية، ففتحوا طبرمين، وهي من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين بعد حصار سبعة أشهر ونصف، وسميت طبرمين المعزية نسبة إلى المعز العلوي. وفيها فتحت الروم حصن دلوك بالسيف وثلاثة حصون مجاورة له. وفي هذه السنة في شوال أسرت الروم أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان من منبج، وكان متقلداً بها. وفيها توفي أبو بكر محمد بن الحسن النقاش المقري، صاحب كتاب شفاء الصدور. ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة في هذه السنة توفي الوزير المهلبي أبو محمد،

وكانت مدة وزارته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكان كريماً عاقلاً ذا فضل. وفيها في عاشر المحرم أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، وأن يظهروا النياحة، وأن يخرج النساء منشورات الشعور، مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ويلطمن وجوههن، على الحسين بن علي رضي الله عنهما، ففعل الناس ذلك. ولم يقدر السنية على منع ذلك لكثرة الشيعة، والسلطان معهم. وفيها عزل ابن أبي الشوارب عن القضاء. وأَبطل ما كان التزم به من الضمان. وفيها قتل الروم ملكهم، وملكوا غيره، وصار ابن شمشقيق دمستقاً، وفيها في ثامن ذي الحجة، أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد والفرح، كما يفعل في الأعياد، فرحاً بعيد غد يرخم، وضربت الدبادب والبوقات. ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة في هذه السنة سار معز الدولة واستولى على الموصل ونصيبين، بعد أن انهزم ناصر الدولة من بين يديه، ثم وقع بينهما الاتفاق، وضمن ناصر الدولة الموصل بمال ارتضاه معز الدولة، فرحل معز الدولة ورجع إلى بغداد.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وفي هذه السنة سار ملك الروم إلى المصيصة، فحاصرها وفتحها عنوة بالسيف، يوم السبت ثالث عشر رجب، ووضع السيف في أهلها، ثم رفع السيف وأخذ من بقي أسرى، ونقلهم إلى بلد الروم، وكان أهلها "نحو مائتي ألف إنسان، ثم سار إلى طرسوس، فطلب أهلها الأمان فأمنهم، وتسلم طرسوس وسار أهلها عنها في البر والبحر، وسير ملك الروم معهم من يحميهم، حتى وصلوا إلى إنطاكية، وجعل جامع طرسوس اصطبلا، وأحرق المنبر، وعمر طرسوس حصنها وتراجع إليها بعض أهلها وتنصر بعضهم، ثم عاد ملك الروم إلى القسطنطينية.

مخالفة أهل إنطاكية على سيف الدولة بن حمدان

في هذه السنة أطاع أهل إنطاكية بعض المقدمين، الذين حضروا من طرسوس، وخالفوا سيف الدولة، وكان اسم المقدم الذي أطاعوه رشيقاً فسار إلى جهة حلب، وقاتل عامل سيف الدولة قرعويه، وكان سيف الدولة بميافارقين فأرسل سيف الدولة عسكراً مع خادمه بشارة فاجتمع قرعويه العاعل بحلب مع بشارة، وقاتلا رشيق، فقتل رشيق وهرب بأصحابه، ودخلوا إنطاكية.

وفي هذه السنة قتل المتنبي الشاعر وابنه، قتلهما الأعراب وأخذوا ما معهما، واسمه أحمد بن الحسين بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي، ومولده سنة ثلاث وثلاثمائة في الكوفة، بمحلة تسمى كندة، فنسب إليها، وليس هو من كندة، التي هي قبيلة، بل هو جُعْفي القبيلة، بضم الجيم وسكون العين المهملة، ويقال إنّ المتنبي كان سقاء بالكوفة، وفي ذلك يقول بعضهم يهجو المتنبي بأبيات منها:

أي فضل لشاعر يطلب الفض ... ل من الناس بكرة وعشيا عاش حينا يبيع في الكوفة الما ... ء

وحينا يبيع ماء المحيا ثم قدم المتنبي إلى الشام في صباه، واشتغل بفنون الأدب، ومهر فيها، وكان من المكثرين لنقل اللغة، والمطلعين عليها وعلى غريبها، لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب، حتى قيل إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب كتاب الإيضاح قال له يوماً: كم لنا من الجموع على وزن فعلى، فقال المتنبي في الحال: حجلى وظربى. قال أبو علي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهما ثالثاً فلم أجد، وحسبك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة، وأما شعره فهو النهاية ورزق فيه السعادة، وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في برية السماوة، وتبعه خلق كثير من بني كلب، وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ نائب الإخشيدية بحمص، فأسر المتنبي وتفرق عنه أصحابه، وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه، ثم التحق المتنبي بسيف الدولة بن حمدان في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، ثم فارقه واتصل بمصر سنة ست وأربعين، فمدح كافوراً الإخشيدي، ثم هجاه وفارقه سنة خمسين وقصد عضد الدولة ببلاد فارس ومدحه، ثم رجع قاصداً الكوفة، فقتل بقرب النعمانية، وهي من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول، قتلته العرب، وأخذوا ما معه. وفيها توفي محمد بن حبان أبو حاتم بن أحمد بن حبان البستي صاحب التصانيف المشهورة، حبان بكسر الحاء المهملة والباء الموحدة ثم ألف" "ونون.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

خروج الروم إلى بلاد الإسلام في هذه السنة، خرجت الروم ووصلوا إلى آمد وحصروها، ثم انصرفوا عنها إلى قرب نصيبين، وغنموا، وهرب أهل نصيبين، ثم ساروا من الجزيرة إلى الشام ونازلوا إنطاكية وأقاموا عليها مدة طويلة، ثم رحلوا عنها إلى طرسوس. وفي هذه السنة استفك سيف الدولة بن حمدان بن عمه أبا فراس ابن حمدان من الأسر، وكان بينه وبين الروم الفداء، فخلص عدة من المسلمين من الأسر.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وثلاثمائة.

موت معز الدولة وولاية ابنه بختيار في هذه السنة سار معز الدولة إلى واسط، وجهز الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطيحة، وحصل له إسهال، فلما قوي به عاد إلى بغداد، وترك العسكر في قتال عمران بن شاهين، ثم تزايد به المرض بعد وصوله إلى بغداد، فلما أحس بالموت، عهد إلى ابنه بختيار، ولقبه عز الدولة، وأظهر معز الدولة التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه، وتوفي ببغداد في ثالث عشر ربيع الآخر من هذه السنة، بعلة الذرب، ودفن بباب التبن، في مقابر قريش، وكانت إمارته إحدى وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً. ولما مات معز الدولة استقر ابنه عز الدولة بختيار في الإمارة، وكتب بختيار إلى العسكر بمصالحة عمران بن شاهين، وعودهم إلى بغداد، ففعلوا ذلك، وكان معز الدولة مقطوع اليد، قيل إنها قطعت بكرمان في بعض حروبه، ومعز الدولة هو الذي أنشأ السعاة ببغداد لأعلام أخيه ركن الدولة بالأحوال سريعاً، فنشأ في أيامه فضل ومرعوش وفاقا جميع السعاة، وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفاً وأربعين فرسخاً، وتعصبت لهما الناس، وكان أحدهما ساعي السنية والآخر ساعي الشيعة، ولما تولى بختيار، أساء السيرة واشتغل باللعب واللهو وعشرة النساء، والمغنيين وبغى كبائر الديلم شرهاً إلى إقطاعاتهم. القبض على ناصر الدولة بن حمدان وفي هذه السنة، قبض ابن ناصر الدولة أبو تغلب، على أبيه ناصر الدولة، وحبسه وكان سبب قبضه، أن ناصر الدولة كان قد كبر وساءت أخلاقه، وضيق على أولاده وأصحابه وخالفهم في أغراضهم فضجروا منه، حتى وثب عليه ابنه أبو تغلب فقبضه في هذه السنة في أواخر جمادى الأولى، ووكل به من يخدمه، ولما فعل أبو تغلب ذلك خالفه بعض أخوته، فاحتاج أبو تغلب إلى مداراة بختيار ليعضده، فضمن أبو تغلب البلاد لبختيار بألف ألف ومائتي ألف درهم." "وفاة وشمكير في هذه السنة مات وشمكير بن زيار أخو مرداويج بأن حمل عليه وهو في الصيد، خنزير مجروح، فقامت به فرسه فسقط إلى الأرض فمات، فقام بالأمر بعده ابنه بيستون بن وشمكير بن زيار، وقيل إن موته كان سنة سبع وخمسين في المحرم. وفاة كافور وفيها مات كافور الإخشيدي وكان خصياً أسود من موالي محمد بن طغج الإخشيدي صاحب مصر، واستولى كافور على ملك مصر والشام بعد موت أولاد الإخشيد، فإنه ملك بعد الإخشيد ابنه أنوجور، والأمر جميعه إلى كافور، ثم مات أنوجور سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، فأقام كافور أخاه علياً بن الإخشيد، فتوفي علي ابن الإخشيد المذكور،

وهو صغير، في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فاستقل كافور بالمملكة من هذا التاريخ وكان كافور شديد السواد، واشتراه الإخشيد بثمانية عشر ديناراً وقصده المتنبي ومدحه، وحكى المتنبي قال: كنت إذا دخلت على كافور، أنشده يضحك لي، ويبش في وجهي إلى أن أنشدته:

ولما صار ود الناس خبا ... جزيتَ على ابتسام بابتسام وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام قال: فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا، فعجبت من فطنته وذكائه، ولم يزل كافور مستقلاً بالأمر حتى توفي في هذه السنة يوم الثلاثاء لعشرين بقين من جمادى الأولى بمصر، وقيل كانت وفاته سنة سبع وخمسين، ودفن بالقرافة الصغرى، وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه، والديار المصرية، وبلاد الشام، وكان تقدير عمره خمساً وستين سنة، ووقع الخلف فيمن ينصب بعده، واتفقوا على أبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد وخطب له في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وفاة سيف الدولة وفيها مات سيف الدولة، أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي الربعي، وكان موته بحلب في صفر، وحمل تابوته إلى ميافارقين، فدفن بها، وكان مولده في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثمائة وكان مرضه عسر البول، وهو أول من ملك حلب من بني حمدان، أخذها من أحمد بن سعيد الكلابي نائب الإخشيد وقيل إن أول من ولى حلب من بني حمدان، الحسين بن سعيد، وهو أخو أبي فراس حمدان وكان سيف الدولة شجاعاً كريماً. "ثم دخلت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة في هذه السنة استولى عضد الدولة ابن ركن الدولة بن بويه على كرمان بعد موت صاحبها علي بن إلياس.

قتل أبي فراس بن حمدان وفي هذه السنة في ربيع الآخر قتل أبو فراس وكان مقيماً بحمص، فجرى بينه وبين أبي المعالي بن سيف الدولة وحشة، وطلبه أبو المعالي، فانحاز أبو فراس إلى صدد فأرسل أبو المعالي عسكر مع قرعويه، أحد قواد عسكره، فكبسوا أبا فراس في صدد، وقتلوه، وكان أبو فراس خال أبي المعالي وابن عمه، واسم أبي فراس الحارث بن أبي العلا سعيد بن حمدان بن حمدون وهو ابن عم ناصر الدولة، وسيف الدولة أسر بمنبج كما ذكرناه، وحمل إلى القسطنطينية، وأقام في الأسر أربع سنين، وله في الأسر أشعار كثيرة، وكانت منبج إقطاعه. وقال ابن خالويه. لما مات سيف الدولة عزم أبو فراس على التغلب على حمص، فاتصل خبره بأبي المعالي بن سيف الدولة وغلام أبيه قرعويه، فأرسله إليه وقاتله، فقتل في صدد وقيل بقي مجروحاً أياماً َ ومات، وكان مولده سنة

عشرين وثلاثمائة. "ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. ملك المعز العلوي مصر في هذه السنة، سير المعز لدين الله أبو تميم معد بن إسماعيل المنصور بالله ابن القائم محمد بن المهدي عبيد الله القائد أبا الحسين، جوهر أغلام، والده المنصور، وجوهر رومي الجنس، فسار جوهر المذكور، في جيش كثيف إلى الديار المصرية، فاستولى عليها، وكان سبب ذلك أنه لما مات كافور الإخشيدي، اختلفت الأهواء في مصر، وتفرقت الآراء، فبلغ ذلك المعز، فجهّز العسكر إليها، فهربت العساكر الإخشيدية من جوهر المذكور قبل وصوله، ووصل القائد جوهر إلى الديار المصرية سابع عشر شعبان، وأقيمت الدعوة للمعز في الجامع العتيق في شوال، وكان الخطيب أبا محمد عبد الله بن الحسين الشمشاطي، وفي جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، قدم جوهر إلى جامع ابن طولون وأمر فأذن فيه بحي على خير العمل، ثم أذّن بعده بذلك في الجامع العتيق، وجهر في الصلاة يبسم الله الرحمن الرحيم ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة. ملك عسكر المعز دمشق وغيرها من البلاد ولما استقر قدم جوهر بمصر، سيّر جمعاً كثيراً مع جعفر بن فلاح إلى الشام، فبلغ الرملة، وبها للحسن بن عبد الله بن طغج، وجرى بينهما حروب كان الظفر فيها لعسكر المعز، وأسر ابن طغج وغيره من القواد، فسيرهم جوهر إلى المعز، واستولى عساكر المعز على تلك البلاد، وجبوا أموالها.

ثم سار جعفر بن فلاح بالعساكر إلى طبرية، فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله. فسار عنها إلى دمشق، فقاتله أهلها فظفر بهم، وملك دمشق ونهب بعضهما، وكف عن الباقين، وأقام الخطبة يوم الجمعة للمعز لدين الله العلوي، لأيام خلت من المحرم، سنة تسع وخمسين، وقطعت الخطبة العباسية، وجرى في أثناء هذه السنة بعد إقامة الخطبة العلوية، فتنة بين أهل دمشق وجعفر بن فلاج، ووقع بينهم حروب، وقطعوا الخطبة العلوية، ثم استظهر جعفر بن فلاج واستولى على دمشق، فزالت الفتن واستقرت دمشق للمعز لدين الله العلوي." "اختلاف أولاد ناصر الدولة وموت أبيهم كان أبو تغلب وأبو البركات، وأختهما فاطمة، أولاد ناصر الدولة، من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فاتفقت مع ابنها أبي تغلب، وقبضوا على ناصر الدولة على ما ذكرناه، وكان لناصر الدولة ابن آخر اسمه حمدان، كان ناصر الدولة قد أقطعه الرحبة وماردين وغيرهما، فلما قبض ناصر الدولة، كاتب ابنه حمدان يستدعيه، ليتقوى به على المذكورين، فظفر أولاده بالكتّاب، نخوفوا أباهم وحذروه، وبلغ ذلك حمدان، فعادى أخوته، وكان أشجعهم، ولما خاف أبو تغلب من أبيه ناصر الدولة، نقله إلى قلعة كواشي، وحبسه بها، وبقي ناصر الدولة محبوساً

بها شهوراً، ومات ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان التغلبي المذكور، بقلعة كواشي، في ربيع الأول من هذه السنة، ووقع بين حمدان بن ناصر الدولة، وبين أخويه أبي تغلب وأبي بركات حروب كثيرة، قتل فيها أبو البركات، قتله أخوه حمدان. ثم قوي أبو تغلب على أخيه حمدان وطرده عن بلاده، واستولى عليها، وكان يلقب أبو تغلب بن ناصر الدولة المذكور، عدة الدولة الغضنفر أبا تغلب.

ما فعله الروم بالشام في هذه السنة دخل ملك الروم إلى الشام، ولم يمنعه أحد، فسار في البلاد إلى طرابلس، وفتح قلعة عرقة بالسيف، ثم قصد حمص، وقد أخلاها أهلها، فأحرقها ورجع إلى بلاد الساحل، فأتى عليها نهباً وتخريباً، وملك ثمانية عشر منبراً، وأقام في الشام شهرين، ثم عاد إلى بلاده، ومعه من الأسرى والغنائم ما يفوق الحصر. استيلاء قرعويه على حلب في هذه السنة استولى قرعويه غلام سيف الدولة على حلب، وأخرج ابن أستاذه أبا المعالي شريف بن سيف الدولة بن حمدان منها، فسار أبو المعالي إلى عند والدته بميافارقين، وأقام عندها، ثم جرى بينهما وحشة، ثم اتفقا بعدها، ثم سار أبو المعالي فعبر الفرات وقصد حماة وأقام بها. وفي هذه السنة طلب سابور بن أبي طاهر القرمطي من أعمامه، أن يسلموا الأمر إليه، فحبسوه ثم أخرج ميتاً في منتصف رمضان. ثم دخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة. ما ملكه الروم من البلاد في هذه السنة، سارت الروم إلى الشام، ففتحوا إنطاكية بالسيف، وقتلوا أهلها، وغنموا وسبوا، ثم قصدوا حلب، وقد تغلب عليها قرعويه، غلام سيف الدولة بن حمدان، بعد طرد ابن أستاذه أبي المعالي عنها، فتحصن قرعويه بالقلعة، وملك الروم مدينة حلب وحصروا" "القلعة، ثم اصطلحوا على مال يحمله قرعويه إلى ملك الروم في كل سنة، وكانت المصالحة بحمل المال المقرر على حلب وما معها من البلاد، وهي حماة وحمص وكفر طاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك، ودفع أهل حلب الرهائن بالمال إلى الروم، فرحلت الروم عن حلب، وعادت المسلمون إليها. وفيها رسل ملك الروم إلى ملاز كرد من أرمينية جيشاً، فحصروها وفتحوها، عنوة بالسيف، وصارت البلاد كلها مسبية، ولا يمنع الروم عنها مانع.

قتل ملك الروم كان قد غلب على ملك الروم رجل ليس من بيت المملكة، واسمه نقفور وخرج إلى بلاد الإسلام وفتح من الشام وغيره ما ذكرناه، وطمع في ملك جميع الشام وعظمت هيبته، وكان قد

قتل الملك الذي قبله، وتزوج امرأته، ثم أراد أن يخصي أولادها الذين من بيت الملك، لينقطع نسلهم، ويبقى الملك في نسل نقفور المذكور وعقبه، فعظم ذلك على أمهم التي هي زوجة نقفور، فاتفقت مع الدمستق على قتله، وأدخلت الدمستق مع جماعة في زي النساء إلى كنيسة متصلة بدار نقفور، فلما نام نقفور وغلقت الأبواب قامت زوجته ففتحت الباب الذي إلى جهة الكنيسة، ودعت الدمستق، فدخل على نقفور وهو نائم، فقتله وأراح الله المسلمين من شره، وأقام الدمستق أحد أولادها الذي من بيت الملك في الملك، والدمستق عندهم اسم لكل من يلي بلاد الروم التي هي شرقي خليج قسطنطينية. استيلاء أبي تغلب بن ناصر الدولة على حران في هذه السنة سار أبو تغلب إلى حَران وحاصرها مدة وفتحها بالأمان، فاستعمل على حران البرقعيدي، وهو من أكابر أصحاب بني حَمْدان، ثم عاد أبو تغلب إلى المَوْصل.

غير ذلك من الحوادث في هذه السنة اصطلح قرعويه مع ابن أستاذه أبي المعالي، وخطب له بحلب، وكان أبو المعالي حينئذ بحمص، وخطب أيضاً بحمص وحلب للمعز لدين الله العلوي، صاحب مصر، وخطب بمكة للمطيع، وبالمدينة النبوية للمعز، وخطب أبو محمد الموسوي والد الشريف الرضي خارج المدينة للمطيع. وفي هذه السنة مات محمد بن داود الدينوري، المعروف بالرقي وهو من مشاهير مشايخ الصوفية، والقاضي أبو العلا محارب بن محمد بن محارب، الفقيه الشافعي، وكان عالماً بالفقه والكلام.

ثم دخلت سنة ستين وثلاثمائة. ملك القرامطة دمشق في هذه السنة، في ذي القعدة، وصلت القرامطة إلى دمشق، وبلغ خبرهم جعفر ابن فلاج، نائب المعز لدين الله، فاستهان بهم، فكبسوه خارج دمشق وقتلوه، وملكوا دمشق وأمنوا" "أهلها، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها، ثم اجتمع إليهم خلق من الإخشيدية. فقصدوا مصر، ونزلوا بعين شمس، وجرى بنيهم وبين المغاربة وجوهر قتال، انتصرت فيه القرامطة، ثم انتصرت المغاربة، فرحلت القرامطة وعادوا إلى الشام، وكان كبير القرامطة حينئذ اسمه الحسن بن أحمد بن بهرام. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة، استوزر مؤيد الدولة بن ركن الدولة، الصاحب أبا القاسم ابن عباد. وفيها مات أبو القاسم سليمان بن أيوب الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة بأصفهان، وكان عمره مائة سنة. وفيها توفي السري الرفاء الشاعر الموصلي ببغداد. ثم دخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة في هذه السنة وصلت الروم إلى الجزيرة والرها ونصيبين، فغنموا وقتلوا، ووصل المسلمون إلى بغداد مستصرخين، فثارت العامة. وجرى في

بغداد فتن كثيرة، واستغاثوا إلى بختيار وهو في الصيد، فوعدهم الخروج إلى الغزاة، وأرسل بختيار يطلب من الخليفة المطيع مالاً، فقال المطيع: أنا ليس لي غير الخطبة، فإن أحببتم اعتزلت، فتهدده بختيار، فباع الخليفة قماشه وغير ذلك، حتى حمل إلى بختيار أربعمائة ألف درهم، فأنفقها بختيار وأخرجها في مصالح نفسه، وبطل حديث الغزاة، وشاع في الناس أن الخليفة صودرَ. مسير المعز لدين الله العلوي إلى مصر وفي هذه السنة سار المعز من إفريقية، في أواخر شوال واستعمل على بلاد إفريقية يوسف، ويسمى بلكين بن زيري بن مناذ الصنهاجي، وجعل على بلاد صقلية أبا القاسم علي بن الحسين بن علي بن أبي الحسين، وعلى طرابلس الغرب عبد الله بن يخلف الكتّامي، واستصحب المعز معه أهله وخزانته، وفيها أموال عظيمة، حتى سبك الدنانير وعملها مثل الطواحين، وشالها على جمال، ولما وصل إلى برقة ومعه محمد بن هاني الشاعر الأندلسي، قتل غيلة، لا يدري من قتله، وكان شاعراً مجيداً، وغالي في مدح المعز حتى كفر في شعره، فمما قاله: ما شئتَ لا ما شاءَتِ الأقدار ... فاحكمْ فأنتَ الواحد القهار ثم سار المعز حتى وصل إلى الإسكندرية في أواخر شعبان، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم، ودخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. "حمدان قلعة ماردين، سلمها إليه نائب أخيه حمدان، فأخذ أبو تغلب كل ما لأخيه فيها من مال وسلاح. ثم دخلت سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فيها وصل الدمستق إلى جهة ميافارقين، فنهب واستهان بالمسلمين، فجهز أبو تغلب بن ناصر الدولة، أخاه هبة الله بن ناصر الدولة، في جيش، فالتقوا مع الدمستق، فانهزمت الروم، وأخذ الدمستق أسيراً، وبقي في الحبس عند أبي تغلب، ومرض فعالجه أبو تغلب، فلم ينجع فيه، ومات الدمستق في الحبس."

"[خلع المطيع وخلافة ابنه الطايع] كان بختيار قد سار إلى الأهواز، وتخلف سبكتكين التركي عنه ببغداد، فأوقع بختيار بمن معه من الأتراك، واحتاط على إقطاع سبكتكين، فخرج عليه سبكتكين ببغداد فيمن بقي معه من الأتراك، ونهب دار بختيار ببغداد؛ ولما حكم سبكتكين، رأى المطيع عاجزاً من المرض، وقد ثقل لسانه، وتعذرت الحركة عليه، وكان المطيع يستر ذلك، فلما انكشف لسبكتكين، دعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة، ويسلمها إلى ولده الطايع، فأجاب إلى ذلك، وخلع المطيع لله المفضل نفسه، في منتصف ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر غير أيام. وبويع الطايع لله وهو رابع عشرينهم، واسمه عبد الكريم بن المفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بن المعتضد أحمد، وكنية الطايع المذكور أبو

بكر، واستقر أمره. أحوال المعز العلوي وفي هذه السنة سارت القرامطة إلى ديار مصر، وجرى بينهم وبين المعز حروب، آخرها أن القرامطة انهزمت، وقتل منهم خلق كثير، وأرسل المعز في أثرهم عشرة آلاف فارس، فسارت القرامطة إلى الإحساء والقطيف، ولما انهزمت القرامطة وفارقوا الشام، أرسل المعز لدين الله القائد ظالم بن موهوب العقيلي إلى دمشق فدخلها، وعظم حاله وكثرت جموعه. ثم وقع بين أهل دمشق والمغاربة وعاملهم المذكور فتن كثيرة، وأحرقوا بعض دمشق، وعامت الفتن بينهم إلى سنة أربع وستين وثلاثمائة. "حال بختيار لما جرى لبختيار وسبكتكين والأتراك ما ذكرناه، انحدر سبكتكين بالأتراك إلى واسط، وأخذوا معهم الخليفة الطايع، والمطيع وهو مخلوع، فمات المطيع بدير العاقول، ومرض سبكتكين ومات أيضاً، وحملا إلى بغداد، وقدم الأتراك عليهم أفتكين وهو من أكابر قوادهم، وساروا إلى واسط، وبها بختيار، فنزلوا قريباً منه، ووقع القتال بين الأتراك وبختيار قريب خمسين يوماً، والظفر للأتراك ورُسُل بختيار متتابعة إلى ابن عمه عضد الدولة، بالحث والإسراع، وكتب إليه: فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي ... وإلا فأدركني ولما أمزق فسار عضد الدولة إليه، وخرجت هذه السنة والحال على ذلك. وفي هذه السنة انتهى تاريخ ثابت بن قره، وابتدأه من خلافة المقتدر، سنة خمس وتسعين ومائتين.

ثم دخلت سنة أربع وستين وثلاثمائة.

استيلاء عضد الدولة على العِراق والقبض على بختيار، في هذه السنة سار عضد الدولة بعساكر فارس، لما أتاه مكاتبات بختيار كما ذكرناه، فلما قارب واسط، رجع أفتكين والأتراك إلى بغداد، وصار عضد الدولة من الجانب الشرقي، وأمر بختيار أن يسير في الجانب الغربي إلى نحو بغداد، وخرجت الأتراك من بغداد، وقاتلوا عضد الدولة، فانهزمت الأتراك وقتل بينهم خلق كثير، وكانت الوقعة بينهم رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة، وسار عضد الدولة فدخل بغداد، وكان الأتراك قد أخذوا الخليفة معهم، فرده عضد الدولة إلى بغداد، فوصل الخليفة إلى بغداد في الماء، ثامن رجب من هذه السنة. ولمّا استقر عضد الدولة ببغداد، شغبت الجند على بختيار يطلبون أرزاقهم، ولم يكن قد بقي مع بختيار شيء من الأموال، فأشار عضد الدولة على بختيار أن يغلق بابه، ويتبرأ من الإمرة، ليصلح الحال مع الجند. ففعل بختيار ذلك، وصرف كتّابه وحجابه، فأشهد عضد الدولة الناس على بختيار، أنه عاجز وقد استعفى من الإمرة، عجزاً عنها، ثم استدعى عضد الدولة

بختيار وإخوته إليه، وقبض عليهم في السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، واستقر عضد الدولة ببغداد، وعظم أمر الخليفة وحمل إليه مالاً كثيراً وأمتعة. عود بختيار إلى ملكه لما قبض بختيار، كان ولده المرزبان بالبصرة متولياً لها، فلما بلغه قبض والده كتب إلى ركن الدولة يشكو إليه ذلك، فلما بلغ ركن الدولة ذلك، عظم عليه حتى ألقى نفسه إلى الأرض، وامتنع عن الأكل والشرب، حتى مرض "وأنكر على عضد الدولة أشد الإنكار. فأرسل عضد الدولة يسأل أباه في أن يعوض بختيار مملكة فارس، فأراد ركن الدولة قتل الرسول وقال: إن لم يعد بختيار إلى مملكته وإلا سرت إليه بنفسي، وكان قد سيّر عضد الدولة أبا الفتح بن العميد إلى والده ركن الدولة أيضاً، في تلطيف الحال، فرده ركن الدولة أقبح رد، فلما رأى عضد الدولة اضطراب الأمور عليه بسبب غضب أبيه، اضطر إلى امتثال أمره، فأخرج بختيار من محبسه، وخلع عليه، وأعاده إلى ملكه وسار عضد الدولة إلى فارس في شوال من هذه السنة. استيلاء أفتكين على دمشق كان أفتكين من موالي معز الدولة بن بويه، وكان تركياً، فلما انهزم من بختيار عند قدوم عضد الدولة، حسبما ذكرناه، سار إلى حمص، ثم إلى دمشق، وأميرها ريان الخادم، من جهة المعز العلوي فاتفق أهل دمشق مع أفتكين وأخرجوا ريان الخادم، وقطعوا خطبة المعز في شعبان، واستولى أفتكين على دمشق، فعزم المعز العلوي على المسير من مصر إلى الشام لقتال أفتكين، فاتفق مرت المعز في تلك الأيام على ما نذكره وتولى ابنه العزيز، فجهز القائد جوهراً إلى الشام. فوصل إلى دمشق وحصر أفتكين بها فأرسل أفتكين إلى القرامطة فساروا إلى دمشق، فلما قربوا منها رحل جوهر عائداً إلى جهة مصر فسار أفتكين والقرامطة في أثره، واجتمع معهم خلق عظيم فلحقوا جوهراً قرب الرملة، فرأى جوهر ضعفه عنهم، فدخل عسقلان، فحصروه بها حتى أشرف جوهر وعسكره على الهلاك من الجوع، فراسل جوهر أفتكين، وبذل له أموالاً عظيمة في أن يمن عليه ويطلقه، فرحل عنه أفتكين. وسار جوهر إلى مصر، وأعلم العزيز بصورة الحال، فخرج العزيز بنفسه وسار إلى الشام، فوصل إلى ظاهر الرملة، وسار إليه أفتكين والقرامطة، والتقوا، وجرى بينهم قتال شديد، وانهزم أفتكين والقرامطة، وكثر فيهم القتل والأسر، وجعل العزيز لمن يحضر أفتكين مائة ألف دينار، وتم أفتكين هارباً حتى نزل ببيت مفرج بن دغفل الطائي فأمسكه مفرج بن دغفل المذكور، وكان صاحب أفتكين، وحضر مفرج إلى العزيز وأعلمه بأسر أفتكين، وطلب منه المال فأعطاه ما ضمنه، وأرسل معه من أحضر أفتكين، فلما حضر أفتكين ممسوكاً بين يدي العزيز أطلقه ونصب له خيمة، وأطلق من كان في

الأسر من أصحابه، وحمل العزيز إليه أموالاً وخلعاً، ثم عاد العزيز إلى مصر وأفتكين صحبته، على أعظم ما يكون من المنزلة، وبقي كذلك حتى مات أفتكين بمصر.

ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وفاة المعز العلوي وولاية ابنه العزيز في هذه السنة توفي المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله إسماعيل ابن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله العلوي الحسيني بمصر، في سابع عشر ربيع الأول وولد بالمهدية من إفريقية، حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فيكون "عمره خمساً وأربعين سنة وستة أشهر تقريباً، وكان مغواً بالنجوم، ويعمل بأقوال المنجمين، وكان فاضلا، ولما مات المعز أخفى العزيز ابنه موته، وأظهره في عيد النحر من هذه السنة، وبايعه الناس. "ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمائة. وفاة ركن الدولة وملك عضد الدولة في هذه السنة في المحرم، توفي ركن الدولة الحسن بن بويه، واستخلف على مماليكه ابنه عضد الدولة، وكان عمر ركن الدولة قد زاد على سبعين سنة، وكانت إمارته أربعاً وأربعين سنة، وأصيب به الدين والدنيا جميعاً لاستكمال خلال الخير فيه، وعقد لولده، فخر الدولة على همدان، وأعمال الجبل، لولده مزيد الدولة على أصفهان وأعمالها، وجعلهما تحت حكم أخيهما عضد في هذه البلاد. مسير عضد الدولة إلى العراق وفيها بعد وفاة ركن الدولة، سار عضد الدولة إلى العراق، فخرج بختيار إلى قتاله، فاقتتلا بالأهواز، وخامر أكثر جيش بختيار عليه، فانهزم بختيار إلى واسط، وبعث عضد الدولة عسكراً فاستولوا على البصرة، ثم سار بختيار إلى بغداد، وسار عضد الدولة إلى البصرة، وتلك النواحي، وقرر أمورها،" "واستمر الحال على ذلك حتى خرجت هذه السنة.

ابتداء دولة آل سبكتكين وفي هذه السنة ملك سبكتيكين مدينة غزنة. وكان سبكتكين من غلمان أبي إسحاق بن البتكين، صاحب جيش غزنة للسامانية، وكان سبكتكين مقدماً عند مولاه أبي إسحاق، لعقله وشجاعته، فلما مات أبو إسحاق ولم يكن له ولد، اتفق العسكر وولوا سبكتكين عليهم لكمال صفات الخير فيه، وحلفوا له وأطاعوه، ثم إن سبكتكين عظم شأنه وارتفع قدره وغزا بلاد الهند واستولى على بُسْت وقصْدار. غير ذلك من الحوادث فيها مات منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان، صاحب خراسان وما وراء النهر في منتصف شوال، في

بخارى، وكانت ولايته نحو خمس عشرة سنة، وولي الأمر بعده ابنه نوح بن منصور، وعمره نحو ثلاث عشرة سنة وفيها مات القاضي منذر بن سعيد البلوطي، قاضي قضاة الأندلس، وكان إماماً فقيهاً خطيباً شاعراً ذا دين متين، وفيها قبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه وسمل عينه الواحدة، وقطع أنفه، وكان أبو الفتح ليلة قبض، قد أمسى مسروراً، وأحضر ندماءه، وأظهر من الآلات الذهبية والزجاج المليح، وأنواع الطيب، ما ليس لأحد مثله، "ثم دخلت سنة سبع وستين وثلاثمائة." "استيلاء عضد الدولة على العراق وغيره وقتل بختيار وفي هذه السنة سار عضد الدولة إلى العراق. وكتب إلى بختيار يقول له اخرج عن هذه البلاد، وأنا أعطيك أي بلاد اخترت غيرها. فمال بختيار إلى ذلك، وأرسل له عضد الدولة خلعة فلبسها، وسار بختيار إلى نحو الشام، ودخل عضد الدولة بغداد واستقر فيها، وقتل ابن بقية وزير بختيار وصلبه" "وسار مع بختيار، حمدان بن ناصر الدولة، فأطمعه حمدان في ملك الموصل، وحسن له ذلك، وهون عليه أمر أخيه أبي تغلب، فسار بختيار إلى جهة الموصل، فأرسل أبو تغلب يقول لبختيار: إن سلمت إليّ أخي حمدان، صرت معك وقاتلت عضد الدولة، وأخرجته من العراق، فقبض بختيار على حمدان، وحبله وسلمه إلى أخيه أبي تغلب، وارتكب فيه من الغدر أمراً شنيعاً، فحبسه أخوه أبو تغلب واجتمع أبو تغلب بعساكره مع بختيار، وقصدا عضد الدولة، فخرج عضد الدولة من بغداد نحوهما، والتقوا بقصر الجص من نواحي تكريت، ثامن شوال من هذه السنة، فهزمهما عضد الدولة وأمسك بختيار أسيراً فقتله، ثم سار عضد الدولة نحو الموصل فملكها وهرب أبو تغلب إلى نحو ميافارقين، فأرسل عضد الدولة جيشاً في طلبه ومقدمهم أبو الوفاء فلما وصلوا إلى ميافارقين هرب أبو تغلب إلى بدليس، وتبعه عسكر عضد الدولة، فهرب إلى نحو بلاد الروم. فلحقه العسكر، وجرى بينهم قتال، فانتصر أبو تغلب وهزم عسكر عضد الدولة، ثم سار أبو تغلب إلى حصن زياد، ويعرف الآن بخرت برت، ثم سار إلى آمد، وأقام بها، وفيها توفي ظهير الدولة بهستون ابن وشمكير، وملك بعده أخوه شمس المعالي قابوس بن وشمكير.

وفيها توفي محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قريعة البغدادي، وكان قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد، وكان إحدى عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يسأل عنه، في أفصح لفظ وأملح سجَع. وكان مختصاً بصحبة الوزير المهلبي، وكان رؤساء العصر يلاعبونه ويكتبون إليه المسائل المضحكة، فيكتب الجواب من غير توقف، وكان الوزير المهلبي يغري به جماعة يضعون له الأسئلة الهزلية "ليجيب عنها، فمن ذلك ما كتب إليه به العباس بن المعلى الكاتب، ما يقول القاضي وفقه الله

تعالى، في يهودي زنى بنصرانية فولدت ولداً جسمه للبشر ووجهه للبقر، وقد قبض عليهما، فما يرى القاضي فيهما؟ فكتب الجواب بديهاً: هذا من أعدل الشهود على اليهود، بأنهم شربوا العجل في صدورهم فخرج من أيورهم، وأرى أن يناط برأس اليهودي رأس العجل ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل، ويسحبا على الأرض وينادى عليهما، ظلماتٌ بعضها فوق بعض والسلام. والسندية: قرية على نهر عيسى، بين بغداد والأنبار، وينسب إليها سندواني، ليحصل الفرق بين النسبة إليها وبين النسبة إلى بلاد السند. ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمائة فيها فتح أبو الوفا مقدم عسكر عضد الدولة ميافارقين بالأمان، فلما سمع أبو تغلب بفتحها، سار عن آمد نحو الرحبة، ثم سار عسكر عضد الدولة مع أبي الوفاء، ففتحوا آمد واستولى عضد الدولة على جميع ديار بكر، ثم استولى على ديار مضر - بالضاد المعجمة - والرحب، ولما استولى عضد الدولة على جميع مملكة أبي تغلب، واستخلف أبا الوفاء على الموصل، وسار عضد الدولة ودخل بغداد. وأما أبو تغلب فإنه سار إلى دمشق، وكان قد تغلب على دمشق قسام وهو شخص كان يثق إليه أفتكين ويقدمه، فاستولى قسام على دمشق، وكان يخطب فيها للعزيز صاحب مصر، فلما وصل أبو تغلب إلى دمشق، قاتله قسام ومنعه من دخول دمشق، فسار أبو تغلب إلى طبرية" "مقتل أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان كان أبو تغلب قد سار عن دمشق إلى طبرية، كما ذكرناه، ثم سار إلى الرملة في المحرم من هذه السنة، وكان بتلك الجهة دغفل بن مفرج الطائي، وقائد من قواد العزيز اسمه الفضل، ومعه عسكر قد جهزه العزيز إلى الشام، فساروا لقتال أبي تغلب، ولم يبق مع أبي تغلب غير سبع مائة رجل من غلمانه، وغلمان أبيه، فولى أبو تغلب منهزماً، وتبعوه فأخذوه أسيراً، فقتله دغفل وبعث برأسه إلى العزيز بمصر، وكان معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة، وزوجته بنت عمه سيف الدولة، فحملهما بنو عقيل إلى حلب، وبها ابن سيف الدولة فترك أخته عنده، وأرسل جميلة بنت ناصر الدولة إلى بغداد، فاعتقلت في حجرة في دار عضد الدولة."

"وفاة عمران بن شاهين صاحب البطيحة وأخباره وولاية ابنه الحسن بن عمران كان عمران بن شاهين من أهل بلدة تسمى الجامدة، فجنى جنايات وخاف من السلطان فهرب إلى البطيحة، وأقام بين القصب والآجام، واقتصر على ما يصيده من السمك وطيور الماء، واجتمع إليه جماعة من الصيادين واللصوص، فقوي بهم، فلما استفحل أمره واشتدت شوكته، اتخذ له معاقل على التلال التي بالبطيحة، وغلب على تلك النواحي واستولى عليها في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة في أيام معز الدولة،

فأرسل إلى قتاله معز الدولة العسكر مرة ثم أخرى، فلم يظفر به، ومات معز الدولة وعسكره محاصر عمران المذكور، وتولى بختيار، فأمر العسكر بالعود إلى بغداد، فعادوا ثم جرى بين بختيار وبين عمران عدة حروب، فلم يظفر منه بشيء، وطلبه الملوك والخلفاء، وبذلوا جهدهم بأنواع الحيل، فلم يظفروا منه بشيء ومات في مملكته في هذه السنة، في المحرم فجأة حتف أنفه، وكانت مدة ولايته من حين ابتداء أمره، قريب أربعين سنة، ولما مات تولى مكانه على البطيحة ابنه الحسن بن عمران بن شاهين، فطمع فيه عضد الدولة، وأرسل إليه عسكراً، ثم اصطلحوا على مال يحمله الحسن بن عمران إلى عضد الدولة في كل سنة. "ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمائة فيها توفي الأحدب المزور، كان يكتب على خط كل أحد، فلا يشك المكتوب عنه أنه خطه، وكان عضد الدولة يوقع بخطه بين الملوك الذين يريد الإيقاع بينهم، بما يقتضيه الحال في الإفساد بينهم. وفيها ورد على عضد الدولة هدية من صاحب اليمن، فيها قطعة واحدة من العنبر، وزنها ستة وخمسون رطلاً بالبغدادي. "

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وفيها استولى عضد الدولة على بلاد جرجان وطبرستان، وأجلى عنها صاحبها قابوس بن وشمكير ومعه فخر الدولة علي أخو عضد الدولة، وكان ذلك بسبب أن عضد الدولة، طلب من قابوس أن يسلم إليه أخاه فخر الدولة علياً، فامتنع قابوس عن ذلك. وفيها قبض عضد الدولة على القاضي المحسن بن علي التنوخي الحنفي، وكان شديد التعصب على الشافعي، يطلق لسانه فيه. وفيها أفرج عضد الدولة عن أبي إسحاق إبراهيم الصابي، وكان قد قبض عليه سنة سبع وستين بسبب أنه كان ينصح في المكاتبات لصاحبه بختيار، وهذا من العجب فإنه ما ينبغي أن تجعل مناصحة الإنسان لصاحبه وعدم مخامرته ذنباً. وفيها أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر محمد بن الطيب الأشعري، المعروف بابن الباقلاني، إلى ملك الروم في جواب رسالة وردت عليه منه. وفيها توفي أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي، الفقيه الشافعي الجرجاني، والإمام محمد بن أحمد بن عبد الله المروزي، الفقيه الشافعي، وكان عالماً بالحديث وغيره، وروى صحيح البخاري عن الفريري. ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة في هذه السنة سير العزيز بالله العلوي صاحب مصر، جيشاً مع بكتكين إلى الشام، فوصلوا إلى فلسطين، وكان قد استولي عليها مفرج بن الجراح، وكثر جمعه، فجرى بينهم قتال شديد، فانهزم ابن الجراح وجماعته، وكثر القتل والنهب فيهم، ثم سار بكتكين إلى دمشق، فقاتله قسام المتولي عليها، فغلبه بكتكين وملك دمشق، وأمسك قساماً وأرسله إلى العزيز بمصر، واستقر بدمشق وزالت الفتن. وفاة عضد الدولة في ثامن شوال من هذه السنة،

مات عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه، بمعاودة الصرع مرة بعد أخرى، وحمل إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فدفن به، وكانت ولايته بالعراق خمس سنين ونصفاً، وكان عمره سبعاً وأربعين سنة، وقيل إنه لما احتضر لم ينطق لسانه إلا بتلاوة " ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه " وكان عاقلا فاضلا، حسن السياسة شديد الهيبة، وهو الذي بنى على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم سوراً، "وكان عضد الدولة محباً للعلوم وأهلها، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب، منها الإيضاح في النحو، والحجة في القراءات والملكي في الطب، والتاجي في تاريخ الديلم. وغير ذلك، ولما توفي عضد الدولة اجتمع القواد والأمراء على ولده. كاليجار المرزبان، فبايعوه، وولوه الإمارة ولقبوه صمصام الدولة، وكان أخوه شرف الدولة شيرزبك بن عضد الدولة بكرمان، فلما بلغه موت أبيه سار إلى فارس وملكها، وقطع خطبة أخيه صمصام الدولة.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وفي هذه السنة توفي مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة حسن بن بويه بالخوانيق، وكان قد أقره أخوه عضد الدولة على ما كان بيده، وزاد عليه مملكة أخيهما فخر الدولة، وكان عمر مؤيد الدولة ثلاثاً وأربعين سنة، وكان أخوه فخر الدولة علي، مع قابوس بن وشمكير بن زيار كما ذكرناه، فلما مات مؤيد الدولة اتفق قواد عسكره على طاعة فخر الدولة، وكتبوا إليه وسار فخر الدولة علي إليهم، وعاد إلى ملكه، واستقر فيه بغير منة لأحد ولا قتال، وذلك في رمضان هذه السنة، ووصلت إلى فخر الدولة الخلع من الخليفة والعهد بالولاية. ولاية بكجور دمشق كما قد ذكرنا أن بكجور مولى قرعويه قبض على أستاذه قرعويه، وملك حلب ثم سار أبو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، فأخذ حلب من بكجور وولاه حمص إلى هذه السنة، فكاتب العزيز صاحب مصر، وسأله في ولاية دمشق، فأجابه العزيز إلى مصر، فسلمها إلى بكجور في رجب، واستقر بكجور في ولاية دمشق، وأساء السيرة فيها. غير ذلك من الحوادث وفيها اتفق كبراء عسكر عمران بن شاهين فقتلوا أبا الفرج محمد بن عمران لسوء سيرته، وأقاموا أبا المعالي بن الحسن بن عمران بن شاهين، وكان صغيراً، فدبر أمره المظفر بن علي الحاجب، وهو أكبر قواد جده عمران، ثم بعد مدة أزال المظفر الحاجب المذكور أبا المعالي، وسيره هو وأمه إلى واسط، واستولى المظفر المذكور على ملك البطيحة، واستقل فيها، وانقرض بيت عمران بن شاهين. وفيها في ذي الحجة توفي يوسف بلكين بن زيري أمير إفريقية، وتولى بعده ابنه المنصور ابن يوسف بن زيري، وأرسل إلى العزيز بالله هدية" "عظيمة قيمتها ألف ألف دينار.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة في هذه السنة ولى أبو طريف عليان ابن ثمال الخفاجي حماية الكوفة وهي أول إمارة بني ثمال. وفيها توفي أبو الفتح محمد بن الحسين الموصلي الحافظ المشهور. وفيها توفي بميافارقين الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة، صاحب الخطب المشهورة، وكان إماماً في علوم الأدب، ووقع الإجماع على أنه ما عمل مثل خطبه، وصار خطيباً بحلب مدة، وبها اجتمع بالمتنبي، ثم اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان، وكان الخطيب المذكور رجلا صالحاً، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: مرحباً يا خطيب الخطباء، كيف تقول: كأنهم لم يكونوا للعيون قرة، ولم يعدوا في الأحياء مرة. قال الخطيب تمة هذه الخطبة وهي المعروفة بخطبة المنام، وأدناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفل في فيه، فبقي الخطيب بعد هذه الرؤيا ثلاثة أيام لم يطعم طعاماً ولا يشتهيه، ويوجد من فيه مثل رائحة المسك. ولم يعش بعد ذلك إلا أياماً يسيرة وكان مولده سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وفي هذه السنة قصدت القرامطة الكوفة، مع نفرين من الستة الذي سموهم السادة، ففتحوها ونهبوها، فجهز صمصام الدولة بن عضد الدولة إليهم جيشاً، فانهزمت القرامطة، وكثر القتل فيهم، وانحرفت هيبتهم، وقد حكى ابن الأثير في حوادث هذه السنة، والعهدة على الناقل، أنه خرج في هذه السنة بعُمان طائر من البحر كبير، أكبر من الفيل، ووقف على تل هناك وصاح بصوت عال، ولسنان فصيح، قد هرب، قالها ثلاث مرات، ثم غاص في البحر فعل ذلك، ثلاثة أيام ولم ير بعد ذلك. ثم دخلت سنة ست وسبعين وثلاثمائة. ملك شرف الدولة [بن عضد الدولة العراق وقبضه على أخيه صمصام الدولة] في هذه السنة سار شرف الدولة شيرزيك بن عضد الدولة، من الأهواز إلى واسط، فلكها، وأشار أصحاب صمصام الدولة عليه بالمسير إلى الموصل أو غيرها، فأبى صمصام الدولة، وركب بخواصه وحضر إلى عند أخيه شرف الدولة مستأمناً، فلقيه شرف الدولة، وطيب قلبه فلما خرج من عنده، غدر به وقبض عليه، وسار شرف الدولة شيرزيك حتى دخل بغداد في رمضان، وأخوه صمصام الدولة معتقل معه، وكانت إمارة صمصام الدولة ببغداد ثلاث سنين، ثم نقله إلى فارس، فاعتقله في قلعة هناك."ثم دخلت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ودخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة فيها سير العزيز صاحب مصر العلوي، عسكراً مع القائد منير

الخادم إلى دمشق، ليعزل بكجور، عنها، ويتولاها، فلما قرب منها خرج بكجور وقاتله عند داريا، ثم انهزم بكجور، ودخل البلد، وطلب الأمان، فأجابه منير إلى ذلك، فسار بكجور إلى الرقة، فاستولى عليها، واستقر منير في إمارة دمشق، وأحسن السيرة في أهلها. وفي هذه السنة في المحرم، أهدى الصاحب بن عباد، ديناراً وزنه ألف مثقال. "ثم دخلت سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وفيها أرسل شرف الدولة، محمد الشيرازي، ليسمل أخاه صمصام الدولة المرزبان، فوصل إلى القلعة التي بها صمصام الدولة محبوساً بعد موت شرف الدولة، وسمل صمصام الدولة فأعماه. وفاة شرف الدولة في هذه السنة في مستهل جمادى الآخرة، توفي الملك شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيك بن عضد الدولة بالاستسقاء، وحمل إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فدفن به، وكانت إمارته بالعراق سنتين وثمانية أشهر، وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة وخمسة أشهر، ولما مات استقر في الإمارة موضعه أخوه أبو نصر بهاء الدولة، وقيل اسمه خاشاذ بن عضد الدولة، وخلع عليه الطائع وقلده السلطنة. الفتنة ببغداد وفي هذه السنة، وقعت الفتنة أيضاً بين الأتراك والديلم، ودام القتال بينهم خمسة أيام وبهاء الدولة في داره، يراسلهم في الصلح فلم يسمعوا، ودام ذلك بينهم اثني عشر يوماً، ثم صار بهاء "الدولة مع الأتراك فضعفت الديلم، وأجابوا إلى الصلح، ثم من بعد ذلك أخذ أمر الأتراك في القوة، وأمر الديلم في الضعف.

هرب القادر إلى البطيحة في هذه السنة هرب أبو العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر إلى البطيحة، فاحتمى فيها، وكان سببها أن الأمير إسحاق بن المقتدر والدالقادر، لما توفي جرى بين ابنه أحمد الذي تسمى فيما بعد بالقادر، وبين أخت له، منازعة على ضيعة، وكان الطائع قد مرض وشفي، فسعت بأخيها المذكور إلى الطائع، وقالت: إن أخي شرع في طلب الخلافة عند مرضك، فتغير الطائع على أخيها أحمد، وأرسل ليقبضه، فهرب المذكور واستتر، ثم سار إلى البطيحة، فنزل على مهذب الدولة صاحب البطيحة، فأكرمه مهذب الدولة، ووسع عليه وبالغ في خدمته. عود بني حمدان إلى الموصل كان ابنا ناصر الدولة، وهما أبو الطاهر إبراهيم، وأبو عبد الله الحسين، في خدمة شرف الدولة بن عضد الدولة ببغداد، فلما توفي شرف الدولة، وملك أخوه بهاء الدولة، استأذناه في المسير إلى الموصل، فأذن لهما بهاء الدولة في ذلك، فسار أبو طاهر وأبو عبد الله الحسين المذكوران إلى الموصل، فقاتلهما العامل الذي بها، واجتمع إليهما المواصلة، فاستوليا على الموصل، وطردا عاملها،

والعسكر الذي قاتلهما إلى بغداد، واستقرا في الموصل. وفي هذه السنة توفي محمد بن أحمد ابن العباس السلمي النقاش، وكان من متكلمي الأشعرية.

ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمائة.

[صاحب ديار بكر وابتداء دولة بني مروان]

في هذه السنة طمع باد صاحب ديار بكر في ابني ناصر الدولة، وهما أبو طاهر إبراهيم، وأبو عبد الله الحسين، المستوليان علي الموصل، فقصدهما، وجرى بينهم قتال شديد، قتل فيه باد، وحمل رأسه إليهما، وكان باد المذكور، خال أبي علي بن مروان، فلما قتل باد، سار أبو علي بن أخته إلى حصن كيفا، وكان بالحصن امرأة خال باد المذكور وأهله، فقال لامرأة باد: قد أنفذني خالي إليك في مهم، فلما صعد إليها أعلمها بهلاك خاله، وأطمعها في الترويج بها، فوافقته على ملك الحصن وغيره، ونزل أبو علي بن مروان، وصلك بلاد خاله حصناً حصناً، حتى ملك ما كان لخاله جميعه، وجرى بينه وبين بي طاهر وأبي عبد الله ابني العزيز ناصر الدولة حروب، ثم مضى أبو علي بن مروان إلى مصر، وتقلد من الخليفة العزيز بالله العلوي ولاية حلب، وتلك النواحي، وعاد إلى مكانه من ديار بكر، وأقام بتلك الديار إلى أن اتفق بعض أهل آمد مع شيخهم عبد البر، فقتلوا أبا علي بن مروان المذكور، عند خروجه "من باب البلد بالساكين، وكان المتولي لقتله رجلا من أهل آمد، يقال له ابن دمنة، فلما قُتل أبو علي بن مروان، استولى عبد البر شيخ آمد عليها، وزوج ابن دمنة بابنته، فوثب ابن دمنة فقتل عبد البر أيضاً، واستولى ابن دمنة على آمد واستقر فيها، وكان لأبي علي ابن مروان، أخ يقال له ممهد الدولة، فلما قتل أبو علي، سار ممهد الدولة بن مروان إلى ميافارقين، فملكها وملك غيرها، من بلاد أخيه، وكان في جماعة ممهد الدولة رجل اسمه شموه، وهو من أكابر العسكر، فعمل دعوة لممهد الدولة وقتله فيها، واستولى شروه على غالب بلاد بني مروان، وذلك في سنة اثنتين وأربعمائة، وكان لممهد الدولة أخ آخر اسمه أبو نصر أحمد، وكان قد حبسه أخوه أبو علي بن مروان، بسبب رؤيا رآها، وهو أنه رأى أن الشمس في حجره، وقد أخذها منه أخوه أبو نصر، فحبسه لذلك، فلما قتل ممهد الدولة، أخرج أبو نصر من الحبس، واستولى على أرزن، وفي ذلك جميعه، وأبوهم مروان باق وهو أعمى، مقيم بأرزن عند قبر ولده أبي علي، ولما استقر أمر أبي نصر، انتقض أمر شروه، وخرجت البلاد عن طاعته، واستولى أبو نصر على سائر بلاد ديار بكر، ودامت أيامه، وحسنت سيرته، وبقي

كذلك من سنة اثنتين وأربعمائة إلى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. ملك أبي الذواد الموصل في هذه السنة، أعني سنة ثمانين وثلاثمائة استولى أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد بن جعفر أمير بني عقيل على الموصل، وقتل أبا الطاهر ابن ناصر الدولة بن حمدان، وقتل أولاده وعدة من قواده، بعد قتال جرى بينهما، واستقر أمر أبي الذواد بالموصل. ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. القبض على الطائع لله في هذه السنة قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة، على الطائع لله عبد الكريم، وكنيته أبو بكر بن المفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل، بسبب طمع بهاء الدولة في مال الطائع، ولما أراد بهاء الدولة ذلك، أرسل إلى الطائع وسأله الإذن ليجدد العهد به، فجلس الطائع على كرسي ودخل بعض الديلم، كأنه يريد تقبيل يد الخليفة، فجذبه عن سريره، والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويستغيث، فلا يغاث، وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة، وأشهد عليه بالخلع، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر. وأياماً، ولما تولى القادر حُمل إليه الطائع، فبقي عنده مكرماً إلى أن توفي الطائع سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ليلة الفطر، وكان مولده سنة سبع عشرة وثلاثمائة، ولم يكن للطائع في ولايته من الحكم ما يستدل به على حاله، وكان في الناس الذين حضروا القبض على الطائع الشريف "الرضي، فبادر بالخروج من دار الخلافة، وقال في ذلك أبياتاً من جملتها:

أمسيت أرحم من كنت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون

ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني

هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل عندي ولاج السلاطين

خلافة القادر بالله

أبي العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد وهو خامس عشرينهم، وكان مقيماً بالبطيحة. كما ذكرناه، فأرسل إليه بهاء الدولة، خواص أصحابه ليحضروه، ولما قرب من بغداد خرج بهاء الدولة وأعيان الناس لملتقاه، ودخل القادر دار الخلافة ثاني عشر شهر رمضان، وبايعه الناس، وخطب له ثالث عشر رمضان. وكانت مدة مقام القادر في البطيحة، عند مهذب الدولة، سنتين وأحد عشر شهراً. وكان مهذب الدولة محسناً إلى القادر بالله، ولما توجه من عنده، حمل إليه مهذب الدولة أموالاً كثيرة. قتل بكجور وموت سعد الدولة كما قد ذكرنا استيلاء منير الخادم من جهة

العزيز على دمشق، ومسير بكجور عنها إلى الرقة، فلما كان هذه السنة، سار بكجور إلى قتال سعد الدولة بن سيف الدولة بحلب، واقتتلا قتالاً شديداً، وهرب بكجور وأصحابه، وكثر القتل فيهم، ثم أمسك بكجور وأحضر أسيراً إلى سعد الدولة فقتله، ولقي بكجور عاقبة بغيه وكفره، إحسان مولاه، ولما قتله سار سعد الدولة إلى الرقة، وبها أولاد بكجور وأمواله، وحصرها فطلبوا الأمان، وحلفوا سعد الدولة على أن لا يتعرض إليهم، ولا إلى مالهم، فبذل سعد الدولة اليمين لهم، فلما سلموا الرقة إليه، وخرجوا منها، غدر بهم سعد الدولة، وقبض على أولاد بكجور وأخذ ما معهم من الأموال، وكانت شيئاً كثيراً. فلما عاد سعد الدولة إلى حلب، لحقه فالج في جانبه اليمين، فأحضر الطبيب ومد إليه يده اليسرى، فقال الطبيب: يا مولانا هات اليمين. فقال سعد الدولة: ما تركت لي اليمين يميناً، وعاش بعد ذلك ثلاثة أيام ومات في هذه السنة، واسم سعد الدولة المذكور شريف، وكنيته أبو المعالي بن سيف الدولة بن علي بن حمدان بن حمدون التغلبي. وقبل موته عهد إلى ولده أبي الفضائل بن سعد الدولة، وجعل مولاه لؤلؤاً يدبر أمره. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة، وصل بسيل ملك الروم إلى الشام، ونازل حمص ففتحها ونهبها، ثم سار إلى شيزر فنهبها، ثم سار إلى طرابلس، فحصرها مدة، ثم عاد إلى بلاد الروم. وفي هذه السنة توفي القائد جوهر الذي فتح مصر للمعز العلوي، معزولا عن وظيفته.

ثم دخلت سنة "اثنتين وثمانين وثلاثمائة فيها شغبت الجند على بهاء الدولة بسبب استيلاء أبي الحسن بن المعلم على الأمور كلها، فقبض بهاء الدولة على ابن المعلم وسلمه إلى الجند فقتلوه.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة في هذه السنة استولى على بخارى بغراخان، واسمه هارون بن سليمان أيلك خان، وكان له كاشغر وبلا صاغون إلى حد الصين، فقصد بخارى، وجرى بينه وبين الأمير الرضي نوح بن منصور الساماني حروب انتصر فيهما بغراخان، وملك بخارى، وخرج منها الأمير نوح مستخفياً، فعبر النهر إلى أمل الشط، وأقام الأمير نوح المذكور بها، ولحق به أصحابه، وبقي يستدعي أبا علي بن سيمجور صاحب جيش خراسان، فلم يأته وعصي عليه، ومرض بغراخان في بخارى، فارتحل عنها راجعاً نحو بلاده، فمات في الطريق، وكان بغراخان ديناً حسن السيرة، وكان يحب أن يكتب عنه مولى رسول الله، وولي أمرة الترك بعده طغان خان أبو نصر أحمد بن علي خان،

ولما رحل بغراخان عن بخارى ومات، بادر الأمير نوح فعاد إلى بخارى، واستقر في ملكه وملك آبائه.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وثلاثمائة في هذه السنة لما عاد نوح إلى بخارى، اتفق أبو علي بن سيمجور صاحب جيش خراسان، وفائق، على حرب نوح، فكتب نوح إلى سبكتكين وهو بغزنة يعلمه الحال، وولاه خراسَان، فسار سبكتكين عن غزنة ومعه ولده محمود إلى نحو خراسان، وخرج نوح من بخارى، فاجتمعوا وقصدوا أبا علي بن سيمجور وفائقاً، واقتتلوا بنواحي هراة، فانهزم أبو علي وأصحابه، وتبعهم عسكر نوح وسبكتكين. يقتلون فيهم، ولما استقر أمر نوح بخراسان، استعمل عليها محمود بن سبكتكين.

وفيها توفي عبيد الله بن محمد بن نافع، وكان من الصالحين، بقي سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى مخدة. وأبو الحسن علي بن عيسى النحوي، المعروف بالرماني، ومولده سنة ست وتسعين ومائتين، وله تفسير كبير، ومحمد بن العباس بن أحمد القزاز، سمع وكتب كثيراً، وخطه حجة في صحة النقل، وجودة الضبط.

وفيها توفي أيضاً أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الكاتب الصابي المشهور، وكان عمره إحدى وتسعين سنة، وكان قد زمن وضاقت الأمور به، وقلت عليه الأموال، كان كاتب إنشاء ببغداد لمعز الدولة، ثم كتب لبختيار، وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤلمه، فحقد عليه، فلما ملك عضد الدولة بغداد حبسه مدة، ثم أطلقه، وأمره عضد الدولة أن يصنف له كتاباً في أخبار الدولة الديلمية، فصنف له كتاباً وسماه التاجي، ونقل إلى عضد الدولة عنه، أن بعض أصحاب أبي إسحاق، دخل عليه وهو يؤلف في التاجي، فسأله عما يعمل؟ فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها، فحرك ذلك عضد الدولة وأهاج حقده، فأبعده وأحرمه، ولم يزل الصابي على دينه، فجهد عليه معز الدولة أن يسلم فلم يفعل، وكان مع ذلك يحفظ القرآن، ولما مات الصابي المذكور رثاه الشريف الرضي فليم على ذلك. فقال: إنما رثيت فضيلته. ثم دخلت سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وفي هذه السنة عاد أبو علي ابن

"سيمجور إلى خراسان، وقاتل محمود بن سبكتكين، وأخرجه عنها، ثم سار سبكتكين ومحمود ابنه بالعساكر، واقتتلوا مع أبي علي بطرس فهزموه" "ثم دخلت سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ابتداء دولة بن حماد ملوك بجاية من كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان. في هذه السنة أعني سنة سبع وثمانين وثلاثمائة عقد باديس بن منصور بن بلكين صاحب إفريقية، في شهر صفر، الولاية لعمه حماد بن بلكين "على أشير وخرج إليها حماد، فاتسعت ولاية حماد وكثر دخله وعظم شأنه، واجتمع له العساكر والأموال، وبقي كذلك إلى سنة خمس وأربعمائة فأظهر حماد الخلاف على ابن أخيه باديس وخرج عن طاعته وخلعه، وسار كل منهما بجموعه إلى الآخر واقتتلا في أول جمادى الأولى سنة ست وأربع مائة، فانهزم حماد هزيمة شنيعة، بعد قتال شديد جرى بين الفريقين، ولما انهزم حماد التجأ إلى قلعة مغيلة، ثم سار حماد إلى مدينة دكمة ونهبها ونقل منها الزاد إلى القلعة المذكورة، وعاد إليها وتحصن بها وباديس نازل بالقرب منه محاصر له، ودام الحال كذلك حتى توفي باديس فجأة، نصف ليلة الأربعاء آخر ذي القعدة سنة ست وأربع مائة.

وتولى بعد باديس ابنه المعز بن باديس. واستمر حماد على الخلف معه كما كان مع أبيه، حتى اقتتل المعز بن باديس وحماد في سنة ثمان وأربع مائة بموضع يقال له يثني، فانهزم حماد بعد قتال شديد هزيمة قبيحة، وبعد هذه الهزيمة لم يعد حماد إلى قتال، واصطلح مع المعز المذكور، على أن يقتصر حماد على ما في يده، وهو عمل ابن علي وما وراءه من أشير وتاهرت، واستقر للقائد بن حماد المسيلة وطبنة ومرسى الدجاجي وزواوة ومقرة ودكمة وغير ذلك، وبقي حماد وابنه القائد كذلك حتى توفي حماد في نصف سنة تسع عشرة وأربع مائة، واستقر في الملك بعده ابنه القائد بن حماد وبقي القائد في الملك حتى توفي في سنة ست وأربعين وأربعمائة في شهر رجب. ولما توفي القائد ملك بعده ابنه محسن بن القائد بن حماد، فأساء السيرة، وخبط وقتل جماعة من أعمامه، فخرج عن طاعة محسن المذكور، ابن عمه بلكين ابن محمد بن حماد، واقتتل معه فقتل بلكين محسناً المذكور وملك موضعه في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربع مائة، وبقي حتى غدر ببلكين المذكور الناصر بن علناس بن حماد، وأخذ منه الملك في رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة، واستقر الناصر بن علناس بن حماد في الملك حتى توفي في سنة إحدى وثمان وأربعمائة. وملك بعده ابنه المنصور بن الناصر وبقي في الملك حتى توفي في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وملك بعده ابنه باديس بن المنصور، وأقام باديس مدة يسيرة وتوفي، وملك بعده أخوه العزيز بالله بن المنصور، وبقي العزيز في الملك حتى توفي، ولم يقع لي تاريخ

وفاته، وملك بعده ابنه يحيى بن العزيز بالله، وبقي في الملك حتى سار عبد المؤمن من الغرب الأقصى وملك بجاية. قال ابن الأثير في الكامل: إن ذلك كان في سنة سبع وأربعين وخمس مائة، وكان آخر من ملك منهم يحيى بن العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين، وانقرضت دولة بني حماد في السنة المذكورة، وكان ينبغي أن نذكر ذلك مبسوطاً مع السنين، وإنما جمعناه لقلته لينضبط. "موت نوح صاحب ما وراء النهر في هذه السنة مات الرضي الأمير نوح بن منصور بن نوح بن ناصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان. في رجب، واختلّ بموته ملك آل سامان، ولما توفي قام بالأمر بعده ابنه أبو الحارث منصور بن نوح. موت سبكتكين وفي هذه السنة توفي سبكتكين في شعبان، وكان مقامه ببلخ، فلما طال مرضه ارتاح إلى هوى غزنةَ، فسار عن بلخ إليها فمات في الطريق، فنقل ميتاً ودفن بغزنة، وكانت مدة ملكه نحو عشرين سنة. وكان عادلاً خيراً، ولما حضرته الوفاة عهد إلى ولده إسماعيل، وكان محمود أكبر منه، فملك إسماعيل وكان بينه وبين أخيه محمود قتال في تلك المدة، ثم انتصر محمود وانهزم إسماعيل وانحصر في قلعة غزنة، وحاصره محمود، فنزل إسماعيل بالأمان، فأحسن إليه محمود وأكرمه وكان مدة ملك إسماعيل سبعة أشهر.

وفاة فخر الدولة وفي هذه السنة، توفي فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة، أبي علي الحسن بن بويه، بقلعة طبرك، في شعبان، وأقعدوا في الملك بعده ولده مجد الدولة أبا طالب رستم، وعمره أربع سنين، واتفق الأمراء على ذلك، وكان المرجع في تدبير الملك إلى والدة أبي طالب المذكور.
"ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة." "قتل صمصام الدولة في هذه السنة، في ذي الحجة، قتل صمصام الدولة، أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه بسبب شغب الديلم عليه، وكان عمر صمصام الدولة خمساً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، ومدة ولايته بفارس تسع سنين وثمانية أيام. قال القاضي شهاب الدين بن أبي الدم: إن صمصام الدولة المذكور، لما خرج من الاعتقال، وملك في سنة ثمانين وثلاثمائة كان أعمى من حين سمل واستمر في الملك، وكان منه ما تقدم ذكره، حتى قتل في هذه السنة وهو أعمى. وفيها توفي محمد بن الحسن بن المظفر المعروف بالحاتمي، أحد الأعلام، وكان إماماً في الأدب واللغة وهو صاحب الرسالة الحاتمية التي بيّن فيها سرقة المتنبي ونسبة الحاتمي إلى حاتم بعض أجداده. ثم دخلت سنة تسع وثمانين وثلاثمائة. القبض على الأمير منصور بن نوح وولاية أخيه في هذه السنة، اتفق أعيان عسكر منصور الساماني، مع

بكتورون، وفائق، وخلعوا منصوراً بن نوح، وأمر بكتورون به، ولم يراقب الله ولا إحسان مواليه إليه، وأقاموا في الملك أخاه عبد الملك، وهو صبي صغير، وكان مدة ملك منصور سنة وسبعة أشهر. ملك محمود بن سبكتكين خراسان ولما وقع من بكتورون وفائق ما وقع في حق منصور بن نوح، كتب محمود بن سبكتكين يلومهما على ذلك وسار إليهما، فاقتتلوا أشد قتال، ثم انهزم بكتورون وفائق، وتبعهم محمد يقتل في عسكرهم، حتى أبعدوا في الهرب، واستولى محمود على ملك خراسان، وقطع منها خطبة السامانية. انقراض دولة السامانية وفي هذه السنةِ انقرضت دولة السامانية، فإن محمود بن سبكتكين لما ملك خراسان وقطع خطبتهم، اتفق بجاری مع عبد الملك بن نوح بكتورون، وفائق، وأخذوا في جمع العساكر، فاتفق أن فائقاً مات في تلك المدة، وكان هو المشار إليه، فضعفت نفوسهم بموته، وبلغ ذلك أيلك خان، واسمه أرسلان، فسار في جمع الأتراك إلى بخارى، وأظهر المودة، لعبد الملك والحمية له، فظنوه صادقاً، وخرج إليه بكتورون وغيره من الأمراء والقواد، فقبض عليهم وسار حتى دخل بخارى، عاشر ذي القعدة من هذه السنة. ثم قبض على عبد الملك بن نوح وحبسه حتى مات في الحبس، وحبس معه أخاه منصور الذي سملوه وباقي بني سامان، وانقرضت دولة بني سامان. وكانت دولتهم قد انتشرت وطبقت كثيراً من الأرض، وكانت" "من أحسن الدول سيرة وعدلا، وهذا عبد الملك هو عبد الملك بن نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان. فسبحان من لا يزول ملكه، وكان ابتداء دولتهم في سنة إحدى وستين ومائتين، وانقرضت في هذه السنة، أعني سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمائة في هذه السنة وقيل بل في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة توفي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً في اللغة، وله عدة مصنفات منها: كتابه المجمل في اللغة، ووضع المسائل الفقهية، وهي مسألة في المقامة الطيبية، وكان مقيماً بهمذان وعليه اشتغل البديع الهمذاني صاحب المقامات.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة في هذه السنة قتل حسام الدولة المقلد بن المسيب بن رافع بن جعفر بن عمر بن مهنا بن يزيد بالتصغير بن عبد الله بن زيد، من ولد ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن العقيلي، وكان المقلد المذكور أعور وأخوه أبو الذواد محمد بن المسيب، هو أول من استولى منهم على الموصل، وملكها في سنة ثمانين وثلاثمائة حسبما تقدم ذكره، ثم ملكها

بعده أخوه المقلد المذكور، في سنة ست وثمانين وثلاثمائة واستمر مالكها حتى قتل في هذه السنة، قتله مماليكه الأتراك بالأنبار، وكان قد عظم شأنه، ولما مات قام مقامه ابنه قرواش بن المقلد بن المسيب. "ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في هذه السنة ملك يمين الدولة محمود بن سبكتكين سجستان، وانتزعها من يد صاحبها، خلف بن أحمد، وبقي خلف بن أحمد المذكور في الجوزخان بعد ذلك أربع سنين، ثم نقله يمين الدولة محمود إلى جودين، واحتاط "عليه هناك حتى أدركه أجله، سنة تسع وتسعين، وكان خلف المذكور مشهوراً بطلب العلم، وله تفسير من أكبر الكتب. "ثم دخلت سنة أربع وتسعين وثلاثمائة خروج البطيحة عن ملك مهذب الدولة في هذه السنة استولى على البطيحة وغيرها إنسان يقال له أبو العباس بن واصل. وكان رجلاً قد تنقل في خدم الناس، ثم خدم مهذب الدولة صاحب البطيحة، فتقدم عنده حتى جهز معه جيشاً، فاستولى على البصرة وسيراف، فلما فتحهما ابن واصل المذكور، وغنم "أموالاً عظيمة، قويت نفسه، وخلع طاعة مهذب الدولة مخدومه، ثم قصده، فانهزم مهذب الدولة عن البطيحة، واستولى ابن واصل على بلاد مهذب الدولة وأمواله وكانت عظيمة، ونهب ما كان مع مهذب الدولة من المال، وقصد مهذب الدولة بغداد، فلم يمكن من الدخول إليها، وهذا خلاف ما اعتمده مهذب الدولة المذكور، مع القادر لما هرب من بغداد إليه، فإن مهذب الدولة بالغ في الخدمة والإحسان إليه. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة قلد بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، نقابة العلويين بالعراق، وقضاء القضاة والمظالم، وكتب عهده بذلك من شيراز، ولقّبه الطاهر ذا المناقب، فامتنع الخليفة من تقليده قضاء القضاة، وأمضى ما سواه. ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة عود مهذب الدولة إلى البطيحة كان أبو العباس بن واصل لما استولى على البطايح، قد أقام بها نائباً، وسار هو إلى نحو البصرة، فلم يتمكن نائبه من المقام بها، وخرج أهل البطيحة عن طاعته، فأرسل عميد الجيوش وهو أمير العراق من جهة بهاء الدولة، عسكراً في السفن مع مهذب الدولة إلى البطيحة، فلما دخلها لقيه أهل البلاد وسروا بقدومه، وسلموا إليه جميع الولايات، واستقر عليه لبهاء الدولة، في كل سنة خمسون ألف دينار، واشتغل عنه ابن واصل بحرب غيره. وفي هذه السنة فتح يمين الدولة محمود بن سبكتكين مدينة بهاطية من أعمال الهند وهي وراء الملتان، وهي مدينة حصينة عالية السور. ثم دخلت سنة ست وتسعين وثلاثمائة في هذه السنة سار يمين الدولة ففتح الملتان، ثم سار إلى نحو بيدا ملك الهند، فهرب إلى قلعته المعروفة بكاليجار فحصره بها، ثم صالحه على مال حمله إليه، وألبس ملك الهند

خلعته، واستعفى من شد المنطقة، فلم يعفه يمين الدولة منها فشدها على كره. "ثم دخلت سنة سبع وتسعين وثلاثمائة قتل ابن واصل في هذه السنة وقع بين بهاء الدولة وأبي العباس بن واصل حروب، آخرها أن أبا العباس انهزم إلى البصرة ثم انهزم عنها، فأُسر وحُمل إلى بهاء الدولة، فأمر بقتله قبل وصوله إليه، وطيف برأس أبي العباس بن واصل المذكور بخورستان وكان قتله بواسط عاشر صفر." "خبر أبي ركوة في هذه السنة، خرج على الحاكم بمصر، إنسان أموي من ولد هشام بن عبد الملك، يسمى أبا ركوة، لحمله ركوة على كتفه، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فكثر جمعه وملك برقة، وجهز إليه الحاكم جيشاً فهزمه أبو ركوة، وغنم ما في ذلك الجيش، وقوى به، وسار أبو ركوة إلى الصعيد واستولى عليه، فعظم ذلك على الحاكم إلى الغاية، فأحضر عساكر الشام، واستخدم عساكر كثيرة، واستعمل عليهم فضل بن عبد الله، وأرسله إلى أبي ركوة، فجرى بينهم قتال عظيم، وآخره أن عساكر الحاكم انتصرت، وهربت جموع أبي ركوة، وأُخذ أسيراً فقتله الحاكم وصلبه، وطيف برأسه.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة في هذه السنة، سار يمين الدولة محمود إلى الهند، وأوغل فيه وغزا وفتح. وفي هذه السنة استعملت والدة مجد الدولة بن فخر الدولة - وكان إليها الحكم بمملكة ابنها - أبا جعفر ابن شمتريار، المعروف بابن كاكوية، على أصفهان، فاستقر فيها قدمه وعظم شأنه وإنما قيل له ابن كاكوية، لأنه كان ابن خال والدة مجد الدولة المذكورة، وكاكوية هو الخال بالفارسية.

وفي هذه السنة توفي عبد الواحد بن نصر المعروف بالببغاء الشاعر. وفيها توفي البديع أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني صاحب المقامات المشهورة التي عمل الحريري على منوالها المقامات الحريرية. وفيها توفي أبو نصر إسماعيل بن أحمد الجوهري، مصنف كتاب الصحاح في اللغة المعروف بصحاح الجوهري وهو كتاب شهرته تغني عن ذكره، وإسماعيل المذكور هو من فاراب وهي مدينة ببلاد الترك، من وراء النهر، وتسمى هذا الزمان أطرار وكان المذكور إماماً في اللغة العربية، قدم إلى نيسابور وتوفي بها، وكان يكتب خطاً حسناً منسوباً من الطبقة العالية. ثم دخلت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في هذه السنة قتل أبو علي بن ثمال الخفاجي، وكان الحاكم العلوي قد ولاه الرحبة، ثم انتقلت عنه، وصار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب. وفيها توفي علي بن عبد

الرحمن بن أحمد بن يونس المصري، صاحب الزيج الحاكمي، المعروف بزيج بن يونس، وهو زيج كبير في أربع مجلدات، وذكر أن الذي أمر بعمله العزيز أبو الحاكم. ثم دخلت سنة أربعمائة في هذه السنة عاد يمين الدولة وغزا الهند وغنم وعاد.

أخبار المؤيد الأموي خليفة الأندلس قد تقدم في سنة ست وستين وثلاثمائة ذكر موت الحاكم صاحب الأندلس، وولاية ابنه المؤيد هشام بن الحكم المنتصر بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمر المؤيد لما "ولي الخلافة عشر سنين، فاستولى على تدبير المملكة أبو عامر محمد بن أبي عامر، وبقي المؤيد محجوباً عن الناس، واستمر المؤيد هشام المذكور في الخلافة إلى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة فخرج عليه في السنة المذكورة، محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي، في جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين وثلاثمائة واجتمع عليه الناس وبايعوه بالخلافة، وقبض على المؤيد وحبسه في قرطبة وتلقب محمد المذكور بالمهدي، واستمر في الخلافة، فخرج عليه سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فهرب محمد بن هشام بن عبد الجبار المذكور، واستولى سليمان على الخلافة في أوائل شوال من هذه السنة أعني سنة أربعمائة، ثم جمع المهدي محمد بن هشام جمعاً وقصد سليمان بقرطبة، فهرب سليمان وعاد محمد المهدي المذكور إلى الخلافة في منتصف شوال من هذه السنة المذكورة، ثم اجتمع كبار العسكر وقبضوا على المهدي محمد المذكور، وأخرجوا المؤيد من الحبس، وأعادوه إلى الخلافة في سابع ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة أربعمائة، وأحضروا المهدي المذكور بين يديه، فأمر بقتله، فقتل، واستمر المزيد في الخلافة، وقام بتدبير أمره واضح العامري ثم قبض المؤيد على واضح المذكور وقتله، فكثرت الفتن على المؤيد، واتفقت البربر مع سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وسار وحصر المؤيد بقرطبة، وملكها سليمان عنوة، وأخرج المؤيد من القصر، ولم يتحقق للمؤيد خبر بعد ذلك، وبُويع سليمان بالخلافة في منتصف شوال من سنة ثلاث وأربعمائة، وتلقب بالمستعين بالله، ثم كان من سليمان وأخبار الأندلس ما سنذكره إن شاء الله تعالى في سنة سبع وأربعمائة. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة بنى أبو محمد بن سهلان، سوراً على مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وفيها توفي النقيب أبو أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، وكان مولده سنة أربع وثلاثمائة، وكان قد أضر في آخر عمره. وفيها توفي أبو العباس النامي

الشاعر، وأبو الفتح علي بن محمد البستي، الكاتب الشاعر، صاحب التجنيس.ثم دخلت سنة إحدى وأربعمائة فيها سار أيلك خان ملك الترك، من سمرقند، بجيوشه لقتال أخيه طغان خان، فوصل إلى أوزكند وسقط عليه ثلج منعه من المسير إليه، فعاد إلى سمرقند. الخطبة العلوية بالكوفة والموصل في هذه السنة خطب قرواش بن المقلد بن المسيب أمير بني عقيل، للحاكم بالله العلوي صاحب مصر، بأعماله كلها، وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها. وكان ابتداء "الخطبة بالموصل، الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب، وانهدت بعظمته أركان النصب، وأطلع بقدرته شمس الحق من الغرب، فكتب بهاء الدولة إلى عميد الجيوش يأمره بالمسير إلى حرب قرواش فسار إليه، وأرسل قرواش يعتذر وقطع خطبة العلويين.

غير ذلك من الحوادث وفي هذه السنة وقع الحرب بين بني مزيد وبني دبيس، بسبب أن أبا الغنائم محمد بن مزيد، كان مقيماً عند بني دبيس، في جزيرتهم، بنواحي خورستان لمصاهرة بينهم، فقتل أبو الغنائم محمد بن مزيد، أحد وجوه بني دبيس، ولحق بأخيه أبي الحسن بن مزيد، فسار إليهم أبو الحسن بن مزيد، واقتتلوا فقتل أبو الغنائم محمد بن مزيد، وهرب أخوه أبو الحسن.

وفي هذه السنة توفي عميد الجيوش أبو علي بن أستاذ هرمز، وكان أميراً من جهة بهاء الدولة على العسكر، وعلى الأمور ببغداد، وكانت ولايته ثمان سنين وأربعة أشهر وأياماً. وعمره تسع وأربعون سنة، وكان أبوه أستاذ هرمز، من حجاب عضد الدولة، واتصل عميد الجيوش بخدمة بهاء الدولة، فلما فسد حال بغداد من الفتن، أرسله بهاء الدولة إلى بغداد، فأصلح الأمور وقمع المفسدين، فلما مات عميد الجيوش، استعمل بهاء الدولة موضعه على بغداد فخر الملك، أبا غالب. ثم دخلت سنة اثنتين وأربعمائة أخبار صالح بن مرْداس وملكه حلب وأخبار ولده إلى سنة اثنتَين وسبعين وأربعمائة وكان ينبغي أن نذكر ذلك مبسوطاً في السنين، ولكن لقلته كان يضيع ولا ينضبط فلذلك أوردنا في هذه السنة جملة، كما فعلنا مثل ذلك في عدة قصص من هذا التاريخ فنقول: إننا ذكرنا ملك أبي المعالي شريف الملقب بسعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان لحلب، إلى أن توفي بالفالج، وهو مالكها، على ما شرحناه في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، ولما توفي أبو المعالي سعد الدولة المذكور، أقيم أبو الفضائل ولد سعد الدولة مكان أبيه، وقام بتدبيره، لؤلؤ، أحد موالي سعد الدولة، ثم استولى أبو نصر بن لؤلؤ المذكور علي أبي الفضائل بن سعد الدولة، وأخذ منه حلب، واستولى عليها، وخطب للحاكم العلوي بها، ولقب الحاكم أبا نصر بن لؤلؤ المذكور، مرتضى الدولة. واستقر في ملك حلب،

وجرى بينه وبين صالح بن مرداس الكلابي وبني كلاب وحشة وقصص يطول شرحها، وكانت الحرب بينهم سجالاً، وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح، وكان دزدار قلعة حلب، فجرى بينه وبين أستاذه ابن لؤلؤ وحشة في الباطن، حتى عصى. فتح المذكور في قلعة حلب على أستاذه، واستولى عليها، وكاتب فتح المذكور الحاكم العلوي بمصر، ثم أخذ فتح من الحاكم صيدا وبيروت، وسلم حلب إلى نواب الحاكم "فسار مولاه ابن لؤلؤ إلى إنطاكية وهي للروم، فأقام معهم بها، وتنقلت حلب بأيدي نواب الحاكم، حتى صارت بيد إنسان من الحمدانية، يعرف بعزيز الملك، وبقي المذكور نائب الحاكم بحلب، حتى قتل الحاكم، وولي الظاهر لاعزاز دين الله، العلوي، فتولى من جهة الظاهر العلوي المذكور على مدينة حلب، إنسان يعرف بابن ثعبان وولي القلعة خادم يعرف بموصوف، فقصدهما صالح بن مرداس، أمير بني كلاب، فسلم إليه أهل البلد مدينة حلب، لسوء سيرة المصريين فيهم، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة، وحصرها صالح بن مرداس، فسلمت إليه قلعة حلب أيضاً، في سنة أربع عشرة وأربعمائة واستقر صالح مالكاً لحلب، وملك معها من بعلبك إلى عانة وأقام صالح بن مرداس بحلب، مالكاً لما ذكر ست سنين، فلما كان سنة عشرين وأربعمائة، جهز الظاهر العلوي جيشاً لقتال صالح المذكور، ولقتال حصان أمير بني طيئ وكان قد استولى حسان المذكور على الرملة. وتلك البلاد، وكان مقدم عسكر المصريين اسمه أنوش تكين، فاتفق صالح وحسان على قتال أنوش تكين، وسار صالح من حلب إلى حسان، واجتمعا على الأردن عند طبرية ووقع بينهم القتال، فقتل صالح بن مرداس وولده الأصغر، ونفذ رأساهما إلى مصر، ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح بن مرداس، وسار إلى حلب، فملكها، وكان لقب أبي كامل المذكور، شبل الدولة وبقي شبل الدولة بن صالح مالكاً لحلب إلى سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وذلك في أيام المستنصر بالله العلوي، صاحب مصر. فجهزت العساكر من مصر إلى شبل الدولة، ومقدمهم رجل يقال له الدزبري بكسر الدال المهملة وسكون الزاي المعجمةَ وباء موحدة وراء مهملة ويا مثناة من تحت وهو أنوش تكين المذكور، وكان يلقب الدزبري. نقلت ذلك من تاريخ ابن خلكان فاقتتلوا مع شبل الدولة عند حماة، في شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة فقتل شبل الدولة، وملك الدزبري حلب في رمضان من السنة المذكورة. وملك الشام جميعه، وعظم شأن الدزبري وكثر ماله، وتوفي الدزبري بحلب سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. وكان لصالح بن مرداس ولد بالرحبة، يقال له: أبو علوان ثمال، ولقبه معز الدولة، فلما بلغه وفاة الدزبري سار ثمال بن

صالح المذكور إلى حلب وملك مدينة حلب، ثم ملك قلعتها في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وبقي معز الدولة ثمال بن صالح المذكور، مالكاً لحلب إلى سنة أربعين وأربعمائة، فأرسل إليه المصريون جيشاً، فهزمهم ثمال، ثم أرسلوا إليه جيشاً آخر، فهزمهم ثمال أيضاً ثم صالح ثمال المذكور المصريين، ونزل لهم عن حلب فأرسل المصريون رجلاً من أصحابهم يقال له الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة، فتسلم حلب من ثمال بن صالح بن مرداس، في سنة تسع وأربعين وأربعمائة، وسار ثمال إلى مصر، وسار أخوه عطية بن صالح بن مرداس "إلى الرحبة، وكان لنصر الملقب بشبل الدولة الذي قتل في حرب الدزبري ولد يقال له محمود، فكاتبه أهل حلب، وخرجوا عن طاعة ابن ملهم، فوصل إليهم محمود، واتفق معه أهل حلب، وحصروا ابن ملهم في جمادى الآخرة من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، فجهز المصريون جيشاً لنصرة ابن ملهم، فلما قاربوا حلب، رحل محمود عنها هارباً، وقبض ابن ملهم على جماعة من أهل حلب، وأخذ أموالهم، ثم سار العسكر في أثر محمود بن نصر بن صالح المذكور، فاقتتلوا وانتصر محمود وهزمهم، ثم عاد محمود إلى حلب فحاصرها، وملك المدينة والقلعة، في شعبان سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، وأطلق ابن ملهم ومقدم الجيش، وهو ناصر الدولة، من ولد ناصر الدولة بن حمدان، فسار إلى مصر واستقر محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس مالكاً لحلب. ولما وصل ابن ملهم وناصر الدولة إلى مصر، وكان ثمال بن صالح بن مرداس قد سار إلى مصر كما ذكرنا، جهز المصريون ثمال بن صالح بجيش، لقتال ابن أخيه محمود بن شبل الدولة فسار ثمال بن صالح إلى حلب وهزم محمود بن أخيه، وتسلم ثمال بن صالح بن مرداس حلب، في ربيع الأول من سنة ثلاث وخمسين أربعمائة ثم توفي ثمال في حلب سنة أربع وخمسين في ذي القعدة، وأوصى بحلب لأخيه عطية، الذي كان سار إلى الرحبة كما ذكرناه. فسار عطية بن صالح من الرحبة، وملك حلب في السنة المذكورة، وكان محمود بن شبل الدولة، لما هرب من عمه ثمال من حلب، سار إلى حران، فلما مات ثمال، وملك أخوه عطية حلب، جمع محمود عسكراً وسار إلى حلب، فهزم عمه عطية عنها وسار عطية إلى الرقة فملكها، ثم أُخذت منه، فسار عطية إلى الروم، وأقام بقسطنطينية حتى مات بها. وملك محمود بن نصر بن صالح بن مرداس حلب، في أواخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة ثم استوَلى محمود على أرتاح، وأخذها من الروم في سنة ستين، ومات محمود المذكور في ذي الحجة سنة ثمان وستين وأربعمائة في حلب، مالكاً لها. وملك حلب بعده ابنه نصر بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، ثم قتل التركمان نصراً المذكور، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى،

في سنة تسع وستين وأربعمائة وملك حلب بعده أخوه سابق بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وبقي سابق بن محمود المذكور، مالكاً لحلب إلى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وأخذ حلب منه شرف الدولة، مسلم بن قريش، صاحب الموصل على ما نذكره إن شاء الله تعالى. "عبد الرحمن بن سعيد، منتسب إلى ديصان بن سعيد، الذي ينسب إليه الديصانية، وأن هذا الناجم بمصر هو منصور ابن نزار المتلقب بالحاكم، حكم الله عليه بالبوار والدمار، ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، لا أسعده الله، وأن من تقدمه من سلفه، الأرجاس الأنجاس، عليهم لعنة الله، ولعنة اللاعنين، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه، زور وباطل، وأن هذا الناجم في مصر، هو وسلفه، كفّار وفسّاق، زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية وتضمن المحضر المذكور نحو ذلك، أضربنا عنه، وفي آخره كتب في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة وفيها اشتد أذى خفاجة للحجاج، وقطعوا عليهم الطريق.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعمائة قتل قابوس في هذه السنة، قتل شمس المعالي قابوس بن وشمكير بن زيار، بسبب تشديده على أصحابه، وعدم التجاوز عن ذنوبهم، فخرجوا عن طاعته وحصروه، واستدعوا ولده منوجهر بن قابوس، فأقاموه عليهم، وكان بجرجان، ثم اتفق مع أبيه قابوس، فانقطع قابوس في قلعة يعبد الله، فلم يطب للعسكر الذين خلعوه، وعاودوا منوجهر في قتله، فسكت فمضوا إلى قابوس، وأخذوا جميع ما عنده من ملبوس، وتركوه حتى مات بالبرد، وكان قابوس المذكور كثير الفضائل، عظيم السياسة، شديد الأخذ، قليل العفو، وكان عالماً بالنجوم وغيرها، وله أشعار حسنة، فمن شعره:

قلْ للذي بصروف الدهرِ عيرنا ... هلْ عاند الدهرُ إلا مَنْ له خطرُ

ففي السماء نجوم ما لها عدد ... وليسَ يكسف إلا الشمسُ والقمر

وفي هذه السنة مات ملك الترك، أيلك خان، وملك بعده أخوه طغان خان، وكان أيلك خان خيراً عادلاً محباً للدين وأهله. وفاة بهاء الدولة في هذه السنة في عاشر جمادى الآخرة، توفي بهاء الدولة أبو نصر خاشاذ بن عضد الدولة بن بويه بتتابع الصرع، مثل مرض أبيه عضد الدولة، وكان موت بأرجان، وملك العراق وعمره اثنتان وأربعون سنة وتسعة أشهر، وملكه أربع وعشرون سنة. ولما توفي

ولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة. وفيها كان استيلاء سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر على قرطبة، وبويع بالخلافة على ما قدمنا ذكره، في سنة أربعمائة، ولما استولى على قرطبة عدم المؤيد هشام، فلم يتحقق له خبر بعد هذه السنة، وسنذكر ما قيل في ظهوره إن شاء الله تعالى وإن ذلك كان تنويجاً لا حقيقة له. "وفيها توفي القاضي أبو بكر بن الباقلاني، واسمه محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، وكان أبو بكر المذكور، على مذهب أبي الحسن الأشعري، وهو ناصر طريقته، ومؤيد مذهبه، وسكن ببغداد، وصنف التصانيف للكثيرة في علم الكلام، وانتهت إليه الرئاسة في مذهبه، ونسبة الباقلاني إلى بيع الباقلاء، وهي نسبة شاذة مثل صنعاني.

ثم دخلت سنة أربع وأربعمائة في هذه السنة أيضاً عاد يمين الدولة محمود، فغزا الهند وأوغل في بلادهم وغنم وفتح وعاد إلى غزنة. وفيها عاثت خفاجة، ونهبوا سواد الكوفة، وطلع عليهم العسكر وقتل منهم وأسر. وفي هذه السنة توفي أبو الحسن علي بن سعيد الأصطخري، وهو من شيوخ المعتزلة، وكان عمره قد زاد على ثمانين سنة.

ثم دخلت سنة خمس وأربعمائة في هذه السنة، كانت الحرب بين أبي الحسن علي بن مزيد الأسدي، وبين مضر وحسان ونبهان وطراد بني دبيس، وكان آخر تلك الحرب، أن مضر بن دبيس، كبس أبا الحسن ابن مزيد المذكور، فهزمه واستولى ابن دبيس على خيل أبي الحسن وأمواله وهرب أبو الحسن إلى بلد النيل. وفيها توفي الحافظ محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني، المعروف بابن الحاكم النيسابوري إمام أهل الحديث في عصره، والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق إلى مثلها، سافر في طلب الحديث، وبلغت عدة شيوخه نحو ألفين، وصنف عدة مصنفات، منها الصحيحان، والأمالي، وفضائل الشافعي، وإنما عُرف أبوه بالحاكم، لأنه تولى القضاء بنيسابور. وفيها قتل طائفة من عامة الدينور، قاضيهم أبا القاسم يوسف بن أحمد بن كج، الفقيه الشافعي، قاضي الدينور، قتلوه خوفاً منه، وله وجه في المذهب، وصنف كتباً كثيرة، وجمع بين رئاستي العلم والدنيا. ثم دخلت سنة ست وأربعمائة وفاة باديس في هذه السنة، توفي باديس بن منصور بن يوسف بلكين بن زيري، أمير إفريقية. وولي بعده إمرة إفريقية ابنه المعز بن باديس، وعمره ثمان سنين، ووصلت إليه الخلع والتقليد من الحاكم العلوي، ولقبه شرف الدولة، وهذا المعز بن

باديس هو الذي حمل أهل المغرب على مذهب الإمام مالك، وكانوا قبله على مذهب أبي حنيفة. وفي هذه السنة غزا يمين الدولة محمود الهند على عادته، فتاه الدليل، ووقع هو وعسكره في مياه فاضت من البحر فغرق كثير ممن معه، وبقي فيه أياماً، حتى تخلص، وعاد إلى خراسان. وفي هذه السنة عَزَل سلطان الدولة بن بهاء الدولة نائبه بالعراق، فخر الملك، أبا غالب، وقتله سلخ ربيع الأول من هذه السنة، وكان عمر فخر الملك اثنتين وخمسين سنة وأحد عشر شهراً، وكانت مدة ولايته على العراق خمس سنين وأربعة أشهر وأياماً، ووجد له من المال ألف ألف دينار عيناً، غير العروض. وغير ما نهب، وكان قبضه بالأهواز. ثم استوزر سلطان الدولة بن بهاء "الدولة أبا محمد الحسن بن سهلان.

وفيها توفي أبو نصر قرا خان صاحب تركستان، وقيل في سنة ثمان ورأبعمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. وفيها توفي الشريف الحسيني الملقب بالرضي، وهو محمد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، المعروف بالموسوي، صاحب ديوان الشعر، حكي أنه تعلم النحو من ابن السيرافي النحوي، فذاكره ابن السيرافي على عادة التعليم، وهو صبي، فقال: إذا قلنا رأيت عمر فما علامة النصب في عمرو؟ فقال الرضي: بغض علي. أراد السيرافي النصب الذي هو الإعراب، وأراد الرضي الذي هو بغض علي، فأشار إلى عمرو بن العاص وبغضه لعلي، فتعجب الحاضرون من حدة ذهنه، وكانت ولادته سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ببغداد.

وفيها توفي الإمام أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني، إمام أصحاب الشافعي، وكان عمره إحدى وستين سنة وأشهراً، قدم بغداد في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثمائة فقيه، وطبق الأرض بالأصحاب، وله عدة مصنفات منها: في المذهب التعليقة الكبرى، وهو من إسفرائين وهي بلدة بخراسان بنواحي نيسابور، على منتصف الطريق إلى جرجان. ثم دخلت سنة سبع وأربعمائة فيها غزا يمين الدولة محمود الهند على عادته، ووصل إلى قشمير، وقنوج، وبلغ نهر كنك وفتح عدة بلاد وغنم أموالاً وجواهر عظيمة، وعاد إلى غزنة مؤيداً منصوراً.

انقراض الخلافة الأموية من الأندلس [وتفرق ممالك الأندلس، وأخبار الدولة العلوية بها]

في هذه السنة، خرج بالأندلس على المستعين بالله سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، شخص من القواد يقال له خيران العامري، لأنه كان من أصحاب المؤيد، فلما ملك سليمان الأموي قرطبة، خرج عنه خيران المذكور، وسار في جماعة كثيرة من العامريين، وكان علي بن حمود العلوي مستولياً على سبتة، وبينه وبين الأندلس عدوة المجاز، وكان أخوه القاسم بن حمود مستولياً على الجزيرة الخضراء من الأندلس، ولما رأى علي بن حمود العلوي خروج خيران على سليمان، عبر من سبتة إلى مالقة، واجتمع إليه خيران وغيره من الخارجين على سليمان الأموي، وكان أمر هشام المؤيد الخليفة الأموي قد اختفى عليهم، من حين استولى ابن عمه سليمان المذكور على قرطبة، في سنة ثلاث وأربعمائة، على ما قدمنا ذكره. وأخرج المؤيد من القصر، فلم يطلع للمؤيد على خبر، فاجتمع خيران وغيره إلى علي بن حمود العلوي بالمكتب، وهي ما بين المرية ومالقة، سنة ست وأربعمائة، وبايعوا علي بن حمود العلوي على طاعة المؤيد الأموي، إن ظهر خبره، وساروا إلى سليمان "بقرطبة، وجرى بينهم قتال شديد، انهزم فيه سليمان الأموي، وأخذ أسيراً، وأحضر هو وأخوه وأبوهما الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وكان الحكم أبو سليمان المذكور، متخلياً عن الملك للعبادة، وملك علي بن حمود العلوي قرطبة، ودخلها في هذه السنة أعني سنة سبع وأربعمائة، وقصد القواد وعلي ابن حمود القصر، طمعاً في أن يجدوا المؤيد، فلم يقفوا له على خبر، فقتل علي بن حمود العلوي سليمان وأباه وأخاه، ولما قدم الحكم بن سليمان للقتل، قال له علي ابن حمود: يا شيخ قتلتم المؤيد؟ فقال: والله ما قتلناه، وإنه حي يرزق، فحينئذ أسرع علي بن حمود في قتله، وأظهر علي بن حمود موت المؤيد، ودعا الناس إلى نفسه فبايعوه، وتلقب بالمتوكل على الله، وقيل الناصر لدين الله، وهو علي بن حمود بن أبي العيش ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ثم إن خيران خرج عن طاعته، لأنه إنما وافقه طمعاً في أن يجد المؤيد محبوساً في قصر قرطبة، ليعيده إلى الخلافة، فلما لم يجده، سار خيران عن قرطبة يطلب أحداً من بني أمية ليقيمه في الخلافة، فبايع شخصاً من بني أمية ولقبه المرتضى، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر

الأموي، وكان مستخفياً بمدينة جيان، واجتمع إلى عبد الرحمن المذكور أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة مخالفين على علي بن حمود العلوي، فلم ينتظم لعبد الرحمن المذكور أمر، وجمع علي بن حمود جموعه، وقصد المسير إليهم من قرطبة، وبرز العساكر إلى ظاهرها، ودخل علي بن حمود الحمّام، ليخرج منها ويسير بالعساكر فوثب عليه غلمانه وقتلوه في الحمّام. وكان قتل علي بن حمود في أواخر ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة، فلما علمت العساكر بقتله، دخلوا البلد، وكان عمره ثمانياً وأربعين سنة، ومدة ولايته سنة وتسعة أشهر. ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود، وكان أكبر من أخيه علي بعشرين عاماً، وقيل بعشرة أعوام، ولقب القاسم بالمأمون، وبقط القاسم بن حمود مالكاً لقرطبة وغيرها، إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. ثم سار القاسم من قرطبة إلى إشبيلية، فخرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بقرطبة، ودعا الناس إلى نفسه، وخلع عمه، فأجابوه، وذلك في مستهل جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. وتلقب يحيى بالمعتلي، وبقي بقرطبة حتى سار إليه عمه القاسم من إشبيلية، فخرج يحيى بن علي بن حمود من قرطبة إلى مالقة، والجزيرة الخضراء، فاستولى عليهما، وذلك في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، في ذي القعدة، ودخل القاسم بن حمود قرطبة في التاريخ المذكور، وجرى بين أهل قرطبة وبين القاسم قتال شديد، وأخرجوه عن قرطبة، وبقي بينهم القتال نيفاً وخمسين يوماً، ثم انتصر أهل قرطبة وانهزم القاسم بن حمود، وتفرق عنه عسكره، وسار إلى شريش، فقصده ابن أخيه يحيى بن علي "بن حمود، وأمسك عمه القاسم بن حمود وحبسه، حتى مات القاسم في الحبس، بعد موت يحيى.

ولما جرى ذلك خرج أهل إشبيلية عن طاعة القاسم، وابن أخيه يحيى، وقدموا عليهم قاضي إشبيلية أبا القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، وبقي إليه أمر إشبيلية وكانت ولاية القاسم بن حمود بقرطبة إلى أن أمسك وحبس ثلاثة أعوام، وشهوراً، وبقي محبوساً إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقد أسنّ.

ثم أقام أهل قرطبة رجلاً من بني أمية اسمه عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقب عبد الرحمن المذكور المستظهر بالله وهو أخو المهدي محمد بن هشام، وبويع في رمضان، وقتلوه في ذي القعدة، كل ذلك في سنة أربع عشرة وأربعمائة، ولما قتل المستظهر، بويع

بالخلافة محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر، ولقب محمد المذكور المستكفي، ثم خلع المستكفي المذكور بعد سنة وأربعة أشهر، فهرب وسم في الطريق فمات.

ثم اجتمع أهل قرطبة على طاعة يحيى بن علي بن حمود العلوي، وكان بمالقة، يخطب له بالخلافة، ثم خرجوا عن طاعته في سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وبقي يحيى كذلك مدة، ثم سار من مالقة إلى قرمونة. وأقام بها محاصراً لإشبيلية وخرجت للقاضي أبا القاسم بن عباد خيل، وكمن بعضهم، فركب يحيى لقتالهم، فقتل في المعركة، وكان قتل يحيى المذكور في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة. ولما خلع أهل قرطبة طاعة يحيى كما ذكرنا، بايعوا لهشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي ولقبوه بالمعتد بالله، وكان ذلك في سنة ثماني عشرة وأربعمائة حسبما ذكرنا، وجرى في أيامه فتن وخلافات من أهل الأندلس يطول شرحها، حتى خلع هشام المذكور سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وسار هشام مخلوعاً إلى سليمان بن هود الجذامي، فأقام عنده إلى أن مات هشام سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. ثم أقام أهل قرطبة بعد هشام شخصاً من ولد عبد الرحمن الناصر أيضاً واسمه أمية، ولما أرادوا ولاية أمية، قالوا له: نخشى عليك أن تقتل فإن السعاد قد ولت عنكم يا بني أمية. فقال: بايعوني اليوم، واقتلوني غداً، فلم ينتظم له أمر، واختفى فلم يظهر له خبر بعد ذلك.
ثم إن الأندلس اقتسمها أصحاب الأطراف والرؤساء، وصاروا مثل ملوك الطوائف، وأما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن بن جهور، وكان من وزراء الدولة العامرية، وبقي كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وقام بأمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور. وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيها أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، وهو من ولد النعمان بن المنذر ولما انقسمت مملكة الأندلس، شاع أن المؤيد هشام بن الحكم الذي اختفى خبره قد ظهر وسار إلى قلعة رباح، وأطاعه أهلها، فاستدعاه ابن عباد إلى إشبيلية، فسار إليه، وقام بنصره، وكتب بظهوره إلى ممالك الأندلس، فأجاب "أكثرهم، وخطبوا له وجددت بيعته في المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وبقي المؤيد حتى ولي المعتضد بن عباد، فأظهر موت المؤيد، والصحيح أن المؤيد لم يظهر خبر مذ عدم من قرطبة، في سنة ثلاث وأربعمائة على ما قدمنا ذكره، وإما كان إظهار المؤيد من تمويهات ابن عباد وحيله ومكره.

وأما بطليوس فقام بها سابور الفتى العامري، وتلقب سابور المذكور بالمنصور، ثم انتقلت من بعده إلى أبي بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة، المعروف بابن الأفطس، وتلقب محمد المذكور بالمظفر، وأصل ابن الأفطس المذكور من بربر مكاسة، لكن ولده أبوه بالأندلس. فلما توفي محمد المذكور، صار ملك بطليموس بعده لولده عمر بن محمد وتلقب بالمتوكل، واتسع ملكه، وقتل صبراً مع ولديه، عند تغلب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على الأندلس، وكان اسم ولديه اللذين قتلا معه، الفضل والعباس.

وأما طليطلة فقام بأمرها ابن يعيش، ثم صارت إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن ذي النون، وتلقب بالظافر بحول الله، وأصله من البربر، ثم ملك بعده ولده يحيي بن إسماعيل، ثم أخذت الفرنج منه طليطلة في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وصار هو ببلنسية، وأقام هو بها إلى أن قتله القاضي ابن جحاف الأحنف. وأما سرقسطة والثغر الأعلى، فصارت في يد منذر بن يحيى، ثم صارت سرقسطة وما معها بعده لولده يحيى بن منذر بن يحيى، ثم صارت لسليمان بن أحمد بن محمد بن هود الجذامي، وتلقب بالمستعين بالله، ثم صارت بعده لولده أحمد بن سليمان بن محمد بن أحمد، ثم ولي بعده ابنه عبد الملك بن أحمد، ثم ولي بعده ابنه أحمد بن عبد الملك، وتلقب بالمستنصر بالله. وعليه انقرضت دولتهم على رأس الخمسمائة، فصارت بلادهم جميعها للملثمين. وأما طرطوشة فوليها لبيب بن الفتى العامري. وأما بلنيسة فكان بها المنصور أبو الحسن عبد العزيز المغافري، ثم انضاف إليه المرية، ثم ملك بعده ابنه محمد بن عبد العزيز، ثم غدر به صهره المأمون بن ذي النون، وأخذ الملك من محمد بن عبد العزيز في سنة سبع وخمسين وأربعمائة. وأما السهلة فملكها عبود بن رزين، وأصله بربري. وأما دانية والجزائر فكانت بيد الموفق بن أبي الحسين مجاهد العامري. وأما مرسية فوليها بنو طاهر، واستقامت لأبي عبد الرحمن منهم، إلى أن أخذها منه المعتمد بن عباد. ثم عصى بها نائبها عليه، ثم صارت للملثمين. وأما المرية فملكها خيران العامري، ثم ملك المرية بعده زهير العامري، واتسع ملكه إلى شاطبة، ثم قتل وصارت مملكته إلى المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور بن أبي عامر، ثم انتقلت حتى صارت للملثمين. وأما مالقة فملكها بنو علي بن حمود العلوي، فلم تزل في مملكة العلويين يخطب لهم فيها بالخلافة، إلى أن أخذها منهم باديس ابن حبوس صاحب غرناطة. وأما غرناطة فملكها حبوس بن ماكس الصنهاجي فهذه صورة تفرق ممالك الأندلس، بعد ما كانت مجتمعة لخلفاء بني أمية. "فدعا قرا خان الله تعالى في أن يعافيه ليقاتلهم، ثم يفعل به ما شاء، فتعافى وجمع العساكر

وسار إليهم، وهم زهاء ثلاثمائة ألف خركاة، فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل، وأسر نحو مائة ألف، وغنم ما لا يحصى، وعاد إلى بلا ساغون، فمات بها عقيب وصوله، وكان عادلاً ديناً، وما أشبه قصته هذه بقصة سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، في غزوة الخندق، لما جرح في وقعة خندق، وسأل الله أن يحييه إلى أن يشاهد غزوة بني قريظة، فاندمل جرحه حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل بني قريظة، وسبيهم، فانتقض جرح سعد ومات رضي الله عنه، ولما مات قرا خان، واسمه أبو نصر أحمد بن طغان خان علي ملك أخوه أبو المظفر أرسلان خان.

وفاة مهذب الدولة صاحب البطيحة وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي مهذب الدولة أبو الحسن بن علي ابن نصر، ومولده سنة خمس وثلاثمائة وهو الذي هرب إليه القادر بالله، وسبب موته أنه افتصد، فورم ساعده، واشتد بسبب ذلك به المرض، فلما أشرف على الموت، وثب ابن أخت مهذب الدولة، وهو أبو محمد عبد الله بن يمني، فقبض على ابن مهذب الدولة، واسمه أحمد، فدخلت أمه على مهذب الدولة قبل موته، فأعلمته بما جرى على ابنه فقال لها مهذب الدولة أي شيء أقدر أن أعمل وأنا على هذا الحال. ومات من الغد، وولِيّ الأمر أبو محمد ابن أخت مهذب الدولة المذكور، وضرب ابن مهذب الدولة ضرباً شديداً، فمات أحمد بن مهذب الدولة من ذلك الضرب بعد ثلاثة أيام من موت أبيه، ثم حصل لأبي محمد ذبحة فمات منها، فكان مدة ملكه دون ثلاثة أشهر. فولي البطيحة بعده الحسين بن بكر الشرابي، وكان من خواص مهذب الدولة، ثم قبض عليه سلطان الدولة، في سنة ست عشرة وأربعمائة، وأرسل سلطان الدولة صدقة بن فارس المازديادي فملك البطيحة."ثم دخلت سنة تسع وأربعمائة. في هذه السنة غزا يمين الدولة الهند، على عادته، فقتل وغنم وفتح وعاد إلى غزنة مظفراً منصوراً. وفيها مات عبد الغني بن سعيد الحافظ المصري، صاحب المؤتلف والمختلف. وفيها توفي أرسلان خان أبو المظفر بن طغان خان علي، ولما توفي مَلِكَ بلاد ما وراء النهر قدر خان، يوسف ابن بغراخان هارون" "بن سليمان، وتوفي قدر خان المذكور في سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. ثم دخلت سنة عشر وأربعمائة، وفيها توفي وثاب بن سابق النميري صاحب حران وملك بلاده بعده ولده شبيب بن وثاب. ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمائة موت الحاكم بأمر الله في هذه السنة، لثلاث بقين من شوال، فقد الحاكم بأمر الله أبو علي منصور ابن العزيز بالله العلوي، صاحب مصر، وكان فَقْده بأن خرج يطوف بالليل على رسمه، وأصبح عند قبر الفقاعي وتوجه إلى شرقي حلوان، ومعه ركابيان فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب

ليوصلهم ما أطلق لهم من بيت المال، ثم عاد الركابي الآخر وأخبر أنه خلف الحاكم عند العين والمقصبة، فخرج جماعة من أصحابه لكشف خبره، فوجدوا عند حلوان حمار الحاكم، وقد ضربت يده بسيف، وعليه سرجه ولجامه، وأتبعوا الأثر، فوجدوا ثياب الحاكم فعادوا ولم يشكوا في قتله، وكان سبب قتله: أنه تهدد أخته، فاتفقت مع بعض القواد، وجهزوا عليه من قتله، وكان عمر الحاكم ستاً، وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وولايته خمساً وعشرين سنة وأياماً، وكان جواداً بالمال، سفاكاً للدماء، وكان يصدر عنه أفعال متناقضه، يأمر بالشيء ثم ينتهي عنه. وولي الخلافة بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله، أبو الحسن علي بن منصور الحاكم بأمر الله، وبويع له بالخلافة. في اليوم السابع من قتل الحاكم، وهو إذ ذاك صبي وكتبت الكتب إلى بلاد مصر والشام بأخذ البيعة له، وجمعت عمته أخت الحاكم، واسمها ست الملك، الناس، ووعدتهم وأحسنت إليهم ورتبت الأمور وباشرت تدبير الملك بنفسها، وقويت هيبتها عند الناس، وعاشت بعد قتل الحاكم أربع سنين وماتت. "ثم دخلت سنة تسع عشرة وأربعمائة في هذه السنة، في ذي القعدة توفي قوام الدولة أبو الفوارس بن بهاء الدولة، صاحب كرمان، فسار ابن أخيه أبو كاليجار ابن سلطان الدولة، صاحب فارس، إلى كرمان، واستولى عليها بغير حرب.

ثم دخلت سنة عشرين وأربعمائة في هذه السنة استولى يمين الدولة محمود بن سبكتكين على الري وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة حسن بن بويه، صاحب الري، وكان سبب ذلك أن مجد الدولة اشتغل عن تدبير المملكة، بمعاشرة النساء ومطالعة الكتب، فشغبت عليه جنده، فبعث يشكو جنده إلى يمين الدولة محمود، وعلم محمود بعجزه، فبعث إليه عسكراً قبضوا على مجد الدولة، واستولى على الري. وفي هذه السنة كان قتل صالح بن مرداس أمير بني كلاب، صاحب حلب على ما سبق ذكره في سنة اثنتين وأربعمائة وفي هذه السنة توفي منوجهر بن قابوس بن وشمكير بن زيار، وملك بعده ابنه أنوشروان بن منوجهر.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

وفاة السلطان محمود وفي هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي محمود بن سبكتكين، ومولده في عاشورا سنة ستين وثلاثمائة، وكان مرضه إسهالاً وسوء مزاج، وبقي كذلك نحو سنتين، وكان قوي النفس،

فلم يضع جنبه في مرضه، بل كان يستند إلى مخدته حتى مات، كذلك وأوصى بالملك لابنه محمد بن محمود، وكان أصغر من مسعود، فقعد محمد في الملك، وكان أخوه مسعود بأصفهان، فسار نحو أخيه محمد، فاتفق أكابر العسكر وقضوا على محمد، وحضر مسعود فتسلم المملكة، واستقر فيها وأطلق أخاه محمداً، وأحسن إليه. ثم قبض مسعود على القواد الذين قبضوا أخاه محمداً، وسعوا لمسعود في المملكة. وهذا عاقبة غدرهم. ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة في هذه السنة سير السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكراً، فاستولى على التيز ومكران. ملك الروم مدينة الرها وكانت الرها لعطير، من بني نمير، فاستولى أبو نصر بن مروان صاحب ديار بكر على حران، وجهز من قتل عطيراً صاحب الرها، فأرسل صالح بن مرداس يشفع إلى أبي نصر بن مروان في أن يرد الرها إلى ابن عطير ابن والي شيل، بينهما نصفين فقبل شفاعته وسلمها إليهما في سنة ست عشرة وأربعمائة، وبقيت المدينة معهما إلى هذه السنة، فراسل ابن عطير أرمانوس ملك الروم، وباعه حصته من الرها، بعشرين ألف دينار وعدة قرى، وحضر "الروم وتسلموا برج ابن عطير، فهرب أصحاب ابن شبل، واستولى الروم على البلد، وقتلوا المسلمين وخربوا المساجد.

وفاة القادر بالله

خلافة القائم بأمر الله

[وهو سادس عشرينهم]

في هذه السنة، في ذي الحجة، توفي القادر بالله أبو العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر، وخلافته إحدى وأربعون سنة وشهر، ولما مات القادر بالله، جلس في الخلافة ابنه القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر، وكان أبوه قد عهد إليه وبايع له بالخلافة، فجددت البيعة وأرسل القائم أبا الحسن الماوردي إلى الملك أبي كاليجار، فأخذ البيعة عليه للقائم، وخطب له في بلاده.

ملك الروم قلعة فامية في هذه السنة، سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج الطائي، وهو مسلم، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأدرن من عسكر الظاهر العلوي، فسار مع الروم إلى الشام، وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب، ووصلوا إلى فامية، فكبسوها وغنموا ما فيها، وملكوا قلعتها، وأسروا وسبوا.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة: فيها شغبت الجند ببغداد على جلال الدولة، ونهبوا داره وأخرجوه من بغداد، وكتبوا إلى الملك أبي كاليجار يستدعونه إلى بغداد، فتأخر، وكان قد خرج جلال الدولة إلى عكبرا، ثم وقع الاتفاق وعاد جلال الدولة إلى بغداد. وفي هذه السنة توفي قدر خان يوسف بن بغراخان هروبن بن سليمان، وصح بلاد التيرة من الكفر، وكان قد ملك بلاد ما وراء النهر في سنة تسع وأربعمائة، ولما مات قدر خان ملك بعده ابنه عمر بن قدر خان.
ثم دخلت سنة أربع وعشرين وأربعمائة. فيها قبض مسعود بن محمود على شهر يوش صاحب ساوه، وقم، وتلك النواحي، وكان قد كثر أفاه على حجاج خراسان، وغيرهم، فأرسل مسعود عسكراً إليه فقبضوا عليه، وأمر به فصلب على سور ساوة. وفيها توفي أحمد بن الحسين الميمندي وزير السلطان محمود، وأبيه مسعود، أقول: ينبغي تحقيق ذلك. فإنه ورد أن محموداً قتل وزيره المذعور، فيتأمل ذلك. وفيها توفي القاضي ابن السماك، وعمره خمس وتسعون سنة. ثم دخلت سنة خمس وعشرين أربعمائة فيها فتح الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين قلعة سرستي وما جاورها من بلاد الهند، وكانت حصينة، وقصدها أبوه مراراً فلم يقدر على فتحها، فطم مسعود خندقها بالشجر والقصب السكر، وفتحها الله عليه، فقتل أهلها وسبى ذراريهم. وفيها توفي بدران بن المقلد صاحب نصيبين، فقصد ولده قريش، عمه قرواشاً فأقر عليه حاله وماله" "وولاية نصيبين، واستقر قريش بها.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة فيها انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد، وعظم أمر العيارين وصاروا يأخذون أموال الناس ليلا ونهاراً، ولا مانع لهم، والسلطان جلال الدولة عاجز عنهم لعدم امتثال أمره، والخليفة أعجز منه، وانتشرت العرب في البلاد، فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق.

وفيها وصلت الروم إلى ولاية حلب، نخرج إليهم صاحبها شبل الدولة بن صالح ابن مرداس، وتصافقوا واقتتلوا، فانهزمت الروم، وتبعهم إلى إعزاز، وغنم منهم وقتل.

وفيها قصدت خفاجة الكوفة فنهبوها. وفيها توفي أحمد بن كليب الشاعر، وكان يهوى أسلم بن أحمد بن سعيد، فمات كمداً في هواه، فمن قوله فيه:

وأسلمني في هوا ... ه أسلم هذا الرشا

غزال له مقلة ... يصيب بها من يشا

وشى بيننا حاسد ... سيسأل عما وشى

ولو شاء أن يرتشي ... على الوصل روحي ارتشى

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

وفاة الظاهر صاحب مصر في هذه السنة منتصف شعبان، توفي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن، علي ابن الحاكم أبي علي منصور العلوي بمصر، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وكانت خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وأياماً، وكان له مصر والشام، والخطبة بإفريقية. وكان جميل السيرة، منصفاً للرعية، ولما مات ولى بعده ابنه أبو تميم معد، ولقب بالمستنصر بالله، ومولده سنة عشرين وأربعمائة، وهذا المستنصر هو الذي خطب له ببغداد، على ما سنذكره في سنة خمسين وأربعمائة إن شاء الله تعالى، وهو الذي وصل إليه الحسن بن الصباح الإسماعيلي، وخاطبه في إقامة دعوته بخراسان وبلاد العجم، وقال له: إن فقدت فمن الإمام بعدك؟ فقال المستنصر: ابني نزار. فتح السويداء كان الروم قد أحدثوا عمارتها، واجتمع إليها أهل القرى المجاورة لها، فسار إليها ابن وثاب وابن عطية مع عسكر كثيف من عند نصر الدولة بن مروان وفتحوا السويداء عنوة.

مقتل يحيى الإدريسي [وسياق أخبار من ملك بعده من أهل بيته إلى آخرهم.] في هذه السنة، أعني سنة سبع وعشرين وأربعمائة، قتل يحيى بن علي بن حمود، حسبما تقدم في سنة سبع وأربعمائة، ولما قتل يحيى، تولى بعده أخوه إدريس بن علي بن حمود" "وتلقب بالمتأيد، واستقر بمالقة حتى توفي في سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ثم ملك بعده أخوه القاسم بن محمد ابن عم إدريس المذكور، وبقي القاسم مدة، ثم ترك الملك وتزهد، فملك بعده الحسن بن يحيى ابن علي بن حمود، وتلقب الحسن المذكور بالمستنصر، وبقي في الملك حتى توفي، ولم يقع لي تاريخ وفاته، ثم ملك بعد الحسن المذكور أخوه إدريس بن يحيى، وتلقب بالعالي، وكان العالي المذكور، فاسد التدبير، وكان يدخل الأراذل على حريمه، ولا يخببهن منهم، وسلك نحو ذلك من السلوك، فخلعه الناس وبايعوا ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود، فاستقر محمد المذكور في الملك، وتلقب بالمهدي، وأسمك ابن عمه العالي وسجنه، وبقي محمد المهدي المذكور حتى توفي في سنة خمس وأربعين وأربعمائة. وكان المهدي المذكور آخر من ملك منهم تلك البلاد، وانقرضت دولتهم في السنة المذكورة، أعني سنة خمس وأربعين وأربعمائة، وقيل بل إن العامة أخرجوا العالي بعد موت محمد المهدي وملكوه، فلما مات انقرضت دولتهم، وفي أيام خلافة المهدي محمد بن إدريس المذكور، قام من بني عمه شخص اسمه محمد بن القاسم بن حمود، بالجزيرة الخضراء، وتلقب محمد بن القاسم المذكور بالمهدي أيضاً، واجتمعت عليه البرابر، ثم افترقوا عنه فمات بعد أيام يسيره، وقيل مات غماً، ولما مات محمد بن القاسم المذكور بن حمود، وهو آخر من ملك منهم الجزيرة الخضراء، انقرضت ملوكهم. وفي هذه السنة أعني سنة سبع وعشرين وأربعمائة، توفي رافع بن الحسين بن معن، وكان حازماً شجاعاً، وكانت يده مقطوعة، قطعت غلطاً في عربدة على الشرب، وله شعر حسن، فمنه:

لها ريقة أستغفر الله إنها ... ألذ وأشهى في النفوس من الخمر

وصارم طرف لا يزايل جفنه ... ولم أر سيفاً قط في جفنه يفري

فقلت لها والعين تحدج بالضحى ... أعدي لفقدي ما استطعت من الصبر

أليس من الخسران أن لياليا ... تمر بلا وصل وتحسب من عمري

وفيها وقيل في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، توفي أبو إسحاق الشيخ أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ويقال الثعالبي، وكان أوحد زمانه في علم التفسير، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء عليهم السلام، وله غير ذلك، وروى عن جماعة، وهو صحيح النقل. ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. فيها توفي أبو القاسم علي بن الحسين بن مكرم، صاحب عمان، وقام ابنه مقامه. وفيها توفي مهيار الشاعر وكان مجوسياً، فأسلم سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وصحب الشريف الرضي، فقال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار قد انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية، فقال: كيف. قال: لأنك كنت مجوسياً، فصرت تسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في شعرك، فمن شعره من جملة قصيدة يذم فيها العرب، قبل النبي صلى الله عليه وسلم قوله:"

"ما برحت مظلمة دنياكم ... حتى أضاء كوكب في هاشم

نبلتم به وكنتم قبله ... سراً يموت في ضلوع كاتم

ثم قضى مسلماً من ريبه ... فلم يكن من غدركم بسالم

نقضتم عهوده في أهله ... وجزتم عن سنن المراسم

وقد شهدتم مقتل ابن عمه ... خير مصل بعده وصائم

وما استحل باغياً إمامكم ... يزيد بألطف من ابن فاطم

وها إلى اليوم الظباء خاضبة ... من دمهم مناسر القشاعم

وأشعار مهيار المذكور مشهورة. وفيها توفي أبو الحسين أحمد بن محمد ابن أحمد القدوري الحنفي، ولد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق، وارتفع جاهه، وصنف

كتابه المسمى بالقدوري المشهور، ونسبته إلى القدور جمع قدر، قال القاضي شمس الدين ابن خلكان: ولا أعلم وجه نسبته إليها. وفيها توفي الشيخ الرئيس أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا البخاري، وكان والده من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام الأمير نوح ابن منصور الساماني، ثم تزوج امرأة بقرية أفشنة، وقطن بها، وولد له الشيخ الرئيس وأخوه بهاء، وختم الرئيس القرآن وهو ابن عشر سنين، وقرأ الحكمة على أبي عبد الله الناتلي، وحل إقليدس والمجسطي، واشتغل في الطب، وأتقن ذلك كله، وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان ببخارى ثم انتقل منها إلى كركنج، وهي بالعربي الجرجانية، ثم انتقل إلى أماكن شتى حتى أتى إلى جورجان، فاتصل به أبو عبد الله الجورجاني، أكبر أصحاب الشيخ الرئيس المذكور، ثم انتقل إلى الري واتصل بخدمة مجد الدولة ابن فخر الدولة أبي الحسن علي بن ركن الدولة حسن بن بويه، ثم خدم شمس المعالي قابوس بن وشمكير، ثم فارقه وقصد علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان وخدمه، وتقدم عنده، ثم إن الرئيس المذكور مرض بالصرع والقولنج، وترك الحمية ومضى إلى همذان وهو مريض، ومات بهمذان في هذه السنة، وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة، ومصنفاته وفضائله مشهورة، وقد كفر الغزالي ابن سينا المذكور، وصرح الغزالي بذلك في كتابه الموسوم بالمنقذ من الضلال، وكذلك كفر أبا نصر الفارابي، ومن الناس من يرى رجوع ابن سينا إلى الشرائع واعتقادها، وحكى الرئيس أبو علي المذكور، في المقالة الأولى من الفن الخامس، من طبيعيات الشفاء قال: وقد صح عندي بالتواتر ما كان ببلاد جورجان في زماننا من أمر حديد، لعله يزن مائة وخمسين منا نزل من الهواء فنشب في الأرض. ثم نبا نبوة الكرة التي يرمى بها الحائط، ثم عاد فنشب في الأرض، وسمع الناس لذلك صوتاً عظيماً هائلاً، فلما تفقدوا أمره ظفروا به وحملوه إلي وإلى جورجان، ثم كاتبه سلطان خراسان محمود ابن سبكتكين،" "يرسم بإنفاذه أو إنفاذ قطعة منه، فتعذر نقله لثقله، فحاولوا كسر قطعة منه، فما كانت الآلات تعمل فيه إلا بجهد، وكانت كل آلة تعمل فيه تنكسر، لكنهم فصلوا منه آخر الأمر شيئا، فأنفذوه إليه، ورام أن يطبع منه سيفاً فتعذر عليه، وحكى أن جملة ذاك الجوهر، كان ملتئماً من أجزاء جاورشية صغار، مستديرة، التصق بعضها ببعض، قال: وهذا الفقيه عبد الواحد الجورجاني صاحبي شاهد ذلك كله. ثم دخلت سنة تسع وعشرين وأربعمائة. فيها قتل شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس صاحب حلب، في قتاله لعسكر مصر، الذين كان مقدمهم الدزيري على ما قدمنا ذكره، في سنة اثنتين وأربعمائة وفيها هادن المستنصر بالله العلوي ملك الروم، على أن يطلق خمسة آلاف أسير، ليمكن من

عمارة قمامة التي كان قد خربها الحاكم في أيام خلافته، فأطلق الأسرى وأرسل من عمر قمامة، وأخرج ملك الروم عليها أموالاً عظيمة جليلة. وفيها توفي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، صاحب التواليف المشهورة، وكان إمام وقته، ومن جملة تواليفه المشهورة: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، وكان مولده سنة خمسين وثلاثمائة. ثم دخلت سنة ثلاثين وأربعمائة فيها توفي أبو علي الحسين الرنجي، وزير ملوك بني بويه، ثم ترك الوزارة، وكان في عطلته يتقدم على الوزراء. وفيها توفي أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي، أمير مكة. وفيها توفي أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني الحافظ، والفضل بن منصور بن الطريف الفارقي، الأمير الشاعر، وله ديوان حسن. ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. فيها ملك الملك أبو كاليجار البصرة. "أخبار عمان

لما توفي أبو القاسم بن مكرم صاحب عمان، ولي بعده ابنه أبو الجيش، وقد صاحب جيش أبيه علي بن هطال، وكان أبو الجيش يحترم ابن هطال، ويقوم له إذا حضر، وكان لأبي الجيش أخ يقال له المهذب، ينكر على أخيه أبي ابن الجيش قيامه لابن هطال، وإكرامه، فعمل ابن هطال دعوة للمهذب، فلما عمل السكر في المهذب، حدثه ابن هطال وقال له: إن قمت معك وملكتك وأخرجت أخاك أبا الجيش، ما تعطيني؟ فبذل المهذب له الإقطاعات الجليلة، والمبالغة في الإكرام، فطلب ابن هطال خطه بذلك، فكتبه المهذب، وأصبح ابن هطال، فاجتمع بأبي الجيش وعرفه أن أخاه المهذب يسعى في أخذ الملك منه، وقال: قد رغبني وكتب خطه لي، وأخرج الخط، فأمر أبو الجيش بالقبض على أخيه المهذب، ثم قتله، وبعد ذلك بقليل مات أبو الجيش وله أخ صغير يقال له أبو محمد، فطلبه ابن هطال من أمه ليجعله في الملك، فلم تسلمه إليه. وقالت: ولدي غير ما يصلح، أفتصل أنت بالملك، فاستولى ابن هطال على عمان، وأساء السيرة، وبلغ ذلك الملك أبا كاليجار، فأعظمه وأرسل جيشاً إلى عمان، وخرجت الناس عن طاعة علي "بن هطال، فقتله خادم له وفراش واستقر الأمر لأبي محمد بن أبي القاسم بن مكرم في هذه السنة.

وفي هذه السنة توفي شبيب بن وثاب النميري صاحب الرقة، وسروج، وحران، وفيها توفي أبو نصر موسكان، كاتب إنشاء مسعود، وولده محمود بن سبكتكين، وكان من الكتّاب المفلقين ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ابتداء الدولة السلجوقية وسياقة أخبارهم متتابعة في هذه السنة توطد ملك طغريل بك وأخيه داود ابني ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق، وكان جدهم دقاق رجلاً شهماً من

مقدمي الأتراك، وولد له سلجوق، فانتشأ وظهرت عليه إمارات النجابة، فقدمه يبغو ملك الترك إذ ذاك، وقوى أمره وصار له جماعة كثيرة، فتغير يبغو عليه، فخاف سلجوق منه فسار بجماعته وبكل من يطيعه من دار الكفر إلى دار الإسلام، وذلك لما قدره الله تعالى من سعادته وسعادة ولده، وأقام بنواحي جند، وهي بليدة وراء بخارى - بجيم مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة - وصار يغزو الترك الكفار، وكان لسلجوق من الأولاد: أرسلان، وميكائيل، وموسى. وتوفي سلجوق بجند وعمره مائة وسبع سنين، وبقي أولاده على ما كان عليه أبوهم من غزو كفار الترك، فقتل ميكائيل في الغزاة شهيداً، وخلف من الأولاد يبغو، وطغريل بك، وجغروبك داود، ثم ارتحلوا ونزلوا على فرسخين من بخارى، فأساء أمير بخارى جوارهم، فالتجأوا إلى بغراخان ملك تركستان، واستقر الأمر بين طغريل بك وأخيه داود أن لا يجتمعا عند بغراخان، بل إذا حضر أحدهما أقام الآخر في البيوت، خوفاً من الغدر بهما، واجتهد بغراخان على اجتماعهما عنده فلم يفعلا، فقبض على طغريل بك، وأرسل عسكراً إلى أخيه داود، فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان، وكثر القتل فيهم، وقصد داود موضع أخيه طغريل بك وخلصه من الأسر، ثم عادا إلى جند وأقاما بها حتى انقرضت الدولة السامانية، وملك أيلك خان بخارا، فعظم عنده محل أرسلان بن سلجوق، ثم سار أيلك خان عنها وبقي ببخارى علي تكين، ومعه أرسلان بن سلجوق، حتى عبر محمود بن سبكتكين نهر جيحون

وقصد بخارى، فهرب علي تكين من بخارى، وأما أرسلان وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل، واجتمعوا عن السلطان محمود، فكاتب السلطان محمود أرسلان واستماله ورغبه، فقدم أرسلان بن سلجوق عليه فقبضه السلطان محمود في الحال، وكب خركاواته، وأشار أرسلان الجاذب على محمود أن يغرق السلجوقية، جماعة أرسلان المذكور في نهر جيحون، فأبى، فأشار بقطع إبهاماتهم بحيث لا يقدرون على رمي النشاب، فلم يقبل محمود ذلك، وأمر بهم فعبروا نهر جيحون وفرقهم في نواحي خراسان إلى أصفهان، ووضع عليهم الخراج، فجارت العمال عليهم، وامتدت الأيدي إلى أموالهم، وأولادهم، فانفصل منهم جماعة عن خراسان إلى أصفهان: وجرى بينهم وبين علاء الدولة بن كاكويه حرب، ثم ساروا إلى أذربيجان، وهؤلاء: "كانوا جماعة أرسلان بن سلجوق، وبقي اسمهم هناك الترك العرية، وبذلك سمى كل جماعتهم، وسار طغريل بك وأخواه داود ويبغو من خراسان إلى بخارى، فسار علي تكين بعسكره وأوقع بهم، وقتل عدة كثيرة من جمائعهم فألجأتهم الضرورة إلى

العود إلى خراسان، فعبرا نهر جيحون، وخيموا بظاهر خوارزم، سنة ست وعشرين وأربعمائة، واتفقوا مع خوارزمشاه هرون بن الطيطاش وعاهدهم ثم غدر بهم خوارزمشاه وكبسهم، فأكثر خوارزم إلى جهة مرو، فأرسل إليهم مسعود أب السلطان محمود جيشاً فهزمهم، وجرى بين عسكر مسعود منازعة على الغنيمة، وأدت إلى قتال بينهم، وأشار داود بالعود إلى جهة العسكر، فعادوا فوجدوا الاختلاف والقتال بينهم، فأوقع السلجوقية بعسكر مسعود وهزموهم، وأكثروا القتل فبهم واستردوا ما كان أخذوه منهم، وتمكنت هيبتهم من قلوب عسكر مسعود، فكاتبهم السلطان مسعود واستمالهم، فأرسلوا إليه يظهرون الطاعة ويسألونه أن يطلق عمه أرسلان بن سلجوق، الذي قبضه السلطان محمود، فأحضر مسعود أرسلان المذكور إلى عنده ببلخ، فطلبهم ليحضروا فامتنعوا، فأعاده إلى محبسه، وعادت الحرب بينهم، وهزموا عسكر مسعود مرة بعد أخرى، وقوى أمرهم واستولوا على غالب خراسان، وفرقوا النواب في النواحي، وخطب لطغريل بك في نيسابور، وسار داود إلى هراة، وهرب عساكر مسعود وتقدموا من خراسان إلى غزنة، وأعلموا مسعود بتفاقم الحال، فسار مسعود بجميع عساكره وفيوله من غزنة اليهم إلى خراسان، وبقي كل ماتبع السلجوقية إلى مكان، ساروا عنه إلى غيره، وطال البيكار على عسكر مسعود، وقلت الأقوات عليهم، وآخر ذلك أن السلجوقية ساروا إلى البرية، فتبعهم مسعود بتلك العساكر العظيمة مرحلتين، فضجرت العساكر من طول البيكار، وكان لعسكر خراسان إذ ذاك ثلاث سنين في البيكار، ونزل العسكر بمنزلة قليلة المياه، وكان الزمان حاراً، فجرى بينهم الفتن بسبب الماء، ومشى بعض العسكر إلى بعض في التخلي عن مسعود، ووقع بينهم الخلاف، فعادت السلجوقية عليهم فانهزمت عساكر مسعود أقبح هزيمة، وثبت السلطان مسعود في جمع قليل، ثم ولى منهزماً، وغنم السلجوقية منهم ما لا يدخل تحت الإحصاء، وقسم داود ذلك على أصحابه وآثرهم على نفسه، وعاد السلجوقية إلى خراسان، فاستولوا عليها، وثبتت قدمهم بخراسان وخطب لهم على منابرها، وذلك في أواخر سنة إحدى وثلاثين وأبعمائة، وسنذكر باقي أخبارهم إن شاء الله تعالى.

قبض مسعود وقتله ولما انهزم عسكر مسعود من السلجوقية على ما ذكرنا، وهرب مسعود وعسكره عن خراسان إلى غزنة، فوصل إليها في شوال سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقبض على مقدم" "عسكره شباوشي وعلى عدة من الأمراء، وسير ولده مودود إلى بلخ ليرد عنها داود بن ميكائيل بن سلجوق،

وكان مسير مودرد إلى بلخ في هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وسار مسعود إلى بلاد الهند ليشتي بها على عادة والده، وعبر سيحون فنهب أنوشتكين أحد قواد عسكره بعض الخزاين، واجتمع إليه جمع، وألزم محمداً أخا مسعود بالقيام بالأمر، فقام على كره، وبقي مسمعود في جماعة من العسكر، والتقى الفريقان في منتصف ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، واقتتلوا أشد قتال فانهزم مسعود وجماعته، وتحصن مسعود في رباط، فحصروه، فخرج إليهم فأرسله أخوه محمد إلى قلعة كيدي، وحمل مع مسعود أهله وأولاده وأمر بإكرامه وصيانته، ولما استقر محمد بن محمود في إشبكتكين في الملك فوض مر دولته إلى ولده أحمد، وكان فيه خبط وهوج، فقتل عمه مسعود بن محمود في قلعة كيدي بغير علم أبيه، ولما علم أبوه محمد بذلك شق عليه وساء ذلك، وكان السلطان مسعود كثير الصدقة، تصدق مرة في رمضان بألف ألف درهم، وكان كثير الإحسان إلى العلماء، فقصدوه وصنفوا له التصانيف الكثيرة، وكان يكتب خطاً حسناً، وكان ملكه عظيماً فسيحاً، ملك أصفهان والري وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وبلاد الران وكرمان وسجستان. والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور. وأطاعه أهل البر والبحر. ملك مودود بن مسعود وقتله عمه محمداً لما قتل مسعود، كان ابنه مودود بن مسعود بخراسان في حرب السلجوقية، فلما بلغه خبر قتل أبيه مسعود، عاد مجداً بعساكره إلى خزنة، ووقع القتال بينه وبين عمه محمد، فانهزم محمد وعسكره وقبض عليه مودود وعلى ولده أحمد، وعلى أنوشتكين الذي نهب الخزائن، وأقام محمد المذكور، وكان أنوشتكين خصياً وأصله من بلخ، فقتلهم وقتل جميع أولاد عمه محمد، خلا عبد الرحيم، وكذلك قتل كل من دخل في القبض على والده مسعود، ودخل مودود إلى غزنة في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة، واستقر الأمر لمودود بغزنة، وسلك حسن السيرة، وثبتت قدمه في الملك، وراسله ملك الترك بما وراء النهر بالانقياد والمتابعة له. وفي هذه السنة توفي المظفر محمد بن الحسن بن أحمد المروزي بشهر زور.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة فيها في المحرم توفي علاء الدولة أبو جعفر بن شهريار، المعروف بابن كاكويه، وكان شجاعاً ذا رأي، وقام بأصفهان بعده ابنه ظهير الدين أبو منصور فرامرز، وهو أكبر أولاده، سار ولده كرشاسف بن علاء الدولة إلى همذان، فأقام بها وأخذها لنفسه. وفي هذه السنة ملك السلطان طغريل بك جرجان وطبرستان. غير ذلك من الحوادث في هذه السنة أمر المستنصر العلوي أهل دمشق بالخروج عن طاعة الدزبري، فخرجوا عليه" "وسار

الدزبري إلى حماة، فعصي عليه أهلها، فكاتب مقلد بن منقذ الكفرطابي، لحضر إليه في نحو ألفي رجل من كفر طاب، واحتمى به وسار عن حماة إلى حلب فدخلها وأقام بها مدة، وتوفي الدزبري في منتصف جمادى الآخرة من هذه السنة، وقد تقدم ذكر وفاته في سنة اثنتين وأربعمائة، وكان الدزبري يلقب بأمير الجيوش، واسمه أنوشتكين. والد زبري - بكسر الدال المهملة والباء الموحدة وبينهما زاء منقوطة ساكنة وفي الاخر راء مهملة - هذه السنة إلى دزبر بن رويتم الديلمي، ولما مات الدزبري في هذه السنة فسد أمر الشام وزال النظام وطمعت العرب، وخرجوا في نواحي الشام، فخرج صاحب الرحبة أبو علوان ثمال، ولقبه معز الدولة بن صالح بن مرداس الكلابي وسار إلى حلب وملكها، وعاد حسان بن مفرج الطائي فاستولى على فلسطين، وقد تقدم ذكر مسيره إلى قسطنطينية وعوده في سنة اثنتبن وعشرين وأربعمائة.

وفيها سير الملك أبو كاليجار من فارس عسكراً إلى عمان، فملكوا أصحاب مدينة عمان. وفيها توفي أبو منصور بهرام الملقب بالعادل، وزير الملك أبي كاليجار، ومولده سنة ست وستين وثلاثمائة، وكان حسن السيرة، وبنى دار الكتب بفيروز آباد، وجعل فيها سبعة آلاف مجلد.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وأربعمائة فيها ملك السلطان طغريل بك خوارزم، وكانت خوارزم من جملة مملكة محمود بن سبكتكين، ثم صارت مسعود ابنه ونائبه فيها الطيطاش حاجب أبيه محمود، ومات الطيطاش فولاها مسعود ابنه هارون بن الطيطاش، ولقبه خوارزمشاه، ثم قتل هرون، قتله جماعة من غلمانه عند خروجه إلى الصيد، فاستولى على البلد رجل يقال له عبد الجبار، ثم وثب غلمان هارون على عبد الجبار فقتلوه، وولوا البلد إسماعيل بن الطيطاش أخا هارون، فسار شاه ملك بن علي، وكان ملك بعض أطراف تلك البلاد فاستولى على خوارزم، وهزم إسماعيل عنها، ثم سار طغريل بك إلى خوارزم فاستولى عليها، وانهزم شاه ملك عنها، واستقرت في ملك طغريل بك في هذه السنة، ثم سار طغريل بك ستولى على الجبل في هذه السنة أيضاً. الوحشة بين القائم وجلال الدولة في هذه السنة لما افتتحت الجوالي في المحرم ببغداد، أخذها جلال الدولة، وكانت العادة أن تحمل إلى الخلفاء، لا يعارضهم فيها الملوك، فأرسل القائم إلى جلال الدولة في ذلك مع أبي الحسن الماوردي، فلم يلتفت جلال الدولة إليه، فعزم القائم على مفارقة بغداد، فلم يتم له ذلك. غير ذلك من

الحوادث في هذه السنة في رجب، خرج بمصر رجل اسمه سكين، وكان يشبه الحاكم خليفة مصر، فادعى أنه الحاكم، واتبعه جماعة يعتقدون رجعة الحاكم، وقصدوا دار الخليفة وقت الخلوة وقالوا: هذا الحاكم، فارتاع من كان بالباب في ذلك الوقت، ثم ارتابوا به فقبضوا على سكين،" "وصلب مع أصحابه.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

وفاة جلال الدولة وفي هذه السنة في شعبان توفي جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ببغداد، وكان مرضه ورماً في كبده، وكان مولده سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وملكه ببغداد ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً، ولما مات جلال الدولة كان ابنه الملك العزيز أبو بكر منصور بواسط، فكاتبه الجند فيما يحمله إليهم، فلم ينتظم له أمر، فسار يطلب النجدة، وقصد الملوك مثل قرواش وأبي الشوك، فلم يجده أحد، فقصد نصر الدولة بن مروان وتوفي عنده بميا فارقين، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، فلما لم ينتظم لابن جلال الدولة أمر، كاتب الملك أبو كاليجار عسكر بغداد، فاستقر الأمر لأبي كاليجار ابن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدرلة ابن ركن الدولة ابن بويه، وخطبوا له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة.

غير ذلك من الحوادث في هذه السنة، أعني سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فتح عسكر مودود بن مسعود بن محمود عدة حصون، من بلاد الهند، وفيها أسلم من الترك خمسة آلاف خركاة، وتفرقوا في بلاد الإسلام، ولم يتأخر عن الإسلام سوى الخطا والتتر وهم بنواحي الصين. وفي هذه السنة ترك شرف الدولة ملك الترك لنفسه بلاد بلاساغون، وكاشغر، وأعطى أخاه أرسلان تكين كثيراً من بلاد الترك، وأعطي أخاه بغراخان أطرار وأسبيجاب، وأعطى عمه طغان فرغانة بأسرها، وأعطى علي تكين بخارى وسمر قند، وغيرهما، وقنع شرف الدولة المذكور من أهله المذكورين بالطاعة له.

وفي هذه السنة قطع المعز بن باديس بإفريقية خطبة العلويين خلفاء مصر، وخطب للقائم العباسي خليفة بغداد، ووصلت إليه من القائم الخلع والأعلام على طريق القسطنطينية في البحر.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وأربعمائة فيها خطب للملك أبي كاليجار في صفر ببغداد، وخطب له أيضاً أبو الشوك ببلاده، ودبيس بن مزيد ببلاده، ونصر الدولة بن مروان بديار بكر، وسار الملك أبو كاليجار إلى بغداد ودخلها في رمضان من هذه السنة، وزينت بغداد لقدومه.

وفيها أمر الملك أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز، فبني وأحكم بناؤه، ودوره اثنا عشر ألف ذراع، في ارتفاع ثمانية أذرع، وله أحد عشر باباً، وفرغ منه في سنة أربعين وأربعمائة.
وفيها توفي الشريف المرتضي أبو القاسم أخو الشريف الرضي، ومولده سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وولي نقابة العلويين بعده عدنان ابن أخيه الرضي. وفيها توفي القاضي أبو عبد الله الحسين الصيمري شيخ أصحاب أبي حنيفة، ومولده سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة. وفيها توفي أبو الحسين محمد ابن علي البصري المعتزلي "صاحب التصانيف المشهورة.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. فيها أرسل السلطان طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بن ميكائيل، فاستولى على همذان وأخذها من كرشاسف بن علاء الدولة ابن كاكويه، واستولى على الدينور وأخذها من أبي الشوك، ثم استولى على الصيمرة.

وفي هذه السنة توفي أبو الشوك، واسمه فارس بن محمد بن عنان، بقلعة السيروان، ولما توفي غدر الأكراد بابنه سعدي، وصاروا مع مهلهل بن محمد أخي أبي الشوك. وفيها قتل عيسى بن موسى الهمذاني صاحب أربل، قتله ابنا أخ له وملكا قلعة أربل، وكان لعيسى أخ آخر اسمه سلار بن موسى قد نزل على قرواش صاحب الموصل لوحشة كانت بين سلار وأخيه عيسى، فلما بلغه قتل أخيه سار قرواش إلى أربل ومعه سلار فملكها وتسلمها سلار، وعاد قرواش إلى الموصل.

وفيها وقع الوباء في الخيل وعم البلاد. وفيها توفي أحمد بن يوسف المنازي وزر لأبي نصر أحمد بن مروان الكردي، صاحب ديار بكر، وترسل إلى القسطنطينية، وكان من أعيان الفضلاء والشعراء،

وجمع المنازي المذكور، كتباً كثيرة وأوقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد، وهي إلى قريب كانت موجودة بخزائن الجامعين، وكان قد اجتاز في بعض أسفاره بوادي بزاعا، فأعجبه حسنه فقال فيه:

وقانا لفحة الرمضاء واد ... وقاه مضاعف النبت العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم

تروع حصاه حالية العذارى ... فيلمس جانب العقد النظيم

والمنازي منسوب إلى مناز جهر، مدينة عند خرتبرت، وهي غير مناز كرد التي من عمال خلاط.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فيها ملك مهلهل بن محمد عنان أخو أبي الشوك قرميسين والدينور بعد ما كان قد استولى عليهما أخو طغرلبك على ما تقدم ذكره. وفي هذه السنة توفي عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين، وكان الجويني إماماً في الشافعية، تفقه على أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي، وهو صاحب وجه في المذهب، وكان عالماً أيضاً بالأدب وغيره من العلوم، وهو من بني سنبس، بطن من طي.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وأربعمائة في هذه السنة استولى عسكر الملك أبي كاليجار على البطيحة، وأخذوها من صاحبها أبي نصر بن الهيثم، وهرب ابن الهيثم إلى زبرب. وفيها كان بالعراق غلاء عظيم، حتى أكل الناس الميتة، وببغداد حتى خلت الأسواق. وفيها توفي عبد الواحد بن محمد المعروف بالمطرز الشاعر، وأبو الخطاب الشبلي الشاعر. وفيها مات بغراخان محمد بن قدرخان يوسف، وقبض على أخيه عمر بن قدرخان يوسف، وماتا جميعاً مسمومين في هذه السنة، وكان قد ملك عمر المذكور في سنة ثلاث" "وعشرين وأربعمائة حسبما تقدم، فسار شمس الملك طفقاج خان أبو إسحاق إبراهيم بن نصر أيلك خان من سمرقند، وملك بلادهما. وتوفي طفقاج سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

ثم دخلت سنة أربعين وأربعمائة.

موت أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم في هذه السنة توفي الملك أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة ابن بهاء الدولة ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه، في رابع جمادى الأولى بمدينة جناب من كرمان، وكان قد سار إلى بلاد كرمان، لخروج عامله بهرام الديلمي عن طاعته، ومرض من قصر مجاشع، وتم سايراً، وقويت به الحمى وضعف عن الركوب، فركب في محفة، فتوفي في جناب، وكان عمره أربعين سنة وشهوراً، وكان ملكه العراق أربع سنين وشهرين، ولما توفي نهبت الأتراك الخزائن والسلاح والدواب من العسكر. وكان معه ولده أبو منصور فلاستون بن أبي كاليجار فعاد إلى شيراز وملكها. ولما وصل خبر وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ولده الملك الرحيم أبو نصر خسره فيروز بن أبي كاليجار، جمع الجند واستحلفهم واستولى على بغداد، ثم أرسل الملك الرحيم عسكراً إلى شيراز، فقبضوا على أخيه أبي منصور فلا ستون، وعلى والدته في شوال هذه السنة، وخطب للملك الرحيم بشيراز، ثم سار الملك الرحيم من بغداد إلى خوزستان، فلقيه من بها من الجند وأطاعوه، ومن جملتهم كرشاسف بن علاء الدولة صاحب همذان، فإنه كان قد قدم إلى الملك أبي كاليجار لما أخذ منه إبراهيم ينال أخو طغريل بك همذان. "ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وأربعمائة فيها جمع فلاستون بن أبي كاليجار جمعاً بعد أن خلص من الاعتقال، واستولى على بلاد فارس، وفيها جرى بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال وحشة أدت إلى قتال بينهما، فانهزم إبراهيم ينال وعصي بقلعة سرماح، فحصره بها طغرلبك واستنزله قهراً. وفيها أرسل ملك الروم إلى السلطان طغرلبك هدية عظيمة، وطلب منه المعاهدة فأجابه إليها، وعمر مسجد القسطنطينية، وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك، ودانت الناس له وتمكن ملكه وثبت. وفيها أفرج السلطان طغرلبك عن أخيه ينال وتركه معه. وفاة مودود في هذه السنة في رجب توفي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب"غزنة، وعمره تسع وعشرون سنة، وملك تسع سنين وعشرة أشهر، وكان موته بغزنة، واستقر في الملك بعده عمه عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين، وكان مودود قد حبس عمه المذكور، فخرج موته واستقر في الملك ولقب شمس دين الله سيف الدولة.

غير ذلك فيها سار الباسيري كبير الأتراك ببغداد، وملك الأنبار، وأظهر العدل وحسن السيرة، ولما قرر قواعدها عاد إلى بغداد. وفيها ملك عسكر خليفة مصر العلوي مدينة حلب، وأخذوها من ثمال بن صالح بن مرداس الكلابي على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتين وأربعمائة. وفيها وقعت الفتنة ببغداد

بين السنية والشيعة، وعظم الأمر حتى بطلت الأسواق، وشرع أهل الكرخ في بناء سور عليهم محيطاً بالكرخ، وشرع السنية من القلابين ومن يجري مجراهم في بناء سور على سوق القلابين، وكان الأذان بأماكن الشيعة بحي على خير العمل، وبأماكن السنية الصلاة خير من النوم. وفيها توفي أبو بكر منصور بن جلال الدولة، وله شعر حسن.

دخلت سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة في هذه السنة سار السلطان طغرلبك من خراسان، وحاصر أصفهان، وبها صاحبها أبو منصور بن علاء الدولة بن كاكويه به، وطال محاصرته قريب سنة، وأخذها بالأمان ودخل السلطان طغرلبك أصفهان في المحرم سنة ثلاث وأربعين، واستطابها ونقل إليها ما كان له بالري من سلاح ذخائر. حال قرواش مع أخيه وفيها استولى أبو كامل بركة بن المقلد على أخيه قرواش بن المقلد، ولم يبق لقرواش مع أخيه المذكور تصرف في المملكة، وغلب عليها أبو كامل المذكور ولقبه زعيم الدولة. مسير العرب من جهة مصر إلى جهة إفريقية

[وهزيمة المعز بن باديس]

في هذه السنة لما قطع المعز بن باديس خطبة العلويين من إفريقية، وخطب للعباسيين، عظم ذلك على المستنصر العلوي، وأرسل إلى المعز بن باديس في ذلك، فأغلظ ابن باديس في الجواب، وكان وزير المستنصر الحسن بن علي اليازوري، ويازور من أعمال الرملة، فاتفقا على إرسال زغبة ورياح، وهما قبيلتان من العرب، وكان بينهم حرب فأصلح المستنصر بينهم، وجهزهم بالأموال، فساروا واستولوا على برقة، فسار إليهم المعز بن باديس فهزموه وساروا إلى إفريقية، وقطعوا الأشجار وحصروا المدن ونزل بأهل إفريقية من البلاء ما لم يعهدوا مثله. ثم جمع المعز ما يزيد على ثلاثين ألف فارس والتقى معهم فهزموه أيضاً، ودخل المعز القيروان مهزوماً. ثم جمع المعز وخرج إليهم والتقوا وجرى بينهم قتال عظيم، ثم انهزمت عساكر المعز وكثر القتل فيهم، وانهزم المعز ووصلت العرب إلى القيروان، ونزلوا "بمصلى القيروان، وأقام العرب يحاصرون البلاد وينهبونها إلى سنة تسع وأربعين وأربعمائة، وانتقل المعز إلى المهدية في رمضان سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ونهبت العرب القيروان.

غير ذلك من الحوادث فيها سار مهلهل بن محمد بن عنان أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرلبك، فأحسن إليه طغرلبك وأقره على بلاده، ومن جملتها السيروان، ودقوقا وشهرزور، والصامغان، وكان سرحاب بن محمد أخو مهلهل محبوساً عند طغرلبك، فأطلقه لأخيه مهلهل.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة. فيها كانت الفتنة بين السنية والشيعة ببغداد، وعظم الأمر، وأحرق ضريح قبر موسى بن جعفر، وقبر زبيدة، وقبور ملوك بني بويه، وجميع الترب التي حواليها، ووقع النهب، وقصد أهل الكرخ إلى خان الحنفيين، وقتلوا مدرس الحنفيين أبا سعيد السرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء، ثم صارت الفتنة إلى الجانب الشرقي فاقتتل أهل باب الطاق وسوق يحيى والأساكفة. وفاة زعيم الدولة بركة بن المقلد وفي هذه السنة توفي بركة بن المقلد بن المسيب بتكريت، واجتمع العرب وكبراء الدولة على إقامة ابن أخيه قريش بن بدران بن المقلد، وكان بدران بن المقلد المذكور صاحب نصيبين، ثم صارت لقريش المذكور بعده، وكان قرواش تحت الاعتقال منذ اعتقله أخوه بركة مع القيام بوظائفه ورواتبه، فلما تولى قريش نقل عمه قرواشاً إلى قلعة الجراحية من أعمال الموصل، فاعتقله بها. غير ذلك من الحوادث فيها وقت العصر ظهر ببغداد سكب له ذؤابة، غلب نوره على الشمس، وسار سيراً بطيئاً، ثم انقض. وفيها وصل رسول طغرلبك إلى الخليفة بالهدايا. وفيها عاد طغرلبك عن أصفهان إلى الري. وفيها كرشاسف بن علاء الدولة بن كاكويه بالأهواز، وكان قد استخلفه بها أبو منصور بن أبي كاليجار.
ثم دخلت سنة أربع وأربعين وأربعمائة قتل عبد الرشيد في هذه السنة قتل عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، قتله الحاجب طغريل، وكان حاجباً لمودود بن مسعود، فأقره عبد الرشيد وقدمه، فطمع في الملك وخرج على عبد الرشيد المذكور، فانحصر عبد الرشيد بقلعة غزنة، وحصره طغريل حتى سلمه أهل القلعة، فقتله طغريل وتزوج ببنت السلطان مسعود كرهاً، ثم اتفقت كبراء الدولة ووثبوا على طغريل فقتلوه، وأقاموا فرخزاد بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين، "وكان محبوساً في بعض القلاع فأحضر وبويع له، وقام بتدبر الأمر بين يديه خرخير، وكان أميراً على الأعمال الهندية، فقدم وتتبع كل من كان أعان على قتل عبد الرشيد فقتله. وفاة قرواش في هذه السنة مستهل رجب، توفي معتمد الدولة أبو منيع قرواش بن المقلد ابن المسيب العقيلي، الذي كان صاحب الموصل، محبوساً بقلعة الجراحية من أعمال الموصل، وحمل فدفن بتل توبة من مدينة نينوى

شرقي الموصل، وقيل إن ابن أخيه قريش بن بدران المذكور، أحضر عمه قرواشاً المذكور من الحبس إلى مجلسه وقتله فيه" "وفي هذه السنة كانت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة، وأعادت الشيعة الآذان بحي على خير العمل، وكتبوا في مساجدهم محمد وعلي خير البشر.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وأربعمائة فيها عماد أبو منصور فلاستون ابن الملك أبي كاليجار، واستولى على شيراز وأخذها من أخيه أبي سعيد بن أبي كاليجار، ولما استقر أبو منصور في شيراز خطب فيها للسلطان طغرلبك، ولأخيه الملك الرحيم، ولنفسه بعدهما. ثم دخلت سنة ست وأربعين وأربعمائة فيها سار طغرلبك إلى أذربيجان وقصد تبريز فأطاعه صاحبها وهشوذان وخطب له فيها وحمل إليه ما أرضاه، وذلك فعل أصحاب تلك النواحي، ولما استقر له أذربيجان على ما ذكرنا سار إلى أرمينية وقصد ملازكرد وهي للروم، وحصرها فلم يملكها، وعبر إلى الروم وغزا في الروم ونهب وقتل وأثر فيهم آثاراً عظيمة." "غير ذلك وفي هذة السنة حصلت الوحشة بين البساسيري والخليفة القائم.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وأربعمائة فيها قتل الأمير أبو حرب سليمان بن نصر الدولة بن مروان، صاحب الجزيرة، قتله عبيد الله بن أبي طاهر البشنوي الكردي غيلة.

غير ذلك فيها ثارت جماعة من السنية ببغداد، وقصدوا دار الخلافة، وطلبوا أن يؤذن لهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فأذن لهم، وزاد شرهم، ثم استأذنوا في نهب دور البساسيري وكان غائباً في واسط، فأذن لهم الخليفة بذلك، فقصدوا دور البساسيري ونهبوا وأحرقوها، وأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري، فأبعده وقدم الملك الرحيم من واسط إلى بغداد، وسار البساسيري إلى جهة دبيس بن مرثد لمصاهرة بينهما.

الخطبة في بغداد لطغرلبك فيها سار طغرلبك حتى نزل حلوان، فعظم الإرجاف ببغداد، وأرسل قواد بغداد يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابهم طغرلبك إلى ذلك، وتقدم الخليفة القائم بذلك، فخطب له بجوامع بغداد لثمان بقين من رمضان هذه السنة، ثم أرسل طغرلبك واستأذن في دخول بغداد، فتوجهت إليه الرسل لحلفوه للخليفة القائم وللملك الرحيم، فحلف لهما، وسار طغرلبك فدخل بغداد

ونزل بباب الشماسية. وثوب العامة بعسكر طغرلبك والقبض على الملك الرحيم ولما وصل طغرلبك إلى بغداد دخل عسكره يتحوجون، فجرى بين بعضهم وبين السوقية هوشة، وثارت أهل تلك المحلة على من فيها من الغز عسكر طغرلبك ونهبوهم، ثارت الفتنة بينهم ببغداد وخرجت العامة إلى وطاقات طغرلبك، فركب عسكره وتقاتلوا، فانهزمت العامة، وأرسل طغرلبك يقول: إن كان هذا من الملك الرحيم فهو لا يقدر على الحضور إلينا، وإن كان برئا من هذا، فلا غناء عن حضوره، فأرسل الخليفة القائم إلى الملك الرحيم أن يخرج هو وكبار القواد، وهم في أمان الخليفة وذمامه، فخرجوا إلى طغرلبك فقبض على الملك الرحيم وعلى القواد الذين صحبته، فعظم ذلك على الخليفة القائم، وأرسل إلى طغرلبك في أمرهم، وشكا من عدم حرمته وعدم الالتفات إلى أمانه، فأفرج طغرلبك عن بعض القواد، واستمر بالباقين وبالملك الرحيم في الاعتقال، وهذا الملك الرحيم آخر من استولى على العراق من ملوك بني بويه، وكان أول من استولى منهم على العراق وبغداد معز الدولة أحمد بن بويه، ثم ابنه بختيار بن معز الدولة، ثم ابن عمه عضد الدولة، ثم فناخسرو ابن ركن الدولة "بن بويه، ثم ابنه صمصام الدولة بن كاليجار المرزبان بن عضد الدولة، ثم أخوه شرف الدولة شيزريك بن عضد الدولة، ثم أخوه بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة، ثم ابنه سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة، ثم أخوه شرف الدولة ابن بهاء الدولة، ثم أخوه جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة، ثم ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة، ثم ابنه الملك الرحيم خسره فيروز ابن أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه وهو آخرهم.

"ثم دخلت سنة تسع وأربعين وأربعمائة "فيها عاد طغرلبك إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وأعمالها، وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال، ولما قارب طغرلبك الفقص خرج لتلقيه كبراء بغداد، مثل عميد الملك وزير طغرلبك ببغداد، ورئيس الرؤساء، ودخل بغداد وقصد الاجتماع بالخليفة القائم، فجلس له الخليفة وعليه البردة على سرير عمال عن الأرض نحو سبعة أذرع، وحضر طغرلبك في جماعته، وأحضر أعيان بغداد وكبراء العسكر، وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة، فقبل طغريل بك الأرض، ويد الخليفة، ثم جلس على كرسي. ثم قال له رئيس الرؤساء: إن الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده، ورد إليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك، وخلع على طغريل بك وأعطى العهد، فقبل الأرض ويد الخليفة ثانياً

وانصرف، ثم بعث طغريل بك إلى الخليفة خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً من الأتراك، ومعهم خيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها.

"ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة "وفاة فرخزاد صاحب غزنة في هذه السنة وقيل في سنة تسع وأربعين، توفي الملك فرخزاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بالقولنج، وملك بعده أخوه إبراهيم بن مسعود، فأحسن السيرة، وغزا الهند وفتح حصوناً. وكان ديناً، ولما استقر في ملك غزنة صالح داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب خراسان.

وفاة داود وملك ابنه ألب أرسلان في هذه السنة في رجب توفي داود بن ميكائيل بن سلجوق، أخو طغريل بك، وعمره سبعون سنة، صاحب خراسان وهو مقاتل آل سبكتكين، ولما توفي داود ملك خراسان بعده ابنه ألب أرسلان وكان لداود من البنين ألب أرسلان، وياقوتي وقاروت بك وسليمان، فتزوج طغريل بك بأم سليمان امرأة أخيه.

غير ذلك من الحوادث فيها قدم طغريل بك إلى بغداد، وأعاد الخليفة، وقتل البساسيري. وفيها توفي علي بن محمود بن إبراهيم الزوزني، وهو الذي ينسب إليه رباط الزوزني المقابل لجامع المنصور ببغداد.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة فيها ملك محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس حلب، على ما تقدم ذكره في سنة اثنتين وأربعمائة. وفيها سار طغريل بك من بغداد إلى بلاد الجبل في ربيع الأول، وجعل الأمير برسق شحنة ببغداد. وفيها توفيت والدة القائم وهي جارية أرمنية، قيل اسمها قطر الندى.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وفاة المعز صاحب إفريقية وفي هذه السنة توفي المعز بن باديس، بضعف الكبد، وكانت مدة ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك قيل إحدى عشرة سنة، وقيل ثمان سنين، وملك بعده ابنه تميم بن المعز، ولما مات المعز طمعت أصحاب البلاد بسبب العرب وتغلبهم على بلاد إفريقية كما قدمنا ذكره.

وفاة قريش صاحب الموصل وفيها توفي قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب صاحب الموصل ونصيبين، وكانت وفاته بنصيبين، بخروج دم من حلقه وأنفه وأذنيه، وقام بالأمر بعده ابنه شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش.

وفاة نصر الدولة بن مروان وفي هذه السنة توفي نصر الدولة أبو نصر أحمد بن مروان الكردي، صاحب ديار بكر - "وكان عمره نيفاً وثمانين سنة، وإمارته اثنتين وخمسين سنة، لأن تملكه كان في سنة اثنتين وأربعمائة كما قدمنا ذكره في سنة ثمانين وثلاثمائة، واستولى أبو نصر على أموره وبلاده استيلاء تاماً، وتنعم تنعماً لم يسمع بمثله، وملك من الجواري المغنيات ما اشترى بعضهن بخمسة آلاف دينار، وأكثر، وملك خمسمائة سرية، سوى توابعهن وخمسمائة خادم، وكان في مجلسه من الآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار، وأرسل طباخين إلى مصر حتى تعلموا الطبخ هناك وقدموا عليه، وغرم على ذلك جملة، ووزر له أبو القاسم المغربي وفخر الدولة بن جهير، ووفد إليه الشعراء وأقام عنده العلماء، ولما مات نصر الدولة المذكور، خلف ابنين نصراً وسعيداً ابني المذكور، فاستقر في الأمر بعده ابنه نصر بن أحمد بميافارقين، وملك أخوه سعيد بن أحمد آمد.

وفاة أمير مكة في هذه السنة توفي شكر العلوي الحسيني أمير مكة، وله شعر حسن فمنه:

قوض خيامك عن أرض تضام بها ... وجانب الذل إن الذل مجتنب

وارحل إذا كان في الأوطان منقصة ... فالمندل الرطب في أوطانه حطب
ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة فيها تزوج طغريل بك ببنت الخليفة القائم، وكان العقد في شعبان بظاهر تبريز، وكان الوكيل في تزويجها من جهة القائم عميد الملك، وفيها استوزر القائم فخر الدولة أبا نصر بن جهير بعد مسيره عن ابن مروان. وفيها توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، الفقيه الشافعي، صاحب كتاب لشهاب، وكتاب الأنباء عن الأنبياء، وتواريخ الخلفاء وكتاب خطط مصر. تولى قضاء مصر من جهة الخلفاء العلويين مصريين، وتوجه منهم رسولا إلى

جهة الروم، والقضاعي منسوب إلى قضاعة، وهو من حمير، وينسب إلى قضاعة قبائل كثير منها: كلب وبلى وجهينة وعدوة وغيرهم، وقيل: قضاعة بن معد بن عدنان.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وأربعمائة

"دخول طغريل بك بابنة الخليفة وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين وأربعمائة، قدم طغريل بك إلى بغداد ودخل بابنة الخليفة، وحصل من عسكره الأذية لأهل بغداد لإخراجهم من دورهم وفسقهم بنسائهم أخذاً باليد.

وفاة طغريل بك في هذه السنة بعد دخول طغريل بك بابنة الخليفة، سار من بغداد في ربيع الأول إلى بلد الجبل، فوصل إلى الري فمرض وتوفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان من هذه السنة، وعمره سبعون سنة تقريباً، وكان طغريل بك عقيماً لم يرزق ولداً، واستقرت السلطنة بعده لابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق.

"ثم دخلت سنة ست وخسمين وأربعمائة القبض على الوزير عميد الملك وقتله

في هذه السنة قبض السلطان ألب أرسلان على الوزير عميد الملك أبي نصر منصور بن محمد الكندري، وزير عمه طغريل بك، بسبب سعي نظام الملك وزير ألب أرسلان به، فقبض ألب أرسلان على عميد الملك وحبسه في مروروز، فلما مضى على عميد الملك في الحبس سنة، أرسل ألب أرسلان إليه غلامين ليقتلا فدخل عميد الملك ورع أهله وصلى ركعتين وخرق خرقه من طرف كمه وعصب عينيه بها، فقتلاه بالسيف وقطع رأسه وحملت جثته إلى كندر فدفن عند أبيه، وكان عمره نيفاً وأربعين سنة، وكان عميد الملك خصياً. لأن طغريل بك أرسله ليخطب له امرأة فتزوجها عميد الملك، فخصاه طغريل بك لذلك، وكان عميد الملك كثير الوقيعة في الشافعي، حتى خاطب طغريل بك في لعن الرافضة على منابر خراسان، فأمر له بذلك فأمر بلعنهم، وأضاف إليهم الأشعرية، فأنف من ذلك أئمة خراسان، منهم أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني، وأقام بمكة أربع سنين ولهذا لقب إمام الحرمين، ومن العجب أن ذكر عبد الملك ومخاصيه، دفن بخوارم لما خصي، ودمه سفح بمرو، وجسده دفن بكندر، ورأسه ما عدا قحفه دفن بنيسابور، ونقل قحفه إلى كرمان لأن نظام الملك كان هناك.

"ثم دخلت سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفيها عبر ألب أرسلان جيحون وسار إلى جند وصبران، وهما عند بخارى، وقبر جده سلجوق بجند، فخرج صاحب جند إلى طاعته، فأقره على مكانه، ووصل إلى كركنج خوارزم، وسار منها إلى مرو. وفيها ابتدأ نظام الملك بعمارة المدرسة النظامية ببغداد.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وفيها أقطع ألب أرسلان شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدار بن المقلد بن المسيب صاحب الموصل، الأنبار وتكريت زيادة على الموصل. وفيها توفي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الخسروجردي، وكان إماماً في الحديث والفقه على مذهب الشافعي، وكان زاهداً ومات بنيسابور ونقل إلى بيهق، وبيهق قرى مجتمعة بنواحي نيسابور على عشرين فرسخاً منها، وكان البيهقي من خسرو جرد وهي - قرية من بيهق - وكان البيهقي أوحد زمانه، رحل في طلب الحديث إلى العراق والجبال والحجاز، وصنف شيئاً كثيراً، وهو أول من جمع نصوص الشافعي في عشر مجلدات، ومن مشهور مصنفاته السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة، وكان قانعاً من الدنيا بالقليل، ومولده في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

"ثم دخلت سنة ستين وأربعمائة فيها كانت بفلسطين ومصر زلزلة شديدة حتى طلع الماء من رؤوس الآبار، وهلك من الردم عالم عظيم، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس أرضه يلتقطون فرجع الماء عليهم وأهلك خلقاً كثيراً. وفيها توفي الشيخ أبو منصور عبد الملك بن يوسف، وكان من أعيان الزمان.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وأربعمائة فيها احترق جامع دمشق بسبب فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة، فضربت دار مجاورة للجامع بالنار، فاتصلت النار بالجامع، وعجز الناس عن إطفائها، فأتى الحريق على الجامع، فدثرت محاسنه، وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وأربعمائة في هذه السنة توفي طفغاج خان ملك ما وراء النهر، واسمه أبو إسحاق إبراهيم بن نصر أيلك خان، وملك بعده ابنه شمس الملك نصر بن طفغاج، وبقي شمس الملك حتى توفي، ولم يقع لي تاريخ وفاته، وملك بعده أخوه حصر خان بن طفغاج، ثم ملك بعده ابنه أحمد، وبقي أحمد المذكور حتى قتل سنة ثمان وثمانين وأربعمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها كان بمصر غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وانتزح منها من قدر على الانتزاح، واحتاج خليفة مصر المستنصر العلوي إلى إخراج الآلات وبيعها، فأخرج من خزانته ثمانين ألف قطعة بلور كبار، وخمساً وسبعين ألف قطعة من الديباج وأحد عشر ألف كزغندو، وعشرين ألف سيف محلى، ووصل من ذلك مع التجار إلى بغداد.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة فيها قطع محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس صاحب حلب خطب المستنصر العلوي، وخطب للقائم العباسي خليفة بغداد. وفيها سار السلطان ألب أرسلان إلى ديار بكر، فأتى صاحبها نصر بن أحمد بن مروان إلى طاعته وخدمته، ثم سار ألب أرسلان حتى نزل على حلب، فبذل صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس له الطاعة، بدون أن يطئ بساطه، فلم يرض ألب أرسلان بذلك، فخرج محمود ووالدته ليلا، ودخلا على السلطان ألب أرسلان فأحسن إليهما، وأقر محموداً على مكانه بحلب.

وفيها سار ملك الروم أرمانوس بالجموع العظيمة من أنواع الروم والروس والجركس وغيرهم حتى وصل إلى ملاز كرد، فسار إليه ألب أرسلان وسأل الهدنة من ملك الروم فامتنع واقتتل الجمعان، فولى الروم منهزمين، وقتل منهم ما لا يحصى وأخذ الملك أرمانوس أسيراً، فشرط ألب أرسلان عليه شروطاً من حمل المال والأسرى والهدنة، فأجاب أرمانوس إليها، فأطلقه ألب أرسلان وحمله إلى مأمنه. وفيها قصد يوسف بن أبق الخوارزمي وهو من أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان الشام، وفتح مدينة الرملة وبيت المقدس، وأخذهما من نواب الخليفة المستنصر، صاحب مصر، ثم حصر دمشق وضيق على أهلها ولم يملكها.

"ثم دخلت سنة أربع وستين وأربعمائة وفاة بن عمار قاضي طرابلس وفي هذه السنة في رجب، توفي القاضي أبو طالب بن عمار قاضي طرابلس، وكان قد استولى عليها واستبد بأمرها فقام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن ابن عمار، فضبط البلد أحسن ضبط.

ثم دخلت سنة خمس وستين وأربعمائة مقتل السلطان ألب أرسلان في هذه السنة سار السلطان ألب أرسلان، واسمه محمد، إلى ما وراء النهر، وعقد على جيحون جسراً وعبره، في نيف وعشرين يوماً، وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس ولما عبر السلطان "ألب أرسلان النهر مد سماطاً في بليدة هناك يقال لها قرير، وبتلك البليدة حصن على شاطئ جيحون، فأحضر إليه مستحفظ ذلك الحصن، ويقال له يوسف الخوارزمي، مع غلامين يحفظانه وكان قد ارتكب جريمة في أمر الحصن، فأمر السلطان أن تضرب له أربعة أوتاد، ويشد بأطرافه إليها. فقال له يوسف: يا مخنث، مثلي يقتل هذه القتلة؟ فغضب السلطان وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين: خلياه ورمام بسهم، فأخطأه ولم يكن يخطئ سهمه، فوثب يوسف على السلطان بسكين كانت معه، فقام السلطان عن السدة فوقع على وجهه، فضربه يوسف بالسكين، ثم جرح شخصاً آخر واقفاً على رأس السلطان يقال له سعد الدولة، ثم ضرب بعض الفراشين يوسف المذكور بمزربة على رأسه فقتله ثم قطعه الأتراك، فقال السلطان وهو مجروح: لما كان أمس صعدت على تل فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد علي فعجزني الله بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله وأستقيله من ذلك الخاطر، وكان جرح السلطان في سادس عشر ربيع الأول، وتوفي في عاشر ربيع الآخر من هذه السنة، وعمره أربعون سنة وشهور وأيام، وكانت مدة ملكه مذ خطب له بالسلطنة إلى أن توفي تسع سنين وستة أشهر وأياماً وأوصى بالسلطنة لابنه ملك شاه وكان في صحبته، فحلف جميع العسكر لملك شاه، واستقر في السلطنة.

وكان المتولي على الأمر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان، وعماد ملكشاه بالعسكر من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان، وأرسل إلى بغداد وإلى الأطراف، فخطب له فيها على قاعدة أبيه ألب أرسلان، واستمر نظام الملك على وزارته ونفوذ أمره، ولما استقر ملك ملكشاه خرج عمه قاروت بك صاحب كرمان عن طاعته، وسار إليه فالتقى الجمعان فانهزم عسكر قاروت بك وأتي به إلى ملكشاه أسيراً، فأمر به فخنق وأقر كرمان على أولاده، ولما انتصر ملكشاه كثرت أذية العسكر للبلاد ففوض ملكشاه الأمور إلى نظام الملك، وحلف له وزاده من الإقطاعات على ما كان بيده مواضع من جملتها مدينة طوس ولقبه ألقابا من جملتها أتابك، وأصلها أطابك، ومعناه الوالد الأمين فأحسن نظام الملك السياسة والتدبير.

[وقتل ناصر الدولة.]

فنقول: كانت قد استولت والدة المستنصر العلوي خليفة مصر على الأمر، فضعف أمر الدولة، وصارت العبيد حزباً، والأتراك حزباً، وجرت بينهم حروب، وكان ناصر الدولة وهو من أحفاد ناصر الدولة بن حمدان من أكبر قواد مصر، والمشار إليه، فأجمعت إليه الأتراك وجرى بينهم وبين العبيد عدة وقعات، وحصر ناصر الدولة مصر وقطع الميرة عنها براً وبحراً، فغلت الأسعار بها وعدم ما كان بخزائن المستنصر، حتى أخرج العروض كما تقدم ذكره وعدم المتحصل بسبب انقطاع السبيل، ثم استولى ناصر الدولة على مصر وانهزمت "العبيد وتفرقت في البلاد، واستبد ناصر الدولة بالحكم، وقبض على والدة المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرق عن المستنصر أولاده وأهله.

وانقضت سنة أربع وستين وما قبلها بالفتن، وبالغ ناصر الدولة في إهانة المستنصر، حتى بقي المستنصر يقعد على حصيرة، لا يقدر على غير ذلك. وكان غرضه في ذلك أن يخطب للخليفة القائم العباسي، ففطن بفعله قائد كبير من الأتراك اسمه الدكز، فاتفق مع جماعة على قتل ناصر الدولة، وقصدوه في داره فخرج ناصر الدولة إليهم مطمئناً بقوته، فضربوه بسيوفهم حتى قتلوه، وأخذوا رأسه ثم قتلوا فخر العرب أخا ناصر الدولة، وتتبعوا جميع من بمصر من بني حمدان فقتلوهم عن آخرهم، وكان قتلهم في هذه السنة أعني سنة خمس وستين وبقي الأمر بمصر مضطرباً ولما كان سنة سبع وستين وأربعمائة ولى الأمر بمصر أمير الجيوش بدر الجمالي، وقتل الدكز والوزير ابن كدينة، واستقامت الأمور كما سنذكره إن شاء الله تعالى."

"ثم دخلت سنة ست وستين وأربعمائة، وفي هذه السنة زادت دجلة وجاءت السيول حتى غرق الجانب الشرقي، وبعض الغربي، ودخل الماء إلى المنازل من فوق ونبع من البلاليع، وغرق من الجانب الغربي مقبرة أحمد، ومشهد باب التين، وهلك في ذلك خلق كثير.

ثم دخلت سنة سبع وستين وأربعمائة فيها وصل بدر الجمالي إلى مصر وكان بدر متولي سواحل الشام، فأرسل إليه المستنصر العلوي يشكو حاله واختلال دولته، فركب البحر في قرة الشتاء في زمن لا يسلك البحر فيه، فمن الله تعالى عليه بالسلامة، ووصل بدر إلى مصر وقبض على الأمراء والقواد الذين كانوا قد تغلبوا، وأخذ أموالهم وحملها إلى المستنصر، وأقام منار الدولة وشيد من أمرها ما كان قد درس، ثم سار إلى الإسكندرية ودمياط وأصلح أمورهما، ثم عاد إلى مصر وسار إلى الصعيد وقهر المفسدين، وقرر قواعد البلاد وأحسن إلى الرعية، فعمرت البلاد وعادت مصر وأعمالها إلى أحسن ما كانت عليه.

"[خلافة المقتدي بأمر الله]

وهو سابع عشرينهم، لما توفي القائم بويع المقتدي بأمر الله عبد الله بن ذخيرة الدين بن القائم بالخلافة، وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير بن جهير والشيخ أبو إسحاق الشيرازي وابن الصباغ، ونقيب النقباء، وطراد الزينبي والقاضي أبو عبد الله الدامغاني وغيرهم، من الأعيان، فبايعوه بالخلافة، ولم يكن للقائم ولد ذكر سواء، فإن محمد بن القائم وكان يلقب ذخيرة الدين توفي في حياة أبيه القائم، وكان لمحمد بن القائم لما توفي جارية اسمها أرجوان فلما توفي محمد ورأت أرجوان ما نال القائم من المصيبة بانقطاع نسله، ذكرت أنها حامل من محمد ابنه، فولدت عبد الله المقتدي، إلى ستة أشهر من موت محمد، فاشتد فرح القائم به وعظم سروره، فلما بلغ المقتدي الحلم جعله القائم ولي عهده.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وأربعمائة. فيها ملك أتسز دمشق. كما قد ذكرنا سنة إحدى وستين ملك أتسز الرملة، وحصاره دمشق، ثم رحل عنها وعاودهم في أيام إدراك الغلات، حتى ضعف عسكر دمشق وتسلمها أتسز في هذه السنة، وقطع الخطبة العلوية، فلم يخطب بعدها في دمشق لهم وأقام الخطبة العباسية يوم جمعة، لست بقين من ذي القعدة من هذه السنة، وخطب للمقتدي بأمر الله، ومنع من الأذان بحي على خير العمل."

"ثم دخلت سنة تسع وستين وأربعمائة فيها سار أتسز المتولي على دمشق إلي مصر وعاد مهزوماً إلى الشام. قيل كانت هزيمته لقتال جرى بين الفريقين، وقيل بل انهزم بغير قتال، وهلك جماعة من أصحابه.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة فيها غزا الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بلاد الهند، فأوغل فيها وفتح وغنم وعاد إلى غزنة سالماً.
ملك مسلم بن قريش مدينة حلب في هذه السنة، سار شرف الدولة بن قريش بن بدران بن المقلد بن السميب صاحب الموصل إلى حلب، فحصرها، فسلم البلد إليه في سنة ثلاث وسبعين، وحصر القلعة واستنزل منها سابقاً ووثاباً ابني محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وتسلم القلعة.

"ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ودخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها كانت فتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة. وفيها أرسل الخليفة المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي رسولاً إلى السلطان ملكشاه، وإلى نظام الملك، فسار من بغداد إلى خراسان، ليشكو من عميد العراق أبي الفتح بن أبي الليث، فأكرم السلطان ونظام الملك الشيخ أبا إسحاق، وجرى بينه وبين إمام الحرمين أبي المعالي الجوبني مناظرة بحضرة نظام الملك، وعاد بالإجابة إلى ما التمسه الخليفة، ورفعت يد العميد عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة.

"ثم دخلت سنة ست وسبعين وأربعمائة فيها في جمادى الآخرة توفي الشيخ أبو إسحاق إبراهيم ابن علي الشيرازي الفيروز أبادي، وفيررز أباد بلدة بفارس، ويقال هي مدينة جون. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقيل سنة ست وتسعين، وكان أوحد عصره علماً وزهداً وعبادة، ولد بفيروز أباد ونشأ بها، ودخل شيراز وقرأ بها الفقه، ثم قدم إلى البصرة، ثم إلى بغداد في سنة خمس عشرة وأربعمائة وكان إمام وقته في المذهب والخلاف والأصول وصنف المهذب، والتنبيه والتلخيص، والنكت، والتبصير، واللمع، ورؤوس المسائل. وكان فصيحاً.*

"ثم دخلت سنة سبع وسبعين وأربعمائة فيها سار فخر الدولة بن جهير بعساكر السلطان ملكشاه، إلى قتال شرف الدولة مسلم بن قريش، ثم سير السلطان ملكشاه إلى فخر الدولة جيشاً آخر فيهم الأمير أرتق بن أكسك وقيل أكسب، والأول أصح، جد الملوك الأرتقية، فانهزم شرف الدولة مسلم، وانحصر في آمد، ونزل الأمير أرتق على آمد، فحصره فبذل له مسلم بن قريش مالاً جليلاً ليمكنه من الخروج من آمد فأذن له أرتق، وخرج شرف الدولة من آمد في حادي عشرين ربيع الأول من هذه السنة، فسار إلى الرقة وبعث إلى أرتق ما وعده به، ثم سير السلطان عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير بعسكر كثيف، وسير معه، أقسنقر قسيم الدولة إلى الموصل، فاستولى عليها عميد الدولة، وهذا أقسنقر هو والد عماد الدولة زنكي، ثم أرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة بالعهود يستدعيه إلى سلطان، فقدم شرف الدولة إليه، وأحضره عند السلطان ملكشاه بالبوازيج، وكان قد ذهبت أمواله، فاقترض شرف الدولة مسلم، ما خدم به السلطان، وقدم إليه خيلاً من جملتها فرسه التي نجا عليه في المعركة. المشهور وكان اسم الفرس بشاراً، وكان سابقاً، وسابق به السلطان الخيل، فجاء سابقاً، فقام السلطان قائماً لما تداخله من العجب، فرضي السلطان على مسلم، وخلع عليه وأقره على بلاده.

فتح سلمان بن قطلومش أنطاكية في هذه السنة سار سلمان بن قطلومش السلجوقي صاحب قونية، وأقصرا، وغيرهما من بلاد الروم، فملك مدينة أنطاكية بمخامرة الحاكم فيها من جهة النصارى، وكانت أنطاكية بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فافتتحها سليمان في هذه السنة. قتل شرف الدولة مسلم وملك أخيه إبراهيم لما ملك سليمان بن قطلومش أنطاكية وأرسل شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب، يطلب منه ما كان يحمله إليه أهل أنطاكية، فأنكر سليمان ذلك وقال: إن صاحب أنطاكية كان نصرانياً، فكنت تأخذ منه ذلك على سبيل الجزية، ولم يعطه شيئاً، فجمعا واقتتلا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، في طرف أعمال "أنطاكية، فانهزم عسكر مسلم، وقتل شرف الدولة مسلم في المعركة، وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وقد قدمنا ذكر مقتله لتتبع الحادثة بعضها بعضاً، وكان شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب أحول، واتسع ملك مسلم بن قريش المذكور، وزاد ملك من تقدمه من أهل بيته، فإنه ملك السندية التي على نهر عيسى إلى منبج وديار ربيعة ومضر من الجزيرة وحلب، وما

كان لأبيه وعمه قرواش من الموصل، وغيرهم، وكان مسلم يسوس مملكته سياسة حسنة، بالأمر والعدل، ولما قتل، قصد بنو عقيل أخاه إبراهيم بن قريش وهو محبوس، فأخرجوه وملكوه وكان قد مكث في الحبس سنين كثيرة، بحيث صار لم يقدر على المشي لما خرج. وفي هذه السنة ولد لملكشاه ولد بسنجار، فسماه أحمد، ثم غلب عليه اسم سنجر لكونه ولد بسنجار، وهو السلطان سنجر على ما تجيء أخباره، كذا نقله المؤرخون، والذي يغلب على ظني أنه سماه على عادة الترك، فإنهم يسمون صنجر، ومعناه يطعن، والناس يقولونه بالسين.

"ثم دخلت سنة تسع وسبعين وأربعمائة قتل سليمان بن قطلومش لما قتل سليمان مسلم بن قريش في سنة ثمان وسبعين، على ما ذكرناه في سنة سبع وسبعين، أرسل سليمان إلى ابن الحبيبي العباسي مقدم أهل حلب، يطلب تسليم حلب، فاستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه، وأرسل ابن الحبيبي، استدعى تنش صاحب دمشق بن السلطان ألب أرسلان، أخا السلطان ملكشاه، فسار تنش إلى حلب، وكان مع تنش أرتق بن أكسك، وقد فارق خدمة ملكشاه، خوفاً من إطلاق مسلم بن قريش من آمد، على ما قدمنا ذكره، وجرت الحرب بين تنش وابن سليمان بن قطلومش فانهزم عسكر سليمان، وثبت سليمان، فقيل إن سليمان انهزم عسكره، أخرج سكيناً وقتل نفسه، وقيل بل قتل في المعركة، وكان سليمان قد أرسل جثة مسلم بن قريش على بغل، ملفوفة في إزار إلى حلب، ليسلموها إليه في السنة الماضية، في سادس صفر، فأرسل تنش جثة سليمان في هذه السنة في سادس صفر ملفوفة في إزار إلى حلب، ليسلموها إليه، فأجابه ابن الحبيبي بالمماطلة، إلى أن يرد مرسوم ملكشاه في أمر حلب بما يراه، فحاصر تنش حلب وضيق على أهلها وملكها، فاستجار ابن الحبيبي بالأمير أرتق بن أكسك، فأجاره، وأما قلعة حلب فكان بها منذ قتل مسلم بن قريش، سالم بن مالك بن بدارن بن المقلد بن المسيب، العقيلي، وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش، فحاصر تنش سبعة عشر يوماً فبلغه وصول مقدمة أخيه السلطان ملكشاه.

وصول السلطان ملكشاه إلى حلب

كان ابن الحبيبي قد كاتب السلطان في أمر حلب، فسار إليها من أصفهان، في جمادى الآخرة، فملك في طريقه حرّان، وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن، قريش وسار إلى الرها، وهي بيد الروم

من حين اشتروها من ابن عطير، كما قدمنا ذكره لحصرها وملكها، وسار إلى قلعة جعبر، واسمها الدوسرية، ثم عرفت بقلعة جعبر لطول مدة ملك جعبر لها، وبها صاحبها سابق الدين جعبر القشير المذكور، وهو شيخ أعمى فأمسكه وأمسك ولديه، وكانا يقطعان الطريق ويخيفان السبيل، ثم صار إلى منبج فلكها، وسار إلى حلب فلما قاربها رحل أخوه تنش عن حلب على البرية، وتوجه إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وتسلمها، وتسلم القلعة من سالم بن مالك بن بدران العقيلي، على أن يعوضه بقلعة جعبر، فسلم السلطان إليه قلعة جعبر، فبقيت بيده ويد أولاده، إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى. ولما نزل السلطان ملكشاه بحلب، أرسل إليه الأمير نصر "بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية، وكفر طاب، وأفامية، فأجابه السلطان إلى المسالمة وترك قصده، وأقر عليه شيزر، ولما ملك السلطان ملكشاه حلب، سلمها إلى قسيم الدولة أقسنقر، ثم ارتحل السلطان إلى بغداد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

[ذكر غير ذلك من الحوادث]

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دبيس بن علي بن مرثد الأسدي، صاحب الحلة والنيل. وغيرهما، وكان فاضلاً وله شعر جيد. واستقر مكانه ولده صدقة، ولقب سيف الدولة.

ملك يوسف بن تاشفين غرناطة من الأندلس
[وانقراض دولة الصنهاجية منها:]

في هذه السنة عدّى البحر يوسف بن تاشفين أمير المسلمين، من سبتة إلى الجزيرة الخضراء بسبب استيلاء الفرنج على بلاد الأندلس، واجتمع إليه أهل الأندلس، مثل المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الأندلس، وجرى بينهم وبين الأدفونش قتال شديد، نصر الله فيه المسلمين، وانهزم الفرنج وقتل

منهم ما لا يحصى، حتى جمعوا من رؤوسهم تلاً وأذنوا عليه، وملك يوسف غرناطة، وأخذها من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن مالس بن بلكين بن زيري الصنهاجي.

من تاريخ القيروان قال: وأول من حكم من الصناهجة في غرناطة راوي بن بلكين، ثم تركها وعاد إلى إفريقية في سنة عشر وأربعمائة، فملك غرناطة ابن أخيه حبوس بن مالس بن بلكين، وبقي بها حتى توفي في سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وولي بعده ابنه باديس بن حبوس، وبقي حتى توفي، وولي بعده ابن أخيه عبد الله بن بلكين بن حبوس، ودام فيها حتى أخذها منه يوسف بن تاشفين في هذه السنة. وذكر صاحب تاريخ القيروان أن أخذ يوسف غرناطة، كان في سنة ثمانين وأربعمائة.
ولنرجع إلى ذكر ابن تاشفين. ثم إن يوسف بن تاشفين عبر البحر إلى سبتة، وأخذ معه عبد الله صاحب غرناطة المذكور، وأخاه تميماً إلى مراكش، فكانت غرناطة أول ما ملكه يوسف بن تاشفين من الأندلس. وفيها سار ملكشاه عن حلب ودخل بغداد في ذي الحجة وهو أول قدومه إلى بغداد، ثم خرج إلى الصيد، فصاد من الوحوش شيئاً كثيراً، ثم عاد إلى بغداد واجتمع بالخليفة المقتدي، وأقام ببغداد إلى صفر من سنة ثمانين، وعاد إلى أصفهان. وفيها أقطع السلطان ملكشاه محمد بن شرف الدولة، مسلم بن قريش مدينة الرحبة، وأعمالها، وحران وسروج، والرقة، والخابور، وزوجه بأخته زليخا بنت ألب أرسلان. "وفيها كانت زلازل عظيمة حتى فارق الناس ديارهم، وفيها توفي الشريف أبو نصر الزيني العباسي، نقيب الهاشميين وهو محدث مشهور على الإسناد.

ثم دخلت سنة ثمانين وأربعمائة وسنة إحدى وثمانين وأربعمائة فيها توفي الملك المؤيد إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، وقيل كانت وفاته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وهو الأقوى. ولكن تابعنا ابن الأثير وإيراده وفاة المذكور في هذه السنة، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وكان حسن السيرة حازماً، ولما توفي ملك بعده ابنه مسعود بن إبراهيم، وكان قد زوجه أبوه بابنة السلطان ملكشاه. وفيها جمع أقسنقر صاحب حلب عساكره وسار إلى قلعة شيزر، وصاحبها نصر بن علي بن منقذ، وضيق عليه ونهب الربض، ثم صالحه ابن منقذ المذكور، فعاد أقسنقر إلى حلب.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة فيها سار السلطان ملكشاه بجيوش لا تحصى كثرة، إلى ما وراء النهر، وعبر جيحون وسار إلى بخارى، وملك ما على طريقه من البلاد، ثم ملك بخارى، ثم سار إلى سمرقند فملكها وأسر صاحبها أحمد خان وأكرمه، ثم سار السلطان إلى كاشغر فبلغ إلى بوزكند، وأرسل إلى ملك كاشغر يأمره بإقامة الخطبة له والسكة، فأجاب إلى ذلك، وسار ملك كاشغر وحضر عند السلطان ملكشاه، فأكرمه السلطان وعظمه وأعاده إلى ملكه، ثم رجع السلطان إلى خراسان.

"ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها توفي فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير، بالموصل، في المحرم، منها، وكان مولده بالموصل سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وتنقل في الخدم "فخدم بركة بن المقلد حتى قبض على أخيه حقرواش، ثم سار إلى حلب، فوزر لمعز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس، ثم مضى إلى نصر الدولة أحمد بن مروان، صاحب ديار بكر، فوزر له ثم وزر لولده، ثم سار إلى بغداد فولي وزارة الخليفة، ثم سار مع السلطان ملكشاه، ففتح له ديار بكر وأخذها من بني مروان.

وفي هذه السنة في شعبان كان صعود الحسن بن الصباح مقدم الإسماعيلية على قلعة الألموت وظهور دعوته.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وأربعمائة فيها تولى عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير وزارة الخليفة المقتدي.

ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس في هذه السنة سار يوسف بن تاشفين أمير المسلمين من مراكش إلى سبتة وأقام بها، وسير العساكر مع شير بن أبي بكر إلى الأندلس، فعبروا البحر وأتوا إلى مدينة مرسية، فملكوها وأخذوها من صاحبها أبي عبد الله بن طاهر، ثم ساروا إلى مدينة شاطبة ودانية فملكوهما، وكانت بلنسية قد ملكها الفرنج، ثم أخلوها فملكها عسكر أمير المسلمين، وعمرها، وكان يوسف أمير المسلمين، قد ملك غرناطة فيما قبل، على ما تقدم ذكره، ثم سار إلى أشبيلية، فحصروها

وبها صاحبها، المعتمد بن عباد، فملكوها وأخذوا المعتمد بن عباد صاحبها، وأرسلوه إلى يوسف بن تاشفين فحبسه حتى مات، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، ولما فرغ شير وعساكر يوسف بن تاشفين من إشبيلية ساروا إلى المرية، وكان بها صاحبها، محمد بن صمادح بن معن، فلما بلغه أخذ إشبيلية، ومسير العسكر إليه، مات غماً وكمداً، ولما مات سار ولده الحاجب بن محمد بن صمادح بأهله وماله عن المرية في البحر، إلى بلاد بني حماد، المتاخمين لإفريقية فأحسنوا إليهم، ثم قصد شير بطليوس فأخذها من صاحبها عمر بن الأفطس، وكان عمر بن الأفطس ممن أعان شير على ابن عباد حتى ملك إشبيلية، ثم رجع ابن الأفطس إلى بطليوس، فسار إليه شير وملكها منه، وأخذ عمر بن الأفطس وولديه الفضل والعباس ابني عمر المذكور فقتلهم صبراً، ولم يترك شير من ملوك الأندلس سوى بني هود، فإنه لم يقصد بلادهم، وهي شرق الأندلس، وكان صاحبها المستعين بالله بن هود يهادي يوسف بن تاشفين ويخدمه، قبل أن يقصد بلاد الأندلس فرعى له ذلك حتى أنه أوصى ابنه علي بن يوسف بن تاشفين عند موته، بترك التعرض إلى بلاد بني هود.

استيلاء الفرنج على صقلية

قد تقدم ذكر فتح صقلية، وتوارد الولاة عليها من جهة ابن الأغلب، ثم من جهة الخلفاء العلويين، فلما كان سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة كان الأمير على صقلية أبا الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسين، من جهة العزيز خليفة مصر، فأصاب يوسف المذكور فالج، وبطل جانبه الأيسر، فاستناب ابنه جعفر بن يوسف وبقي جعفر أميراً بصقلية إلى سنة عشر وأربعمائة، فثار به أهل صقلية وحصروه بقصره لسوء سيرته، وكان أبو يوسف حينئذ حياً، مفلوجاً فخرج، إلى أهل صقلية في محفة فبكوا عليه وشكوا ابنه جعفر، وسألوا أن يولي عليهم ابنه أحمد، المعروف بالأكحل، ففعل يوسف ذلك، ثم سير يوسف ابنه جعفر إلى مصر، وسار هو بعده، ومعهما أموال جليلة، وكان ليوسف المذكور من الدواب أربعة عشر ألف حجرة سوى البغال وغيرها، واستمر الأكحل في صقلية، وأحسن السيرة، وبث السرايا في بلاد الكفار، وأطاعه جميع قلاع صقلية وبلادها التي للمسلمين.

ثم حصل بين الأكحل وبين أهل صقلية وحشة، فسار بعض أهل صقلية إلى إفريقية، إلى المعز ابن باديس فأرسل المعز بن باديس إلى صقلية جيشاً مع ابنه عبد الله بن المعز بن باديس في سنة سبع وعشرين وأربعمائة، لحصروا الأكحل في الخالصة وقتل الأكحل في الحصار.

ثم إن أهل صقلية كرهوا عسكر المعز، فقاتلوهم، فانهزم عسكر المعز وابنه عبد الله وقتل منهم ثمانمائة رجل، ورجعوا في المراكب إلى إفريقية وولى أهل صقلية عليهم أخا الأكحل واسمه الصمصام بن يوسف، واضطربت أحوال أهل صقلية عند ذلك واستولى الأراذل، ثم أخرجوا الصمصام وانفرد كل إنسان ببلد، فانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازر وطرابنش وغيرهما، وانفرد القائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواش بقصريانة وجرجنت وغيرهما، وانفرد ابن التمنة بمدينة سيرقوس وقطانية، فوقع بينهم، واستنصر ابن التمنة بالفرنج الذين بمدينة مالطة، واسم ملكهم رجار، وهون عليهم أمر المسلمين، فسار الفرنج وابن التمنة إلى البلاد التي بأيدي المسلمين، في سنة أربع وأربعين وأربعمائة واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة، وفارق الجزيرة حينئذ خلق كثير من أهلها من العلماء والصالحين، وسار جماعة إلى المعز بن باديس إلى إفريقية. ثم استولى الفرنج على غالب بلاد صقلية وحصونها، وليس لهم مانع، ولم يثبت بين أيديهم غير قصريانة وجرجنت وحصرهما الفرنج، وطال الحصار عليهما حتى أكل أهلهما الميتة، فسلم أهل جرجنت أولاً وبقيت قصريانة بعدها ثلاث سنين، ثم أذعنوا، وملك رجار جميع الجزيرة في هذه السنة، أعني سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ثم مات رجار قبل سنة تسعين، وتولى بعده ولده وسلك طريقة ملوك المسلمين من الجنائب والحجاب والجاندارية وغير ذلك، وأسكن في الجزيرة الفرنج مع المسلمين، وأكرم المسلمين ومنع من التعدي عليهم وقربهم.

وصول السلطان ملكشاه إلى بغداد في هذه السنة في رمضان، وصل السلطان ملكشاه إلى بغداد، ووصل إليه أخوه تنش من دمشق، وأقسنقر من حلب، ووصل إليه غيرهما من زعماء الأطراف وعمل الميلاد ببغداد، واحتفل له الناس احتفالاً عظيماً، وأكثر الشعراء من وصف تلك الليلة. وفي هذه السنة أمر ملكشاه بعمل الجامع المعروف بجامع السلطان ببغداد، وعمل قبلته بهرام منجمه .

"وجماعة من أصحاب الرصد، وابتدأ أمراء السلطان الكبار بعمل مساكن لهم ببغداد، بحيث إذا قدموا إلى بغداد ينزلون فيها. فتفرق شملهم بالموت والقتل بعد ذلك عن قريب. وفيها توفي الأمير أرتق ابن أكسك التركماني، جد الملوك أصحاب ماردين، مالكاً للقدس منذ قدم إلى تنش حسبما تقدم ذكره، ولما توفي أرتق استقرت القدس لولديه إيلغازي وسقمان ابني أرتق، إلى أن سار الأفضل أمير الجيوش من مصر، وأخذ القدس منهما فسار إيلغازي وسقمان إلى الشرق، فكان منهما ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وأربعمائة: استيلاء تنش على حمص وغيرها كان السلطان ملكشاه قد أمر أقسنقر بمساعدة أخيه تنش على ملك الشام، وما بأيدي خليفة مصر العلوي، من البلاد، فسار أقسنقر مع تنش، ونزل على حمص، بها صاحبها خلف بن ملاعب، فملك تنش حمص، وأمسك ابن ملاعب وولديه، ثم سار تنش إلى عزقة فملكها ثم سار إلى أفامية فملكها."

"ثم دخلت سنة ست وثمانين وأربعمائة فيها خرج من أصفهان الحسن بن نظام الملك إلى بركيارق، وهو محاصر لأصفهان، فأكرمه وولاه وزارته، ولقبه عز الملك. وفيها تحرك تنش من دمشق لطلب السلطنة بعد موت أخيه ملكشاه، واتفق معه أقسنقر صاحب حلب، وخطب له باغي سيان صاحب أنطاكية، وبزان صاحب الرها وسار تنش ومعه أقسنقر فافتتح نصيبين عنوة، ثم قصد الموصل، وكنا ذكرنا في سنة سبع وسبعين وأربعمائة أنه لما قتل شرف الدولة، مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب وغيرهما، استولى على الموصل إبراهيم بن قريش أخو مسلم، ثم إن ملكشاه قبض على إبراهيم سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، وأخذ منه الموصل، وبقي إبراهيم معه حتى مات ملكشاه، فأطلق إبراهيم وسار إلى الموصل وملكها، فلما قصد تنش في هذه السنة الموصل، خرج إبراهيم لقتاله، والتقوا بالمضيع من أعمال الموصل، وجرى بينهم قتال شديد، انهزمت فيه المواصلة، وأخذ إبراهيم بن قريش أسيراً وجماعة من أمراء العرب، فقتلوا صبرا، وملك تنش الموصل، واستناب تنش على الموصل علي بن مسلم بن قريش، وأمه ضيفة عمة تنش، وأرسل تنش إلى بغداد يطلب الخطبة فتوقفوا فيها، ثم سار تنش واستولى على ديار بكر، وسار إلى أذربيجان وكان قد استولى بركيارق على كثير منها، فسار بركيارق إلى عمه تنش ليمنعه، فقال أقسنقر: نحن إنما أطعنا تنش لعدم قيام أحد من

أولاد السلطان ملكشاه، أما إذا كان بركيارق ابن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره، وخلى أقسنقر تنش ولحق ببركيارق، فضعف تنش لذلك وعاد إلى الشام.

"وفاة المقتدي بأمر الله في هذه السنة توفي الخليفة المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن محمد ذخيرة الدين بن القائم، مات فجأة يوم السبت خامس عشر المحرم، وكان عمر المقتدي ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وأياماً، وخلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وأمه أم ولد أرمنية تسمى أرجوان أدركت خلافته، وخلافة ابنه المستظهر بالله وخلافة ابن ابنه المسترشد بالله، وكان المقتدي قوي النفس عظيم الهمة.

[خلافة المستظهر بالله]

وهو ثامن عشرينهم، لما توفي المقتدي كان بركيارق قد قدم إلى بغداد، فأخذت البيعة عليه للمستظهر بالله أبي العباس أحمد وبايعه الناس، وكان عمر المستظهر لما بويع بالخلافة ست عشرة سنة وشهرين، قتل أقسنقر والخطبة لتنش ببغداد

لما عاد تنش من أذربيجان إلى الشام، أخذ في جمع العساكر، وكثرت جموعه، وجمع أقسنقر العسكر بحلب، وأمده بركيارق بالأمير كربغا، فاجتمع كربغا مع أقسنقر، والتقوا مع تنش عند نهر سبعين، قريباً من تل سلطان، وبينه وبين حلب ستة فراسخ، واقتتلوا نخامر بعض عسكر أقسنقر وصار مع تنش وانهزم الباقون، وثبت أقسنقر فأخذ أسيراً وأحضر إلى تنش، فقال تنش لأقسنقر: لو ظفرت أبي ما كنت صنعت؟ قال: كنت أقتلك. قال تمق: فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي به فقتل أقسنقر صبراً. وسار تنش إلى حلب فملكها المؤمنين أاسربوازار "وقتله، وأسر كربغا وأرسله إلى حمص فسجنه بها، ثم استولى تنش على حران والرها، ثم سار تنش إلى بلاد الجزرية فملكها، ثم ملك ديار بكر خلاط، وسار إلى أذربيجان فملك بلادها. ثم سار إلى همذان فملكها، وأرسل يطلب الخطبة ببغداد من المستظهر بالله فأجيب إلى ذلك، ولما بلغ بركيارق استيلاء عمه تنش على أذربيجان سار إلى أربل ومنها إلى بلد شرحاب الكردي ابن بدر، إلى أن قرب من عسكر عمه تنش، ولم يكن مع بركيارق غير ألف رجل، وكان مع عمه خمسون ألف رجل، فسارت فرقة من معسكر تنش فكبسوا

بركيارق، فهرب إلى أصفهان، وكانت تركان خاتون قد ماتت، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، فدخل بركيارق أصفهان وبها أخوه محمود، فلما دخل بركيارق أصفهان احتاط عليه جماعة من كبراء عسكر أخيه محمود وأرادوا أن يسملوا بركيارق، فلحق محموداً جدري قوى، فتوقفوا في أمر بركيارق لينظروا ما يكون من محمود، فمات محمود من ذلك في سلخ شوال من هذه السنة، فكان هذا فرحاً بعد شدة لبركيارق، وكان مولد محمود سنة ثمانين وأربعمائة في صفر. ثم إن بركيارق جدر بعد محمود وعوفي فاجتمعت عليه العساكر، وكان منه ومن تنش ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

"[خلافة المسترشد]

وهو تاسع عشرينهم، ولما توفي المستظهر بويع ولده المسترشد بالله أبو منصور فضل بن أحمد المستظهر، وأخذ البيعة على الناس للمسترشد. القاضي أبو الحسن الدامغاني.

"ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة.
فيها مات السلطان طغريل ابن السلطان محمد، وكان بعد هزيمته من أخيه مسعود، قد استولى على بلاد الجبل فمات في هذه السنة في المحرم، وقيل إن وفاته كانت في أول سنة ثمان وعشرين، وهو الأصح في ظني، وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة في المحرم أيضاً وكان خيراً عاقلاً، ولما بلغ أخاه مسعوداً خبر وفاته، سار نحو همذان، وأقبلت العساكر جميعاً إليه، واستولى على همذان وطاعته البلاد جميعها."

"الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود

[وأسر الخليفة وقتله:]

في هذه السنة، كانت الحرب بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود، وسببه أن جماعة من عسكر مسعود فارقوه مغاضبين، واتصلوا بالخليفة المسترشد، وهونوا عليه قتال السلطان مسعود، فاغتر بكلامهم وسار من بغداد إلى قتال السلطان مسعود، وسار مسعود إليه واتقعوا عاشر رمضان من هذه السنة، فصار غالب عسكر الخليفة مع مسعود، وانهزم الباقون، وأخذ الخليفة المسترشد أسيراً ونهب عسكره، وأسروا وبقي المسترشد مع مسعود أسيراً، ثم سار به مسعود من همذان إلى مراغة، في شوال، لقتال ابن أخيه داود بن محمود فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه في خيمة منفردة، وكان قد اتفق مسعود مع الخليفة على مال يحمله الخليفة إليه وأن لا يعود يخرج من بغداد، واتفق وصول رسول السلطان سنجر إلى مسعود، فركب مسعود والعساكر لملتقاه، فوثبت الباطنية على المسترشد، وهو في تلك الخيمة فقتلوه ومثلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه، وقتل معه نفر من أصحابه، وكان قتل المسترشد يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة بظاهر مراغة، وكان عمره لما قتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً. وأمه أم ولد، وكان فصيحاً حسن الخط شهماً.

ذكر خلافة الراشد وهو الثلاثون من خلفاء بني العباس

لما قتل المسترشد بالله، بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد فضل بن المستظهر أحمد، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته، ثم بعد قتله جددت له بيعة في يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة، من هذه السنة، وكتب مسعود إلى بغداد بذلك، فحضر بيعته أحد وعشرين رجلاً من أولاد الخلفاء.

ذكر قتل دبيس في هذه السنة قتل السلطان مسعود، دبيس بن صدقة على باب سرداقه، بظاهر مدينة خوى، أمر غلاماً أرمنياً بقتله، فوقف على رأس دبيس وهو ينكث في الأرض بإصبعه، فضرب رقبته وهو لا يشعر، وكان ابنه صدقة بن دبيس بالجيلة، فلما بلغه الخبر، اجتمع عليه عسكر أبيه، وكثر جمعه، وما أكثر ما يتفق قرب موت المتعاديين فإن دبيساً كان يعادي المسترشد بالله، فاتفق قتل أحدهما عقيب قتل الآخر.

"ذكر خلع الراشد وخلافة المقتفي

[وهو حادي ثلاثينهم]

كان الراشد قد اتفق مع بعض ملوك الأطراف، مثل عماد الدين زنكي وغيره، على خلاف السلطان مسعود، وطاعة داود بن السلطان محمود، فلما بلغ مسعوداً ذلك، جمع العساكر وسار إلى بغداد، ونزل عليها وحصرها، ووقع في بغداد النهب من العيارين والمفسدين، ودام مسعود محاصرها نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم، فارتحل إلى النهروان.

ثم وصل طرنطي صاحب واسط بسفن كثيرة فعاد مسعود إلى بغداد وعبر إلى غربي دجلة، واختلفت كلمة عساكر بغداد، فعاد الملك داود إلى بلاده أذربيجان في ذي القعدة، وسار الخليفة الراشد من بغداد مع عماد الدين زنكي إلى الموصل، ولما سمع مسعود بمسير الخليفة وزنكي، سار إلى بغداد واستقر بها في منتصف ذي القعدة، وجمع مسعود القضاة وكبراء بغداد، وأجمعوا على خلع الراشد، بسبب أنه كان قد عاهد مسعود على أنه لا يقاتله، ومتى خالف ذلك فقد خلع نفسه، وبسبب أمور ارتكبها، فخلع وحكم بفسقه وخلعه.

وكانت مدة خلافة الراشد أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً، تم استشار السلطان مسعود فيمن يقيمه في الخلافة، فوقع الاتفاق على محمد بن المستظهر فأحضر وأجلس في الميمنة، ودخل إليه السلطان مسعود وتحالفا، ثم خرج السلطان وأحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه، ولقبوه المقتفي لأمر الله، والمقتفي عم الراشد المذكور، وهو والمسترشد أبناء المستظهر، وليا الخلافة، وكذلك السفاح والمنصور أخوان، وكذلك المهدي والرشيد أخوان، وكذلك الواثق والمتوكل، وأما ثلاثة أخوة ولوا الخلافة، فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، وكذلك المكتفي والمقتدر والقاهر، والمعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر.

وأما أربعة إخوة ولوها، فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان، لا يعرف غيرهم. وعمل محضر بخلع الراشد، وأرسل إلى الموصل، وزاد المتقي في إقطاع عماد الدين زنكي وألقابه، وأرسل المحضر، فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل، وخطب للمقتفي في الموصل في رجب سنة إحدى وثلاثين.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

فيها عزل الحافظ وزيره بهرام النصراني الأرمني، بسبب ما اعتقد من تولية الأرمن على المسلمين وإهانتهم لهم، فأنف من ذلك شخص يسمى رضوان بن الوكحشي، وجمع جمعاً وقصد بهرام، فهرب بهرام إلى الصعيد. ثم عاد وأمسكه الحافظ وحبسه في القصر. ثم إن بهرام المذكور ترهب وأطلقه الحافظ، ولما هرب بهرام، استوزر الحافظ "رضوان المذكور، ولقبه الملك الأفضل، وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك. ثم إنه فسد ما بين رضوان والحافظ، فهرب رضوان وجرى له أمور يطول شرحها، آخرها أن الحافظ قتل رضوان المذكور، ولم يستوزر بعده أحداً، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات.

حصر زنكي حمص ورحيله إلى بارين وفتحها في هذه السنة نزل عماد الدين زنكي حمص، وبها صاحبها معين الدين أتز فلم يظفر بها، فرحل عنها في العشرين من شوال إلى بعرين، وحصر قلعتها، وهي للفرنج، وضيق عليها، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا إلى زنكي ليرحلوه عن بعرين، فلما وصلوا إليه لقيهم وجرى بينهم قتال شديد، فانهزمت الفرنج، ودخل كثير من ملوكهم لما هربوا إلى حصن بعرين، وعاود عماد الدين زنكي حصار الحصن وضيق عليه، وطلب الفرنج الأمان، فقرر عليهم تسليم حصن بعرين وخمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوا إلى ذلك، فأطلقهم وتسلم الحصن وخمسين ألف دينار.

وكان زنكي في مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح المعرة وكفر طاب وأخذهما من الفرنج. وحضر أهل المعرة وطلبوا تسليم أملاكهم التي كان قد أخذها الفرنج، فطلب زنكي منهم كتب أملاكهم،

فذكروا أنها عدمت، فكشف من ديوان حلب عن الخراج، وأفرج عن كل ملك كان عليه الخراج لأصحابه.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

ملك عماد الدين زنكي حمص وغيرها في هذه السنة في المحرم، وصل زنكي حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل، وكان لصاحب دمشق، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه، وسار إلى حمص وحصرها. ثم رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول الروم على حلب، على ما نذكره. ثم عاد إلى منازلة حمص فسلمت إليه المدينة والقلعة.

وأرسل عماد الدين زنكي وخطب أم شهاب الدين محمود، صاحب دمشق، وتوجها واسمها مردخاتون بنت جاولي، وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل بن توري، وهي التي بنت المدرسة المطلة على وادي الشقرا بظاهر دمشق، وحملت الخاتون إلى عماد الدين في رمضان، وإنما تزوجها طمعاً على الاستيلاء على دمشق، لما رأى من تحكمها، فلما خاب ما أمله ولم يحصل على شيء، أعرض عنها.

وصول ملك الروم إلى الشام وما فعله كان قد خرج ملك الروم متجهزاً من بلاده في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فاشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج، فلما دخلت هذه السنة، وصل إلى الشام وسار إلى بزاعة وهي على ستة فراسخ من حلب، وحاصرها وملكها بالأمان في الخامس "والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها وأسر وسبى، وتنصر قاضيها، وقدر أربعمائة نفس من أهلها، وأقام على بزاعة بعد أخذها عشرة أيام، ثم رحل عنها بمن معه من الفرنج إلى حلب، ونزل على قويق، وزحف على حلب، وجرى بين أهلها وبينهم قتال كثير، فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم، فعادوا خاسرين، وأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى الأثارب وملكوها، وتركوا فيها سبايا بزاعة وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم.

وسار ملك الروم بجموعة من الأثارب نحو شيزر، فخرج الأمير أسوار نائب زنكي بحلب بمن عنده، وأوقع بمن في الأثارب من الروم فقتلهم واستفكت أسرى بزاعة وسباياها، وسار ملك الروم بجموعه إلى شيزر وحصرها، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحب شيزر أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ الكناني إلى زنكي يستنجده، فسار زنكي ونزل على العاصي بين حماة وشيزر، وكان يركب عماد الدين زنكي وعسكره كل يوم، ويشرفون على الروم وهم محاصرون لشيزر، بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فيأخذون كل ما يظفرون به منهم، وأقام ملك الروم محاصراً شيزر أربعة وعشرون يوماً، ثم رحل عنها من غير أن ينال منها غرضاً، وسار زنكي في أثر الروم، فظفر بكثير ممن تخلف منهم.

"ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه في هذه السنة في المحرم، شار سنجر بجموعه إلى خوارزم شاه أطسز بن محمد بن أنوش تكين، وقد تقدم ذكر ابتداء أمر محمد بن أنوش تكين في سنة تسعين وأربعمائة. ووصل سنجر إلى خوارزم، وخرج خوارزم شاه لقتاله، واقتتلوا، فانهزم أطسز خوارزم شاه، واستولى سنجر على خوارزم وأقام بها من يحفظها، وعاد إلى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة، وبعد أن عاد سنجر إلى بلاده، عاد أطسز إلى خوارزم واستولى عليها.

قتل محمود صاحب دمشق في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن توري بن طغتكين صاحب دمشق، قتله غيلة على فراشه ثلاثة من خواص غلمانه وأقرب الناس منه، كانوا ينامون عنده، فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا فنجا أحدهم وأخذ الاثنان وصلبا، واستدعى معين الدين أتز أخاه جمال الدين محمد بن توري، وكان صاحب بعلبك فحضر إلى دمشق وملكها.

ذكر ملك زنكي بعلبك في هذه السنة في ذي القعدة، سار عماد الدين زنكي إلى بعلبك، ووصل إليها في العشرين من ذي الحجة وحصرها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً فطلب أهلها الأمان فأمنهم، وسلموا إليه المدينة، واستمر الحصار على القلعة حتى طلبوا الأمان أيضاً فأمنهم وسلموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها وملكها، غدر بهم وأمر بهم فصلبوا عن آخرهم، فاستقبح الناس ذلك واستعظموه،

وحذره الناس، وكانت بعلبك لمعين الدين أتز، أعطاه إياها جمال الدين محمد لما ملك دمشق، وكان أتز قد تزوج بأم جمال الدين محمد صاحب دمشق، وكان له جارية يحبها، فأخرجها أتز إلى بعلبك. فلما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية المذكورة "وتزوجها في حلب، وبقيت مع زنكي حتى قتل على قلعة جعبر، فأرسلها ابنه نور الدين محمود بن زنكي إلى أتز وهي كانت أعظم الأسباب في المودة بين نور الدين وأتز.

ذكر غير ذلك في هذه السنة توالت الزلازل بالشام، وخربت كثيراً من البلاد لا سيما حلب. فإن أهلها فارقوا بيوتهم، وخرجوا إلى الصحراء. ودامت من رابع صفر إلى تاسع عشر.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.
في هذه السنة سار عماد الدين زنكي إلى دمشق وحصرها، وزحف عليها، وبذل لصاحبها جمال الدين محمد بعلبك وحمص، فلم يأمنوا إليه بسبب غدره بأهل بعلبك، وكان نزوله على داريا في ثالث عشر ربيع الأول، واستمر منازلاً لدمشق، فمرض في تلك المدة جمال الدين محمد بن توري صاحب دمشق ومات، في ثامن شعبان.

فطمع زنكي حينئذ في ملك دمشق وزحف إليها واشتد القتال فلم ينل غرضاً. ولما مات جمال الدين محمد، أقام معين الدين أتز في الملك، ولده مجير الدين أتق بن محمد بن توري بن طغتكين، واستمر أتز يدبر الدولة، فلم يظهر لموت جمال الدين محمد أثر. ثم رحل زنكي ونزل بعذرا من المرج في سادس شوال وأحرق عدة من قرى المرج ورحل عائداً إلى بلاده.

"ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة في هذه السنة فتح عماد الدين زنكي الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية وعشرين يوماً. ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات، وأما البيرة فنزل علها وحاصرها، ثم رحل عنها بسبب قتل نائبه بالموصل وهو نصير الدين جقر. وسبب قتله: أنه كان عند زنكي، ألب أرسلان ابن السلطان محمود بن محمد السنجوقي، وكان زنكي يقول: إن البلاد التي بيدي إنما هي لهذا الملك. ألب أرسلان المذكور، وأنا أتابكه، ولهذا أسمى

أتابك زنكي، وكان ألب أرسلان المذكور بالموصل، وجقر يقوم بوظائف خدمته، فحسن بعض المناحيس لألب أرسلان المذكور قتل جقر وأخذ البلاد من عماد الدين زنكي، فلما دخل جقر إلى ألب أرسلان على عادته، وثب عليه من عند ألب أرسلان فقتلوه، فاجتمعت كبراء دولة زنكي وأمسكوا ألب أرسلان ولم يطعه أحد. ولما بلغ زنكي ذلك وهو محاصر للبيرة، عظم عليه قتل جقر، وخشي من الفتن، فرحل عن البيرة لذلك.

وخشي الفرنج الذين بها من معاودة الحصار، وعلموا بضعفهم عن عماد الدين فراسلوا نجم الدين صاحب ماردين وسلموا البيرة إليه وصارت للمسلمين.

وفيها خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل إفريقية، وملكوا مدينة برسك، وقتلوا أهلها، وسبوا الحريم.

وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب، وولي بعده أخوه إسحاق ابن علي، وضعف أمر الملثمين وقوي عبد المؤمن، وقد تقدم ذكر ذلك في سنة أربع عشرة وخمسمائة.

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة. فيها هرب علي بن دبيس بن صدقة من السلطان مسعود، وكان قد أراد حبسه في قلعة تكريت، فهرب إلى الحلة واستولى عليهما، وكثر جمعه وقويت شوكته.

وفيها اعتقل الخليفة المقتفي أخاه أبا طالب، وضيق عليه، وكذلك احتاط على غيره من أقاربه.

وفيها ملك الفرنج شنترين وتاجر وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس.

وفيهما توفي مجاهد الدين بهروز، وحكم في العراق نيفاً وثلاثين سنة وكان بهروز خصياً أبيض.

وفيها توفي الشيخ أبو منصور، مرهوب بن أحمد الجواليقي اللغوي ومولده في ذي الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة، أخذ اللغة عن أبي زكريا التبريزي، وكان يؤم بالخليفة المقتفي، وكان طويل الصمت كثير التحقيق، لا يقول الشيء إلا بعد فكر كثير. وكان يقول إذا سئل لا أدري، وأخذ العلم عنه جماعة منهم تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ومحب الدين أبو البقا، وعبد الوهاب بن سكينه.

"ثم في دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة في هذه السنة ثارت أهل بلاد إفريقية على من بها من الفرنج، فقتلوهم، وسار عسكر عبد المؤمن فملك بونة، وخرجت جميع إفريقية عن حكم الفرنج، ما عدا المهدية وسوسة.

وفيها قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، على الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وكان سليمان المذكور قد قدم إلى بغداد، وخطب له بالسلطنة في هذه السنة، وخلع عليه الخليفة المقتفي، وقلده السلطنة على عادتهم، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فانهزم سليمان شاه، وسار يريد بغداد على شهرزور، فخرج إليه علي كوجك بعسكر الموصل، فأسره وحبسه بقلعة الموصل، مكرماً، إلى أن كان منه ما نذكره في سنة خمس وخمسين.
"وفاة المقتفي لأمر الله في هذه السنة ثاني ربيع الأرل، توفي الخليفة المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر أبي العباس أحمد، بعلة التراقي، وكان مولده ثاني ربيع الآخر، سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة، وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، وكان حسن السيرة، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد، حتى كان لا يفوته منها شيء.

[خلافة المستنجد]
وهو ثاني ثلاثينهم ولما توفي المقتفي لأمر الله محمد، بويع ابنه يوسف، ولقب المستنجد بالله، وأم المستنجد أم ولد تدعى طاووس، ولما بويع المستنجد بالخلافة، بايعه أهله وأقاربه، فمنهم عمه أبو

طالب، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي، وكان أكبر من المستنجد، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة، وقاضي القضاة وغيرهم.

"ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر

[وقتل شاور]

ثم ملك صلاح الدين، وهو ابتداء الدولة الأيوبية. في هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، في ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى دار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الفرنج من البلاد المصرية، وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهراً في مستهل صفر من هذه السنة، ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم ساروا من بلبيس، ونزلوا على القاهرة، عاشر صفر وحاصروها، فأحرق شاور مدينة مصر، خوفاً من أن يملكها الفرنج، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به، وأرسل في الكتب شعور النساء، وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار، يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة، ليقدر على جمع المال وحمله، فرحلوا، فجهز نور الدين العسكر مع شيركوه، وأنفق فيهم المال، وأعطى شيركوه مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأرسل معه عدة أمراء، منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب الملك من بيته، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه " وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم " البقرة ٢١٦، ولما قارب شيركوه مصر رحل الفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم، فكان هذا لمصر فتحاً جديداً، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة، في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد، وخلع عليه، وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وأجرى عليه، وعلى عسكره الإقامات الوافرة، وشرع شاور يماطل شيركوه، فيما بذله لنور الدين من تقرير المال، وإفراد ثلث البلاد له، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه، ويعده ويمنيه " وما يعدهم الشيطان إلا غروراً " النساء ١٢٥، ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه، ويقبض عليهم، فمنعه ابنه الكامل ابن شاور من ذلك، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك، عزموا على الفتك بشاور،

واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف، وعز الدين جرديك، وغيرهما. وعرفوا شيركوه بذلك، فنهاهم عنه واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي، فلقي صلاح الدين وجرديق "شاور، وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعي، فساروا جميعاً إلى شيركوه، فوثب صلاح الدين وجرديك ومن معهما على شاور، وألقوه إلى الأرض عن فرسه، وأمسكوه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة، أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، فهرب أصحابه عنه، وأرسلوا أعلموا شيركوه بما فعلوه، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك.

وسمع العاضد الخبر، فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور، فقتله وأرسل رأسه إلى العاضد، دخل بعد ذلك شيركوه إلى القصر عند العاضد، فخلع عليه العاضد خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور، أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي، أوله بعد البسملة: من عبد الله ووليه أبي محمد، الإمام العاضد لدين الله، أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته. سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، والأئمة المهديين، سلم تسليماً. ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه، ووصايا أضربنا عنها للاختصار، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور، هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، نخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار، بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبرة.

"وأما الكامل بن شاور، فلما قتل أبوه دخل القصر، فكان آخر العهد به، ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع، أتاه أجله " حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة " الأنعام: ١٤٤، وتوفي يوم "السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، سنة أربع وستين وخمسمائة. فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وكان شيركوه وأيوب ابني شاذي من بلد دوين، قال ابن الأثير: وأصلهما من الأكراد الروادية، فقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد، وكان أيوب أكبر من شيركوه، فجعله بهروز مستحفظاً لقلعة تكريت، ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة، ومر على تكريت،

خدمه أيوب وشيركوه، ثم، إن شيركوه قتل إنساناً بتكريت، فأخرجهما بهروز من تكريت، فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي، فأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جليلة، ولما ملك عماد الدين زنكي قلعة بعلبك، جعل أيوب مستحفظاً لها، ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي، سلمها أيوب إليهم، على إقطاع كبير شرطوه له، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة، لما رأى من شجاعته، وزاده عليهما، وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الدين ملك دمشق، أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب، فساعد أيوب نور الدين على ملك دمشق، وبقيا مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي فيها في هذه السنة، على ما ذكرناه ولما توفي شيركوه، كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ابن شاذي، وكان قد سار معه على كره قال صلاح الدين: أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه، وكان قد قال شيركوه بحضرته لي: تجهز يا يوسف للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فأمرني نور الدين وأنا أستقيل. فقال نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك. فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنما أنساق إلى الموت، فلما مات شيركوه، طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر، وولاية الوزارة العاضدية، منهم عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، فأرسل العاضد، أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، فلم تطعه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الدين، الفقيه عيسى الهكاري، فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن أختك، وعزة وملكه لك، فمال إليه أيضاً، ثم فعل بالباقين كذلك، فكلهم أطاع، غير عين الدولة الياروقي، فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام.

وثبت قدم صلاح الدين، على أنه نائب لنور الدين، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب، تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب، بل إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية، يفعلون كذا وكذا، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور "الدين، أباه أيوب وأهله، فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح

الدين الإقطاعات بمصر، وتمكن من البلاد، وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين، تاب عن شرب الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى.

"ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة.

فيها سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها، وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة، فحصروها خمسين يوماً، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام، فرحلوا عائدين على أعقابهم، ولم يظفروا "بشيء منها. قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مدة مقام الفرنج على دمياط، ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها.

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مدة، ثم رحل عنه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام، فقام نور الدين في عمارة الأسواق، وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الفرنج، فخافوا من نور الدين، واشتغل كل منهم عن قصد الآخر، بعمارة ما خرب من بلاده.

وفيها في ذي الحجة، مات قطب الدين مودود بن زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود، إلى أخيه الذي هو أصغر منه، وهو سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصراً به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعين سنة تقريباً، وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً. وكان من أحسن الملوك سيرة.

"وفاة المستنجد

خلافة المستضيء

[وهو ثالث ثلاثينهم:]

في هذه السنة، تاسع ربيع الآخر، توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكان أسمر تام القامة، طويل اللحية، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه، وكان قد خاف منه أستاذ داره عضد الدين أبو الفرج، ابن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قيماز المقتنوي، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد، فاتفقا ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يهلكه، فوصف له دخول الحمام، فامتنع منه لضعفه، ثم أنه دخلها وغلق عليه الباب فصات، ولما مات المستنجد، أحضر عضد الدين وقطب الدين المستضيء بأمر الله ابن المستنجد، واشترطا عليه شروطاً، أن يكون عضد الدين وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ داره، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك. واسم المستضيء الحسن، وكنيته أبو محمد، ولم يل الخلافة من اسمه حسن، غير الحسن بن علي المستضيء، فبايعوه بالخلافة يوم مات أبوه بيعة خاصة، وفي غده بيعة عامة، وكان المستنجد حسن السيرة، أطلق كثيراً من المكوس، وكان شديداً على أهل العبث والفساد."

"ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة.

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر، وانقراض الدولة العلوية

في هذه السنة، ثاني جمعة من المحرم، قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله ابن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم محمد، ولم يل الخلافة ابن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله، أبي الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور ابن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله أبي محمد عبيد الله، أول الخلفاء العلويين من هذا البيت، وقد مر ذكرنسبه في ابتداء دولتهم. وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر، وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي، وكان خصياً أبيض، وبلغ نور الدين ذلك،

أرسل إلى صلاح الدين يأمره حتماً جزماً بقطع الخطبة العلوية، لا إقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه، وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء "ويقطعوا خطبة العاضد، فامتثلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، فتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته، ولما توفي العاضد، جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكان كثرته تخرج عن الإحصاء، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق المثمنة، والكتب والتحف، فمن ذلك، الحبل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً. قال ابن الأثير مؤلف الكامل: أنا رأيته، ووزنته، ومما حكي: أنه كان بالقصر طبل للقولنج، إذا ضرب الإنسان به ضرط، فكسر، ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة، فباع البعض، وعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه، كأن لم يغن بالأمس.

ولما اشتد مرض العاضد، أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم لتخلفه عنه، وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربع عشرة خليفة، المهدي، والقائم، المنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد. وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة، سنة ست وتسعين ومائتين، إلى أن توفي العاضد في هذه السنة، أعني سنة سبع وستين وخمسمائة، مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريباً، وهذا دأب الدنيا، لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر.

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد، ضربت لها البشائر عدة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم المقتفوية، إلى نور الدين، وصلاح الدين، والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد المذكور، قد رأى في منامه: أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر، معروف ذلك المسجد للعاضد، ولدغته، فاستيقظ العاضد مرعوباً، واستدعى من يعبر الرؤيا، وقص ما رآه عليه، فعبره له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد، فتقدم العاضد إلى والي مصر،

بإحضار من بذلك المسجد، فأحضر إليه شخصاً صوفياً يقال له نجم الدين الخويشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه، وسبب مقامه بالمسجد المذكور، فأخبره بالصحيح في ذلك، فرآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه، فوصله بمال وقال له: ادع لنا يا شيخ، وأمره بالإنصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية، والقبض عليهم، استفتى في ذلك، فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخويشاني المذكور من جملتهم، فبالغ في الفتيا، وصرح في خطه بتعديد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال الكلام في ذلك، فصح بذلك رؤيا العاضد."

"ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر في أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز، جمع كثير، أظهر الخلاف على صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إليه عسكراً، فاقتتلوا، وقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون. ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها في هذه السنة سلخ ربيع الأول، ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق، وحمص، وحماة، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب، أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين، من دمشق إلى حلب، ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين، قبض على شمس الدين ابن الداية وإخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وإخوته، وهو رئيس حلب، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدم، وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر، واستدعوه ليملكوه عليهم، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ولم يلبث، ووصل إلى دمشق، فخرج كل من كان بها من العسكر، والتقوه وخدموه، ونزل بدار والده أيوب، المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان، فراسله صلاح الدين واستماله، فسلم القلعة إليه، فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال، ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب. وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة، في إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فلما مات نور الدين، لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماه، لسوء سيرته مع الناس، وكانت هذه

البلاد له بغير قلاعها، فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين، وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الأبارين، فإن قلعتها كانت له أيضاً، ونزل صلاح الدين على حمص، في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة، وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماة، فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك، أحد المماليك النورية، فامتنع في القلعة، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح إسماعيل، إنما هو نائبه، وقصده من جرديك المسير إلى حلب، في رسالة، فاستحلفه جرديك على ذلك، "وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين، واستخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب، قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك، سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها، وبها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين، وصدوه عن حلب، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالاً عظيمة، ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة، فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، ووصل صلاح الدين إلى حماة ثامن رجب، وسار إلى حمص، فرحل الفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحصر قلعتها، وملكها في الحادي والعشرين من شعبان، من هذه السنة. ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد، أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي، صاحب الموصل، يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه، وهو عز الدين محمود، ولقبه سلقندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، ليسير في النجدة أيضاً فامتنع، مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلقندار إلى حلب، وانضم إليهم عسكر حلب، وساروا إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين ببذل حمص وحماة، وأن تقر بيده دمشق، وأن يكون فيها نائباً للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك، وساروا إلى قتاله، واقتتلوا عند قرون حماة، فانهزم عسكر الموصل وحلب، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح، على أن يكون له ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منه، فصالحهم على ذلك

ورحل عن حلب، في العشر الأول من شوال من هذه السنة، أعني سنة سبعين وخمسمائة وفي العشر الأخير من شوال من هذه السنة، ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين، وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان فخر الدين المذكور، من أكابر الأمراء النورية."

"ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة: ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين في هذه السنة عاشر شوال، كان المصاف بين السلطان صلاح الدين، وبين سيف الدين غازي ابن مودود بن زنكي بتل السلطان، فهرب سيف الدين غازي والعساكر التي كانت معه، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، وغيرهما، وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة، حتى وصل الموصل مرعوباً وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع، فثبته وزيره، وأقام بالموصل. واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم، وغنم ما فيها، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى بزاعة، فحصرها وتسلمها.

ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال، وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان شديد البغض لصلاح الدين، وفتحها عنوة، وأسر ينال، وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه، فسار ينال إلى الموصل، فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى إعزاز، ونازلها ثالث ذي القعدة، وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب إسماعيلي على صلاح الدين في حصاره إعزاز، فضربه بسكين في رأسه فجرحه، فأمسك صلاح الدين يدي الإسماعيلي، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر، حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتل أيضاً، وجاء السلطان إلى خيمته مذعوراً، وأعرض جنده، وأبعد من أنكره منهم. ولما ملك السلطان إعزاز رحل عنها، ونازل حلب في منتصف ذي الحجة، وحصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب، فسألوا صلاح الدين في الصلح، فأجابهم إليه، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين محمود، فأكرمها السلطان صلاح الدين، وأعطاها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ فقالت: أريد قلعة

إعزاز، وكانوا قد علموها ذلك، فسلمها إليهم، واستقر الصلح، ورحل السلطان صلاح الدين عن حلب، في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

"ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فيها قصد السلطان صلاح الدين، بلد الإسماعيلية، في المحرم، فنهب بلدهم وخربه وأحرقه، وحصر قلعة مصياف، فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى خال صلاح الدين، وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة، يسأله أن يسعى في الصلح، فسأل الحارمي الصفح عنهم، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره، ووصل إلى مصر فإنه كان قد بعد عهده بها، بعد أن استقر له ملك الشمام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة، أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة، التي على جبل المقطم، ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع، وثلاث مائة ذراع، بالذراع الهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين. وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على الشافعي بالقرافة بمصر، وعمل بالقاهرة مرستان.

وفيها توفي القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، قاضي دمشق، وجميع الشام.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة في هذه السنة في جمادى الأولى، سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام، لغزو الفرنج، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر، فنهب، وتفرق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر، فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه، فقاتلهم أشد قتال، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب، أول ما قد تكاملت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الفرنج، فحمل عليهم، وقاتلهم، فأثر فيهم أثراً كبيراً، وعاد سالماً، فأمره أبوه بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيداً، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج السلطان، فمضى منهزماً إلى مصر على البرية، ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الإغارات أسرى، وأسر الفقيه عيسى، وكان من أكبر أصحاب السلطان

صلاح الدين، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين، بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة"

"ذكر وفاة المستضيء

خلافة الإمام الناصر

[وهو رابع ثلاثينهم:]

في هذه السنة ثاني ذي القعدة، توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد، وأمه أم ولد أرمنية، وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر. وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة، وكان قد حكم في دولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر، المعروف بابن العطار، بعد قتل عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء، قام ظهير الدين بن العطار، وأخذ البيعة لولده، الإمام الناصر لدين الله، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر، حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل، فقبض في سابع ذي القعدة على ظهير الدين بن العطار، ونقل إلى التاج، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال، ليلة الأربعاء، ثاني عشر ذي القعدة، فثارت به العامة، والقوه عن رأس الحمال، وشدوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمس تلك المغرفة في العذرة، ويقولون وقع لنا يا مولانا، هذا فعلهم به، مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفي هذه السنة في ذي القعدة، نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك، وطلب عوضها الإسكندرية، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار إليها فرخشاه، وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية، وأقام بها إلى ن مات بها.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة.

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

في هذه السنة ثالث صفر، توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، والديار الجزرية، وكان مرضه السل، وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة شهر، وكان حسن الصورة مليح الشباب، تام القامة أبيض اللون، عاقلاً عادلاً، عفيفاً شديد الغيرة، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفاً عن أموال الرعية، مع شح كان فيه، وحين حضره الموت، أوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجرشاه بن غازي، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدير الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز.

وفي هذه السنة، سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، ووصل إلى رعبان، ثم اصطلحوا. فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني، وشن فيها الغارات، فصالحه ابن ليون على مال حمله، وأسرى أطلقهم.

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب، أخو "صلاح الدين الأكبر، بالإسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن، ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن، ودخل الإسكندرية، ومع هذا، فلما مات، كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصرية، ديناً عليه، فوفّاها أخوه صلاح الدين عنه، لما وصل إلى مصر، ووصل السلطان صلاح الدين إلى مصر في هذه السنة، في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة في هذه السنة، عزم البرنس صاحب الكرك، على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه، نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق، فجمع وقصد بلاد الكرك، وأغار عليها وأقام في

مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه، وانقطع عزمه عن الحركة. وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف، فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن، فجهز إليه عسكراً مع جماعة من أمرائه، فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه، وكان نواب توران شاه على عدن، عز الدين عثمان بن الزنجيلي، وعلى زبيد، حطان بن كامل بن منقذ الكناني، من بيت صاحب شيزر."

"ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة في هذه السنة بعد دخول صفر رحل السلطان صلاح الدين عن الخروبة، وعاد إلى قتال الفرنج على عكا، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة، طول البرج ستون ذراعاً، جاؤوا بخشبها من جزائر البحر، وعملوها طبقات، وشحنوها بالسلاح والمقاتلة، ولبسوها جلود البقر، والطين بالخل، لئلا يعمل فيها النار، فتحايل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة، ووصل إلى السلطان العساكر من البلاد، وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واهتم المسلمون لذلك، وآيسوا من الشام بالكلية، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، وطائفة خامرت ابن الملك المذكور فرجعوا أيضاً ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الفرنج الذين على عكا غير تقدير ألف مقاتل، وكفى الله المسلمين شرهم، وبقي السلطان والفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة، فخرجت الفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل، وأزالوا الملك العادل عن موضعه، وكان معه عسكر مصر، فعطفت عليه المسلمون وقتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً، فعادوا إلى خنادقهم، وحصل للسلطان مغص فانقطع في خيمة صغيرة، ولولا ذلك لكانت الفيصلة، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له.

"ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

ذكر استيلاء الفرنج على عكا:

واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليهم خندقاً، فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا، وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان، واشتد حصارهم لعكا وطال وضعف من بها عن حفظ البلد، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من عكا، وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج، فأجابوهم إلى ذلك، وصعدت أعلام الفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، واستولوا على البلد بما فيه، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصليوت، وكتبوا إلى السلطان صلاح الدين بذلك، فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم إطلاق المسلمين، فلم يجيبوا إلى ذلك، فعلم منهم الغدر، واستمر أسرى المسلمين بها.

ثم قتل الفرنج من المسلمين جماعة كثيرة واستمروا بالباقين في الأسر، وبعد استيلاء الفرنج على عكا وتقرير أمرها، رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية، والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف، أزالوا المسلمين عن موقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين، فقتلوا من السوقية وغيرهم خلقاً كثيراً، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون، فملكوها، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة، لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها، ورتب الحجارين في تفليق أسوارها وتخريبها، فدكها إلى الأرض، فلما فرغ السلطان من تخريب عسقلان رحل عنها ثاني شهر رمضان إلى الرملة، فخرب حصنها وخرب كنيسة لد. "ثم سار إلى القدس وقرر أموره وعاد إلى مخيمه بالنطرون، ثامن شهر رمضان، ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك الإنكتار، ويكون للملك العادل القدس، ولامرأته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة، وبقي في كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات، فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء وحالت الأوحال بينهم، ولما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر، أعطاهم الدستور وسار إلى القدس، لسبع بقين من في القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه، وأمر

العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه، ليقتدي به العسكر فكان يجتمع عند العمالين في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام.

"ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ذكر وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، وشيء عن أخباره دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق، على أكمل ما يكون من المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً، وغاب خمسة عشر يوماً، وصحبة أخوه الملك العادل. ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه الملك العادل وداعاً لا لقاء بعده، فمضى إلى الكرك وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق، وركب في يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج، وكان عادته ألا يركب إلا وهو لابس كزاغند، فركب ذلك اليوم، وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، ولم يلبس الكزاغند، ثم ذكره وهو راكب، فطلب الكزاغند فلم يجده، وقد حملوه معه، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن. ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر إليها، وكانت هذه آخر ركباته، فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم، وغشيه نصف الليل حمى صفراوية، وأخذ المرض في التزايد، وقصده "الأطباء في الرابع، فاشتد مرضه، وحدث به في التاسع رعشة، وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين، فحصل له راحة، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، ثم لحقه عرق كثير حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه، وهي ليلة السابع والعشرين من صفر، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة، بحيث إن احتضر بالليل ذكره الشهادة، وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، أعني في الليلة المستقرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر، بعد صلاة الصبح، من هذه السنة، أعني سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد موته وانتقاله إلى رحمة الله وكرامته، وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من

نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجوا من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفه، وصلى عليه الناس ودفن في قلعة دمشق، في الدار التي كان مريضاً فيها، وكان نزوله إلى جدثه وقت صلاة العصر من النهار المذكور، وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه، وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل على الكتب بوفاة والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب، وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك. ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لرجل صالح، ونقل إليها السلطان يوم عاشورا سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل الجامع ووضع قدام الستر وصلى عليه القاضي محيط الدين بن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع ثلاثة أيام للعزاء، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت، في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولدا ذكراً، وبنتاً واحدة، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر، ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً، وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن، دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولا عقاراً.

"[خلافة الظاهر]

وهو خامس ثلاثينهم، ولما توفي الإمام الناصر بويع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، فأظهر العدل، وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين، وظهر للناس، وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون إلا نادراً، ولم تطل مدته في الخلافة، غير تسعة أشهر.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة فيها سار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق ونازل حمص، وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه، ومع مظفر الدين صاحب إربل، على أن يكونوا يداً واحدة، وكان الملك الأشرف ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة ما مات من خيله وخيل عسكره، وورد عليه أخوه الملك الأشرف طلباً للصلح، وقطعاً للفتن، فبقي مكرماً ظاهراً، وهو في الباطن كالأسير معه، وأقام الملك الأشرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر، وقد تخيل من بعض عسكره، فما أمكنه الخروج عنها"

"ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله وفي رابع عشر رجب من هذه السنة، توفي الخليفة الظاهر بأمر الله محمد ابن الناصر لدين الله، وكان متواضعاً محسناً إلى الرعية جداً، وأبطل عدة مظالم منها: أنه كان بخزانة "الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال، ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس، وكان زيادة الصنجة في كل دينار حبة، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك، وأوله. " ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " المطففين: ١، ٢، ٣. وعمل صنجة المخزن مثل صنجة المسلمين، وكان مضاداً لأبيه الناصر في كثير من أحواله، منها: أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة، ومدة خلافته كانت قصيرة، وكان أبوه متشيعاً، وكان الظاهر سنياً، وكان أبوه ظالماً جماعاً للمال، وكان الظاهر في غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء.

[خلافة المستنصر]

وهو سادس ثلاثينهم، ولما توفي الظاهر، ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجي، في غاية الشجاعة، وبقي حياً حتى أخذت التتر بغداد، وقتل، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك أبيه الظاهر.

"ثم دخلت سنة أربعين وستمائة.

"ذكر وفاة المستنصر بالله وفي هذه السنة توفي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ابن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر أحمد، بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة

سنة إلا شهراً، وكان حسن السيرة، عادلاً في الرعية، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد، المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي، مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافاً جليلة على أنواع البر.

[المستعصم بالله]

ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة، مثل الدوادار، والشرابي، على تقليد الخلافة ولده عبد الله، ولقبوه المستعصم بالله، وهو سابع ثلاثينهم، وآخرهم، وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي، فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد وجمع المال، ومداراة التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة في هذه السنة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم فأرسل واستنجد بالحلبيين، فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي، وجمع العساكر من كل جهة، والتقى مع التتر، فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة، وقتل التتر وأسروا منهم خلقاً كثيراً، وتحكمت التتر وأسروا منهم خلقاً كثيراً، وتحكمت التتر في البلاد، واستولوا أيضاً على خلاط وآمد وبلادهما، وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعاقل، ثم أرسل إلى التترر وطلب الأمان، ودخل في طاعتهم، ثم توفي غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك في سنة، أربع وخمسين وستمائة حسبما نذكره إن شاء الله تعالى. وخلف صغيرين، وهما ركن الدين، وعز الدين، ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية، وبقي ركن الدين في الملك تحت حكم " التتر، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان، والبرواناه لقبه، وهو اسم الحاجب بالعجمي، ثم إن. البرواناه قتل ركن الدين وأقام في الملك ولداً له صغيراً.

"ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة فيها مات كيخسرو ملك بلاد الروم، وأقيم في السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاؤوس وركن الدين قليج أرسلان. وفيها توجه كمال الدين المعروف بابن العديم، رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام، إلى الخليفة المستعصم، وصحبته تقدمة جليلة،

وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه، ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر، شمس الدين سنقر الأقرع، وهو من مماليك المظفر غازي صاحب ميافارقين، إلى بغداد، بتقدمة جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق، فبقي الخليفة متحيراً، ثم إنه أحضر سكيناً من اليسم كبيرة، وقال الخليفة لوزيره: أعط هذه السكين رسول صاحب الشام، علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر، وأما في هذا الوقت فلا يمكني، فأخذ كمال الدين ابن العديم السكين، وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة.

"ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة.

ذكر استيلاء التتر على بغداد

[وانقراض الدولة العباسية:] في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد وملكها، في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي، كان رافضياً، وكان أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد، على جاري عادتهم، فأمر أبو بكر ابن الخليفة، وركن الدين الدوادار، العسكر، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء، وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد، "وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل إقطاعاتهم، وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس، وأرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه، يستدعيهم، فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم، وخرج عسكر الخليفة لقتالهم، ومقدمه ركن الدين الدوادار، والتقوا على مرحلتين من بغداد، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر الخليفة، ودخل بعضهم بغداد، وسار بعضهم إلى جهة الشام، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو، وهو مقدم كبير، في الجانب الغربي، على قرية، قبالة دار الخلافة، وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأنزل في خيمة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون، وكان منهم محي الدين ابن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا، قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر، وعدى باجو ومن معه،

وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا دار الخلافة، وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلا من كان صغيراً، فأخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان. وأما الخليفة فإنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل خنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك. وكان هذا المستعصم، وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبي جعفر، منصور بن محمد الطاهر ابن الإمام الناصر أحمد. وقد تقدم ذكر باقي نسبه عند ذكر وفاة الإمام الناصر. كان ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر، في سنة أربعين وستمائة، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً، وهو آخر الخلفاء العباسيين، وكان ابتداء دولتهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهي السنة التي بويع فيها السفاح بالخلافة، وقتل فيها مروان الحمّار، آخر خلفاء بني أمية، وكانت مدة ملكهم خمس مائة سنة، وأربعاً وعشرين سنة تقريباً، وعدة خلفائهم، سبعة وثلاثون خليفة، حكى القاضي جمال الدين ابن واصل قال: لقد أخبرني من أثق به، أنه وقف على كتاب عتيق، فيه ما صورته أن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، بلغ بعض خلفاء بني أمية عنه، أنه يقول: إن الخلافة تصير إلى ولده، فأمر الأموي بعلي بن عبد الله، فحمل على جمل وطيف به وضرب، وكان يقال عند ضربه: هذا جزاء من يفتري ويقول: إن الخلافة تكون في ولده. فكان علي بن عبد الله المذكور رحمه الله، يقول: أي والله لتكونن الخلافة في ولدي، لا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم، فوقع مصداق ذلك، وهو ورود هولاكو وإزالته ملك بني العباس. * * * *

"[ذكر سلطنة قطز]

وفي أواخر هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، في أوائل ذي الحجة، قبض سيف الدين قطز على ولد أستاذه الملك المنصور، نور الدين علي بن المعز أيبك، وخلعه من السلطنة، وكان علم الدين الغتمي، وسيف الدين بهادر، وهما من كبار المعزية، غائبين في رمي البندق، فانتهز قطز الفرصة في غيبتهما وفعل ذلك، ولما قدم الغتمي وبهادر المذكور، أن قبض عليهما قطز أيضاً، واستقر قطز في ملك الديار: المصرية، وتلقب بالملك المظفر، وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وهو كمال الدين، المعروف بابن العديم، قد قدم إلى مصر في أيام الملك المنصور علي بن أيبك، مستنجداً

على التتر، واتفق خلع علي المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين ابن العديم، ولما استقر قطز في السلطنة، أعاد جواب الملك الناصر يوسف، أنه ينجده، ولا يقعد عن نصرته، وعاد ابن العديم بذلك.

ذكر مولد الملك المظفر محمود بن الملك المنصور صاحب حماة: وفي هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، في الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم، وثاني عشر كانون الثاني، ولد محمود ابن الملك منصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولقبوه الملك المظفر، بلقب جده، وأم الملك المظفر محمود المذكور، عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد، صاحب حلب، ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح المدين يوسف بن أيوب.

"[ذكر قصد هولاكو الشام]

وفي هذه السنة قدم هولاكو إلى البلاد التي شرقي الفرات، ونازل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده سموط بن هولاكو إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان الحاكم في حلب، الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين، نائباً عن "ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم، وخرج الملك المعظم، ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في الباب المعروف بباب الله، وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم، وهرب المسلمون طالبين المدينة، والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها بالأمان.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمائة.

[ذكر ما كان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب]

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب، برز من دمشق إلى برزة في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة، ونزل معه ببرزة، وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري، من حين هرب من الكرك

والتجأ إلى الناصر، فاجتمع عند الملك الناصر عند برزة أمم عظيمة من العساكر، والجفال، ولما دخلت هذه السنة، والملك الناصر ببرزة، بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله، والفتك به، فهرب الملك الناصر من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم، فهربوا على حمية، إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى جهة عزة، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر، وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه، ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازي ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين، لشهامته، ولما جرى ذلك، هرب الملك الظاهر المذكور خوفاً من أخيه الملك الناصر، وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر، أمهما أم ولد تركية، ووصل الملك الظاهر غازي إلى غزة، واجتمع عليه من بها من العسكر، وأقاموه سلطاناً، ولما جرى ذلك، كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز، صاحب مصر، فبذل له الأمان، ووعده الوعود الجميلة، ففارق بيبرس البندقداري الشاميين وسار إلى مصر، في جماعة من أصحابه، فأقبل عليه الملك المظفر قطز وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها.

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه

ومسير الملك الناصر عن دمشق، ووصول عساكره إلى مصر، وانفراد الملك الناصر عنهم: في هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، في يوم الأحد تاسع صفر، كان استيلاء التتر على حلب، وسببه أن هولاكو عبر الفرات بجموعه، ونازل حلب، وأرسل هولاكو إلى الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب، يقول له: إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر، فاجعلوا لنا عندكم بحلب "شحنة، وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام، كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا، كنتم مخيرين في الشحنتين، إن شئتم طردتموهما، وإن شئتم قتلتموهما، فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك وقال: ليس لكم عندنا إلا السيف، وكان رسول هولاكو إليهم في ذلك صاحب أرزن الروم، نتعجب من هذا الجواب، وتألم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك، وأحاط التتر بحلب ثاني صفر، وهجموا النواثر في غد ذلك اليوم، وقتل من المسلمين جماعة كثيرة، وممن قتل أسد الدين ابن الملك الزاهر بن صلاح الدين، واشتدت مضايقة التتر للبلد، وهجموه من عند حمام حمدان في ذيل

قلعة الشريف، في يوم الأحد تاسع صفر، وبذلوا السيف في المسلمين، وصعد إلى القلعة خلق عظيم، ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر المذكور، فأمر هولاكو برفع السيف، ونؤدي بالأمان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين، وداد البازياد، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانكاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود، وذلك لفرمانات كانت بأيديهم، وقيل أنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على خمسين ألف نفس، ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم، ومن التجأ إليها من العسكر، واستمر الحصار عليها، وكان من ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك من أحوال حماة

وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب: كان قد تأخر بحماة الطواشي مرشد، لما سار صاحب حماة إلى دمشق، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب، توجه الطواشي مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق، ووصل كبراء حماة إلى حلب، ومعهم مفاتيح حماة، وحملوها إلى هولاكو، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة، وشحنه يكون عندهم، فأمنهم هولاكو وأرسل إلى حماة شحنة، رجلاً أعجمياً كان يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له خسروشاه، فقدم خسروشاه، إلى حماة وتولاها، وأمن الرعية، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيماز أمير جندار، فسلم القلعة إليه، ودخل في طاعة التتر ولما بلغ الملك الناصر بدمشق، أخذ حلب رحل من دمشق، بمن بقي معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية، وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة، وأقام بنابلس أياماً، ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبي زكري، والأمير علي بن شجاع، ومعهما جماعة من العسكر، ثم سار الملك الناصر إلى غزة فانضم إليه مماليكه الذين كانوا أرادوا قتله، وكذلك اصطلح معه أخوه الملك الظاهر غازي، وانضم إليه.

وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس، وصل التتر إليها وكبسوا العسكر الذين بها، وقتلوا مجير الدين، والأمير "علي بن شجاع، وكانا أميرين جليلين فاضلين، وكان البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك، وأفرج عنهما المغيث. لما وقع الصلح بينه وبين الناصر، ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ما جرى من كبسة التتر لنابلس، رحل من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين أبن الخضر

رسولاً إلى الملك المظفر قطز صاحب مصر، يطلب منه المعاضدة، ثم سار الملك الناصر والملك المنصور صاحب حماة، والعسكر، ووصلوا إلى قطية، فجرى بها فتنة بين التركماني والأكراد الشهرزورية، ووقع نهب في الجفال، وخاف الملك الناصر أن يدخل مصر، فيقبض عليه، فتأخر في قطية، ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة، منهم أخوه الملك الظاهر غازي، والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص، وشهاب الدين القيمري، ثم سار الملك الناصر بمن تأخر معه من قطية إلى جهة تيه بني إسرائيل، ولما وصلت العساكر إلى مصر، التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية، وطيب قلوبهم، وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقاً، والتقاه ملتقاً حسناً وطيب قلبه، ودخل القاهرة، وأما التتر فإنهم استولوا على دمشق، وعلى سائر الشام إلى غزة، واستقرت شحائنهم بهذه البلاد.

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب

والمتجددات بالشام: أما قلعة حلب، فوثب جماعة من أهلها في مدة الحصار على صفي الدين بن طرزة، رئيس حلب، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون، فقتلوهما، لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر، واستمر الحصار على القلعة، واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر، ثم سلمت بالأمان في يوم الاثنين، الحادي عشر من ربيع الأول، من هذه السنة، ولما نزل أهلها بالأمان، وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر، فنهم سكز، وبرامق، وسنقر الأشقر فسلمهم هولاكوهم وباقي الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق، وهو رجل من أكابر القبجاق، هرب من التتر لما غلبت على القبجاق، وقدم إلى حلب، فأحسن إليه الملك الناصر، فلم تطب له تلك البلاد، فعاد إلى التتر، وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمى التي قدمنا ذكرها، وأمر هولاكو أن يمضي كل من سلم إلى داره، وملكه، وأن لا يعارض، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى هولاكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص، موسى بن إبراهيم بن شيركوه، وكان قد انفرد الأشرف المذكور عن المسلمين، لما توجه الملك الناصر إلى جهة مصر، ووصل إلى هولاكو بحلب، فأكرمه هولاكو وأعاد عليه حمص، وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ست وأربعين وستمائة، وعوضه عنها تل باشر على ما تقدم ذكره،

فعادت إليه في هذه السنة، واستقر ملكه بها، وقدم أيضاً إلى هولاكو، وهو نازل إلى حلب، محي الدين ابن الزكي.

"[ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا]

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، على عين جالوت، وكان من حديثها، أنه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر، عزم الملك المظفر قطز، مملوك المعز أيبك، على الخروج إلى الشام لقتال التتر، وسار من مصر بالعساكر الإسلامية، وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة، وأخوه الملك الأفضل علي، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة، ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام، ومقدم التتر، مسير العساكر الإسلامية إليه، صحبة الملك المظفر قطز، جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين، وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا، وتقارب الجمعان في الغرر، والتقوا يوم الجمعة المذكور، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين، وقتل مقدمهم كتبغا،، واستؤسر ابنه، وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال، وتبعتهم المسلمون فأفنوهم، وهرب من سلم منهم إلى الشرق، وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في إثرهم، فتبعتهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية، وكان أيضاً في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص، فنازلهم وطلب الأمان من المظفر قطز، فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص، ومضافاتها، وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة، فإنه أمسك أسيراً وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز، فأمر به، فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق. ولما انقضى أمر المصاف، أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة، وأقره على حماة وبارين، وأعاد إليه المعرة، وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأخذ سلمية معه وأعطاها أمير العرب، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة، حتى دخل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزمره، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم

وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام، وفي يوم دخوله دمشق، أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر، فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي، طيردار الملك الناصر يوسف، وهو الذكي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر.

فصل - ذكر خلفاء وسلاطين بني عثمان وأخبارهم:

بعد انتهائنا من خلفاء الدولة الأموية ثم العباسية بشكل مطول قليلًا والدول الإسلامية في الفترة العباسية ايضا القادة واختتمنا تاريخ خلفاء بني العباس بمعركة جالوت وهزيمة التتار المغول

وننتقل الآن إلى تاريخ دولة بني عثمان ونحاول اختصار قدر الامكان منها والمعلوم ان تاريخها كبير لكن نتطرق للمهم وذكر الخلفاء والأحداث المهمة والحملات الصليبية وغيرها بإذن الله

بسم الله الرحمن الرحيم * * * *

"المرحلة التاريخية (٩٢٣ - ١٣٤٢ هـ) من التاريخ الإسلامي نطلق عليها العهد العثماني، لأن الحكم العثماني امتد على أوسع رقعة من مساحة الأمصار الإسلامية، ولمدة خمسة قرون ظلت الدولة العثمانية تؤدي الدور الأول والوحيد في حماية المسلمين.

وكانت مركز الخلافة الإسلامية لكونها أقوى دولة إسلامية آنذاك. بل ومن أعظم دول العالم، ورغم أنها ظهرت منذ عام ٦٩٩ هـ/١٢٩٩ م إلا أنها لم تكن خلافة، ولم يعلن العثمانيون خلافتهم حتى سلمهم إياها الخليفة العباسي في القاهرة سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م.

ولما ضعف أمرها اجتمعت عليها الدول النصرانية، ولم يجتمعوا على شيء كاجتماعهم على المسألة الشرقية أو كيفية التهام الرجل المريض. كما كانوا يطلقون على الدولة العثمانية أبان ضعفها. فأخذوا يقتطعون من الدولة جزءًا بعد آخر حتى سقطت صريعة، وماتت آخر خلافة إسلامية، وتشتت أمر المسلمين وانقسموا فرقًا وشيعًا ودويلات.

"تأسيس الدولة وقوتها:-

يعود العثمانيون إلى قبيلة قابي من قبائل الغز التركمانية المسلمة من بلاد التركستان، عند اجتياح المغول لبلادهم، هاجر جدهم كندز الب بقبيلته إلى أرض الروم فالشام فالعراق، وبعد وفاته تفرقت القبيلة، فقسم عاد إلى الوطن الأول، وقسم بقيادة أرطغرل بن كندز سار إلى شمال الأناضول، ومعه ٤٠٠ أسرة تركمانية، وكانت المنطقة تحت حكم السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد، فساعده أرطغرل في صد بعض الغارات ضد البيزنطيين، فكافأه بأن أقطع له منطقة (أسكي شهر) على حدود بلاد الروم، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين، وتُوفي أرطغرل سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨١م. وخلفه ابنه عثمان وإليه تنسب الدولة فهو مؤسسها وأول حكامها.

فصل ما قبل بداية التأسيس-

[ذكر أرطغرل بن كندز ألب] تختلف المصادر والنصوص عن الغازي أرطغرل والد مؤسس الدولة العثمانية والممصادر تذكر أن قبيلته هاجرت إلى الأناضول بعد معركة ملاذكرد ١٠٧١م واستوطنت في الأناضول وأخذت منطقة قرب بيلاجيك -كوتاهية تسمى "يورد" وتختلف المصادر لكن ربما هذا الثابت، وكانت عشيرة الكايي تعتنق الدين الإسلامي من قبل وصولها الأناضول. ثم جمع أرطغرل غازي جنود من قبيلته واستمر بضرب الامبراطورية البيزنطية لما يقارب ٥٠ عام من الجهاد وولد أرطغرل عام ١١٩١م واكتسب لقب "غازي" نتيجة غزواته وحروبه المستمرة ضد البيزنطيين لقرابة نصف قرن كما ذكرنا.

وفي حروبه كان جيشه يعتمد على ضربات سريع وجميعه "خيالة" واستمر بجهاده بعد أن انتقلت قبيلته وعددها ٤٠٠ خيمة و ٤٠٠٠ رجل. واستمر يجاهد البيزنطيين حتى توفي عام ١٢٨١م وعمره ٩٠ عام ودفن في سوغوت.

فصل - [ذكر مؤسس الدولة العثمانية عثمان غازي]

وهو عثمان بن أرطغرل بن كندز ألب ولادته ١٢٥٨م وخلف ابوه أرطغرل غازي في قيادة قبيلته ١٢٨١م وعمره ٢٤ عام وكان تابع لسلاجقة الروم ووالي على المناطق الحدودية مع الامبراطورية البيزنطية. وبعد تفكك دولة سلاجقة الروم ١٣٠٠م نشأت الكثير من الامارات في محيط إمارة عثمان كـ (بني جوبان - بنو جرميان - بنو دانشنمد - إمارة كاراسي -) وغيرها وكان عثمان يتبع لفترة بني جوبان ثم السلطان السلجوقي الذي كان تابع للايلخان المغولي وبعدها تبع بنو جرميان لفترة بدلًا من بني جوبان. وفي عام ١٢٨٨-١٢٩١ فتح عثمان غازي قلعة "قره جه حصار" وحولها قاعدة له وأمر بذكر اسمه في الخطبة وقبل ذكر اسمه كان يُذكر اسم الخليفة العباسي في مصر. وبعد وفاة آخر سلطان سلجوقي "مسعود الثاني" ١٣٠٨ وحتى ١٣٢٥ حقق عثمان الكثير من الانتصارات. وعام ١٣٠٢ دخل معركة ميدانية بعد سير والي بورصة البيزنطي بـ٥٠٠٠ جندي نحوه وانتصر بها وانهزم البيزنطيين واصبح مشهور عند البيزنطيين. وبعد جهاد مستمر حول عثمان إمارته التي استلمها من ابوه بمساحة ٤٨٠٠ كم^2 إلى ١٦٠٠٠ كم^2 .

ومن فتوحاته (اسكيشهر ١٢٨٨ - بيلاجيك ١٢٩٩-١٣٠٤ وفي نفس العام فتح اينكول - ومودانيه ١٣٢١ ثم حاصر بورصة لسنوات عديدة ولم يكن يملك سلاح كافي وقوي ليفتحها ثم توفي قبل الفتح عام ١٣٢٤.

فصل - [ذكر أورخان غازي بن عثمان غازي]

"ثم ولي بعده إبنه السّلطان أورخان الغازي في سنة ٧٢٦ وكان السّلطان أورخان فاق والده في الجهاد، وكان له ولد نجيب استأذن من والده أن يعدى إلى روميلي ويقاتل الكفّار مع خدّامه، فعدوا إلى روميلي] فصادفوا الكفّار في غفلة، وهم يريدون العبور إلى جهة أناضول ، فوقع حرب عظيم قتل فيه من الكفّار ما لا يعدّ ولا يحصى، وانهزم الباقون إلى القلاع والحصون، وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون، فنصر الله الإسلام، وهزم الكفّار، وفتح المسلمون عدة قلاع وحصون، ورجع سليمان بك إلى والده مؤيّدا منصورا، وتوفي السّلطان أورخان سنة إحدى وستين وسبعمائة وعمره ثلاث وثمانون سنة.

فصل - [ذكر مراد الأول بن أورخان]

"ثم ولي بعده السّلطان مراد الغازي، مولده سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وجلوسه على التخت في بروسا سنة إحدى وستين وسبعمائة، وافتتح كثيرا من البلاد منها "أدرنة في السنة المذكورة، وهو أول من اتّخذ المماليك وسمّاهم يكيجري أي العسكر الجديد وكساهم اللّباد البيض المثني إلى خلف، ويسمى بركا، بضم الباء الموحدة وسكون الراء آخره كاف. وكانت له - رحمه الله - صولة عظيمة على الكفّار، واجتمعت النّصارى على سلطانهم أسبوت ، فقاتلهم السّلطان مراد قتالا شديدا، قتل سلطانهم وانهزموا، فأظهر واحد من ملوكهم الطّاعة إسمه يلواش فتقدّم لتقبيل يد السّلطان، فلما قرب منه أخرج خنجرا كان أعدّه في كمّه فضرب السّلطان مراد فاستشهد - رحمه الله تعالى - سنة اثنين وتسعين وسبعمائة. فصار القانون العثماني من ذلك اليوم أن لا يدخل على السّلطان أيلجي ولا غيره بسلاح، وأن تفتّش ثيابه وأن لا يدخل / على السّلطان إلاّ بين رجلين يكتنفانه، فكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة ."

فصل - [ذكر السلطان الغازي يلدريم بايزيد]

"بعد استشهاد السلطان مراد الاول تولى ابنه السلطان بايزيد خان الاول بكر اولاده وكانت ولادته سنة ٧٦١ هجرية سنة ١٣٦٠ م. "وابتدأ السلطان بايزيد الاول اعماله بان ولى الامير اسطفن بن لازار ملك الصرب حاكماً عليها وتزوج اخته اوليفيرا واجازه بان يحكم بلاده على حسب قوانينهم بشرط دفع جزية معينة وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون إلى الجيوش الشاهانية وقت الحرب وفعل ذلك ولم يضم بلاد الصرب إلى املاكه ويجعلها ولاية كباقي الولايات ليسكن بال الصربيين حتى لا يكونوا شغلا شاغلا له نظرا لشهامتهم وحبهم الاستقلال ولما ساد الامن في اوروبا قصد بلاد آسيا وفتح مدينة آلاشهر المعروفة عند الافرنج باسم فيلادلفيا سنة ١٣٩١ م وهي آخر مدينة بقيت للروم في آسيا وهابه امير آيدين فترك له املاكه وعاش مطمئن "الخاطر في احدى المدن الخارجة عن النفود العثماني وكذلك ترك اميرا منتشا وصاروخان ولايتيهما واحتميا عند امير قسطموني وتنازل الامير علاء الدين حاكم بلاد القرمان للسلطان عن جزء عظيم من املاكه ليؤمنه على الباقي

وبعد هذه الفتوحات التي تم اغلبها بدون حرب عاد السلطان إلى اوروبا وحارب امانويل باليولوج ملك الروم وحاصره في القسطنطينية وبعد ان ضيق عليها الحصار ترك حولها جيشا جرارا وسافر لغزو بلاد الفلاخ فقهر اميرها المدعو دوك مانيس واكرهه على التوقيع على معاهدة يعترف فيها بسيادة الدولة العلية العثمانية على بلاده ويتعهد لها بدفع جزية سنوية مع بقاء بلاده له يحكمها بمقتضى عوائد وقوانين اهلها وتم ذلك في سنة ١٣٩٣ م وفي اثناء اشتغال السلطان بمحاربة الفلاخ اراد علاء الدين امير القرمان ان يسترد ما تنازل عنه للدولة العلية فجهز جيش عظيما واستعان ببعض مجاوريه وسار بخيله ورجله قاصدا مهاجمة مدينة انقره بعد ان فاز على ديمورطاش باشا في احدى الوقائع واخذه اسيرا فلما بلغ خبره إلى مسامع السلطان قام بنفسه إلى بلاد الاناضول وجد في طلب علاء الدين حتى تقابل الجيشان في موضع يقال له آق جاي فهزمه السلطان بايزيد واسره هو وولديه محمد وعلي وضم ما بقي من املاكه اليه وبذلك انمحت سلطنة القرمان وصارت ولاية عثمانية ثم فتحت امارات سيواس وتوقات وكان آخر امرائها يدعى الغازي برهان الدين وبذا لم يبق من الامارات التي قامت على اطلال دولة آل سلجوق الاامارة قسطموني خارجة عن املاك الدولة العثمانية وكان اميرها يسمى بايزيد ايضا واحتمى ببلاده كثير من اولاد الامراء الذين فتحت بلادهم فكان ذلك سبب غزو "بلاده وذلك ان السلطان ارسل اليه من يطلب منه تسليم اولاد صاحب آيدين وصاروخان فامتنع فسار اليه السلطان بايزيد بنفسه واغار على بلاده وفتح مدائن ساسون وجانك وعثمانجق وبذلك انقرضت جميع الامارات الصغيرة القائمة ببلاد الاناضول وصار العلم العثماني يخفق منصورا فوق صروحها اما بايزيد صاحب قسطموني فلجأ إلى تيمورلنك سلطان الموغول

ومع استمرار الحصار حول القسطنطينية ضم السلطان بلاد البلغار إلى الاملاك العثمانية فصارت ولاية عثمانية كباقي الولايات بعد ان قتل اميرها سيسمان واسلم ابنه وعين حاكما لسمسون سنة ١٣٩٤ م

واقعة نيكوبلي فلما علم سجسمون ملك المجر خبر ما حل ببلاد البلغار خشي علي مملكته اذ صار متاخما في عدة نقط للدولة العلية فاستنجد باوروبا وساعده البابا واعلن "الحرب الدينيه بين اقوام اوروبا الغربية فاجاب الدعوة دوك بورغونيا وارسل ابنه الكونت دي نيفر ومعه ستة الاف محارب اغلبهم

من اشراف فرنسا وفيهم كثير من اقارب ملك فرنسا نفسه وانضم اليه حين مسيره إلى بلاد المجر امراء بافاريا واستيريا وشواليه القديس حنا الاورشليمي وكثير "من الالمانيين ثم اجتاز هذا الجيش نهر الدانوب وعسكر حول مدينة نيكوبلي لمحاصرتها فسار اليهم السلطان بايزيد ومعه مائتا الف مقاتل بهم كثير من اهالي الصرب تحت قيادة اميرهم اسطفن بن لازار وغيرهم من الامم المسيحية الخاضعة لسلطان العثمانيين وقاتلهم قتالا عنيفا في يوم ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨ ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦ كانت نتيجتها انتصار العثمانيين على الجيوش المتألبة عليهم واسر كثير من اشراف فرانسا منهم الكونت دي نيفر نفسه وقتل اغلبهم واطلق سراح الباقي والكونت دي نيفر بعد دفع فداء اتفق على مقداره ويقال ان السلطان بايزيد لما اطلق سراح الكونت دي نيفر وكان قد الزم بالقسم على ان لا يعود لمحاربته قال له اني اجيز لك ان لا تحفظ هذا اليمين فانت في حل من الرجوع لمحاربتي اذ لا شيء احب الي من محاربة جميع مسيحي اوروبا والانتصار عليهم هذا وقد شدد الحصار بعد ذلك على مدينة القسطنطينية ولولا اغارة الموغول على بلاد آسيا الصغرى لتمكن من فتحها لكن الامور مرهونة باوقاتها فاكتفى بابرام الصلح مع ملكها هذه المرة بشرط دفع عشرة آلاف ذهب سنويا من عملة وقتها وان يجيز للمسلمين ان يبنوا بها جامعا لاقامة شعائر الدين الحنيف وان تقام لهم محكمة شرعية للنظر في قضايا المستوطنين بها منهم.

"اغارة تيمورلنك على آسيا الصغرى

وسبب اغارة تيمورلنك التتري الموغولي على الدولة العثمانية ان امير بغداد والعراق المدعو احمد جلاير التجأ إلى السلطان بايزيد حينما هاجمه الموغول في بلاده فارسل تيمورلنك إلى السلطان بطلبه فابى تسليمه اليه فأغار تيمور بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى وافتتح مدينة سيواس بارمينيا واخذ ابن السلطان بايزيد المدعو ارطغرل اسيرا وقطع راسه ولذلك جمع السلطان بايزيد جيوشه وسار لمحاربة تيمور الاعرج فتقابل الجيشان في سهل انقره واستمرت الحرب من قبل شروق الشمس إلى بعد غروبها واظهر السلطان خلالها من الشجاعة ما بهر العقول وادهش الاذهان ولكن ضعف جيشه بفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامها إلى جيوش تيمور لوجود اولاد امرائهم الاصليين في معسكر التتار ولم يبق مع السلطان الا عشرة آلاف انكشاري وعساكر الصرب فحارب معهم طول النهار حتى سقط اسيرا في ايدي الموغول هو وابنه موسى وهرب اولاده سليمان ومحمد

وعيسى ولم يوقف لابنه الخامس مصطفى على اثر وكان ذلك في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤ ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ م فعامل تيمورلنك اسيره بايزيد بالحسنى واكرم مثواه لكنه شدد في المراقبة عليه نوعا بعد ان شرع في الهروب ثلاث مرات وضبط ويقال انه سجنه في قفص من الحديد حتى مات في ١٥ شعبان سنة ٨٠٥ ١٠ مارس سنة ١٤٠٣ م وعمره ٤٤ سنة ومدة حكمه ١٣ سنة وهذه رواية نقلها بعض مؤرخي الافرنج بدون ترو وذلك ان بايزيد رغب ان يسير "مع جيش تيمورلنك في تختروان يحمله حصانان ومقفلة شبابيكه بقضبان من حديد ولكون بعض مؤرخي الترك اطلق على التختروان لفظ قفص ظن بعض المترجمين من الافرنج انه وضعه في قفص كما توضع الوحوش الكاسرة ونقل هذه الرواية على علاتها كثير من المتقدمين لكن لما تقدم علم التاريخ وترجمت التواريخ التركية اصلح متأخرو المؤرخين خطأهم واجمعوا على انه لم يضعه في قفص مطلقا راجع الجزء الثاني من مؤلف همر المطبوع بباريس سنة ١٨٣٥ صحيفة ٩٦ وما بعدها ومما يؤيد حسن معاملة تيمورلنك للسلطان بايزيد انه صرح لابنه موسى بنقل جثته بكل احتفال إلى مدينة بورصة حيث دفن بجانب السلطان مراد مع بقاء موسى في حالة الاسر وفي حراسة امير كرميان.

"الفوضى بعد موت السلطان بايزيد

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدة امارات صغيرة كما حصل بعد سقوط دولة آل سلجوق لان تيمورلنك اعاد إلى امراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ ولم يبق تابعا للراية العثمانية الا قليل من البلدان ومما زاد الخطر على هذه الدولة الاسلامية عدم اتفاق اولاد بايزيد على تنصيب احدهم بل كان كل منهم يدعي الاحقية لنفسه فأقام سليمان في مدينة ادرنه حيث ولاه الجنود سلطانا ولاجل ان يستظهر على اخوته "عقد محالفة مع ملك الروم ايمانويل الثاني وتنازل له عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الاسود لينجده على اخوته الباقين ولزيادة الوثوق منه تزوج احدى قريباته

وكان محمد بن بايزيد يحارب جنود تيمورلنك في جبال الاناطول واستخلص منهم مدينتي توقات واماسيا اما عيسى فلما بلغه خبر وفاة والده جمع ما كان معه من الجند بمدينة بورصه حيث كان مختفيا واعلن نفسه خليفة آل عثمان بمساعدة القائد ديمور طاش باشا ومما يوجب الاسف والحزن ان

استنجد كل من هؤلاء الثلاثة بتيمورلنك سبب هذه الفتن والمفاسد فقبل وفودهم بكل ارتياح وشجعهم على المثابرة والثبات في الحرب يريد بذلك اضعافهم ببعضهم حتى لا تقوم للدولة العلية بعدهم قائمة فسار محمد لمحاربة اخيه عيسى وهزمه في عدة مواقع وقتله في الاخيرة منها ولم يبق له بعد ذلك منازع من اخوته في آسيا الصغرى واستخلص اخاه موسى بعد ذلك من امير كرميان وسلمه قيادة جيش جرار ارسله به إلى اوروبا لمحاربة اخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم امامه وعاد مقهورا إلى آسيا ثم جمع جيشا آخر وعاد به إلى اوروبا وحارب اخاه سليمان وقتله خارج اسوار مدينة ادرنة في سنة ١٤١٠ وبعدها اغار على بلاد الصرب وعاقب اهلها على خروجهم عن الطاعة وقاتل سجسمون ملك المجر الذي تصدى له لرده عن بلاد الصرب لكن داخل الطمع الامير موسى فعصى اخاه محمد الذي امده بالجنود لمحاربة اخيهما سليمان واراد الاستقلال ببلاد الدولة باوروبا وحاصر القسطنطينية ليفتحها لنفسه فاستنجد ملكها بالامير محمد فاتى اليه مسرعا لمحاربته والزمه بعد محاربة شديدة برفع الحصار عنها ثم حالف الامير محمد ملك القسطنطينية وامير الصرب وبثوا الدسائس في جيش موسى حتى خانه اغلب قواده ووقع اخيرا بين يدي اخيه محمد فامر بقتله سنة ٨١٦ هجرية سنة ١٤١٣ ميلادية.

فصل - ذكر السلطان محمد جلبي وانفراده بالسلطة وإنقاده للدولة من الانهيار في بدايتها

"وبذلك انفرد محمد المولود سنة ٧٨١ هـ ١٣٧٩ م بما بقي من بلاد آل عثمان واشتهر في التاريخ باسم السلطان محمد جلبي الغازي ويعتبر بعض المؤرخين السلطان محمد الاول خامس سلاطين آل عثمان ولم يعتبروا اخوته لكونهم لم يلبثوا في الملك مدة طويلة وذلك لعدم الخلط في تعداد ملوك هذه الدولة ولم يراع البعض الآخر هذا الترتيب بل اعتبرهم ملوكا ولذلك وجد اختلاف بين كتب المؤرخين في عدد سلاطين الدولة العثمانية لكن المتفق عليه هو عدم اعتبار من نازع السلطان محمد جلبي في الملك من اخوته وعده هو خامس سلاطين الدولة العلية هذا وقد كانت مدة حكم السلطان محمد كلها حروبا داخلية لارجاع الامارات التي استقلت في مدة الفوضى التي اعقبت موت السلطان بايزيد في الاسر وحافظ على محالفة ملك الروم الذي لولا مساعدته له لخيف على عرى الدولة العلية من الانفصام ورد له البلاد التي فتحها اخوه موسى واستمر على محافظته لعهده إلى آخر عمره ومما يؤثر عن هذا السلطان انه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فانه

لما قهر امير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد ان اقسم له على القرآن الشريف بان لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد ان حنث في يمينه "وكذلك لما حارب قره جنيد الذي كان حاكم ازمير من قبل السلطان بايزيد وقهره عفا عنه وتناسى كل ما وقع منه وعينه حاكما لمدينة نيكوبلي

وظهر في ايام هذا الملك شخص يسمى بدر الدين من العلماء المشهورين في ذلك الوقت وكان معينا بوظيفة قاضي عسكر في جيش موسى اخي السلطان محمد وبعد انهزام موسى كما سبق ذكره الزم بالاقامة في مدينة ازنيك ثم هرب منها وابتدأ في نشر مذهبه المؤسس على المساواة في الاموال والامتعة وهذا المذهب اشبه شيء بآراء بعض اشتراكيي هذا الوقت فتبعه خلق كثير من المسلمين والمسيحيين وغيرهم لانه كان يعتبر جميع الاديان على السواء ولا يفرق بينها بل كان عنده جميع الناس اخوة مهما اختلفت مذاهبهم واديانهم واستعان في نشر مذهبه هذا بشخص يدعى بيرقليجه مصطفى وآخر يقال ان اصله يهودي واسمه طورلاق كمال واشتهر امره بسرعة وكثر عدد تابعيه حتى خيف على المملكة العثمانية من امتداد مذهبه فارسل اليه السلطان محمد القائد سيسمان ابن امير البلغار الذي دخل في دين الاسلام وعين حاكما لمدينة سمسون مع جيش جرار لمحاربة اتباع بدر الدين فظهر عليه بيرقليجة مصطفى وقتله ولما علم السلطان بذلك جمع الجيوش وارسل وزيره الاول المدعو بايزيد باشا لمحاربة هذه الفئة فصار اليها وقابل مصطفى في ضواحي ازمير لحاربه في موقع يقال له قره بورنو وقهره واخذه اسيرا ثم قتله وكثيرا من اتباعه. "وفي هذه الاثناء ضبط بدر الدين في بلاد مقدونية بعد مقاومة شديدة وشنق"في سنة ١٤١٧ م وبذلك اطفئت هذه الفتنة ولم يبق لها بعد ذلك من خبر وكان شنق رئيس هذه الفتنة بناء على فتوى افتى بها مولانا سعيد احد تلامذة التفتازاني وهذا نصها كما جاء في تاريخ همر من اتاكم وامركم جميعا على رجل يريد ان يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه ولم يهدأ بال السلطان محمد بعد انتصاره على بدر الدين واشياعه حتى ظهر اخوه مصطفى الذي لم يوقف له على اثر بعد واقعة انقره التي اسر فيها والدهم السلطان بايزيد الاول وطالبه بالملك وانضم اليه قره جنيد الذي سبق ذكر عفو السلطان عنه وامده بجنود ارسلها اليه امير الفلاخ سعيا وراء ايجاد الفتن في داخل الممالك العثمانية فاغار الامير مصطفى على اقليم تساليا ببلاد اليونان لكنه لم يقو على مقاومة جنود اخيه السلطان محمد فدخل في مدينة سلانيك وكانت عادت إلى مملكة الروم بعد موت السلطان بايزيد واحتمى عند حاكمها المعين من قبل ملك الروم فطلب

السلطان تسليمه فابى ملك الروم ذلك ووعده ان يحفظه ولا يطلق سراحه ما دام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان محمد هذا الاقتراح ورتب لاخيه راتبا سنويا ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى ان مصطفى هذا لم يكن ابن السلطان بايزيد بل شخص انتحل لنفسه هذه الصفة طمعا في الملك الا ان المؤرخ العثماني المدعو نشري وكثيرا من مؤرخي الروم قالوا بصحة نسبه ومما يؤيد هذا القول تعيين راتب له من قبل السلطان وبلغ من كرم السلطان وحلمه انه عفا عن قره جنيد نفسه وعدة من محازبيه في سنة ١٤١٩ م وكانت هذه الفتنة آخر الحروب الداخلية التي خضبت اراضي الدولة العلية بدماء العثمانيين بسبب إغارة تيمورلنك عليها وبعد ذلك بذل السلطان محمد جلبي قصارى جهده في محو آثار هذه الفتن باجرائه الترتيبات الداخلية الضامنة لعدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان "السلطان مشتغلا بهذه المهام السلمية فاجأه الموت في سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١ م في مدينة ادرنه فاسلم الروح وعمره ٤٣ سنة بعد ان اوصى بالملك لابنه مراد الذي كان حينئذ في اماسيا وخوفا من حصول ما لا تحمد عقباه لو علم موت السلطان محمد مع وجود ابنه مراد في بلاد آسيا اتفق وزيراه ابراهيم وبايزيد على اخفاء موته عن الجند حتى يحضر ابنه فاشاعا ان السلطان مريض وارسلا لابنه فحضر بعد واحد واربعين يوما واستلم مقاليد الدولة واشتهر السلطان محمد بحبه للعلوم والفنون وهو اول ملك عثماني ارسل الهدية السنوية إلى امير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة حتى الآن وهي عبارة عن قدر معين من النقود ترسل إلى الامير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة لكن لم تكن بالقدر الذي بلغته الآن وقد قال بعض المؤرخين ان السلطان سليمان الاول هو اول من ارسل الصرة في سنة ٩٢٣ هـ سنة ١٥١٧ م بعد فتح مصر ولكن اتفق من يوثق بهم من المؤرخين خصوصا صولاق زاده على ان السلطان محمد جلبي هو اول من ارسلها ودفن السلطان بعد موته في مدينة بورصة.

فصل - [ذكر السلطان مراد الثاني]

"ولد السلطان مراد الثاني سنة ٨٠٦ هـ سنة ١٤٠٣ م وتولى سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١ م بعد موت ابيه وعمره ثماني عشرة سنة وافتتح اعماله بابرام الصلح مع امير القرمان والاتفاق مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات حتى يتفرغ لارجاع ماشق عصا الطاعة من ولايات اسيا لكن حدث ما شغله عن هذا العمل وذلك ان ايمانويل طلب منه ان يتعهد له بعدم محاربته مطلقا وان يسلمه اثنين

من اخوته تامينا على نفاذ هذا التعهد وتهدده باطلاق سراح عمه مصطفى بن بايزيد ولما لم يجبه مراد الثاني لطلبه اخرج مصطفى من منفاه واعطاه عشرة مراكب حربية تحت امرة دمتريوس لاسكاريس فاتى بها وحاصر مدينة جاليبولي فسلمت الا القلعة فتركها مصطفى بعد ان اقام حولها من الجند ما يكفي لمنع وصول المدد اليها وسار ببقية جيشه قاصدا ادرنه فخرج الوزير بايزيد باشا لمحاربته فتقدم مصطفى وخطب في العساكر باطاعته لانه احق بالملك من ابن اخيه فاطاعته الجيوش وقتلت بايزيد باشا قائدهم فسار مصطفى بعد ذلك لمقابلة ابن اخبه مراد الثاني الذي كان متحصنا مع من معه من الجنود خلف نهر صغير وهناك خانه بعض قواده وتركه اغلب جنوده حتى التزم الهروب إلى مدينة جاليبولي فسلمه بعض اتباعه إلى ابن اخيه مراد الثاني فامر بشنقه وبعد ذلك اراد السلطان مراد الانتقام من ملك الروم الذي اطلق سراح عمه مصطفى ليشغله عن فتح القسطنطينية فسار اليه بخيله ورجله وحاصر مدينته ثم هاجمها في يوم ٣ رمضان سنة ٨٢٥ ٢١ اغسطس سنة ١٤٢٢ م وبعد قتال عنيف رجع العثمانيون بدون ان يتمكنوا من فتحها وبعدها رفع عنها الحصار "لعصيان اخ له يقال له مصطفى شق عصاه واستعان على اخيه السلطان مراد ببعض امراء آسيا الصغرى لكن لم تلبث هذه الفتنة ان اخمدت بالقبض على مصطفى وقتله مع كثير من محازبيه فوقع الرعب في قلوب من ساعده من الامراء وتنازل امير قسطموني عن نصف املاكه للسلطان وزوجه ابنته سنة ١٤٢٣ اظهارا لاخلاصه وولائه وفي السنة التالية عصى قره جنيد واستولى على امارة آيدين لكن قهره حمزة بك اخو الوزير بايزيد باشا وقبض عليه وامر بخنقه فتخلصت الدولة بذلك من هذا الخائن الذي خان عهدها اكثر من مرة واعاد مراد الثاني إلى املاك الدولة العلية ولايات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها من الامارات التي اعاد تيمورلنك استقلالها اليها وكذلك استرد بلاد القرمان بعد ان قتل اميرها محمد بك وعين ابنه ابراهيم واليا عليها مع بعض امتيازات بشرط ان يتنازل عن اقليم الحميد وفي سنة ١٤٢٨ توفي امير كرميان عن غير عقب واوصى بما كان باقيا له من بلاده إلى السلطان مراد وبذلك استرد السلطان مراد الثاني جميع ما فصله تيمورلنك عن الدولة العثمانية من البلاد وصار في امكانه التفرغ لاعادة فتح ما استقل من البلاد باوروبا بعد موت بايزيد الاول فابتدأ بان الزم ملك المجر بعد محاربة شديدة كانت نتيجتها افتتاح مدينة كولمباز الواقعة على شاطيء نهر الدانوب الايمن بالتوقيع على معاهدة تقضي عليه بالتخلي عما يكون له من البلاد على شاطيء نهر الدانوب الايمن بحيث يكون هذا النهر فاصلا بين املاك الدولة العلية والمجر ولما رأى امير الصرب

المدعو جورج برنكوفيتش انه لا يقوى على مقاومة الدولة قبل ان يدفع جزية سنوية قدرها خمسون الف دوكا ذهبا ويقدم للسلطان فرقة من جنوده للمساعدة وقت الحرب وان يزوجه ابنته مارا وان يقطع علاقاته مع ملك المجر وان يتنازل ايضا للدولة العلية عن بلدة كروشيفاتس "الواقعة في وسط بلاد الصرب لتجعلها حصنا منيعا تأوي اليه جنودها منعا لحصول الفتن وفي سنة ١٤٣٠ اعاد السلطان فتح مدينة سلانيك التي كان تنازل عنها ملك الرم إلى اهالي البندقية بعد ان حاصرها خمسة عشر يوما وبعد ذلك اراد السلطان مراد ان يفتح ما بقي من بلاد الصرب وبلاد البانيا الارنؤد والفلاخ قبل ان يعيد الكرة على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير فوجه اهتمامه اولا إلى بلاد البانيا فاطاعه سكان يانيه وسكان اغلب باقي البلاد بدون كثير عناء مشترطين عدم التعرض لهم في دينهم ولا عوائدهم والزم جان كستريو امير الجزء الشمالي من بلاد البانيا ان يسلم له اولاده الاربعة رهينة على صدقه وولائه ثم ضم املاكه اليه بعد وفاته سنة ١٤٣١

وفي سنة ١٤٣٣ اعترف فلاد امير الفلاخ الملقب دره قول أي الشيطان بسيادة الباب العالي عليه تخلصا من الحرب التي كان لا يشك في وخامة عاقبتها عليه لكن لم يكن هذا الخضوع الا ظاهريا فانه ما لبث ان ثار هو وامير الصرب بناء على تحريض ملك المجر لهما فحاربهما السلطان وقهرهما ثم سار إلى بلاد المجر وخرب كثيرا من بلدانها وعاد منها في سنة ١٤٣٨ بسبعين الف اسير على ما يقال وفي السنة التالية عصى جورج برنكوفتش امير الصرب فكانت عاقبة عصيانه ان فتح السلطان مراد مدينة سمندرية بالقرب من مدينة بلغراد عاصمة بلاد "الصرب بعد ان حاصرها ثلاثة اشهر وفر برنكوفتش إلى بلاد المجر محتميا عند ملكها آلبير الذي خلف سجسمون ثم حاصر السلطان مدينة بلغراد عاصمة الصرب مدة ستة شهور ولم يتمكن من فتحها لشدة دفاع من بها من الجنود فتركها واغار على بلاد ترنسلفانيا وحاصر مدينة هرمان ستاد التابعة لملك المجر وكان حاكم هذا الاقليم هو نياد قائد عموم جيوش المجر فاتى هذا القائد الشهير على جناح السرعة للدفاع عنها وانتصر على العثمانيين وقتل منهم عشرين الف نفس وقتل قائدهم والزم من بقي منهم بالرجوع خلف نهر الدانوب ولما بلغ السلطان خبر انهزام جيوشه ارسل اليهم ثمانين الف مقاتل تحت قيادة شهاب الدين باشا فهزمه ايضا هونياد المجري واخذه اسيرا في موقعة هائلة "بالقرب من بلدة يقال لها وازاج سنة ١٤٤٢ وبعد ذلك سار القائد المجري إلى بلاد الصرب وتغلب على السلطان مراد نفسه في مدينة

نيش واقتفى اثره إلى ما وراء جبال البلقان سنة ١٤٤٣ وظهر عليه في ثلاث وقائع اخرى واخيرا ابرم السلطان مراد معهم الصلح على ان يتنازل عن سيادته على بلاد الفلاخ ويرد إلى امير الصرب مدائن سمندريه والاجه حصار وان يهادن المجر مدة عشر سنوات وامضيت هذه المعاهدة في ٢٦ ربيع الاول سنة ٨٤٨ ١٣ يوليو سنة ١٤٤٤ وعقب ذلك توفي اكبر اولاد السلطان واسمه علاء الدين فحزن عليه والده حزنا شديدا وسئم الحياة فتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر اربع عشرة سنة وسافر هو إلى ولاية آيدين للاقامة بعيدا عن هموم الدنيا وغمومها

تنازل السلطان عن الملك وعودته اليه

لكنه لم يمكث في خلوته بضعة اشهر حتى اتاه خبر غدر المجر واغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتمادا على تغرير الكردينال سيزاريني مندوب البابا وتفهيمه لملك المجر ان عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعد حنثا ولا نقضا ولما ورد عليه خبر هذه الخيانة ونكث العهد قام بجيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة وارنه الواقعة على البحر الاسود وبعد قليل اشتبك القتال بين الجيشين فقتل ملك المجر المدعو لادسلاس وتفرق الجند بعد ذلك ولم تفد شجاعة هونياد شيئا وفي اليوم التالي هاجم العثمانيون معسكر المجر واحتلوه "بعد قتال شديد قتل فيه الكردينال سيزاريني سبب هذه الحرب وتم للمسلمين هذا الفوز المبين في ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ ١٠ نوفمبر سنة ١٤٤٤

فتنة اسكندر بك

وبعد تمام النصر واستخلاص مدينة وارنه رجع السلطان إلى عزلته لكنه لم يلبث فيها هذه المرة ايضا لان عساكر الانكشارية ازدروا بملكهم الفتى محمد الثاني وعصوه ونهبوا مدينة ادرنة عاصمة الدولة فرجع اليهم السلطان مراد الثاني في اوائل سنة ١٤٤٥ م واخمد فتنتهم وخوفا من رجوعهم إلى اقلاق راحة الدولة اراد ان يشغلهم بالحرب فاغار على بلاد اليونان وساعده على ذلك تقسيم ايمانويل ملك الروم بلاده بين اولاده بان اعطى مدينة القسطنطينية وضواحيها إلى ابنه حنا وبلاد موره وجزء من تساليا لابنه قسطنطين وهو آخر ملوك الروم ولما علم قسطنطين بعزم السلطان مراد على فتح بلاده حصن برزخ كورنته وبنى فيه قلاعا جعلت اجتيازه غير ممكن لكن لم يعق هذا السور المنيع الجيوش العثمانية بل سلط عليه السلطان مدافعه ذكر المؤرخون ان هذا اول استعمال للمدافع في جيوش الدولة العلية حتى احدث فيها ثلما دخلت منه الجيوش إلى مدينة كورنته ففتحها.

فصل - [ذكر محمد الثاني (الفاتح)]

"ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ ٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩ وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية ولما تولى الملك بعد ابيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجا عن سلطانه الا جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الرومية وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها وكان اقليم موره مجزأ بين البنادقة وعدة امارات صغيرة يحكمها بعض اعيان الروم او الافرنج الذين تخلفوا عن اخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية وبلاد الارنؤد "وايبيروس في حمى اسكندر بك السالف الذكر وبلاد البشناق البوسنه مستقلة والصرب تابعة للدولة العلية تابعية سيادته وما بقي من بحيث جزيرة البلقان شبه جزيرة البلقان داخلا تحت سلطة الدولة العلية

- وبعد ان امر بنقل جثة والده إلى مدينة بورصه لدفنها بها امر بقتل اخ له رضيع اسمه احمد وبارجاع الاميرة مارا الصربية إلى والدها ثم اخذ يستعد لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع املاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم او صديق منافق لكنه قبل التعرض لفتح القسطنطينية اراد ان يحصن بوغاز البوسفور حتى لا ياتي لها مدد من مملكة طرابزون وذلك بان يقيم قلعة على شاطيء البوغاز من جهة اوروبا تكون مقابلة للحصن الذي انشأه السلطان بايزيد بيلدرم ببر آسيا ولما بلغ ملك الروم هذا الخبر ارسل إلى السلطان سفيرا يعرض عليه دفع الجزية التي يقررها فرفض طلبه وسعى في ايجاد سبب لفتح باب الحرب ولم يلبث ان وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانية على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن انفسهم وقتل البعض من الفريقين

لحاصر السلطان المدينة في اوائل ابريل سنة ١٤٥٣ من جهة البر بجيش يبلغ المائتين وخمسين الف جندي ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة واقام حول المدينة اربع عشرة بطارية طوبجية مدفعية وضع بها مدافع جسيمة صنعها صانع مجرى شهير اسمه اوربان كانت تقذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطارا إلى مسافة ميل "ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد باوروبا فلبى طلبه اهالي جنوه وارسلوا له عمارة بحرية تحت امرة جوستنياني فاتى بمراكبه واراد "الدخول إلى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانية وانتشرت بينهما حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧ ٢١ ابريل سنة ١٤٥٣ انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد ان رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من

الوصول اليها ثم اعيدت بعد مروره كما كانت وبعدها اخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لاتمام الحصار برا وبحرا فخطر بباله فكر غريب في بابه وهو ان بنقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه وتم هذا الامر المستغرب بان مهد طريقا على البر اختلف في طوله والمرجح انه فرسخان أي ستة اميال ورصت فوقه الواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها وبهذه الكيفية امكن نقل نحو السبعين سفينة في ليلة واحدة حتى إذا اصبح النهار ونظرها المحصورون ايقنوا ان لا مناص من نصر العثمانيين عليهم لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا اقداما وصمموا على الدفاع عن اوطانهم حتى الممات وفي يوم ١٥ جماد اول سنة ٨٥٧ ٢٤ مايو سنة ١٤٥٣ ارسل السلطان محمد إلى قسطنطين يخبره انه لو سلم البلد "اليه طوعا يتعهد له بعدم مس حرية الاهالي او املاكهم وان يعطيه جزيرة مورة فلم يقبل قسطنطين ذلك بل آثر الموت على تسليم المدينة فعند ذلك نبه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم في يوم ٢٠ جماد اول سنة ٨٥٧ ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر وباقطاعهم اراضي كثيرة وفي الليلة السابقة لليوم المحدد اشعلت الجنود العثمانية الانوار امام خيامها للاحتفال بالنصر المحقق لديهم وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبرون حتى إذا لاح الفجر صدرت اليهم الاوامر بالهجوم فهجم مائة وخمسون الف جندي وتسلقوا الاسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج واعملوا السيف فيمن عارضهم ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا حيث كان يصلي فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الاهالي ويعتقد الروم حتى الآن ان حائط الكنيسة انشق ودخل فيه البطرق والصور المقدسة وفي اعتقادهم ان الحائط ينشق ثانية يوم يخرج الاتراك من القسطنطينية ويخرج البطريق منها ويتم صلاته التي قطعها عند دخول العثمانيين عليه عند الفتح وقد ارخ بعضهم هذا الفتح المبين بلدة طيبة سنة ٨٥٧ وسميت المدينة اسلامبول أي تخت الاسلام او مدينة الاسلام اما قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه وبعد فتحها جعلت عاصمة للدولة ولن تزال كذلك ان شاء الله ولنذكر هنا ان المسلمين حاصروا القسطنطينية احدى عشرة مرة قبل هذه المرة الاخيرة منها سبعة في القرنين الاولين للاسلام فحاصرها معاوية في خلافة علي سنة ٣٤ هـ ٦٥٤ م وحاصرها يزيد بن "معاوية سنة ٤٧ هـ ٦٦٧ م في خلافة علي ايضا وحاصرها سفيان بن اوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ ٦٧٢ م وفي سنة ٩٧ هـ ٧١٥ م حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي وحوصرت ايضا في خلافة هشام سنة ١٢١ هـ ٧٣٩ م وفي المرة السابعة حاصرها احد قواد الخليفة

هرون الرشيد سنة ١٨٢ هـ ٧٩٨ م هذا ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره فاصدر اوامره بمنع كل اعتداء فساد الامن حالا ثم زار كنيسة ايا صوفيا وامر بان يؤذن فيها بالصلاة اعلانا بجعلها مسجدا جامعا للمسلمين وبعد تمام الفتح على هذه الصورة اعلن في كافة الجهات بانه لا يعارض في اقامة شعائر ديانة المسيحيين بل انه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ املاكهم فرجع من هاجر من المسيحيين واعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع لمسلمين ثم جمع ائمة دينهم لينتخبوا بطريقا لهم فاختاروا جورج سكولاريوس واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيسا لطائفة الاروام واحتفل بتثبيته بنفس الابهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في ايام ملوك الروم المسيحيين واعطاه حرسا من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة انواعها المختصة بالاروام وعين معه في ذلك مجلسا مشكلا من اكبر موظفي الكنيسة واعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس وفي مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنيا من ذلك ائمة الدين فقط وبعد اتمام هذه الترتيبات واعادة ما هدم من اسوار المدينة وتحصينها سافر بجيوشه لفتح بلاد جديدة فقصد بلاد موره لكن لم ينتظر اميراها دمتريوس وتوماس اخوا قسطنطين قدومه بل ارسلا اليه يخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر الف دوكا فقبل ذلك السلطان وغير وجهته قاصدا بلاد الصرب فاتى هونياد الشجاع المجري ورد عنهم مقدمة الجيوش العثمانية لكن لم يرغب الصرب في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا "رومة والصرب ارثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما راوه من عدم تعرضهم للدين مطلقا ولذلك ابرم امير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على ان يدفع له سنويا ثمانين الف دوكا وذلك في سنة ١٤٥٤ وفي السنة التالية اعاد السلطان عليها الكرة بجيش مؤلف من خمسين الف مقاتل وثلاثمائة مدفع ومر بجيوشه من جنوب بلاد الصرب إلى شمالها بدون ان يلقى اقل معارضة حتى وصل مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر وكان هونياد المجري دخل المدينة قبل اتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الابطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥ لكن وان لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب الا انهم ربحوا امرا عظيما وهو اصابة هونياد بجراح بليغة مات بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يوما واراح المسلمين منه ولما علم السلطان بموته ارسل الصدر الاعظم محمود باشا لاتمام فتح بلاد الصرب فاتم فتحها من سنة

١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠ وبذلك فقدت الصرب استقلالها نهائيا بعد ان اعيت الدولة العلية اكثر من مرة وفي هذه الاثناء تم فتح بلاد موره ففي سنة ١٤٥٨ فتح السلطان مدينة كورنته وما جاورها من بلاد اليونان حتى جرد توماس باليولوج اخا قسطنطين من جميع بلاده ولم يترك اقليم موره لاخيه دمتريوس الا بشرط دفع الجزية وبمجرد ما رجع السلطان بجيوشه ثار توماس وحارب الاتراك واخاه معا فاستنجد دمتريوس بالسلطان فرجع بجيش عرمرم ولم يرجع حتى تم فتح اقليم موره سنة ١٤٦٠ وهرب توماس إلى ايطاليا ونفي دمتريوس في احدى جزائر الارخبيل وفي ذلك الوقت فتحت جزائر تاسوس والبروس وغيرها من جزائر بحر الروم "وبعد عودة السلطان من بلاد اليونان ابرم صلحا مؤقتا مع اسكندر بك وترك له اقليمي البانيا وايبيروس ثم حول انظاره إلى آسيا الصغرى ليفتح ما بقي منها فسار بجيشه بدون ان يعلم احدا بوجهته في اوائل سنة ١٤٦١ وهاجم اولا ميناء اماستريس وكانت مركز تجارة اهالي جينوه النازلين بهده الاصقاع ولكون سكانها تجارا يحافظون على اموالهم ولا يهمهم دين او جنسية متبوعهم ما دام غير متعرض لاموالهم ولا ارواحهم فتحوا ابواب المدينة ودخلها العثمانيون بغير حرب ثم ارسل إلى اسفنديار امير مدينة سينوب يطلب منه تسليم بلده والخضوع له ولاجل تعزيز هذا الطلب ارسل احد قواده ومعه عدد عظيم من المراكب لحصر الميناء فسلمها اليه الامير واقطعه الملك اراضي واسعة باقليم بيثينيا مكافأة له على خضوعه ثم قصد بنفسه مدينة طرابزون ودخلها بدون مقاومة شديدة وقبض على الملك واولاده وزوجته وارسلهم إلى القسطنطينية

ولما عاد اليها جهز جيشا لمحاربة امير الفلاخ المدعو فلاددره قول أي الشيطان لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع اهالي بلاده والتعدي على تجار العثمانيين النازلين بها فلما قرب منها ارسل اليه هذا الامير وفدا يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط ان يصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي ابرمت في سنة ١٣٩٣ بين امير الفلاخ اذ ذاك والسلطان بايزيد فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه ولم يقصد امير الفلاخ بهذه المعاهدة الا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر ومحاربة العثمانيين فلما علم السلطان باتحادهما ارسل اليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب خازوق واغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العلية وعثا فيها الفساد ورجع بخمسة وعشرين الف اسير فارسل اليه

"السلطان يدعوه إلى الطاعة واخلاء سبيل الاسرى فلما مثل الرسل امامه امرهم برفع عمائمهم لتعظيمه وعند ابائهم طلبه لمخالفته لعوائدهم امر هذا الظالم بان تسمر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد فلما وصلت هذه الاخبار إلى السلطان محمد استشاط غضبا وسار على الفور بمائة وخمسين الف مقاتل لمحاربة هذا الشقي الظلوم فوصل في اقرب وقت إلى مدينة بخارست عاصمة الامير بعد ان هزمه وفرق جيوشه لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه من المظالم والمآثم لهروبه والتجائه إلى ملك المجر فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه اخاه راوول لثقته به بما انه تربى في حضانة السلطان منذ نعومة اظفاره وبذا ضمت بلاد الفلاخ إلى الدولة العلية ويقال ان عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بخارست وجد حول المدينة جثث الاسرى الذين اتى بهم امير الفلاخ من بلاد بلغاريا وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الاطفال والنساء وكان عددهم جميعا عشرين الفا وفي سنة ١٤٦٢ حارب السلطان بلاد بوسنة لامتناع اميرها عن دفع الخراج واسره بعد محاربة عنيفة هو وولده وامر بقتلهما فدانت له جميع بلاد البشناق اهالي بوسنة وفي سنة ١٤٦٤ اراد متياس كرفن ملك المجر استخلاص بوسنة من العثمانيين فهزم بعد ان قتل معظم جيشه وكانت عاقبة تدخله ان جعلت بوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة وسلبت ما كان منح لها من الامتيازات ودخل في جيش الانكشارية ثلاثون الفا من شبانها واسلم اغلب اشراف اهاليها هذا وكانت ابتدأت حركات العدوان في سنة ١٤٦٣ بين العثمانيين والبنادقة "بسبب هروب احد الرقيق إلى كورون التابعة لهم وامتناعهم عن تسليمه بحجة انه اعتنق الدين المسيحي فاتخذ العثمانيون ذلك سببا للاستيلاء على مدينة ارجوس وغيرها فاستنجد البنادقة بحكومتهم وهي ارسلت اليهم عمارة بحرية انزلت ما بها من الجيوش إلى بلاد موره فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانية المحافظة على بلادهم واقاموا ما كان تهدم من سور برزخ كورنته لمنع وصول المدد من الدولة العلية وحاصروا مدينة كورنته نفسها واستخلصوا مدينة ارجوس من الاتراك لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين الف مقاتل تركوا البرزخ راجعين على اعقابهم فدخل العثمانيون بلاد موره بدون كبير معارضة واسترجعوا كل ما اخذوه وارجعوا السكينة إلى البلاد وفي السنة التالية اعاد البنادقة الكرة على بلاد موره بدون فائدة وبعد ذلك اخذ البابا بيوس الثاني يسعى في تحريض الامم المسيحية على محاربة "المسلمين حربا دينية لكن عاجله المنون قبل اتمام مشروعه الا ان تحريضاته هاجت اسكندر بك الالباني لمحارب الجنود العثمانية وحصل بينهما عدة وقائع اهرق فيها كثير من الدماء وكانت الحرب فيها سجالا وفي سنة

١٤٦٧ توفي اسكندر بك بعد ان حارب الدولة العلية خمسا وعشرين سنة بدون ان تقوى على قمعه فكان من اشد خصوم الدولة والد اعدائها ثم بعد هدنة استمرت سنة واحدة عادت الحروب بين العثمانيين والبنادقة وكانت نتيجتها ان افتتح العثمانيون جزيرة نجر بونت وتسمى في كتب الترك اجريبوس مركز مستعمرات البنادقة في جزائر الروم وتم فتحها في سنة ١٤٧٠ وبعد ان ساد الامن في انحاء اوروبا حول السلطان انظاره إلى بلاد القرمان بآسيا الصغرى ووجد سبيلا سهلا للتدخل وهو ان اميرها المدعو ابراهيم اوصى بعد موته بالحكم إلى احد اولاده واسمه الامير اسحق ولكون امه ام ولد نازعه الحكم اخوته من ابيه الذين من الزوجات فتدخل السلطان محمد الثاني وحارب اسحق وهزمه وولى محله اكبر اخوته وعاد إلى اوروبا لمحاربة اسكندر بك كما مر فانتهز الامير اسحق غيابه وعاود الكرة على قونية لاسترداد ما اوصى به اليه ابوه من البلاد فرجع اليه السلطان وقهره وليستريح باله من هذه الجهة ايضا ضم امارة القرمان إلى بلاده وغضب على وزيره محمود باشا الذي عارضه في هذا الامر وبعد ذلك بقليل زحف اوزون حسن احد خلفاء تيمورلنك الذي كان سلطانه ممتدا على كافة البلاد والاقاليم الواقعة بين نهري آموداريا والفرات "وفتح مدينة توقات عنوة ونهب اهلها فاخذ السلطان في تجهيز جيش جرار وارسل لاولاده داود باشا بكلر بك الاناطول ومصطفى باشا حاكم القرمان يامرهما بالمسير لمحاربة العدو فسارا بجيوشهما اليه وقابلا جيش اوزون حسن على حدود اقليم الحميد وهزماه شر هزيمة سنة ١٤٧١ وبعدها بقليل سار اليه السلطان نفسه ومعه مائة الف جندي واجهز على ما بقي معه من الجنود بالقرب من مدينة اذربيجان التي لا تبعد كثيرا عن نهر الفرات ولم يعد اوزون حسن لمحاربة الدولة بعد ذلك وفي هذه الاثناء كانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانو ببابا رومه وامير نابولي ومع كل فكان النصر دائما للعثمانيين ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما اخذ منهم وفي سنة ١٤٧٥ اراد السلطان فتح بلاد البغدان فارسل اليها جيشا بعد ان عرض دفع الجزية على اميرها المسمى اسطفن الرابع ولم يقبل وبعد محاربة عنيفة قتل فيها كثير من الجيشين المتحاربين عادت الجيوش العثمانيين بدون فتح شيء من هذا الاقليم ولما بلغ خبر هذا الانهزام اذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال على محاربة البغدان وكان لجمهورية جنوا مستعمرة في بحيث شبه جزيرة القرم في مدينة كافا فارسل السلطان اليها عمارة بحرية ففتحتها بعد حصار ستة ايام وبعدها سقطت جميع الاماكن التابعة لجمهورية جنوا وبذلك صارت جميع شواطيء القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يقاومها

التتار النازلون بها ولذلك اكتفى السلطان بضرب الجزية عليها "وبعد ذلك فتحت العمارة العثمانية ميناء آق كرمان ومنها اقلعت السفن الحربية إلى مصاب نهر الدانوب لاعادة الكرة على بلاد البغدان بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم فتقهقر امامه جيش البغدان لعدم امكانه المحاربة في السهول وتبعه الجيش العثماني حتى اذا اوغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها انقض عليه الجيش البغداني وهزمه ١٤٧٦ وبذلك اشتهر اسطفن الرابع امير البغدان بمقاومة العثمانيين كما اشتهر هونياد المجري واسكندر بك الالباني من قبل وسماه البابا شجاع النصرانية وحامي الديانة المسيحية وفي سنة ١٤٧٧ اغار السلطان على بلاد البنادقة ووصل إلى اقليم الفريول بعد ان مر باقليمي كرواسيا ودلماسيا وهما تابعان الان لمملكة النمسا والمجر نخاف البنادقة على مدينتهم الاصلية وابرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا التي كانت عاصمة اسكندر بك الشهير فاحتلها السلطان ثم طلب منهم مدينة "اشقودره ولما رفضوا التنازل عنها اليه حاصرها واطلق عليها مدافعه ستة اسابيع متوالية بدون ان يضعف قوة سكانها وشجاعتهم فتركها لفرصة اخرى وفتح ما كان حولها للبنادقة من البلاد والقلاع حتى صارت مدينة اشقودره منفصلة بالكلية عن باقي بلاد البنادقة وكان لابد من فتحها بعد قليل لعدم امكان وصول المدد اليها ولذا فضل البنادقة ان يبرموا صلحا جديدا مع السلطان ويتنازلوا عن اشقودره في مقابلة بعض امتيازات تجارية وتم الصلح بين الفريقين على ذلك وامضيت به بينهما معاهدة في يوم ٥ ذي القعدة سنة ٨٨٣ ٢٨ يناير سنة ١٤٧٩ وكانت هذه اول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون اوروبا اذ كانت جمهورية البنادقة حين ذاك اهم دول اوروبا لاسيما في التجارة البحرية وما كان يعادلها في ذلك الا جمهورية جنوا

[فتح جزائر اليونان ومدينة اوترانت]

وبعد ان تم الصلح مع البنادقة وجهت الجيوش إلى بلاد المجر لفتح اقليم ترنسلفانيا فقهرها كينيس كونت مدينة تمسوار بالقرب من مدينة كرلسبرج في ١٣ اكتوبر سنة ١٤٧٦ وقتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار فقتلوا جميع الاسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم وفي سنة ١٤٨٠ فتحت جزائر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وايطاليا "وبعدها سار القائد كدك احمد باشا بمراكبه لفتح مدينة اوترانت بايطاليا التي كان عزم السلطان على فتحها جميعها

ويقال انه اقسم بان يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بمدينة رومه مقر البابا ففتحت مدينة اوترانب عنوة في يوم ٤ جمادي الثانية سنة ٨٥٥ ١١ اغسطس سنة ١٤٨٠.

"وفي يوم ٤ ربيع الاول سنة ٨٨٦ هـ ٣ مايو سنة ١٤٨١ م توفي ابوالفتح "السلطان محمد الثاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة ومدة حكم ٣١ سنة تمم في خلالها مقاصد اجداده ففتح القسطنطينية وزاد عليها فتح مملكة طرابزون الرومية والصرب والبوشناق والبانيا الارنؤود وجميع اقاليم اسيا الصغرى ولم يبق في بلاد البلقان الامدينة بلغراد التابعة للمجر وبعض جزائر تابعة للبنادقة ودفن في المدفن المخصوص الذي انشاه في احد الجوامع التي اسسها في الاستانة"

فصل - [ذكر السلطان بايزيد الثاني]

"توفي السلطان ابو الفتح محمد الثاني عن ولدين اكبرهما بايزيد المولود سنة ٨٥١ سنة ١٤٤٧ م وكان حاكما باماسيا وثانيهما جم المشهور في كتب الافرنج باسم البرنس زيزيم وكان حاكما في القرمان فاخفى الصدر الاعظم قرماني محمد باشا موت السلطان محمد حتى يأتي بكر اولاده بايزيد ولكنه لشدة ارتباطه ومودته بالاصغر ارسل اليه سرا يخبره بموت ابيه كي يحضر قبل اخيه الاكبر ويستلم مقاليد الدولة ولما اذيع هذا الخبر ثار الانكشارية على هذا الوزير وقتلوه وعثوا في المدينة سلبا ونهبا واقاموا ابن السلطان بايزيد واسمه كركود نائبا عاما عن ابيه لحين حضوره وذلك في يوم ٥ ربيع الاول سنة ٨٨٦ ٤ مايو سنة ١٤٨١ وفي يوم ١٣ ربيع الاول وصل الرسول إلى بايزيد فسافر في اليوم التالي باربعة آلاف فارس ووصل القسطنطينية بعد مسير تسعة ايام مع ان المسافة تبلغ ١٦٠ فرسخا تقطع عادة في نحو ١٥ يوما فقابله امراء الدولة واعيانها عند بوغاز مضيق البوسفور وفي اثناء اجتسازه البوغاز احاطت به عدة قوارب ملأى بالانكشارية وطلبوا منه عزل احد الوزراء المدعو مصطفى باشا وتعيين اسحق باشا ضابط القسطنطينية مكانه فاجاب طلبهم وكذلك عند وصوله إلى السراي الملوكية وجدهم مصطفين امامها طالبين العفو عنهم فيما وقع من قتل والوزير ونهب المدينة وان ينعم عليهم بمبلغ سرورا بتعيينه فاجابهم إلى جميع مطالبهم وصارت هذه سنة لكل من تولى بعده إلى ان ابطلها السلطان عبد الحميد خان الاول سنة ١٧٧٤ اما الرسول الذي كان ارسله الوزير محمد إلى الامير جم فقبض عليه سنان باشا حاكم الاناطول وقتله حتى لا يصل خبر موت السلطان محمد اليه

"وكان السلطان بايزيد الثاني ميالا للسلم اكثر منه إلى الحرب محبا للعلوم الادبية مشتغلا بها ولذلك سماه بعض مؤرخي الترك بايزيد الصوفي لكن دعته سياسة الدولة إلى ترك اشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب وكانت اول حروبه داخلية وذلك ان اخاه جما لما بلغه خبر موت ابيه سار على الفور مع من حاز به ولاذ به قاصدا مدينة بورصه فدخلها عنوة بعد ان هزم الفي انكشاري ثم ارسل إلى اخيه يعرض عليه الصلح بشرط تقسيم المملكة بينهما فيختص جم بولايات آسيا وبايزيد باوروبا فلم يقبل بايزيد بل اتى اليه وقهره بالقرب من مدينة يكى شهر في يوم ٢٣ جمادي الاولى سنة ٨٨٦ ٢٠ يوليو سنة ١٤٨١ وتبعه حتى اوصله إلى تخوم البلاد التابعة لمصر وفي عودته إلى عاصمته طلب منه الانكشارية ان يبيح لهم نهب مدينة بورصة مجازاة لها على قبولها الامير جما فلم يوافقهم على ذلك وخوفا من حصول شغب منهم دفع إلى كل نفر منهم قرشين فاقام جم هذه السنة بالقاهرة ضيفا عند السلطان قايدباي ويكتبها بعضهم قايتباي ثم عاد في السنة الثانية إلى حلب ومنها راسل قاسم بك آخر ذرية امراء القرمان ووعده انه لو انجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان يرد له بلاد اجداده فاغتر قاسم بك بهذه الوعود وجمع احزابه وسار مع الامير جم لمحاصرة مدينة قونيه عاصمة بلاد القرمان فصدهم عنها القائد العثماني كدك احمد باشا فاتح مدينتي كافا واوترنت والزم الامير جما بالفرار ثم حاول هذا الامير الصلح مع اخيه بشرط اقطاعه بعض الولايات ولما رفض السلطان هذا الطلب الذي لايكون وراءه الا انقسام الدولة ارسل الامير جما رسولا من طرفه إلى رئيس رهبنة القديس حنا الاورشليمي برودس يطلب منه مساعدته "على اغراضه فقبلوه عندهم بالجزيرة ووصل اليها في ٦ جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ ٢٣ يوليوسنة ١٤٨٢ وقابلة اهلها بكل تجلة واحترام وبعد قليل وصلت إلى الجزيرة وفود من السلطان بايزيد لمخابرة رئيس الرهبنة على ابقاء اخيه جما عندهم تحت الحفظ وفي مقابلة ذلك يتعهد لهم السلطان بعدم التعرض لاستقلال الجزيرة مدة حياته ويدفع مبلغا سنويا للرهبنة المذكورة قدره ٤٥ الف دوكا فقبل رئيسهم ذلك واوفوا بوعدهم ولم يقبلوا تسليمه إلى ملك المجر او امبراطور المانيا اللذين طلبا اطلاق سراحه ليستعملاه آلة في اضعاف الدولة العثمانية بل ارسله رئيس الرهبنة إلى فرنسا ووضع تحت الحفظ اولا في مدينة نيس ثم في شمبري وبقي ينقل من بلدة للاخرى مدة سبع سنوات وفي سنة ١٤٨٩ سلمه رئيس الرهبنة إلى البابا انوسان الثامن وهو خابر السلطان بايزيد طالبا ان يحفظه عنده وتدفع اليه الدولة ما كانت

تدفعه إلى رهبنة رودس فقبلت ثم مات هذا البابا وخلفه اسكندر بورجيا الشهير ويقال ان هذا البابا عرض على السلطان "بايزيد ان يخلصه من اخيه وبعبارة اخرى يقتله لو دفع اليه ثلثمائة الف دوكا

وفي اثناء هذه المخابرات اغار شارل الثامن ملك فرنسا على بلاد ايطاليا لتنفيذ مشروعه الوهمي وهو فتح مدينة القسطنطينية والوصول اليها عن طريق بلاد البنادقة فألبانيا ولذلك كان ارسل دعاة الفتنة والفساد إلى بلاد مقدونيا واليونان لاثارة الافكار ضد العثمانيين لكن خشى ملك نابولي وجمهورية البنادقة من تعاظم شان الدولة الفرنساوية فوضعوا العراقيل امامه وارسلوا إلى السلطان بايزيد يخبرونه بمشروع ملك فرنسا ودسائسه وطلبوا منه ان يرسل جيوشه إلى بلاد ايطاليا وان ياخذ حذره في داخليته وفي هذه الاثناء حاصر ملك فرانسا مدينة رومه وطلب من البابا ان يسلمه الامير جما العثماني فسلمه اليه ويقال انه دس له السم قبل تسليمه اليه وما فتئ هذا الامير مصاحبا لجيوش فرانسا حتى توفي في يوم ١٨ جمادي الاول سنة ٩٠٠ ١٤ فبراير سنة ١٤٩٥ في مدينة نابولي ودفن في بلدة جاييت بايطاليا ثم نقلت جثته بعد ذلك بمدة إلى البلاد العثمانية ودفن في مدينة بورصة في قبور اجداده وتوفي رحمه الله عن ٣٦ سنة قضى منها ١٣ في هذه الحالة الشبيهة بالاسر خارجا عن بلاده هذا ولنأت على ذكر ما حصل في مدة سلطنة بايزيد الثاني من الحروب بطريق الايجاز لعدم حصول فتوحات في ايامه تقريبا فكانت اغلبها على التخوم لصد هجمات المتاخمين ومجازاتهم على ما يرتكبونه من السلب لكن في سنة ١٤٨٧ كانت الحروب تنتشب بين العثمانيين وملوك مصر لمتاخمة بلادهم عند اطنه وطرسوس فبعد مناوشات خفيفة بين الطرفين على الحدود توسط بينهما باي "تونس لعدم حصول الحرب بين اميرين مسلمين فاتفقا على حل مرض للطرفين وساعد على ذلك حب السلطان بايزيد للسلم كما سبق الذكر وكان ذلك في سنة ١٤٩١ وفي السنين التالية حصلت عدة وقائع ذات شأن لم تحصل منها الدولة على نتائج تذكر اذ لم تفتح مدينة بلغراد التي كانت مطمح انظار الدولة لبقائها كنقطة سوداء على شاطئ نهر الدانوب الايمن الفاصل بين املاك الدولة والمجر

ابتداء العلاقات مع دول اوروبا

وفي عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة العلية مع مملكة الروس وذلك انه بعد تفرق مملكة الروس الاولى عقب اغارة المغول على بلادهم وتسلطهم عليها مدة استخلصها ايوان الثالث وكان يلقب دوق موسكو واعاد لها بعض مجدها السابق في سنة ١٤٨١ م وابتدأت العلاقات بينها وبين الدولة في سنة ١٤٩٢ حيث وصل إلى القسطنطينية اول سفير روسي ومعه جملة هدايا للسلطان وبعد ذلك باربع سنوات اتى اليها سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض "امتيازات لتجار الروس

وكذلك ابتدأت في عهده المواصلات الحبية مع مملكة بولونيا فعقدت معاهدة بين المملكتين في سنة ١٤٩٠ وتجددت في سنة ١٤٩٢ لكن لم يلبث هذا الوفاق ان تكدر صفاؤه بسبب ادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد البغدان واغارة ملك بولونيا عليها فالتزم العثمانيون بطرد المجر منها والاغارة على حدود بولونيا بمساعدة امير بغدان نفسه الذي قبل حماية الباب العالي عليها وكذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية في ذلك الحين وبين البابا اسكندر السادس بورجيا وملك نابولي وجوك ميلانو وجمهورية فلورنسا فكان كل منهم يجتهد في محالفة الدولة العلية والاستعانة بجنودها البرية ومراكبها

"عصيان اولاد السلطان عليه وتنازله عن الملك لابنه سليم

ولقد تكدر صفاء حياة الملك في سني حكمه الاخيرة بعصيان اولاده عليه واضرامهم نار الحروب الداخلية التي لولا ما وقع في قلوب اعدائها من الرعب لكانت هذة الحروب العائلية فرصة عظيمة لهم وذلك ان السلطان بايزيد الثاني كان له ثمانية اولاد ذكور توفي منهم خمسة في صغرهم وبقي ثلاثة وهم كركود واحمد وسليم وكان اولهم مشتغلا بالعلوم والاداب ومجالسة العلماء ولذا كان يمقته الجيش لعدم ميله للحرب والثاني كان محبوبا لدى الاعيان والامراء وكان علي باشا اكبر الوزراء مخلصا له وكان ثالثهم وهو سليم محبا للحرب ومحبوبا لدى الجند عموما والانكشارية خصوصا

ولاختلافهم في المشارب والآراء خشي والدهم وقوع الشقاق بينهم ففرق بينهم وعين كركود واليا على احدى الولايات البعيدة واحمد على اماسيا وسليما على طرابزون وعين ايضا سليمان بن ابنه سليم

واليا على كافا من بلاد القرم فلم يرض سليم بهذا التعيين بل ترك مقر وظيفته وسافر إلى كافا بالقرم وارسل إلى ابيه يطلب منه تعيينه في احدى ولايات اوروبا فلم يقبل السلطان بل اصر على بقائه بطرابزون فعصى سليم والده جهارا وسار بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملي وارسل والده جيشا لارهابه ولما وجد من ابنه التصميم على المحاربة قبل تعيينه باوروبا حقنا للدماء وعينه واليا على مدينتي سمندريه وودين سنة ١٥١١ ولما وصل إلى كركود خبر نجاح اخيه سليم في مقاومته انتقل إلى ولاية صاروخان واستلم ادارتها بدون امر ابيه ليكون قريبا من القسطنطينية عند الحاجة "ثم سار سليم إلى ادرنه واعلن نفسه سلطانا عليها فارسل والده اليه من هزمه والجأه إلى الفرار ببلاد القرم وارسل جيشا آخر لمحاربة كركود بآسيا فهزمه ايضا لكن التزم السلطان بايزيد بالعفو عن ابنه سليم بناء على الحاح الانكشارية لتعلقهم به واعادته إلى ولاية سمندرية وفي اثناء توجه سليم اليها قابله الانكشارية واتوابه إلى القسطنطينية باحتفال زائد وساروا به إلى سراي السلطان وطلبوا منه التنازل عن الملك لولده المذكور فقبل واستقال في يوم ٨ صفر سنة ٩١٨ ٢٥ ابريل سنة ١٥١٢ وبعد ذلك بعشرين يوما سافر للاقامة ببلدة ديموتيقا فتوفي في الطريق يوم ١٠ ربيع الاول سنة ٩١٨ ٢٦ مايو سنة ١٥١٢ عن ٦٧ سنة ومدة حكمه ٣٢ سنة ويدعى بعض المؤرخين ان ولده دس اليه السم خوفا من رجوعه إلى منصة الملك كما فعل السلطان مراد الثاني الذي سبق ذكره ولم تزد املاك الدولة العلية في زمن السلطان بايزيد الثاني الا قليلا لحبه السلم وحقن المدماء فكانت حروبه الخارجية اضطرارية للمدافعة عن الحدود حتى لا يستخف بها اعداؤها وكان سلمي الطباع كارها للقتل وكان اشهر وزرائه داود باشا الذي تولى الوزارة بعد كدك احمد ومكث بها اربع عشرة سنة واستقال منها باختياره سنة ١٤٩٧ وقضى باقي عمره في عمل الخيرات والمبرات"

فصل - [ذكر السلطان سليم القاطع وهو اول خليفة عثماني و اول من اطلق عليه لقب خادم الحرمين]

"لما كان تعيينه بمساعي الانكشارية يقتضي توزيع المكافآت عليهم حسب المعتاد اعطى لكل نفر منهم خمسين دوكا ثم عين ابنه سليمان حاكما للقسطنطينية وسافر بجيوشه إلى بلاد آسيا لمحاربة اخوته واولاد اخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولم يبق له منازع في الملك فاقتفى اثر اخيه احمد إلى انقرة ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه وبين الوزير مصطفى باشا الذي كان يخبره بمقاصد

السلطان لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاء له وعبرة لغيره ثم ذهب إلى بورصة حيث قبض على خمسة من اولاد اخوته وامر بقتلهم وبعدها توجه بكل سرعة إلى صاروخان مقر اخيه كركود ففر منه إلى الجبال وبعد البحث عليه عدة اسابيع قبض عليه وقتل

اما احمد فجمع جيشا من محازبيه وقاتل العساكر العثمانية فانهزم وقتل بالقرب من مدينة يكى شهر في يوم ١٧ صفر سنة ٩١٩ ٢٤ ابريل سنة ١٥١٣ ولما اطمأن خاطره من جهة داخليته عاد إلى مدينة ادرنه حيث كان بانتظار سفراء من قبل البندقية والمجر والموسكو وسلطنة مصر فابرم مع جميعهم هدنة لمدد طويلة بما ان مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس التي كانت اخذت في النمو والارتقاء في عصر ملكها شاه اسماعيل الشيعي فانه فتح ولاية شيروان وجعل "مركزه مدينة تبريز سنة ١٥٠١ وبعدها فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة ١٥٠٨ وارسل احد قواده فاحتل مدينة بغداد وفي سنة ١٥١٠ ضم إلى املاكه بلاد فارستان واذربيجان وبذلك امتدت مملكته من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر اموداريا

محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز

ولما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد الثاني ساعد الشاه اسماعيل الامير احمد على والده ثم على اخيه من بعده وقبل من فر من اولاده عنده وزيادة عل ذلك ارسل وفدا إلى سلطان مصر يطلب منه التحالف لايقاف سير الدولة العثمانية مبينا له انه ان لم يتفقا حاربت الدولة كلا منهما على حدته وقهرته وسلبت املاكه ولايجاد سبب للحرب امر السلطان سليم بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرية ثم امر بقتلهم جميعا ويقال ان عددهم كان يبلغ نحو الاربعين الفا وهذه المذبحة كالمذبحة التي حصلت بباريس في ٥ جماد اول سنة ٩٨٠ ٢٤ اغسطس سنة ١٥٧٢ المشهورة في التواريخ "بمذبحة سان برتليمي

وبعد ذلك اعلن السلطان سليم الشاه اسماعيل بالحرب وسافر بجيوشه من مدينة أدرنة في ٢٢ محرم سنة ٩٢٠ ١٩ مارس سنة ١٥١٤ وفي أثناء مسيره تبادل مع الشاه إسماعيل رسائل مفعمة بالسباب وسار الجيش العثماني تحت قيادة السلطان سليم نفسه كما جرت به العادة قاصدا مدينة تبريز عاصمة العجم وكانت الجيوش الفارسية تتقهقر امامه خدعة منهم لينهك التعب الجيوش العثمانية فينقضوا عليهم واستمروا في تقهقرهم إلى ارباض تبريز فوقع القتال بين الجيشين في وادي جالديران في

٢ رجب سنة ٩٢٠ ٢٤ اغسطس سنة ١٥١٤ فانتصرت الجيوش العثمانية نصرا مبينا لمساعدة الطوبجية لها وفر الشاه بما بقي من جيوشه ووقع كثير من قواده في الاسر واسرت ايضا احدى زوجاته ولم يقبل السلطان ان يردها لزوجها بل زوجها لاحد كاتبي يده انتقاما من الشاه وفتحت المدينة ابوابها ودخلها السلطان منصورا في يوم ١٤ رجب سنة ٩٢٠ ٤ سبتمبر سنة ١٥١٤ واستولى على خزائن الشاه وارسلها إلى القسطنطينية وكذلك ارسل اليها اربعين شخصا من امهر صناع هذه المدينة الامر الذي يدل على عدم اغفاله تقدم الصنائع اثناء اشتغاله بالحروب وبعد ان استراح ثمانية ايام قام بجيوشه واخلى مدينة تبريز لعدم وجود المؤونة الكافية لجيوشه بها مقتفيا اثر الشاه اسماعيل حتى وصل إلى "شاطئ نهر الرس وعندها امتنع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد وعدم وجود الملابس والمؤونة اللازمة لهم فقفل راجعا إلى مدينة اماسيا بآسيا الصغرى للاستراحة زمن الشتاء والاستعداد للحرب في اوائل الربيع ومر في عودته من بلاد ارمينيا لكنه لم يفتحها لعدم وجود الوقت الكافي لذلك وعندما اقبل الربيع بنضارته رجع السلطان إلى بلاد العجم ففتح قلعة كوماش الشهيرة وامارة ذي القدر سنة ١٥١٥ ثم رجع إلى القسطنطينية تاركا قواده لاتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية ولما وصل اليها امر بقتل عدد عظيم من ضباط الانكشارية الذين كانوا سبب الامتناع عن التقدم في بلاد فارس كما سبق الذكر خشية من امتداد الفساد وعدم الاطاعة في الجيوش وامر بقتل قاضي عسكر هذه الفئة واسمه جعفر جلبي لانه كان من اكبر المحركين لهذا الامتناع وخوفا من حصول مثل ذلك في المستقبل جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام ولم يكن من بينهم ليكون له بذلك السيطرة عليهم وكان النظام السابق يقضي بتعيينه من اقدم ضباط الانكشارية وبعد عودة السلطان إلى القسطنطينية فتحت الجيوش العثمانية مدائن ماردين واورفه والرقة والموصل وبذل تم فتح اقليم ديار بكر واطاعت كافة قبائل الكرد بدون كثير عناء بشرط بقائهم تحت حكم رؤساء قبائلهم.

"[فتح مصر ودخولها ضمن الممالك المحروسة]

ولم ينته السلطان سليم من محاربة الشيعة وفتح بلاد ديار بكر والموصل حتى اخذ في الاستعداد لفتح سلطنة مصر بما ان سلطانها قانصوه الغوري كان تحالف مع الشاه اسماعيل لمحاربة الدولة العلية ولما

علم سلطان مصر بتأهب سلطان آل عثمان لمحاربته ارسل اليه رسولا يعرض عليه ان يتوسط بينه وبين العجم لابرام الصلح فلم يقبل بل طرد السفير بعد ان اهانه وسار بجيشه إلى بلاد الشام قاصدا وادي النيل وكان قانصوه الغوري استعد ايضا لمحاربته فتقابل الجيشان بقرب حلب الشهباء في واد يقال له مرج دابق وهزم الغوري بسبب وقوع الخلاف بين فرق جيشه المؤلف من المماليك وساعدت المدافع العثمانية على النصر وقتل الغوري في اثناء انهزام الجيش وسنه ثمانون سنة وكان ذلك في يوم الاحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ ٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦ وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدائن حماه وحمص ودمشق وعين بها ولاة من طرفه وقابل من بها من العلماء فاحسن وفادتهم وفرق الانعامات على المساجد وامر بترميم الجامع الاموي بدمشق ولما صلى السلطان الجمعة به "اضاف الخطيب عندما دعا له هذه العبارة خادم الحرمين الشريفين وهي مستعملة في الخطبة إلى الآن

هذا ولما وصل خبر موت السلطان الغوري إلى مصر انتخب المماليك طومان باي خلفا له وارسل اليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الباب العالي على القطر المصري فلم يقبل بل استعد لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود فالتقت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام وهزمت مقدمة المماليك واحتل العثمانيون مدينة غزة على طريق مصر وساروا نحو القاهرة حتى وصلوا بالقرب منها وعسكر السلطان بجيشه في اواخر ذي الحجة سنة ٩٢٢ بالخانقاه المعروفة بالخانكة وفي ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ ٢٢ يناير سنة ١٥١٧ انتشب القتال بين الطرفين بجهة العادلي جهة الوايلي وفي اثناء القتال قصد طومان باي وبعض الشجعان مركز السلطان سليم وقتلوا من حوله واسروا وزيره سنان بك وقتله طومان باي بيده ظنا منه انه هو السلطان سليم نفسه ولم تنفع شجاعتهم شيئا بل تغلب عليهم بمدافعه ومدافعهم التي استولى عليها وقت الحرب وبعد ذلك بثمانية ايام في يوم ٨ محرم سنة ٩٢٣ دخل العثمانيون مدينة القاهرة رغما عن مقاومة المماليك الذين حاربوهم من شارع لآخر ومن منزل لآخر حتى قتل منهم ومن اهالي البلد ما يبلغ خمسين الف نسمة اما طومان باي فالتجأ ومن بقي معه إلى بر الجيزة وصار يناوش العثمانيين ويقتل كل من يأسره منهم لكنه لم يلبث ان وقع في ايدي العثمانيين بخيانة بعض من معه وشنق بامر السلطان سليم في ١٣ ابريل سنة ١٥١٧ ٢١ ربيع الاول سنة ٩٢٣ بباب زويله ودفن بالقبر الذي كان اعده السلطان الغوري لنفسه وبعد

ان مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر اقام في منيل الروضة واخذ في زيارة جوامع المدينة وكل ما بها من الآثار ووزع على اعيان المدينة العطايا والخلع السنية وحضر الاحتفال الذي يحصل بمصر سنويا لفتح الخليج الناصري عند بلوغ "النيل الدرجة الكافية لري الاراضي المصرية ثم حضر احتفال سفر المحمل الشريف وقافلة الحجاج التي ترسل معها الكسوة الشريفة إلى الاراضي الحجازية وارسل الصرة المعتاد ارسالها إلى الحرمين الشريفين بقصد توزيعها على الفقراء من عهد السلطان محمد جلبي العثماني وابلغها إلى ثمانية وعشرين الف دوكا

ومما جعل لفتح وادي النيل اهمية تاريخية عظمى ان محمد المتوكل على الله آخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر اجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر خلافة بني العباس في قبضة هولاكو خان التتري سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٠٩١ م وكانت له الخلافة بمصر اسما تنازل عن حقه في الخلافة الاسلامية إلى السلطان سليم العثماني وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة وسلمه ايضا مفاتيح الحرمين الشريفين ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني اميرا للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسما وفعلا هذا وقد جاء بالجزء السابع من الخطط الجديدة التوفيقية للمرحوم علي باشا مبارك بخصوص ما اجراه السلطان سليم الغازي من الترتبات بمصر ما يأتي ولما اخذ مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم رأى ان بعد الولاية عن مركز الدولة ربما اوجب خروج حاكمها عن الطاعة وتطلبه الاستقلال فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة اقسام وجعل في كل قسم رئيسا وجعلهم جميعا منقادين لكلمة واحدة هي كلمة وزير الديوان الكبير وجعله مركبا من الباشا الوالي من قبله ومن بيكوات السبع وجاقات وجعل للباشا مزية توصيل اوامر السلطان إلى المجلس وحفظ البلاد وتوصيل الخراج إلى القسطنطينية ومنع كلا من الاعضاء العلو على صاحبه وجعل لاعضاء المجلس مزية نقض اوامر الباشا باسباب تبدو لهم وعزله ان رأوا ذلك والتصديق على جميع الاوامر التي تصدر منه في الامور الداخلية وجعل حكام المديريات الاربع والعشرين

فصل - اضافة تشكيل في النصوص القادمة -

من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج فِي الْبِلَاد وقمع العربان وصدهم عَنْهَا والمحافظة على مَا فِي داخلها وكل ذَلِك بأوامر تصدر لَهُم من الْمجْلس وجردهم عَن التَّصَرُّف من انفسهم ولقب احدهم الْمُقِيم بِالْقَاهِرَةِ بشيخ الْبَلَد ثمَّ رتب الْخراج وقسمه اقساما ثَلَاثَة وَجعل من الْقسم الاول مَاهِيَة عشْرين الف عسكري بالقطر من المشاة واثني عشر الْفَا من الخيالة وَالْقسم الثَّانِي يُرْسل إِلَى الْمَدِينَة المنورة وَمَكَّة المشرفة وَالْقسم الثَّالِث يُرْسل إِلَى خزينة الْبَاب العالي وَلم يلْتَفت إِلَى رَاحَة الاهالي بل تَركهَا عرضة للمضار كَمَا كَانَت وَمن هَذَا التَّرْتِيب تمكنت الدولة الْعلية من ابقاء الديار المصرية تَحت تصرفها نَحْو مِائَتي سنة ثمَّ اهملت بعد ذَلِك القوانين الَّتِي وَضعهَا السُّلْطَان سليم من حِين استيلائه عَلَيْهَا وَكَانَت هِيَ الاساس وَلم تلْتَفت الدولة لما كَانَ يحصل من المماليك من الامور المخلة بالنظام فضعفت شَوْكَة الدولة وهيبتها الَّتِي كَانَت لَهَا على مصر واخذ البكوات تكْثر من المماليك وتتقوى بهَا حَتَّى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فِي الديار المصرية فآل الامر وَالنَّهْي لَهُم فِي الْحُكُومَة وَصَارَت الدولة صورية غير حَقِيقِيَّة وَسبب ذَلِك اكثارهم من شِرَاء المماليك وَلَو كَانَت الدولة الْعلية تنبهت لهَذَا الامر ومنعت بيع الرَّقِيق لكَانَتْ الامور بَاقِيَة على مَا وَضعهَا السُّلْطَان سليم وَلَكِن غفلت عَن هَذَا الامر كَمَا غفلت عَن امور كَثِيرَة وَمن ذَلِك لحق الاهالي الذل والاهانة وَهَاجَر كثير مِنْهُم إِلَى الديار الشامية والحجازية وَغَيرهمَا وَخربَتْ الْبِلَاد وتعطلت الزِّرَاعَة من قلَّة المزارعين وَعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان الَّتِي عَلَيْهَا مدَار الخصب ونتج من ذَلِك وَمن خوف الدولة الْعلية من تمكن الباشا فِي الْحُكُومَة ان تغلبت البكوات وَصَارَت كلمتهم هِيَ النافذة وانفردوا بِالتَّصَرُّفِ وَفِي اوائل شهر سبتمبر سنة ١٥١٧ سَافر السُّلْطَان سليم من الْقَاهِرَة عَائِدًا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّة الَّتِي صَارَت من ذَلِك الْوَقْت مقرّ الْخلَافَة الاسلامية الْعُظْمَى وَكَانَ سَفَره عَن طَرِيق بِلَاد الشَّام مستصحبا مَعَه آخر بني الْعَبَّاس وَعين خير بك واليا على مصر وَهُوَ أحد امراء المماليك الَّذين خانوا طومان باي وانضموا إليه وَترك "بِالْقَاهِرَةِ حامية كَافِيَة لحفظ الامن تَحت قيادة خير الدّين آغا الانكشاري وَفِي اثناء مروره بصحراء الْعَريش التفت لوزيره الاكبر يُونُس باشا الَّذِي كَانَ فتح مصر على غير رَأْيه وَقَالَ لَهُ مَا مَعْنَاهُ انه قد اتم فتحهَا خلافًا لرأيه فَجَاوبه يُونُس باشا بَان فتحهَا لم يعد عَلَيْهِ بِشَيْء الا قتل نَحْو نصف الْجَيْش بِمَا انه سلمهَا لخائن كَانَ غَرَضه التَّمَلُّك عَلَيْهَا لنَفسِهِ فَلَا يُؤمن وَلَاؤُه للدولة فَغَضب السُّلْطَان من هَذَا الْكَلَام الموجه اليه بِصفة لوم وامر بقتْله فِي الْحَال فَقتل وَكَانَ ذَلِك فِي ٦ رَمَضَان سنة ٩٢٣ وَعين مَكَانَهُ بيري مُحَمَّد باشا الَّذِي كَانَ معينا قَائِم مقَام السُّلْطَان فِي الْقُسْطَنْطِينِيَّة اثناء تغيبه فِي فتح مصر لثقته

بِهِ بِنَاء على مَا اظهره من اصالة الرَّأْي فِي محاربة الشاه اسماعيل وَفِي ٢٠ رَمَضَان سنة ٩٢٣ وصل السُّلْطَان إِلَى مَدِينَة دمشق وَمكث بهَا إِلَى ٢٢ صفر سنة ٩٢٤ ثمَّ سَافر إِلَى مَدِينَة حلب بعد ان حضر الاحتفال باقامة الصَّلَاة اول مرّة فِي الْجَامِع الَّذِي اقامه بِدِمَشْق على قبر محيي الدّين بن الْعَرَبِيّ فِي ٢٤ محرم سنة ٩٢٤ ٢٥ وَبعد أَن أَقَامَ بحلب مُدَّة شَهْرَيْن سَافر قَاصِدا عَاصِمَة ملكه فوصلها فِي ١٧ رَجَب سنة ٩٢٤ ٢٥ يوليه سنة ١٥١٨ ثمَّ ارتحل عَنْهَا إِلَى مَدِينَة ادرنه بعد عشرَة ايام قَضَاهَا فِي الاسْتِرَاحَة من أتعاب السّفر وَكَانَ وَلَده سُلَيْمَان معينا حَاكما لَهَا مُدَّة غياب وَالِده وَبعد وُصُول أَبِيه بِتِسْعَة ايام استأذنه الامير سُلَيْمَان فِي السّفر إِلَى وِلَايَة صاروخان الْمعِين واليا عَلَيْهَا وَفِي أثناء اقامة السُّلْطَان بِمَدِينَة ادرنه وصل اليه سفير من قبل مملكة إسبانيا ليخابره بشأن حريَّة زِيَارَة المسيحيين للقدس الشريف الَّذِي كَانَ قبلا تَابعا لسلطنة مصر وتبعها فِي دُخُولهَا تَحت ظلّ الدولة الْعلية فِي مُقَابلَة دفع الْمبلغ الَّذِي كَانَ يدْفع "سنويا للمماليك فاحسن السُّلْطَان مُقَابلَته وَصرح بقبوله ذَلِك إِذا ارسل ملكه رَسُولا آخر مخولا لَهُ حق ابرام معاهدة مَعَ الْبَاب العالي وَكَذَلِكَ اتى اليه فِيهَا سفير من قبل جمهورية البندقية ليدفع لَهُ خراج سنتَيْن متاخر الْخراج الْمُقَرّر عَلَيْهَا نَظِير بَقَائِهَا فِي جَزِيرَة قبرص

وَكَانَ فِي هَذِه الْمدَّة مشتغلا بتجهيز عمَارَة بحريّة لمعاودة الكرة على جَزِيرَة رودس بحرا وَكَانَ يستعد ايضا لمحاربة شاه الْعَجم ثَانِيًا فَجمع خَمْسَة عشر الف فَارس بِمَدِينَة قيصرية وَضم اليهم ثَلَاثِينَ الف جندي من المشاة تَحت قيادة فرحات باشا بيلر بك الاناطول وارسل اليهم عددا عَظِيما من المدافع والذخائر لَكِن لم يمهله الْمنون ريثما يتم مَشْرُوع فتح جَزِيرَة رودس بل عاجله فِي رحلته من الْقُسْطَنْطِينِيَّة إِلَى ادرنه فَتوفي فِي يَوْم ٩ شَوَّال سنة ٩٢٦ ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠ فِي السّنة التَّاسِعَة من حكمه والحادية وَالْخمسين من عمره اذ كَانَت وِلَادَته فِي سنة ٩٧٥ واخفى طبيبه الخصوصي خبر مَوته عَن الْحَاشِيَة وَلم يبلغهُ الا للوزراء فَاجْتمع كل من بير مُحَمَّد باشا وَاحْمَدْ باشا ومصطفى باشا وقرروا اخفاء هَذَا الامر حَتَّى يحضر وَلَده سُلَيْمَان من اقليم صاروخان خوفًا من ان تثور الانكشارية كَمَا هِيَ عَادَتهم فَكَانَت مُدَّة حكمه كمدة حكم جده مُحَمَّد الفاتح أَيَّام فتوحات خارجية وتنظيمات داخلية إِلَّا أَنه كَانَ ميالا لسفك الدِّمَاء فَقتل سَبْعَة من وزرائه لأسباب واهية وَكَانَ كل وَزِير مهدد بِالْقَتْلِ لاقل هفوة حَتَّى صَار يدعى على من يرام مَوته بَان يصبح وزيرا لَهُ وَبنى كثيرا من الْجَوَامِع

وحول اجمل كنائس الْقُسْطَنْطِينِيَّة إِلَى مَسَاجِد مَعَ سبق الْوَعْد من السُّلْطَان مُحَمَّد الثَّانِي الفاتح لبطريق الرّوم بِعَدَمِ مس نصف الْكَنَائِس الثَّانِي الَّذِي تَركه لَهُم بعد فتح الْمَدِينَة كَمَا مر.

فصل - [ذكر السلطان الغازي سليمان القانوني وفي عهده امتدت دولة بني عثمان لأقصى اتساع لها]
"ولد هذا الملك الذي بلغت الدولة العلية في مدته اعلى درجات الكمال في غرة شعبان سنة ٩٠٠ هجرية ٢٧ ابريل سنة ١٤٩٥ م وهو عاشر ملوك آل عثمان ولو عده بعض المؤرخين حادي عشرهم باعتبار سليمان الذي نازع اخاه محمد جلبي الملك سلطانا فذلك خطأ لانه لم يحكم بصفة قانونية ولذلك اجمع المؤرخين على تسمية السلطان سليمان الاول واعتباره عاشر ملوك هذه الدولة وهو الاصح

وبمجرد وصول خبر موت ابيه قام قاصدا القسطنطينية ودخلها في يوم ١٦ شوال سنة ٩٢٦ ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٠ وكان في انتظاره على افريز السراي جنود الانكشارية فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا المعتاد توزيعها عليهم عند تولية كل ملك وبعد ظهر ذلك اليوم حضر بير محمد باشا من ادرنه واخبر عن وصول جثة المرحوم السلطان سليم في اليوم التالي

وفي صبيحة ١٧ شوال جرت رسوم المقابلات السلطانية فوفد الامراء والوزراء والاعيان يعزون السلطان بموت والده ويهنؤنه بالخلافة في آن واحد وهو يقابلهم بملابس الحداد وعند الظهر وصل اليه خبر قدوم الجثة فخرج لمقابلة النعش خارج المدينة وسار في الجنازة حتى واروها التراب على احد مرتفعات المدينة وامر ببناء جامع شاهق وهو جامع سليمية ومدرسة في المحل الذي دفن فيه.

"فتح مدينة بلغراد
وعند وصول راسه إلى العاصمة ورد خبر قتل السفير الذي ارسله السلطان إلى ملك المجر يطلب منه دفع الجزية او الحرب فاستشاط السلطان غضبا وامر بتجهيز الجيوش وجمع كل ما يلزمهم من المؤنة والذخائر لمحاربة المجر وسار هو بنفسه في مقدمة الجيش وارسل احد مشاهير قواده واسمه احمد باشا لمحاصرة مدينة شابتس القريبة من بلغراد ففتحها في ٢ شعبان سنة ٩٢٧ ووصل "اليها السلطان في اليوم التالي ثم سافر بالجيوش التي كانت مشتغلة بحصار هذه المدينة لمساعدة وزيره بير محمد باشا على

تضييق الحصار على مدينة بلغراد ففتحت بعد دفاع شديد واخلت الجنود المجرية قلعتها في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ ٢٩ اغسطس سنة ١٥٢١ ودخلها السلطان وصلى الجمعة في احدى كنائسها التي حولت مسجدا وصارت هذه المدينة التي كانت امنع حصن للمجريين ضد تقدم الدولة العلية اكبر مساعد لها على فتح ما وراء نهر الدانوب من الاقاليم والبلدان واعلن السلطان هذا الانتصار إلى جميع الولاة وملوك اوروبا ورئيس جمهورية البنادقة ثم عاد إلى القسطنطينية مكللا بالنصر والظفر على الاعداء وارسل اليه قيصر الروس يهنئه بالفوز والظفر وكذلك رؤساء جمهوريتي البندقية وراجوزة وفي اول محرم سنة ٩٢٨ امضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة وزيد عليها ان وكيل الجمهورية في الاستانة قنصلها يجب تغييره كل ثلاث سنوات وان قضايا التركات تنظر بطرفه وان يكون له الحق في ارسال ترجمان لحضور المرافعة في القضايا التي تقام ضد رعايا حكومته امام المحاكم العثمانية وان يكون الخراج الذي يدفع منها إلى الدولة نظير احتلالها جزيرتي قبرص وزانطة عشرة آلاف دوكا عن الاولى وخمسمائة "عن الثانية ولهذه المعاهدة اهمية عظمى لانها اساس الامتيازات القنصلية ببلاد الدولة العلية

فتح جزيرة رودس

وبعد ذلك اخذ السلطان في الاستعداد برا وبحرا لفتح جزيرة رودس التي لم يتمكن السلطان محمد الفاتح من فتحها لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر ولكي لا يكون للمسيحيين مركز حصين في وسط بلاده تلجأ إليه عمارات الدول المعادية للدولة وقت الحرب واراد الاسراع في تتميم هذا العمل العظيم الذي عجز عنه لوجود ملوك أوروبا مشتغلين في جهات اخرى لا يمكنهم مساعدة الرهبنة المحتلة لها فكان ملك فرانسا فرانسوا "الاول وشارل الخامس الشهير بشارلكان ملك اسبانيا والمانيا معا مشتغلين بمحاربة بعضهما والبابا لاون العاشر مشتغلا بمجادلة ومقاومة الراهب الالماني لوثر مؤسس مذهب البروتستانت وبلاد المجر مضطربة في الداخل بسبب "عدم اتفاق امرائها واعيانها وصغر سن ملكها لويس الثاني كل هذه الاسباب حملت السلطان على انتهاز هذه الفرصة لفتح هذا الحصن المنيع لكن اقتضت شفقته ان يرسل إلى رئيس الرهبنة قبل الشروع في الحرب كتابا يعرض عليه اخلاء الجزيرة والانسحاب منها بكل من معه من المسيحيين الذين يؤثرون المهاجرة

على البقاء متعهدا له بعدم التعرض لانفسهم ولاموالهم ولما لم يقبل رئيسهم هذا الاقتراح امر السلطان العمارة البحرية فاقلعت قاصدة رودس وسافر هو من طريق البر إلى خليج مرمورا المقابل للجزيرة من جهة آسيا فوصلتها الدونانمة في ٢٦ يونيه سنة ١٥٢٢ وارسلت إلى البر مدافع الحصار وامؤنة والذخائر ووصل اليها السلطان في ٢٨ يوليه وبمجرد وصوله ابتدأ الحصار بغاية الشدة ودافع من بها دفاع الابطال خصوصا الرهبان ويقال ان النساء كانت تساعد الرجال في الدفاع بالقاء الاحجار على المحاصرين وصب الزيوت الحارة على رؤسهم لكن لم يجد كل ذلك شيئا امام المدافع العثمانية التي توجد بعض قللها إلى الآن في الجزيرة يستغرب رائيها من ضخامتها ولما اعيت الحيل رئيس هذه الرهبنة واسمه فيليه "دي ليل ادام الفرنساوي الاصل ونفدت مؤنته وذخائره ارسل اثنين من رهبانه إلى السلطان في ٢ صفر سنة ٩٢٩ ٢١ دسمبر سنة ١٥٢٢ يطلب منه السماح لهم باخلاء الجزيرة في مدة اثني عشر يوما بشرط ان تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها حتى لا يحصل للمحصورين ضرر عند خروجهم فقبل السلطان ذلك لكن في ٥ منه دخل المدينة فريق من الانكشارية رغم اوامر السلطان واحتلوا المدينة وارتكبوا كافة انواع القبائح حسب عادتهم فغضب السلطان وامر بمراعاة شروط التسليم وعاقب المفسدين فاعيد الامن وسادت السكينة وفي اليوم التالي قابل السلطان رئيس الرهبنة وانعم عليه بخلعة سنية وفي يوم ١٣ صفر سنة ٩٢٩ اول يناير سنة ١٥٢٣ سافرت هذه الفئة الممحضة نفسها للدفاع عن الدين المسيحي ومحاربة المسلمين قاصدة جزيرة مالطة التي تنازل لها عنها الملك شارلكان واستمرت هذه الرهبنة نازلة بها حتى احتلها بونابرت عند قدومه مصر سنة ١٢١٣ هـ سنة ١٧٩٨ م.وبعد ذلك عاد السلطان إلى القسطنطينية ووفد اليها سفراء من قبل الروسيا والبندقية لتهنئته بالنصر وارسل اليه ايضا ملك العجم سفيرا لهذا الغرض وارسل معه خمسمائة فارس ولما وصل إلى الاستانة امر السلطان ان لايدخلها معه
الاعشرون فقط وفي شهر يونيه سنة ١٥٢٣ عزل الوزير الاول أي الصدر الاعظم بير محمد باشا بناء على دسائس الوزير احمد باشا طمعا في وظيفته لكن خاب مسعاه فقد عين "السلطان مكانه احد خواصه ابراهيم باشا وعين احمد باشا واليا على مصر لوفاة خير بك في الوقت الذي كان فيه السلطان محاصرا لجزيرة رودس ولما وصل احمد باشا إلى القاهرة اخذ في استمالة من بقي من امراء المماليك اليه باقطاعهم الاراضي واغضائه عما يرتكبون منه انواع الاثام والمظالم ولما تحقق من اخلاصهم اعلن العصيان مرة واحدة واستولى على القلعة بعد قتل حاميتها فارسل اليه السلطان امرا بعزله من ولاية

مصر وبالعود إلى الاستانة وتسليم الولاية لخلفه قره موسى فقتل الرسول وقره موسى الوالي الجديد ثم خانه احد وزرائه اسمه محمد بك واراد القبض عليه فهرب واختفى عند عرب البادية فاقتفى اثره حتى ضبطه وقتله وارسل راسه إلى الاستانة فعين بدله قاسم باشا الوالي الاسبق وكوفئ محمد بك بتقليده وظيفة دفتردار الولاية سنة ١٥٢٤

وفي ٢٤ رجب سنة ٩٣٠ ٢٨ مايو سنة ١٥٢٤ ولد للسلطان غلام سمي سليما وهو الذي خلفه باسم سليم الثاني وفي ٢ شعبان ٥ يونيه احتفل بالاستانة بزواج الصدر الاعظم من الانكشارية والسيباه الفرسان السواري لارجاع الامن إلى ربوعها وترتيب ماليتها وتنظيم امورها فسافر ووصل اليها في ٢٤ مارس سنة ١٥٢٥ واقام بالقاهرة حتى اتم ماموريته وغادرها في ٢٢ شعبان سنة ٩٣١ ١٤ يونيه سنة ١٥٢٥ قاصدا الاستانة عن طريق البر مارا بدمشق وقيصرة ووصل القسطنطينية في ٧ سبتمبر من السنة نفسها وقوبل بكل اجلال واحترام لعلو منزلته عند السلطان.

"فتح بلاد المجر وعاصمتها

وفي ٢٥ ابريل سنة ١٥٢٦ سافر السلطان سليمان من القسطنطينية لمحاربة المجر الذين كانت الحرب غير منقطعة بينهم وبين العثمانيين على التخوم وكان الجيش "العثماني مؤلفا من نحو مائة الف جندي و ٣٠٠ مدفع و ٨٠٠ سفينة في نهر الطونة لنقل الجيوش من بر إلى آخر فسار الجيش تحت قيادة السلطان ووزرائه الثلاثة إلى بلاد المجر من طريق الصرب مارين بقلعة بلغراد التي جعلت قاعدة لاعمالهم الحربية وبعد ان افتتح الجيش عدة قلاع ذات اهمية حربية على نهر الطونة وصل باجمعه إلى وادي موهاكس في ٢٠ ذي القعدة سنة ٩٣٢ ٢٨ اغسطس سنة ١٥٢٦ وفي اليوم الثاني اصطفت الجنود العثمانية على ثلاثة صفوف وكان السلطان ومعه كافة المدافع وفرقة الانكشارية في الصف الثالث فهجم فرسان المجر المشهورون بالبسالة والاقدام تحت قيادة السلطان لويس على صفوف العساكر العثمانية الاول فتقهقر امامهم العثمانيون خلف المدافع ولما وصلت فرسان المجر بالقرب من المدافع امر السلطان باطلاقها عليهم فاطلقت تباعا وتوالى اطلاقها بسرعة غريبة اوقعت الرعب في قلوب المجر فاخذوا في التقهقر تتبعهم العساكر المظفرة حتى قتل اغلب الفرسان المجرية

وقتل ملكهم ولم يعثر على جثته فكانت هذه الواقعة سبب ضياع استقلال بلاد المجر باسرها لعدم وجود جيش آخر يقاوم العثمانيين في مسيرهم ولحصول الفوضى في البلاد بسبب موت سلطانهم ولذلك ارسل اهالي مدينة بود عاصمة المجر مفاتيح المدينة إلى السلطان فاستلمها وسار يحف "به النصر ويحدوه الجلال حتى وصل إلى مدينة بود ودخلها في ٣ ذي الحجة سنة ٩٣٢ ١٠ سبتمبر سنة ١٥٢٦ مشددا الاوامر على الجنود بعدم التعرض للاهالي والمحافظة على النظام لكن لم تجد تنبيهاته شيئا بل انتشرت الجنود في جميع انحاء المدينة وفي جميع ارجاء بلاد المجر ناهبين قاتلين مرتكبين كل الفظائع التي ترتكبها الجيوش الغير منتظمة عقب الانتصار كما شوهد ذلك في جميع البلاد حتى في هذا العصر الموسوم بعصر التمدن وبعد دخول السلطان إلى مدينة بود جمع اعيان القوم وامراءهم ووعدهم بان يعين جان زابولي امير ترانسلفانيا ملكا عليهم ثم غادر رحمه الله إلى مقر خلافته
مستصحبا معه كثيرا من نفائس البلاد واهمها الكتب التي كانت موجودة في خزائن متياس كورفن وكذلك فعل نابليون الشهير حينما دخل مصر في اوائل القرن الثالث عشر من الهجرة فانه اخذ كثيرا من كتب الفقه واحكام الشريعة الغراء وتلك كانت عادته عند دخوله أي مملكة من ممالك اوروبا فانه كان يحمل إلى فرانسا كل ما بها من التحف كالصور والتماثيل والكتب والآثار ولولا هذه العادة لما افعمت متاحفها بالآثار والنفائس.

"دخول العثمانيين مدينة تبريز ثاني دفعة

هذا وقد حصل في اثناء اشتغال السلطان بمحاربة النمسا بعض اضطرابات على حدود بلاد العجم وساعد على ذلك خيانة شريف بك خان مدينة بدليس والواقعة على حدود المملكتين وانحيازه إلى مملكة العجم ولذلك ارسل السلطان وزيره الاول ابراهيم باشا لمحاربة هذا العاصي والسير بعد ذلك إلى مدينة تبريز عاصمة العجم لفتحها فسافر ابراهيم باشا وقبل وصوله إلى قونية وصل اليه في ٢ ربيع الآخر سنة ٩٤٠ ٢١ اكتوبر سنة ١٥٣٣ شمس الدين ابن حاكم اذربيجان الذي كان تابعا لملك العجم وانضم إلى السلطانة العثمانية ومعه راس شريف بك الذي حاربه والده وقتله ولذلك سار ابراهيم باشا إلى مدينة حلب لامضاء فصل الشتاء بها وفي اوائل ربيع سنة ١٥٣٤ قام منها بجيوشه قاصدا مدينة تبريز ففتح في طريقه جميع الحصون والقلاع المجاورة لبحيرة وان ووصل بدون كبير

معارضة إلى تبريز ودخلها بسلام في غرة شهر محرم الحرام سنة ٩٤١ هـ ١٣ يوليو سنة ١٥٣٤ م وبنى بها قلعة وجعل في وسطها حامية عثمانية لمنع السكان عن اتيان كل ما يمكن ان يكدر صفو الراحة العمومية

فتح مدينة بغداد

وفي ٢٧ سبتمبر من السنة المذكورة ١٦ صفر سنة ٩٤١ وصل السلطان سليمان الغازي إلى تبريز فقابله الاهالي بكل تبجيل وتعظيم وبعد ان عين السلطان ابن الامير شيروان قائدا لحامية مدينة تبريز وقبل خضوع امير كيلان المدعو ملك مظفر خان وغيره من امراء الفرس الذين تركوا لواء شاه طهماسب ملك العجم وانحازوا إلى ظل الخليفة الاعظم سار السلطان بجيوشه إلى مدينة سلطانية "التي تقهقر اليها الشاه بجيوشه لكن لصعوبة الطرق واستحالة مرور المدافع الضخمة وعربات النقل بها لكثرة الامطار والاوحال تركها السلطان وقصد مدينة بغداد لفتحها فلما اقترب منها تقدم ابراهيم باشا الصدر الاعظم وسر عسكر الجيوش العثمانية لاحتلالها قبل قدوم السلطان فدخلها في يوم ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٩٤١ ٣١ دسمبر سنة ١٥٣٤ ووجدها خاوية من الجنود اذ تركها حاكمها بكل جنوده هربا من الوقوع في قبضة الجنود العثمانية فيذيقونه الحمام وبعد ان اقام السلطان في مدينة بغداد مدة اربعة اشهر رتب الادارة الداخلية. وفي ٢٨ رمضان سنة ٩٤١ الموافق ٢ ابريل سنة ١٥٣٥ سافر السلطان بجيوشه عائدا إلى مدينة تبريز مارا ببلاد الاكراد واقليم المراغه وولى سليمان باشا احد قواد جيوشه على مدينة بغداد ومعه الفا جندي لحمايتها وفي اثناء مسيره وصل إلى معسكره سفير فرنساوي اسمه مسيو لافوري ارسل لتهنئته على فتوحاته الاخيرة ثم وصل إلى مدينة تبريز رابع المحرم سنة ٩٤٢ واقام بها ١٥ يوما قضاها في تعيين الولاة على المدائن المفتتحة حديثا وترتيب شؤون الداخلية ثم قفل راجعا إلى الاستانة فوصلها في ١٤ رجب سنة ٩٤٢ ٨ يناير سنة.

"خير الدين باشا البحري وفتح اقليمي الجزائر وتونس

ولنأت ههنا على ملخص تاريخ خير الدين باشا البحري الذي اشتهر في كتب الافرنج باسم بارب روس أي ذي اللحية الصهباء وما فتحه من البلاد في سواحل بلاد الغرب وجنوب ايطاليا وانا لم نذكر حوادثه حسب ترتيبها لعدم الفصل بها بين اعمال السلطان سليمان الحربية في جهات النمسا غربا

وبلاد العجم شرقا خوفا من تشتيت فكر المطالع فنقول ان اصل خير الدين باشا من اروام جزيرة مدللي احدى جزائر الروم وكان هو واخ له يدعى اوروج يشتغلان بحرفة القراصنة بحر الروم ثم اسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس واستمرا في حرفتهما وهي اسر مراكب المسيحيين التجارية واخذ كافة ما بها من البضائع وبيع ركابها وملاحيها بصفة رقيق وفي "ذات يوم ارسلا إلى السلطان سليم الاول احدى المراكب الماسورة اظهارا لخضوعهم لسلطانه فقبلها منهما وارسل لهما خلعا سنية وعشر سفن ليستعينوا بها على غزو مراكب الافرنج فقويت شوكتهما واشرابت اعناقهما لاحتلال بعض سواحل الغرب باسم سلطان آل عثمان فاستولى خير الدين على ثغر شرشل باقليم الجزائر ثم عاد إلى تونس ومنها ارسل إلى السلطان سليم الذي كان اذ ذاك بمصر رسولا يدعي كرداوغلي يؤكد لديه اخلاصه وولاءه للسدة السلطانية العثمانية اما اوروج فبعد ان استولى على مدينة الجزائر نفسها وهزم الجيوش الاسبانية التي ارسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين على محاربة اوروج فتح ايضا مدينة تلمسان وقتل بعدها بقليل في محاربة الاسبانيين لكن لم يتمكن هؤلاء من استخلاص تلمسان والجزائر بل حفظهما خير الدين وقتل امير الجزائر وارسل من قبله احد اتباعه واسمه الحاج حسين إلى السلطان سليم وقد كان اتم فتح مصر ليخبره بفتح مدينة الجزائر باسمه الشريف فقابله السلطان وعين خير الدين باشا بكلر بك على اقليم الجزائر وبذا صار هذا الاقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه وبعد ذلك استمر خير الدين باشا في غزو مراكب الافرنج والنزول على بعض شواطئ ايطاليا وفرنسا واسبانيا واخذ كل ما تصل اليه يده من اموال واهالي وفتح الحصن الذي اقامه الاسبانيول في جزيرة صغيرة امام مدينة الجزائر ثم ارسل اليه السلطان سليمان بعد تحالفه مع فرانسا ان يكف عن مراكب الفرنساويين وشواطئهم فحول كل قواده على شاطئ اسبانيا وانتقم من اهلها على ما ارتكبوه من الفظائع والمنكرات مع المسلمين بعد سقوط غرناطة في ايديهم وساعد كثيرا "ممن بقي ببلاد الاندلس من المسلمين على الرجوع إلى بلاد الغرب والاستيطان بها فرارا من اضطهاد الاسبانيول واجبارهم لهم على الخروج من دين الاسلام واعتناق الدين المسيحي مما لا يدخل في موضوع هذا الكتاب وفي اوائل سنة ١٥٣٣ استدعاه السلطان سليمان إلى الاستانة ليتفق معه على ما يلزم اتخاذه من الاحتياطات لصد هجمات الاميرال اندري دوريا الجنوي اجير شارلكان فسافر ببعض المراكب ووصل القسطنطينية بعد سفر الصدر الاعظم ابراهيم باشا لمحاربة العجم بقليل فقابله الملك واحسن

وفادته وامره بالاستعداد وانشاء المراكب الكافية لفتح اقليم تونس فاشتغل خير الدين باشا طول الشتاء بانشاء المراكب وفي اوائل صيف سنة ١٥٣٤ بعد ما سافر السلطان سليمان قاصدا مدينة تبريز كما مر خرج خير الدين بمراكبه من بوغاز الدردنيل غير قاصد تونس مباشرة بل عرج في طريقه على جزيرة مالطة وبعض موانيء جنوب ايطاليا لغزو مراكبها واهلها بدون احتلالها حتى لا يعلم قصده الاصلي وهو فتح تونس ثم قصد مدينة تونس في اوائل سنة ١٥٣٥ واعلن الاهالي انه آت لعزل السلطان مولاي حسن آخر سلالة بني حفص وكان الاهالي ناقمين عليه لميله لشارلكان وتنصيب اخيه حسن الرشيد مكانه وبذلك احتل مدينة تونس وثغرها المسمى حلق الوادي بدون كثير عناء باسم السلطان سليمان العثماني ولما وصل الامبراطور شارلكان خبر سقوط تونس اتحد مع رهبنة القديس حنا الاورشليمي التي نزلت بجزيرة مالطة بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع "تونس واعادة مولاي حسن الى تخت ملكه وجهز عمارة قوية قادها هو بنفسه ونزل مع اشراف اسبانيا من ثغر برشلونة في ٢٩ مايو سنة ١٥٣٥ ووصل الى حلق الوادي في ١٦ يونيه وحاصرها هي ومدينة تونس مدة شهر تقريبا وفتحها في ١٤ يوليو واستولى على ما بقلعتها وثغرها من المدافع والمراكب وفي يوم ٢١ يوليو دخلت جيوش شارلكان المدينة وصرح لهم بنهبها فقتلوا ونهبوا وفسقوا وارتكبوا كل انواع المحرمات وهدموا المساجد وحرقوا ومزقوا اغلب الكتب النفيسة وفي اول اغسطس دخلها شارلكان ومنع الجيش عن هذه الاعمال فاستتب الامن وسادت السكينة وفي ثمانية منه امضيت معاهدة بين شارلكان ومولاي حسن الذي اعيد الى ملكه تقضي عليه باخلاء سبيل الارقاء المسيحيين والاباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في اقليم تونس واقامة شعائر دينهم بدون معارضة وان يتنازل لشارلكان عن مدائن بونه وبني زرت وحلق الوادي وان يدفع له مبلغ اثنى عشر الف دوكا مصاريف الحرب وان يقدم له سنويا اثنى عشر حصانا وقدرها من المهارة العربية علامة امتنانه بشرط انه لو خالف احدى هذه الشروط يدفع اول مرة خمسين الف دوكا وفي الثانية مائة الف وفي الثالثة يسقط حقه في الملك وفي ١٧ اغسطس سافر الامبراطور شارلكان تاركا في حلق الوادي الف جندي اسبانيولي وعشرة مراكب حربية اما خير الدين باشا فانه لما راى تحزب الاهالي وميلهم لسلطانهم المعزول وعدم وجود الجنود الكافية معه وبعده عن مركز السلطنة لامداده في الوقت اللازم ارتحل بجنوده على مراكبه.

"سفر الدونانمة العثمانية إلى فرانسا وفتح مدينة نيس

ولما بلغ فرانسوا الاول خبر قتل سفيره ارسل بدله احد ضباطه المسيو بولان إلى السلطان سليمان يطلب منه مساعدته على محاربة شارلكان بسفنه وقائدها خير الدين باشا فتردد السلطان اولا لعدم ثبات ملك فرنسا وضعف عزيمته وقبل اخيرا بناء على الحاح السفير وتعضيد خير الدين باشا له لا سيما وقد وصل اليه خبر مهاجمة شارلكان بجيوشه لمدينة الجزائر وارتداده عنها خائبا في ٣١ اكتوبر سنة ١٥٤١ وفي ربيع سنة ١٥٤٣ سافر السلطان بجيوشه إلى بلاد المجر لاستئناف المحاربات وفي الوقت نفسه اقلع خير الدين باشا من مياه الاستانة بمراكبه ومعه السفير الفرنساوي بولان قاصدا مرسيليا احدى موانئ فرانسا الجنوبية فوصلها بعد ان غزا في طريقه سواحل جزيرة صقلية وقوبل من الفرنساويين بكل تجلة واكبار وانضمت سفنه إلى سفنهم ومنها اقلعوا إلى مدينة نيس فحاصروها من جهة البحر وفتحوها عنوة في ٢١ جمادى الاولى سنة ٩٥٠ ٢٢ اغسطس سنة ١٥٤٣ ولوقوع الشحناء بين العسكرين لم يتم احتلالها "ثم اذن لخير الدين باشا ومراكبه بتمضية فصل الشتاء في ميناء طولون بفرنسا واعطى له ثمانمائة الف ريال فرنساوي للصرف على جنوده.

"[دخول عدن]

فارسل السلطان اوامره إلى من يدعى سليمان باشا والي مصر اذ ذاك بتجهيز عمارة بحرية بثغر السويس على البحر الاحمر لمحاربة البرتغاليين وفتح عدن وبلاد اليمن حتى لا تستولي عليها البرتغال او أي دولة اوروبية اخرى فتصير حجر عثرة في سبيل تقدم الدولة العلية في جهات الشرق وقاعدة لاعمال الدولة التي تحتلها ضد مصر فصدع سليمان باشا بامره وشيد عمارة بحرية هائلة مؤلفة من سبعين سفينة في اقرب وقت وسلحها بالمدافع الضخمة وسار بها في يونيو سنة ١٥٣٨ ومعه عشرون الف جندي وفتح مدائن عدن ومسقط وحاصر جزيرة هرمز عند مدخل "العجم ثم قصد سواحل الجوزرات وفتح اغلب الحصون التي اقامها البرتغاليون هناك لكن اخفق امام ثغر ديو بعد ان حاصره مدة ثم قفل راجعا بالغنائم وفتح في ايامه باقي اقليم اليمن وجعل ولاية عثمانية.

"حصار جزيرة مالطه

فعززت الدونانمات العثمانية وفي اوائل سنة ١٥٦٥ ارسلت عمارة بحرية مؤلفة من نحو مائتي سفينة لفتح جزيرة مالطه مقر رهبنة القديس حنا الاورشليمي لاهمية هذه الجزيرة الواقعة بين اقليم تونس وجنوب ايطاليا وضرورة احتلالها لكل دولة تريد ان تكون لها اليد الطولى على البحر الابيض المتوسط فابتدئ حصارها في شهر مايو من السنة المذكورة واستمر نحو الاربعة شهور بدون ان يكون موت القبودان الشهير طرغول المعروف عند الافرنج باسم دراجوت في اثناء الحصار سببا في عدم استمراره ولما قرب قصل الشتاء الذي تكثر فيه الزوابع البحرية رفع الحصار عنها في ١١ سبتمبر سنة ١٥٦٥ وعادت السفن بجيوشها إلى دار السعادة

"فتح مدينة سكدوار

وفي اثناء ذلك قامت الحرب على قدم ببلاد المجر لان مكسمليان الذي خلف والده فردينان ملك النمسا بعد موته سنة ١٥٦٤ احتل مدينة توكاي من اعمال المجر مقابلة احتلال اسطفن زابولي ملك المجر لاحدى مدائنه ولان الصدر الاعظم الطويل محمد باشا الذي تولى منصب الصدارة عقب موت سميز علي باشا كان محبا للحرب لانه من صقالبة البشناق الميالين للقتال والجلاد ومع ان السلطان كان يتالم من داء النقرس تقلد بنفسه رياسة الجيش في تاسع شوال سنة ٩٧٣ ٢٩ ابريل سنة ١٥٦٦ م وسار لصد هجمات النمسا عن بلاد المجر التابعة له سيادة وعندما وصل اليها قابله ملكها الشاب اسطفن فاحسن اليه واكرم مثواه ووعده انه لن يبرح حتى يعيد له ما اغتيل من بلاده ثم قام بصحبته قاصدا قلعة ارلو الشهيرة التي عجز عن فتحها قبل ذاك التاريخ باربع عشرة سنة كما سبق ذكره لكن بلغه في اثناء الطريق ان امير سكدوار تغلب عل فرقة من جيوشه فاراد ان يغزو بلاده قبل محاصرة قلعة ارلو فسار إلى مدينة سكدوار وابتدأ في حصارها وفي اقل من اسبوعين احتل معاقلها الامامية وبعد ذلك اخلى المحصورون المدينة خفية واحتموا بقلعتها مصرين على الدفاع عنها لآخر رم.

"موت السلطان سليمان

وفي اوائل شهر سبتمبر اشتد مرض السلطان وتوفي في ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ ٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦ عن اربع وسبعين سنة قمرية أي بعد حصار المدينة بنحو خمسة شهور وكانت مدة ملكه ثمانية واربعين سنة قضاها في توسيع نطاق الدولة واعلاء شانها حتى بلغت في ايامه اعلى درجات الكمال واخفى الوزير خبر موته خوفا من وقوع الفشل في المعسكر وارسل لولده سليم بمدينة كوتاهية يخبره بذلك ويطلب منه الحضور على جناح السرعة إلى الاستانة منعا للقلاقل وفي يوم ٨ سبتمبر هجم العثمانيون على القلعة واحتلوها عنوة وفي انتهاء القتال حصلت فرقعة عظيمة انفجرت بسببها ارض القلعة وانهدم بناؤها على من بها من طرفي المتحاربين وذلك ان المحصورين لما راوا ان لا مناص لهم من الانهزام او الموت دبروا هذه المكيدة باعمال عدة الغام اشعلوها بعد احتلال العثمانيين اياها حتى يموتوا ويهلك كافة من دخلها من جنود العثمانيين واعلن الوزير هذا الانتصار لكافة الجهات باسم الملك حرصا على عدم اذاعة موته الذي لم يذعه الا بعد ان اتت اليه اخبار اكيدة من الاستانة بوصول ولده سليم اليها واستلامه مهام الاعمال بها.

فصل - [ذكر السلطان سليم الثاني]

"ولد السلطان سليم الثاني في ٦ رجب سنة ٩٣٠ هجرية ١٠ مايو سنة ١٥٣٣ م وهو ابن روكسلان الروسية سابقة الذكر وتولى الملك بعد موت ابيه ووصل إلى القسطنطينية في ٩ ربيع اول سنة ٩٧٤ ٢٤ دسمبر سنة ١٥٦٦ م وبعد ان مكث بها يومين سار على عجل إلى مدينة سكدوار للاحتفال بارجاع جثة والد المرحوم إلى القسطنطينية فقابله خارج المدينة سفراء فرنسا والبندقية القادمين لتهنئته بالملك ولما وصل مدينة صوفيا في ٦ اكتوبر ارسل الرسل إلى كافة الممالك الخارجية والولايات الداخلية يخبرهم بموت ابيه وتوليته على عرش آل عثمان ومنها قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى اتى الوزير محمد باشا صقللي بجثة والده المرحوم وذلك ان الوزير محمد باشا لم يعلن بوفاة السلطان سليمان الا في اثناء عودته من مدينة سكدوار إلى بلغراد بل اوهم الجند ان السلطان مريض ولا يمكن لاحد مقابلته ولما اعلن موته إلى الجنود بعد موته بنحو خمسين يوما لبست الجيوش عليه الحداد وساروا إلى بلغراد حيث كان سليم الثاني في انتظارهم فطلبت الجنود منه ان يوزع عليهم العطايا المعتادة فابى ثم اذعن لطلباتهم لاظهارهم العصيان والتمرد وعدم اطاعتهم اوامر ضباطهم

وامتهانهم لهم بحضور السلطان ولم يكن السلطان متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات ابيه فضلا عن اضافة شيء اليها ولولا وجود الوزير الطويل محمد باشا صقللي المدرب على الاعمال الحربية السياسية للحق الدولة الفشل لكن حسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب اعدائها حفظتها من السقوط مرة واحدة فتم الصلح بينها وبين النمسا بمعاهدة تاريخها ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ من شروطها حفظ النمسا "املاكها في بلاد المجر ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السابقة واعترافها بتبعية امراء ترانسلفانيا والفلاخ والبغدان إلى الدولة العلية وتجددت ايضا الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف الباب العالي بالتحالف الذي حصل ما بين ملك بولونيا وامير البغدان وكذلك جددت مع شارل التاسع ملك فرنسا في سنة ١٥٦٩ الاتفاقيات التي تمت بين الدولتين في عصر السلطان سليمان وايد السلطان سليم الامتيازات القنصلية وزاد عليها امتيازات اخرى اهمها معافاة كل فرنساوي من دفع الخراج الشخصي وان يكون للقناصل الحق في البحث عمن يكون عند العثمانيين من الفرنساويين في حالة الرق واطلاق سراحهم والبحث عمن اخذهم بصفة رقيق لمجازاته وان يرد السلطان كافة الاشياء التي تاخذها قراصنة البحر من المراكب الفرنساوية ومعاقبة الاخذ لها وان تكون المراكب العثمانية ملزمة بمساعدة ما يرتطم من السفن الفرنساوية على شواطئ الدولة وبحفظ ما بها من الرجال والمتاع وان يكون لفرنسا كل الامتيازات الممنوحة لجمهورية البنادقة ولزيادة توثيق عرى الاتحاد بين الدولة وفرنسا وزيادة نفوذ اتحادهما اتفقت الدولتين على ترشيح هنري دي فالوا اخي ملك فرنسا لعرش بولونيا ليكون لهم ظهيرا ضد النمسا من جهة والروسيا من اخرى وقد تم ذلك فعلا وصارت بولونيا تحت حماية الدولة العلية حماية فعلية وان لم تكن اسمية وبذلك صارت فرنسا ملكة التجارة في البحر الابيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة وارسلت" "تحت ظل هذه المعاهدات عدة ارساليات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة الموجودة بها مسيحيون خصوصا في بلاد الشام لتعليم اولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدولة بسبب تدخل القناصل في الاجراءآت الداخلية بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين واتخاذها لها سبيلا لامتداد نفوذها بين رعايا الدولة المسيحيين واهم نتائج هذا التدخل واضره مآلا واوخمه عاقبة استعمال هذه الارساليات الدينية في حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي حتى إذا ضعفت الدولة امكن هذه الشعوب الاستقلال بمساعدة الدول المسيحية او الانضمام إلى احدى هاته الدول كما شوهد ذلك في هذا القرن الاخير مما سياتي مفصلا بالشرح

الكافي والبيان الوافي ومن اعمال الوزير محمد باشا صقللي ان ارسل جيشا عظيما إلى بلاد اليمن في سنة ٩٧٦ سنة ١٥٦٩ م تحت قيادة عثمان باشا الذي عين عاملا عليها لقمع ثورة اهاليها الذين عصوا الدولة اتباعا لامر سلطانهم الشريف مطهر بن شرف الدين يحيى فانتصر عثمان باشا عليهم بمساعدة سنان باشا والي مصر ودخلت الجيوش المظفرة بمدينة صنعاء بعد ان فتحت جميع القلاع

فتح جزيرة قبرص

وفي اوائل السنة التالية اعترف الشريف مطهر بسيادة الباب العالي على بلاده ومن اعماله ايضا فتح جزيرة قبرص التي كانت تابعة للبندقية فارسلت اليها المراكب الحربية في سنة ٩٧٨ سنة ١٥٧٠ تحت امرة بيالي باشا تحمل مائة الف جندي يقودها لاله مصطفى باشا الذي كانت له اليد الطولى في عصيان وقتل بايزيد "اخي السلطان سليم فرست السفن امام مدينة ليمازون لفقوسه كذا ذكرها القرماني في اول اغسطس وفتحت في ٨ ربيع الآخر سنة ٩٧٨ ٩ سبتمبر سنة ١٥٧٠ ثم وضع الحصار امام مدينة فماجوست ماغوسه كذا ذكرها القرماني ولاقتراب فصل الشتاء امهل فتحها إلى اوائل الربيع وابتدأت اعمال الحصار ثانيا في ابريل سنة ١٥٧١ وفتحت في ١٠ ربيع الاول سنة ٩٧٩ ٢ اغسطس من السنة المذكورة وبذلك تم فتح جزيرة قبرص وصارت من ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية إلى ان احتلها الانكليز بكيفية غريبة سنة ١٨٧٨ كما ترى في اواخر هذا الكتاب

واقعة ليبانت البحرية

وفي هذه الاثناء غزت المراكب العثمانية جزيرة كريد وظنته وغيرها بدون ان تفتحها واحتلت مدائن دلنسنيو وانتيباري على البحر الادرياتيكي "ولما رات البندقية تغلب العثمانيين عليها وفتح كثير من بلادها استعانت باسبانيا والبابا وتم بينهم الاتفاق على محاربة الدولة بحرا خوفا من امتداد سلطتها على بلاد ايطاليا فجمعوا مراكبهم وجعلوا دون جوان ابن شارلكان سفاحا من احدى خليلاته اميرا عليها فسارت سفن المسيحين إلى شواطئ الدولة وكانت تلك الدونانمة المختلطة مؤلفة من ٧٠ سفينة اسبانيولية و ١٤٠ من سفن البنادقة و ١٢ للبابا و ٩ من سفن رهبنة مالطه

وقابلت هذه الدونانمة العمارة العثمانية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة في ١٧ جمادى الاولى سنة ٩٧٩ ٧ اكتوبر سنة ١٥٧١ بالقرب من ليبنة واشتبك بينهم القتال مدة ثلاث ساعات متوالية انتهى الامر بعدها بانتصار الدونانمة المسيحية فاخذت ١٣٠ سفينة عثمانية واحرقت واغرقت ٩٤ وغنمت ٣٠٠ مدفعا و ٣٠ الف اسيرا وهذه اول واقعة حصلت بين الدولة من جهة واكثر من دولتين مسيحيتين من جهة اخرى واشتراك البابا فيها يدل على ان المحرك لهذه التالبات ضد الدولة الاسلامية الوحيدة هو الدين كما ايدته الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون وكان لهذا الفوز رنة فرح في قلوب المسيحيين اجمع حتى ان البابا خطب في كنيسة ماري بطرس برومه وشكر دون جوان على انتصاره على السفن الاسلامية "وذلك مما لايجعل عند المطالع اقل ريبة او شك في ان المسالة الشرقية مسالة دينية لا سياسية كما ادعاه ويدعيه الاوروبيون ويغتر به السذج الغير المطلعين

ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الاستانة هاج المسلمون على المسيحيين وهموا بقتل المرسلين الكاثوليك لولا تدارك الوزير محمد باشا صقللي الامر بان حجز هؤلاء المرسلين تحت الحفظ حتى تعود السكينة إلى ربوعها وقد اخرجهم بناء على الحاح سفير فرنسا ولم تقعد هذه الحادثة المشؤمة همه هذا الوزير بل انتهز فرصة الشتاء وعدم امكان استمرار الحرب لتشييد دونانمة اخرى وبذل النفس والنفيس في تجهيزها وتسليحها حتى إذا اقبل صيف سنة ١٥٧٢ كان قد تم استعداد ٢٥٠ سفينة جديدة وفي هذه السنة لم تحصل وقائع بحرية مهمة لوقوع الشقاق بين القبودان البندقي والقبودان الاسبانيولي حتى ان جمهورية البندقية سعت في التقرب إلى الدولة العلية فعرضت عليها الصلح واستمرت بينهم المخابرات مدة وفي ٣ ذي القعدة سنة ٩٨٠ ٧ مارس سنة ١٥٧٣ تم الصلح على ان تتنازل البندقية للدولة عن جزيرة قبرص وان تدفع لها غرامة حربية قدرها ٣٠٠ الف دوكا اما من جهة اسبانيا فقد قصد دون جوان مدينة تونس في اواخر سنة ١٥٧٢ واحتلها بدون مقاومة لارتحال من كان بها من العثمانيين عند قدوم السفن الاسبانيولية وتحققهم من أن الدفاع لا يجدي نفعا لقلة عددهم بالنسبة للاسبانيول فاحتلها دون جوان واعاد اليها سلطانها مولاي حسن الذي التجأ اليهم عند احتلال العثمانيين لبلاده لكن لم يلبث الا نحو ٨ اشهر لاسترجاعها ثانية إلى املاك الدولة بمعرفة سنان باشا في اغسطس سنة ١٥٧٥ وفي جهة بلاد البغدان انتصر العثمانيون بعد موقعة هائلة اهرقت فيها الدماء كالسيول المنهمرة في ٩ يونيو سنة ١٥٧٤ على الامير ايوونيا الذي تمرد على الدولة

طلبا للاستقلال وصلب جزاء عصيانه وعبرة لغيره وفي ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢ ١٢ دسمبر سنة ١٥٧٤ توفي السلطان سليم الثاني وعمره اثنين وخمسون سنة قمرية ومدة حكمه ثماني سنين و ٥ اشهر وتوفي عن ستة اولاد وهم مراد ومحمد وسليمان ومصطفى وجهانكير وعبد الله وثلاث بنات تولى بعده ابنه السلطان مراد الثالث.

فصل - [ذكر السلطان مراد الثالث وفي عهده دخلت كافة اوروبا الشرقية ضمن الممالك العثمانية]

"ولد هذا السلطان بالقسطنطينية في ٥ جمادى الاولى سنة ٩٥٣ هـ ٤ يوليه سنة ١٥٤٦ وكانت فاتحة اعماله ان اصدر امرا بعدم شرب الخمر الذي شاع استعماله ايام السلطان السابق وافرط فيه الجنود خصوصا الانكشارية فثار الانكشارية لذلك واضطروه لاباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية وامر بقتل اخوته وكانوا خمسة ليامن على الملك من المنازعة اذ صار قتل الاخوة عادة تقريبا وفي اوائل سنة ١٥٧٥ ترك هنري دي فالوا ملك بولونيا مقر حكومته عائدا لفرانسا ولما بلغ الباب العالي خبر سفره اوصى اشراف بولونيا بانتخاب باتوري امير ترنسلفانيا التابع للدولة العلية ملكا عليهم فانتخبوه في اواخر السنة المذكورة وبذلك صارت بولونيا نفسها تحت حمايتها هذا وحصلت على حدود النمسا عدة مناوشات سال فيها الدماء بين الطرفين بدون اشهار حرب وفي اواخر سنة ١٥٧٦ امضيت هدنة سلم بين الباب العالي والامبراطور رودلف الذي خلف مكسمليان الثاني لمدة ثماني سنوات تبتدئ من اول يناير سنة ١٥٧٧ وعند بيان املاك الدولة العلية بهذه المعاهدة "ذكرت بولونيا ضمن الاقاليم التي للدولة حق السيادة عليها ومما يؤيد ان مملكة بولونيا كانت تحت حمايتها استنجاد باتوري بها ضد اغارات التتار على حدوده الشرقية وتعهد الباب العالي بحمايتها بمعاهدة رسمية تاريخها ٣٠ يوليو سنة ١٥٧٧ وكانت علاقات هذا السلطان مع فرانسا حسنة جدا وكذلك مع جمهورية البندقية فجدد لهما الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بعض بنود في صالحهما اهمها ان يكون سفير فرنسا مقدما على كافة سفراء الدول الاخرى في المقابلات والاحتفالات الرسمية حيث كثر توارد السفراء على بابه العالي للسعي في ابرام معاهدات تجارية تكون ذريعة في المستقبل للتدخل الفعلي وفي ايامه تحصلت ايزابلا ملكة الانكليز على امتياز خصوصي لتجار بلادها وهي ان مراكبها تحمل العلم الانكليزي وكان لا يجوز لها ذلك قبلا بل كانت السفن على اختلاف اجناسها ما عدا سفن البندقية لا تدخل إلى موانئ الدولة العلية الا تحت ظل

العلم الفرنساوي ليس الا كما قضت بذلك العهود التي ابرمت مع السلطان سليمان وابنه السلطان سليم الثاني وتجددت في اوائل حكم هذا السلطان وفي سنة ١٥٧٨ حصلت فتنة داخلية في مملكة مراكش بالمغرب الاقصى ونازع زعيمها السلطان في الملك وحصلت بينهما عدة وقائع مهمة واخيرا استنجد سلطانها بالعثمانيين واستعان مدعي الملك بالبرتغاليين فاوعزت الدولة او بالحري محمد باشا صقللي لوالي طرابلس بانجاد سلطانها الشرعي فاسرع بمساعدته والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محل يقال له القصر الكبير وكان يوما مشهودا دارت فيه الدائرة على البرتغال وقتل فيه رئيس الثائرين المستنجد بهم وبعد تمام النصر واعادة الامن والسكينة إلى ربوع مراكش عادت الجيوش العثمانية حاملة ما اغدق عليها من الهدايا وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة وصار شمال افريقيا باجمعه تابعا لها تماما او خاضعا لنفوذها ولم يبق لها في عصرنا هذا الا ولاية طرابلس والسيادة الاسمية على مصر واستولت فرانسا على تونس "والجزائر وصارت مراكش ميدان مسابقة لدسائس الاجانب تسعى كل دولة في ازدياد نفوذها بها وبعبارة اخرى لابتلاعها فلا حول ولا قوة الا بالله

وفي هذه السنة ابتدأت المخابرات بين الدولة واسبانيا للوصول إلى الصلح وبعد ان استمرت نحو خمس سنين تم الصلح بينهما لكن لم يمنع ذلك القراصنة من الطرفين على نهب السفن التجارية وسبي واسترقاق من بها من النساء والرجال حتى كان يستعد للسفر في البحر الابيض المتوسط كما يستعد لرحلة حربية لعدم الامن وكثرة القراصنة بما لم يسبق له مثيل لان كلا من الطرفين كان يعتبر غزو سفن الطرف الآخر من الواجبات الدينية والقربات المشروعة

محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز رابع دفعة

هذا واهم ما حصل في ايام السلطان مراد الثالث محاربة بلاد العجم بناء على ايعاز الصدر الاعظم محمد باشا صقللي وانتهاز فرصة الاضطرابات الداخلية بها وذلك انه لما توفي الشاه طهماسب سنة ٩٨٤ هـ سنة ١٥٧٦ م تولى بعده ابنه حيدر وقتل بعد بضع ساعات قبل دفن ابيه ودفنا معا ثم تولى بعده اسماعيل ابن طهماسب وتوفي مسموما سنة ٩٨٥ وخلفه اخوه محمدد خدابنده وكانت البلاد منقسمة عليه فارسلت الجيوش السلطانية لمحاربته وفتح ما تيسر من بلاده وجعل لاله مصطفى باشا قائدا لها فسار بجيوشه قاصدا اقليم الكرج من بلاد الجركس في اواخر سنة ١٥٧٧ م

وكانت تابعة إلى مملكة العجم وفتحها واحتل مدينة تفليس عاصمة الكرج بعد ان انتصر على جنود الشاه وتغلب على قائدهم "المسمى دقماق بالقرب من حصن جلدر في ٨ اغسطس سنة ١٥٧٨ وعين امراء الكرج حكاما سناجق من قبل الدولة وبعد ان قهر ثانيا جيوش العجم في ٨ سبتمبر من السنة المذكورة عاد مصطفى باشا وجيوشه إلى مدينة طرابزون لتمضية فصل الشتاء الذي لا يمكن استمرار القتال في غضونه لشدة البرد وتراكم الثلوج في هذه الاصقاع وقسمت بلاد الكرج إلى أربعة أقسام وهي شيروان وتفليس وتكون القسمان الباقيان من بلاد الكرج الاصلية وحصنت مدينة قارص بكيفية جعلتها امنع معاقل الدولة على الحدود وما فتئت كذلك حتى احتلها الروس سنة ١٨٧٧ وعين لكل منها حاكم عام بكلر بك وفي اواسط الشتاء اتت اربعة جيوش جرارة تحت امرة الامير حمزة ميرزا وهاجمت بلاد شيروان من كل فج حتى اضطر حاكمها عثمان باشا إلى اخلاء مدينة شيروان والاحتماء بمدينة دربند وكذلك حاصر الاعجام مدينة تفليس نفسها ولم يقووا على استرجاعها لثبات حاميتها العثمانية حتى اتى اليها المدد ورفع عنها الحصار عنوة سنة ١٥٧٩ وفي غضون ذلك قتل الصدر الاعظم محمد باشا صقللي الذي حافظ على نفوذ الدولة بعد موت السلطان سليمان وتمكن بسياسته ودهائه من ابرام الصلح مع دول اوروبا المعادية لها وانشأ عمارة بحرية بعد واقعة ليبنته وفتحت جزيرة قبرص بتعليماته وارشاداته وكوفئ على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه او جناية ارتكبها بل هي دسائس حاشية السلطان قضت عليه بالموت غدرا تبعا لدسائس الاجانب الذين لا يروق في اعينهم وجود مثل هذا الوزير يدير دولاب الاعمال على محور الاستقامة فدسوا اليه من قتله تخلصا من صادق خدمته للدولة فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة لا سيما وقد كثر بعده تنصيب وعزل "الصدور فعين اولا من يدعى احمد باشا ثم عزل في اغسطس سنة ١٥٨٠ وعين بعده سنان باشا احد القواد المشهورين واحد رؤساء الجيش المحارب في بلاد الكرج وتولى قيادة هذا الجيش بعد موت قائده العام مصطفى الذي قيل انه انتحر مسموما لعدم حصوله على منصب الصدارة ولكنه عزل من منصبه بعد قليل ونفي إلى خارج البلاد وتولى مكانه سياوس باشا المجري الاصل في الصدارة العظمى وفرهاد او فرحات باشا احد القواد العظام قائدا عاما للجيش المحارب في الكرج ولم يات هذا القائد باعمال تذكر لعدم انقياد الانكشارية وامتثالهم لاوامر رؤسائهم

اما عثمان باشا حاكم اقليم شيروان فسار إلى فتح بلاد طاغستان على شاطئ بحر الخزر وبعد ان اتم فتحها عقب موقعة عظيمة انتصر فيها على الاعجام نصرا مبينا في ٩ مايو سنة ١٥٨٣ سار بطريق البر إلى بلاد القرم مخترقا جبال قاف او القوقاز وسهول روسيا الجنوبية لعزل خانها عقابا له على امتناعه عن ارسال المدد إلى الدولة العلية لمحاربة العجم فوصل اليها بعد ان عانى من المشقات اقصاها ومن الصعوبات منتهاها لوعورة الطريق ومناوشة الروس له إلى مدينة كافا عاصمة الخان محمد كراي فجمع الخان جيشا عظيما من الفرسان القوزاق المشهود لهم بالبسالة والاقدام وحاصر عثمان باشا وجيوشه التي اضناها التعب وانهكها السير ولولا عصيان اخيه اسلام كراي عليه لوعده بالامارة من قبل الدولة العلية وتفرق جيوشه من حوله وقتله غدرا بدسيسة اخيه لانتصر على العثمانيين لكن خانه اخوه ودس اليه من قتله طمعا في الامارة سنة ١٥٨٤ وبعد ذلك رجع عثمان باشا إلى الاستانة برا وقوبل بكل تكريم واعظام وبعد ايام "قلائل عين صدرا اعظم بدل سياوس باشا المجري وسر عسكر الجيش الكرج وكان تعيينه في سنة ٩٩٢ هـ ١٥٨٤ م

فسار في جيش عرمرم مؤلف من مائتين وستين الف مقاتل قاصدا بلاد اذربيجان فاخترقها بدون كثير مقاومة ثم قصد مدينة تبريز عاصمة العجم فدخلها بعد ان انتصر على حمزة ميرزا وترك فيها حامية قوية وبعد ان استمرت الحرب سجالا بين الدولتين نحو ست سنوات توفي في خلالها الصدر الاعظم عثمان باشا سر عسكر الجيش تم الصلح وامضي بينهما في ٢١ مارس سنة ١٥٨٥ على ان تتنازل العجم للدولة العثمانية عن اقليم الكرج وشيروان ولورستان وجزء من اذربيجان ومدينة تبريز وتولى بعده خادم مسيح باشا صدرا اعظم سنة ٩٩٣ وفي السنة التالية اعيد سياوس باشا إلى هذا المنصب الخطير وبذلك هدأت الاحوال وانقطعت الحروب على سائر حدود المملكة تقريبا

الا ان هذه السكينة لم تكن لترضي الانكشارية الذين كانوا يفضلون استمرار الحروب للنهب والسلب وارتكاب مالا خير فيه فكانت إذا انقطعت الحروب تمردوا وارتكبوا هذه القبائح في بلاد الدولة المعسكرين بها بل وفي نفس الاستانة فلما بلغهم ان المخابرات سائرة بين الدولة والعجم للوصول إلى الصلح ثاروا بالقسطنطينية وطلبوا تسليم الدفترادار ناظر المالية ومحمد باشا بكلر بك الروملي لقتلهما بدعوى انهما ارادا ان يصرفا اليهم نقودا ناقصة العيار وحاصروهما في منزلهما إلى ان قتلوهما شر قتلة

ولم يقو السلطان على منعهم وتمردوا مرة اخرى سنة ١٥٩٣ في الاستانة واخرى في مدينة بود وقتلوا واليها وفي القاهرة وفي تبريز مما يطول شرحه ووصلت بهم القحة إلى آخرها ولذلك اشار سنان باشا الذي اعيد إلى منصة الوزارة في سنة ٩٩٧ باشغالهم بمحاربة بلاد المجر واوعز إلى حسن باشا والي بلاد البشناق بوسنه ان يجتاز حدود بلاد المجر اعلانا للحرب لكن هل يرجى نجاح او فلاح حقيقي من جيوش بلغ عندها عدم النظام الدرجة القصوى "حتى استطالت لقتل الولاة وعزل الحكام كلا ولو كان قائدها الاسكندر المقدوني او ابراهيم باشا المصري او نابليون الفرنساوي ورب معترض يعترض علينا في تسمية ابراهيم باشا بالمصري مع انه لم يولد بها فنجاوبه ان ابراهيم باشا نشر الراية المصرية في بلاد العرب والشام وجنوب الاناطول والسودان وانتصر بالمصريين لا بغيرهم ولم يكن ذلك منه الا لاعلاء شأن الوطن المصري واستقلاله في الداخل ونشر نفوذه في الخارج ولذلك حق لنا ان نسميه المصري بل المصري الوحيد بعد والده محمد علي باشا الكبير ولنرجع إلى ذكر حروب الدولة مع المجر فنقول ان الحرب كانت تارة لاحد الفريقين وطورا للآخر فقتل حسن باشا والي الهرسك وانهزم والي بود وفتحت جيوش النمسا التي انحازت إلى المجر عدة قلاع عثمانية ثم استردها سنان باشا الصدر الاعظم سنة ١٥٩٥ وفي هذا الموقع يجب علينا وعلى كل عثماني التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه إلى الحرب وتحجبه عن اعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر فلولا ذلك لكانت الغلبة دائما لهم باذنه تعالى فقد عودهم عز وجل النصر على الاعداء في زمن اجداده سليمان وسليم الاول ومن قبلهم لان وجود الخليفة الاعظم في رأس جيوشه يبث فيهم روحا جديدة فيتحدون معه قلبا وقالبا ويسيرون معه إلى النصر المبين والفوز العظيم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ومما زاد احوال المملكة ارتباكا اشهار الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا العصيان بالاتحاد وتحالفهم مع رودلف الثاني ملك النمسا وامبراطور المانيا على محاربة الدولة والحصول على الاستقلال فسار اليهم الصدر الاعظم سنان باشا في سنة ١٥٩٥ ودخل مدينة بوخارست عاصمة الفلاخ عنوة ثم انتصر عليه مخائيل امير الفلاخ الملقب في كتب الافرنج بالشجاع ودخل مدينة ترجوفتس وقتل حاميتها ورئيسها فاخذ العثمانيون في الانسحاب والتقهقر خلف نهر الدانوب تبعهم مخائيل الفلاخي وانتصر عليهم مرة ثانية بالقرب من مدينة جورجيوا "عند عبورهم النهر وفتح المدينة وعدة مدائن اخرى اهمها مدينة نيكوبلي

وفي هذه الاثناء ولي فرهاد باشا منصب الصدارة في سنة ٩٩٩ ثم اعيد سياوس باشا ثالثا اليها سنة ١٠٠٠ ثم اصيب السلطان بداء عياء وتوفي مساء ٨ جمادى الاولى سنة ١٠٠٣ ١٩ يناير سنة ١٥٩٥ وله من العمر خمسون سنة وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة تقريبا وكان شاعرا مجيدا فطنا لبيبا الا انه كان كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان عاملا بمشورتهن وكان من ضمن حظياته جارية بندقية الاصل من عائلة شهيرة بها اسمها بافو سباها قراصين البحر وبيعت في السراي السلطانية وسميت صفية اصطفاها السلطان لنفسه وتدخلت كثيرا في السياسة الخارجية ساعدت بلادها الاصلية كثيرا وهي والدة السلطان محمد الثالث"

فصل - [ذكر السلطان محمد الثالث]

"ولد هذا السلطان في ٧ ذي القعدة سنة ٩٧٤ هـ ١٦ مايو سنة ١٥٦٦ م وتولى بعد موت ابيه مراد الثالث ابن صفية الايطالية الاصل وكان له تسعة عشر اخا غير الاخوات فامر بخنقهم قبل دفن ابيه ودفنوا معا تجاه ايا صوفيا

وفي اوائل حكمه سار على اثر سلفه في عدم الخروج إلى الحرب وترك امور الداخلية في ايدي وزرائه الذين منهم سنان باشا وجفالة زاده هو ابن القائد جفالة باشا الجنوي الأصل الذي قتل في محاربة العجم الأخيرة وصحة اسمه سيكالا ثم حرف فصار جفالة وآخر يدعى حسن باشا ففسدوا في الارض وباعوا المناصب الملكية والعسكرية وقللوا عيار العملة حتى علا الضجيج من جميع الجهات وتعاقب انهزام الجيوش العثمانية امام مخائيل الفلاخي فضم لسلطانه بمساعدة الجيوش النمساوية واقليم البغدان وجزءا عظيما من ترنسلفانيا لعدم وجود القواد الاكفاء لصدهم ومما يخلد للسلطان الغازي محمد الثالث الذكر ويجعله رصيفا لاجداده الاوائل انه لما تحقق ان هذا الانحلال ناشيء من تحجبه عن الاعمال وعدم قيادته الجيوش برز بنفسه وتقلد المركز الذي كان ترك مراد الثالث وسليم الثاني له من دواعي تقهقر الدولة امام اعدائها الا وهو مركز قيادة عموم الجيوش فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميدان الحرب والنزال وبعد قليل دبت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة "العسكرية ففتح قلعة ارلو الحصينة التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦ ودمر جيوش المجر والنمسا تدميرا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في ٢٦ اكتوبر سنة ١٥٩٦ حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة موها كز

التي انتصر فيها السلطان سليمان سنة ١٥٢٦ وبعد هذه الموقعة استمرت الحرب سجالا بدون ان تحصل بين الطرفين وقائع حاسمة وفي ابتداء القرن السابع عشر للميلاد حصلت في بلاد الاناطول ثورة داخلية كادت تكون وخيمة العاقبة على الدولة خصوصا ونيران الحروب مستعر لهيبها على حدود المجر والنمسا وذلك ان فرقة من الجيوش المؤجرة ويسمونها بالتركية علوفه جي التي هي بالنسبة للانكشارية كنسبة الباشبوزق للجيوش المنتظمة لم تثبت في واقعة كرزت المتقدم ذكرها بل ولت الادبار وركنت إلى الفرار فنفيت إلى ولايات آسيا واطلق عليها اسم فراري تحقيرا لهم وعبرة لغيرهم وهناك ادعى احد رؤسائهم واسمه قره يازيجي ان النبي صلى الله عليه وسلم جاءه مناما ووعده بالنصر على آل عثمان وفتح ولايات آسيا فتبعه كثير من هذه الفئة وشق عصا الطاعة وتغلب على والي القرمان ودخل مدينة عين تاب عنوة فارسلت اليه الجيوش وحاصرته فيها ولما رأى ان لا مناص له من التسليم او الموت عرض على الوزير المحاصر له الطاعة للسلطان بشرط تعيينه واليا لاماسيا فقبل شرطه ورفع عنه الحصار لكن بمجرد ابتعاد الجيوش عنه رفع راية العصيان ثانيا واتحد مع اخيه المسمى دلي حسن والي بغداد فاتبع وسوسة اخيه وكفر "بنعمة الدولة وجاهر بعصيانها

فارسل صقللي حسن باشا مع جيش جرار لمحاربتهما وانتصر على قره يازيجي والجأه إلى الاحتماء بجبال جانق على البحر الاسود حيث توفي من الجراح التي اصابته في الحرب تاركا اخاه للاخذ بثأره وفعلا فاز الدلي حسن على صقللي حسن باشا وقتله على اسوار مدينة توقات ثم هزم ولاة ديار بكر وحلب ودمشق وحاصر مدينة كوتاهية في سنة ١٦٠١ واستفحل امره حتى خيفت العاقبة ولما رات الدولة تجسم هذه النازلة اخذت في استعمال طرق السلم والتودد فاجزلت اليه العطايا واغدقت عليه الهبات ثم عرضت عليه ولاية بوسنه فقبل بعد تعللات كثيرة ووضع السلاح واعلن باخلاصه للدولة العلية سنة ١٦٠٣ وسافر بجنوده من انضم اليها من اخلاط الاكراد واوباش القرمان
واستعمل قوته لمحاربة الافرنج على حدود الدولة من جهة اوروبا حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين عساكر المجر والنمسا واستراحت الدولة من شرها واعقبت هذه الثورة العظيمة ثورة اخرى في نفس الاستانة العلية كاد شرها يتعدى إلى نفس الخليفة الاعظم وذلك ان جنود السباه أي الخيالة طلبوا من الدولة ان تعوض عليهم ما فقدوه من ريع الاقطاعات المعطاة لهم في بلاد آسيا التي كانوا يسمونها تمارا بسبب فتنة قره يازيجي ودلي حسن بآسيا الصغرى ولما لم يكن

في وسع الدولة تلبية طلبهم لنقص دخلها هي ايضا بسبب هذه الفتنة تمردوا وثاروا وطلبوا نهب ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية فاستعانت الدولة عليهم بجنود الانكشارية وادخلتهم في طاعتها بعد سفك الدماء ولو اتحد الانكشارية معهم وساعدوهم على مطالبهم لخيف على حياة الدولة من الداخل والخارج "ومن ذلك يظهر جليا اختلال النظام العسكري وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها بين اعدائها وفي هذه السنة توفي السلطان وكانت وفاته رحمه الله في ١٢ رجب سنة ١٠١٢ ١٦ دسمبر سنة ١٦٠٣ وعمره ٣٧ سنة ومدة حكمه ٩ سنين وخلفه ابنه احمد الاول

فصل - [ذكر السلطان أحمد الأول]

"ولد هذا السلطان في ١٢ جمادى الثانية سنة ٩٩٨ ١٨ ابريل سنة ١٥٩٠ فتولى الملك ولم يتجاوز سنه الرابعة عشر الا بقليل ولم يامر بقتل اخيه مصطفى بل اكتفى بحجزه بين الخدم والجواري وكانت اركان الدولة غير ثابتة في كافة بلاد آسيا ونار الحرب مستعرة على حدود العجم شرقا والنمسا غربا وكانت الحرب مع العجم شديدة الوطأة في هذه المرة لتولي الشاه عباس الشهير قيادتها ومما جعل لها اهمية اعظم من كافة الحروب السابقة اضطراب الاحوال في الولايات الشرقية عموما وسعي كل امة من الامم المختلفة النازلة بها للحصول على الاستقلال وكان اهم رؤساء هذه الحركة رجلا كرديا لقب بجان بولاد ومعناها بالعربية من نفسه كالبولاد لشدة باسه وقوة اقدامه والامير فخر الدين الدرزي وغيرهما لكن قيض الله للدولة في هذه الشدة الوزير مراد باشا الملقب بقويوجي الذي عين صدرا اعظم وكان قد تجاوز الثمانين ليكون عونا وعضدا للسلطان الفتى فتقلد "مع كبر سنه ووهن قواه قيادة الجيوش وحارب الثائرين بهمة ونشاط زائدين فانتصر على فخر الدين وجان بولاد واقتفى اثرهم حتى اختفيا في بادية الشام واستمال قلندر اوغلى احد زعماء الثورة في الاناطول وعينه واليا على انقرة وقبض على آخر يدعى احمد بك وقتله بعد ان فرق جنده بالقرب من قونية ولما رأى جان بولاد الكردي عدم نجاح الثورة سافر للاستانة واظهر الطاعة للسلطان فعفا عنه وعينه واليا لتمسوار

وفي سنة ١٦٠٨ انتصر على من بقي من العصاة بقرب وان وفي السنة التالية قتل آخر زعمائهم المدعو يوسف باشا الذي كان استقل باقاليم صاروخان ومنتشا وآيدين وبذلك عادت السكينة وساد الامن

بهمة هذا الشجاع الذي لقب بسيف الدولة عن استحقاق هذا وانتهز الشاه عباس هذه الفرصة لاسترجاع بلاد العراق العجمي واحتل مدائن تبريز ووان وغيرهما ولمناسبة اضمحلال جيوش الدولة في هذه الحروب التي استمرت عدة سنوات متوالية وموت اهم قوادها خصوصا الصدر الاعظم قويوجي يوم ٥ اغسطس سنة ١٦١١ تراسلت الدولتان على الصلح وتم الامر بينهما في سنة ١٦١٢ بمساعي نصوح باشا الذي تولى منصب الصدارة بعد موت قويوجي مراد باشا على ان تترك الدولة العلية لمملكة العجم جميع الاقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد السلطان الغازي سليمان الاول القانوني بما فيها مدينة بغداد وهذه اول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها ويمكننا القول بكل اسف وحزن انها كانت فاتحة الانحطاط واول المعاهدات المشؤومة التي ختمت بمعاهدة برلين الشهيرة اما من جهة المجر والنمسا ففي اثناء اشتغال الدولة بحروبها الداخلية استبد النمساويون ببلاد المجر واساؤا معاملة اشرافها نظير اخلاصهم للدولة العلية حتى رفضوا نير النمسا المسيحية وطلبوا من الدولة ان ترمقهم بعين حمايتها وتخلصهم من استرقاق النمسا لهم وانتخبوا الامير بوسكاي ملكا عليهم سنة ١٦٠٥ "فانشرحت الدولة لهذه النتيجة التي ما كانت تنتظرها من امة مسيحية لا سيما وهي في حالة كربة لكثرة الحروب الداخلية وتقهقر جيوشها امام الشاه عباس فقبلت هذا الاسترحام واعتمدت انتخاب بوسكاي وامدته بجيوشها ففتحت في زمن يسير حصون جران ويسجراد وسيريم وغيرها وفي سنة ١٦٠٦ خشيت النمسا من امتداد الفتوحات العثمانية فسعت في سلخ بوسكاي عن الدولة فاعترفت بانتخابه ملكا للمجر واميرا لاقليم ترنسلفانيا وتنازلت عن كافة الاقاليم المجرية التي كانت للسلطان باتوري بشرط رجوع ما يكون منها المانيا وخصوصا اقليم ترنسلفانيا إلى امبراطور المانيا بعد موت بوسكاي ولزيادة اضطراب احوال الدولة بآسيا وتعسر استمرار الحرب مع النمسا بدون مساعدة جيوش المجر لها ابرمت الصلح مع امبراطور النمسا في سنة ١٦٠٦ عينها على ان لا تدفع النمسا الجزية السنوية التي قدرها ثلاثون الف دوكا في المستقبل مقابل التعويض عنها للدولة بدفع مبلغ مائتي الف دوكا وان تضم الدولة العلية لاملاكها حصون جران وارلو وكانيشا وفي سنة ١٦٠٨ اجتمع نواب النمسا والمجر في مدينة برسبورج وصدقوا عل هذا الاتفاق وكذلك صدق عليه لمدة عشرين سنة من تاريخ التصديق مندوبو مملكة المانيا مجتمعين بهيئة مؤتمر بمدينة ويانه سنة ١٦١٥ اما بلاد المجر فبقيت تابعة للدولة بعضها تبعية فعلية والبعض تبعية حماية وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة ستواتوروك

وبعد التصديق نهائيا على هذا الاتفاق من جميع اولي الشأن توفي بوسكاي "وامتنع اهالي اقليم ترنسلفانيا عن الدخول ضمن املاك الامبراطورية مفضلين البقاء تحت حماية الدولة العثمانية الاسلامية التي لم تتعرض لهم لا في دينهم ولا في عوائدهم اكتفاء بالجزية السنوية فعينت لهم الدولة سجسمون راجوتسكي ثم جبرائيل باتوري ثم بتلن جابور وهو من اشد خصوم دولة النمسا والد اعدائها وتعهد هذا الامير بمنع امراء الفلاخ والبغدان من اقتناء الاراضي والقصور في امارته حتى لا يلتجؤا اليها لو تمردوا على الدولة وبتسليمهم لها لو فروا اليها وبذلك صارت ترنسلفانيا حائلا بين الامارتين وبلاد المجر هذا ولو ان الحروب انقطعت على كافة حدود الدولة تقريبا الا انه قد حصلت ما بين سنة ١٦١١ وسنة ١٦١٤ بعض مناوشات بحرية بين مراكب الدولة وسفن رهبان مالطه وملك اسبانيا وولايات ايطاليا كان الفوز فيها غالبا لمراكب الاعداء ولذلك امر الصدر نصوح باشا بجمع جميع سفن الدولة في مياه البحر الابيض المتوسط لصد تعديات مراكب الافرنج وحفظ طريق البحر بين الاستانة وولايات الغرب فانتهز بعض اخلاط القوزاق انسحاب السفن الحربية من البحر الاسود واغاروا على ثغر سينوب ونهبوا ما به ولما علم السلطان بذلك غضب على الصدر الاعظم وسعى به بعض مبغضيه طمعا في نوال منصبه وما فتئوا يوغرون صدر سيده عليه حتى امر بقتله في ١٤ اكتوبر سنة ١٦١٤ فخنق في قصره هذا وازدادت في ايام السلطان احمد الاول العلاقات السياسية مع دول الافرنج فجددت مع فرانسا العقود والعهود القديمة في سنة ١٦٠٤ مع بعض زيادات طفيفة وفي سنة ١٦٠٩ جددت مع مملكة بولونيا الاتفاقات التي أبرمت معها في زمن السلطان محمد الثالث وأهم ما بها تعهد بولونيا بمنع قوزاق الروسية من الاغارة على اقليم البغدان وتعهد الدولة العلية بمنع تتار القرم من التعدي على حدودها وفي سنة ١٦١٢ تحصلت ولايات الفلمنك على امتيازات تجارية تضارع ما منحته "كل من فرنسا وانكلترا وهم أي الفلمنك الذين ادخلوا في البلاد الاسلامية استعمال التبغ أي تدخين الدخان فعارض المفتي في استعماله واصدر فتوى بمنعه فهاج الجند واشترك معهم بعض مستخدمي السراي السلطانية حتى اضطروه إلى اباحته وفي ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ ٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧ م توفي السلطان احمد الاول وعمره ٢٨ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة تقريبا ولصغر سن ولده عثمان الذي كان لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره خالف العادة المتبعة من ابتداء الغازي السلطان عثمان الاول أي تنصيب اكبر الاولاد او احدهم مكان والده واوصى بالملك بعده لاخيه"

فصل - [ذكر السلطان مصطفى الأول]

ولد هذا السلطان سنة ١٠٠١ هـ وقضى طول عمره داخل محلات الحرم ولم يتعاطى اشغالا مطلقا بل ولم يعلم من امور المملكة شيئا كما كانت عادة بعض ملوك بني عثمان وهي ان كل سلطان يتولى يامر بقتل اخوته او يحجزهم في السراي كي لا يكون منهم منازع في الملك وهي عادة مستقبحة جدا لما فيها من قتل اقرب الناس بلا ذنب او جرم الا ما يخيله لهم الوهم من الخوف على الملك والاستئثار به مع انهم لو استخدموا اخوتهم في المناصب العالية لا سيما قيادة الجيوش كما يفعل ملوك اوروبا الآن لحفظوا ذمار الدولة واخلصوا في خدمتها اكثر من الذوات الذين اغلبهم كما رايت وترى في سياق هذا الكتاب من غير الجنس التركي بل من المماليك الجركس او الافرنج الذين ربما اعتنقوا الدين الاسلامي ودخلوا في خدمة الدولة اعداء في لباس اصدقاء لتنفيذ اغراض دولهم وكادت تقوم الحرب بين الدولة وفرنسا عند توليته وذلك ان كاتم اسرار السفارة الفرنساوية ساعد احد اشراف بولونيا وكان مسجونا بالاستانة على الهروب منها فسجن كاتم السر والمترجم والسفير ولم يلبث هذا السلطان على سرير الملك الا ثلاثة اشهر تقريبا ثم عزله ارباب الغايات وفي مقدمتهم المفتي وقيز لر اغاسي أي آغا السراي وساعدهم الانكشارية على ذلك لتوزيع الهبات عليهم عند تولية كل ملك جديد فعزل في اول سنة ١٠٢٧ ٢٦ فبراير سنة ١٦١٨ م واقاموا مكانه السلطان عثمان الثاني المولود في غضون سنة ١٠١٣ هـ

فصل - [ذكر السلطان عثمان الثاني ثم قتله وإعادة مصطفى الأول ثم عزله]

"هو ابن السلطان احمد الاول وامر باطلاق قنصل فرنسا وكاتبه ومترجمه وارسل مندوبا لملك فرنسا لويس الثالث عشر يسمى حسين جاووش بجواب اعتذار عما حصل من الاهانة لسفيره وبذلك انحسمت هذه المشكلة وحدث في هذه الاثناء ان تدخلت بولونيا في شؤون امارة البغدان لمساعدة جراسياني الذي عزل بناء على مساعي بتلن جابور امير ترنسلفانيا واضيفت امارته إلى اسكندر شربان امير الفلاخ وصارت الامارتان تابعتين له فاتخذ السلطان عثمان هذا التدخل سببا في اشهار الحرب على مملكة بولونيا وتحقيق امنيته وهي فتح هذه المملكة وجعلها فاصلا بين املاك الدولة ومملكة الروسيا التي ابتدأت في الظهور وقبل الشروع في الحرب امر بقتل اخيه محمد تبعا للعادة المشروعة فقتل في ١٢ يناير سنة ١٦٢١ مأسوفا عليه ثم اصدر امرا بتقليل اختصاصات المفتي ونزع ما كان

له من السلطة في تعيين وعزل الموظفين وجعل وظيفته قاصرة على الافتاء حتى يامن شر دسائسه التي ربما تكون سببا في عزله كما كانت سبب عزل سلفه لكن اتى الامر على الضد بما كان يؤمل كما سيجيء وبعد ان اتم هذه التمهيدات الداخلية سير الجيوش والكتائب لمحاربة مملكة بولونيا فالتقت بجيشهم تحت قيادة امير ولنا وكان متحصنا "في محل منيع بالقرب من بلدة يقال لها شوك زم فهاجم العثمانون في حصونهم عدة دفعات متوالية بدون ان يزحزحوهم عن معاقلهم فطلبت الانكشارية الكف عن الحرب وطلب البولونيون الصلح لفقد قائدهم وتبادلت بينهما المخابرات وتم الصلح وامضي من الطرفين في ٦ اكتوبر سنة ١٦٢٠ فحنق السلطان على الانكشارية من طلبهم الراحة وخلودهم إلى الكسل والزامه على الصلح مع بولونيا بدون تتميم قصده أي ضمها إلى املاكه وعزم على ابطالها وافنائها عن آخرها ولاجل التأهب لتنفيذ هذا الامر الخطير امر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا وتنظيمها وتدريبها على القتال حتى إذا كملت عدة وعددا استعان بها على ابادة هذه الفئة الباغية وشرع فعلا في انفاذ هذا المشروع لكن احس الانكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على غزل السلطان وتم لهم ذلك في يوم ٩ رجب سنة ١٠٣١ ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢ واعادوا مكانه السلطان مصطفى الاول ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه في سرايه وانتهكوا حرمتها وقبضوا عليه بين جواريه وزوجاته وقادوه قهرا إلى ثكناتهم موسعيه سبا وشتما واهانة مما لم يسبق له مثيل في تاريخ دولتنا العلية وزيادة على ذلك انهم نقلوه من هناك إلى القلعة المعروفة بذات السبع قلل يدي قله حيث كان بانتظاره كل ممن يدعى داود باشا وعمر باشا الكيخيا وقلندر اوغلى وغيرهم فاعدموا السلطان عثمان لحياة غير مبالين بهذا الجرم العظيم والاثم الذي ما بعده اثم الا الكفر المبين فانه ان كانت مخالفة اوامر الخليفة الاعظم تعد كفرا بنص الكتاب الشريف فما بالك بقتله وهنا يقف القلم ويكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء والكبيرة الشعواء تاركا وصفها للقارئ اللبيب والمطلع الاديب لعجزي عن هذا المقام العالي وتقصيري عن هذه المراتب العوالي وقلة بضاعتي وقصور قريحتي مكتفيا بنقل اسماء مرتكبها إلى الخلف لتكون هدف سخطتهم ومرمى سهام فضيحتهم وقتل رحمه الله ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ومدة حكمه اربع سنين واربعة اشهر "وبعد ذلك صارت الحكومة العوبة في ايدي الانكشارية ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب اهوائهم فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضع ايام وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل اليهم العطايا فكانت الوظائف تباع جهارا وارتكبوا انواع المظالم في القسطنطينية ولما بلغ خبر قتل السلطان إلى الولاة

وانتشرت بينهم اخبار الفوضى السائدة في الاستانة وسوس لهم ابليس الطمع فاطاعوه وسرى في عروقهم شيطان الغواية فاتبعوه فاشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرد الانكشارية من ولايته واقتفى اثره والي ارضروم المدعو اباظة باشا مدعيا انه يريد الانتقام للمرحوم السلطان عثمان شهيد الانكشارية وسار بمن تبعه إلى سيواس وانقره ففتحهما مصادرا التزامات الانكشارية واقطاعاتهم قاتلا كل من وقع في مخالبه من هذه الفئة التي تلوثت بدم سلالة سلاطينهم وتبعه والي سيواس وسنجق قره شهر ثم سار إلى مدينة بورصه لحاصرها ودخلها بعد ثلاثة اشهر الا قلعتها فلم تسلم

واستمرت الاضطرابات الداخلية في نفس كرسي الخلافة العظمى ولا امن ولا سكينة مدة ثمانية عشر شهرا متوالية حتى إذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار والخراب وشبع الانكشارية نهبا وسلبا وقتلا في نفوس الاهالي واموالهم عينوا متن يدعى كمانكش على باشا صدرا اعظم لتوسمهم فيه الخبرة والاستعداد فاشار عليهم بعزل السلطان مصطفى ثانيا لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فعزلوه في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ ١١ سبتمبر سنة ٦٢٣ وولوا مكانه السلطان مراد الرابع وبقي في العزل إلى ان توفي في غضون سنة ١٠٤٩ هـ سنة ١٦٣٩ م.

فصل - [ذكر السلطان الغازي مراد الرابع]

"هو ابن السلطان احمد الاول ابن السلطان محمد الثالث ولد في ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٠١٨ ٢٩ اغسطس سنة ١٦٠٩ م وولاه الانكشارية بعد عزل عمه السلطان مصطفى الاول ابن السلطان محمد الثالث مع حداثة سنة كي لا يكون معارضا لهم في اعمالهم الاستبدادية ولا مضعفا لنفوذهم الذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل غيره واستمروا مدة العشر سنين الاولى من حكمه على غيهم وطغيانهم

محاربة العجم واستيلائهم على بغداد

وانتهز الشاه عباس ملك العجم هذا الاختلال فرصة لتوسيع املاكه من جهة حدود الدولة العلية فكان الامر حينئذ بعكس ما كان عليه ايام المرحوم الغازي السلطان سليمان القانوني وذلك ان رئيس الشرطة في مدينة بغداد واسمه بكير آغا ثار على الوالي وقتله واستبد في الاحكام فارسلت له

الدولة قائدا يدعى حافظ باشا حاربه وحصره في دار السلام فسولت لبكير آغا نفسه الخبيثة ان يخون الدولة وراسل الشاه عباسا وعرض عليه تسليم المدينة فسار الشاه بجنوده لاحتلالها وفي الوقت نفسه عرض بكير آغا على القائد العثماني ان يرد المدينة للعثمانيين لو اقرته الدولة على ولايتها فقبل ذلك واحتلتها الجنود المظفرة قبل وصول شاه العجم وهو لما وصلها حاصرها ثلاثة اشهر ثم فتحها بخيانة ابن بكير آغا الذي سلمها له بشرط تعيينه حاكما عليها من قبلهم لكن خاب سعيه فقد قتله الشاه جزاء خيانته كما قتل اباه وفي ذلك عبرة لكل جاهل خائن يظن ان الاجنبي يعتقد فيه الاخلاص ويكافئه لو ساعده على ابتلاع وطنه فهل يرجو من باع وطنه "العزيز بيع المتاع خيرا من تلك الدولة كلا فانها تستعمله آلة لنوال غرضها ثم تلفظه لفظ النواة فيرجع يعض بنان الندم على ضياع شرفه وتسويد صفحات تاريخه حيث لا ينفع الندم وينكص على عقبيه مذموما مدحورا وبمناسبة سقوط بغداد في ايدي العجم وعدم اخباره السلطان بذلك سعى المنافقون بالصدر الاعظم كمانكش علي باشا لدى السلطان وافهموه انها لم تسقط الا لخيانته فحنق عليه وامر بقتله وولى مكانه جركس محمد باشا ولم يلبث هذه الاخير ان توفي وعين بعده حافظ احمد باشا سنة ١٠٣٣ هجرية سنة ١٦٢٤ م وهو الذي اشتهر في مكافحة اباظة باشا سنة والفوز عليه في واقعة قيصرية ومحاصرته في ارضروم حتى التزم بالخضوع للدولة واظهار الولاء لها فعفت عنه عفو كريم مقتدر واقرته في ولايته سنة ١٦٢٤ م فسار حافظ باشا الصدر الجديد إلى مدينة بغداد لاستردادها وحاصرها في اوائل سنة ١٦٢٤ وضيق عليها الحصار ولما استمر الحصار مدة بدون ان تنثني عزيمة المحصورين تذمر الانكشارية واظهروا عدم الرغبة في الحرب بكيفية اضطرته لرفع الحصار عن المدينة والرجوع إلى الموصل ومنها إلى ديار بكر حيث ثار الجند مرة ثانية فعزل السلطان حافظ باشا سنة ١٠٣٤ هجرية سنة ١٦٢٤ م وعين بدله من يدعى خليل باشا الذي سبق تقلده هذا المنصب في عهد السلاطين احمد الاول ومصطفى الاول وعثمان الثاني شهيد الانكشارية وكانت فاتحة اعماله انه استدعى اباظه باشا إلى معسكره فظن انه يريد الغدر به فرفع راية العصيان ثانيا وقتل حامية ارضروم من الانكشارية وانتصر على القائد حسين باشا وجيشه فسار اليه الصدر خليل باشا بنفسه وحصره ثم رفع عنه الحصار بعد شهرين نوفمبر سنة ١٥٢٧ فعزل من الصدارة سنة ١٠٣٥ هجرية وولى مكانه خسرو باشا وهو عاود الكرة على ارضروم وادخل اباظه باشا في طاعة الدولة "وعينه واليا على البشناق بوسنة سنة ١٠٣٧ هـ سنة ١٦٢٨ م وفي هذه الاثناء كانت ثورات الجنود متتابعة بالاستانة وفي كل مرة يطلبون قتل من يشاؤن من

رؤساء الحكومة المخالفين لهم في الرأي ولا يرى السلطان مندوحة من اجابة طلباتهم اسكاتا لهم وخوفا من ان يصل اليه اذاهم ثم توفي الشاه عباس وتولى ابنه شاه ميرزا وكان حديث السن فدخل العشم في افئدة القواد العثمانيين وسار خسرو باشا من حينه إلى بلاد العجم رغما عن تذمر جنوده ووصل بعد العناء الشديد إلى مدينة همذان فدخلها فجأة في ٢٦ شوال سنة ١٠٣٩ ١٨ يونيو سنة ١٦٣٠ ثم قصد مدينة بغداد وانتصر اثناء عودته اليها ثلاث دفعات متواليات على جيوش العجم ووصل اليها وابتدأ في محاصرتها في شهر سبتمبر من السنة المذكورة فدافع عنها قائد حاميتها دفاعا شديدا وصد هجوم العثمانيين عنها في ٧ ربيع الثاني سنة ١٠٤٠ ١٤ نوفمبر سنة ١٦٣٠ ولهجوم الشتاء رفع خسرو باشا عنها الحصار ورجع إلى مدينة الموصل لقضاء فصل الشتاء وفي الربيع التالي أراد معاودة الكرة على مدينة بغداد فلم تمتثل الجنود اوامره ولذلك اضطر إلى التقهقر إلى مدينة حلب خوفا من وصول العدو اليه بالموصل وهو غير واثق من جنوده.

"فتح اريوان واسترجاع بغداد

ثم سار السلطان بنفسه الشريفة إلى بلاد العجم لاسترجاع فتوحات السلطان الغازي سليمان الاول القانوني ففتح مدينة اريوان في ٢٥ صفر سنة ١٠٤٥ ١٠ اغسطس سنة ١٦٣٥ وارسل السلطان رسولين إلى الاستانة لتزيين المدينة مدة سبعة ايام وقتل اخويه بايزيد وسليمان لبلوغه عنهما ما كدر خاطره واتباعا للعادة المذمومة وبعد ذلك قصد السلطان مدينة تبريز ففتحها عنوة في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٠٤٥ ١٠ سبتمبر سنة ١٦٣٥ المذكورة ثم عاد إلى الاستانة للاستراحة من عناء السفر ومشقات الحرب ومما يدل على ان وجود السلطان مع جيوشه له اهمية عظمى ويبعث فيهم روحا جديدة أنه بمجرد رجوع السلطان اشتد عزم العجم ووقفوا امام الجيوش العثمانية بعد ان كانوا يفرون من امامهم اينما التقوا بهم والسلطان قائدهم ثم تغلبوا عليهم واستردوا مدينة اريوان وفازوا بالغلبة في واقعة منتظمة في وادي مهربان سنة ١٦٣٦ فلما وصل خبر انتصار العجم على الجنود العثمانية إلى مسامع السلطان اراد اذلالهم وكسر شوكتهم فسار بجيش عظيم كامل العدة والعدد إلى مدينة دار السلام وابتدأ حصارها بكيفية منتظمة في ٨ رجب سنة ١٠٤٨ ١٥ نوفمبر سنة ١٦٣٨ وكان يشتغل بنفسه في اعمال الحصار الشاقة تنشيطا للجند وسلط على اسوارها المدافع الضخمة التي نقلها

اليها ولما فتحت المدافع فيها فتحة كافية للهجوم اصدر السلطان اوامره بذلك فهجمت الجيوش كالليوث الكواسر في صبيحة ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ ٢٥ دسمبر سنة ١٦٣٨ ولم يثنها قتل الصدر الاعظم طيار محمد باشا الذي تولى بعد موت بيرام محمد باشا المتوفي في ٦ ربيع الآخر سنة ١٠٤٨ ١٧ اغسطس سنة ١٦٣٨ بل استمرت الحرب ٤٨ ساعة متوالية ختمت بانتصار الجنود العثمانية نصرا مبينا ودخولهم المدينة وارجاعها إلى المملكة العثمانية ولم تزل تابعة اليها حتى الآن "وبعد ذلك رغب شاه العجم عدم استمرار القتال وعرض الصلح على الدولة العلية بان يترك لها مدينة بغداد بشرط ان تترك هي اليه مدينة اريوان ودارت المخابرات بين الدولتين نحو عشرة اشهر كاملة وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٠٤٩ ١٩ سبتمبر سنة ١٦٣٩ تم الصلح على ذلك وانقطعت اسباب العدوان من بينهما وكان يؤمل في السلطان مراد الرابع أن يضارع السلطان الغازي سليمان الاول القانوني في الفتوحات وبعد الصيت لولا ان قصفت المنون عود حياته الرطيب وهو في مقتبل الشباب فتوفى يرحمه الله عن غير عقب في ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هجرية فبراير سنة ١٦٤٠ م وسنه ٣١ سنة ومدة حكمه ١٦ سنة و ١١ شهرا وتولى بعده اخوه ابراهيم"

فصل - [ذكر السلطان إبراهيم الأول]

"هو ابن السلطان احمد الاول ولد في ١٢ شوال سنة ١٠٢٤ ٤ نوفمبر سنة ١٦١٥ وكان غير ميال لمحاربة النمسا فاطمان خاطرها واوعز لامير ترنسلفانيا بكف العدوان عنها لكن كان من جهة اخرى محافظا على كرامة الدولة غير متراخ في معاقبة من يمسها بسوء او يتعدى حدودها ولذلك افتتح حروبه الخارجية بارسال جيش جرار إلى بلاد القرم لمحاربة القوزاق الذين احتلوا مدينة آزاق فحاربهم العثمانيون وابلوا فيهم بلاء حسنا واستردوا المدينة منهم بعد ان احرقوها وذلك سنة ١٦٤٢ ومن اعماله ايضا فتح جزيرة كريد وكانت تابعة لجمهورية البندقية وحصل فتحها بسبب حكاية غريبة تكاد تقرب من الروايات الموضوعة وذلك ان آغا السراري قيزلر اغاسي كان عنده جارية حسناء وضعت حديثا فاعجبت السلطان واختارها لان تكون ظئرا أي مرضعة لابنه الوحيد محمد ولشغف السلطان بالجارية ومحبته لابنها حصلت بعض امور داخلية مكدرة فاراد آغا السراري ملافاة لهذه الشقاقات العائلية ان يبتعد عن الاستانة بحجة زيارة بيت الله الحرام ويستصحب الجارية وابنها معه ولما اذن له السلطان بذلك سافر وبينما هو في الطريق اذ هاجمته مراكب رهبان مالطة وقتلوه واخذوا الولد ظنا

منهم انه ابن السلطان ولما تحققوا من غلطتهم ربوا الولد على الدين المسيحي وادخلوه طائفتهم "واشتهر عند الافرنج باسم بدري اوتوماتو أي الاب العثماني وبعد ذلك نزل الرهبان إلى جزيرة كريد واحسن البنادقة وفادتهم فاغتاظ السلطان من ذلك غيظا شديدا وحبس قناصل البندقية وانكلترا وهولاندا ولم يفرج عنهم الا بعد ان اقنعه وزيره الاول بان اغلب هؤلاء الرهبان بل كلهم من الفرنساويين ومع ذلك فانهم غير تابعين للحكومة الفرنساوية ولا لغيرها فهدأ باله ولكنه امر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريد لاهمية موقعها الجغرافي الحربي عند مدخل بحر ارخبيل اليونان ولتوسطها في الطريق بين الاستانة وولاية الغرب فجهزت الدونانمة وسارت باحتفال زائد تحت قيادة من يدعى يوسف باشا إلى ان القت مراسيها امام مدينة خانية اهم ثغور الجزيرة في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ ٢٤ يونيه سنة ١٦٤٥ وافتتحها بدون حرب تقريبا لعدم وصول الدونانمه البندقية اليها في الوقت المناسب فانتقم البنادقة بحرق ثغور بتراس وكورون ومودون من بلاد موره ويقال ان السلطان اراد في مقابلة ذلك قتل المسيحيين اجمع ولولا معارضة المفتي اسعد زاده ابي سعيد افندي لتم هذا الامر وربما كانت هذه دسيسة في كتب الافرنج الا انها تشهد على أي حال بحسن سياسة هذا المفتي لسعيه في منع هذا الامر الذي لو تم كان يلحق بالدولة عارا عظيما كما لحق بمسيحي اسبانيا لما ارتكبوه من القتل والفتك بالمسلمين بعد فتح مدينة غرناطة وفي سنة ١٦٤٦ "فتح اغلب الجزيرة وفي السنة التالية وضع الحصار امام مدينة كنديا عاصمة الجزيرة لكن حال دون اتمامه وفتح المدينة عصيان الجنود في الاستانة

وتفصيله ان السلطان ابراهيم اراد ان يفتك برؤوس الانكشارية في ليلة زفاف احدى بناته على ابن الصدر الاعظم لتذمرهم وانتقادهم على اعماله ورغبتهم في التداخل في شؤون الدولة والخروج عن حدودهم فعلموا بقصد السلطان وتآمروا على عزله واجتمعوا بمسجد يقال له اورطه جامع وانضم اليهم بعض العلماء والمفتي عبد الرحيم افندي واهاجوا عساكر الانكشارية والسباه وقرر الجميع بعزله وتولية ابنه محمد الرابع المولود في ٢٩ رمضان سنة ١٠٥١ اول يناير سنة ١٦٤٢ م أي الذي لم يتم السابعة من عمره وتمت هذه الثورة يوم ١٨ رجب سنة ١٠٥٨ ٨ اغسطس سنة ١٦٤٨ وبعد ذلك بعشرة ايام اظهر السباه عدم ارتياحهم من الملك الفتي وطلبوا اعادة السلطان ابراهيم إلى عرش الخلافة فخشي رؤساء العصابة التي عزلته من تغلب السباه وارجاعه رغم انفهم وصمموا على قتله

فساروا إلى السراي ومعهم الجلاد قره علي وقتلوه خنقا كما قتلوا السلطان عثمان الثاني من قبله فكانت مدة حكمه ٨ سنين و ٩ شهور وسنه ٣٤ سنة وبذلك ارتاح خاطرهم واطمان بالهم.

فصل - [ذكر السلطان محمد الرابع]

"انفرد بالملك ولصغر سنه وقعت المملكة في الفوضى وصارت الجنود لاترحم صغيرا ولا توقر كبيرا وسعوا في الارض فسادا ورجعت الحالة إلى ما وصلت اليه قبل تولي السلطان مراد الرابع بل إلى اتعس منها وسرى عدم النظام إلى الجنود المحاصرة كنديا بكيفية اضطرت قائدهم السر عسكر حسين باشا لرفع الحصار عنها وكذلك كان سريان هذا الداء العضال إلى الجنود البحرية سبب انهزام الدونانمه العثمانية امام دونانمة العدو امام مدينة فوقيه سنة ١٦٤٩ ثم ثار بآسيا الصغرى في هذه السنة ايضا رجل يدعى قاطرجي اوغلي وانضم اليه آخر يدعى كورجي يني وهزما احمد باشا والي الاناطول وسارا إلى القسطنطينية ولولا وقوع الشقاق بينهما لخيف على العاصمة من وقوعها في قبضتهما لكن وقع الخلف بينهما وافترقا فحاربهما الجند وهزم الثاني وقتل وارسل راسه إلى السلطان وتمكن الآخر وهو قاطرجي اوغلي من الحصول على العفو عنه وتعيينه واليا للقرمان وبذلك انتهت هذه الثورة لولا اشتغال النمسا بالحرب الهائلة الدينية المعروفة "بحرب الثلاثين سنة لانتهزنت هذه الفرصة وفتحت بلاد المجر بدون مقاومة ومن جهة اخرى لولا ولاء المجر وتفضيلهم الحكومة العثمانية على حكومة النمسا لثاروا طلبا للاستقلال وبعد ذلك توالت الثورات تارة من الانكشارية وطورا من السباه وآونة من الاهالي لما يثقل عليهم نير استبداد الجنود وتعاقب عزل وتنصيب الصدور بسرعة غريبة لم تسبق في الدولة ولا في ايام حكم السلطان سليم تبعا للاهواء والغايات واختل النظام او بعبارة صريحة صار عدم النظام نظاما للدولة

وفي هذه الاثناء تغلبت مراكب جمهورية البندقية على عمارة الدولة عند مدخل الدردنيل واحتلت تنيدوس وجزيرة لمنوس وغيرهما ومنعت بذلك المراكب الحاملة للقمح واصناف الماكولات عن الوصول إلى القسطنطينية من هذا الطريق حتى غلت جميع الاصناف واستمر الحال على هذا المنوال ولا نظام ولا امن ولا سكينة وبالاختصار لا حكومة ثابتة إلى ان قيض لها الوالي سبحانه وتعالى الوزير محمد باشا الشهير بكوبريلي الذي تولى منصب الصدارة سنة ١٠٦٧ سنة ١٦٥٦ فعامل

الانكشارية معاملة من يريد ان يطاع اطاعة عمياء وقتل منهم خلقا كثيرا عندما ثاروا كعادتهم لما راوه رجلا خبيرا بدخائل الامور قادرا على قمعهم والزامهم العود إلى السكينة وامر بعد تعيينه بقليل بشنق بطريرك الاروام لما ثبت له تدخله في الدسائس والفتن الداخلية ومما يؤثر عن هذا الوزير الجليل انه استصدر امرا من السلطان بمنع قتل سلفه وكان قد امر بقتله وتعيينه واليا على كانيشا وفي اواسط يوليه سنة ١٦٥٧ "ارسل المراكب لمحاربة سفن البنادقة المحاصرة لمدخل الدردنيل فحاربتها ولم تساعدها الظروف على نوال النصر ثم بعد موت القائد البحري البندقي الشهير موشنجو بنحو ستة اسابيع انتصرت العمارة العثمانية على البنادقة واستردت منهم ما احتلوه من الثغور والجزائر

وفي اثناء ذلك كانت نيران الحروب متأججة بين مملكة بولونيا وشارل جوستاف ملك السويد فارسل هذا سفراء إلى الباب العالي يطلبون منه ابرام معاهدة هجومية ودفاعية لمحاربة بولونيا وتكون هذه المملكة تحت حماية الدولة بالفعل فامتنعت عن قبول هذا الوفاق ولما علمت ان راكوكسي امير ترنسلفانيا اتحد مع السويد على قتال بولونيا باتحاده مع قرال الفلاخ والبغدان امرت بعزله وعزل قرال الفلاخ المدعو قسطنطين الاول وتعيين ميهن الرومي مكانه فقابل راكوكسي الارادة السلطانية بالعصيان وانتصر على العثمانيين بالقرب من ليبا سنة ١٦٥٨ لحصول عصيانه فجأة وعدم الاستعداد لصده ثم سار كوبريلي لقمعه وضم إلى جنوده جيوش ميهن امير الفلاخ الجديد الذي كان يريد مساعدة راكوكسي لكنه لم ير بدا من مرافقة كوبريلي خوفا من ظهور خيانته في وقت غير مناسب وباتحاد الجيشين تمكن كوبريلي من قهر هذا العاصي وطرده من البلاد وتعيين من يدعى اشاتيوس بركسي قرالا على ترنسلفانيا بشرط ان يدفع خراجا سنويا قدره اربعون الف دوكا وبعد استتباب الامن عاد الصدر إلى الاستانة وبمجرد "عودته اظهر ميهن قرال الفلاخ العصيان واضطهد المسلمين وقتل منهم خلقا كثيرا وصادرهم في اموالهم واملاكهم واستدعى راكوكسي المعزول لمساعدته واعدا له بإرجاعه إلى ولايته بعد النصر على العثمانيين وأرسلوا إلى غيكا قرال البغدان يوسوسون له بالانضمام اليهما فلم يصغ إلى وساوسهم ولذلك ساروا اليه وانتصروا عليه بالقرب من مدينة ياسى عاصمة امارته ولما وصل خبر تمردهم إلى الاستانة رجع كوبريلي على جناح السرعة لمحاربتهما قبل اشتداد الخطب واتساع الخرق على الراقع وانتصر عليهما نصرا مبينا ثم عزل ميهن جزاء خيانته وعين غيكا قرال البغدان قرالا على الفلاخ ايضا سنة ١٦٥٩ وفي السنة التالية احتل والي بود عاصمة المجر

مدينة جروس واردين التابعة للنمسا بعد مناوشات خفيفة فاعتبرت النمسا ذلك اعلانا للحرب وابتدأت الحركات العدوانية بين الطرفين.

"[فتح قلعة نوهزل]

وكان خير خلف لخير سلف فانه كان متصفا بالشجاعة والاقدام وحسن الرأي واص الة التدبير واستمر على خطة ابيه من عدم التساهل مع الجندية ومجازاة من يقع منه اقل امر مخل بالنظام باشد العقاب ومحاربة اعداء الدولة بدون فتور او ملال حتى يزيل من اذهانهم ما خامرها من تضعضع احوال الدولة وقرب زوالها ولذلك لم يقبل ما فاتحته به دولة النمسا وجمهورية البندقية من الصلح "وقاد الجيوش بنفسه وعبر نهر الطونة لمحاربة النمسا ووضع الحصار امام قلعة نوهزل في يوم ١٣ محرم سنة ١٠٧٤ ١٧ اغسطس سنة ١٦٦٣ ومع ان هذه القلعة كانت مشهورة في جميع اوروبا بالمناعة وعدم امكان أي احد التغلب عليها وفتحها فقد اضطر كوبريلي احمد باشا حاميتها إلى التسليم بشرط خروج من بها من الجنود بدون ان يمسهم ضرر تاركين ما بها من الاسلحة والذخائر واخلوها فعلا في ٢٥ صفر سنة ١٠٧٤ ٢٨ سبتمبر سنة ١٦٦٣ بعد البدء في حصارها بستة اسابيع ولذلك اضطربت اوروبا باجمعها لهول هذا الخبر الذي دوى في آذان ملوك اوروبا ووزرائها كالرعد حتى وضعوا اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت وكان هذا الفتح المبين اشد تاثيرا على ليوبولد امبراطور النمسا اكثر من غيره لدخول الجيوش العثمانية في بلاده وانتشارها في اقليمي مورافيا وسيليزيا فاتحين غازين حتى خيل له ان السلطان سليمان قد بعث من رمسه لفتح "ويانه عاصمة دولته ولذلك وسط البابا اسكندر السابع في طلبه المساعدة له من لويز الرابع عشر ملك فرنسا وكان قد عرض عليه في ابتداء الحرب امداده باربعين الف من الالمانيين المحالفين له فابى خوفا من اظهار الضعف فسعى البابا جهده لدى ملك فرنسا حتى قبل بارساله ستة آلاف جندي فرنساوي واربعة وعشرين الف من محالفيه الالمانيين تحت قيادة الكونت دي كوليني

وانضم هذا الجيش إلى الجيش النمساوي القائد له الكونت دي ستروتزي وابتدأت المناوشات بين الجيشين المتحاربين فقتل القائد العام النمساوي وخلفه القائد الشهير مونت كوكوللي وكان قد انضم

إلى الجيش الفرنساوي عدد عظيم من شبان الاشراف تحت رئاسة الدوك دي لافوياد وفي الاوائل كان النصر في جانب العثمانيين فاحتل كوبريلي احمد باشا مدينة سرنوار وعسكر على شاطئ نهر يقال له نهر راب والاعداء معسكرون امامه وبعد ان حاول عبوره وصده النمساوي الفرنساوي جمع كل قواه في يوم ٨ محرم سنة ١٠٧٥" "اول اغسطس سنة ١٦٦٤ وعبر النهر عنوة وبعد قليل انتصر على قلب جيش العدو ولولا تدخل الفرنساويين وخصوصا الاشراف منهم لتم للعثمانيين النصر لكن لم يمكن الانكشارية الثبات امام جنود العدو الاكثر منهم عددا فانهم كلما قتل منهم صف تقدم الآخر وبذلك انتهى اليوم بدون انتصار تام لاحد الفريقين فان العثمانيين حافظوا على مراكزهم بدون تقدم للامام وسميت هذه الواقعة بواقعة سان جوتار نسبة لكنيسة قديمة حصلت الحرب بالقرب منها وبعد ذلك تبادلت المخابرات توصلا للصلح وبعد عشرة ايام ابرمت بين الطرفين معاهدة اهم ما بها اخلاء الجيش لاقليم ترنسلفانيا وتعيين ابافي حاكما عليها تحت سيادة الدولة العلية وتقسيم بلاد المجر بين الدولتين بان يكون للنمسا ثلاث ولايات وللباب العالي اربعة مع بقاء حصني نوفيجراد ونوهزل تابعين للدولة العلية هذا ولو ان الحرب انتهت على حدود النمسا الا ان فرنسا ما زالت مراكبها تطارد سفن المغرب بحجة انها تغزو سفنها وما زالت هذه حجتهم حتى استولوا على اقليمي الجزائر وتونس في هذا القرن واستمر هذا الحرب مدة بغير صفة رسمية وفي سنة ١٦٦٦ ارسل الوزير الفرنساوي كولبر الذي خلف مازارين سفيرا للدولة لاصلاح ذات بينهما لكن لم يصب في الانتخاب فانه ارسل ابن المسيو دي لاهي الذي حبسه الوزير كوبريلي احمد باشا في ادرنه كما سبق ذكره "ولذلك لم تفد ماموريته شيئا بل ابى الصدر تجديد الامتيازات الفرنساوية التجارية وحرمها حق امرار بضائعها من مصر فالسويس إلى الهند وزيادة على ذلك منحت إلى جمهورية جنوا امتيازات خصوصية شبيهة بامتيازات انكلترا ولذلك جاهرت فرنسا بمساعدة مدينة كانديا عل محاربة العثمانيين فسار الصدر سنة ١٦٦٧ بنفسه لتتميم فتح هذه المدينة الحصينة التي كادت تعيي الدولة واستمر الحصار والقتال مدة اكثر من سنتين لامداد فرنسا لها بالمال والرجال والسفن الحربية واخيرا اضطرت الحامية إلى التسليم فسلمها قائدها موروزيني في ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٠٨٠ ٢٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩ بعد ان امضى مع الصدر معاهدة بالنيابة عن جمهورية البندقية تقضي بالتنازل للدولة العلية عن جزيرة كريد ما عدا ثلاث قرى وهي قره بوزا وسودا وسبينا لونجا وصدقت البندقية عليها في فبرايرسنة ١٦٧٠ وفي هذه الاثناء كان المسيو دي لاهي سفير فرانسا مقيما بالاستانة يسعى جهده في الحصول على تجديد

الامتيازات فلم يفلح وفي سنة ١٦٧٠ ارسل لويز الرابع عشر سفيرا غيره يدعى الماركي دي نوانتل بعمارة بحرية حربية بقصد ارهاب الصدر وتهديده بالحرب إذا لم يذعن لطلبات فرانسا لكن لم ترهبه هذه التظاهرات بل قابل السفير بكل سكون وقال له ان تلك المعاهدات لم تكن الا منحا سلطانية لا معاهدات اضطرارية واجبة التنفيذ وانه ان لم يرتح لهذا الجواب فما عليه الا الرحيل ولما وصل هذا الجواب إلى ملك فرنسا اراد اعلان الحرب على الدولة ولولا نصائح الوزير كولبر لركبت فرانسا هذا المركب الخشن وجلبت لنفسها ضررا فادحا بقفل ابواب الشرق امام مراكبها بل تمكن كولبر بحكمته وسياسته ومعاملة الدولة العلية باللين والخضوع من تجديد المعاهدات القديمة في سنة ١٦٧٣ وفوض ثانيا إلى فرنسا حق حماية بيت المقدس كما كان لها ذلك من ايام السلطان سليمان وبذلك عادت العلاقات إلى سابق ضفائها بين الدولتين ومما زاد حدود الدولة اتساعا ومنعة من جهة الشمال خضوع "واظهارا لممنونية الامة انتخبته ملكا عليها بعد موت ميشل سنة ١٦٧٣ واستمرت الحرب بين الدولتين سجالا إلى سنة ١١٦٧ وفيها جدد الملك سوبيسكي الصلح بعد ان فقد معظم جيوشه في هذه الحروب المستمرة وتنازل للدولة العلية عما كان تنازل لها عنه الملك ميشل الا بعض مدن قليلة الاهمية وكانت هذه المعاهدة خاتمة اعمال كوبريلي احمد باشا الذي توفي بعد اتمامها بقليل في ٢٤ رمضان سنة ١٠٨٧ ٣٠ اكتوبر سنة ١٦٧٦ عن واحد واربعين سنة قضى منها خمس عشرة سنة في منصب الصدارة العظمى بكل امانة وصداقة سائرا في ذلك على خطة والده المرحوم كوبريلي محمد باشا وتقلد منصب الصدارة بعده زوج اخته قره مصطفى ولم يكن كفؤا للسير في الطريق الذي رسمه كوبريلي الكبير وولده بل اتبع مصلحته الذاتية وباع المناصب العالية والمعاهدات والامتيازات المجحفة بالدولة حالا واستقبالا بدراهم معدودة وبسوء سياسته كدر خواطر القوزاق وابعدهم عن الدولة حتى ان خان اقليم اوكرين عصاها جهارا في فبراير سنة ١٦٧٧ واستنجد بالروسيا التي كانت آخذة اذ ذاك في تنظيم داخليتها وتقدم وكانت تتوق للدخول ضمن المجتمع الاوروبي فامدته بالرجال وحاربت عساكر الدولة استمر الحرب بين القوزاق والروس من جهة والعثمانيين من جهة اخرى بين اخذ ورد حتى سنة ١٦٨١ حيث تم الصلح بينهم على بقاء الحالة على ما كانت عليه قبل ابتداء الحرب وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة رادزين

وفي هذه السنة سار قره مصطفى باشا إلى بلاد المجر لمحاربة النمسا بناء على استدعاء تيليكي احد اشراف المجر الذي اثار الايالات المجرية التابعة للنمسا للتخلص من استبدادها الديني فان الامبراطور ليوبولد لكونه كاتوليكيا كان يامر بقتل كل من يلوح عليه ادنى ميل إلى مذهب البروتستانت

حصار مدينة ويانه اخر دفعة

وبعد ان انتصر عدة مرات على النمساويين قصد مدينة ويانة عاصمة النمسا فحاصرها سنة ١٦٨٣ مدة شهرين واستولى على كافة قلاعها الامامية وهدم اسوارها "بالمدافع والغام البارود ولما لم يبق عليه الا المهاجمة الاخيرة المتممة للفتح اتى سوبيسكي ملك بولونيا ومنتخبي ساكس وبافييرا بجيوشهم بناء على الحاح البابا عليهم واستنهاضه هممهم لمحاربة المسلمين حتى اضرم في قلوبهم نار التعصب الديني وفي يوم ٢٠ رمضان سنة ١٠٩٤ ١٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣ هاجم سوبيسكي ومن معه العثمانيين في المرتفعات المتحصنين بها وبعد ان استمر القتال طول النهار فاز المسيحيون بالنصر وانهزم قره مصطفى باشا وجيوشه امامهم تاركا كافة المدافع والذخائر والمؤن فكان يوما مشهودا يجعل الولدان شيبا ثم جمع قره مصطفى باشا ما بقي من جنوده ولم شعثهم على نهر راب ومن هناك قفل راجعا إلى مدينة بود والملك سوبيسكي سائر خلفه يقتل كل من يتخلف في السير وفتح مدينة جران بكل سهولة ولما وصل خبر هذا الخذلان الذي لم يسبق لجيوش الدولة امر السلطان محمد الرابع بقتل الصدر قره مصطفى باشا وارسل احد رجال حاشيته فقتله وارسل براسه إلى القسطنطينية وعين مكانه ابراهيم باشا سنة ١٠٩٥ وبعد استخلاص مدينة ويانه تألبت كل من النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة مالطه والبابا ومملكة الروسيا على محاربة الدولة الاسلامية الوحيدة لمحوها من العالم السياسي والذي يدل على ان هذا التحالف كان دينيا محضا تسميته بالتحالف المقدس ومما زاد احوال هذه الدولة القائمة بمفردها امام جميع الدول المسيحية ارتباكا قطع العلاقات بينها وبين فرنسا بسبب المناوشات البحرية المستمرة بين مراكبها قراصنة المغرب فان الاميرال دوكين تبع ثماني مراكب من ميناء طرابلس الغرب إلى جزيرة "ساقز ولما التجأت إلى فرضتها واراد الاميرال الدخول إلى الميناء خلفها ومنعه حاكم الجزيرة اطلق مدافعه على المدينة بدون اعلان حرب وجاوبته قلاعها ولم يمتنع عن القاء القنابل على بيوت السكان حتى دمر المدينة وفي سنة ١٦٤٨ اطلق دوكين ايضا المدافع على مدينة الجزائر بالغرب مدة ولم يكف عن القاء المقذوفات النارية عليها حتى دفع اليه اهلها مليونين ومائتي الف قرش غرامة

حربية واطلقوا سراح من عندهم من اسرى الفرنساويين وفي السنة التالية فعل هذا الامر الشنيع ايضا في ميناء طرابلس الغرب ولاشتغال الدولة بمحاربة التحالف المقدس ضربت كشحا من هذه التعديات المخالفة لقوانين الحرب ووجهت اهتمامها إلى الجيوش المتعددة التي زحفت على بلادها من كل حدب فان جيوش الملك سوبيسكي كانت تهدد بلاد البغدان وسفن البنادقة تهدد سواحل اليونان وبلاد موره ولعدم وجود المراكب الكافية لصد هجمات سفن البنادقة التي كانت تعززها مراكب البابا ورهبنة مالطه احتلت جيوش البنادقة في سنة ١٦٨٦ اغلب مدن اليونان حتى كورنته واتينا اما النمسا فاغارت جيوشها على بلاد المجر واحتلوا مدينة يست الواقعة امام مدينة بود وحاصروا هذه المدينة ايضا ولولا مدافعة حاكمها وحاميتها دفاع الابطال لسقطت في ايديهم وفي سنة ١٦٨٥ احتل النمساويون عدة حصون وقلاع شهيرة اهمها قلعة نوهزل وبسبب هذه الانهزامات المتعاقبة عزل الصدر ابراهيم باشا ونفي في جزيرة رودس ولم يلبث في منصب الصدارة الا سنتين وتعين مكانه السر عسكر سليمان باشا وكان مشهورا بحسن التدبير والشجاعة والاقدام لكن كانت الدولة "قد وصلت إلى درجة من التقهقر امام هذه القوى المتألبة عليها صار معها الخلاص صعبا لاسيما وقائد الجيوش النمساوية كان الدوك دي لورين الشهير

وكان اول اعمال سليمان باشا الاسراع إلى انجاد مدينة بود التي كان يحاصرها الدوك دي لورين بتسعين الف جندي لكن لم تجد مساعدته شيئا فان القائد المذكور دخلها عنوة في يوم ١٣ شوال سنة ١٠٩٧ ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦ بعد ان قتل حاكمها عبدي باشا واربعة آلاف من جنوده في الدفاع عنها ولم تدخل هذه المدينة ثانيا في حوزة العثمانيين إلى الآن

وبعد سقوط هذه المدينة في قبضة النمساويين ومحالفيهم اراد الصدر سليمان باشا ان ياتي عملا يكفر عنه عند الامة ما اتاه من التهاون في مساعدة مدينة بود لكن اتاه الضرر من حيث كان يريد النفع لنفسه فانه جمع من بقايا كتائبه جيشا مؤلفا من ستين الف مقاتل يعززهم سبعون مدفعا وانتظر انقضاء الشتاء والربيع لشدة بردهما وكثرة ما يسقط فيهما من الثلوج في هذه الجهات باذلا جهده في جمع الذخيرة الكافية وفي تدريب جنوده خيفة الفشل والتصاق الهوان باسمه ثم هاجم جيوش التحالف المقدس في سهل موهاكز الذي سبق انتصار العثمانيين فيه على المجر نصرا عزيزا قبل هذا

التاريخ بمائة وستين سنة فالتحم الجيشان في ٣ شوال سنة ١٠٩٨ ١٢ اغسطس سنة ١٦٨٧ وبعد قتال شديد دارت الدائرة على الجيوش العثمانية فانهزموا عن آخرهم واخذ العدو في جمع ما معهم من المدافع والسلاح والمؤن والذخائر واحتلت جيوشه اقليم ترنسلفانيا وعدة قلاع من كرواسيه ولما ذاع خبر هذا الانكسار بين الجيوش الموجودة بالاستانة هاجوا وماجوا وارسلوا للجيوش الباقية مع الصدر سليمان باشا فاشهروا عليه العصيان ولولا فراره إلى بلغراد لاعدموه الحياة ثم ارسل الانكشارية والسباه وفدا للاستانة يطلب من السلطان الامر بقتل الصدر فلم ير بدا من ذلك وامر بقتله تسكينا لثورة غضب الجند ولما لم يفد شيئا ولم تعد السكينة بين الجيوش وخيف "على المملكة العثمانية من الداخل قرر الوزير الثاني القائم مقام قره مصطفى باتحاده مع العلماء عزل السلطان محمد الرابع فعزلوه في ٢ محرم سنة ١٠٩٩ ٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧ م بعد ان حكم اربعين سنة وخمسة اشهر وبقي في العزلة إلى ان توفي في ٨ ربيع الآخر سنة ١١٠٤ ١٧ دسمبر سنة ١٦٩٢ م بالغا من العمر ٥٣ سنة ودفن في تربة والدته ترخان سلطان وولوا بعد عزله اخاه"

فصل - [ذكر السلطان سليمان الثاني]

"هو ابن السلطان ابراهيم الاول ولد في ١٥ محرم سنة ١٠٥٢ ١٥ ابريل سنة ١٦٤٢ فاغدق العطايا على الجنود ولم يعاقبهم على عصيانهم الذي كانت نتيجته عزل خلفه ولذلك ما لبثت ان تمردت ثانيا وقتلت قوادها وحاصرت الصدر الجديد سياوس باشا في سرايه وقتلوه وسبوا ازواجه فكانت الاستانة فوضى وانتهز الاعداء هذه الاختلالات والاضطرابات المستمرة لفتح الحصون العثمانية فاحتل النمساويون قلاع ارلو ولبا وغيرها واحتل موروزيني البندقي مدينة ليبه من بلاد اليونان وكافة سواحل دلماسيا سنة ١٦٨٧ وفي السنة التالية أي سنة ١٦٨٨ سقطت مدائن سمندريه وقلومباز وبلغراد في ايدي النمساويين ثم فقدت الدولة العثمانية في سنة ١٦٨٩ مدائن نيش وودين من بلاد الصرب وذلك لعدم كفاءة الصدر مصطفى باشا الذي خلف سياوس باشا قتيل الانكشارية ولما رأى السلطان توالى المصائب عزل هذا الصدر وعين مكانه كوبريلي مصطفى باشا ابن كوبريلي محمد باشا الكبير ولم يكن اضعف همة من والده بل كان يشبهه في علو المكانة ومضاء العزيمة فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود باللين طورا وبالشدة اخرى ومنعهم عن اعتيال حقوق الاهالي وصرف لهم متاخراتهم من مال الاوقاف حتى لا يكون لهم حجة في اختلاس شيء من الاهالي فانتظم حال

الجيش وصار يمكن التعويل عليه في الحروب ومن جهة اخرى اباح للمسيحيين بناء ما تهدم من كنائسهم في الاستانة وعاقب باشد العقاب كل من تعرض لهم في "اقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحيي الدولة وكانت نتيجة معاملته المسيحيين بالقسط ان ثار اهالي موره الاروام على البنادقة فطردوهم من ديارهم لتعرضهم لهم في اقامة شعائر مذهبهم الارثوذكسي واجبارهم على اعتناق المذهب الكاتوليكي ودخلوا في حمى الدولة العلية طائعين مختارين لعدم تعرضها لديانتهم مطلقا ولما انتظم الجيش وطهر من الادران التي كادت تؤدي به إلى الدمار وساد الامن داخل البلاد سار بنفسه لمحاربة الاعداء فاسترد في قليل من الزمن مدائن نيش وودين وسمندريه وبلغراد في سنة ١٦٩٠ بينا كان سليم كراي خان القرم يخضع ثائري الصرب وتيكلي المجري يرجع اقليم ترنسلفانيا إلى املاك الدولة وبذلك اعاد كوبريلي مصطفى باشا بعض ما فقدته الدولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعدم اطاعة الانكشارية وفي ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢ ٢٣ يونيه سنة ١٦٩١ توفي السلطان سليمان الثاني عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد ان حكم ثلاث سنوات وثمانية اشهر ودفن في تربة جده السلطان سليمان الاول وتولى بعده اخوه"

فصل - [ذكر السلطان أحمد الثاني]

ولد هذا السلطان في ٦ ذي الحجة سنة ١٠٥٢ ٢٥ فبراير سنة ١٦٤٣ فابقى الصدر الاعظم اعتمادا عليه في الحرب والسلم لكن لم تمهل المنية هذا الوزير الشهير بل قصفت عوده الرطيب وهو في عنفوان شبابه فتوفي في ٢٤ ذي القعدة سنة ١١٠٢ ١٩ اغسطس سنة ١٦٩١ في ساحة القتال عند مهاجمة الجيوش النمساوية القائد لها لويز دي باد فكان موته ضربة على الدولة لعدم كفاءة عربه جي علي باشا الذي خلفه في منصب الصدارة ولم تحصل امور ذات بال في ايام هذا السلطان بل اقتصرت الحرب على بعض مناوشات ليس لها من الاهمية شان يذكر غير ان البنادقة احتلت في سنة ١٦٩٤ جزيرة ساقز ثم انتقل إلى رحمة مولاه في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١١٠٦ ٧ فبراير سنة ١٦٩٥ وعمره ٥٤ سنة قمرية تقريبا بعد ان حكم ٤ سنين و ٨ اشهر ودفن في تربة جده سليمان الاول مع اخيه سليمان الثاني وتولى بعده السلطان الغازي مصطفى خان الثاني"

فصل - [ذكر السلطان مصطفى الثاني]

"ابن السلطان محمد الرابع المولود في ٨ ذي القعدة سنة ١٠٧٤ ٢ يونيه سنة ١٦٦٤ وكان متصفا بالشجاعة وثبات الجأش ولذلك اعلن بعد توليته بثلاثة ايام رغبته في قيادة الجيوش بنفسه فسار إلى بلاد بولونيا مستعينا بفرسان القوزاق وانتصر على البولونيين عدة مرات ولولا ما لاقاه من الدفاع امام مدينة لمبرج لتقدم كثيرا لكن كان هذا الحصن المنيع من اكبر العوائق لاستمرار فتوحاته ومن جهة اخرى حارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة ازاق ببلاد القرم التي حاصرها بطرس الاكبر لتكون ثغرا لبلاده على البحر الاسود اذ كانت قبائل القوزاق تحول بين هذا البعد وبين بلاده فرفع الحصار عنها رغم انفه في اكتوبر سنة ١٦٩٥ معللا نفسه بمعاودة الكرة عليها عند تهيؤ الاسباب وبعد ذلك اغار السلطان بجيوشه ثانيا على بلاد المجر وفتح حصن لبا عنوة وهزم الجنرال فتراني في موقعة لوجوس وقتل من عساكره ستة الآف جندي "واخذه اسيرا وقتله في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٩٥ ١٢ صفر سنة ١١٠٧ وفي سنة ١٦٩٦ فاز السلطان فوزا مبينا على منتخب ساكس في موقعة اولاش وبعد ذلك تقلد البرنس اوجين دي سافوا القائد الشهير قيادة الجيش النمساوي فاعمل الفكرة في عدم ملاقاة الجيش العثماني في الاراضي السهلة بل حاوله مدة بدون ان يمكن السلطان من مهاجمته حتى فاجأه هو اثناء عبور الجنود العثمانية لنهر تيس وعدم استعدادها للدفاع بالقرب من قرية صغيرة اسمها زينتا فقتل منهم عددا عظيما من ضمنهم الصدر الاعظم الماس محمد باشا وغرق منهم في النهر اكثر ممن قتل ولولا وجود السلطان على الضفة الاخرى لسقط في ايديهم اسيرا وكان ذلك في ٢٥ صفر سنة ١١٠٩ ١٢ سبتمبر سنة ١٦٩٧ ثم تبعهم البرنس اوجين ودخل بلاد البوسنة فاتحا وعين بعد ذلك عموجه زاده حسين باشا كوبريلي صدرا اعظم وفي اثناء اشتغال السلطان ببلاد المجر عاد بطرس الاكبر الروسي لفتح ميناء ازاق لاهميتها لمملكته فدخلها في خلال سنة ١٦٩٦ ولم تزل تابعة للروسيا حتى الآن فكانت الدولة في خطر شديد من جهتي الروسيا والنمسا لكن اوقف الصدر الاعظم كوبريلي حسين باشا البرنس اوجين في سيره والزمه التقهقر امامه حتى اخلى بلاد البوسنه ورجع إلى ما وراء نهر ساف واسترد الاميرال البحري العثماني الملقب مزومورتو جزيرة ساقز بعد ان انتصر دفعتين على مراكب البندقية ثم ابتدأت المخابرات للوصول إلى الصلح فتدخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر واراد ان يدخل الدولة في معاهدة ريسويك فلم تقبل لعلمها ان جميع "الدول يد واحدة عليها ولو اظهرت لها احداها التودد فذلك لم يكن الا لغاية كامنة في النفس

والتاريخ الحالي شاهد عدل وبعد مخابرة طويلة امضيت بين الدولة العلية والنمسا والروسيا والبندقية وبولونيا معاهدة كارلوفتس في ٢٤ رجب سنة ١١١٠ ٢٦ يناير سنة ١٦٩٩ فتركت الدولة بلاد المجر باجمعها واقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا وتنازلت عن مدينة ازاق وفرضتها للروسيا فصار لها بذلك يد على البحر الاسود وزادت اهمية جوارها للدولة العلية اضعاف ما كانت عليه من قبل وردت لمملكة بولونيا مدينة كامينك واقليمي بودوليا واوكروين وتنازلت للبندقية عن بجيث جزيرة مورا إلى نهر هكساميلون واقليم دلماسيا على البحر الادرياتيكي باجمعه تقريبا واتفقت مع النمسا على مهادنة خمس وعشرين سنة وان لا تدفع هي او غيرها شيئا للدولة العلية على سبيل الجزية او مجرد الهدية وبهذه المعاهدة فقدت الدولة جزأ ليس بقليل من املاكها باوروبا وزادت اطماع الدول في بلادها كما سيأتي مفصلا ويمكننا القول بان الاتفاق قد تم من ذلك التاريخ بين جميع الدول ان لم يكن صراحة فضمنا على الوقوف امام تقدم الدولة العلية اولا ثم تقسيم بلادها بينهم شيئا فشيئا وهو ما يسمونه في عرف السياسة بالمسالة الشرقية المبنية على الخوف من انتشار الدين الاسلامي وحلوله محل الدين المسيحي ليس الا اما ما يسترون خلفه غاياتهم من الدفاع عن حقوق الامم المسيحية الضعيفة الخاخعة للدولة فما لم يعد احد يغتر به وبعد اتمام هذه المعاهدة التي ربما كانت اوخم عاقبة لولا استظهار كوبريلي حسين "باشا على البرنس اوجين قائد الجيوش النمساوية في بلاد البوسنة وجه هذا الوزير اهتمامه إلى الامور الداخلية والشؤون المالية والاحوال العسكرية مما لا قوام لاي دولة الا بانتظامها وتقويم المعوج منها فاتى لكل منها بالدواء الكافي والعلاج الشافي وترك كثيرا من الاموال المتأخرة على الاهالي لا سيما المسيحيين منهم حتى لا يجد منهم المفسدون المضلون نصراء الاجانب وسماسرتهم اذنا صاغية لدسائسهم الايهامية ووساوسهم الشيطانية التي يسلمون بها بلادهم للاجانب طمعا في مال او جاه لن يكونوا بالغيه ولله في خلقه آيات ثم استقال هذا الوزير المصلح في ١٢ ربيع الآخر سنة ١١١٤ ٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢ وعين مكانه في منصب الصدارة دال طبان مصطفى باشا وكان جنديا ميالا للحرب ولذلك لم يسر على خطة سلفه من اصلاح الشؤون الداخلية وتنظيم البلاد وانشاء الطرق العمومية وغيرها من الاعمال والاشغال العمومية وعدم اضاعة النفوس والاموال في الحروب واضافة البلاد لبعضها بدون اصلاح او تنظيم اكتفاء بما يؤخذ من الغنائم وقت الحرب بل اراد ان يخرق عهدة كارلوفتس مع حداثتها ويثير الحرب على النمسا ولشعور الاهالي والجنود بمضار هذه السياسة على الدولة لما وراءها من تألب الدول عليها ثانيا واخذ بعض بلادها تذمروا ضد الوزير

واشترك معهم بعض الجنود وطلبوا من السلطان عزله فاقاله في ٦ رمضان سنة ١١١٤ ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٠٢ وتعين محله رامي محمد باشا فسار على اثر كوبريلي حسين باشا وشرع في ابطال المفاسد ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم فاهاج ضده ارباب الغايات وكثير عدادهم واثاروا عليه الانكشارية لميلهم بالطبع إلى الهياج للسلب والنهب وهتك الاعراض فطلبوا عزله من السلطان فامتنع وارسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضمت إلى الثائرين وعزلوا السلطان مصطفى الثاني في ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥ ١٥ اغسطس سنة ١٧٠٣ بعد ان حكم ٨ سنوات و ٨ شهور وبقي معزولا إلى ان توفي في ٢٢ شعبان من السنة المذكورة ٣١ دسمبر سنة ١٧٠٣ م وعمره اربعون سنة تقريبا واقاموا مكانه بعد عزله اخاه"

فصل - [ذكر السلطان أحمد الثالث]

"ابن السلطان الغازي محمد الرابع المولود في ٣ رمضان سنة ١٠٨٣ ٢٣ دسمبر سنة ١٦٧٣ وعند تعيينه وزع اموالا طائلة على الانكشارية وسلم لهم في قتل المفتي فيض الله افندي لمقاومته لهم في اعمالهم ثم لما قرت الاحوال وعادت السكينة اقتص من رؤس الانكشارية فقتل منهم عددا ليس بقليل وعزل في ٦ رجب سنة ١١١٥ ١٥ نوفمبر سنة ١٧٠٣ الصدر الاعظم نشانجي احمد باشا الذي انتخبه الانكشارية وقت ثورتهم وعين في هذه الوظيفة المهمة زوج اخته داماد حسن باشا لكن لم تحمه مصاهرته للسلطان ولا ما اتاه من الاعمال النافعة كتجديد الترسانة وانشاء كثير من المدارس من ان يكون هدفا لدسائس المفسدين ارباب الغايات الذين لا يروق في اعينهم وجود اعنة الامور في قبضة رجل حازم يحول بينهم وبين ما يشتهون فاعملوا فكرهم وبذلوا جهدهم حتى تحصلوا على عزله في ٢٨ جمادى الاولى ١١١٦ ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٠٤ ومن بعده كثر تغيير الصدور تبعا للاهواء وكانت نتيجة ذلك ان الدولة لم تلتفت لاجراءات بطرس الاكبر ملك الروسيا في داخلية بلاده ولم تدرك كنه سياسته الخارجية المبنية على اضعاف الاقوياء من مجاوريه أي السويد وبولونيا والدولة العثمانية وانه قد ابتدأ في تنفيذ مشروعه هذا بان حارب شارل الثاني عشر "السويدي وانتصر عليه اخيرا نصرا عظيما في واقعة بولتاوا في سنة ١٧٠٩ ولو فطنت الدولة ووزراؤها إلى ما انطوت عليه هذه السياسة للزمها مساعدة السويد على الروسيا حتى يكونا مع بولونيا حاجزا ضد اطماعها لكنها لم تفقه لهذا السر السياسي فقلبت لشارل الثاني عشر ظهر المجن حتى لما التجأ بعد واقعة بولتاوا إلى

مدينة بندر واخذ في استمالة الدولة لمحاربة الروسيا ولكن لم ينجح في مسعاه لمعارضة الوزير نعمان باشا كوبريلي للحرب ثم لما عزل الوزير وتولى بعده بلطه جي محمد باشا مال لاثارة الحرب على الروسيا فاشهر عليها الحرب وقاد الجيوش بنفسه وبعد مناورات مهمة حصرت الجيوش العثمانية البالغ قدرها مائتي الف جندي قيصر الروسيا وخليلته كاترينا ولو استمر عليهم الحصار قليلا لاخذ اسيرا هو ومن معه وانمحت الدولة الروسية كلية من العالم السياسي او بالاقل بقيت في التوحش والهمجية عدة اجيال لكن استمالت كاترينا بلطه جي محمد باشا اليها واعطته كافة ما كان معها من الجواهر الكريمة والمصوغات الثمينة نخان الدولة ورفع الحصار عن القيصر وجيشه مكتفيا بامضاء القيصر لمعاهدة فلكزن المؤرخة ٩ جمادى الآخرة سنة ١١٢٣ ٢٥ يوليه سنة ١٧١١ الذي اخلى بمقتضاها مدينة ازاق وتعهد فيها بعدم التدخل في شؤون القوزاق مطلقا لكن لا يخفى على كل مطلع له ذرة من العقل ان هذه المزية لم تكن شيئا مذكورا في جانب ما كان يمكن الدولة ان تناله من القيصر لو اهلكت جيشه واستولت عليه اسيرا ولذلك احتدم شارل الثاني عشر السويدي نزيل بندر غيظا وسعى لدى السلطان بمساعدة خان القرم دولت كراي حتى تحصل على عزله وابعاده إلى جزيرة لمنوس وتولى بعده يوسف باشا وكان محبا للسلم فامضى مع الروسيا معاهدة جديدة تقضي بعدم المحاربة بينهما مدة ٢٥ سنة لكن لم تمض على هذه المعاهدة بضعة اشهر حتى قامت الحرب ثانية بين الدولتين بسبب عدم قيام بطرس الاكبر باحد شروط معاهدة فلكزن القاضي بتخريب فرضة تجانزك الواقعة على بحر آزاق فتدخلت انكلترا وهولاندا في منع الحرب لاضراره بتجارتهما وبعد مخابرات طويلة امضيت بينهما معاهدة جديدة سميت بمعاهدة ادرنه في ٢٤ جمادى الاولى سنة ١١٢٥ ١٨ يونيو سنة ١٧١٣ تنازلت الروسيا بمقتضاها عما لها من الاراضي على البحر الاسود حتى لم يبق لها عليه موانئ او ثغور وفي مقابلة ذلك ابطل ما "كانت تدفعه سنويا إلى امراء القرم بصفة جزية كي لا يتعدوا على قوافلها التجارية وعند ذلك يئس شارل السويدي من نوال غرضه وهو مساعدة الدولة العلية على الروسيا فبارح بلاد الدولة في اول اكتوبر سنة ١٧١٣ بعد ان اقام فيها نحو سنتين

ثم تولى منصب الصدارة علي باشا داماد بعد يوسف باشا وكان ميالا للحرب غيورا على صالح الدولة ميالا لاسترجاع ماضاع من املاكها خصوصا بلاد موره ولذلك اعلن الحرب على جمهورية البندقية وفي قليل من الزمن استرد البحيث جزيرة باجمعها والمدن التي كانت باقية للبنادقة بجزيرة كريد حتى

لم يبق لهم ببلاد اليونان الا جزيرة كورفو فاستعانت البندقية بشارل الثالث امبراطور النمسا احد الماضين على معاهدة كارلوفتس ولكون الحرب كانت قد انقضت ووضعت اوزارها بين النمسا وفرنسا وتم الصلح بينهما بمعاهدتي اوترك ورستاه اسرع الامبراطور لمديد المساعدة إلى البنادقة بان ارسل إلى السلطان بلاغا يطلب منه فيه ارجاع كل ما اخذه من البنادقة وكان اعطى لهم بمقتضى معاهدة كارلوفتس والا فيكون امتناعه بمثابة اعلان للحرب فلم تقبل الدولة هذا الطلب وفضلت الحرب في هذا الوقت الغير مناسب بعدم تبصر وزيرها فانه كان من الواجب عليه عدم عمل ما يسبب هذه الحروب مع عدم اشتغال النمسا بمحاربة فرنسا وامكانها توجيه كل قواها وامهر قوادها إلى ساحة القتال خصوصا القائد الذائع الصيت البرنس اوجين دي سافوا الذي سبق ذكره اكثر من مرة فكان من المحقق تقريبا فوزه على العثمانيين لتضلعه من فنون الحرب التي لا تقوى عليها شجاعة العثمانيين وما اتصفوا به من الثبات.

"[معاهدة بسار وفتس]

ومما يؤيد ذلك ان البرنس اوجين انتصر عليهم في موقعة بتروادين في يوم ٥ اغسطس سنة ١٧١٦ وفيها قتل الصدر الاعظم علي باشا داماد لاقتحامه مواقع الخطر حتى لا يعيش بعد الانهزام وبعد ذلك فتح النمساويون مدينة تمسوار بعد ان حاصروها اربعة واربعين يوما ووضعوا الحصار امام مدينة بلغراد ودخلوها في ١٩ اغسطس سنة ١٧١٧ بعد ان تغلبوا على الصدر الجديد خليل باشا الذي اتى لمساعدة المدينة ثم ابتدأت المخابرات للصلح فتم بينهما في ٢٢ شعبان سنة ١١٣٠ ٢١ يوليو سنة ١٧١٨ على ان تأخذ النمسا ولاية تمسوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وان تبقى جمهورية البندقية محتلة ثغور شاطئ دلماسيا اما بلاد موره فترجع إلى الدولة وسميت هذه المعاهدة معاهدة بسار وفتس وعقب ذلك طلبت الروسيا من الدولة تحوير المعاهدة السابقة بكيفية تبيح لتجارها المرور من اراضي الدولة وبيع سلعهم فيها ولحجاجها التوجه لبيت المقدس وغيره من الاماكن والاديرة المقدسة عندهم بدون دفع خراج مدة اقامتهم او رسوم على جوازات المرور فقبلت الدولة واضافت إلى هذه المعاهدة الجديدة المؤرخة ٩ نوفمبر سنة ١٧٢٠ شرطا من الاهمية السياسية بمكان عظيم وهو تعهد كل من الروسيا والباب العالي بمنع زيادة نفوذ الملك

المنتخب ببولونيا على نفوذ الاشراف وعدم تمكينه من جعل منصبه وراثيا في عائلته ومنع حصول هذين الامرين بكل الوسائط الممكنة بما فيها الحرب ولا تخفى اهمية هذا الشرط الاخير الذي لم يقصد به بطرس الاكبر الا ايجاد النفرة بين ملوك بولونيا والدولة انفاذا لما كان ينويه لها كما سنشرحه في موضعه فان جعل مقاصد هذا القيصر المؤسس الحقيقي للمملكة الروسية وواضع دعائمها كان التفريق بين مجاوريه الثلاثة السويد وبولونيا والدولة العثمانية "واضعافهم الواحد بعد الاخر فتزيد قوته بنسبة تاخرهم وتقهقرهم وقد نجح تماما بما يتعلق بالسويد بجهل بعض وزراء الدولة العلية ضروب السياسة وعدم اطلاعهم على دخائل علاقات الدول ببعضها ثم شرع في تنفيذ ما ينويه ضد بولونيا والدولة العلية وكان قد سافر إلى باريس سنة ١٧١٧ وقابل ملكها الفتي لويس الخامس عشر ووصيه ليستميلهما لسياسته فاخفق مسعاه ولذلك استعان بوزراء الدولة العلية نفسها ووضع اول حجر لهذا المشروع باضافة البند المتعلق ببولونيا في المعاهدة الجديدة

تقسيم مملكة العجم بين العثمانيين والروس وعزل السلطان الغازي احمد الثالث

هذا ولما تولى من يدعى داماد ابراهيم باشا منصب الصدارة سنة ١١٣٠ هـ ١٧١٧ م اراد ان يستعيض عما فقدته الدولة من ولايات بفتح بلاد جديدة في جهة اسيا ولقد اتاح له الحظ حصول انقلابات ببلاد العجم بسبب تنازل الشاه "حسين عن الملك جبرا إلى مير محمد امير افغانستان فاسرع الصدر ابراهيم باشا باحتلال ارمينيا وبلاد الكرج لكن كان سبقه بطرس الاكبر واجتاز جبال القوقاز التي كانت تحد بلاده من جهة الجنوب واحتل اقليم طاغستان مع كافة سواحل بحر الخزر الغربية فكادت الحرب تقوم بين الدولة والروس ولعدم امكان الروس مقاومة الجيوش العثمانية وتحقق بطرس الاكبر من عدم اقتداره على محاربتها طلب من سفير فرنسا بالاستانة المسيو دوبو ان يتوسط بينهما فقبل هذه المامورية ووفق بين الطرفين بان يمتلك كل منهما ما احتله من البلاد وقبلت الدولتان بذلك وامضيتا بهذه الشروط معاهدة بتاريخ ٢ شوال سنة ١١٣٦ ٢٤ يونيو سنة ١٧٢٤

اما الفرس فلم يقبلوا هذا التقسيم المزري بشرفهم والقاضي بضياع جزء ليس بقليل من بلادهم بل قاموا كرجل واحد لمحاربة الاجانب واخراجهم من ديارهم لكن لم تكن شجاعتهم كافية لصد هجمات العثمانيين الذين فتحوا في سنة ١٧٢٥ عدة مدن وقلاع اهمها مدائن همذان واريوان وتبريز

وساعد ذلك تسلط الفوضى في داخلية ايران وتنازع كل من الشاه اشرف الذي قتل مير محمد امير افغانستان والشاة طهماسب ملك ساسان وانتهت هذه الحرب بالصلح مع الشاه اشرف في ٢٥ صفر سنة ١١٤٠ ١٢ اكتوبر سنة ١٧٢٧ انما لما مات الشاه اشرف وانفرد طهماسب بالملك طلب من الدولة العلية ان ترد اليه كل ما اخذته من بلاد اجداده فلم تجبه الدولة ولذا اغار على بلادها ولعدم ميل السلطان إلى الحرب ورغبته في الصلح ثار الانكشارية واهاجوا الاهالي فاطاعوهم طلبا للسلب والنهب في ١٥ ربيع الاول ١١٤٣ ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٣٠ وطلب زعيم هذه الثورة المدعو بترونا خليل من السلطان قتل الصدر الاعظم والمفتي وقبوادان باشا أي اميرال الاساطيل البحرية بحجة انهم مائلون لمسالمة العجم فامتنع السلطان عن اجابة طلبهم ولما راى منهم التصميم على قتلهم طوعا او كرها نخوفا من ان يتعدى اذاهم إلى شخصه سلم لهم بقتل الوزير والاميرال دون المفتي فقبلوا والقوا جثثهم إلى البحر لكن لم يمنعهم انصياع السلطان لطلباتهم من التطاول من اليه بل جرأهم تساهله معهم على العصيان عليه جهارا فاعلنوا باسقاطه في مساء اليوم المذكور "عن منصة الاحكام ونادوا بابن اخيه السلطان محمود الاول خليفة للمسلمين واميرا للمؤمنين فاذعن السلطان احمد الثالث وتنازل عن الملك بدون معارضة وكانت مدة حكمه ٢٧ سنة و ١١ شهرا

ومما يذكر في التاريخ لهذا الملك ادخال المطبعة في بلاده وتأسيس دار طباعة في الاستانة العلية بعد اقرار المفتي واصداره الفتوى بذلك مشترطا عدم طبع القرآن الشريف خوفا من التحريف واسترجاع اقليم موره وقلعة آزاق وفتح عدة ولايات من مملكة العجم وبقي معزولا إلى ان توفي في سنة ١١٤٩.

فصل - [ذكر السلطان محمود الأول وظهور نادرشاه]

"هو ابن السلطان مصطفى الثاني ولد في ٤ محرم سنة ١١٠٨ ٣ اغسطس سنة ١٦٩٦ ولما تولى لم يكن له الا الاسم فقط وكان النفوذ لبطرونا خليل يولي من يشاء ويعزل من يشاء تبعا للاهواء والاغراض حتى عيل صبر السلطان من استبداده وتجمهر حوله رؤساء الانكشارية لتعدي هذا الزعيم على حقوقهم واتفقوا على الغدر به تخلصا من شره فقتلوه ولم يقو محازبوه على الاخذ بثأره بل اطفئت ثورتهم في دمائهم وبذلك عادت السكينة للمدينة وامن الناس على اموالهم وارواحهم

وبعد ان استتب الامن استأنفت الدولة الحرب مع مملكة الفرس وتغلبت الجيوش العثمانية على جنود الشاه طهماسب في عدة وقائع اهرقت فيها الدماء مدرارا فطلب الشاه الصلح وتم بين الدولتين الامر في ١٢ رجب سنة ١١٤٤ ١٠ يناير سنة ١٧٣٢ على ان تترك مملكة العجم للدولة العلسة كل ما فتحته ما عدا مدائن تبريز واردهان وهمذان وباقي اقليم لورستان لكن عارض نادرخان اكبر ولاة للدولة في هذه المعاهدة وسار بديوشه إلى مدينة اصفهان وعزل الشاه طهماسب "وولى مكانه ابنه القاصر عباسا الثالث واقام نفسه وصيا عليه ثم قصد البلاد العثمانية وبعد ان انتصر على جنود الدولة حصر مدينة بغداد فاسرع الوزير طوبال أي الاعرج عثمان باشا إلى محاربته وجرت بينهما عدة وقائع قتل فيها عثمان باشا المذكور فطلبت الدولة الصلح وبعد مخابرات طويلة اتفق مندوب الدولة مع نادرخان في ١٨ جمادى الاولى سنة ١١٤٩ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٣٦ م في مدينة تفليس حيث نودى بنادرخان ملكا على العجم على ان ترد الدولة إلى العجم كل ما اخذته منها وان تكون حدود الدولتين كما تقرر بمعاهدة سنة ١٦٣٩ المبرمة في زمن السلطان الغازي مراد الرابع

[معاهدة بلغراد]

وفي غضون ذلك قامت الحرب بين الدولة والروسيا بسبب مملكة بولونيا وذلك ان كل من الروسيا والنمسا والبروسيا اتفقت في سنة ١٧٢٢ بمقتضى اتفاق سري على ان لا يجوز تعيين ملك وطني على بولونيا جوفا من اتحاده مع الاهالي الامر الذي يكون من ورائه استقامة احوال هذه المملكة الداخلية مع ان قصد الروسيا ودود الاضطرابات بها دائما حتى تضعف كلية فتستولي عليها باجمعها او تقسمها مع مجاوريها تبعا لسياسة بطرس الاكبر القاضية بالسعي في تلاشي دولتي السويد وبولونيا فالدولة العلية فلما توفي اوغست الثاني ملك بولونيا انتخب الاهالي في سنة ١٧٣٣ ستانسلاس لكزنيسكي ملكا عليهم بسعي فرنسا التي كان من صالح سياستها بقاء بولونيا في العالم السياسي عزيزة الجانب يحكمها ملك من اهلها

فاعلنت الروسيا والنمسا الحرب على بولونيا ونادوا بآغوست الثالث ابن آغست الثاني ملكا عليها ولو لم ينتخبه الاهالي ومن جهة اخرى اشهرت فرنسا الحرب على النمسا دفاعا عما لبولونيا من الحق الصريح في انتخاب من تريد وسعت لدى الباب العالي بواسطة المسيو دي بونفال الذي خدم الدولة بعد ان اسلم واشتهر فيها باسم احمد باشا قائد الطوبجية لاستمالته للدفاع عن استقلال بولونيا الحاجز الحصين بينها وبين الروسيا موضحة لها سياسة هذه الدولة الطامحة انظارها لامتلاك "القسطنطينية كما اوصى لها بذلك بطرس الاكبر فلم يصغ وزراء الدولة لندائها لجهل في السياسة او لاسباب اخرى ولذلك تغلبت الروسيا على ستانسلاس واحتلت جنودها مملكة بولونيا باسرها ووزراء الدولة لاهون عن نتائج هذه السياسة الوخيمة التي ربما كانت السبب في وصول الدولة إلى الدرجة التي هي عليها الآن

ولما احست النمسا ان فرنسا تسعى وراء التحالف مع الدولة نخشيت من حصول هذا الاتفاق الذي يكون نتيجته عدم نجاح مسعاها مع الروسيا في بولونيا اسرعت في ارضاء فرنسا فابرمت معها معاهدة ويانة في سنة ١٧٣٥ واخذت في التأهب والاستعداد للاشتراك مع الروسيا في محاربة الدولة واوعزت إلى الروسيا بافتتاح القتال فاتخذت هذه الاخيرة مرور بعض قوزاق القرم من اراضيها في مارس سنة ١٧٣٦ متجهين إلى بلاد الكرج لمساعدة الدولة ضد العجم حجة لاعلان الحرب واغارت بكل قواها على بلاد القرم واحتلت مينا آزاق وغيرها من الثغور البحرية وهو ما حدا بالدولة إلى ابرام الصلح مع نادر شاه بالكيفية التي سبق شرحها لتتفرغ لصد هجمات الروس

ولحسن حظ الدولة كان قد تقلد منصب الصدارة رجل محنك اشتهر بحسن السياسة وسمو الادراك وهو الحاج محمد باشا فلم يغفل طرفة عين عن جمع الجيوش وتجهيز المعدات حتى امكنه في اقرب وقت ايقاف تقدم الروس الذين كانوا قد احتلوا إقليم البغدان ودخلوا مدينة باسى عاصمة هذا الاقليم ومن جهة اخرى انتصرت الجيوش العثمانية على جيوش النمسا الي اغارت على بلاد البوسنة والصرب والفلاخ فانتصر المسلمون في الصرب والجاؤوا النمساويين على الجلاء عنها تاركين في كل موضع قدم حثث رجالهم وتقهقروا إلى ما وراء نهر الدانوب في سنة ١٧٣٧ واستمر الحال على هذا المنوال مما تنوسى عهده في الدولة من النصر والفوز على الاعداء حتى طلبت النمسا الصلح بواسطة المسيو فلنوف سفير فرنسا فقبل التوسط بكل ارتياح وسار إلى معسكر الصدر الاعظم وعرض عليه

الصلح بالنيابة عن النمسا فاشترط شروطا ما كانت لتقبلها لولا انتصار المسلمين على قائدها الشهير وليس في يوم ٢٣ يوليو سنة ١٧٣٩ فكان هذا الفوز الاخير اكبر مساعد للوصول إلى الصلح الذي تم بينهما وبين الروسيا في ١٤ جمادى الآخرة "سنة ١١٥٢ ١٨ سبتمبر سنة ١٧٣٩ م على ان تتنازل النمسا للدولة العلية عن مدينة بلغراد وما اعطي لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى معاهدة بساروفتس اما الروسيا فتعهدت قيصرتها حنه بهدم قلاع ميناء آزاق وعدم تجديدها في المستقبل وبعدم انشاء سفن حربية او تجارية بالبحر الاسود او بحر آزاق بل تكون تجارتها على مراكب اجنبية وبان ترد للدولة كل ما فتحته من الاقاليم والبلدان وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد وبذلك انتهت هذه الحرب باسترداد جزء عظيم مما فقدته الدولة من ممالكها بمقتضى معاهدة كارلوفتس بضعف وعدم كفاءة او عدم صداقة واخلاص بعض الوزراء مما جعل الدولة على شفا جرف هار ولو اخلص هؤلاء الوزراء وجعلوا ترقية شان الدولة نصب اعينهم ونبذوا الغايات الشخصية ظهريا لما فقدت شبرا من ارضها ولكن {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب} وبعد ذلك بذل المسيو فلنوف سفير فرنسا جهده في اقناع الباب العالي بضرورة الاتحاد مع السويد لمحاربة الروسيا لو تعدت على احدهما خوفا من ان يلحق بهما تباعا ما اودى ببولونيا وجعلها خاضعة فعلا لاوامر الروسيا فاقتنعت الدولة وابرمت مع السويد محالفة هجوم ودفاع ضد الروسيا في سنة ١٧٤٠ وفي هذه السنة تحصل سفير فرنسا على تجديد الامتيازات القنصلية وكافة المزايا الممنوحة للتجار الفرنساويين وامضى الطرفان هذه المعاهد الجديدة في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٤٠ وهي عبارة عن معاهدة سنة ١٦٧٣ مع بعض تسهيلات جديدة لفرنسا وتجارتها وارسل السلطان سفيرا من طرفه اسمه سعيد ليقدم صورة المعاهدة إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر مع كثير من الهدايا الثمينة فقابله الملك بالاحتفاء والاكرام اللائق "بمقام مرسله السامي وعند عودته شيعه بالتبجيل والاجلال وارسل معه مركبين حربيين وجملة من المدفعية الفرنساويين هدية منه للخليفة الاعظم ليكونوا معلمين في الجيوش العثمانية فيمرنوا الجنود المظفرة على النظامات الجديدة التي ادخلها لوفوا الشهير في الجيوش الفرنساوية

وبعد ذلك بقليل توفي شارل السادس امبراطور النمسا في ٢٠ من شهر اكتوبر سنة ١٧٤٠ وتولت بعده ابنته ماريه تيريزه فاتحدت فرنسا مع بعض الدول على محاربة هذه الملكة واقتسام املاكها لما

بين فرنسا والعائلة الحاكمة في النمسا من الضغائن القديمة وسعي فرنسا دائما في اذلال النمسا وهدم اركان سلطانها وبسبب موت هذا الملك حصلت الحرب الشهيرة بين فرنسا والنمسا المعروفة في التاريخ بمحاربة ارث ملك النمسا التي استمرت عدة سنين وانتهت بفوز ماريه تريزه على فرنسا مما لا يدخل في موضوع هذا الكتاب ولما ابتدأت هذه الحرب اظهرت فرنسا للدولة العلية بواسطة سفيرها لدى الباب العالي ما يعود عليها من الفوائد لو اتحدت معها على محاربة النمسا وعرضت عليها احتلال بلاد المجر واسترجاعها إلى املاكها بحيث ترجع الدولة إلى ما كانت عليه من الاتساع ايام سليمان الاول القانوني ويمكنها بعد ذلك مقاومة الروسيا والوقوف في طريق تقدمها وابانت لها انها ان لم تفعل ذلك تقدمت الروسيا شيئا فشيئا وقويت شوكتها "تدريجيا حتى يخشى منها على وجود الدولة ولا يخفى انها ملاحظات صادقة ولو انها صادرة من فرنسا طمعا في نوال غايتها وهي اذلال النمسا الا انه كان يجب على رجال الدولة النظر اليها بعين الاعتبار فان هذه فرصة لم تتجدد بعد لكن قضت التقادير الالهية ان لا تصغي إلى هذه النصائح حبا في السلم وعدم اراقة دماء العباد والاشتغال بالاصلاحات الداخلية وكتبت إلى الدول ذات الشأن تدعوهم للتصالح وهذه سياسة صادرة عن سياسات شريفة الا انها تعد من الغلطات المهمة التي عادت على الدولة بوخيم العواقب لانها اضاعت فرصة لو انتهزتها لفازت بالقدح المعلى واسترجعت ما فصل عنها من الفتوحات بدون كثير عناء

وهناك غلطة اخرى ارتكبها رجال الدولة وهي نزع السلطة في اقليمي الفلاخ والبغدان من اشراف البلاد خوفا من تمردهم وطلبهم الاستقلال وتعيين بعض اغنياء الروم من تجار الاستانة قرالات ممتازين فيهما في مقابل جعل سنوي يدفع للخزانة السلطانية وكانت تعطى لمن يدفع خراجا اكثر من غيره وظاهر ان من يقدم على التعهد بمثل هذه المبالغ الطائلة عازم ولا شك عل الحصول على ما يدفعه اضعافا مضاعفة من دماء الاهالي فاستبد هؤلاء المعينون بالسكان وساموهم الذل والخسف وفتكوا بالاشراف الاصليين وقتلوا كل من خالفهم منهم وباعوا القاب الشرف جهارا حتى انقرضت اغلب العائلات الاثيلة في المجد وحلت محلها عائلات جديدة اغلبها من تجار الاروام الذين اشتروا الالقاب بدراهم معدودة وكانت نتيجة هذه السياسة ان سئم الاهالي هذه السلطة ومالوا بكلياتهم إلى الروسيا ووجهوا انظارهم لها معتقدين انها ستكون منقذتهم من هذه المظالم المستمرة ولو انصفت الدولة لجعلتها ولايتين بدون امتيازات تتناوبها الولاة فما كانت تطمح إلى الاستقلال

الاداري فالسياسي وفي يوم الجمعة ٢٧ صفر سنة ١١٦٨ ١٣ دسمبر سنة ١٧٥٤ توفي السلطان محمود الاول بالغا من العمر ستين سنة ماسوفا عليه من جميع العثمانيين لاتصافه بالعدل والحلم وميله للمساواة بين جميع رعاياه بدون نظر لفئة دون اخرى وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة وفي ايامه السعيدة اتسع نطاق الدولة بآسيلا واوروبا "ومحت معاهدة بلغراد ما لحق بالدولة من العار بسبب معاهدة كارلوفتس ومن آثاره الحسان تأسيس اربع كتبخانات الحقها بجوامع آيا صوفيا ومحمد الفاتح والوالدة وغلطه سراي ومن وزرائه الذين تركوا لهم في التاريخ اسما طوبال عثمان باشا وحكيم زاده علي باشا.

فصل - [ذكر السلطان عثمان الثالث]

"ولد هذا السلطان في سنة ١١١٠ هـ سنة ١٦٩٦ م وبعد ان تقلد السيف في جامع ابي ايوب الانصاري على حسب العادة القديمة وابقى كبار الموظفين في وظائفهم عين في منصب الصدارة العظمى نشانجي علي باشا بدل محمد سعيد باشا الذي سبق تعيينه صدرا بعد عودته من ماموريته في فرنسا فاعتمد علي باشا هذا على ميل السلطان اليه وسار في طريق غير حميد حتى اهاج ضده الاهالي اجمع ولكون السلطان كان من عادته المرور ليلا في الشوارع والازقة متنكرا لتفقد احوال الرعية والوقوف على حقيقة احوالهم سمع اثناء تجواله بما يرتكبه وزيره من انواع المظالم والمغارم وبعد ان تحقق ما نسب اليه بنفسه امر بقتله جزاء له وبوضع راسه في صحن من الفضة على باب السراي عبرة لغيره فقتل في ١٦ محرم سنة ١١٦٩ هـ ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٥٥ م وعين مكانه من يدعى مصطفى باشا ثم عزله في ٢٠ ربيع الاول سنة ١١٧٠ هـ ١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٦ م وعين مكانه محمد راغب باشا الشهير وكان من فحول الرجال الذين تقلبوا في المناصب على اختلافها "ومما زاده خبرة في امور السياسة الاوروباوية واطلاعا على دقائقها مباشرته تحرير معاهدة بلغراد بصفة مكتوبجي امين سر ولاية واطلاعه على كافة المخابرات التي دارت بين الدولة والدول ذات الشان للوصول إلى ابرامها ثم توفي السلطان عثمان الثاث في ١٦ صفر سنة ١١٧١ هـ ٣٠ اكتوبر سنة ١٧٥٧ بدون ان يحصل في ايام حكمه القلائل ما يستحق الذكر وكانت مدة حكمه ٣ سنين و ١١ شهر وعمره ستون سنة وخلفه مصطفى الثالث"

فصل - [ذكر السلطان مصطفى الثالث]

"ابن السلطان احمد الثالث المولود سنة ١١٢٩ وكان ميالا للاصلاح محبا لتقديم بلاده خصوصا وزيره الاول راغب باشا الذي مر ذكره فاخذ هذا الوزير في اصلاح بعض الشؤون بمساعدة السلطان وتعضيده له فعهد بادارة الاوقاف العمومية إلى احد اغوات السراري قيزار اغاسي واسس مستشفيات للحجر على الواردات الخارجية اذا كانت الاوبئة منتشرة في الخارج لعدم تعديها إلى الممالك المحروسة وانشا مكتبة عمومية على مصاريفه الخاصة وفكر في طريقة غريبة لتسهيل المواصلات داخل المملكة منعا لحصول الغلاء والمجاعات في احدى الولايات وذلك ان يصل بين نهر الدجلة وبوغاز الاستانة بخليج عظيم تستعمل الانهار الطبيعية مجرى له على قدر الامكان فيسهل نقل اغلال من اطراف المملكة إلى الاستانة فيمتنع عنها الغلاء كلية وهو مشروع جليل يقدره العارفون حق قدره ولو امهله منون لاتمه وسبق المسيو دي لسبس إلى ايصال بحر الروم بخليج فارس فالمحيط الهندي لكنه توفي رحمه الله في ٢٤ رمضان سنة ١١٧٦ هـ ٨ ابريل سنة ١٧٦٢ م ولم يجد مشروعه منفذا حتى الان وبعد موت هذا الوزير الجليل انتشب الحرب بين الدولة العلية والروسيا وذلك انه لما توفي اوغست الثالث ملك بولونيا سعت كاترينة الثانية امبراطورة الروسيا "التي تولت عقب قتل بطرس الثالث في تعيين عاشقها ستانسلاس بونياتوسكي ملكا عليها باستعمال نفوذها في مجلس الامة عند الانتخاب خلافا لما تعهدت به للدولة العلية وما ذلك الا نفاذا لسياسة بطرس الاكبر القاضية بازالة الحواجز الثلاثة الحائلة بينها وبين اوروبا الغربية وهي السويد وبولونيا والدولة العلية وقد ازيل الحاجز الاول باستيلاء الروسيا على جميع الولايات السويدية الفاصلة بينها وبين المانيا بحيث لم يبق للسويد املاك خارجة عن بلادها الاصلية بمقتضى معاهدة ني ستاد المبرمة بينهما سنة ١٦٧٢ وازيل الثاني تقريبا بتعيين احد اتباع الامبراطورة كاترينة ملكا على بولونيا

ولذلك تنبهت الدولة إلى نتيجة هذه السياسة وعلمت انها ان لن تضع حدا لتقدم نفوذ الروسيا في بولونيا فلا تلبث هذه المملكة ان تمحي من العالم السياسي بانضمامها للروسيا او بتجزئتها بينها وبين مجاوريها لكن كان تنبهها هذا بعد فوات الوقت المناسب فانه كان يجب عليها مساعدة السويد وبذل النفس والنفيس في حفظ ولايتها الواقعة على بلطيق من الوقوع في ايدي الروسيا اولى من تركها غنيمة باردة لها مما يطمعها في الاستمرار في تنفيذ وصية بطرس الاكبر.

"وسار الوزير نشانجي محمد امين باشا الذي تولى الصدارة في جمادى الآخرة سنة ١١٨٢ بجيوشه للدفاع عن مدينة شوكزيم التي حاصرها البرنس جالتسين الروسي فلم ينجح لعدم اتباعه الاوامر العسكرية الواردة اليه من السلطان المهتم بنفسه بامور الحرب ولو لم يقد الجيوش بذاته الشريفة وكان جزاء القائد المذكور ان قتل بامر السلطان في ٩ ربيع الآخر سنة ١١٨٣ وارسل راسه إلى الاستانة عبرة لغيره من القواد وعين مكانه في الوزارة والسر عسكرية مولدواني على باشا وكان اشد اهتماما من سلفه بامور الجند واكثر اطلاعا على ضروب القتال لكن عاكسته الطبيعة وكانت هي السبب في تقهقره فانه حين كان يعبر مع جيوشه نهر دينستر على جسر من المراكب ليهاجم الجيش الروسي المعسكر على الضفة الاخرى زادت مياه النهر بغتة وفاضت على شواطئه بكيفية مريعة حتى استولى الجزع على العساكر المارين فوقه وهموا بالرجوع إلى معسكرهم وتبعهم بعض من كان قد وصل إلى الشاطئ الآخر فغرقت المراكب واستشهد نحو ستة الآف جندي وصار من بقي منهم على الشاطئ الروسي هدفا لمدافعهم وبنادقهم التي صوبت اليهم من كل فج حتى قتلوا عن آخرهم في ١٧ جمادى الاولى سنة ١١٨٣ ١٨ سبتمبر سنة ١٧٦٩ م وبعد هذا الانهزام الذي لم يكن فيه للروس من فخر التزم مولود واني باشا بالتقهقر بعد اخلاء مدينة شوكزيم فدخلها البرنس جالتسين واحتل على الفور ايالتي الفلاخ والبغداد وفي هذه الاثناء كانت رسل الروس تعمل على اثارة الخواطر في بلاد موره حتى إذا استعد الاهالي للثورة خرجت بعض المراكب الروسية من بحر بلطيق قاصدة بلاد اليونان بعد الطواف حول اوروبا الغربية واستولت على مدينة كورون لتشجيع الاروام على العصيان لكن لم تلبث هذه الفتنة ان اطفئت وخرجت "مراكب الروس من ميناء كورون قاصدة جزيرة ساقز فالتقت بالمراكب العثمانية في المضيق المار بين الجزيرة وساحل آسيا وبعد ان استمر القتال عدة ساعات انتصر العثمانيون ورجعوا بعد تمام النصر إلى ميناء جشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس ظن العثمانيون انهم فارون من دونانمة العدو وآتون للانضمام اليهم فلم يعارضوهم في الدخول إلى الميناء فبمجرد دخولهم باشتعال ما كان بها من البارود في يوم ١١ ربيع الاول سنة ١١٨٤ ٥ تموز يوليو ١٧٧٠ م وبعد ذلك قصد الاميرال الروسي الفنستون الهجوم على مدينة القسطنطينية لعدم وجود ما يمنعه من الاستحكامات من المرور في بوغاز الدردنيل ولكن لم يوافقه القائد ارلوف على ذلك ففضل احتلال جزيرة لمنوس قبل ذلك لتكون قاعدة لأعمالهم الحربية فحاصرها وتمكن في أثناء ذلك البارون دي توت المجري الذي دخل في خدمة الدولة العلية من تحصين مضيق الدردنيل وبناء

القلاع فيه على ضفتيه وتسليحها بالمدافع الضخمة حتى صار المرور منه من رابع المستحيلات ثم حول عدة مراكب تجارية إلى سفن حربية بوضع المدافع فيها وزيادة على ذلك كلفه السلطان مصطفى الثالث بانشاء مسبك لصب المدافع بالاستانة وبترتيب الطوبجية على النظامات الجديدة فقام بالامر خير قيام واسس مدرسة لتخريج ضباط للطوبجية واركان حرب متعلمين الفنون العسكرية الحديثة واخرى لتربية ضباط للبحرية كان مركزها بالترسانة تخرج منها في قليل من "الزمن عدة قباطين قادرين على اخذ الارتفاعات ورسم بعض الشواطئ بالطرق الهندسية المضبوطة

وكانت نتيجة هذه الاصلاحات التي تمت بسرعة غريبة ان هاجم القبطان حسن بك مع بعض السفن الحربية سفن الروس المحاصرة لجزيرة لمنوس سنة ١٧٧١ والزمها رفع الحصار عنها بعد مقاتلة خفيفة وكوفئ حسن بك على هذا الانتصار بتعيينه قبطان باشا الدونانمات العثمانية ورقي إلى رتبة باشا ومن جهة اخرى لم يفلح الروس في طرابزون التي ارادوا الاستيلاء عليها وبالاختصار كان النصر حليف الجنود العثمانية برا وبحرا الا في بلاد القرم فقد احتلها البرنس دلجوروكي الروسي ثم اعلن بانفصالها عن الدولة واستقلالها تحت سيادة وحماية الروسيا واقام من يدعى جاهين كراي خانا عليها باسم كاترينه الثانية

وفي ٩ ربيع الاول سنة ١١٨٦ ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ م تهادن الفريقان بناء على توسط النمسا والروسيا وامضيت الهدنة في مدينة جورجيو من مدن البلغاريا وارسل كل منهما مندوبيه للمخابرة في شان الصلح إلى مدينة فوكشان بولاية البغدان فاجتمع المؤتمر اول اجتماع في ٩ جمادى الاولى سنة ١١٨٦ ٨ اغسطس سنة ١٧٧٢ وبعد ان اتفق الجميع على مد اجل المهادنة إلى ٢٣ جمادى الثاني سنة ١١٨٦ ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٢ طلب مندوبو كاترينه الاعتراف باستقلال تتار القرم وحرية الملاحة لسفن الروسيا التجارية في البحر الاسود وجميع بحار الدولة العلية ولما لم تقبل الدولة هذه الشروط انفض الجمع على غير جدوى ثم مدت المهادنة سبعة اشهر واجتمع المؤتمر ثانيا في مدينة بخارست في ١٣ شعبان سنة ١١٨٦ ٩ نوفمبر سنة ١٧٧٢ وفيه طلبت كاترينه بلسان مندوبها طلبات اكثر اجحافا بحقوق الدولة وارسلت بها بلاغا نهائيا في ٢٣ ذي القعدة سنة ١١٨٦ ١٥ نوفمبر سنة ١٧٧٣ م وهي اولا ان تتنازل الدولة للروسيا عن حصن كريش ويكي قلعه "حفظا لاستقلال

التتار ثانيا ان تمنح المراكب الروسية تجارية كانت او حربية حرية الملاحة في البحر الاسود وبحر جزائر اليونان ثالثا تسليم ما بقي من حصون القرم مع الدولة العلية إلى التتار

رابعا اعطاء جرجوارغيكا والي الفلاخ وكان اسيرا في الروسيا هذه الولاية له ولورثته الشرعيين بشرط دفع جزية معينة كل ثلاث سنوات مرة خامسا التنازل عن مدينة قلبورن للروسيا وهدم حصون مدينة اوكزاكوف اوزي سادسا ان يعطى لقب باديشاه إلى قيصر او قيصرة الروسيا في المعاهدات والمخاطبات السياسية سابعا ان يكون للروسيا حق حماية جميع المسيحيين الارثوذكسيين في بلاد الدولة فيظهر للمطلع على هذه الشروط ان كاترينه ما كانت تظن قبول الدولة لها بل جعلتها طريقة لاستمرار الحرب ولذلك رفضتها الدولة بكل شمم في ٢٨ ذي الحجة سنة ١١٨٦ ٢٢ مارس سنة ١٧٧٣ واصدرت اوامرها للجيوش باستئناف القتال بكل شدة خصوصا في بلاد الطونه فانهزم الروس امام مدينة روستجوق وكذلك امام مدينة سلستيريا التي حاولوا الاستيلاء عليها في ٣٠ مايو سنة ١٧٧٣ بعد ان قتل منهم ثمانية آلاف جندي وبمناسبة هذا الانتصار منح السلطان لقب غازي للقائد عثمان باشا الذي حمى المدينة فتقهقر الروس "وفي رجوعهم مروا بمدينة بازارجق ولما لم يجدوا بها حامية قتلوا جميع من فيها من شيوخ ونساء واطفال وبمجرد ما شعروا بقدوم الجنود المظفرة انسحبوا منها بكل سرعة تاركين امتعتهم حتى قال المؤرخ همر ان العثمانيين وجدوا اللحم في القدور على النار وهذا مما يدل على ما وقع في قلوب الجنود الروسية من الرعب من الاسود العثمانية التي لولا عدم كفاءة او قلة صداقة بعض قوادهم لما علموا للتقهقر او الهزيمة اسما

عصيان علي بك بمصر

وفي ذلك الوقت كان علي بيك الملقب بشيخ البلد الذي استقل تقريبا بشؤن مصر تخابر مع قائد الدونانمة الروسية بالبحر الابيض المتوسط ليمده بالذخائر والاسلحة حتى يتم استقلال مصر فساعده القائد الروسي رغبة في وجود الحروب الداخلية في الدولة وبذلك امكن علي بيك فتح مدائن عزة ونابلس واورشليم ويافا ودمشق وكان يستعد للسير إلى حدود بلاد الاناطول اذ ثار عليه احد بيكاوات المماليك وهو محمد بيك الشهير بابي الذهب فعاد علي بيك إلى مصر لمحاربته فانهزم

وبعد ان تحصن في القلعة التجأ إلى الشيخ طاهر الذي كان عاملا على مدينة عكة من قبل الدولة العلية واستأثر بها واتحد معه على محاربة العثمانيين بالاتحاد مع الروس وتخليص مدينة صيدا التي كانوا يحاصرونها فسارا إلى هذه المدينة والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا عليهم بمساعدة المراكب الروسية التي كانت ترسل مقذوفاتها على الجيش العثماني ثم اطلقت السفن الروسية قنابلها على مدينة بيروت فاخربت منها نحو ثلاثمائة بيت وبعد ذلك عاد علي بيك إلى مصر في محرم سنة ١١٨٧ ابريل سنة ١٧٧٣ لمحاربة محمد بيك ابي الذهب وانضم إلى جيوشه اربعمائة جندي روسي فقابلهم ابو الذهب عند الصالحية بالشرقية وفاز عليهم بالنصر واسر علي بيك واربعة من ضباط الروس بعد ان قتل كل من "كان معهم ورجعا إلى مصر حيث توفي علي بيك مما اصابه من الجراح فقطع رأسه وسلم مع الاربعة ضباط الروسيين إلى الوالي العثماني خليل باشا وهو ارسلهم إلى القسطنطينية

ثم توفي السلطان مصطفى الثالث في ٨ ذي القعدة سنة ١١٨٧ ٢١ يناير سنة ١٧٧٤ وبلغت مدة حكمه ست عشرة سنة وثمانية شهور وكان رحمه الله عادلا محبا للخير وله عدة مآثر خيرية كالمدارس والتكايا ومن آثاره ان انشأ في اسكدار جامعا على قبر والدته ووقف عليه خيرات كثيرة واصلح جامع السلطان محمد الفاتح التي زلزلت اركانه زلزلة شديدة وتولى بعده اخوه"

فصل - [ذكر السلطان عبدالحميد الأول]

"ابن السلطان احمد الثالث ولد سنة ١١٣٧ هـ سنة ١٧٢٤ م وقضى مدة حكم اخيه مصطفى الثالث محجوزا في سرايته كما جرت به العادة وفي اليوم الثالث من توليته توجه في موكب حافل إلى جامع ابي ايوب لتقلد سيف السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة ولم يوزع على الجنود الانعامات المعتادة لنضوب خزائن الدولة التي استنزفتها الحرب الاخيرة ثم اقر الصدر الاعظم محسن زاده واغلب كبار الموظفين والقواد البرية والبحرية في مناصبهم لعدم وقوع الخلل في الاعمال اما الروسيا فكانت تستعد استعدادا هئلا لرد ما فقدته من الاسم والشرف في اواخر ايام المرحوم مصطفى الثالث ولم يأت شهر يونيو سنة ١٧٧٤ الا وقد زحف الفلد مارشال رومانزوف الروسي بعد ان انضم اليه ما جمع من الجيوش تحت قيادة سواروف وكرامنسكي وبعد عدة مناورات ومناوشات اجتاز الفلد مارشال نهر الطونة وسار قاصدا مدينة وارنه فالتقى مع الجيش الذي ارسله الصدر الاعظم من معسكره بمدينة

شوملا تحت قيادة الرئيس افندي عبد الرزاق وهزمه بالقرب من مدينة يقال لها قوزليجق في ١٤ يوليو ١٧٧٤ وسار قاصدا معسكر محسن زاده الصدر الاعظم فطلب الصدر من رومانزوف المهادنة وتوقيف القتال وارسل اليه مندوبين للاتفاق على عقد الصلح وقبول الشروط التي رفضتها الدولة عند اجتماع مؤتمر بوخارست فاجتمع المندوبان العثمانيان مع "البرنس رابنين سفير الروسيا في مدينة قينارجه وبعد مخابرات طويلة واخذ ورد بين الطرفين قبل الصدر المعاهدة التي تم الاتفاق عليها في ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ وهي مكونة من ثمانية وعشرين بندا اهمها استقلال تتار القرم وبسارابيا وقوبان مع حفظ سيادة الدولة العلية فيما يتعلق بالامور الدينية وتسليم كافة البلاد والاقاليم التي احتلتها الروسيا إلى خان القرم ما عدا قلعتي كريش ويكي قلعه ورد ما اخذ من املاك الدولة بالفلاخ والبغدان وبلاد الكرج ومنكريل وجزائر الروم ما عدا قبرطه الصغيرة وقبرطه الكبيرة وآزاق وقلبورن وان يعطى إلى امبراطور الروسيا لقب باديشاه في المعاهدات والمحررات الرسمية وان يكون للمراكب الروسية حرية الملاحة في البحر الاسود والبحر المتوسط وان تبني الروسيا كنيسة بقسم بيرا بالاستانة ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الارثوذكسي من رعايا الدولة وان تكون كافة المعاهدات السابقة لاغية وغير ذلك ومن الغريب انه لم يذكر شيء فيها عن مملكة بولونيا لهستان سبب هذه الحرب التي عادت على الدولة باوخم العواقب. فصل - لن يتم ذكر المعاهدة بسبب حجمها الكبير وتعداد موادها.

"استيلاء روسيا على بلاد القرم

اما روسيا فاخذت تبث رجالها في بلاد القرم لايجاد المشاغب الداخلية بها وبالتالي لابتلاعها وضمها الى املاكها حيث لم يكن قصدها من استقلالها السياسي وقطع روابط تبعيتها للدولة الا الوصول لهذه الغاية وما زالت مستمرة في القاء الدسائس ونشر الفتن بين الاهالي حتى عزلوا اميرهم دولت كراي الذي انتخبه الاهالي بمقتضى نصوص معاهدة قينارجه واقاموا جاهين كراي مكانه فلم يقبل تعيينه فريق عظيم من الاعيان وخيف من وقوع حروب داخلية ولذا امرت الروسيا الجنرال بوتمكين باحتلالها فدخلها بسبعين الف جندي كانوا منتظرين على الحدود لهذه الغاية فتم لها مقصدها الذي كانت تسعى وراءه من مدة وهو امتلاك كافة سواحل البحر الاسود الشمالية في غضون سنة ١٧٧٣ فهاجت الدولة وارادت اشهار الحرب على الروسيا لالزامها باحترام معاهدة قينارجه القاضية

باستقلال بلاد القرم استقلالا سياسيا تاما لكن حولت انظارها ثانيا عن الحرب بمساعي فرنسا التي اقنعتها بان هذه الحرب مع استعداد كاترينه وتأهبها لها لا "يكون وراءها الا الخراب والدمار ولعلمها ان الروسيا ابرمت مع النمسا وفاقا سريا تم بين كاترينه الثانية وبين الامبراطور يوسف الثاني عند مقابلتهما بمدينة كرزن قاضيا بمحاربة الدولة لانشاء حكومة مستقلة تكون حاجزا بينهما وبين الدولة ومكونة من الفلاخ والبغدان واقليم بساربيا يكون اسمها مملكة داسي ويعين لها ملك من المذهب الارثوذكسي وبأن تأخذ الروسيا ميناء اوتشاكوف التي تسمى في كتب الترك بمدينة اوزي وبعض جزائر الروم وتأخذ النمسا بلاد الصرب وبوسنه وهرسك من املاك الدولة وبلاد دلماسيا من املاك البندقية وتعطيها عوضا عن ذلك بلاد موره وجزيرتي كريد وقبرص وان تعطى باقي دول اوروبا اجزاء اخرى يتفق عليها فيما بعد اما ان اتيح لهم النصر ودخلوا مدينة الاستانة فيعيدون مملكة بيزانطه الاهلية كما كانت قبل الفتح العثماني ويعين الغراندوق الروسي قسطنطين بن بولص ملكا عليها بشرط ان يتنازل عن حقوقه في مملكة الروسيا حتى حتى لا يتفق وجود المملكتين الروسية والبيزانطية الوهمية في قبضة ملك واحد تخوفا من وقوع الحرب بسبب القرم مع عدم استعداد الدولة وقدرتها في ذاك الوقت على مقاومة الروسيا فضلت قبول مشورة فرنسا والاعتراف بضم القرم للروسيا على ان تتعرض لحرب تكون عاقبتها وخيمة واعترفت بذلك في سنة ١٧٧٤ م لكن لم يكن قصد الروسيا ومساعديها الا انتشاب القتال ليحظى كل منهم بامنيته لذلك عملوا على اثارة خاطر الدولة وايقاعها في الحرب فاخذوا في تحصين مينا سباستوبول واقاموا ترسانة عظيمة في ميناء كرزن "وانشاوا عمارة بحرية من الطراز الاول في البحر الاسود وارسلوا جواسيسهم إلى بلاد اليونان وولايتي الفلاخ من البغدان لتهييج المسيحيين على الدولة ثم توصلت كاترينه إلى ادخال هرقل ملك الكرج تحت حمايتها مقدمة لفتح بلاده نهائيا

واخيرا في سنة ١٧٨٧ م ساحت كاترينه في البلاد الجنوبية وبلاد القرم بابهة واحتفال زائد واقام لها القائد بوتمكين اقواس نصر كتب عليها طريق بيزانطه فعلمت الدولة من كل هذه الاحوال انها تقصد محاربتها ثانيا وتاكد لها هذا العزم لما تقابلت كاترينه في سياحتها هذه مع ملك بولونيا وامبراطور النمسا ولذلك ارادت هي المبادرة باعلان الحرب قبل تمام استعداد اعدائها ولايجاد سبب له ارسلت بلاغا إلى سفير الروسيا بالاستانة المسيو جولغا كوف في صيف سنة ١٧٨٧ م تطلب منه تسليم

موروكرداتو حاكم الفلاخ الذي كان عصى الدولة والتجا إلى الروسيا والتنازل عن حماية بلاد الكرج بما انها تحت سيادة الدولة وعزل بعض قناصلها المهيجين للاهالي وقبول قناصل للدولة في موانيء البحر الاسود وان يكون لها الحق في تفتيش مراكب الروسيا التجارية التي تمر من بوغاز الاستانة للتحقيق من انها لا تحمل سلاحا او ذخائر حربية فرفض السفير هذه الطلبات باذن دولته فاعلن الباب العالي الحرب عليها فورا وسجن سفيرها في اغسطس سنة ١٧٨٧ م ولما كان الجنرال بوتمكين لم يتم معدات الحرب وقع في حيص بيص وكتب إلى كاترينه يخبرها بعدم صلاحية البقاء في القرم ناصحا لها باخلائها في اقرب وقت لاسيما وان ملك السويد جوستاف الثالث اراد انتهاز هذه الفرصة لاسترجاع ما فقدته دولته من المقاطعات والبلاد التي اخذتها منها الروسيا لكن لم تثن هذه الحوادث همة هذه الامبراطورة التي اعانتها الايام بل كتبت للجنرال بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والسير بكل شجاعة واقدام على مدينتي بندر واوزي فصدع بامرها وسار نحو اوزي فحاصرها مدة ثم دخلها عنوة في ٣٠ ربيع الاخر سنة ١٢٠٣ هـ ١٩ نوفمبر سنة ١٧٨٨ م وفي هذه الاثناء كانت النمسا اعلنت الحرب على الدولة مساعدة للروسيا وحاول امبراطورها يوسف" "الثاني الاستيلاء على مدينة بلغراد فعاد بالخيبة إلى مدينة تمسوار حيث اقتفى اثره الجيش العثماني وانتصر عليه نصرا مبينا ولذلك ترك الامبراطور قيادة جيوشه إلى القائد لودن ثم بعد ذلك بقليل توفي السلطان عبد الحميد الاول في ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ ٨ ابريل سنة ١٧٨٩ بالغا من العمر ٦٦ سنة ومدة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور وتولى بعده سليم الثالث.

فصل - [ذكر السلطان سليم الثالث]

"ابن السلطان مصطفى الثالث المولود سنة ١١٧٥ هـ سنة ١٧٦٢ م تولى وجو السياسة مكفهر ورحى الحرب دائرة بلا انفطاع فبذل جهده في تقوية الجيوش وارسال المؤن والذخائر لكن كان الياس قد استولى على الجنود وغادر كثير منهم مراكزهم وفي هذه السنة اتحد القائد الروسي مع قائد الجيوش النمساوية في الاعمال الحربية وضما جيوشهما لبعضهما فاستظهرا على العثمانيين في ٣١ يوليو وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٨٩ م وكانت عاقبة ذلك ان استولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصرب.

"وبعد تمام الصلح مع النمسا والروسيا اخذت الدولة في اصلاح داخليتها وخصوصا العسكرية والبحرية فعين احد المتقربين من الذات السلطانية واسمه كوشك حسين باشا قبودانا عاما وكان من الشبان الاذكياء الذين درسوا احوال اوروبا ووقفوا على دخائل سياستها حتى وثق به السلطان وثوقا تاما وزوجه احدى اخواته فبذل جهده في مطاردة قراصنة البحر لتسهيل التجارة وشمر عن ساعد الجد في "اصلاح الثغور وبناء القلاع الحصينة لحمايتها ثم انشأ عدة مراكب حربية على شاكلة احدث المراكب الفرنساوية والانكليزية واستحضر عددا عظيما من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع في معامل الطوبخانة العامرة واصلح مدرسة البحرية ومدرسة الطوبجية التي اسسها البارون دي توت المجري وترجم لتلامذتها مؤلفات المعلم فوبان الفرنساوي في فن الاستحكامات واضاف إلى مدرسة الطوبجية مكتبة جمع فيها اهم ما كتب في الفنون الحربية الحديثة والرياضيات لتكون التلامذة على اطلاع تام في كل ما يختص بترقية شأن الطوبجية ثم وضع نظاما للجنود المشاة وشرع في تنسيق فرق جديدة وتدريبها على النظام الاوروبي فأنشأ اول فرقة منتظمة في سنة ١٧٩٦ وجعل عددها ١٦٠٠ جندي تحت قيادة ضابط انكليزي دخل في الدين الاسلامي وسمي انكليز مصطفى وكان القصد من ترتيب العساكر النظامية الاستغناء بهم عن جنود الانكشارية الذين صاروا عالة على الدولة ومن عوامل تاخرها بعد أن كانوا اهم عوامل تقدمها وقت الفتوحات المستمرة التي كانوا يعودون منها بكثير من الغنائم حتى اعتادوا النهب وصاروا لما لم يجدوا بلادا مفتتحة حديثا لسلب اهاليها يتعدون على اهالي الاستانة والعواصم الاخرى بالسلب والنهب وغير ذلك فضلا عن عصيانهم المرة بعد الاخرى وعزلهم الصدور والوزراء وتعديهم على السلاطين بالعزل أو القتل لما يرون منهم معارضا لفسادهم أو ضعفا في معاقبتهم هذا وقد كانت الدولة في اشد الحاجة والافتقار لهذه الاصلاحات الداخلية فإن روابط الولاء بين الولاة والعاصمة كانت ضعفت وسعى كل في الاستقلال أو في عدم دفع الاموال الاميرية إلى الخزنة السلطانية مع نضوبها بسبب الحروب واغتيالهم لانفسهم واستبد المماليك بمصر برئاسة الامراء المصرية واشهرهم مراد بك وابراهيم بك وعثمان بك البرديسي وغيرهم مما هو مذكور تفصيلا في تاريخ الجبرتي

"دخول الفرنساويين مصر

وفي سنة ١٢١٣ سنة ١٧٩٨ امرت الجمهورية الفرنساوية بونابرت" "القائد الشهير بالمسير إلى مصر لفتحها بغير اعلان حرب على الدولة العلية واوصته بكتمان هذا الامر حتى لا تعلم به انكلترا فتسعى في احباطه مع ان القصد منه لم يكن الا منع مرور تجارة الانكليز من مصر إلى الهند وبالعكس فجهز في مدينة طولون جيشا مؤلفا من ٣٦ الف مقاتل اغلبهم من العساكر المدربين في الحروب التي جرت بين فرنسا وايطاليا وانتهت بمعاهدة كامبوفورميو وعشرة آلاف بحري تحملهم دونانمة مركبة من ٣٠ سفينة حربية ٧٢ قراويت و ٤٠٠ مركب حمل واضاف إلى جيشه ١٢٢ عالما على اختلاف العلوم والمعارف لدرس القطر المصري والبحث عمل يلزم لاصلاحه واستغلاله

وفي ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ رحل بونابرت بهذا الجيش بدون ان يعلم احدا بوجهته فوصل جزيرة مالطه في ١٠ يونيو واحتلها بعد ان دافع من فيها من رهبان القديس حنا الاورشليمي وفي ١٧ محرم سنة ١٢١٣ ١ يوليو وصل امام مدينة الاسكندرية وانزل عساكره على بعد اربع فراسخ منها وبعد ان دخلها عنوة ترك بها القائد كليبر وسار هو قاصدا مدينة القاهرة عن طريق الصحراء الممتدة غرب فرع رشيد فقابله مراد بيك بشرذمة من المماليك عند مدينة شبراخيت بالبحيرة في ٢٩ محرم الموافق ١٣ منه فهزمه بونابرت وواصل السير حتى وصل إلى مدينة انبابة مقابل القاهرة وحصلت بينه وبين ابراهيم بيك ومراد بيك امراء المماليك واقعة الاهرام الشهيرة في ٧ صفر الموافق ٢١ يوليو التي اظهر فيها المماليك من الشجاعة ما ادهش الفرنساويين وبعد ان بذلوا وسعهم في الدفاع عن مصر لااقول بلادهم بل غنيمتهم تقهقروا امام المدافع الفرنساوية فدخل بونابرت وجيوشه مدينة القاهرة بعد ان اعلن بها انه لم يأت لفتح مصر بل انه حليف الباب العالي اتى لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين اوامره كما قال الانكليز عند دخولهم مصر سنة ١٨٨٢ وارسل القائد دسكس إلى الصعيد لاقتفاء اثر مراد بك فتبعه حتى وصل جزيرة فيله قصر انس الوجود في ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ ٢ مارس "سنة ١٧٩٩ ووجه فرقة اخرى احتلت مدينة القصير على البحر الاحمر في ٢٤ ذي الحجة من هذه السنة ٢٩ مايو من السنة المذكورة وبذلك صار القطر المصري من البحر الابيض المتوسط إلى اقاصي الصعيد في قبضته ثم اسس المجلس العلمي للبحث عما يجعل احتلاله بوادي النيل دائميا

لكن لم يلبث ان وصله خبر واقعة ابي قير البحرية التي دمر فيها نلسن امير البحر الانكليزي الشهير جميع المراكب والسفن الحربية الفرنساوية في ١٧ صفر سنة ١٢١٣ اول اغسطس سنة ١٧٩٨ وتسلطن الانكليز على البحر المتوسط وقطع المواصلات بينه وبين فرنسا وذلك ان وقت خروج المراكب الفرنساوية من طولون كان نلسن المذكور يحاصر مدينة قادس باسبانيا فترك الحصار واخذ يبحث عن الدونانمة الفرنساوية فلم يعثر عليها الا بعد ان احتلت جزيرة مالطة ومدينة الاسكندرية كما سبق ولما علمت الدولة العلية باحتلال الفرنساويين القطر المصري اخذت في الاستعداد لمحاربتهم لا سيما وانها كانت مطمئنة البال هادئة البلبال من جهة النمسا والروسيا اللتين كانتا مشتغلتين بمحاربة الجمهورية الفرنساوية خوفا من امتداد مبادئها الحرة إلى بلادهما فتفل عروشهما كما حصل للويس السادس عشر ملك فرنسا ومن جهة اخرى عرضت عليها الدولة الانكليزية مساعدتها على اخراج الفرنساويين من مصر لا رغبة في حفظ املاك الدولة بل خوفا على "طريق الهند من أن تكون في قبضة دولة قوية يمكنها معاكستها فقبلت الدولة العلية مساعدتها بكل ارتياح وكذلك عرضت عليها الروسيا امدادها بمراكبها الحربية وانضمام دونانماتها إلى الدونانماتين العثمانية والانكليزية فقبلت ايضا واعلنت الحرب رسميا على فرنسا في ٢١ ربيع الاول سنة ١٢١٣ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واخذت في جمع الجيوش بمدينة دمشق وبجزيرة رودس لارسالها إلى مصر واتت الدونانمة الروسية من البحر الاسود إلى بوغاز الاستانة وخرجت إلى البحر الابيض مع الدونانمة العثمانية وذلك بمقتضى معاهدة ابرمت بين هذه الدول الثلاث التي اتفقت لاول مرة على عمل حربي مع ما بين الدولة العلية والروسية من العداوة القديمة المستمرة

ولما شعر بونابرت باجتماع الجيوش لمحاربته تحقق انه ان لم يفاجئ الدولة العلية في بلاد الشام قبل ان تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الحرب وخيمة عليه وان من يحتل مصر لا يكون آمنا عليها الا إذا احتل القطر السوري فلهذه الدواعي عزم بونابرت على فتح بلاد الشام وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر الف مقاتل قاصدا بلاد الشام من طريق العريش فاحتلها في اواخر شعبان سنة ١٢١٣ ثم دخل مدينة غزة في ١٩ رمضان وارتحل عنها في ٢٣ منه ووصل الرملة في ٢٥ منه ومنها إلى يافة فوصلها في ستة وعشرين رمضان ٧ مارس ولما آنس منها المقاومة حاصرها ودخلها عنوة في يوم اول شوال ثم رحل منها قاصدا مدينة عكا وقبل مزاولته ليافا ارتكب امرا شنيعا لم يسبق في التاريخ وهو

امره بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه في سيره ثم حاصر مدينة عكا من جهة البر وهاجمها مرارا لكن لم يتمكن من فتحها لوصول المدد اليها تباعا من طريق البحر واستيلاء الاميرال الانكليزي سدني سميث على مدافع "الحصار التي ارسلها من مصر لاطلاقها على الاسوار ولتيقظ احمد باشا الجزار قائد حاميتها لافساد الالغام التي ينشئها الفرنساويون لنسفها وفي اوائل ابريل بلغه تحرك جيش دمشق العثماني لانجاد مدينة عكا فارسل القائد كليبر مع فرقة من الجيش لمحاربته ومنعه من الوصول اليها فالتقى هذا القائد بالعثمانيين عند جبل طابور واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وكادوا يفوزون لولا مجيء بونابرت اليه بثلاثة آلاف مقاتل ومهاجمته لهم من الخلف فتفرق الجيش المجتمع في جزيرة رودس فقطع بعدم النجاح وعاد بمن بقي من جيوشه إلى القاهرة ودخلها في ٢١ مايو من السنة المذكورة

وفي يوليو نزل جيش رودس العثماني بابي قير وتحصن بها وكان يبلغ عدده ١٨ الف مقاتل فسار بونابرت من القاهرة لمحاربتهم فتغلب عليهم والتجأ من لم يقتل منهم إلى المراكب في ٢٤ صفر سنة ١٢١٤ ٢٨ يوليو واسر قائدهم الاكبر مصطفى باشا وكثيرا من الجنود وفي ٢٢ اغسطس سافر بونابرت من الاسكندرية قاصدا فرنسا خفية مع بعض قواده حتى لايضبطه الانكليز القاطعون بمراكبهم سبل البحر الابيض على الفرنساويين وذلك أن الاميرال الانكليزي ارسل اليه عدة نسخ من الجرائد الفرنساوية المذكور بها خبر تغلب النمساويين على فرنسا ووقوع الفوضى في داخليتها فاراد بونابرت الرجوع اليها لاستمالة الخواطر اليه وتأليف حزب يعضده في الوصول إلى غرضه وهو ان يعين رئيسا للجمهورية او اكثر من ذلك خصوصا وقد نال اسما عظيما في محاربات ايطاليا والنمسا قبل مجيئه لمصر وحاز فخرا اثيلا بسبب فتحه وادي النيل فغادره تاركا القائد كليبر وكيلا عنه ويقال انه اذنه باخلاء القطر لو رأى تغلب القوى الخارجية عليه لعدم امكان مساعدته بالمال أو الرجال نظرا لوجود السفن الانكليزية تشق عباب البحر الابيض طولا "وعرضا فبقي الجيش الفرنساوي بمصر بدون مراكب تحميه من نزول الانكليز والعثمانيين على الثغور او تاتي اليه بالمدد او مجرد الاخبار من فرنسا ونقص عدده إلى خمسة عشر الفا بعد من مات ببر الشام بالطاعون والحرب وظاهر ان هذا العدد غير كاف لحماية السواحل وحفظ طريق الصالحية والمحافظة على الامن في الداخل ولذلك يئس القائد كليبر من حفظ مصر واتفق مع الباب العالي والاميرال سدني سميث في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

على ان تنسحب العساكر الفرنساوية بسلاحها ومدافعها وترجع فرنسا على مراكب انكليزية لكن بعد أن ابتدأ الفرنساويون في اخلاء القلاع ارسل الاميرال كيث الانكليزي إلى كليبر يخبره ان الحكومة الانكليزية لم تقبل هذا الاتفاق الا إذا القي الفرنساويون سلاحهم بين ايادي الانكليز فاغتاظ القائد الفرنساوي لذلك وسار لمحاربة الجيش التركي الذي اتى إلى مصر تحت قيادة الوزير يوسف باشا لاستلامها من الفرنساويين فتقابل الجيشان عند المطرية في ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ وبعد محاربة عنيفة فاز كليبر بالنصر وعاد إلى القاهرة فوجدها في قبضة ابراهيم بيك احد الامراء المصرية وكان دخلها حال اشتغال الفرنساويين بالمحاربة فاطلق القنابل عليها وخرب منها جزءا عظيما واستمر الحرب في شوارعها نحو العشرة ايام مما هو مذكور في تاريخ الجبرتي تفصيلا عن ذكر حوادث الشهر المذكور راجع جزء ثالث صحيفة ٩٠ وما بعدها وبعد ذلك ساد الامن بالقاهرة

وفي ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ٢١ محرم سنة ١٢١٥ قتل شخص حلبي اسمه سليمان القائد كليبر في بستان سراي الالفي بالازبكية الموجود محلها الآن فندق شبرد وهرب فبحثوا عليه حتى وجدوه مختفيا ببستان مجاور للبستان الذي حصل فيه القتل فضبطوه وبعد تحقيق طويل قتلوه هو ورفاق له ثلاثة اتهموا معه في القتل وبعد دفن القائد كليبر عين مكانه الجنرال منو وكان قد اعتنق الدين الاسلامي وتسمى عبد الله منو.

"خروج الفرنساويين من مصر

ولما علم الانكليز والعثمانيون بموت كليبر وخروج بونابرت ومعه امهر القواد من مصر ايقنوا بالغلبة عليهم وانزلوا بابي قير ثلاثين الف مقاتل تحت قيادة الجنرال ابركرومبي في اوائل سنة ١٨٠١ فسار القائد منو لمحاربتهم فانهزم امامهم في ٢١ مارس ورجع إلى مدينة الاسكندرية ليتحصن بها فقطع الانكليز سد ابي قير المانع لمياه البحر الابيض من الاغارة على ارض مصر حتى يحصر القائد منو وجيوشه في الاسكندرية غير مبالين بما ينجم عن قطع هذا السد من الخراب والدمار لجزء ليس بقليل من الوجه البحري

ثم سار الانكليز والاتراك إلى القاهرة عن طريق الصالحية وحصروا من بقي منها من الفرنساويين ولتحقق القائد بليار ان لا مناص له من التسليم خابر القائدين العثماني والانكليزي وطلب منهما اخلاء وادي النيل بالشروط السابق تدوينها باتفاق العريش في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ فقبلا منه وامضيا معه اتفاقا بذلك في ١٦ صفر سنة ١٢١٦ ٢٨ يونيه سنة ١٨٠١ فاخلى المدينة في ٢٨ صفر من السنة المذكورة ١٠ يوليو وخرج منها بجميع اسلحته ومدافعه ومهماته وبعد ان اقاموا في بر الجزيرة اربعة ايام ساروا إلى ثغر رشيد تتبعهم فرق من الجنود الاسلامية والانكليزية لمنع تعرض الاهالي لهم وفي اواخر ربيع الاول ابحروا من رشيد على مراكب انكليزية اما القائد منو فبقي محصورا في الاسكندرية ولم يقبل التسليم الا في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٦ ١ من شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ بعد ان وقعت بينه وبين العثمانيين والانكليز موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الطرفين فخرج منها مع من بقي معه وسافر إلى بلاده على مراكب الانكليز وبذلك انتهت الحرب ورجعت البلاد إلى حاكمها الشرعي ومالكها الاصلي وخليفة رسول رب العالمين بعد ان وطئ هامتها الاجنبي وارتكب فيها من الاعمال ما يضيق نطاق هذا الكتاب عن وصفه نسأله تعالى ان يمن عليها بالتخلص من الاجانب المحتلين لها الآن عسكريا "ومدنيا كما حررها من ربقة الفرنساويين فان مصر كنانة الله في ارضه من ارادها بسوء اهلكه الله انه هو السميع المجيب

وبعد ذلك تخابر بونابرت الذي كان تعين رئيسا للجمهورية الفرنساوية بلقب قنصل مع سفير الدولة العلية المدعو اسعد افندي واظهر له ضرر اتحاد الدولة مع الروسيا وانكلترا خصوصا وان الروسيا قد احتلت جزائر اليونان الواقعة ما بين جنوب ايطاليا وبحيث جزيرة موره وجنود انكلترا باقية بمصر مماطلة في اخلائها هي وما احتلته من ثغور الشام واخيرا اقنعه بوجوب تجديد العلاقات الودية مع فرنسا فكاتب السفير العثماني دولته بذلك وبعد الحصول منها على الاذن امضى مع بونابرت مشروع معاهدة بتاريخ اول جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ ٩ اكتوبر سنة ١٨٠١ و ١٧ فانديمير من العام العاشر للجمهورية الفرنساوية اساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الشرق وهذا نصها نقلا عن قاموس فيليب جلاد

البند الاول ينعقد السلم والولاء فيما بين الجمهورية الفرنساوية والباب "العالي فيزول بناء على ذلك ما كان بينهما من العدوان ابتداء من اليوم الذي تتبادل فيه التصديقات على هذه البنود الابتدائية وبعد ان تجري مبادلة التصديق تنجلي في الحال العساكر الفرنساوية عن مملكة مصر وترد المملكة المذكورة إلى الباب العالي المحفوظة اراضيه وممالكه له بالتمام والكمال كما كانت في الحرب الحالية على انه من المقرر ان كل ما يسمح به من الامتيازات في الممالك المصرية لسائر الممالك الاجنبية بعد انجلاء الفرنساويين عنها يكون مسموحا بها للفرنساويين ايضا

البند الثاني تعترف جمهورية فرنسا بتشكيل جمهورية السبع جزائر وبلاد البندقية السابقة وتكفل استمراره ويقبل الباب العالي كفالة فرنسا وروميا بذلك

البند الثالث ستتفق الجمهورية الفرنساوية والباب العالي العثماني على تعيين طريقة نهائية تختص باموال رعاياهما وامتعتهما التي حجزت او اخذت مصادرة اثناء الحرب ويطلق سراح الوكلاء السياسيين والوكلاء التجاريين والاسرى على اختلاف درجاتهم حال حصول التصديق على هذه البنود الابتدائية

البند الرابع ان المعاهدات الكائنة فيما بين فرنسا والباب العالي حتى قبل الحرب الحاضرة تجددت بتمامها وبناء على ذلك حق لجمهورية فرنسا ان تتمتع في كافة انحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت متمتعة بها قبلا أو سيتمتع بها غيرها من الدول الاكثر تفضيلا في مستقبل الايام

وتبادل التصديقات على هذه البنود في ظرف ثمانين يوما وحرر عن باريس في ١٧ فنديمير من العام العاشر لجمهورية فرنسا الموافق يوم غرة جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ وعقب ذلك ابرم بونابرت مع عامل الجزائر معاهدة بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٨٠١ واخرى مع تونس بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٨٠٢ قاضيتين باحترام سفن فرنسا التجارية كما كان في زمن السلطان سليمان القانوني

ولما دارت المخابرات بين فرنسا وانكلترا للوصول إلى مصالحة أميان "ارادت انكلترا ادخال الباب العالي فيها حتى تثبت اشتراكها وتحالفها معها بصفة دولية فلم تقبل الدولة ولا فرنسا بذلك واصر بونابرت على الاتفاق مع الدولة رأسا وتم الاتفاق بينهما في ٢٣ صفر سنة ١٢١٧ ٢٥ يونيه سنة ١٨٠٢ على ان ترجع مصر إلى الدولة مع كافة ما كان لها من الحقوق وان يقام في جزائر اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الباب العالي وكان ذلك بالاتفاق مع الروسيا وتعهدت الدولة العلية برد ما صودر من املاك الفرنساويين ببلادها ومنح فرنسا جميع امتيازاتها السابقة المضمونة لها بمعاهدة سنة ١٧٤٠ وان يكون لمراكبها التجارية حق الملاحة في البحر الاسود اسوة بمراكب الروسيا وبعد ذلك اخلت انكلترا جيوشها عن مصر والاسكندرية في ذي القعدة سنة ١٢١٧ شهر فبراير سنة ١٨٠٣ وفي هذه الاثناء حصلت في داخلية الدولة بعض اضطرابات بسبب شروع السلطان سليم الثالث في تنظيم الجيوش على النظام الجديد فان الانكشارية لم ينظروا لهذه اللاصلاحات العسكرية بعين الارتياح لخوفهم من ان تكون مقدمة لالغاء وجاقاتهم فلما مات الجنرال دوبايت الفرنساوي الذي كان استحضر لتدريب النظام في سنة ١٧٩٧ سعى الانكشارية مع بعض العلماء المغايرين لكل امر مستحدث بدون نظر إلى ما يجره من النفع لدى جلالة السلطان وتحصلوا على لغو الفرق المنتظمة فاخذ القبودان كوجك حسين باشا نحو ٦٠٠ منهم وشكلهم على هيئة اورطة منظمة على نفقته الخصوصية واجزل اليهم الهبات حتى آتى الشبان للانضمام "اليها باختيارهم واخذ الانكشارية يقفون امام سرايه وقت تعليم العساكر ويهزؤون بهم تارة ويهددونهم اخرى وحسين باشا لا يعبأ بهم بل جد في طريقه وسار في مشروعه ولما سار بونابرت من مصر إلى الشام سافر هو إلى عكا مع فرقته فكانت العساكر النظامية في مقدمة المدافعين ومن اشدهم بأسا على جيوش الفرنساويين ولما عادوا من مدينة عكا تخفق عليهم رايات النصر امر السلطان ان تكون نفقتهم على الحكومة وان يزاد عددهم لما تحققه جلالته من فائدة النظام في الجندية بإزاء جيوش اوروبا المنتظمة ثم انتهز فرصة وجود اكبر قواد الانكشارية بمصر لمحاربة الفرنساويين واصدر امرا ساميا خط شريف قاضيا بفصل المدفعية عن الانكشارية وتنظيمها ويكون مقرهم في الاستانة وان يكون لكل منهم موسيقى عسكرية وامام لتعليم الدين واقامة الصلاة وان يبني قشلاقان احدهما باسكدار والآخر ببيو كدره وان يخصص للصرف عليهم جميع الاقطاعات العسكرية التي تنحل بموت اصحابها وتعود للحكومة ثم اصدر اوامره إلى عبد

الرحمن باشا والي بلاد القرمان بتأليف عدة الايات وتدريبها على النظام الجديد فصدع بالامر بكل اهتمام حتى لم تمض ثلاث سنوات الا وقد تم تنظيم ثمانية الايات كاملة العدد والعدد.

"عزل السلطان سليم الثالث

إنه في هذه الاثناء كانت رحى الحرب دائرة بين العثمانيين والروس فدخل والي بوسنه بجوشه إلى بلاد الصرب لمنع الثائرين من اللحاق بالجيش الروسي وسار الصدر الاعظم وفرقتان من الانكشارية وجيوش آسيا المنتظمة إلى مدينة شومله وكان مصطفى باشا البيرقدار حاكم مدينة روستجوق يستعد للاغارة على بلاد الافلاق بخمسة عشر الف جندي قام هو بتنظيمهم وتدريبهم وخصص نفرا ليس بقليل من النظام الجديد للبقاء في قلاع الدردنيل والبوسفور لدفع الطوارئ البحرية وفي غضون ذلك توفي المفتي الذي كان معضدا للسلطان على ادخال الاصلاحات العسكرية وتولى مكانه قاضي عسكر الروملي وكان على الضد من سلفه فاتحد مع مصطفى باشا قائم مقام الصدر الاعظم المتغيب في محاربة الروس ولفيف من العلماء على السعي في ابطال النظام العسكري الجديد قائلين انه بدعة مخالفة للشرع وللوصول إلى غايتهم هذه اخذوا يغرون العساكر الغير منتظمة التي كانت اضيفت إلى الفرق المنتظمة حتى إذا الفوا النظام ادرجوا ضمن العساكر النظامية وادخلوا في آذانهم انهم لم ياتوا من بلادهم الا لاجبارهم على الانخراط في سلك النظام واكراههم على لبس الملابس الغربية والتزيي بزي النصارى مع ما في ذلك من مخالفة القرآن الشريف والشرع المنيف على زعمهم ولما ملات هذه الاوهام عقول هؤلاء السذج واشربت قلوبهم هذه الاضاليل ارسل مصطفى باشا القائم مقام إلى احدى القلاع الموجود بها جنود منتظمة وغير منتظمة رسولا اظهر أنه آت لالباس الغير منتظمين الملابس النظامية فهاجوا "وماجوا وقصدوا قتل الرسول فمنعهم المنتظمون وحصلت بينهم معركة سالت فيها الدماء ثم انتشرت هذه الفتنة وامتد لهيبها إلى جميع القلاع وحصلت عد معارك بين الفريقين كانت نتيجتها قتل رسول السوء والتجأ الجنود النظامية إلى ثكناتهم ولما بلغ السلطان خبر هذه الحادثة ابهم عليه مصطفى باشا القائم مقام الامر وافهمه انها حادثة غير مهمة

وبعد هذا النجاح اخذت الجنود الغير منتظمة تستعد بإيعاز مهيجيها لامر آخر ذي بال واجتمعوا في الجهة المعروفة ببيوكدره وانتخبوا لهم رئيسا منهم اسمه قباقجي أوغلي وهو اخذ في الاستعداد للدخول إلى الاستانة وفي صبيحة يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠٧ دخل هو ومن معه من الجنود الغير منتظمة وانضم إليهم نحو مائتين من البحرية وثمانمائة من الانكشارية حتى إذا وصل هذا الجمع إلى المحل المعروف باسم آت ميدان اتوا بقدور الانكشارية وصفوها علامة على العصيان وقرئ عليهم اسماء جميع المعضدين لمشروع النظام العسكري من الوزراء أو الذوات والاعيان فانتشر الثائرون إلى منازلهم وقتلوهم واتوا برؤوسهم ووضعوها امام القدور ولما بلغ السلطان خبر هذه الثورة اصدر على الفور امرا بالغاء النظام الجديد وصرف العساكر النظامية لكن لم يكتف الثائرون بل قرروا عزل السلطان خوفا من ان يعود لتنفيذ مشروعه وساعدهم على ذلك المفتي الذي هو في الحقيقة المحرك لهذه الثورة فأفتى بأن كل سلطان يدخل نظامات الافرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحا للملك واستمرت هذه الثورة يومين ثم تؤدي في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٢ ٢٨ يونيه سنة ١٨٠٧ بفصل السلطان سليم الثالث فعزل وكانت مدة حكمه ١٩ سنة وبقي إلى أن توفي في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٢٣ ٢٨ يونيو سنة ١٨٠٨ وعمره ٤٨ سنة تقريبا واقيم بعده مصطفى الرابع"

فصل - [ذكر السلطان مصطفى الرابع]

"ابن السلطان عبد الحميد الاول المولود سنة ١١٩٣ هـ سنة ١٧٧٩ م وكلف المفتي بتبليغ السلطان سليم خبر عزله فذهب اليه وبلغه ذلك مظهرا اسفه من هذه الحادثة الجبرية فقبل السلطان وذهب إلى سرايه الخصوصية وتفرق الجنود النظامية شذر مذر واهمل هذا المشروع الجليل لعدم موافقته لاغراض الانكشارية ومن حازبهم ولم يكن السلطان مصطفى الا كآلة يديرها مبغضو النظام الجديد كيف شاؤا تبعا لاهوائهم فثبت الوزراء الذي لم يقتلوا في الثورة في وظائفهم واعتمد تعيين قباقجي اوغلي حاكما لجميع قلاع البوسفور فاعاد الانكشارية قدورهم إلى ثكناتهم دلالة على ارتياحهم مما حصل وخلودهم إلى الراحة والسكينة

ولما وصلت انباء هذه الثورة إلى الجيوش العثمانية المشتغلة بمحاربة الروس عند نهر الطونة شمل الانكشارية السرور لابطال النظام الجديد ولما رأوا من قائدهم العام وهو الصدر الاعظم حلمي ابراهيم باشا عدم الاستحسان لما حصل قتلوه واقاموا مكانه جلبي مصطفى باشا فوقع الفشل في الجيوش ولولا وجود اغلب جيوش الروسيا في المانيا لمحاربة الامبراطور نابليون الذي كانت تخر عروش الملوك امامه سجدا لكانت نتائج هذه الحروب اوخم مما سبقها ومن حسن الحظ ايضا أن وصل في اثناء ذلك خبر انتصار نابليون على الروس ومحالفيهم في واقعة فريدلاند في ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٢٢ ٣ يونيه سنة ١٨٠٧ "فتقهقرت الجنود الروسية المحتلة لولاية البغدان من غير ما حرب ولا قتال وعقب ذلك حصل الصلح بين فرنسا والروسيا بمقتضى معاهدة تلسيت في اول جمادى الاول سنة ١٢٢٢ ٧ يوليو سنة ١٨٠٧ التي جاء البند الثاني والعشرين وما بعده منها أن الروسيا تكف عن محاربة الدولة حتى يتوسط نابليون بين الطرفين وانه بمجرد ما امضيت الهدنة الابتدائية تخلي جيوش الروسيا ولايتي الافلاق والبغدان بدون أن تدخلها الجيوش العثمانية حتى يتم الصلح نهائيا وجاء في المعاهدة السرية التي اتفق عليها نابليون واسكندر الاول قيصر الروسيا إن لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا بسبب الحوادث الاخيرة التي حدثت بالاستانة أو إن لم يتم المقصود بكيفية مرضية بعد قبول هذا التوسط بخمسة وثلاثين يوما فتتحد فرنسا مع الروسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الاستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع ارضاء النمسا بجزء يسير وكيفية ذلك التقسيم أن يكون لفرنسا بلاد بوسنه والبانيا الارنؤود وابيروس وبلاد اليونان ومقدونيا وللنمسا بلاد الصرب وللروسيا الافلاق والبغدان والبلغار واقليم تراس لغاية نهر ماريتسا راجع مؤلف المسيو لافاليه على تاريخ الدولة العلية ولا يخفى ما في هذه المعاهدة من الاضرار بحقوق الدولة العلية والتخلي عنها وتركها بمفردها امام الروسيا رغما عن وعود فرنسا السابقة التي كانت سببا في اثارة هذه الحرب وناهيك ما جاء في المعاهدة السرية من تقسيم الاملاك المحروسة فيظهر للمطالع أن كل وعود الاجانب للشرقيين وعود عرقوبية وسراب كاذب يحسبه الظمآن ماء وإن اظهارهم لنا الولاء والصداقة لم يكن إلا لنوال امانيهم والفوز بغاياتهم فالعاقل من لم يتمسك بذيل وعودهم ولا يخالج فكره "أن دولة اوروبية تود خيرا أو تبغي صلاحا لدولة أو أمة شرقية مطلقا والحوادث التاريخية التي ذكرت وستذكر في هذا الكتاب اكبر شاهد فلعلها تكون عبرة لمن تذكر

هذا ثم ارسل نابليون في ٣ جمادى الاولى سنة ١٢٢٢ ٩ يوليو سنة ١٨٠٧ الجنرال جلليمينو احد اركان حربه إلى الجيوش العثمانية والروسية المتحاربة لتبليغهم المعاهدة المذكورة وعرض توسط الدولة الفرنساوية عليهم فقبل الفريقان بذلك وفي ١٩ جمادى الثانية سنة ١٢٢٢ ٢٤ اغسطس امضيت بينهما بحضور المندوب الفرنساوي هدنة ابتدائية ومع ذلك فلم تخل الروسيا ولايتى الافلاق والبغدان وهو اول اخلال بشروط معاهدة تلسيت ولذا لم يمكن الفريقان أن يتفقا على شروط الصلح النهائي لكن لم يستأنف القتال إلا بعد سنتين لاشتغال كل فريق منهما بما هو اهم من ذلك

ولنرجع إلى ذكر ما حصل في الاستانة بعد نجاح ثورة قباقجي اوغلي فنقول إنه لم يمض قليل حتى وقع الخلاف بين رؤساء الثورة فاتحد اولا قباقجي اوغلي مع المفتي على عزل القائم مقام مصطفى باشا فعزل وأبعد إلى خارج البلاد واقيم مكانه من يدى طاهر باشا ثم عزل لرغبته المحافظة على حقوق وظيفته وسافر إلى روستجق والتجأ إلى حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان هذا الاخير من محازبي السلطان سليم ويود ارجاعه لمنصة الاحكام فكاشف بذلك جلبي مصطفى باشا الصدر الاعظم وباقي الوزراء واقنعهم بوجوب مجازاة المفتي وقباقجي مصطفى على تهييج الجنود الغير منتظمة وعزل السلطان والاستئثار بالسلطة فوافقه على هذا الامر كل من كاشفهم به واصدر الصدر حكما على قباقجي مصطفى قاضيا باعدامه ووكل على تنفيذه احد رجال المؤامرة واسمه حاجي علي وهو تعهد بالقبض عليه عنوة وسار إلى الاستانة في مائة فارس بينما كان البيرقدار قاصدها في ستة عشر الف جندي عن طريق ادرنه ولما وصل حاجي إلى ضواحي الاستانة علم أن قباقجي مصطفى مقيم في قصر له خارج المدينة فهاجمه وقتله ثم ابرز لجنوده حكم الصدر الاعظم اخبرهم أنه عين قائدا لهم فلم يقبلوا بذلك بل احاطوا به وبمن معه من الفرسان وكادوا يأسرونه لولا "ما اظهره من الشجاعة التي تمكن بها من التخلص واللحاق بالبيرقدار وكان قد وصل هو والصدر الاعظم إلى الاستانة وعسكر خارجها

ولما علم السلطان بهذه الوقائع خشي من تعدي الثورة عليه ووصول ضررها اليه وامر بعزل المفتي وصرف جنود قباقجي مصطفى الغير منتظمة التي عضدته على عزل السلطان سليم فأظهر البيرقدار الاكتفاء بما حصل ولم يكاشف احدا بعزمه على اعادة السلطان سليم إلى عرش الخلافة العظمى واشاع أنه عازم على العودة إلى روستجق لكن في صبيحة ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٢٣ ٢٨ يونيو

سنة ١٨٠٨ القي القبض على شلبي مصطفى باشا الصدر الاعظم وسار بجيوشه إلى السراي السلطانية وطلب ارجاع السلطان سليم الثالث إلى الملك فامر السلطان مصطفى بقتله والقاء جثته إلى الثائرين كي يكفوا عن الثورة لما يعلمون ان الذي يريدون ارجاعه قد دخل في خبر كان لكن اتى الامر على عكس ما كان يؤمل فقد زاد الثائرون هياجا ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع وحجزه في نفس السراي التي كان محجوزا بها السلطان سليم فعزل بعد أن حكم ثلاثة عشر شهرا وقتل في سرايه بعد ذلك بقليل واقيم بعده محمود الثاني"

فصل - [ذكر السلطان محمود الثاني]

"ابن السلطان عبد الحميد الاول ولد في ١٣ رمضان سنة ١١٩٩ ٢٠ يوليو سنة ١٧٨٥ وافتتح اعماله بأن قلد مصطفى باشا البيرقدار منصب الصدارة العظمى ووكل اليه امر تنظيم الانكشارية واجبارهم على اتباع نظاماتهم القديمة المسنونة من عهد السلطان سليمان القانوني واهملت شيئا فشيئا فبعد أن انتقم البيرقدار ممن قاوموه عند ارجاع السلطان سليم وكانوا سببا في قتله استدعى جميع ذوات الدولة ووزرائها واعيانها لمجلس حافل ولما لبوا دعوته قام فيهم خطيبا واظهر لهم ما كانت عليه حالة الانكشارية وما وصلت اليه وما يجب أن تكون عليه من النظام وضرورة تقليدهم الاسلحة النارية المخترعة حديثا والتي كان استعمالها في جيوش الروسيا سبب انتصاراتهم الاخيرة على جيوش الدولة ثم ختم كلامه بأن عرض عليهم عدة اقتراحات مهمة منها الزامهم بملازمة ثكناتهم العسكرية خصوصا غير المتزوجين منهم وقطع علائف ومرتبات الساكنين خارجا عنها وجعل تمرينهم على التعليمات العسكرية المسنونة في قانون السلطان سليمان الزاميا وتسليحهم بالاسلحة الجديدة النارية وتمرينهم على الاصول العسكرية الجديدة المستعملة في جيوش اوروبا والتي اكسبتهم قوة عظيمة وغير ذلك من الاصلاحات والترتيبات التي لو اتبعت لاصبح جيش الانكشارية اقوى جيوش العالم كما كان في بادئ الامر قبل تسلطن الخلل عليه وتدخله في الامور الداخلية والخارجية ونصب الوزراء والملوك وعزلهم بلا حق مطلقا فأقر الجميع على كل ما جاء في مشروع البيرقدار وحرروا محضرا بذلك ثم لم يكتف هو بذلك بل استحصل على فتوى بضرورة تنفيذ نظامات الانكشارية "بكل صرامة واصدر اوامره بذلك وادخل اغلب ضباط الجيوش المنتظمة التي امر بابطالها في جيش الانكشارية

بالوظائف العالية فأخذوا تنفيذ رغائبه بكل اعتناء وشدة فاغتاظ الانكشارية لذلك واتحدوا على مقاومته وتضافروا على الايقاع به ولم يكن للبيرقدار معين في تنفيذ قرار الجمعية الا ستة عشر الف مقاتل اتت معه من روستجق وثلاثة آلاف جندي تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود المنتظمة سابقا وبعض سفن حربية تحت امرة امير البحر رامز باشا

ثم لم يمض قليل حتى ساروا إلى فيليبه واظهروا التمرد والعصيان فارسل البيرقدار اثني عشر الف مقاتل من جيوشه لمحاربتهم ولم يبق الا اربعة آلاف والثلاثة آلاف القائد لهم عبد الرحمن باشا ولذلك انتهز الانكشارية هذه الفرصة وقاموا كرجل واحد في ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٣ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٠٨ وساروا إلى سراي السلطان مصطفى بقصد ارجاعه إلى عرش الحكومة فاعترضهم البيرقدار وقومهم مقاومة عنيفة ولما احس بأن الضعف قد داخل جيوشه وخشي من فوز الثائرين وعزل السلطان محمود أمر بقتل مصطفى الرابع وإلقاء جثته للثائرين كما فعل مصطفى الرابع مع السلطان سليم الثالث فلما رأى الانكشارية جثة السلطان مصطفى زادوا هياجا واضرموا النار في السراي الملوكية لكي يلجئوا البيرقدار على الفرار منها لكن فضل الصدر الاعظم الموت على التسليم لهذه الفئة الباغية والانصياع لطلباتها وبقي يدافع هو ومن معه حتى مات حرقا ويقال إنه تحصن في احد الابراج ثم اشعل ما كان به من البارود ومات هو ومن معه تحت انقاضه ولو صحت هذه الرواية أو تلك فكلتاهما تشهدان على ما كان متصفا به من الشهامة والشجاعة وأنه يخدم مبدأ لا شخصا وهذا المبدأ هو اصلاح الجندية وتدريبها على النظامات المستحدثة لتحققه أن الانكشارية مهما كانت قوتهم ومنعتهم لا يقوون على الثبات امام الجيوش المنتظمة المتقلدة اجود الاسلحة واتقنها

هذا وفي اثناء دفاع البيرقدار كان امير البحر رامز باشا قد احضر ثلاث سفن حربية واوقفها بممر البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الانكشارية ثم نزل إلى البر مع فريق من البحارة والمدفعية وسار بهم لمساعدة البيرقدار "بينما كان عبد الرحمن باشا آتيا مع فرقته المؤلفة من ثلاثة آلاف جندي لمؤازرة الوزير لكن كان قد سبق السيف العذل وقتل مصطفى باشا البيرقدار الا أن رامز باشا وعبد الرحمن باشا ومن معهما ما فتئوا يقاتلون الانكشارية حتى انهزموا امامهم في جميع الجهات بعد أن استمر اطلاق البنادق والمدافع في الاستانة طول اليوم وفي آخر النهار ارتأى رامز باشا البحري العفو

عن الثائرين جميعا لو القوا سلاحهم وسلموا انفسهم لرحمة السلطان فلم يوافقه عبد الرحمن باشا بل اراد اتخاذ هذه الثورة وسيلة لاعدام الانكشارية وابطال طائفتهم كلية ووافقه السلطان محمود على ذلك وبناء على هذا القرار سارت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالي تتقدمها المدافع تقذف الصواعق على الانكشارية من كل صوب وحدب ولما رأى الثائرون أن لا مناص لهم من الهلاك اضرموا النار في جميع جوانب المدينة ولما كانت اغلب اماكنها من الخشب علا لهيب النيران وكاد الحريق يلتهمها بأجمعها فاضطر السلطان للاذعان لطلبات الانكشارية حتى يمكنه انقاذ المدينة من الدمار العاجل مؤجلا ابطال هذه الفئة المفسدة إلى فرصة اخرى وبذل جهده في اخماد النيران التي كادت تلتهم المدينة بأسرها لو لم يتداركها السلطان ممود بحكمته واستمر الانكشارية في ثورتهم وهيجانهم

معاهدة بخارست مع الروسيا

وبعد انتهاء هذه الفئة وجه السلطان اهتمامه لاصلاح الشؤون الداخلية والاستعداد لاهلاك طائفة الانكشارية وللتفرغ لذلك عقد الصلح مع دولة الانكليز في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٢٤ ٨ يوليو سنة ١٨٠٩ وافتتح المخابرات مع الروسيا بدون أن يتوصل إلى اتفاق مرض للطرفين فاستؤنفت الحركات العدوانية ودارت رحى الحرب بين الجيشين وكانت نتيجتها أن انهزم الصدر الاعظم ضيا يوسف باشا الذي عين في هذا المنصب الرفيع بعد موت مصطفى باشا البيرقدار مع أنه هو الذي انتصر الفرنساويون عليه بمصر بالقرب من المطرية سنة ١٧٩٩ وهذا مما يدل على عدم المامه بفنون الحرب واستولى الروس على "مدائن اسماعيل وسلستريه وروستجق ونيكوبلي وبازارجق في سنتي ١٨٠٩ و ١٨١٠ ثم عزل وتولى مكانه من يدعى احمد باشا وهو سار إلى الروس في ستين الف مقاتل في سنة ١٨١١ وانتصر عليهم واضطرهم لاخلاء مدينة روستجق فأخلوها في ١٣ جمادى الثانية سنة ١٢٢٦ ٥ يوليو من السنة المذكورة مكرهين بعد أن هدموا قلاعها واسوارها بالالغام واضرموا النار في منازلها وعبروا نهر الطونة راجعين إلى شاطئه الايسر فتبعهم احمد باشا بجيوشه وبعد عدة وقائع لا حاجة لذكرها تفصيلا عاد الروس فاحتلوا روستجق ثانية

وفي هذه الاثناء فترت العلاقات بين الروسيا ونابليون لعدم تنفيذ شروط معاهدة تلسيت وكانت الحرب بينهما قاب قوسين أو ادنى فسعت الروسيا في مصالحة الدولة ولعدم وقوف وزراء الدولة على ماجريات الامور السياسية باوروبا قبلوا افتتاح المخابرات وعينت الدولة مندوبين من قبلها اجتمعوا مع مندوبي الروسيا في مدينة بخارست وبعد مداولات طويلة توصل الفريقان إلى امضاء معاهدة عرفت في التاريخ باسم معاهدة بخارست امضيت في ١٦ جمادى الاولى سنة ١٢٢٧ ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ اهم شروطها بقاء ولايتي الافلاق والبغدان تابعتين للدولة ورجوع الصرب إلى حوزتها مع بعض امتيازات قليلة الاهمية عديمة الجدوى وحفظت الروسيا لنفسها اقليم بساربيا واحد مصبات الدانوب ولقد اعتبرت فرنسا هذه المعاهدة خيانة من الدولة للروابط القديمة الموجودة بين الدولتين إذ بابرامها تمكنت الروسيا من استعمال الجيوش التي كانت مشتغلة بمحاربة العثمانيين في صد اغارات فرنسا عن بلادها والزام نابليون القهقرى بعد حرق مدينة موسكو واهلاك اغلب جيوشه عند عبورهم نهر بيريزينا عائدين إلى بلادهم مكسورين مدحورين ونسى نابليون أن الدولة لم تأت امرا جديدا بل اقتدت بما فعله هو في تلسيت من التخلي عنها والزامها على ايقاف الحرب فضلا عما جاء بمعاهدة تلسيت من الشروط السرية القاضية بتجزئة الدولة العلية الامر الذي كاد يخرج من حيز الفكر إلى حيز الوجود لولا طلب القيصر اسكندر الاول ضم مدينة القسطنطينية إليه ليكون له بوغاز البوسفور والدردنيل وبالتالي مفاتيح اوروبا بل مفاتيح العالم بأسره وعدم قبول نابليون بذلك خوفا على مملكته الشاسعة من تعدي الروس ومن الغريب أن جميع دول اوروبا لا تأنف من استعمال انواع الغش والخديعة في سياستهم حتى صارت لفظة سياسية عندهم مرادفة للكذب والمين والتظاهر بغير الحقائق ولو عاملتهم احدى الدولة الشرقية لا بمثل هذه السياسة التي يتبرأ من الشرقيون بل بالصداقة مع المحافظة على الحقوق فما دام حقنا منافيا كما هو الغالب لمطامعهم في بلادنا رمونا بما اتصفوا به ونحن برآء منه هذا ولما بلغ رؤساء ثورة الصرب خبر معاهدة بخارست القاضية بارجاعهم إلى سلطة الدولة العلية المطلقة بعد ما بذلوه من الاموال والارواح في اعطائهم نوعا من الاستقلال الاداري ووعد قيصر الروسيا بمساعدتهم احتدموا غيظا ولم يقبلوا الرجوع إلى حالتهم الاصلية وآثروا الفناء في الدفاع عن استقلالهم فسيرت الدولة اليهم الجيوش فأخضعتهم إلى سلطانها قهرا وعاد الموظفون العثمانيون إلى مراكزهم كما كانوا قبل الثورة واسترجع جنود السباه اقطاعاتهم الاصلية فهاجر زعماء الثورة إلى النمسا والمجر منتظرين اول فرصة لاهاجة الامة ثانية طلبا للاستقلال الا

احدهم المدعو ميلوش اوبرينوفتش فانه بقي في بلاده واظهر الولاء للدولة حتى عينته بوظيفة شيخ بلد لاحدى القرى وظل يهيج افكار الاهالي على الثورة ويبث فيهم روح الحرية حتى إذا انس منهم الاستعداد للقيام كرجل واحد انتهز فرصة عيد الزحف في سنة ١٨١٥ الذي يحتفل به المسيحيون "في يوم الاحد السابق لعيد الفصح حيث كان جميع اهالي قريته والقرى المحاورة مجتمعين ونشر بينهم لواء العصيان ودعاهم إلى الثورة فلبوه مسرعين وانضم اليهم جميع الاهالي وعاد المهاجرون إلى اوطانهم وامتد العصيان في جميع انحاء بلاد الصرب

وبعد أن استمر القتال سجالا بينهم وبين الجيوش العثمانية نحو السنتين قبل ميلوش اوبرينوفتش بالنيابة عن الامة الصربية الرجوع إلى سلطان الدولة بشرط أن لا تتداخل في شؤونهم الداخلية ولا في تحصيل الضرائب بل يعين لادارة البلاد وتوزيع الضرائب وتحصيلها مجلس مؤلف من اثني عشر عضوا ينتخبهم الاهالي من اعيان الامة وهم ينتخبون رئيسا لهم من بينهم يكون كحاكم عمومي وتكتفي الدولة بالمراقبة واحتلال الحصون والقلاع فقبل الباب العالي هذه الشروط وعين من يدعى مرعشلي باشا واليا للصرب واعطيت اليه تعليمات شديدة تقضي عليه بمعاملة الصربيين بالرفق واللين كي يحافظوا على ولاء الدولة ولا يسعوا في فصم ما بقي بينهما من عرى التابعية سنة ١٨١٧ ثم عين ميلوش اوبرينوفتش رئيسا لمجلس الصرب الذي يمكننا أن نسميه من الآن مجلس نوابهم واطلقوا عليه اسم سوبرانيا وصارت الصرب مستقلة تقريبا واستبد ميلوش كملك مطلق التصرف لا سلطة للوالي العثماني عليه مطلقا اكتفاء باحتلال الحصون والقلاع ولم يكن له منافس في السلطة الا قره جورج اكبر زعماء الثورة الذي هاجر إلى بلاد الروسيا فأكرم القيصر مثواه ومنحه رتبة جنرال عسكري ونشان سانت آن ولذلك خشي ميلوش من نفوذه ومساعدة الروسيا له فأصر على قتله وتربص له حتى إذا حضر مختفيا إلى بلاد الصرب قاصدا بلاد اليونان بناء على طلب زعمائها ارسل إليه ميلوش من قتله ثم ارسل رأسه إلى الاستانة علامة على حسن ولائه واخلاصه للدولة العلية صاحبة السيادة الاسمية على بلاده"

ثم جاءت الفتنة بين العثمانيين والنجديين ونشبت بينهم عدة حروب بعد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ونقضه للشرك في جزيرة العرب، وبعد التوسع النجدي استدعت الدولة العثمانية الوالي على مصر "محمد علي باشا" وحاربهم ونشبت بينهم الكثير من مواجهات الكر والفر وانتهت عام ١٨١٨م بنهاية إمارة الدرعية وأسر حاكمها عبد الله بن سعود وارساله الى اسطنبول.

"[احتلال فرنسا للجزائر]

وفي اواسط سنة ١٨٣٠ نفذت فرنسا ما كانت تنويه من مدة ضد ولاية الجزائر بدعوى منع تعدي قراصنة البحر المسلمين على مراكبها التجارية والحقيقة ليكون لها مركز حربي بشمال افريقيا حتى لا تكون انكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الابيض المتوسط باحتلالها معاقل جبل طارق وجزيرة مالطة واتخذت لذلك سبيلا وقوع الخلاف بينها وبين عامل الدولة العلية عليها المدعو حسين باي بسبب بعض ديون كانت مطلوبة لبعض تجار الجزائريين على الحكومة الفرنساوية وحجزها جزأ منها بدعوى ان هؤلاء التجار مديونون لتجار فرنساويين وخروج المسيو دوفال قنصل فرنسا عن حد الادب مع الامير حسين باي في حفلة عمومية بحضرة جمهور من الامراء والوزراء حتى اضطر حسين باي حفظا لناموسه ان يضرب القنصل بمنشة كانت بيده فبمجرد ماحصل خبر هذه المسألة إلى آذان ولاة الامور بباريس عدوها اهانة لشرفهم وارادوا اتخاذها وسيلة لتنفيذ ما كانوا مضمرين عليه من مدة وقرروا في مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة الملك نفسه في ١٣ شعبان سنة ١٢٤٥ ٧ فبراير سنة ١٨٣٠ وجوب الاستيلاء على هذا الاقليم ثم ارسل اليها جيشا مؤلفا من نحو ثمانية وعشرين الف مقاتل وعمارة بحرية مؤلفة من مائة سفينة وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين الف جندي بحري ولما علمت انكلترا بذلك خشيت على نفوذها من مشاركة فرنسا واحتجت ضد هذا المشروع ولما لم يفد احتجاجها شيئا اوعزت إلى الباب العالي ان يأمر عامله على الجزائر بالتساهل مع فرنسا وتقديم ما تطلبه من الترضية والتعويضات فأرسل الباب العالي مندوبا من طرفه لتبليغ هذه التعليمات إلى عامل الجزائر لكن لم يصل هذا المندوب إلى محل مأموريته بل قبضت السفن الفرنساوية على المركب الحاملة له واوصلتها إلى ميناء طولون تحت الحفظ ولم تسمح لها بالخروج الا بعد اتمام مقصدهم وفي ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥ ١٢ يونيو سنة ١٨٣٠ نزلت عساكر فرنسا بالقرب من مدينة الجزائر وانتشب القتال بين الفريقين في "١٩ - يونيو وبعد محاربة شديدة فاز

الفرنساويون بالغلبة وفي ١٤ محرم سنة ١٢٤٦ ٥ يوليو احتلوا القلعة المسماة سلطانية قلعة سي الواقعة امام مدينة الجزائر وفي تلوه دخلت الجيوش مدينة الجزائر نفسها بعد خروج حسين باي منها واعلنت فرنسا امتلاكها لها وبعد ذلك اخذت ترسل الجيوش تباعا إلى الجزائر لفتحها وما زال الاهالي يقاومونها تحت امرة الوطني الشهير السيد عبد القادر الجزائري الذي دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة وسلم نفسه في ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ ٨ يوليو سنة ١٨٤٧ م ولم تزل الاهالي غير راضية عن الاحتلال الفرنساوي حتى الآن ولم تدع فرصة للتخلص منه الا اتخذتها لكن لم تقو حتى اليوم على التخلص من ربقة الاجنبي

محمد علي باشا وحرب الشام الاولى

لم يكن اهتمام والي مصر ومؤسس العائلة الكريمة الخديوية بشؤون بلاده وادخال النظامات الجديدة فيها بأقل من اهتمام السلطان محمود في اصلاح داخلية مملكته التي مصر لا تزال ولن تزال ان شاء الله جزءا منها فأنشأ عدة ترع عظيمة لاصلاح الري اهمها ترعة المحمودية الخارجة من النيل وواصلة إلى اسكندرية لتسهيل الملاحة وشرب اهل الثغر واقام جسورا على النيل لحفظ البلاد من الغرق ونظم واقام المدارس والورش الصناعية حتى صار لا يأتي بلوازم جيوشه من الخارج بل يصنع جميعه بالورش المصرية من المركوب والطربوش إلى البندقية والمدفع وأنشأ عدة سفن حربية بدل التي دمرها التمدن الاوروبي في ناورين لكن لم تكن ماليته تكفي لمصاريف هذه الاعمال فاستعان على اتمامها "بالضرائب الفادحة واستعمال الانفار تسخيرا بلا عوض العونة ولجهل الاهالي بأن فوائد اتعابهم ستعود عليهم آجلا باضعاف ما يدفعونه عاجلا تمكن بعض ارباب الغايات من استمالتهم للمهاجرة إلى بلاد الشام فهاجر منهم خلق كثير التجأوا إلى عبد الله باشا والي عكا المشهور بالجزار ولما طلب منه محمد علي باشا ارجاعهم خوفا من كثرة عدد من يتبعهم إلى الشام امتنع من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان واحد وسواء اقام بعض سكان احدهما في الآخر او بالعكس ما دام احد الاقليمين لم يكن حائزا على امتيازات مخصوصة كحالة مصر الآن ولذلك امر محمد علي باشا في سنة ١٢٤٧ سنة ١٨٣١ باعداد الجيوش والتأهب للسفر إلى بلاد الشام عن طريق العريش وعن طريق البحر في آن واحد لمحاصرة عكا من الجهتين قبل ان يأتيها المدد وعين ولده ابراهيم باشا قائدا عاما للجيوش المزمع سفرها وسليمان بيك الفرنساوي قائم مقام له فسار هذا الشبل بحرا في ٢٦

جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ ٢ نوفمبر سنة ١٨٣١ إلى مدينة حيفا تحف به الدونانمة المصرية في اكمل نظام واتم هندام وكانت الجيوش البرية قد سبقته من طريق العريش وفتحت في مسيرها مدائن غزة ويافا وبيت المقدس ونابلس وجعل ابراهيم باشا مدينة حيفا مقرا لاعماله ومركزا لاركان حربه ومستودعا للمؤن والذخائر ثم ارتحل عنها لمحاصرة مدينة عكا فحاصرها برا وبحرا في ٢٠ جمادى آخر سنة ١٢٤٧ ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ حتى لا يأتيها المدد بحرا فلا يقوى على فتحها كما حصل لبونابرت من قبل حين حاصرها سنة ١٧٩٩ فلما علم الباب العالي بدخول الجيوش المصرية إلى بلاد الشام وحصارها لمدينة عكا اعتبر ذلك عصيانا من محمد علي باشا واوعز إلى والي حلب المدعو عثمان باشا بالسير لمحاربة المصريين وبالحري ابراهيم باشا ورده إلى حدود مصر فجمع هذا الوالي نحو عشرين الف جندي وقصد مدينة عكا لكن لم يمهله ابراهيم باشا ريثما يأتي اليها بل ترك حول عكا عددا قليلا من الجنود لاستمرار الحصار وسار هو بمعظم الجيش لملاقاة الجيش العثماني فالتقى الجمعان بالقرب "من مدينة حمص وانتصر المصريون على العثمانيين بسبب استعدادهم وكمال نظامهم ثم عاد ابراهيم باشا إلى مدينة عكا وشدد عليها الحصار ودخلها عنوة في ٢٧ الحجة سنة ١٢٤٧ ٢٨ مايو سنة ١٨٣٢ واخذ عبد الله باشا الجزار سبب هذه الحرب اسيرا وارسله إلى مصر وبمجرد وصول خبر سقوط مدينة عكا في ايدي المصريين امر السلطان محمود بجمع كل ما يمكن جمعه من الجيوش المنتظمة فجمع في اقرب وقت نحو ستين الف مقاتل وعين حسين باشا الذي امتاز في مكافحة الانكشارية قائدا لها فسار إلى بلاد الشام بكل تأن وبطء حتى امكن ابراهيم باشا الاستعداد لملاقاته فتغلب اولا على مقدمته وانتصر عليها في ١٠ صفر سنة ١٢٤٨ ٢٩ يونيو سنة ١٨٣٢ واقتفى اثرها حتى دخل مدينة حلب الشهباء في ١٨ صفر ٧ يوليو المذكور ولما علم حسين باشا بانهزام المقدمة تقهقر بمن معه من الجيوش وتحصن في اهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والاناطول ويسمى هذا المضيق بمضيق بيلان وهو مشهور في التاريخ لمرور الاسكندر المقدوني منه حين اتى لفتح بلاد الشام ومصر ومرور الافرنج حين اتوا من طريق القسطنطينية لفتح بيت المقدس واستخلاصه من ايدي المسلمين اثناء الحروب الصليبية فلحقه ابراهيم باشا وفاز عليه فوزا عظيما وفرق شمل جيوشه في غرة ربيع اول سنة ١٢٤٨ ٢٩ يوليو من السنة المذكورة وتبع من بقي منهم إلى ان نزلوا بمراكبهم في ميناء اسكندرونة فجمع السلطان جيشا آخر وقلد رئاسته إلى رشيد باشا الذي امتاز مع ابراهيم باشا في حرب موره خصوصا في محاصرة وفتح مدينة ميسولونجي وارسله إلى بلاد الاناطول

لصد هجمات ابراهيم باشا عن القسطنطينية نفسها إذ كان ابراهيم باشا قد اجتاز جبال طوروس واحتل اقليم اطنه وما وراءه إلى مدينة قونية في وسط الاناطول والتقى بالقرب من هذه المدينة برشيد باشا وجيشه فانتصر عليه واخذه اسيرا في ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ ٢٠ دسمبر سنة ١٨٣٢ وعند ذلك ساد القلق في الاستانة وخيف تقدم ابراهيم باشا بجيوشه المصرية اليها اما هو فسافر حتى وصل إلى ضواحي مدينة بورصة ولما تواترت اخبار انتصار المصريين على العثمانيين خشيت الدول ان يكون "قصد محمد علي باشا احتلال الاستانة واسقاط عائلة بني عثمان والاستئثار بالخلافة الاسلامية فيحصل اضطراب عمومي في التوازن الاوروبي وكانت الروسيا اشد قلقا من غيرها لخوفها من سقوط الاستانة في قبضة من يمكنه الذب عنها اكثر من الملوك العثمانيين فلا يمكنها تنفيذ وصية بطرس الاكبر ولذلك عرضت على الدولة العلية مساعدتها بالرجال وانزلت فعلا على شواطئ الاناطول خمسة عشر الف جندي لحماية الاستانة فاضطربت فرنسا وانكلترا وخشيت سوء عاقبة تداخل الروسيا بصفة عسكرية والحت على الباب العالي بسرعة الاتفاق مع محمد علي باشا قبل تفاقم الخطب واتساع الخرق على الراقع وتوسطت بينهما فقبل الباب الهمايوني بهذا التوسط

[معاهدة كوتاهيه]

وبعد مخابرات ومداولات لاحاجة لتفصيلها اتفق الطرفان على ان يخلي المصريون اقليم الاناطول وترجع جيوشهم إلى ما وراء جبال طوروس وتعطى لمحمد علي باشا ولاية مصر مدة حياته ويعين هو واليا على ولايات الشام الاربع عكا وطرابلس وحلب ودمشق وعلى جزيرة كريد وان يعين ابنه ابراهيم باشا واليا على اقليم اطنه وصدرت بذلك ارداة سنية في ٥ مايو سنة ١٨٣٣ ودعيت هذه المعاهدة بمعاهدة كوتاهيه نسبة إلى المدينة التي كان بها ابراهيم باشا عند اتمامها وبذلك انتهت هذه المسألة مؤقتا اذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية الا ليتمكن من الاستعداد للحرب وارجاع ما اخذ منه قهرا

[معاهدة خونكار اسكله سي]

ولقد تمكنت الروسيا اثناء وجود عساكرها بأرض الدولة من ابرام معاهدة هجومية ودفاعية مع الباب العالي في ١٨ محرم سنة ١٢٤٩ ٧ يونيو سنة ١٨٣٣ دعيت بمعاهدة خونكار اسكله سي تعهدت بها

الروسيا بالدفاع عن الدولة لو هاجمها المصريون او غيرهم ليكون لها بذلك سبيل في شؤون الدولة الداخلية.

"حرب الشام الثانية

ولم تكن هذه التسوية الا وقتية فان محمد علي باشا لم يقبل بها الا خوفا من اجبار الدولة له على ترك فتوحاته مع كونه عازما على تميم مشروعه وهو الاستقلال التام عند سنوح الفرصة وكذلك لم يقبل السلطان محمود بها الا لتفريق جيوشه وعدم امكانه صد هجمات ابراهيم باشا عن الاستانة الا بمساعدة الروسيا الامر الذي سعى في تلافيه بابرام هذه المعاهدة حتى إذا استعد لاسترداد ما فقد كرها اغار على بلاد الشام وجعل مصر ولاية عثمانية بدون اقل امتياز ولما كانت هذه افكار كل فريق منهما كان لا بد من اشتعال نار الحرب بينهما ثانية عاجلا او آجلا ولقد كان من اهم دواعي استئناف هذه الحروب عصيان اهل الشام على محمد علي باشا ومعاملته اياهم بكل صرامة لاخضاعهم لسلطانه ثم عصيان الدروز وامدادهم بالمال والسلاح من الخارج سرا لاضعاف شوكته وفي اثناء ذلك فاتح محمد علي باشا بعض وكلاء الدول بمصر بأنه يرغب ان تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولاولاده من بعده فأبلغ الوكلاء ذلك لدولهم وهي خابرت الدولة العلية بذلك بكيفيات مختلفة فعضدت فرنسا مطالبه وحسنت له الدول الاخرى محاربته بكل شدة واخضاعه خوفا من تطلعه إلى غير ما في يده من الاقاليم ولتغلب نفوذ سفير فرنسا قبل الباب العالي ارسال مندوب من طرفه إلى محمد علي باشا للاتفاق على حل مرض للطرفين وارسل إلى مصر من يدعى سارين افندي احد موظفي الخارجية فأتى هذا المندوب إلى مصر في غضون سنة ١٢٥٣ سنة ١٨٣٧ وقابله واليها بكل تجلة واكرام وبعد مداولات طويلة اتفقا على ان تعطى له ولايتي مصر والعرب ارثا لاولاده وبلاد الشام إلى جبال طوروس مدة حياته وعاد سارين افندي إلى الاستانة بهذا الوفاق فلم يقبله الباب العالي بل اصر على ان تكون جبال طوروس ومفاوزها في ايدي العثمانيين لا المصريين وصمم محمد علي باشا على عكس ذلك بما ان هذه المفاوز بمثابة ابواب لبلاد الشام بأجمعها فلو احتلتها الدولة العلية امكنها الاغارة على بر الشام في أي وقت ارادت.

"واقعة نصيبين

وبذلك عاد الخلف إلى ما كان عليه وصارت الحرب قاب قوسين او ادنى واوعز الباب العالي إلى حافظ باشا الذي عين سر عسكر الجيوش المجتمعة في سيواس بارمينية بعد موت رشيد باشا اسير قونية الذي مات قبل ان ياخذ بثار هذه الواقعة ويمحو ما لحقه فيها من الفشل إلى ان يتقدم إلى ولايات الشام بكل سرعة فتقدم اليها في اوائل سنة ١٢٥٥ الموافقة سنة ١٨٣٩ وعبر نهر الفرات عند مدينة بلاجيق في ابريل من السنة المذكورة ثم التقى الجيشان بعد عدة مناورات بالقرب من بلدة تدعى نصيبين وهي المشهورة في جميع كتب الافرنج باسم نزيب في ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ وفاز المصريون بالنصر وتقهقر الجيش العثماني تاركا في ايدي المصريين ١٦٦ مدفعا وعشرين الف بندقية وغيرها من الذخائر والمؤن وكان هذا اليوم مشهودا يجعل الول«دان شيبا ومن غريب المصادفة ان المسيو دي مولتك القائد البروسياني الذي طار صيته في الآفاق وملا ذكره الاوراق في الحرب التي حصلت بين فرنسا والبروسيا في سنة ١٨٧٠ كان من ضمن اركان حرب الجيش العثماني وولى الادبار "مع باقي الضباط بدون ان يتمكن من اخذ ملابسه واوراقه الخصوصية

ولم يصل خبر هذه الحادثة إلى آذان السلطان محمود الثاني فانه توفي إلى رحمة الله وانتقل من دار الشقاء إلى دار الهناء في يوم ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ ٢ يوليو سنة ١٨٣٩ فجأة بدون أن يعلم بها لعدم وجود الاسلاك البرقية في هذا العهد بالغا من العمر ٥٥ سنة وتولى بعده ابنه عبد المجيد"

فصل - [ذكر السلطان عبدالمجيد الأول]

"وكانت مدة خلافة السلطان محمود احدى وثلاثين سنة وعشرة شهور ومات عن اربع وخمسين سنة تقريبا وكانت ولادة السلطان عبد المجيد في ١٤ شعبان سنة ١٢٣٧ ٦ مايو سنة ١٨٢٢ وكان اذ ذاك سنه ١٧ فتولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره وكانت الحكومة في غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش محمد علي باشا بنصيبين كما مر واحتلال جيوشه لمدائن عين تاب وقيصرية وملطية

ومما زاد احوال الدولة ارتباكا وشغل الخواطر باوروبا ان احمد باشا القبودان العام للدونانمة التركية خرج بجميع مراكبه الحربية واتى بها إلى ثغر الاسكندرية وسلمها إلى محمد علي باشا في ٢ جماد اول سنة ١٢٥٥ ١٤ يوليو سنة ١٨٣٩ وكان فعل احمد باشا القبودان مسببا عن توجيه منصب الصدارة العظمى إلى خسرو باشا الذي كان قد سبق تعيينه واليا على مصر وخرج منها بناء على رغبة الاهالي في تعيين محمد علي باشا واليا عليها وخوفه من الايقاع به بسبب ما كان بينه وبين محمد علي باشا من علائق الارتباط والمحبة لما علم قناصل الدول بالاستانة بتسليم الدونامة التركية إلى محمد علي باشا خشوا رحف ابراهيم باشا على القسطنطينية فترسل الروسيا جيوشها لمحاربته بناء على معاهدة خونكار اسكله سي لا سيما وقد فقدت الدولة جميع جيوشها البرية وسفنها الحربية فأرسلوا إلى الباب العالي لائحة اشتراكية بتاريخ ١٦ جماد اول سنة ١٢٥٥ ٢٨ يوليو سنة ١٨٣٩ ممضاة من سفراء فرنسا وانكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا يطلبون منه ان لا يقر شيئا في امر المسألة المصرية الا باطلاعهم "واتحادهم وانهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه المسألة المهمة فقبل الباب العالي هذه اللائحة واجتمع السفراء عند الصدر الاعظم في ١٨ جماد اول ٣٠ من الشهر المذكور وتداولوا فيما يجب اعطاؤه لمحمد علي باشا فأبدى سفيرا انكلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشام للدولة العلية وعارضهم في هذا الرأي سفيرا فرنسا والروسيا وطلبا ان يمنح محمد علي باشا ملك مصر وولايات الشام الاربع لكن انحاز سفير البروسيا إلى الرأي الاول فتقرر بالاغلبية ثم طلب المسيو دي مترنيخ اكبر وزراء النمسا ان يعقد مؤتمر دولي في مدينة فيينا او لوندره لاتمام المداولات بشأن المسألة المصرية فلم يقبل منه ذلك عند الكل سيما فرنسا وانكلترا فلم يقبلا ذلك ولم يميلا لهذا الطلب لعدم ثقتهم بالمسيو دي مترنيخ وكذلك الروسيا لم تقبل تخويل مؤتمر دولي حق تحديد علاقاتها مع الباب العالي بل اعلنت انها مصرة على التمسك بنصوص معاهدة خونكار اسكله سى وهي حماية الدولة بعساكرها ومراكبها وبالتالي احتلال معظم املاكها بدون حرب لو تعدى ابراهيم باشا حدود الشام فعند ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من الباب العالي التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من الروسيا ومن العساكر المصرية وجاء الاميرال ستوبفورد بنفسه إلى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة واعلن سفير الروسيا بأنه إذا دخلت المراكب الفرنساوية والانكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسية مع الباب العالي ويسافر في الحال وكانت حكومته ارسلت له مركبا

حربيا ليسافر عليه إذا اقتضى الحال "ذلك وكتبت النمسا إلى وزارتي لوندره وباريس بأن طلبهما هذا مخل بسلم اوروبا وانهما لو اصرا عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل فلما علم الباب العالي بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتي فرنسا وانكلترا وطلب منهما ابعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز فلهذه الاسباب وعدم الاتفاق بين وزراء الدول توقفت المخابرات إلى اوائل شهر رجب سنة ١٢٥٥ سبتمبر سنة ١٨٣٩ حتى عرض اللورد بونسونبي سفير انكلترا على الباب العالي ان دولته مستعدة لاكراه محمد علي باشا على رد الدونانمة التركية بشرط ان يكون لها حق ادخال مراكبها في خليج اسلامبول لصد الروسيا عند الضرورة فلما علمت بذلك حكومة فرنسا ارسلت إلى الاميرال لالاند قائد اسطولها في مياه تركيا امرا بتاريخ ١٨ دسمبر سنة ١٨٣٩ أنه لا يشترك مع مراكب انكلترا في أي حركة عدوانية ضد حكومة محمد علي باشا فعلم الكل أنه لا بد من حصول خلاف بين فرنسا وانكلترا بخصوص المسألة المصرية واخذت الدول حذرها مما عساه يحصل من الامور التي تنشأ بسبب هذا الخلاف فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولي في فيينا او برلين واعلنت بروسيا والروسيا بأنهما يقبلان كل ما تقرره الدول في هذا الشأن بشرط ان يكون موافقا لرغبة الباب العالي وان يكون قبوله لهذا القرار صادرا عن كمال الحرية فكأن الدول قبلت ما اتفقت عليه فرنسا وانكلترا بالاتحاد مع الباب العالي ولكن لم يتم الاتفاق بين هاتين الدولتين لسعي انكلترا في ارجاع المصريين إلى حدودهم الاصلية وعدم قبول فرنسا ذلك ورغبتها في مساعدة محمد علي باشا وذلك ان فرنسا كانت تود ان تكون ولايتا مصر والشام له ولذريته واقليما اطنه وطرسوس له مدة حياته واما انكلترا فكانت لا تريد ان يعطى الا ولاية مصر لكن رغبة في ارضاء فرنسا قبلت ان يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبي بشرط ان لا تكون مدينة عكا من هذا النصف فرفضت فرنسا هذا الاقتراح وقالت كيف نحرمه من كل فتوحاته خصوصا بعد ان قهر الجيوش العثمانية في واقعة نصيبين واننا لو جردناه منها لتركنا له بابا للحرب مرة اخرى وهو امر لا تكون عاقبته حسنة لأنه يوجب تداخل حكومة الروسيا في امر الدولة العلية بمقتضى "العهود ولا تكون نتيجة ذلك الا حربا عامة فالاولى منعا لسفك دماء العباد ان تعطى لمحمد علي باشا البلاد التي فتحها لأنه اقوم بادارتها واحق بها لما تكبده في فتحها من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة وبذل الارواح ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا اعلنت النمسا

وبروسيا رسميا انهما يخازان إلى احدى الدولتين التي لا تحرم الدولة من املاكها وبعبارة اخرى إلى انكلترا.

"[الاصلاحات الداخلية]
هذا وسار السلطان عبد المجيد خان على خطة والده المرحوم السلطان الغازي محمود خان في الاصلاحات الداخلية حتى تجاري الدولة العثمانية باقي الدول في التمدن والعمران فاصدر عقب توليته منصب الخلافة العظمى بقليل امرا ساميا قرئ علنا في جمهور من الوزراء والاعيان في يوم ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هـ ٤ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وهذا نصه مترجما من كتاب احمد مدحت المسمى اس انقلاب.

فصل - [ذكر السلطان عبدالعزيز]
"المولود في ١٤ شعبان سنة ١٢٤٥ ٨ فبراير سنة ١٨٣٠ وفي ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ ٧ يونيه سنة ١٨٦١ توجه في موكب حافل إلى ضريح سيدي ابي ايوب الانصاري وهناك تقلد السيف السلطاني على ما جرت به العادة ومنه سار لزيارة قبر السلطان الغازي محمد الثاني فاتح الاستانة ثم قبر والده السلطان محمود الثاني رحمهم الله جميعا وكانت فاتحة اعماله انه اقر الوزراء في مراكزهم ما عدا ناظر الجهادية رضا باشا فانه ابدل بنامق باشا وهاك ترجمة امر بقاء الوزراء المؤرخ ٢٣ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ ٢ يوليو سنة ١٨٦١ نقلا عن منتخبات الجوائب جريدة شبه رسمية
وزيري سمير المعالي محمد امين عالي باشا
قد صار هذ المرة بالارادة الأزلية جناب مالك الملك جلوسنا على تخت اجدادنا العظام المؤيد بالسعادة والبخت ولكو درايتك وصداقتك من المجرب ابقي خطب الصدارة الجسيم في عهدة رويتك وكذا سائر الوكلاء والمأمورين مقررين على مناصبهم ثم اني باكمال سعادة الحال بمنة تعالى لدولتنا العلية واستحصال رفاهية الحال والراحة لاتباع سلطتنا السنية اجمالا بلا استثناء وبحصول هذه الامنية الخيرية وبكون القوانين الاساسية العدلية المؤسسة على تأمين النفس والعرض والمال لجميع سكان الممالك المحروسة مؤكدة ومؤيدة من طرفنا اعلن ما ذكر للجميع ومن حيث ان الشريعة الشريفة التي هي عدالة محضة مدار لتأييد السلطانة السنية او اساس "لشوكتها حالة كون احكامها

المنيفة لجميعنا دليلا على طريق السلامة كانت الدقة الزائدة في الامور الشرعية مطلوبا لنا قطعا ولما كان الباعث لبقاء كل دولة ولتزايد شوكتها وراحتها كون رعيتها مطاوعة للقوانين الموضوعة وان لا يتجاوز الصغار والكبار منها دائرة وظيفتها وحقها كان محققا لدينا ان الذين يسلكون في هذا الطريق يكونون مظهرا للمكافأة كما ان الذين يوجدون في حركات مخالفة تحيق بهم المجازاة وبناء على هذا كون الداعين والعباد والمأمورين جميعا في دولتنا العلية ان يستقيموا في خدمتهم ويوفوا وظائف ماموريتهم بالصداقة هو من جملة اوامرنا المؤكدة السلطانية ومن المسلم كون المصالح العظيمة الدولية قرينا لحسن النتيجة بتوفيق حضرة موفق الامور وباقدام اركان الدولة واتفاقهم وان ايصال الامور لدولتنا العلية مدنية كانت او مالية إلى درجة الانتظام والمضبوطية انما هو بكمال التشبث بهذه القاعدة المسلمة يعني كونه منوطا بالاهتمام والغيرة من طرف الجميع على وجه الاستقامة والخلوص ومن طرفنا نحن ايضا منوط بالهمة والنظارة على أي وجه كان وبالاتباع التام من جانب كل دائرة وادارة لهما المخصوصة السلطانية التي تصرف في حق اندفاع المشكلات المالية عن قريب بعون الله تعالى وهي التي عرضت منذ مدة ناشئة عن اسباب مختلفة وكذا يعلم بانه لم يكن لذاتنا فكر وامل سوى اعادة شأن دولتنا وزيادة اعتبارها المالي ورفاهية اتباعنا الغرض المتعاقب من خصوص المتصرفات الكاملة في استحصال اموال الدولة وصرفها والاصلاحات الموجبة لوقايتها من التلف والسرف عبثا والدقة في محافظة عساكرنا البرية والبحرية التي هي احدى اسباب الشوكة لدولتنا العلية واستكمال رفاهيتهم في كل حال ومحل وصرف المجهود وقتا فوقتا في تأكيد المناسبات والموالاة معالدولة الاجنبية الذين هم محبو سلطتنا السنية وكذا الرعاية لاحكام المعاهدات المنعقدة مستمرة والحاصل ان علم الجميع بان وظائف الاستقامة والعفة والصداقة والغيرة هي اساس العمل والباعث للفلاح والسلامة في ادارة الدولة في كل جهة وفرع لها كل ذلك من ارادتنا القطعية واني اعلن ايضا حيث كان مرادي السلطاني لا يقبل الاستثناء كان الذين هم من الاديان والاجيال المختلفة يرون عموما من طرفنا الهمايوني دقة متساوية في العدالة والتأمين والهمة وحسن الحال واكرر ان التوسع التدريجي الذي هو ترقيات صحيحة توجب غبطة "حال الجميع في ظل سلطتنا لاسباب الثروة واليسار العظيمة التي انعم الله بها على ملكنا وكذا قضية الاستقلال المهمة لدولتنا العلية من اعز الافكار عندنا وفقنا جميعا الفياض المطلق بحرمة حبيبه الاكرم آمين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ اهـ

ويؤخذ من نص هذا الامر ان السلطان رحمه الله كان يود السير على خطة اسلافه من اصلاح الاحوال ومعاملة جميع الرعايا على السواء بدون نظر لجنسهم او دينهم حتى لا يكون لدول اوروبا سبيل للتدخل في شؤون الدولة بحجة طلب هذه المساواة ثم انشأ نشان شرف جديد لمكافأة من يقوم بخدمة الدولة والملة والدين بكل صداقة وامانة ودعاه بالعثماني نسبة إلى السلطان الغازي عثمان الاول رأس هذه الدولة المحروسة الملحوظة بالعناية الربانية يحيطها سياج التعطفات الالهية حتى ان تألب جميع الدول المسيحية عليها لم يزدها الا رسوخا وثباتا وقد اراحها هذا التدخل نوعا ما بفصل بعض العناصر المغايرة للعنصر الاسلامي في الجنس والدين عنها فانها كانت اهم الشواغل للدولة مع عدم وصول أي فائدة منها اليها ولنذكر هنا قبل تفصيل ما حصل بالدولة من الاصلاحات تحت رعاية السلطان عبد العزيز ما جرى من المناقشات ودار من المخابرات بين الباب العالي والدول بشأن امارات الجبل الاسود والصرب والافلاق والبغدان فنقول الجبل الاسود انه لما تجزأت مملكة الصرب الاصلية عقب موت الملك دوشان وقتل ولده اوروك استقل احد اشراف الصرب ببلاد الجبل الاسود واسمها تشيرنا جوره وجزء عظيم من بلاد الصرب وجعل مقر حكومته مدينة اشقودرة ثم لما فتحها العثمانيون وطردوه منها تحصن بالجبل وبه امكنه صد هجمات العثمانيين عنه لوعورة المسالك وصعوبة المفاوز وبذلك لم يتيسر للدولة ضم هذا الاقليم بنوع قطعي مطلقا.

"سفر السلطان عبد العزيز لمصر

ومما امتاز به السلطان عبد العزيز خان عما عداه من السلاطين العثمانيين تفقده ممالكه المحروسة بنفسه وسياحته خارجا عنها فقد سافر رحمه الله إلى وادي النيل في ١٤ شوال سنة ١٢٧٩ يصحبه في معيته الشريفة الامراء الاماجد مراد افندي الذي "تولى منصب الخلافة بعد المرحوم السلطان عبد العزيز وعبد الحميد افندي خليفتنا الحالي ورشاد افندي ويوسف عز الدين افندي والوزيران فؤاد باشا ومحمد باشا فزار الاسكندرية ومحروسة مصر ثم عاد إلى دار السعادة باليمن والاقبال وكان سفره من الاستانة بعد ان افتتح المعرض العثماني الذي اقيم بها لتنشيط الصنائع الوطنية في ١٠ رمضان سنة ١٢٧٩ ا مارس ١٨٦٣ بحضور ضيفه الكريم اسماعيل باشا خدوينا الاسبق

سفر السلطان لباريس

وفي ١٩ صفر سنة ١٢٨٤ ٢٢ يونيو سنة ١٨٦٧ سافر قاصدا مدينة باريس الزاهية الزاهرة على دعوى الامبراطور نابوليون الثالث لحضور المعرض العام الذي اقيم فيها ودعا اليه الامبراطور اغلب ملوك الدنيا وكان من ضمن المدعوين خديوي مصر اسماعيل باشا فابحر من الاسكندرية في ٧ من شهر صفر المذكور على سفينة المحروسة ليكون بباريس حين قدوم جلالة السلطان عبد العزيز اليها ثم عاد جلالة السلطان المعظم إلى مقر خلافته عن طريق وارنه في ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٨٤ ٧ اوغست ١٨٦٧ بعد ان تغيب عنها ستة اسابيع الفى في خلالها من حسن الملاقاة وكرم الوفادة ما طبع عليه الفرنسويون واشتهر عنهم اما الاصلاحات التي اجريت في داخلية الممالك المحروسة في خلافته فيعد منها ولا تعد فمنها القانون القاضي بجواز انتقال الاراضي الميرية الخراجية والموقوفة لورثة صاحب المنفعة الصادر في ١٧ محرم سنة ١٢٨٤ ٢١ مايو ١٨٦٧ وهو يشبه لائحة الاطيان السعيدية المصرية.

"عزل السلطان عبد العزيز

هذا ولنأت هنا على ذكر هذه الحادثة مع بيان الاسباب التي تنسب لها بقدر ما وصل اليه بحث هذا العاجز فنقول بعد الحوادث التي مر ذكرها اقتنع السلطان رحمه الله ان تحالف الدول مع الدولة في حرب القرم وما بعدها لم تكن نتيجة الا اضعافها بالتدخل في شؤونها الداخلية ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها وبث روح الفتن والفساد في ممالكها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم وان كل ذلك يعود بالنفع على الروسيا جارتها القوية وعدوتها القديمة لا سيما وقد عدل الدول بعد الحرب الفرنساوية الالمانية اهم بنود معاهدة باريس التي ابرمت بعد حرب القرم لحفظ التوازن في البحر الاسود وعدم مراعاتها عقب ابرامها في حق ولايتي الافلاق والبغدان فلهذه الاسباب علم جلالة السلطان ان الاولى والانجح لسياسة الدولة هو التباعد عن الدول الغربية والتحالف مع الروسيا وعضده في هذا الفكر الصدر الاعظم محمود نديم باشا فاكثر السلطان من الاجتماع مع الجنرال اغناتيف سفير الروسيا بالاستانة والمتواتر وان لم تثبته اوراق رسمية انهما كانا يسعيان لوضع اساس معاهدة هجومية ودفاعية يكون من اهم بنودها الاختصاص بجميع بلاد الشرق

وتتبع الولايات الاسلامية او التي يغلب فيها العنصر الإسلامي للدولة العلية الإسلامية وضم جميع الأقاليم المسيحية أو التي يسود فيها هذا العنصر للدولة الروسية ولما شاع هذا المشروع لم يرق في اعين الدول الاوروبية التي لها مصالح في الشرق وخصوصا انكلترا فاخذ عمالهم وسفراؤهم الظاهرون والسريون يلقون الوساوس في عقول السذج من اهل الاستانة وينسبون السلطان للتبذير والاسراف "وعدم الاهلية لادارة مهام الملك وربما استعان هؤلاء المعررون بطرق اخرى المطالع بها ادرى وما زالوا يوسوسون ويلقون بذور الفساد حتى اقنعوا الوزراء بوجوب عزله وان اقالته من الاعمال واجبة لانتظام الدولة وسيرها على المحور المستقيم وصادفت دسائسهم اذن صاغية عند بعض العلماء لما خالج صدورهم من عدم الميل للسلطان بسبب عدم اتباعه بعض العوائد المألوفة لديهم مثل خروجه من ممالكه وزيارة معرض باريس وحضوره التشخيصات التياترية والباللوات المراقص وكيفية خلعه على اصح الروايات ان المؤامرة التي اوصلت إلى هذه النتيجة حصلت بين كل من محمد رشدي باشا الصدر الاعظم وحسين عوني باشا ناظر الحربية واحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية واحمد مدحت باشا وشيخ الاسلام حسن خير الله افندي وقبل الشروع في تنفيذ ما صمموا عليه اصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب ذلك هذا نصها

الفتوى بعزله

إذا كان زيد الذي هو امير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام في الامور السياسية وما برح ينفق الاموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد اخل بالامور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا بها فهل يصح خلعه الجواب يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه ثم اناطوا حسين عوني باشا بامر خلع السلطان عبد العزيز وشيخ الاسلام وباقي الوزراء بمبايعة السلطان مراد وفي يوم الاثنين ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦ اخذ ناظر البحرية في تجهيز المراكب لحصر السراية السلطانية بحرا فاستغرب السلطان حصول المناورات بالبحر تحت شبابيكه بدون سابقة علمه فارسل يستعلم عن السبب فاجيب بان دواعي الحال اوجبت ذلك ثم اخبر احمد باشا قيصرلي الصدر الاعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان فعزموا "على تنفيذ مشروعهم في مساء ذلك اليوم خوفا من ان يكون السلطان قد شعر بسيئ قصدهم

واتفقوا على تكليف من يدعي رديف باشا بحصر السراية برا وتعهد احمد باشا قيصرلي بحصرها بحرا وفي الساعة الثانية بعد غروب ذلك اليوم اجتمع المتآمرون في ديوان السر عسكرية وتوجه رديف باشا مع الاي من الجند مؤلف من ٢٥٠٠ عسكري وامر سليمان باشا رئيس المدرسة الحربية بخفر باب السراي مع مائة من تلامذة هذه المدرسة راكبين خيولهم ومسلحين بالبنادق الجديدة ولما تم حصارها برا وبحرا واخبر المتآمرون بذلك توجه حسين عوني باشا في عربة إلى مقر السلطان مراد واركبه معه وعادا معا إلى السر عسكرية حيث كان بانتظارهما شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب وجميع اعيان الدولة من عسكريين وملكيين ولما دخلاها احاطت بالسراية فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج ثم حصلت المبايعة للسلطان الجديد مراد خان الخامس من جميع الحاضرين على الاسلوب المتبع"

فصل - [ذكر السلطان مراد الخامس]

"وهو ابن السلطان عبد المجيد وكانت ولادته في ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦ ٢٢ سبتمبر ١٨٤٠ هذا ولما تم امر المبايعة ارسل مخصوص إلى رديف باشا يخبره بذلك ويسلمه صورة الفتوى القاضية بعزل السلطان عبد العزيز فقصد رديف باشا باب الحريم واستدعى جوهر آغا رئيس آغاوات السراي وكلفه بان يبلغ السلطان ان الامة قد عزلته وانه مأمور بتوصيل السلطان المخلوع إلى سراي طوبقبو وسلمه صورة الفتوى ليطلعه عليها فلم يصدق السلطان الخبر الا بعد ان نظر من الشبابيك ورأى العساكر محيطة بسرايته برا وبحرا احاطة السوار بالمعصم وعند ذلك ايقن ان التوقف لا يكون وراءه الا الاكراه على الخروج فنزل مستسلما وبمجرد خروجه احاطت به العساكر وانزلوه مع ابنه يوسف عز الدين افندي في زورق ووالدته في ثان وباقي اولاده وامهاتهم في ثالث ثم خفرتهم الزوارق الحربية إلى ان اوصلتهم إلى سراي طوبقبو حيث كانت العساكر مصطفة على حافتي الطريق من البر إلى باب السراي وفي الساعة الحادية عشرة ليلا اطلقت المدافع من البر والبحر ايذانا بخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطان مراد الخامس ونادى المنادون بذلك في الشوارع فهرع الاهالي افواجا إلى سراي السر عسكرية وبايعوا السلطان مراد ولم يحصل ادنى مقاومة من احد ولم تحتج احدى الدول على هذه الثورة الداخلية وذلك مما يؤيد ان جميع القناصل كان عندهم علم بما

حصل قبل وقوعه وانه ربما كان ذلك باتفاقهم. وفي الساعة الثالثة صباحا ذهب السلطان مراد في عربة بين صفوف الاهالي إلى سراي بشكطاش حيث استمرت المبايعة ثلاثة ايام متوالية

وفاة السلطان عبد العزيز

ولقد اختلفت الاقوال في كيفية موت هذا السلطان وكثرت الروايات عن ذلك فمن قائل انه قتل نفسه لعدم انتظام قواه العقلية بعد خلعه ومن قائل ان الذين تآمروا على خلعه ارتكبوا هذا الامر الفظيع فقتلوه خيفة ان يسعى في الرجوع إلى منصة الاحكام اما الحقيقة فغمضة نترك كشف الستار عنها لمن يأتي بعدنا ونكتفي بذكر الرواية التي تناقلتها الالسن والجرائد في ذلك الحين وذلك انه شاع او اشاع ارباب الغايات ان قد اصابته رحمه الله امراض دماغية يوم خلعه فاضطربت احواله وكان يتخيل ان البواخر الراسية في البوغاز تطلق النار على العدو فزاده ذلك قلقا ولم يستطع الرقاد في ليلة الاحد التالية لعزله فلما اصبح الصباح ذهب إلى الحمام كعادته ثم إلى البستان ثم رجع إلى حجرته وصار يأمر بفتح الشبابيك والابواب ثم يخرج إلى البستان ويعود ثم يخرج ثانيا كأن الدنيا ضاقت امامه برحبها ثم حاول الخروج إلى شاطئ البحر فرآه الضابط الذي كان يحرس الباب فقال له بلطف لا اذن بالخروج ياسيدي فهدده بغدارة كانت في يده ثم دخل ويقال ان هذه الحادثة كانت سببا في ازدياد اعراض الخلل واستشهد اصحاب هذا الرأي ببعض خدامه وحجابه فقالوا انه رحمه الله كان يتوهم ان عدوا هاجم عليه وانه يجب على العساكر ان تمانعه وتطارده وعلى البواخر ان توجه نيرانها على هذا العدو المفاجئ

واخيرا طلب من احدى الجواري مقصا ومرآة ليقص اطراف لحيته كما كانت عادته فاحضرتهما له من والدته وانصرفت ثم رأى والدته تنظره من وراء فغضب وامرها بالانصراف وبعد ذلك حضر احد اعوانه فأخذ يحادثه في مسألة مهاجمة العدو التي كان يتخيلها وفي اثناء الحديث اخذ المقص وقطع به عرقا من ذراعه الايمن فحاول العون منعه ولما لم يتمكن ذهب واخبر والدته ولما خرج العون قفل السلطان الشبابيك والابواب وقطع عرق ذراعه الايسر واضطجع "على متكأ حتى تصفى دمه ولما شاع هذا الخبر وعلا صريخ الجواري اتى الوزراء وبعد ان شاهدوا الحالة استدعوا لجنة طبية من مشاهير الاطباء ومن ضمنهم اطباء سفراء الدول وبعد الكشف عليه طبع الكشف ووزع على العموم

ونشر في الجرائد ليعلم الناس كيفية موته وفي الساعة الخامسة عربيا نقلت جثته إلى سراي طوبقبو وكان رحمه الله قد نقل منها إلى سراية اخرى في يوم السبت السابق لوفاته بناء على طلبه وهناك غسلت وجهزت وفي الساعة العاشرة شيعت جنازته ودفن بجوار ابيه السلطان محمود رحمهما الله ومما يوجد شكا في انه قتل نفسه بسبب اختلال قواه العقلية ما كتبه للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد يطلب منه الانتقال من طوبقبو فانه لا يؤخذ من عبارته ان به اقل اضطراب عقلي واليك صورة هذه الكتابة نقلا عن منتخبات الجوائب بعد اتكالي على الله تعالى وجهت اتكالي عليك فاهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وابين لك ما بي من الاسف على اني لم اقدر على ان اخدم الامة حسب مرادها فأؤمل انك انت تبلغ هذه الارب وانك لا تنسى اني تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها واوصيك بان تتذكر ان من صيرني إلى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم انا بيدي وحيث كان من دأبي دائما الرفق بالمظلومين وشملهم بالمعروف الذي تقتضيه الانسانية ارغب اليك ان تنقذني من هذا المكان الضيق المعنى بتشديد النون الذي صرت اليه وتعين لي محلا اكثر ملاءمة لي واهنئك بأن الملك انتقل إلى ذرية اخي عبد المجيد خان الامضاء عبد العزيز ومن جهة اخرى فإن استدعاء الوزراء لاطباء القناصل يدل ايضا انهم كانوا معتقدين ان الامة تصدق قولهم بانه قتل نفسه فعمدوا إلى تقوية قولهم بهذا الكشف الطبي الموقع عليه اطباء السفارات مما يعتبر اقرارا من الدول وتصديقا لروايتهم ومع ذلك فلا يمكن الجزم الآن بانه قتل شهيد الدسائس او انتحر تخلصا من الحياة بعد خلعه لعدم وجود الادلة الكافية على القطع في هذه المسألة حتى اليوم.

فصل - [ذكر السلطان عبدالحميد الثاني]

"وبعد فترة ارسلوا في طلب السلطان الجديد فحضر إلى سراي طوبقبو وبايعه الحاضرون ومنها إلى سراي بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء روحانيين وغيرهم اما السلطان مراد فتوجه إلى سراي جراغان التي كان بناها المرحوم السلطان عبد العزيز واستشهد بها ثم اخطرت الولايات وزينت المدينة ثلاثة ايام توالى فيها اطلاق المدافع في الاوقات الخمس من الطوابي والمراكب الحربية وفي يوم ١٨ شعبان سنة ١٢٩٣ ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٦ تقلد السلطان عبدالحميد الثاني السيف المنيف في جامع ابي ايوب الانصاري على ماجرت به العادة وكان ذهابه إلى هذا الجامع في موكب حافل لم يسبق له مثيل وزار جلالته اثناء عودته جدث والده المرحوم السلطان الغازي عبد المجيد

المدفون بجامع السلطان سليم ثم زار ضريح السلطان محمد الفاتح رحمه الله فقبر جده السلطان محمود مبيد الانكشارية طيب الله ثراه واخيرا قبر عمه شهيد الشهداء السلطان عبد العزيز غفر الله له وبعد ذلك استلم ادارة الاعمال بهمة ونشاط واظهر للوزراء رغبته في اصلاح الامور في خط همايوني ارسله جلالته إلى الباب العالي اشعارا بجلوسه مؤرخا ٢١ شعبان سنة ١٢٩٣ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٦.

"[البرلمان العثماني الاول]

وفي ٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٤ ١٩ مارس سنة ١٨٧٧ فتح البرلمان العثماني الاول في سراي بشكطاش وعند افتتاحه تليت خطبة انيقة عن لسان جلالة السلطان وبحضوره شرحت فيها جميع الاسباب التي ادت إلى انحطاط الدولة وتأخرها سلميا وسياسيا وبعد تشخيص الداء بين فيها الدواء وما يلزم للملكة من الاصلاحات "ونشر التعليم والمساواة بين الجميع والعدل في الاحكام ولاهميتها في بابها وجمعها كل ما يمكن ان يقال في مثل هذا الحال اتينا على درجها هنا وقد صدق من قال ان كلام الملوك ملوك الكلام وها هي

يا ايها الاعيان والمبعوثان

انني ابث الممنونية بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع المرة الاولى في دولتنا العلية وجميعكم تعلمون ان ترقي شوكة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بواسطة العدالة حتى ان ما انتشر في العالم من قوة دولتنا العلية وقدرتها في اوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في امر الحكومة ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف التبعة وقد عرف الناس اجمع تلك المساعدات التي ابداها احد اجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرية الدين والمذهب وكافة اسلافنا العظام ايضا قد سلكوا على هذا الاثر فلم يقع في هذا المطلب خلل بوقت من الاوقات وغير منكر ان المحافظة منذ ستمائة عام على السنة صنوف تبعتنا ومليتهم ومذاهبهم كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة وسعادتهما صاعدتين في درجة الترقي في تلك الاعصار والازمان بظل حماية العدالة ووقاية القوانين اخذنا بالانحطاط تدريجيا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف والقوانين الموضوعة وتبدلت تلك القوة بالضعف وقصارى الامر ان المرحوم والدي الاكبر

السلطان محمود خان ازال عدم الانتظام الذي هو العلة الكبرى للانحطاط الذي طرأ منذ اعصار على دولتنا ورفع من الوجود عائلة الانكشارية المتولدة منه وقلع شوك الفساد والاختلال الذي مزق جسم الدولة والملة وكان هو السابق لفتح باب ادخال مدنية اوروبا الحاضرة إلى ملكنا وهكذا والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان قد اقتفى هذا الاثر فاعلن اساس التنظيمات الخيرية المتكفلة بالمحافظة على نفوس اهالينا واموالهم واعراضهم وناموسهم ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارة ممالكنا وزراعتهاوزادت واردات دولتنا اضعافا في امد قليل ومن ثم وضعت القوانين والنظامات التي هي مدار لما يعوزنا من الاصلاحات واخذ تحصيل المعارف والفنون بالامتداد وبينما شب في دولتنا "امل النجاح بناء على هذه المقدمات الحسنة ولا سيما بناء على الامنية الداخلية ظهرت حرب القريم فكان ظهورها مانعا لدوام المساعي بتنظيم احوال الملك والتبعة ومع ان خزينة دولتنا كانت حتى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرش واحد اضطررنا للاستقراض الخارجي دفعا للاحتياج والضرورة فتعذر والحالة هذه تقابل وارداتنا مع مصاريف الحرب المبرمة وبهذا السبب فتح باب الدين نعم انه في هذه المسألة بواسطة اتفاق الدول المفخمة التي صادقت على مشروعية حقوقنا وبانضمام معاوناتها الكاملة الفعلية التي لا تبرح مدى الدهر زينة لصحائف التواريخ قد انتجت الحرب تلك المصالحة التي وضعت تمام ملكية دولتنا واستقلالها تحت ضمان دول اوروبا العهدي وغلب على الظن ان هذه المصالحة قد مهدت لمستقبلنا زمانا مساعدا على وضع اعمالنا الداخلية في طريقها وسلوك جادة الترقي الحقيقي انما الاحوال المتعاقبة ساقتنا بكليتنا إلى عكس ذلك الانتظار والامل ان توالي الحوادث الداخلية المتتابعة الظهور بمفاعيل التحريكات والتسويلات لم تخولنا وقتا للنظر في اصلاحات ملكنا وتنظيماته بل اوقعت زراعتنا وتجارتنا في وقوف عظيم لاضطرارنا في كل عام لجمع معسكرات فوق العادة في انحاء مختلفة ووضع الصنف الاكثر نفعا من اهالينا تحت السلاح وامر مسلم ومعلوم انه مع كل ما صادفنا من المشاكل والموانع قد قطعنا ماديا وادبيا مسافة كلية في سبيل النجاح وتزايد وارداتنا على التوالي منذ عشرين عاما دليل على ترقي المملكة وازدياد رفاهية حال الاهالي ثم وان كانت المضايقة الحاضرة قد تولدت من الاحوال التي عددناها فمع هذا كان ممكنا تخفيف غائلة الضرورة وحفظ الاعتبار المالي لوسلكنا في الادارة المالية طريقا قويما بيد انه كل ما اتخذ من التدبير المالي في صورة الاصلاحات لم يصلح الحال وانما زاد العمل اثقالا وقد طلبت الاستفادة من الحال قبل التفكر ماذا يكون الاستقبال فدوام هذه الغوائل وتعاقبها من الجهة الواحدة ومداركة وانشاء

الادوات والاسلحة الجديدة الحربية التي هي اعظم اسباب شوكة دولتنا واقتدارها وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا تحت موازنة اقتصادية من الجهة "الاخرى افضتا إلى انتقاض ادارتنا المالية درجة فدرجة فانتجت ما نحن فيه الآن من المضايقة الخارقة للعادة واعقب ذلك ظهور وقوعات هرسك المنبعثة من اثر الفساد والتحريك التي تجسمت اخيرا ثم افتتحت بغتة محاربات بلاد الصرب والجبل الاسود وظهرت في عالم السياسة ايضا فتن واختلالات كبيرة وفي ذلك الزمان الذي فيه تهورت دولتنا في بحران عظيم وقع جلوسنا بارادة جناب الحق الازلية على تخت اجدادنا العظام ولما كانت درجة المخاطر والمشكلات التي حاقت باحوالنا العمومية غير قابلة القياس مع ما تقدمها من الغوائل التي تهورت بها دولتنا حتى الآن قد اضطررت لاجل المحافظة قبل كل شيء على حقوقنا ان ازيد معسكراتنا في جميع الجهات حتى وضعت تحت السلاح نحو سمائة الف عسكري لاعتقادي بأن ملاشاة هذه الاختباطات بالكلية واستئصالها بعون الله تعالى والتفتيش على طريقة لاصلاحات مهمة في دولتنا نضع بواسطتها مستقبلنا تحت الامنية المتمادية انما هو فرض على ذمتي وامر واضح بانه إذا نهجنا في الادارة سبيلا حسنا ستتقدم باقرب وقت تقدما كبيرا في النجاح بحسب القابلية التي احسن بها الحق تعالى على ملكنا وبحسب الاستعداد المتصفة به اهالينا وامر محقق ان تأخرنا عن اللحوق والترقيات الحاضرة في عالم المدنية كان لاهمالنا المداومة على الاصلاحات المحتاج ملكنا اليها ولعدم المثابرة على القوانين والنظامات المتعلقة بها ومنشأ ذلك ليس هو الا صدور هذه الاشياء من يد الحكومة الاستبدادية بدون استناد على قاعدة المشورة والحال ان ترقي الدول المتمدنة ونجاحها وامنية الممالك وعمرانها انما هو ثمرة تأسيس مصالحها وقوانينها العمومية بالاتفاق واجماع الآراء كما هو مسلم فبناء عليه رأيت ان تحري اسباب الترقي في هذه الطريق واستناد قوانين المملكة على الآراء العمومية هو الزم ما لدينا فلذا قد اعلنت القانون الاساسي اما مقصدنا من تأسيسه فليس هو عبارة عن دعوة الاهالي للحضور في رؤية المصالح العمومية وانما بالاحرى "لاعتقادنا القطعي بأن هذه الاصول هي وسيلة مستقلة لاصلاح ادارة ممالكنا ومحو سوء الاستعمالات واستئصال قاعدة الاستبداد وفضلا عما في هذا القانون الاساسي من الفوائد الاصلية فهو كذلك مهد لاساس حصول الاتحاد والاخوة بين الانام وجامع لمقصد تاسيس امر الائتلاف والسعادة بين الخاص والعام اما اجدادنا العظام ففي الفتوحات التي وفقوا اليها قد جمعوا تحت حكومتهم في هذه الدولة الوسيعة الممالك اقواما عديدة فلم يبق سوى امر واحد فقط وهو ربط هذه الاقوام المختلفة اختلافا كليا في

الاديان والاجناس بقانون مفرد وحسن مشترك وحيث قد تيسر الآن هذا الامر بعون جناب الحق الذي لا نهاية لالطافه ومقدرته الالهية فيقتضي إذا من الآن فصاعدا ان تكون كافة تبعتنا اولاد وطن واحد يعيشون باجمعهم تحت جناح حماية قانون واحد وينعتون بالعنوان المخصوص منذ ما ينيف عن ستمائة سنة لاهل بيت سلطنتنا السنية المسطر كثير من آثار شوكتهم في صحف تواريخ البرية مؤملا ان الاسم العثماني الذي ما برح حتى الآن علم القوة والاقتدار المشتهر يكون من بعد الآن شاملا لدوام المنافع المختلفة الموجودة بين جميع تبعتنا وحفظها وحيث انني بناء على ما ذكر من الاسباب والمقاصد قد عزمت عزما ثابتا على ان انهج السبيل الذي سلكته ولا آلو جهدا في توطيده وتشييده فاترقب منكم إذا المعاونة فعلا وعقلا للاستفادة من مشروع القانون الاساسي الذي بني على قاعدتي العدل والسلامة والمفروض عليكم إذا القيام بأعباء الوظائف القانونية المحولة لعهدتكم وحميتكم بصداقة واستقامة بدون احتراز من أحد غير ملتفتين إلى شيء آخر سوى سلامة دولتنا ومملكتنا وسعادتهما لان ما يعوزنا اليوم من الاصلاحات وما يترقب الجميع اتخاذه في ملكنا من التنظيمات هو في غاية الاهمية والاعتناء وبما ان وضع ذلك على الفور في موقع الاجراء مرهون على اتفاقكم بالافكار والآراء فلذا شورى الدولة مثابر الآن على تنظيم لوائح القوانين اللازمة لكي تحول في اجتماعكم في هذه السنة إلى مجلسكم لاجل المذاكرة "وهي لائحة نظامات داخلية مجلسكم ولوائح قانون الانتخاب وقانون الولايات وادارة النواحي العمومي وقانون الدوائر البلدية وقوانين اصول المحاكمات المدنية وترتيب المحاكم وصورة ترقي الحكام وتقاعدهم ووظائف عموم المامورين وحق تقاعدهم وقوانين المطبوعات وديوان المحاسبات ولائحة قانون ميزانية السنة السابقة فمطلوبنا القطعي والحالة هذه مطالعة هذه القوانين بالتتابع والمذاكرة عليها واعطاء قراراتها وكما ان النظر عاجلا في اصلاحات وتنظيمات المحاكم والعساكر الضبطية اللتين هما الواسطة المستقلة لتأمين حقوق العموم من اهم ما يلزم فوضع ذلك في موقع الاجراء ايضا متوقف على توسيع مخصصاتهما المقررة وتزييدها ومن حيث ان ادارتنا المالية قد امست عرضة للعسر والمشاكل الكثيرة حسبما يتضح لديكم من الميزانية المعطاة إلى مجلسكم فاوصيكم ان تسعوا مهتمين بالاتفاق لتعيين التدابير التي تهدينا قبل كل شيء إلى التخلص من هذه المشاكل والى وسائل اعادة اعتبار ماليتنا ومن ثم لتعيين تلك التخصيصات التي تخرج هذه الاصلاحات المستعجلة إلى الفعل ولما كان ترقي الزراعة والصناعة اللتين هما من اعظم الاصلاحات والاحتياجات في ملكنا وتبعتنا وايصال المدنية والثروة إلى درجة الكمال موقوفا على قوة المعارف

والعلوم فستعطى بمنه تعالى إلى مجلسكم في اجتماع السنة الآتية لوائح القوانين المتعلقة باصلاح المكاتب وبتنظيم درجات لتحصيل وبما ان حصول تأثيرات احكام القوانين على الوجه الاتم سواء اكانت القوانين المذكورة اعلاه او القوانين التي توضع من الآن فصاعدا في موقع الاجراء يتوقف على وضع اقضية انتخاب ماموري الادارة تحت اهمية عظيمة فهيئة دولتنا ستمعن نظر التدقيق المخصوص في هذا المطلب وفي مطلب صورة مكافأة وحماية المأمورين المتصفين بالعفة والاستقامة اللتين ضمنهما القانون الاساسي وحيث كانت قضية انتخاب المامورين ذات بال واهمية لدينا اعتمدنا على تأسيس مكتب مخصوص تكون مصاريفه من خزينتنا الخاصة لمقصد الحصول على مامورين جديرين بالادارة العمومية على وجه ان تلامذته تقبل في ماموريات الادارة والسياسة "حتى الدرجة العليا ويدخل اليه من كل صنوف تبعتنا بدون استثناء مذهبي وترقيهم يكون بحسب درجة اهليتهم كما يتضح من نظامه الاساسي المعلن قبلا وقد وقع لدينا موقع التقدير والتحسين في صورة خارقة للعادة ما ابدته عموم تبعتنا الصادقة من آثار الحمية وما تحملته جنودنا من انواع المتاعب والمشاق المشفوعة بالغيرة والبسالة في اثناء الغوائل الداخلية التي تهورنا بها منذ عامين تقريبا ولا سيما في اثناء الحرب مع الصرب والجبل الاسود على ان تشبثاتنا المجردة لمحافظة حقوقنا في هذه الحوادث قد انتجت استحصال قرار مصلحة الصرب والمذاكرات الجارية مع الجبل الاسود وسيتحول لمطالعتكم في اجتماع مجلسكم المرة الاولى ما تتخذه من المعاملات بناء على تلك المذكرات فاوصيكم إذا بتعجيل قراراتها اما السلوك مع الدول المتحابة بالصداقة والرعاية لما كان من اهم المعاملات المالوفة والمعتنى بها لدى دولتنا فلم نزل اليوم حريصين على مراعاة هذه القاعدة الودادية ولما طلبت انكلترا منذ بضعة شهور عقد مؤتمر في مقر سعادتنا لاجل المسائل الحاضرة وروجت كافة الدول المعظمة ايضا اساسات هذا الطلب والاقتراح وافق بابنا العالي على عقده نعم انه لم يأت هذا الاجتماع باتفاق قطعي ولكن ما تأخرنا عن اثبات نوايانا الخالصة واظهارها باجراء ماثوراتهم ونصائحهم الموافقة لاحكام معاهدات الدول ولقواعد الملل وحقوقها ولمقتضيات احوالنا وحقوقنا المبرمة اما اسباب عدم الاتفاق فلم تكن في الاساس وانما بالاحرى كانت في صور الاجراءآت واشكالها لاستحساننا اساسيا لزوم ايصال الترقيات الكلية التي وقعت منذ بداية التنظيمات حتى الآن في احوال مملكتنا العمومية وفي ادارة كل شعبة من شعب دولتنا إلى حال اكمل ولم تزل مساعينا حتى اليوم مصروفة لهذا المقصد على ان وضيفتي التوقي من الاحوال التي تخل بشأن مملكتنا واستقلالها وقد تركت

اثبات صدق نيتي وسلامتها لدى الجميع إلى تمادي الايام والزمان اما النتائج التي ولدتها هذه الحال فقد افضت بي إلى زيادة التأسف وزوالها سريعا مما يكفل بكمال ممنونيتي على ان مقصدنا في جميع الاوقات مقصور على دوام السلوك في منهج المحافظة على استقلالية حقوقنا وسيكون هذا المسلك مركز النظر في تصرفاتنا الآتية واؤمل ان مآثر الاعتدال وحسن النية التي اظهرتهما دولتنا قبل انعقاد المؤتمر وبعده تتكفل "بمضاعفة حسن المعاشرة والمناسبات الودادية الرابطة سلطنتنا السنية بجمعية الدول الاوروباوية ونسأل حضرة الحق المتعال ان يجعل مساعينا جميعا مظهرا للتوفيق في كافة الاحوال.

فصل - الحرب الروسية العثمانية

"واقعة بلفنه وبعد تقهقر الروس امام بلفنه ووصول المدد من جميع الجهات امكن العثمانيين الهجوم بعد الاقتصار على الدفاع وانقسم الجيش إلى ثلاث فرق الاولى انضمت إلى عثمان باشا في بلفنه للدفاع عنها والثانية تحت امرة محمد علي باشا السردار الاكرم جعلت وجهتها محاربة الجيش القائد له البرنس اسكندر ولي عهد القيصر والثالثة تحت امرة سليمان باشا الذي اشتهر اولا في محاربة ثائري البوسنه والهرسك "واخيرا في محاربة الجبل الاسود ووجه اهتمامه لاسترداد مضايق شيبكا من ايدي الروس وكادت الفرقتان الاخيرتان تتم ماموريتهما فتتحد الجيوش العثمانية وتسير معا لارجاع الروس إلى التخوم وقهرهم على اجتياز نهر الطونه خائبين لولا خيانة دي هو هنزولرن امير رومانيا ومجيئه إلى ميدان القتال بنحو مائة الف مقاتل ملئت قلوبها غلا للدولة العلية صاحبة السيادة ومجيء قيصر الروس بنفسه لتشجيع العساكر على الحرب وبث روح الثبات والاقدام فيهم فانقلبت الحال ولم تجد العثمانيون انتصاراتهم المتعددة على الروس حوالي بلفنه وامام مضيق شيبكا لتوارد المدد يوميا من الروسيا ثم صمم الروس على محاصرة بلفنه محاصرة اصولية لتيقنهم من استحالة اخذها هجوما نظرا لمناعة المعاقل والحصون التي اقامها عثمان باشا حولها واناطوا هذه المامورية بالجنرال تودلبن الذي اشتهر بالدفاع عن مدينة سباستوبول في الحرب السابقة فجمعوا حولها العدد الكافي من العساكر والمدافع لاتمام حصارها والاحاطة بها احاطة السوار بالمعصم وبعد عدة وقائع تم حصارها في ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٧ وصار وصول المدد اليها مستحيلا وابتدأت الاعمال للاستيلاء على الحصون

الامامية واستمر القتال حولها ولا شيء يثني عثمان باشا وجيوشه عن الدفاع حتى نفذ ما كان عنده من الذخائر والمؤن فعزم على الخروج بجيوشه والمرور من وسط الاعداء فيسلموا ويسلم معهم او يموتوا شهداء الدفاع عن بيضة الاسلام ولما عقد على هذا العزم استعد لانفاذه حتى إذا كان يوم ١٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ اخلت العساكر العثمانية جميع القلاع المحيطة بالمدينة وخرجوا جميعا من جهة واحدة مهللين ومكبرين فقابلهم العدو بمقذوفاته الجهنمية اما لليوث العثمانية فل تعبأ بهم بل استمرت في سيرها عدوا نحو الاستحكامات التي كان اقامها الروس حول المدينة على ثلاثة خطوط متعاقبة ونفذوا كالسيل المنهمر من اعالي الجبال الذي لا يعوقه شيء في اندفاعه على مدافع الخط الاول والثاني وكادت تستولي على الخط الثالث وتتخلص من هذا الحصار وتفوز بالنصر المبين لولا ان اصيب قائدهم عثمان باشا الغازي برصاصة نفذت من ساقه الايسر وقتلت حصانه فسقط هذا الشجاع على الارض وظنت عساكره انه استشهد وبمجرد ما شاع خبر موته الغير حقيقي استولى الفشل على جميع الجنود وارادت الرجوع إلى المدينة وحيث كان قد احتلها الروس عقب خروجهم منها قابلهم "بالنيران من الخلف فصار العثمانيون بين نارين وبعد ان دافعوا عن انفسهم دفاعا شهد الاعداء بانه من خوارق الامور التزموا برفع الراية البيضاء علامة على التسليم فاوقف الروس اطلاق النيران وتقدم اللواء توفيق باشا رئيس اركان حرب الجيش العثماني القائد له عثمان باشا وطلب مقابلة القائد العام الروسي ولما قابله سأله عما إذا كان معه اذن بالكتابة من عثمان باشا يجيز له الاتفاق على التسليم فاجابه ان عثمان باشا جريح ويود لو اتى اليه احد قواد الروس للاتفاق معه فقبل القائد جانتسكي ذلك وارسل الجنرال استروكوف فتوجه هذا الجنرال إلى عثمان باشا في البيت الذي كان دخل فيه للاستراحة وقال له بعد التحية ان القائد الذي ارسله لا يمكنه ان يمنحه أي شرط ولا ان يقبل التسليم الا إذا القى العثمانيون اسلحتهم لعدم وجود اوامر عنده من القائد العام الغراندوك نيقولا اخي القيصر ولما اجابه عثمان باشا بالايجاب عاد الجنرال استروكوف إلى مرسله واخبره بذلك فاتى إلى مقر عثمان باشا وبعد ان هنأه على ما اتاه من الاعمال التي تشهد له بعلو المكانة وتخلد له اسما في التاريخ طلب اوامره إلى جيوشه بالقاء السلاح فامر بذلك ثم سلم سيفه وبعد ذلك اتى اليه بعربة فركبها قاصدا مدينة بلفنه وفي اثناء سيره قابله الغراندوك نيقولا ومعه البرنس شارل امير رومانيا فاوقف العربة وسلما عليه مصافحة وفي صبيحة اليوم الثاني توجه عثمان باشا الغازي متكئا على طبيبه الخاص إلى المحل الذي نزل به القيصر اسكندر الثاني بعد دخوله مدينة بلفنه لمقابلته وعندما دخل

على الامبراطور قام اجلالا له وسلم عليه واظهر له اعجابه من دفاعه ومحاولته الخروج من بين صفوف المدافع المحيطة به ثم قال له اني ارد اليك سيفك علامة على احترامي لك واكباري لجاعتك واجيز لك ان تحمله في بلادي وعند انصرافه سلم اليه الجنرال ماجور استين سيفه ثم عاد إلى منزله وفي ١٦ دسمبر انزل في قطار مخصوص إلى مدينة كركوف حيث امر بالاقامة إلى انتهاء الحرب ولنذكر هنا اظهارا لفضل عثمان باشا وجيوشه ان عدد من كان معه لا يزيد عن خمسين الفا ولم يكن معهم من "المدافع سوى ٧٧ مدفعا مع ان الجيش الروسي الذي خصص لحصار بلفنه بلغ ١٥٠٠٠٠ جندي و ٦٠٠ مدفعا ومن ذلك يظهر للقارئ شجاعة العثمانيين وثباتهم امام العدو ومما يؤثر عنهم ايضا انهم لم يسلموا اعلامهم مطلقا بل حرقوا بعضها ووضعوا البعض الآخر في صناديق من حديد ودفنوها في باطن الارض ومن قارن هذه الحادثة بحادثة مدينة متس التي سلمها المارشال الفرنساوي بازين للعدو مع ان جيوشه ومدافعه كانت تعادل او تزيد عن جيوش ومدافع العدو وسلمها مع ما فيها من الجيوش والمدافع بدون ان يسعى في الخروج كما فعل عثمان باشا يتحقق له انه لولا محاربة الدولة العلية البوسنه والهرسك والبلغار ثم الجبل الاسود والصرب قبل محاربتها الروسيا لفازت بلا شك ولا مرية في هذه الحرب الاخيرة ولكن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء.

"سقوط قارص

وفي اواخر شهر سبتمبر سنة ١٨٧٧ اتخذ الجنرال لوريس مليكوف خطة الهجوم ثانيا ولعدم ارسال جيوش جديدة إلى مختار باشا واستشهاد عدد كبير من جنوده في هذه الوقائع المستمرة لم يمكنه مقاومة الجيوش الروسية الجديدة التي لم يضنها التعب بل رجع القهقرى قاصدا مدينة ارضروم فتبعه القائد الروسي وهزمه في موقع يقال له آلاجه طاغ ثم حاصر مدينة قارص ثانيا وفتحها عنوة في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٧ بعد ان حاول من بها الخروج من وسط المدافع الروسية وغنم منها ثلاثمائة مدفع تقريبا اما مختار باشا بعد ان جاء لمساعدة قارص وانتصر عليه الاعداء في موقعة دوة بيون في ٤ نوفمبر عاد إلى ارضروم حيث حصره العدو ومنع وصول المدد اليه وبمجرد وصول خبر سقوط قارص في نوفمبر وبلفنه في ١٠ دسمبر ايقن الصربيون ان الفوز والنجاح سيكونان في جانب الروسيا ولم يتأخروا في اعلان الحرب على الدولة صاحبة السيادة عليهم التي لم ترتكب نحوهم اثما الا احترام دينهم ولغتهم واوصل هذا الاعلان إلى الباب العالي المسيو كريستين سفير الصرب في الاستانة في ١٤ دسمبر سنة ١٨٧٧ اعني بعد سقوط بلفنه باربعة ايام وسارت عساكرهم على الفور للانضمام إلى جيوش

الروسيا التي بعثهم إلى هذه الحرب اذ "ان البرنس ميلان لم يعلنها الا بعد ان تقابل مع امبراطور الروسيا واتفق معه على ما يعطي له بعد الحرب جزاء خيانته

وقابل الباب العالي هذا العدو الجديد مقابلة عدو منتظر من يوم لآخر

وفي ٢٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ ارسل الباب العالي لاهالي الصرب منشورا يظهر لهم فيه غدر حكومتهم وخيانتها وانها تسوقهم إلى الدمار والبوار بدون سبب مطلقا ويخبرهم بان جلالة السلطان متبوعه الاعظم قد امر بعزله من منصب الامارة جزاء عدم محافظته على العهود بعد ان عفت عنه الدولة اكثر من مرة فلم يعبأ البرنس بهذا العزل بل استمر على محاربة متبوعه إلى ان انتهت الحرب وثبت في وظيفته وزيدت امتيازاته بمساعدة الدول ومنح لقب ملك كما سترى ومن جهة اخرى فان امارة الجبل الاسود لم تتفق مع الباب العالي على الصلح قبل اعلان الروسيا الحرب كما ذكرنا ولذلك اشترك جيشها في القتال بكيفية كانت نتيجتها تعطيل جزء ليس بقليل من عساكر الدولة في محاربته وعدم امكان هذا الجزء محاربة الروسيا في جهات البلقان ومن ذلك يتضح للمطالع ما كان بين الجيشين المتحاربين من التفاوت هذا تساعده رومانيا والصرب والجبل الاسود جهارا وجميع المسيحيين التابعين للدولة العلية باوروبا سرا والدول تتمنى له النجاح والفلاح وذلك بمفرده لا مساعد ولا صديق وجيوشه اضناها التعب والنصب في محاربة الامارات والولايات المسيحية التي ثارت قبل الحرب اطاعة للدسائس الخارجية ومع هذه المميزات فقد فازت الجيوش العثمانية اكثر من مرة ودافعت دفاعا اضطر العدو قبل الصديق إلى الاقرار بشجاعتها والاعتراف بثباتها في واقعة بلفنه وغيرها مما يعد منها ولا تعد ما يكفي لقطع لسان كل مكابر خوان ولما توالت الحوادث المذكورة طلب الباب العالي من الدول التوسط بينه وبين الروسيا لابرام الصلح وحقن دماء العباد وارسل بذلك منشورا إلى الدول الست العظام فلم يرد له جواب شاف بل كانت كل منها تود انكسار الدولة تماما قبل التدخل في الصلح حتى يمكنها التهام قطعة من املاكها نظير توسطها وبعد ذلك استمر القتال في قلب الشتاء بدون انقطاع رغما عن تكاثر الثلج وصعوبة مرور المدافع وبسبب سقوط مدينة بلفنه وخلو الجيوش الروسية التي كانت "محاصرة لها من الاشغال وجهت جميع جيوشها إلى ما وراء جبال البلقان للاغارة على بلاد البلغار والروملي الشرقية واحتلال مدائنها الحصينة بمساعدة الجيش الصربي

فاجتاز الجنرال جوركو جبال البلقان ودخل مدينة صوفيا عاصمة البلقان في ٤ يناير سنة ١٨٧٨ ثم احتل مدينة فليبه في مساء ١٥ من هذا الشهر واخيرا دخلت مقدمة فرقة الجنرال سكوبلف مدينة ادرنة في ٢٠ منه ومنها سار الروس نحو الاستانة وتقدموا بدون ان يجدوا معارضة تذكر إلى مسافة خمسين كيلومترا فقط من عاصمة الخلافة العظمى وفي هذه الاثناء كان اهالي الجبل الاسود قد احتلوا مدينة انتيباري ووصلوا إلى ضواحي اشقودره ودخل الصربيون مدينة نيش ولذلك لم تر الدولة العلية بدا من طلب الصلح وقبول ما يطلبه العدو لعدم قدرتها على استمرار القتال وتبديد جيوشها ووصول العدو إلى ضواحي الاستانة وحيث قد انتهينا من ذكر الوقائع الحربية بغاية الايجاز فلنشرح الآن ما جرى بين الطرفين المتحاربين والدول من المخابرات السياسية تاركين شرح تفصيلات هذه الحرب بحذافيرها إلى حضرات الضباط المصريين الافاضل الذين رافقوا المرحوم حسن باشا وحضروا اغلب وقائعها وعلموا اسباب انتصار الروس العسكرية وغيرها واننا نرجو انهم لا يعدموننا ذلك وكلهم من الفضلاء النبلاء الذين يمكنهم بيان ما لا يمكننا ذكره لعدم خبرتنا في الامور العسكرية ويكونون بذلك قد قاموا بخدمة عظيمة نحو الملة الاسلامية عموما اما ما تحمله المسلمون من انواع الايذاء والتعدي من قبل البلغاريين بمجرد سماعهم باقتراب الجيوش الروسية فمما يعجز القلم عن وصفه ولذا هاجر اغلب المسلمين إلى الاستانة هربا مما كانوا ينتظرونه ووقع فيه فريق منهم من النهب والقتل "وتركوا املاكهم وامتعتهم قاصدين ملجأ الخلافة الاسلامية افواجا حتى غصت شوارع الاستانة بهم واعيت الحكومة الحيلة في تقديم ما يلزم لها من الملبس والمأكل والوقود في هذا الشتاء القارس ولذلك تشكلت عدة جمعيات لمساعتهم فجمعت اموالا طائلة من جميع الاهالي مع اختلاف اديانهم ومذاهبهم ولم يلبس هؤلاء المساكين ان اصيبوا بداء التيفوس فمات كثير منهم ولولا اسراع الدولة في ابرام الصلح وتوزيعهم على ولايات الاناطول لهلكوا عن آخرهم اذ انهم كانوا يؤثرون الموت على العودة إلى بلادهم التي احتلها الروس وساد فيها المسيحيون وكان ذلك منتهى امل الروسيا التي كانت تود مهاجرة المسلمين عن جميع الولايات المصممة على منحها الاستقلال.

"[احتلال انكلترا لجزيرة قبرص]

لكنها مع ذلك لم تكن مطمئنة البال مرتاحة البلبال من قوة الروسيا بل لم تزل تخشى تقدمها نحو الاستانة مرة اخرى او نحو بلاد الاناطول فتمتلك منابع نهري الفرات والدجلة ثم تسير شيئا فشيئا إلى الجنوب متبعة مجرى هذين النهرين العظيمين فتصل إلى بغداد فالبصرة فخليج فارس الموصل لبحر الهند ولذلك ظهرت للدولة العلية في مظهر الصديق المخلص وكتبت إلى المسيو ليارد سفيرها بالاستانة في اعمال الفكرة للوصول إلى اقناع الباب العالي بوجوب ابرام معاهدة دفاعية مع حكومة انكلترا لصد الروسيا لو تقدمت نحو بلاد الاناطول ويتعهد الباب العالي لحكومة جلالة الملكة باجراء الاصلاحات اللازمة لتحسين حال المسيحيين بهذه الجهات حتى لا يميلوا للروسيا ولا يقبلوا عساكرها بصفة منقذين كما حصل في بلاد البلغار وان تسمح الدولة العلية لانكلترا باحتلال جزيرة قبرص وادارة شؤونها لتكون على مقربة من حدود الروسيا ويتسنى لها صد هجماتها لو مست الحاجة وتعدت الجيوش الروسية الحدود التي ستحدد لها في مؤتمر برلين المزمع انعقاده قريبا فقام المستر لايارد بهذه المامورية وربما كانت ابتدأت المخابرات بهذا الشأن قبل ذلك حتى لم يأت يوم ٤ يونيو سنة ١٨٧٨ الذي تولى فيه صفوت باشا منصب الصدارة العظمى كما مر في موضعه الا وتم الاتفاق على هذه المعاهدة الدفاعية وقبل الباب العالي تسليم انكلترا جزيرة قبرص غنيمة باردة اعتمادا على وعد هيهات ان تقوم به انكلترا لو دعت الضرورة الا ان وجود الاضطراب بالاستانة والخوف من احتلال الروس وظروف الحال هونت على الدولة قبول هذا الاقتراح وتضحية هذه الجزيرة رغبة في حفظ باقي املاكها وتعديل معاهدة سان اسطفانوس بكيفية ارجح لصالحها اما صالح انكلترا في احتلال هذه الجزيرة فظاهر لمن له اقل اطلاع على المجريات "السياسية وسياسة انكلترا الاستعمارية وعلى موقع الجزيرة المذكورة فلا يخفى ان الهند بالنسبة لانكلترا بمنزلة الروح من الجسد وسياستها دائرة على حفظ هذه المستعمرة من التعدي وحفظ الطرق المؤدية لها فباحتلالها اقليم راس الرجاء الصالح في طرف افريقيا الجنوبي صارت آمنة على هذا الطريق وان كانت بعيدة لكن لما كانت طريق مصر والسويس اخصر الطرق الموصلة لهندها العزيزة احتلت بوغاز جبل طارق فسادت على الجزء الغربي من البحر الابيض المتوسط ثم باحتلالها جزيرة مالطة سادت على الجزء الاوسط منه وكان إذا من المحتم عليها احتلال احدى النقط المهمة في شرق هذا البحر لتسود عليه من جميع اطرافه وتجعله بحيرة انكليزية ولما رأت ارتباك الدولة العلية بعد هذه الحرب التي كان يمكن لدول

اوروبا منعها لو اتبعوا نصوص معاهدة باريس وكانوا لها مخلصين ارادت انتهاز هذه الفرصة العديمة المثال لاخذ هذه الجزيرة لتكون على مقربة من بوغاز السويس واسكندرية مصر من جهة ولميناء اسكندرونه التي في عزمها انشاء خط حديدي منها إلى خليج فارس لتنقيص المسافة بينها وبين مستعمراتها الهندية من جهة اخرى وقد تم لها ذلك بحسن سياستها وحذق رجالها واحتياج الدولة لمساعدتها في هذه الظروف الخطيرة ولم تحدد انكلترا في هذا الاتفاق ميعاد لجلائها عنها ثم في اول يوليو اثناء انعقاد مؤتمر برلين اتفقت انكلترا مع الباب العالي على اضافة ذيل إلى اتفاق ٤ يونيو يبين فيه كيفية ادارة الجزيرة والخراج الذي يدفع عنها وحددت اجل خروجها منها تحديدا جعلت به احتلالها ابديا اذ انها علقت خروجها منها على خروج الروسيا من مدينتي باطوم وقارص اللتين اضيفتا إلى املاك الروسيا اضافة قطيعة فصار احتلال قبرص بذلك احتلالا قطعيا ومع ذلك أي ضمان لدى الدولة العلية على خروج الانكليز من قبرص لو اخلت الروسيا هاتين المدينتين او احداهما مع استحالة ذلك تقريبا واليك نص معاهدة ٤ يونيو سنة ١٨٧٨ نقلا عن مجموعة الجوائب

لما كان كل من ملكة مملكة بريطانيا وارلانده المتحدة وامبراطورة الهند وجناب السلطان المعظم متصفين بينهما بالمقاصد الودادية لاحكام وتوسيع العلاقة الحبية الكائنة الآن بين السلطنتين جزما بعقد معاهدة دفاعية لتأمين الاراضي في آسيا الاناطول "فيما بعد التي تخص الحضرة العلية السلطانية وبناء على هذه الغاية انتخبا وعينا المرخصين الآتي بيانهما عينت ملكة مملكة بريطانيا وارلانده المتحدة وامبراطورة الهند حضرة الانورابل وستين هنري ليارد سفيرها الاعلى لدى الباب العالي وعينت الحضرة العلية السلطانية حضرة دولتلو صفوت باشا ناظر الخارجية للدولة العلية وبعد ان اظهر كل منهما المحررات المرخصة لهما في اجراء هذه المصلحة ووجدت مطابقة للاصول اتفقا على المواد الآتية المادة الاولى إذا كانت الروسيا تستولي على باطوم او اردهان او قارص او احداها وارادت بعد ذلك ان تستولي على بعض الاراضي الكائنة في آسيا التابعة للحضرة السلطانية كما تقرر امرها في المعاهدة الصلحية الباتة فان انكلترا تتعهد بأن تتحد مع الحضرة العلية السلطانية لحماية تلك الاراضي بقوة السلاح وفي مقابلة ذلك تعد الحضرة السلطانية انكلترا بأن تجري في ممالكها الاصلاحات اللازمة التي سيحصل الاتفاق بعد هذا بينهما على كيفية اجرائها وان تحمي المسيحيين وغيرهم من رعيتها القاطنين في بلادها ولغاية تمكين انكلترا من اتخاذ الوسائط والتدابير اللازمة لاجراء ما تعهد به رضي السلطان المعظم بأن انكلترا تستولي على جزيرة قبرص وتدير امورها المادة الثانية تجديد امضاء

هذه المعاهدة من طرف الدولتين المذكورتين يكون بعد تاريخ امضاء هذا بشهر واحد او اقل إذا امكن وقد صار امضاء هذه المعاهدة وختمها في قسطنطينية في الرابع من شهر جون الافرنكي من سنة ١٨٧٨ الامضاء اليارد صفوت قد حصل الاتفاق بين كل من الانورابل سراوستن هنري ليارد وحضرة فخامتلو دولتلو صفوت باشا الصدر الاعظم للحضرة العلية السلطانية حالة كونهما مرخصين من دولتهما على تذييل المعاهدة المذكورة التي امضيت في ٤ جون سنة ١٨٧٨ صار من المعلوم بين الدولتين المذكورتين بأن دولة انكلترا رضيت بالشروط "الآتية فيما يتعلق بالاستيلاء على قبرص وادارتها

اولا يبقى في الجزيرة محكمة شرعية يناط لعهدتها النظر في متعلقات المصالح الدينية التي تخص مسلمي الجزيرة لا غير

ثانيا ان نظارة الاوقاف بالاستانة تعين احد المامورين المسلمين ليقيم في الجزيرة لينظر باتفاقه مع مامور تعينه دولة انكلترا على ادارة الاملاك والعقارات والجوامع والمساجد والمقابر والمدارس والمكاتب وغيرها من الادارة الدينية في الجزيرة

ثالثا ان دولة انكلترا تدفع إلى الباب العالي الزائد من ايراد الجزيرة بعد اداء مصاريفها وهذه الزيادة تعتبر بمناسبة الزيادة التي يتحصلت في الجزيرة في السنين الخمس الماضية وقدرها سنوي ٢٢ ٩٣٦ كيسا ١١٤ ٦٨٠ ليرة عثمانية وبعد هذا يبالغ في تحقيقها ويستثنى من ذلك ايراد الاملاك الميرية التي تباع او تؤجر في المدة المذكورة

رابعا يسوغ للباب العالي ان يبيع او يؤجر بدون مانع الاملاك او الاراضي وغيرها من العقارات التي هي املاك ميرية او املاك همايونية التي ايرادها غير داخل ضمن ايراد الجزيرة

خامسا يسوغ لماموري دولة انكلترا في الجزيرة ان يشتروا جبرا باسعار مناسبة الاراضي اوالاملاك التي يرون شراءها لازما لاجراء اشغال نافعة

سادسا إذا كانت الروسيا تعيد إلى تركيا قارص او بقية الجهات التي انتصرت علهيا ودخلت في حوزتها في ارمينيا في الحرب الاخيرة تخلي انكلترا جزيرة قبرص فتكون المعاهدة المذكورة الممضاة في ٤ جون منسوخة وملغاة الاجراء تحريرا في قسطنطينية في ١ جولاي تموز سنة ١٨٧٨ الامضاء اليارد صفوت ومن الغريب ان خبر هذه المعاهدة لم يشع الا في ٧ يوليو لما اشرفت اعمال مؤتمر برلين على النهاية وكتمت انكلترا خبرها بكل اجتهاد ولم تعرضها على البرلمان الا بعد ان تحققت ان العلم بها اصبح لا يضر بسير مداولات المؤتمر ولا يتيسر لمندوبي الدول الاعتراض عليها خوفا من انفصام عرى المؤتمر ورجوع الامور إلى ما كانت "عليه من الشدة واقتراب الحرب.

"[الدستور العثماني]

النهضة الوطنية والاصلاحات في الدولة العلية

توفي السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦ م والدولة العلية في ابان مجدها واوج عظمتها وكانت ممالكها تحد شرقا بالحدود الهندية وغربا بالمحيط الاطلانطي وكانت اوروبا ترهب سطوته وتخشى قوته تخلفه من بعده ملوك لم يتعقبوا خطواته ولم ينهجوا منهجه لا سيما وقد تألبت عليها الدول الاوروبية واختلفت عليها الفتن الداخلية فبدأت في الانحطاط وانسلخت منها اجزاء كثيرة وكانت احيانا تنحط إلى ان تولى الخلافة السلطان سليم الثالث سنة ١٧٨٩ والبلاد في اختلال والاحكام في ضعف والانكشارية قابضون على زمام الامور يولون من شاؤوا من السلاطين ويخلعون من شاؤوا ويقتلون من لم يسر وفاق اهوائهم واغراضهم والبلاد في فوضى كادت تمزق شملها فهاجه حب الاصلاح وصرح بميله إلى تنظيم الجند على النمط الحديث وتسليحهم بالاسلحة الحديثة الاختراع فلم يوافق ذلك الانكشارية فبطشوا به فمات والاصلاح في مهده

على ان الفكرة رسخت في اذهان العثمانيين فتلقاها السلطان محمود وعمد إلى الاصلاح من الوجهة الادارية والعسكرية فبدد جند الانكشارية واحل محلهم جيشا منظما واخذ يبعث بمنشورات الاصلاح إلى الولاة والحكام ولكنه توفي ولم يتمم من فروع الاصلاح الا تنظيم الجند تنظيما غير تام وكانت فكرة الاصلاح قد سرت بين فئة من رجال الدولة فاقاموا يبثونها على عهد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز واعظمهم شأنا واعلاهم يدا مصطفى.

"القانون الاساسي والسلطان عبد الحميد خلع السلطان مراد سنة ١٢٩٣ هجرية الموافق ١٨٧٦ م وجلس السلطان عبد الحميد على عرش الخلافة وكان قد وعد رئيس الاحرار مدحت باشا قبل جلوسه على العرش بمنح القانون الاساسي وامتاع الامة العثمانية بالحرية الا ان عبد الحميد اظهر حين جلوسه علامات دلت على اخلافه وعده فمن ذلك انه جمع اعداء الاحرار واضداد القانون الاساسي وعينهم في السراي لتقوية مركزه مع انه وعد مدحت باشا بتعيين الشاعر العثماني الكبير نامق كمال بك زعيم الانقلاب باشكاتبا وضياء باشا الاديب السياسي الشهير مشيرا للمابين فاخلف وعده كما انه كان يسعى جهده لاستمالة الرأي العام اليه فكان يخدع الاهالي الا ان الاحرار لم يتخدعوا واستعدوا للمناضلة في سبيل القانون الاساسي وكانت الدولة في ذلك الوقت تحارب الصرب فهزمتها واستولى العثمانيون على قلعة اكسناج فطلب امير الصرب توسط الدول فراجعت الباب العالي بعد ان قررت وقف الحرب لمدة بموافقة الباب العالي وقد اشترط الباب العالي شروط لعقد الصلح مجملها ان يحضر امير الصرب إلى الاستانة ويعرض طاعته على السلطان والا تجند الصرب اكثر من ١٠٠٠٠ جنديا وان تحتل الجنود العثمانية القلاع الصربية كلها وان تهدم جميع الاستحكامات المقامة في ميدان القتال وان تدفع الصرب التعويضات الحربية وان يقوم بانشاء الخطوط الحديدية في الصرب شركات عثمانية بموافقة الباب العالي "ولكن هذه الدول رفضت هذه الشروط وطلبت من الباب العالي ابقاء الصرب على ما كانت عليه قبل الحرب ومنح البوسنه والهرسك التي كانت ثائرة ايضا ادارة مستقلة مع منح البلغار مثلها فكان ذلك سببا لطمع الصربيين فقرروا محاربة الدولة ونظم جيوشهم المهندسون الروسيون ولكن كان الانهزام نصيبهم فاستولى العثمانيون على الكسناج ودلغراد وساروا نحوالعاصمة بلغراد فاستنجد امير الصرب بالروسيا فامر قيصرها سفيره في الاستانة بتقديم بلاغ شديد اللهجة إلى الباب العالي وقررت بعد ذلك عقد مؤتمر في الاستانة للنظر في امر البلقان وبالجملة فقد

كان مركز الدولة العلية حرجا للغالية لان اوروبا كلها تألبت عليها وكان يشتم من بلاغ سفير الروسيا رائحة الحرب فقرر الوكلاء اذ ذاك منح القانون الاساسي للتخلص من هذه الغوائل واقتنع السلطان عبد الحميد بوجوب تنفيذه لانه كان من المستحيل قبول طلبات اوروبا ولاتقاء الاخطار التي تنجم من رفض تلك الطلبات كان الواجب اجراء بعض الاصلاحات والاصلاح الذي لا تمكن اوروبا من انتقاده هو تنفيذ القانون الاساسي وفي ذلك الوقت تعين مدحت باشا صدرا اعظم وذلك لان الدول الاوروبية كلها تثق به لعلمها انه رئيس الاحرار وواضع القانون الاساسي وقرر السلطان عبد الحميد تعيين مدحت باشا كي ينظر في مسألة المؤتمر الاوروبي الذي قررت الدول عقده في الاستانة فكان اول ما قام به مدحت باشا هو انهاء المنازعات بين الدولة وبين الصرب والجبل الاسود وبلغاريا فتمكن من انهائها في زمن قصير وبدأ يسعى جهده لاعلان القانون الاساسي في الساعة التي سيجتمع فيها المؤتمر الدولي في الاستانة وفي اليوم السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٥ ٢٤ دسمبر ١٨٧٧ اجتمع الوكلاء والعلماء والامراء وغيرهم في الباب العالي ثم اقبل مدحت باشا وقرأ الارادة الشاهانية التي منحت الامة العثمانية الدستور والحرية فهتفوا له جميعا وحياه العثمانيون من صميم قلوبهم واذ ذاك اطلقت القنابل تحية للقانون الاساسي وكان "اعضاء المؤتمر الدولي مجتمعين في الطوبخانة وبينما كانوا يتباحثون في النقط التي سيتناقشون فيها سمعوا القنابل وهي تدوي فقام صفوت باشا ناظر الخارجية وقال للاعضاء ان الامة العثمانية قد نالت مطالبها الشرعية وهي تتمتع بحريتها الشرعية فلا لزوم لهذا الاجتماع بعد هذا الانقلاب فوجم الجميع وظلوا ساكتين فطلب سفير الروسيا المناقشة في الموضوع ولكن المندوبين العثمانيين انسحبا وخرجا وقد قام العثمانيون بمظاهرة ضد اجتماع المؤتمر الدولي وطلبوا الحرب

اجتماع مجلس المبعوثين الاول

اجتمع مجلس المبعوثين لاول مرة سنة ١٨٧٧ م في سراي طولمه باغجة وافتتحه السلطان عبد الحميد بخطابة مطولة بحث فيها بعد مقدمة تاريخية عن الامتيازات التي منحت للعناصر غير المسلمة ثم القروض التي عقدت بعد حرب القرم ثم الاختلالات المالية التي حدثت اثناء حكم السلطان عبد العزيز في عصيان البوسنة والهرسك ثم وجوب منح القانون الاساسي لتخليص الدولة من الاضمحلال والانقراض ثم قال عليكم ايها الاعضاء هذه السنة ان تضعوا النتظامات الداخلية للمجلس وقانون

الانتخاب وقوانين ادارة الولايات والنواحي وقانون البلدية وقانون البلدية واصول المحاكمات المدنية وقانون ترقية الموظفين وقانون المطبوعات وديوان المحاسبات والتدقيق في الميزانية على انه لم يكد ينتظم مجلس المبعوثين وينظر في شؤون الدولة حتى صدرت الارادة الشاهانية بفضه فتقوضت كل اركان ذلك البناء وابتليت الامة بطور استبداد جديد لم تعهد نظيره حتى في عصور الظلمات هدم السلطان عبد الحميد ما بناه الاحرار ولكن رغما من ذلك لم تمت الفكرة في رؤوس العثمانيين فان هذا الجسم على قوته الكامنة بل على ضعفه الظاهر لم يقو على تحمل اذى الحكومة الحميدية بما انتابته من ضروب الظلم لا سيما والوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من اقصى المغرب إلى اقصى المشرق وكواكب الحرية قد سطعت في كل مكان "فبدأ الاحرار يعملون ليل نهار حتى انتصروا ذلك الانتصار الباهر عام ١٩٠٨ فنالت الامة العثمانية الدستور بجهاد جيشها الباسل

انتشرت الفكرة الوطنية من عهد مدحت باشا وساعد على انتشارها قصائد الشاعر العظيم نامق كمال بك الذي ادركه الموت في سجن ماغوسه الف نيازي بك اول عصابة في رسنة وسار على اثره انور بك ورائف بك وحسن بك وصلاح الدين بك اما ادارة الحركة فكانت في سلانيك والجمعية العمومية للاتحاد والترقي في باريس وكان الجميع يجتهدون لنشر الافكار الحرة والمبادئ الدستورية ومما ساعدهم على نشر افكارهم انه لم يكن بينهم خائن فقويت حركتهم واتسعت حتى اصبح لا يمكن بقاؤها تحت طي الخفاء وكانت لجنة الاتحاد والترقي وقفت مقدما على القوى التي يمكنها ان ترتكن عليها فوجدتها كافية وهذه القوى مؤلفة من الفيلقين الثاني والثالث المعسكرين في مناستر واسكوب وادرنه وازمير ومن الفيلق الرابع المعسكر في ارض روم فكان من المستحيل على الحكومة الحميدية ارسال الفيلق الاول المعسكر في الاستانة لمحاربة الدستوريين لانه لا يمكن تجريد العاصمة من الجند ومع ذلك فكان اغلب الضباط منضمين إلى الدستوريين وكان جنود الفيلق الثاني والثالث اكثر من غيرهما فبدأ الدستوريون يؤلفون عصابات وطنية لمقاومة الحكومة إذا حاولت عرقلة مساعيهم فقامت عصابة نيازي بك ثم ظهرت عصابة انور بك ورائف بك وحسن بك وغيرهم وانتهى الدستوريون من وضع الخطة في اواخر شهر يونيو سنة ١٩٠٨ فأرسلت الحكومة الحميدية شمسي باشا لاقتفاء اثر عصابة نيازي بك ولكنه قتل قبل ان يبدأ في مهمته وارسلت ايضا من ازمير ثلاثين فرقة من فرق الرديف فانضمت إلى الدستوريين وقوت صفوفهم "

وفي يوم ٢١ و ٢٢ و ٢٣ يوليه ارسل الدستوريون التلغرافات إلى الصدر الاعظم من سالونيك ومناستر واسكوب وسيريس هددوا فيها الاستانة بالزحف عليها إذا لم يعلن الدستور فلما وصلت هذه التلغرافات إلى السلطان عبد الحميد اصدر الارادة الشاهانية بمنح الدستور والقانون الاساسي

الحادثة الارتجاعية وخلع عبد الحميد

تفرق شمل المستبدين منذ اعلان الدستور وازداد النفور بينهم وبين لجنة الاتحاد والترقي فأخذوا يفكرون في اجتثاث اصول الفساد الذي يزعمونه فشجعوا اولا الجرائد على الكتابة ضد الجمعية ثم قامت حامية الاستانة بايعاز من اركان السراي ولخصوا مطالبهم في شكل ديني كي ينضم اليهم اهالي الاستانة وها هي مطالبهم ١ احياء الشريعة ٢ عزل الصدر الاعظم وناظري الحربية والبحرية ٣ طرد احمد رضا بك وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك وطلعت واسماعيل حقي بك الخ من المجلس ٤ عزل محمود مختار باشا لانه لم يشترك معهم ٥ العفو عنهم فعقد مجلس المبعوثين اجتماعا فوق العادة ومع ان عدد الاعضاء لم يتجاوز الخمسين فانهم قرروا اجابة مطالب الثوار وانتخبوا وفدا منهم ليبلغ السلطان قرارهم فتعين اذ ذاك توفيق باشا صدرا اعظم وادهم باشا ناظرا للحربية وقرر العفو عن الجنود فبدأ اولئك يطلقون البنادق احتفالا وكان يبلغ عدد اولئك ثلاثين الفا واجتمع المجلس مرة اخرى بعدها فقرر قبول استقالة الرئيس احمد رضا بك وانقلبت لهجة الجرائد انقلابا اجباريا فباتت تتكلم عن السلطان عبد الحميد كما كانت تتكلم عنه ايام الاستبداد وكانت الحالة كذلك في الاستانة فوردت الانباء بمجيء الجنود من الروم ايلي "لحماية الدستور ومجلس المبعوثين ثم حاصر جيش الحرية الاستانة فاوفد المبعوثون وفدا لمقابلته ودخل الجيش تحت قيادة محمود شوكت باشا الاستانة وحاصر يلديز وحدثت هناك موقعة كبيرة انتهت بتسليم حامية يلديز ولكن السلطان عبد الحميد استمر على المقاومة فقرر جيش الحرية ان يحمل الحملة الاخيرة فاطلقت القنابل على حامية الباب العالي والنادي العسكري واستولت عليهما ثم قبضت على الكثيرين من انصار الحكم القديم الذين اثاروا الفتن ومن بينهم مراد بك الداغستاني واعدم الجواسيس رميا بالرصاص ويقدر عدد القتلى ١٢٠٠ قتيل وحاصرت الجنود الدستورية بعدها قشلاقات اسكودار فاستولت عليها ولم يبق اذ ذاك أي خطر على القانون الاساسي فعاد اعضاء البرلمان إلى الاستانة واجتمعت الجمعية العمومية لتتداول في امر السلطان عبد الحميد

وكانت النتيجة عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان رشاد مكانه وتم يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ تتويج السلطان رشاد باسم السلطان محمد الخامس وبالجملة فان انصار الاستبداد اثاروا فتنتهم الاخيرة فوقع الدستور في ازمة شديدة وتشتت شمل عشاقه وحماته وترقب الملأ ان يعيد السلطان عبد الحميد ما فعله مع الدستور الاول ولكن كانت الروح الدستورية قد قويت في قلوب العثمانيين وارتكزت على قوة الجند فاحتمل انصار الدستور تلك الضربة بالصبر والثبات وتجدد النزاع الطبيعي بين الاستبداد والحرية وانتهى بخلع السلطان عبد الحميد.

فصل - [ذكر السلطان محمد الخامس]

ولد سنة ١٨٤٤ م وقد قضى اغلب عمره في قصر زنجيرلي كوي محوطا بالجواسيس الذين يرصدون حركاته ويقدمون التقارير المشوهة عنه فظل كذلك إلى حين حدوث الانقلاب العثماني وتخلص مع الشعب العثماني وتخلص من الاستبداد والمراقبة اذ زالت دولة الجواسيس وشل عرش الاستبداد الا ان عبد الحميد الذي طبع على الاستبداد لم يرقه ان يرى امته متمتعة بالحرية راقية اوج الكمالات منظمة امورها بنفسها مقيمة العدل فسولت له نفسه احداث تلك الفتنة الارتجاعية لتقويض صروح الادارة الدستورية ولولا ان ادرك الاستانة في ذلك الوقت بطل الحرية وقائد جيش الفدائيين محمود شوكت باشا وبطلا الحرية نيازي بك وانور بك لتم له ما اراده ولذهبت اتعاب حزب الاتحاد والترقي الذي جاهد في سبيل الحرية ثلاثين عاما ادراج الرياح اجتمع المجلس العمومي اجتماعا سريا وخلع عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الاسلام هذا نصها إذا اعتاد زيد الذي هو امام المسلمين ان يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وان يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وان يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي وان يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر انواع المظالم ثم ادعى انه تاب وعاهد الله وحلف انه يصلح حاله ثم حنث واحدث فتنة عظيمة جعلت امور المسلمين كلها مختلة واصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من ازالة تغلب زيد المذكور ووردت اخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين انهم يعتبرونه مخلوعا واصبح بقاؤه "محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح فهل يجب احد الامرين خلعه او تكليفه بالتنازل عن الامامة والسلطنة على حسب ما يختاره اهل الحل والعقد واولي الامر

من هذين الوجهين الجواب يجب كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفى عنه فلما قرئت هذه الفتوى الجليلة على الاعيان والمبعوثين سألهم سعيد باشا رئيس الاعيان الذي كان يرأس الجلسة اتختارون خلعه ام تكليفه بالتنازل فاجابوا بصوت واحد الخلع الخلع

وهذه ترجمة قرار هذا المجلس العمومي المؤلف من الاعيان والمبعوثين

يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ و ١٤ نيسان سنة ١٣٢٥ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ م الساعة السادسة ونصف عربي الواحدة بعد الظهر زوالي قرئت الفتوى الشرعية الموقع عليها بتوقيع شيخ الاسلام محمد ضياء الدين افندي في المجلس العمومي المؤلف من المبعوثين والاعيان ورجح بالاتفاق وجه الخلع الذي هو احد الوجهين المخير بينهما فاسقط السلطان عبد الحميد خان من الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية واصعد ولي العهد محمد رشاد افندي باسم السلطان محمد خان الخامس إلى مقام الخلافة والسلطنة خلع عبد الحميد سنة ١٩٠٩ فبويع بالخلافة الاسلامية الخليفة الشوري العادل امير المؤمنين محمد رشاد الخامس فلما ولي الخلافة اعاد اليها عهد عمر بن عبد العزيز اذ سار في المؤمنين سيرته فكان من كل قلب قاب قوسين او ادنى وعمل على خدمة الامة فاعزته واخذ بيدها فاحبته واجلها فاجلته وكانت الكلمة التي امتاز بها عهده السعيد تلك التي قالها على مسمع من وزرائه اننا جميعا خدام الشعب ولم يمض على توليته الخلافة الا قليل حتى الف بين قلوب الامة.

خاتمة - وبعد الانتهاء من سيرة الدول الإسلامية وتواريخها وأخبارها نختم القسم الثالث في كتابنا والمخصص للدول الإسلامية وذكرت ما استطعت ان اذكره وحاولت تقصير المواضيع والأحداث وتلخيصها قدر المستطاع وذكرت ما استطعت ان اذكر من الدول الإسلامية في الفترات العباسية.

ونسأل الله التوفيق وننتقل الى آخر الاقسام في كتابنا المتواضع ، وهو قسم ما بعد نهاية الخلافة الى الوقت الحالي ٢٠٢٥م - ١٤٤٧هـ ثم في نفس القسم ننتقل إلى ذكر الأحداث النهائية للعالم وعلامات الساعة بإذن الله

الْقِسْمُ الرَّابِعِ

مَا بَعْدَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْوَقْتِ الْحَدِيثِ ثُمَّ قِيَامِ السَّاعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم نصل إلى آخر المحطات في كتابنا وهو الفصل الرابع ما بعد الخلافة وثم علامات الساعة بإذن الله ، وسنذكر ما نستطيع أن نذكره ونحاول ان لا نطيل المواضيع.

وعلى بركة الله نبدأ

فصل - [ذكر أتاتورك وإلغاء الخلافة]

"وبعد انتصارات مصطفى كمال انتخبته الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا شرعيًا للحكومة، فأرسل مبعوثه "عصمت باشا" إلى بريطانيا (1340هـ = 1921م) لمفاوضة الإنجليز على استقلال تركيا، فوضع اللورد كيرزون – وزير خارجية بريطانيا – شروطه على هذا الاستقلال وهي: أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامي، وأن تلغي الخلافة الإسلامية، وأن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة، وأن تختار تركيا لها دستورا مدنيًا بدلاً من الدستور العثماني المستمدة أحكامه من الشريعة الإسلامية.

نفذ أتاتورك ما أملته عليه بريطانيا، واختارت تركيا دستور سويسرا المدني، وفي (ربيع أول 1341هـ = نوفمبر 1922م) نجح في إلغاء السلطنة، وفصلها عن الخلافة، وبذلك لم يعد الخليفة يتمتع بسلطات دنيوية أو روحية، وفرض أتاتورك آرائه بالإرهاب رغم المعارضة العلنية له، فنشر أجواء من الرعب والاضطهاد لمعارضيه، واستغل أزمة وزارية أسندت خلالها الجمعية الوطنية له تشكيل حكومة، فاستغل ذلك وجعل نفسه أول رئيس للجمهورية التركية في (18ربيع أول 1342هـ = 29 أكتوبر 1923م) وأصبح سيد الموقف في البلاد.

وفي (27 رجب 1342هـ = 3 مارس 1924م) ألغى مصطفى كمال الملقب بأتاتورك الخلافة العثمانية، وطرد الخليفة وأسرته من البلاد، وألغى وزارتي الأوقاف والمحاكم الشرعية، وحوّل المدارس الدينية إلى مدنية، وأعلن أن تركيا دولة علمانية، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحوّل مسجد آيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وجعل الأذان باللغة التركية، واستخدم الأبجدية اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأبجدية العربية. وكانت هذه الإجراءات المتتابعة منذ إسقاط الخلافة تهدف إلى قطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي بل وصلتها بالإسلام، ولم يقبل المسلمون قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة، حيث قامت المظاهرات العنيفة التي تنادي ببقاء هذا الرباط الروحي بين المسلمين، لكن دون جدوى. حاول "حسين بن علي" حاكم الحجاز تنصيب نفسه خليفة للمسلمين، لكن الإنجليز حبسوه في قبرص، كما عمل الإنجليز على فض مؤتمر الخلافة بالقاهرة، وإلغاء جمعية الخلافة بالهند .. وهكذا نجحت أحقاد الغرب في إلغاء الخلافة الإسلامية التي لم تنقطع منذ وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم).

فصل -[ذكر سايكس، بيكو وتقسيم بلاد المسلمين ١٩١٦]

"تمت معاهدة سايكس بيكو في بطرسبرج بروسيا بين إنجلترا وفرنسا، مثل فيها إنجلترا مارك سايكس المندوب الثاني لشئون الشرق الأدنى، ومثل فيها فرنسا جورج بيكو قنصل فرنسا السابق في بيروت، واتفق الطرفان على تقسيم أملاك الخلافة العثمانية بينهما بعد أن يتم النصر عليها. فاتفقوا على أن تفرض إنجلترا حمايتها واحتلالها على العراق والأردن، وتفرض فرنسا حمايتها واحتلالها على سوريا ولبنان، بينما تصبح لفلسطين إدارة دولية باستشارة روسيا. وهكذا قسم الإنجليز والفرنسيون البلاد التي وعدت إنجلترا بإعطائها الشريف حسين. كانت معاهدة سايكس بيكو سرية غير معلنة، لكن روسيا سربت أخبارها، ولما وصلت الأخبار إلى الشريف حسين انزعج بشدة، وتحدث مع الإنجليز فقالوا له بمنتهى الثقة: لن يحدث شيء من هذا، ونحن على وعدنا معك، فما كان منه إلا أن اطمأن واستراح، إذ كيف يمكن أن يتخيل أن تخونه الدولة الصديقة إنجلترا. فصل - ما بعد التقسيم "وعندما قسموا بلاد الإسلام جعلوا الحدود بين كل دويلتين متجاورتين على منطقة حيادية؛ لتكون بؤرة للخلاف وسببا للحرب في كل وقت، فما من بلدين إسلاميين إلا وبينهما منطقة محايدة يمكن أن يثار فيها الخلاف وتقوم فيها الحرب، وتعرفون أن منطقة الصحراء الغربية تركت بين موريتانيا والمغرب والجزائر من أجل إقامة حرب فيها متى تيسر ذلك ومتى أراد المستعمر ذلك، وكذلك منطقة صغيرة بين تونس والجزائر، ومنطقة أخرى بين ليبيا والجزائر، ومنطقة بين موريتانيا ومالي، ومنطقة على شاطئ النهر كذلك بين موريتانيا والسنغال، ومثل هذا منطقة بين تشاد وليبيا وقامت فيها حرب ضروس، وكذلك منطقة بين مصر وليبيا، وكذلك الحال في الحدود بين السعودية واليمن، وبين السعودية وقطر والإمارات والكويت، والعراق أيضا، ومثل هذا منطقة الرميلة بين الكويت والعراق التي قامت على أساسها الحرب. وهكذا الحدود بين كل بلدين إسلاميين، تجدون أنها قابلة للانفجار في كل وقت، فمنطقة أنطاكية بين تركيا وسوريا ومنابع الأنهار، ومنطقة حلايب بين مصر والسودان، ومنطقة جنوب السودان وغير ذلك من المناطق، ما من منطقة بين دولتين إسلاميتين متجاورتين إلا وقد جعل فيها المستعمر منطقة لم يحسمها بالحدود؛ لتكون قابلة للانفجار في أي وقت أراد أن يحركها، وما يحدث في وقتنا الحالي من فتن وحروب بين المسلمين لأجل الحدود المصطنعة من قبل سايكس وبيكو والغرب ، والله المستعان.

فصل - [ذكر وعد بلفور والإحتلال الصهيوني لبيت المقدس "١٩١٧"]

"وعد بلفور اتفاقية مشؤومة مع اليهود، تناقض ما أبرمه الإنكليز مع الشريف حسين في مراسلات مكماهون، والوعود بإقامة خلافة عربية إسلامية مقابل إعلان الثورة على الدولة العثمانية، ولقد أثار اشتراك الإمبراطورية العثمانية في الحرب الأطماع الصهيونية وكان على رأس زعمائهم في إنكلترا حاييم وايزمان الذي كتب إلى زعماء الصهيونية في أمريكا طالبا دعم الرئيس الأمريكي ويلسون الذي وصل للرئاسة بفضل تمويل اليهود فهو تابع لهم، وأما في بريطانيا فكان اليهود قد أطاحوا بحكومة رئيس الوزراء سكويت المعروف بعدائه لليهود ومولوا حكومة ائتلافية فيها لويد جورج المحامي عن الحركة الصهيونية ووينستون تشرشل المؤازر للصهيونية ثم أعلنت بريطانيا إرسال وزير خارجيتها بلفور إلى الولايات المتحدة للاتصال بممثلي المصارف الأمريكية (غالبهم إن لم يكن كلهم من اليهود) وإبلاغهم رسميا بأن الحكومة البريطانية ستتبنى رسميا مشاريعهم المتعلقة بالصهيونية مقابل تعهدهم بإدخال أمريكا إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية، ثم دخلت أمريكا الحرب وكانت أول كتائبها وصلت إلى فرنسا في حزيران ١٩١٧م وتكفلت بريطانيا بإعادة تأسيس فلسطين كوطن قومي لليهود وكأن أرض فلسطين ملك آبائهم، وكان وعد بلفور قد صدر في تشرين الثاني ١٩١٧م وفيه أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى، وقد تمسكت الحكومات البريطانية المتعاقبة بهذا التصريح الذي أصبح عن طريق الانتداب إلزاما دوليا، وكان من غايات بريطانيا لهذا هو حماية مصالحها في السويس، فكان هذا أول الغدر الظاهر وليس أوله بالكلية وأبدى العرب والقوميون الذين كانوا مخدوعين بالوعود الإنكليزية استياءهم ولكن لات حين مناص. فصل - ثم الإعلان عن قيام دولة الكيان الصهيوني. وفيما يلي نص إعلان الكيان نفسه، ونحن نذكره هنا لأغراض المعرفة بالعقل الصهيوني ومبادئه في تأسيس دولته .. بصرف النظر عما يعتريه من تشويه متعسف للتاريخ والجغرافيا. ((أرض إسرائيل هي مهد الشعب اليهودي، هنا تكونت شخصيته الروحية والدينية والسياسية، وهنا أقام دولة للمرة الأولى، وخلق قيما حضارية ذات مغزى قومي وإنساني جامع، وفيها أعطى للعالم كتاب الكتب الخالد. بعد أن نفي عنوة من بلاده حافظ الشعب على إيمانه بها طيلة مدة شتاته ولم

يكف عن الصلاة أو يفقد الأمل بعودته إليها واستعادة حريته السياسية فيها. سعى اليهود جيلا تلو جيل مدفوعين بهذه العلاقة التاريخية والتقليدية إلى إعادة ترسيخ أقدامهم في وطنهم القديم. وعادت جماهير منهم خلال عقود السنوات الأخيرة. جاءوا إليها روادا ومدافعين فجعلوا الصحارى تتفتح وأحيوا اللغة العبرية وبنوا المدن والقرى وأوجدوا مجتمعا ناميا يسيطر على اقتصاده الخاص وثقافته، مجتمع يحب السلام لكنه يعرف كيف يدافع عن نفسه وقد جلب نعمة التقدم إلى جميع سكان البلاد وهو يطمح إلى تأسيس أمة مستقلة". انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في سنة ٥٦٥٧ عبرية (١٨٩٧ ميلادية) بدعوة من تيودور هرتزل الأب الروحي للدولة اليهودية وأعلن المؤتمر حق الشعب اليهودي في تحقيق بعثه القومي في بلاده الخاصة به. واعترف وعد بلفور الصادر في ٢ نوفمبر ١٩١٧ بهذا الحق وأكده من جديد صك الانتداب المقرر في عصبة الأمم وهي التي منحت بصورة خاصة موافقتها العالمية على الصلة التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل واعترافها بحق الشعب اليهودي في إعادة بناء وطنه القومي.

فصل - ذكر أشراط الساعة الصغرى

"ونعني بها العلامات التي وقعت وانقضت ولن يتكرر وقوعها والتي لم تقع بعد. وهي كثيرة وسنذكر بعضا منها:

[١ - بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-]

أخبر -صلى الله عليه وسلم- أن بعثته دليل على قرب قيام الساعة وأنه نبي الساعة، عن سهل -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «بعثت انا والساعة كهاتين» ويشير بإصبعيه فيمدهما (٢)، وفي رواية لمسلم: «وضم السبابة والوسطى» (٣). فأول أشراط الساعة بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو النبي الأخير فلا يليه نبي آخر، وإنما تليه القيامة كما يلي السبابة الوسطى، وليس بينهم إصبع أخرى أو يفصل إحداهما الأخرى (٤).

[٢ - موت النبي -صلى الله عليه وسلم-]

من أشراط الساعة موت النبي -صلى الله عليه وسلم- ففي الحديث عن عوف بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «اعدد ستا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا» (٥).

[٣ - فتح بيت المقدس]

من أشراط الساعة فتح بيت المقدس، ففي الحديث عن عوف بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «اعدد ستا بين يدي الساعة: ... -فذكر منها- فتح بيت المقدس» (٦). وفي عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- تم فتح بيت المقدس سنة ست عشرة من الهجرة كما ذهب إلى ذلك أئمة السير، فقد ذهب عمر رضي الله بنفسه وصالح أهلها وفتحها وطهرها من اليهود والنصارى، وبنى بها مسجدا في قبلة بيت المقدس (٧).

٤ - طاعون عمواس (٨):

[66]"جاء في حديث عوف بن مالك السابق قوله -صلى الله عليه وسلم-: «اعدد ستا بين يدي الساعة: ... -فذكر منها- ثم موتان (١) يأخذ فيك كقعاص (٢) الغنم» (٣). قال ابن حجر: (يقال إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر وكان ذلك بعد فتح المقدس) (٤).

---

66 "(١) انظر: أشراط الساعة، ص ٧٩ - ٢٣٥، واليوم الآخر - القيامة الصغرى، ص ١٣٥ - ٢٠٤.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «بعثت أنا والساعة كهاتين» (١١/ ٣٤٧ - مع الفتح).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (١٨/ ٨٩ - ٩٠ - مع شرح النووي).
(٤) انظر التذكرة (٧١١)، وفتح الباري (١١/ ٣٤٩). (٥) صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٦/ ٢٧٧ - مع الفتح). (٦) المصدر السابق. (٧) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (٧/ ٥٥ - ٥٧)، مكتبة المعارف، بيروت.
(٨) عمواس: بفتح العين والميم قرية بين أميال من الرملة وبيت المقدس، نسب الطاعون إليها لكونه بدأ فيها، انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١/ ١٠٧)."

[٥ - استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبله منه صدقة، ويدعى إليه الرجل فيقول لا أرب لي فيه» (٥). فقد تحقق كثير مما أخبرنا به الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- فكثر المال في عهد الصحابة -رضي الله عنهم- بسبب ما وقع من الفتوح، واقتسموا أموال الفرس والروم، وفاض المال في عهد عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله-، فكان الرجل يعرض المال للصدقة فلا يجد من يقبله.

وسيكثر المال في آخر الزمان حتى يعرض الرجل ماله فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه، وهذا -والله اعلم - إشارة إلى ما سيقع في زمن المهدي وعيسى -عليه السلام- (٦) من كثرة الأموال وإخراج الأرض لبركتها وكنوزها.

[٦ - ظهور الفتن]

وقد أخبر -صلى الله عليه وسلم- أن من أشراط الساعة ظهور الفتن العظيمة التي يلتبس فيها الحق بالباطل، فتزلزل الإيمان حتى يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، كلما ظهرت فتنة قال المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف ويظهر غيرها فيقول: هذه هذه. ولا تزال الفتن تظهر إلى أن تقوم الساعة، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا» (٧).[67]

[67] "(١) موتان: بضم الميم وسكون الواو هو الموت الكثير الوقوع، انظر فتح الباري (٦/ ٢٧٨).

(٢) قعاص بضم العين المهملة وتخفيف القاف، داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجاءة، انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/ ٧٨)، ط. الأولى، تعليق: صلاح عويطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ، وفتح الباري (٦/ ٢٧٨). (٣) سبق تخريجه ص ٢١.

(٤) فتح الباري (٦/ ٢٧٨). (٥) صحيح البخاري، كتاب الفتن (١٣/ ٨١ - ٨٢ - مع الفتح)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة (٧/ ٩٧ - مع شرح النووي).

(٦) انظر: فتح الباري (٨٧ - ٨٨). (٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل أن تظهر الفتن (٢/ ١٣٣ - مع شرح النووي)."

" - ظهور مدعي النبوة:

ومن العلامات التي ظهرت، خروج الكذابين الذين يدعون النبوة، وهم قريب من ثلاثين كذابا، وقد خرج بعضهم في الزمن النبوي وفي عهد الصحابة ولا يزالون يظهرون.وليس التحديد في الأحاديث مرادا به كل من ادعى النبوة مطلقا فإنهم كثير لا يحصون وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة وكثر أتباعه واشتهر بين الناس (١). في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله» (٢).

[٨ - انتشار الأمن]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق» (٣). وهذا وقع في زمن الصحابة -رضي الله عنهما- وذلك حينما عم الإسلام والعدل البلاد التي فتحها المسلمون. وسيكون ذلك في زمن المهدي وعيسى -عليه السلام- حينما يعم العدل مكان الجور والظلم.

[٩ - ظهور نار الحجاز]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى (٤)» (٥).قال النووي (٦) رحمه الله: (وقد خرجت في زماننا سنة أربع وخمسين وست مئة وكانت نارا عظيمة من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة، أفاض العلماء ممن عاصر ظهورها ومن بعدهم في وصفها، وهذه النار ليست هي النار التي تخرج في آخر الزمان تحشر الناس إلى محشرهم) (٧).

[١٠ - قتال الترك]

روى مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك "قوما وجوههم كالمجان (١) المطرقة (٢) يلبسون الشعر ويمشون

في الشعر» (٣). وقد وقع الأمر كما، أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد قاتل المسلمون الترك أكثر من مرة. فقد قاتل المسلمون الترك من عصر الصحابة -رضي الله عنهم-، وذلك في أول خلافة بني أمية في عهد معاوية -رضي الله عنه-. ويقول النووي رحمه الله في التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي: (وقد وجدوا في زماننا -أي الترك- الذين تحدث عنهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- هكذا .... جميع صفاتهم التي ذكرها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة، ينتعلون الشعر، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا، وقاتلهم المسلمون مرات، وقتالهم الآن، ونسأل الله الكريم إحسان العاقبة للمسلمين في أمرهم، وأمر غيرهم، وسائر أحوالهم، وإدامة اللطف بهم والحماية وصلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي) (٤).

١١ - قتال العجم (٥):

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا (٦) أو كرمان (٧) من الأعاجم، حمر الوجوه فطس الأنوف صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة نعالهم الشعر (٨)».

[١٢ - ضياع الأمانة]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة» (٩).

[١٣ - قبض العلم وظهور الجهل]

ومن أشراطها قبض العلم وفشو الجهل، في الصحيحين عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -"[68]

[68] "(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٦١٧).

"صلى الله عليه وسلم-: «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا» .وقبض العلم يكون بقبض العلماء، عن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا؟ فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» .

١٤ - كثرة الشرط وأعوان الظلمة:

عن أبي أمامة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يكون في هذه الأمة في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر يغدون في سخط الله ويروحون في غضبه» . وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ... » .

[١٥ - انتشار الزنا]

ومن العلامات التي ظهرت فشو الزنا وكثرته بين الناس فقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن ذلك من أشراط الساعة. ففي الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن من أشراط الساعة ... - فذكر منها- ويظهر الزنا» .

---

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة (٦ - ٦١٦ مع الفتح)، وصحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة (١٨/ ٤٥ - ٤٦ - مع شرح النووي). (٣) قال الهيثمي: رواه أحمد، رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (٧/ ٦٣٩)، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ. وقال محققوا المسند: إسناده صحيح (١٤/ ٤٢٧ رقم: ٨٨٣٣). (٤) بصري بضم الباء آخرها ألف مقصورة: مدينة معروفة بالشام، ويقال لها حوران وبينها وبين دمشق ثلاث مراحل. انظر: شرح النووي لمسلم (١٨/ ٣٠). (٥) صحيح البخاري كتاب الفتن باب خروج النار (١٣/ ١٨ - مع الفتح)، وصحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة (١٨/ ٣٠ - مع شرح النووي). (٦) هو أبو زكريا يحيي بن شرف بن حسن بن حسين الحزامي النووي، أحد أعلام الشافعية، من مؤلفاته: المجموع شرح المهذب، شرح صحيح مسلم، رياض الصالحين، توفي سنة ٦٧٦. انظر: تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٧٠، وطبقات الشافعية الكبرى: ٨/ ٣٩٥. (٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٢٨).

[١٦ - انتشار الربا]

ومنها ظهور الربا وانتشاره بين الناس وعدم المبالاة بأكل الحرام ففي الحديث عن ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «بين يدي الساعة يظهر الربا».

[١٧ - ظهور المعازف واستحلالها]

عن سهل بن سعد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ». قيل ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر».

[١٨ - كثرة شرب الخمر واستحلالها]

روى مسلم عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «من أشراط الساعة ... -وذكر منها- ويشرب الخمر». ومنها ما رواه ابن ماجه عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يشرب ناس من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه»

[١٩ - زخرفة المساجد والتباهي بها]

عن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد» (١٠).

[٢٠ - التطاول في البنيان]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان» (١١).

٢١ - ولادة الأمة ربتها:

جاء في حديث جبريل الطويل قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها (١٢)». وفي رواية لمسلم: «إذا ولدت الأمة ربها» (١٣).

[٢٢ - كثرة القتل]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا وما الهرج يا رسول الله؟ قال القتل القتل .. » (١٤).

[٢٣ - تقارب الزمان]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقوم الساعة .... حتى يتقارب الزمان» (١٥)."

69

---

69 "(١) المجان: جمع مجن وهو الترس، والميم زائدة، لأنه من الجنة وهي السترة. انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٥٦).

(٢) المجان المطرقة: هي التي عليت بطارق وهي الجلد الذي يخشاه، ومنه طارق النعل: إذا اصيرها طاقا فوق طاقي وركب بعضها فوق بعض، فشبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس قد ألبست الأطرقة. انظر: نهاية غريب الحديث (٣/ ١١١)، شرح النووي لصحيح مسلم (١٨/ ٣٦ - ٣٧).

(٣) (صحيح مسلم) كتاب الفتن وأشراط الساعة، (١٨/ ٣٧ - مع شرح النووي).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١٨/ ٣٧ - ٣٨).

(٥) العجم: خلاف العرب مفردة عجمي كعربي جمعه عرب. انظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٢٨٢٥)، تحقيق: عبدالله علي الكبير، دار المعارف.

(٦) خوز: بضم الخاء وسكون الواو بعدها زاي، بلاد من الأهواز وهي من عرق العجم، وقيل الخوز صنف من الأعاجم. انظر: فتح الباري (٦/ ٦٠٧).

(٧) كرمان بالفتح ثم السكون وآخره نون وربما كسرت الكاف والفتح أشهر بلدة مشهورة من بلاد العجم بين خراسان وبحر الهند. انظر: فتح الباري (٦/ ٦٠٧).

(٨) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة (٦/ ٦٠٤ - مع الفتح).

(٩) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة (١١/ ٣٣٣ - مع الفتح)."

"[٢٤ - تقارب الأسواق]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الكذب وتتقارب الأسواق» (١).

[٢٥ - ظهور الشرك في هذه الأمة]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة» (٢)، وذو الخلصة: طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية.

[٢٦ - ظهور الفحش وقطيعة الرحم وسوء الجوار]

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة» (٣).

[٢٧ - تشبب المشيخة]

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة» (٤).

[٢٨ - كثرة الشح]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح» (٥).

[٢٩ - كثرة التجارة]

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشوا التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة» (٦).

[٣٠ - كثرة الزلازل]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقوم الساعة ... حتى تكثر الزلازل .. » (٧).

[٣١ - ظهور الخسف والمسخ والقذف]

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف» "قالت: قلت يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا ظهر الخبث» (١).

[٣٢ - ذهاب الصالحين]

عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ شريطته (٢) من أهل الأرض فيبقى عجاج (٣) لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا» (٤).

[٣٣ - ارتفاع الأسافل]

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إنها ستأتي على الناس سنون خداعة يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة (٥)، قيل وما الرويبضة؟ قال السفيه يتكلم في أمر العامة» (٦).

[٣٤ - أن تكون التحية للمعرفة]

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن من أشراط الساعة أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة» (٧).

[٣٥ - التماس العلم عند الأصاغر]

عن أبي أمية الجمحي -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن من أشراط الساعة ثلاثا: إحداهن أن يلتمس العلم عند الأصاغر ... » (٨).

[٣٦ - ظهور الكاسيات العاريات]

عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج (٩) كأشباه الرحال (١٠) ينزلون على أبواب المساجد نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهم كأسنمة "البخت العجاف (١)؛ العنوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم» (٢).

[٣٧ - صدق رؤيا المؤمن]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة» هذا لفظ مسلم (٣).

[٣٨ - كثرة الكتّابة وانتشارها]

جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن بين يدي الساعة ... ظهور القلم (٤)» والمراد بظهور القلم - والله أعلم - ظهور الكتّابة (٥) وانتشارها.

[٣٩ - التهاون بالسنن التي رغب فيها الإسلام]

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: «إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل بالمسجد لا يصلى فيه ركعتين» (٦).

[٤٠ - انتفاخ الأهلة]

عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة» (٧).

[٤١ - كثرة الكذب وعدم التثبت في نقل الأخبار]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «سيكون في أخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم» (٨).

"[٤٢ - كثرة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق]

جاء في حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قوله -صلى الله عليه وسلم-: «إن بين يدي الساعة ... شهادة الزور وكتمان شهادة الحق .. » (١).

٤٣ - كثرة النساء وقلة الرجال:

عن أنس -رضي الله عنه- قال لأحدثكم حديثا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» (٢).

[٤٤ - كثرة موت الفجاءة]

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- يرفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن من أمارات الساعة ... يظهر موت الفجأة» (٣)."

"[٤٥ - وقوع التناكر بين الناس]

عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الساعة! فقال: «علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ولكن أخبركم بمشارطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجا»، قالوا يا رسول الله! الفتنة قد عرفناها فالهرج ما هو؟ قال: «بلسان الحبشة: القتل، ويلقي بين الناس التناكر فلا يكاد أحد أن يعرف أحدا» (١).

٤٦ - عود أرض العرب مروجا وأنهارا:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا (٢) وأنهارا» (٣).

[٤٧ - كثرة المطر وقلة النبات]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطرا لا تكن (٤) منه بيوت المدر ولا تكن منه إلا بيوت الشعر» (٥).

٤٨ - حسر الفرات (٦) عن جبل من ذهب:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم، لعلي أكون أنا الذي أنجو» (٧)".

"[٤٩ - كلام السباع والجمادات للإنس]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: جاء ذئب إلى راعي الغنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه قال فصعد الذئب على تل فأقعي (١) واستذفر (٢)، فقال عمدت إلى رزق رزقنيه الله عز وجل انتزعته مني، فقال الرجل: تالله إن رأيت كاليوم ذئبا يتكلم! قال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم - وكان الرجل يهوديا - فجاء الرجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وخبره فصدقه النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم قال النبي -صلى

الله عليه وسلم-: «إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده» (٣).

[٥٠ - تمني الموت من شدة البلاء]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه» (٤).

[٥١ - كثرة الروم وقتالهم المسلمين]

قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-» (٥). وجاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «اعدد ستا بين يدي الساعة ... - فذكر منها - ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية (٦) تحت كل غاية اثنا عشر ألفا (٧)».

"[٥٢ - فتح القسطنطينية]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ » قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها»، قال ثور (١) - أحد رواة الحديث - لا أعلمة إلا قال الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء فيرجعون» (٢).

[٥٣ - خروج القحطاني]

روى الشيخان عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاة» (٣).

[٥٤ - قتال اليهود]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبدالله: هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد (٤) فإنه من شجر اليهود» (٥).

[٥٥ - نفي المدينة لشرارها ثم خرابها آخر الزمان]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد» (٦)".

"وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «تتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي - يريد عوافي السباع والطير - وآخر من يحشر راعيان من مزينة يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشا حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما» (١).

[٥٦ - بعث الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين]

جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل في قصة الدجال ونزول عيسى -عليه السلام- وخروج يأجوج ومأجوج: «إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت أباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة» (٢).

[٥٧ - استحلال البيت الحرام وهدم الكعبة]

روى الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن سمعان قال سمعت أبا هريرة يخبر أبا قتادة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يبايع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا يسأل عن ملكة العرب، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا، وهم الذين يستخرجون كنزه» (٣).

فصل - ظهور المهدي " محمد بن عبدالله"

"قبل ذكر هذه العلامات العشر الكبرى تحدث عن المهدي لأن ظهوره يكون سابقا لهذه العلامات، فهو الذي يجتمع عليه المؤمنون لقتال الدجال ثم ينزل عيسى -عليه السلام- ويصلي خلفه. في آخر الزمان يخرج رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما، وتنعم الأمة في عهده نعمة عظيمة، تخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويعطى المال بغير عدد. وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واسم أبيه كاسم أبي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبدالله وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم من ولد الحسن بن علي -رضي الله عنهم- وصفته الواردة أنه أجلى الجبهة (٢) أقنى (٣) الأنف (٤).

[مكان خروجه]

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق فقد جاء في الحديث عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد

منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم، ثم ذكر شيئا لا أحفظه-، فقال: فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي» (٥). قال ابن كثير (إن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق ويبايع له عند البيت كما دل على ذلك بعض الأحاديث) (٦). عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعا أو ثمانية -يعني حجة-» (٧).

فصل - [ذكر أشراط الساعة الكبرى]

"هناك علامات كبرى تدل على قرب قيام الساعة، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها، في صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- علينا ونحن نتذاكر. فقال ما تذاكرون؟ قالوا نذكر الساعة قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم -صلى الله عليه وسلم-، ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وأخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» (٢). والآيات الكبرى متتابعة في وقوعها، لا يكاد يفصل بينها فاصل زمني، وهي تشبه في تتابعها إذا وقعت العقد إذا انقطع سلكه الذي ينتظم حباته، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «الأمارات خرزات منظومات في سلك فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضا» (٣). وقد أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن وقوع الحرب الكبرى بين المسلمين والروم التي سماها الملحمة ستكون أولا، ثم تفتح القسطنطينية، ثم يخرج الدجال، روى معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال» (٤).

وبعد خروج الدجال ينزل عيسى -عليه السلام- ويقتل الدجال ثم يخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى -عليه السلام- ويهلكهم الله في زمنه والترتيب إلى هنا واضح. أما بقية الآيات فإن ترتيبها ليس واضحا تماما، نعم خروج الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض وخروج النار التي تحشر الناس تكون بعد خروج الدجال ونزول عيسى -عليه السلام- وخروج يأجوج ومأجوج، ولكن أيها يسبق الآخر، أعني طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وحشر النار للناس. إن الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة صريح في أن خروج النار التي تحشر الناس من اليمن هي آخر الآيات فقد ذكر الرسول -صلى الله عليه وسلم- الآيات العشر الكبرى وقال في الآية العاشرة وهي النار: «وآخر ذلك نار تخرج من أرض اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» (٥). "وتبقى ست آيات طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والدخان والخسوف الثلاثة.

أما طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة فتكونان بعد نزول عيسى -عليه السلام- وقتله الدجال وإهلاك يأجوج ومأجوج في عهده وبعد فساد الناس ودروس الإسلام وقبل خروج النار التي تحشر الناس، ولكن أيهما أسبق خروج الشمس أم خروج الدابة؟ ذلك ما لا يمكن الجزم به بسبب عدم جزم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بذلك، ففي حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس من ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا» (١).

ولا يجوز الاستدلال بهذا الحديث على أن طلوع الشمس من مغربها يكون قبل خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج لقوله: «أول الآيات خروجا طلوع الشمس» .. الحديث.

(فالذي يترجح من الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض وينتهي ذلك بموت عيسى -عليه السلام-، وأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير العالم العلوي وينتهي ذلك بقيام الساعة ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من مغربها) (٢). والله أعلم.

و الذي يظهر أن طلوع الشمس من مغربها يسبق خروج الدابة ثم تخرج الدابة في ذلك اليوم أو الذي يقرب منه. أما بقية الآيات وهي الخسوف الثلاثة والدخان - فلا ندري ما ترتيبها في الآيات العظام، فلم نر من النصوص الصحيحة ما يحدد ذلك والله أعلم بحقيقته (٣).

أشراط الساعة الكبرى:

[١ - المسيح الدجال]

فتنة الدجال تقع في آخر الزمان وهي إحدى أشراط الساعة الكبرى، وفتنته من أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها. من أجل ذلك فإن جميع الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته، ولكن رسولنا -صلى الله عليه وسلم- كان أكثر تحذيرا لأمته منه. ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-، قال: قام رسول الله صلى الله عليه في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي قبلي إلا وقد أنذر قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه، إنه أعور وإن الله ليس بأعور ... » (٤). وسمي الدجال مسيحا لأن عينه الواحدة ممسوحة، والمسيح: هو الذي لا يبقى على أحد شقي وجهه عين "ولا حاجب إلا استوى، وقيل لأنه يمسح الأرض، أما عيسى بن مريم فسمي به؛ لأنه لا يمسح بيده ذا عاهة إلا بري - بإذن الله - وقيل غير ذلك) (١). وقد جاء في الحديث: «إن الدجال ممسوح العين» (٢). وسمي دجالا (لأنه يغطي الحق بباطله، ويقال: دجل البعير بالقطران إذا غطاه، والإناء بالذهب إذا طلاه ... وقال ابن دريد: سمي الدجال، لأنه يغطي الحق بالكذب، وقيل لضربه نواحي الأرض، ... وقيل: بل قيل ذلك، لأنه يغطي الأرض) (٣).

[صفة الدجال]

الدجال رجل من بني آدم، له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث، لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره، حتى إذا خرج، عرفه المؤمنون فلا يفتنون به، بل يكونون على علم بصفاته التي أخبر بها الصادق -صلى الله عليه وسلم- وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس، فلا يغتر به إلا الجاهل الذي سبقت عليه الشقوة، نسأل الله العافية. عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- قال: «بينا أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر ينطف - أو يهراق - رأسه ماء، قلت من هذا؟ قالوا: ابن مريم، ثم ذهبت التفت، فإذا رجل جسيم، أحمر، جعد الرأس، أعور العين، كأن عينه عنبة طافية، قالوا: هذا الدجال أقرب الناس به شبها ابن قطن» رجل من بني خزاعة (٤). وعن أنس رضي الله عنه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر» (٥).
ويخرج الدجال من المشرق من بلاد فارسية يقال لها: خراسان، عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أن الدجال يخرج من أرض بالشرق، يقال لها: خراسان، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة» (٦). وقد سأل الصحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن المدة التي يمكثها الدجال في الأرض، فقالوا: وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا يا رسول الله: فذاك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» (٧) "وقد حمى الله مكة والمدينة من الدجال، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق» (١). وأكثر أتباع الدجال اليهود والنساء، عن عثمان بن أبي العاص -رضي الله عنه-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «أكثر أتباع الدجال اليهود والنساء» (٢)

"[٢ - نزول عيسى -عليه السلام-]
صفته -عليه السلام- جاءت بها الروايات منها ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ليلة أسري بي لقيت موسى ... فنعته إلى أن قال: ولقيت عيسى ... فنعته فقال: ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعني: الحمام -» (٥)." "[صفة نزوله -عليه السلام-] بعد خروج الدجال وإفساده في الأرض، يبعث الله عيسى -عليه السلام- فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام، وعليه مهرودتان (١)، واضعا كفية على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه. ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التي تقاتل على

الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدجال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير تلك الطائفة. ففي حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدجال ثم نزول عيسى -عليه السلام-، قال -صلى الله عليه وسلم-: «إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه -أي: يطلب الدجال- حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة» (٢).

[بم يحكم عيسى -عليه السلام-]

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وأمكم منكم؟ ! ». قال ابن أبي ذئب (٣): تدري ما أمكم منكم؟ قلت: تخبرني؟ قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم -صلى الله عليه وسلم (٤) -. فليس المراد أنه أمهم في الصلاة، بل المراد أنه حكم فيهم كتاب الله تبارك وتعالى، أي أمهم بكتاب الله عز وجل) (٥). وزمن عيسى -عليه السلام- زمن أمن وسلام ورخاء يرسل الله فيه المطر الغزير، وتخرج الأرض ثمرتها وبركتها، ويفيض المال وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد، عن أبي هريرة رضي الله أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: «والله لينزلن عيسى بن مريم حكما عادلا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص (٦) فلا يسعي عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال، فلا يقبله أحد» (٧).

[مدة بقائه بعد نزوله ثم وفاته]

وأما مدة بقاء عيسى -عليه السلام- في الأرض بعد نزوله، فقد جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة. عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما-: «فيبعث الله عيسى بن مريم ... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد وفي قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته» (٨). وفي أبي داود: «فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون» (٩). وكلا هاتين

الروايتين صحيحة، وهذا مشكل، إلا أن تحمل رواية السبع سنين على مدة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافا إلى مكثه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور (١٠) والله أعلم.

[٣ - يأجوج ومأجوج]

وأصل يأجوج ومأجوج من البشر، من ذرية آدم وحواء -عليهما السلام-، والذي يدل على أنهم من ذرية آدم -عليه السلام- ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» قالوا: وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف» (١١).

وقد أخبر الله تبارك وتعالى أن السد الذي أقامه ذو القرنين مانعهم من الخروج {إسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا (٩٧)} [الكهف: ٩٧] وأخبر أن ذلك مستمر إلى آخر الزمان عندما يأتي وعد الله، ويأذن لهم بالخروج، وعند ذلك يدك السد، ويخرجون على الناس {فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا (٩٨)} [الكهف: ٩٨]، وعند ذلك يخرجون أفواجا {وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض} [الكهف: ٩٩] وذلك قرب القيامة والنفخ في الصور {ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا (٩٩)} [الكهف: ٩٩]. وقد أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه فتح من ردم يأجوج ومأجوج في عصره، عن زينب بنت جحش -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دخل عليها يوما فزعا، يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب "فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» - وحلق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها- قالت زينب، فقلت يا رسول الله، أفنهلك، وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث» (١). وخروجهم يقع بعد نزول عيسى -عليه السلام- وهزيمته للدجال، عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه -أي من الدجال - فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت

عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم (٢)، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب (٣) ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر أخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف (٤) في رقابهم، فيصبحون فرسى (٥) كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم (٦) ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل مطرا كأعناق البخت (٧)، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا، لا يكن منه بيت مدر (٨) ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة» (٩)."

"[٤ - الخسوفات الثلاثة]

معنى الخسف: يقال: خسف المكان يخسف خسوفا إذا ذهب في الأرض، وغاب فيها (١).

والخسوفات الثلاثة التي هي من أشراط الساعة جاء ذكرها في الأحاديث ضمن العلامات الكبرى.

عن حذيفة بن أسيد -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ... فذكر منها- وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب» (٢).

[٥ - الدخان]

من الآيات الكبرى التي تقع قبيل الساعة الدخان، قال تعالى: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب أليم (١١)} [سورة الدخان: ١٠ - ١١]. وفي المراد بهذا الدخان؟ وهل وقع؟ أو هو من الآيات المرتقبة؟ قولان للعلماء: الأول: أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشا من الشدة والجوع عندما دعا عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- حين لم يستجيبوا له، فأصبحوا يرون السماء كهيئة الدخان. الثاني: أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجيء بعد، وسيقع قرب قيام الساعة. ومما يدل دلالة كبرى على أن الدخان من العلامات الكبرى ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إنها لن تقوم حتى ترون

قبلها عشر آيات ... - فذكر منها- الدخان» (٣). على أن بعض العلماء ذهب إلى أنهما دخانان، ظهر أحداهما وبقي الأخر، وهو الذي سيقع في آخر الزمان (٤). والله أعلم.

[٦ - طلوع الشمس من مغربها]

من الآيات البينات الدالة على وقوع الساعة طلوع الشمس من مغربها، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» (٥).

[٧ - خروج الدابة]

وهذه الدابة آية من آيات الله تخرج في آخر الزمان، عندما يكثر الشر ويعم الفساد، ويكون الخير قلة في "ذلك الزمان، وهذه الدابة هي التي ذكرها الله في قوله تعالى: {وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون (٨٢)} [النمل: ٨٢]. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» (١).

[٨ - النار التي تحشر الناس]

وهي أخر أشراط الساعة الكبرى، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة. وقد جاءت الروايات بأن خروج هذه النار يكون من اليمن، من قعر عدن، جاء في حديث حذيفة بن أسيد في ذكر أشراط الساعة الكبرى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم» (٢). وعند ظهور هذه النار العظيمة من اليمن تنتشر في الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر، والذين يحشرون على ثلاث طرائق، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم

حيث باتو، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا» (٣). ويحشر الناس إلى الشام في آخر الزمان وهي أرض المحشر، كما جاءت بذلك الأحاديث، منها ما روي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- في ذكر خروج النار، وفيه: قال: يا رسول الله! فماذا تأمرنا؟ قال: «عليكم بالشام» (٤).
وهذا الحشر يكون في الدنيا قبل يوم القيامة، قال العلماء: (وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامة وقبيل النفخ في الصور بدليل قوله -صلى الله عليه وسلم-: «تحشر بقيتهم النار، تبيت معهم وتقيل وتصبح وتمسي») (٥)، والله أعلم."

خاتمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ النبيين، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

انتهيتُ - بفضلِ الله وتيسيره - من نقلٍ وتلخيصٍ وجمع ما ورد في هذا الكتاب، جامعًا فيه ما تفرّق في بطون المصنفات، ومُرتّبًا أحداثَه على وجهٍ يقربه للقارئ، ويكشفُ له تسلسل التاريخ منذ نشأة الخلق الأولى، مرورًا بسِيَر الأنبياء والأمم، وتعاقب الممالك والدول، ووصولًا إلى الزمن الإسلامي وتطور حضارته، ثم ما يتصل بأشراط الساعة وما بعدها. وقد سعيتُ قدر استطاعتي إلى أن يكون هذا العمل مختصرًا في حجمه، واسعًا في فوائده، واضحًا في منهجه، جامعًا بين سهولة العبارة ودقّة المعنى، مع اعتماد النصوص الصحيحة قدر الإمكان، وترك ما لا يثبت أو يشتهر بلا دليل. وإنني - وأنا أضع آخر سطور هذا الكتاب - أعلم أن العلم بحرٌ لا ساحل له، وأن الكمال لله وحده، فما كان فيه من صواب فهو محضُ فضل الله وكرمه، وما كان من خطأ أو نقص فمني ومن تقصيري، وأسأل الله أن يغفره لي. أسألُ اللهَ تعالى أن يجعل هذا العمل نافعًا لطلّاب العلم والباحثين، وأن يكتب له القبول، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح والثبات على الحق حتى نلقاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

واللهُ المستعان، وعليه نتوكل، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم.

المراجع والمصادر

1 -البداية والنهاية

2 - تاريخ الطبري

3 - توضيح المقاصد وتصحيح القواعد

4 - مسند الأمام احمد

5 - شرح العقيدة الطحاوية

6 - أجتماع الجيوش الإسلامية

7 - مجموع الفتاوى

8 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري

9 - سنن ابي داود

10 - سنن الترمذي

11 -الكامل في التاريخ

12 - صحيح مسلم

13 -الصواعق المرسلة

14 - تفسير القران العظيم

15 - معجم البلدان

16 - قصة الحضارة

17 - تفسير الرازي

18 - تفسير الكشاف

19 - الملل والنحل

20 - مدرسة الأنبياء -الترباني

21 - بصائر ذي التمييز

22 - تفسير الألوسي

23 - تفسير القرطبي

24 - فتح القدير

25 - تفسير المنار

26 - سيرة ابن هشام

27 - مختصر السيرة للشيخ محمدبن عبدالوهاب

28 - قصص الأنبياء للثعلبي

29 - قصص الأنبياء لأبن كثير

30 - سنن ابن ماجه

31 - سنن النسائي

32 -التاريخ الإسلامي محمود شاكر

33 - دولة بني العباس

34 - شذرات الذهب

35 - بدائع الزهور

36 - عجائب الآثار في التراجم والأخبار

37 - تاريخ الدولة العثمانية العلية

38 - قلائد العقيان في فضائل آل عثمان

39 - سير اعلام النبلاء

40 - تاريخ دمشق

41 - معجم الصحابة